وزارة الثقافة
الهيئة العامة السورية للكتاب

# عبد الله عبد

# الأعمال الأدبية الكاملة







# الأعمال الأدبية الكاملة

## عبد اللّه عبد





تصميم الغلاف

فراس نعوف

عبد اللّٰه عبد

# الأعمال الأدبية الكاملة

* مات البنفسج
* النجوم
* السيران ولعبة أولاد يعقوب
* العصفور المسافر
* الرأس والجدار



منشورات الهيئة العامة السورية للكتاب

وزارة الثقافة - دمشق ٢٠١١م

الأعمال الأدبية الكاملة / عبد الله عبد .- دمشق: الهيئة العامة السورية للكتاب، ٢٠١١م.- ٦٤٠ ص ؛ ٢٤ سم.

(الأعمال الكاملة؛ ١٨) .

المحتوي: مات البنفسج، النحوم، السيران ولعبة أولاد يعقوب، العصفور المسافر، الرأس والجدار

١- ٨١٣,٠١ ع ب د أ ٢- ٨١٣,٠٠٩٥٦١ ع ب د أ
٣- العنوان ٤- عبد ٥- السلسلة

مكتبة الأسد

الأعمال الكاملة

«١٨»



# مات البنفسج

مجموعة قصصية


الهيئة العامة
السورية للكتاب

# المتشرّد

يبدو لي في كثير من الأحيان أن هذا ما حدث لأحد الرجال، في أحد البلدان الكبيرة المنثورة على قشرة هذا الكوكب.

فذات يوم مطير بارد، لفظ باب أحد الفنادق الحقيرة التي تنتشر في الأحياء البعيدة، رجلاً يرتدي سروالاً أسود قذراً، وسترة رمادية نصل لونها، وانتشرت فيها بقع الزيت، وينتعل حذاء قديماً مرتوقاً.

ووقف الرجل أمام باب الفندق، وقد دسّ يديه في جيبيّ سرواله، وراح من ثمّ يتطلّع بعينيه القلقتين ذات اليمين وذات الشمال. ومرّ في تلك اللحظة عجوز، فاستوقفه الغريب، وتحركت شفتاه فسأل:

- هل...؟

وترك كلمة «هل» معلقة في الهواء هنيهة ثم عاد فسأل من جديد:

- كم الوقت يا سيدي؟..

رنا إليه العجوز برهة بفضول، وأخرج ساعة ذات سلسلة نحاسية صدئة تميل إلى الاصفرار من جيب صغير في صدريته، وقال:

- إنها التاسعة.

وأتى بحركة رشيقة من يده الأخرى بمعنى «انتظر» وأضاف:

- بل إنها التاسعة والربع إذا أردت الوقت بالضبط.. إن ساعتي تقصر عادة خمسة عشرة دقيقة عن ساعات الآخرين، ولكني أراهنك أنها التاسعة والربع الآن.

وسعل وتمخط بأصابعه التي قامت من قبل بالحركة الرشيقة، ثم مسح ذلك في مؤخرة سرواله.

قال الغريب باقتضاب وقد ظهر على وجهه تعبير بالامتعاض والقرف:

- شكراً.

وترك العجوز مزروعاً في مكانه يثرثر. وما إن ابتعد عنه ثلاث أو أربع خطوات حتى سمعه يقذفه بهذه الكلمات «قلة ذوق.. أنا لم أنته من كلامي بعد، حقاً لقد نسي الناس في هذه الأيام جميع الفضائل حتى فضيلة الإصغاء».

كان الغريب يسير ببطء مطرقاً، أشبه بطفل استغرقه التفكير في ذنب. وما لبث أن ردّد بينه وبين نفسه:

- يا له من عجوز ثرثار... إنّ له وجه ضفدع قذر...ها، إنه يتكلم عن الفضائل.

كانت السماء تمطر مطراً خفيفاً ناعماً. وكانت حفر الماء التي خلّفتها أمطار الليلة الفائتة مبعثرة في الطريق، فكان الغريب يتحاشاها بصمت وحذر أخرسين. وكانت يداه المقرورتان لا تزالان في جيبيه، وكان شعره رطباً، وكذلك وجهه، ولحيته النامية. همس الغريب وقد زوى ما بين حاجبيه : «أية مدينة ملعونة هذه! لم ينقطع المطر فيها خلال أيام. وأغلب ظني أنني سألقى حتفي جوعاً قبل أن أحصل على عمل شريف.. يا الله! يخيل إليّ أن البرد قد أكل رؤوسي أصابعي».

ونظر إلى حذائه. كان الماء قد تسرب إليه. وكان نشيش رتيب ورخص يتصاعد منه كلما لامست قدمه الأرض، ثم تنحدر قطرات متلاحقة من جوانب الحذاء، وتطير فقاعة أو فقاعتان، كأنما انفجر بما ضاق به وكان هذا يحدث باستمرار، مما بدا وكأن الغريب يسير في موكب من موسيقا نشاز متساوقة الإيقاع مع كل خطوة. ولم يمكث طويلاً حتى سحب يديه وأخذ ينفخ فيهما. قال بعد أن بعث في يديه بعض الدفء: «لقد طفت الجهة الغربية والشمالية من المدينة، وعليَّ الآن أن أبحث في الجهة الشرقية والجنوبية». وأضاف بعد فترة قصيرة «أية أيام عصيبة!!.. يا إلهي إن جميع المدن متشابهة إلى حد مخيف»..

توقف المطر عن الهطول، واندفعت موجة من الهواء البارد صفعت وجهه بقسوة، فانكمش على نفسه أكثر من ذي قبل، وتكوم ظهره، وغاصت يداه في أعماق جيبيه. وكانت شفتاه زرقاوين تميلان قليلاً إلى السواد وقمة أنفه حمراء لامعة، وعيناه التعبتان تنتقلان أبداً من مكان إلى آخر متفحصتين.

انحدر فجأة ناحية اليمين وخطا في شارع ذي أعمال مختلفة. وكانت هناك في زاوية ما أكوام من جذوع أشجار ضخمة، وأصوات مناشر تقوم بتقطيع الخشب وصقله، تشق الفضاء ثاقبة حادة فتخدش السمع دون رحمة. ولج الغريب باب مصنع الخشب بحذر عظيم، تماماً كما يفعل الهر عند بوابة أحد المطابخ متأنياً متفرساً في كل ما يحيط به. وسار في درب ضيقة بين جبلين من الأشجار المقطوعة. ثم تسلل إلى قاعة فسيحة نظمت فيها المناشر بشكل رائع.

ونفذت إلى أنفه رائحة الخشب القوية، وتطايرت النشارة في كل مكان فاستقرت على العمال وكست كل شيء وأصبح أزيز المناشر الحاد أكثر إزعاجاً.

أجال الغريب عينيه في هذا العالم الصغير الذي يشبه خلية من النحل الآدمي، فميّز رجلاً قصير القامة ممتلئ الجسم يتنقل بين الآلات باستمرار، ثم ينحني على رجاله ويلقي إليهم بملاحظاته وأوامره. قال في نفسه «لا شك أنه المراقب المسؤول»، واقترب منه. صاح متهيباً وبصوت راعش:

- سيدي!

فالتفت إليه الرجل القصير، ورد بلهجة جافة لا أثر فيها للحياة:

- نعم؟

وخيل للغريب أن هذه الـــ «نعم» صدرت عن آلة من تلك الآلات القاطعة. وغاصت عيناه بسحابة رمادية، فأسرع يقول وقد بدأ ينتابه نوع من الخور والخوف الذي يلازم الغريب عادة:

- هل..؟ هل أجد لديك عملاً يا سيدي؟..

- يا إلهي ماذا حل بالعالم؟.. أليس في هذا البلد سوى مصنعي؟ إنك الواحد والعشرين الذين جاؤوا حتى الآن يسألونني عملاً.. كلا ليس لدي أي عمل.

وتدحرج بين الآلات الصاخبة، مستأنفاً أوامره وملاحظاته. لم يجد الغريب عند ذلك بداً من الانسحاب. وخرج من البوابة وأصوات المناشر لا تزال تطن في رأسه. همس مباشرة حين أصبح في الطريق «ليتني أملك سيجارة. إن رأسي فارغ كرأس دمية.. ترى متى دخنت آخر سيجارة؟..» فجاءه صوت من داخله يقول:

- كان ذلك البارحة عند الظهر بالضبط، حينما أنفقت آخر قطعة نقدية كانت لديك من عمل نصف نهار في معمل للبلاط.

ومرّ به رجل استقرت سيجارة في الزاوية اليسرى لشفتيه، يحرفها باستهتار. قال الغريب: «ما أسخفه مدخناً! إنه يبدد دخانها عبثاً. ولكن السعادة تبدو على قسمات وجهه، ولا شك أنه يملك مقداراً محترماً من السجاير» ونفخ صدره، وتنهد وسار بمحاذاة الحائط ككلب خرج من معركة مثخناً بالجراح..

وقف الغريب أمام حانوت حدادة. كان هناك رجلان أحدهما يمسك قطعة حديد حمراء، بملقط طويل العنق، والثاني يطرق عليها. كان الأول نظيف الوجه نسبياً، إذا قورن برفيقه، بينما كان وجه الآخر أشبه بقطعة فحم تحمل سمات إنسان وعلاوة على ذلك، كانت انعكاسات النار التي يزكي أوارها كير يديره رأس صبي نواس، تكسبهما صفة غير آدمية. قال الرجل ذو الوجه الفحمي، وقد توقف لحظة ليأخذ جرعة ماء:

- إيه..؟ ما هي مؤهلاتك أيها الغريب؟ هل تستطيع مثلاً أن تطرق الحديد بقوة؟

فأجاب الغريب وقد لمعت عيناه قليلاً:

- نعم.. نعم أستطيع أن أفعل. فقد عملت حمالاً في المرافئ، وبواباً في الفنادق، وطباخاً وخادماً في المطاعم. قد اشتغلت قاطعاً للحجارة في المقالع

وحفاراً للقبور. رممت السكك، وشاركت في فتح الطرق، وساهمت في الدفاع عن الوطن.

فقال صاحب مصنع الحدادة ساخراً، وقد غمز زميله:

- عظيم، وأقسم أنك إنسان نادر المثال.

وتصنّع التفكير برهة من الزمن، ثم أضاف بخبث:

- عد إليَّ بعد شهر أو شهرين، فقد أجد لك مكاناً شاغراً.

فدار الغريب على نفسه وتابع سيره. ومن بعيد شقت الفضاء سلسلة متلاحقة من الرعد المخنوق، وضرب الهواء في أعقاب الغيوم، فزمجرت كقطيع من النيران هائم.

رفع الغريب يده إلى وجهه، وهرش لحيته الكثيفة، وعطف رأسه قليلاً على كتفه الأيمن ودمدم بحزن: «بعد شهر أو شهرين.. بعد شهر أو شهرين.. أي مستقبل زاهر ينتظرني.. إن معدتي لن تنتظر حتى ذلك الحين. إذن لأجرب من جديد». ومضى يطوي زقاقاً تلو زقاق، وطريقاً بعد طريق، حتى انتهى به المطاف إلى شارع ممتاز فدخل أول مخزن صادفه. قال مباشرة:

- أي سيدي! إن لدي خبرة بجميع أنواع الحساب، ومختلف دفاتر التجار والاضبارات وزيادة على ذلك، فأنا أضرب على الآلة الكاتبة بمهارة فائقة. وإذا لم أجد لديك عملاً من هذا الطراز فيمكنك أن تعتمد علي في كنس المخزن، ونفض الغبار عن أوانيك وسلعك وتحفك النادرة، ثم أنتصب بعد ذلك على باب مخزنك كالتمثال أستقبل الزبائن وأطرد عن واجهاتك البلورية الفخمة المتطفلين والأشقياء.

فرد صاحب المخزن قائلاً بلهجة آلية دون أن يرفع عينيه عن دفتر ضخم كان أمامه:

- آسف لدي الكثير من العمال والموظفين.

قال الغريب وقد أخذ سبيله إلى الخارج:

- يا للشيطان. لقد سُدّت في وجهي السبل، ولكن لا بأس، ينبغي أن أحاول من جديد. إن ذلك لن يضيرني في شيء.

وما إن أقبل المساء، حتى كان قد عرّج على عشرين مطعماً يسأل أصحابها عملاً، وثلاثين فندقاً، وخمسة وأربعين حانوتاً للأحذية، ومئة مكان ذات أعمال مختلفة، لكنه لم ينل أية فائدة. ومع ذلك لم يكن اليأس قد نال منه، غير أنه شعر بصورة مفاجئة بحاجته إلى إنسان ما.

وهكذا استوقف الغريب أول مار به، كما يفعل الغريق عندما يتشبث بأي شيء يصادفه. فسأله:

- كم الساعة أيها الأخ؟..

وتمنى في سرّه أن يقول له الرجل إن ساعتي تشير إلى «كذا» وأن يفاجئه بحركة رشيقة مستدركاً: «ولكنها تقصّر عادة خمس عشرة دقيقة عن ساعات الآخرين»، وأن يسعل ويتمخط ويثرثر ويحكي طويلاً عن أشياء كثيرة. غير أن العابر قطع تأملاته:

- إنها الخامسة.

وهمَّ أن يستأنف سيره. فسارع الغريب يقول وهو يتكلف النظر إلى الجو:

- إن الطقس بارد. ويُخشى حصول أعاصير. أليس كذلك أيها الأخ؟..

أجاب الآخر وهو ينظر إليه بريبة:

- نعم إن الجو بارد تماماً، والريح قوية، ولا يستبعد حدوث إعصار هائل. إن ثيابك رقيقة أيها الغريب ويجب أن تدفئ نفسك أكثر.

ثم تركه ومضى.

- كم الساعة أيها الأخ؟..
- الخامسة وثلاث دقائق.
- أواثق أنت من ذلك؟.
- كل الثقة.
- إن الجو بارد و...
- نعم إنه كذلك.

ورعدت السماء من جديد، وأظلمت الدنيا:

- هل تعرف الوقت يا أخي؟..

- إنها الخامسة والنصف.

فقال الغريب وقد بدأ يخنقه فيض من الدموع:

- أيها المواطن الطيب. إن الـــ . جـــ . و.

ولكن الرجل مضى مسرعاً. وظل المتشرد وحيداً وأحسّ بأنه جائع وتعب وبائس وبردان، ورأسه فارغ كالطبل، وأنه لا شيء في هذا العالم المجنون.

وتلفّت لآخر مرة حوله، ثم انطوى على نفسه وراح يقص عليها قصة حياته.

* * *

# الشريطة الخضراء

كنا في الصف التاسع، وكانت حنة تجلس أمامي مباشرة. كان شعرها غزيراً أسود - كجناح غراب فتي- وخصلاته الحلزونية المربوطة بشريط رفيع من القطيفة الرمادية - أشبه بحزمة نوابض جديدة- وكثيراً ما اغتنمت فرصة انشغال المدرِّسة- لأن ترتيب مقعدي الأخير- ولففت خصلة منه حول إصبعي أو جعلت قلمي ينفذ خلال فراغ نوابضه اللطيفة على سبيل المداعبة، وأنا مطمئن من ناحية حنة.. ولكنها في كل الأماسي ونحن في طريق عودتنا إلى البيت كانت تعاتبني من أجل ذلك لأرد عليها عندئذ متخابثاً ببعض مقاطع كنا قد حفظناها من نشيد الإنشاد:

«شعرك كقطيع معز رابض على جبل جلعاد،

وفمك حلو،

خدك كفلقة رمانة تحت نقابك،

ها أنت جميلة يا حبيبتي، ها أنت جميلة عيناك حمامتان،

كالسوسنة بين الأشواك كذلك حبيبتي بين البنات».

فلا تلبث هي الأخرى أن تردد باسمة وبشيء من الخجل:

«كالتفاح بين شجر الوعر، كذلك حبيبي بين البنين،

تحت ظله اشتهيت أن أجلس وثمرته حلوة لحلقي».

وفي كل مرة ما تكاد تصل إلى المقطعين التاليين حتى يتضرج خداها بلون مزقة سحاب قبيل الشروق في يوم خريفي رائق.

«اسندوني بأقراص الزبيب،

انعشوني بالتفاح،

فإني مريضة حباً،

شماله تحت رأسي،

ويمينه تعانقني».

ولاحظت في الأيام الأخيرة أن حنة قد صارت أكثر شروداً وصمتاً، فحزنت لذلك وأقلعت عن مداعبتي لشعرها. لقد أدركت أن ثمة ما يشغل بالها ويؤلمها. كان يمضي يوم واثنان وثلاثة وهي في حالة نفسية جيدة. ولكن فجأة وعلى غير انتظار كانت الضحكة تذوب رويداً رويداً على فمها ويخيم عليها كآبة قاتمة. لم أستطع أن أحزر.

ماذا يقلق هذا الرأس الصغير ذا النوابض ، لم أستطع معرفة ذلك رغم أني مطلّع تماماً على أحوالها العائلية. ولم أشأ أن أسألها.. إنني أخشى أن أجرح إحساسها بتدخلي - وقد حدث ذلك مرة - وهذا ما لا أستطيع أن أطيقه ثانية.

فوجئ الحي ذات يوم باختفاء (مريم) - وقد حدث هذا قبل سبعة أشهر - فقلت: «أين ذهبت أختك يا حنة؟». وصمتت طويلاً جداً وانقبض وجهها وعضّت على زاوية شفتها العليا وهي تقول: «لماذا تسأل عن ذلك. إنكم جميعاً تعرفون. متى تدعونا وشأننا؟.. يا الله» وفرّت إلى البيت - كأرنب مذعور- وعيناها تسبحان في فيض الدموع. أنا لا أريد أن أعيد التجربة مع حنة.. كانت حنة فيما مضى فتاة مدللة، ولكن بعد أن مات أبوها لم تعد كذلك، ولم ينقطع حبها للجبن الهولندي الأحمر بموته.

كانت تردد لي دائماً وهي تقضم قطعات كبيرة منه: «لقد جلب أبي كرة حمراء أخرى. إنه ابتاعها من أجلي.. إنني أموت إذا لم آكل منه كل يوم».

كان أبوها يعمل سائق شاحنة ضخمة. ويتقاضى أجراً طيباً من أجل ذلك. لقد أراد أن يصطنع مستقبلاً زاهراً لابنته. ومما قاله لامرأته وهو يلفظ أنفاسه بسبب حادث: «يا هيلانة أبقي عزيزتنا حنة في المدرسة. أنا لا أريد أن تصبح جاهلة مثلنا» وبكت هيلانة كثيراً وهي تعد زوجها بتنفيذ وصيته. وهكذا راحت الأرملة والأخت مريم بعد ذلك تجاهدان من أجل الصبية، وهكذا لم تنقطع حنة عن قضم الجبن الأحمر.

طفق أهل الحي يتحدثون بالسوء عن هذه الأسرة ومنعتني أمي من الاحتكاك بها. وكانت تنعتهم دائماً «بالقمامة». وابتدأت أكره سكان الحارة لأنهم يتهامسون عن عائلة حنة بكلمات مخجلة.. أنا لم أشعر في يوم من الأيام أن شيئاً غير عادي يحدث في البيت ذي الغرفتين والمطبخ المنخفض.

وحينما اختفت (مريم) اضطربت ميزانية الأسرة التي أصبحت تتألف من الأم والابنة. وانقطعت الفتاة فترة من الزمن عن التهام الجبن الهولندي وصارت تخجل من صدرية السنة الماضية التي أصبحت أكثر قصراً، ومن حذائها الشاحب الذي انطفأ بريقه. كنت ألمح ذلك في حمرة خديها عندما تنهض أحياناً إلى السبورة. وفي اضطراب حركاتها حين تقف قبالة زملاء وزميلات الصف (لتلقي) درسها. ولكم أخشى أن يأتي يوم تصبح فيه الصدرية غير صالحة للاستعمال. لقد حدث منذ عشرين يوماً أن كنا عائدين إلى البيت، وفجأة ارتطمت رجل رفيقتي بحجر في الطريق فانزلق الحذاء من قدمها وتخلف خطوتين فاضطرت أن ترجع المسافة لتستعيده، ولشد ما دهشت عندما وجدت جوربها لا يحوي على (سافل). آه كان ما أعظم ألمها في تلك اللحظة وما أتعس منظرها، وللحال تظاهرت بعدم ملاحظتي للأمر وظللنا صامتين طوال الطريق.

أنا أتساءل: هل ستمتد بها الشجاعة إلى البيت وتبكي هناك، أم يهن عزمها فلا تستطيع لدموعها كبتاً في الطريق العام. وإني لعلى يقين أنَّ هذا الرأس الصغير الذي يسير بجانبي كان يبحث من خلال ألف فكرة يلفها الضباب عن كلمة مناسبة تحسم الموقف كي تستشف من ورائها هل رأيت ما رأيت؟.. وفي الساعة السادسة ليلاً ذهبت إلى بيت حنة وأنا مشفق من رؤيتها إذ كان لا يزال منظرها البائس عالقاً في ذهني، وكنت قد نسيت معها منذ النهار كتاب الجغرافيا - فرحت أطلبه. لم أجدها هناك فقالت لي أمها: «لقد ذهبت إلى بيت خالتها منذ نصف ساعة ولما ترجع. إن شئت ابحث عن الكتاب في الغرفة الأخرى».

ثم تركتني ومضت إلى المطبخ. وبينما كنت أقلّب الكتب في صندوق كتبها ارتطمت يدي بلغة طرية وحين فتحتها «يا إلهي». كان فيها خمس قطع

من الجبن الأحمر ذات شكل هلالي متشابه، وتزن الواحدة منها مئة غرام تقريباً. فقلت في نفسي: «لعلها قد خبأتها لأيام الضيق. إنها حكيمة كالنمل تعرف كيف تتدبر الأمور». ولم أشك في أن أمها قد جلبتها من بيت من كانت تعمل لديهم طباخة. وقلت مرة أخرى وأنا حزين حتى الموت:

«إنها حملت هذه القطع يوماً بعد يوم وجاهدت في سبيل الحصول عليها ما جاهدت فأية حياة شقية هذه!..» وفي اليوم التالي جاءت حنة إلى المدرسة. كان في قدميها جورب جديد ذو لون بنفسجي.

* * *

وذات أمسية ماطرة، وهي من أحب الأماسي إلى قلبي، انتحيت ركناً غير بعيد عن باب المدرسة وطفقت أرقب مجيء رفيقتي.

كانت الزميلات قد تخلفن من أجل بعض التعليمات استعداداً لحفلة الغد، حيث كان «ر...». سيزور المدرسة. وكان قد مضى عليَّ هناك تحت ممطري سبع دقائق. وحملت ثقل جسمي إلى الرجل اليمنى وما هي إلا لحظات أخرى حتى جاءت حنة مهرولة فرفعت لها الطرف الثاني من الممطر فاندست بجانبي ونقلت محفظتها الجلدية إلى الجانب الآخر كي نسير على نحو أفضل.

إن أنفاسها الدافئة، وهي قريبة مني وبعض خصلات شعرها الثعبانية تمس عنقي، تشعرني بنشوة لا حد لها، ويخيّل إليّ في لحظة من اللحظات أن أجنحة صغيرة لطيفة تنبت على جنبي وهي تسير معي فأستشعر خفة غريبة، وأحس أنني أطير بلطف في عالم من المروج الخضر والسماء الوردية الزاهية والأفق الساجي الملون. قلت وأنا أنظر إلى شامة على صفحة خدها الأيسر:

- لقد تأخرت يا حنه.

فردت في بطء:

- إنها (وجه الشيطان).

ووجه الشيطان هو لقب نطلقه على المدرِّسة (سارة) ، وهي عانس متصابية تحب أن تحدث الأشياء دائماً على الوجه الأكمل.

- أوه هذه الخرِّفة. ماذا لديها من جديد؟

فأجابت متنهدة من خلال كآبتها:

- لا شيء.. إنك تعلم: غداً كنَّ نظيفات، ادهنَّ أحذيتكن، وليكن شعركن مربوطاً بشرائط خضر.. لا تثرثرن في حضرة الزائر، ولتكن جواربكن بيضاء.

- شريطة خضراء وجورب أبيض. يا إلهي. ألا يصح أن تكون زرقاء أو حمراء أو سوداء؟ وما نفع جورب أبيض في يوم ماطر؟..

- كلا لا يصح.. لا يصح.

قالت ذلك بأسف حالم. كانت حنه لا تملك سوى شريطة رمادية وأخرى سوداء تكاد أن تكون بالية. وحدثت نفسي قائلاً وأنا أعرف أن ظروف أمها المالية لا تسمح بشراء شريطة خضراء وجورب أبيض «سوف لا تحضر حفلة الغد لأنها لا تملك شريطة جديدة وجورباً أبيض» ومشينا عشرات الأمتار صامتين والمطر ينقر نقراً خفيفاً ورتيباً فوق رأسينا على الممطر، ومرت سيارة مسرعة تزمر على نحو حاد وكان عن يسارنا دار للسينما. ونظرت من جديد إلى شامتها وذقنها وشريطتها الرمادية وإلى ثعابين شعرها الحالكة. وسألت وأنا ما أزال أنظر في الجانب الأيسر من وجهها:

- هل ستحضرين حفلة الغد؟

وأبطأت نصف خطوة وأدارت رأسها نحوي وبدت لي وقد صارت أكثر حولاً من أي وقت مضى، وأنها انتزعت من شرودها انتزاعاً - حدث في ثانية من الزمن- ثم قالت وهي لما تتخلص بعد تماماً من شرودها:

- لست أدري... قد أحضرها. لكن ليس هذا أكيداً، ليس أكيداً حتماً.

وسرنا بضع خطوات أُخر. فقلت وقد عزمت على أمر ما:

- إذا حضرت حفلة الغد سنتناول غداءنا بعد ذلك عند العمة (أم سمعان) وندخل السينما. سوف أدبر الأمر وأجلب بعض الجبن الأحمر ومربى العنب.

ونظرت إليها مرة أخرى كي أرى وقع كلماتي لديها. كان قد مضى علينا أسبوعان لم نذهب خلالهما إلى بيت العمة، إذ من عادتنا في الأيام الماطرة أن نمضي إلى هناك مصطحبين طعامنا لأن حارتنا تبعد خمسة وعشرين دقيقة عن قلب المدينة. وهكذا كان يصعب علينا العودة أحياناً إلى البيت ظهراً. قالت:

- أحقاً؟ إذن إلى الغد.

ولاحظت أنها ظلت على شرودها وهي تنطق بهذه العبارة المقتضبة، ولم يدفعها إلى قول ذلك إلا مجاملتها لي، فهي تتجنب إغضابي دائماً. قلت في نفسي: «هل أقول لها»؟. ودفعت برجلي حصاة كانت أمامي، فابتعدت ما يقرب من مترين ونصف ثم دارت حول نفسها، وعندما انتهيت إليها ثانية دفعتها من جديد. من المؤكد أن حنه في تلك اللحظة كانت تفكر في الغد، وفي الطريقة التي تمكنها من الحصول على شريطة خضراء وجورب أبيض، وتلعن في سرها المدرسة (سارة). وحدثت نفسي مرة أخرى وأنا أرفع طرف الممطر الذي انحسر قليلاً فوق رأسي: «ليتني واثق لأخبرها». كانت حزينة مثل طفلة مصفوعة ومجردة من لعبتها. إن أي شيء مؤثر في العالم يمكن احتماله إلا منظر صبية محرومة لا تستطيع أن تجاري زميلاتها في ما يفعلن. وهطل المطر أكثر فأكثر، فقالت رفيقتي وقد أخذت شفتاها تغشاهما زرقة: «يستحسن أن نتوقف قليلاً». ولطونا تحت إحدى أشجار الخرنوب المزروعة على جانبي الطريق التي أقفرت من السابلة إلا من عابر جرى بين الفينة والفينة متنقلاً من طوار إلى آخر ركضاً.

كنا في وحدتنا والمطر يتساقط من حولنا مثل عصفورين منبوذين. وظللنا نرقب بصمت حزين حبات المطر وهي تتكسر على الأرض الصلدة، فتتجمع لتشكل سيلاً تافهاً قذراً تسبح على صفحته أوراق الخرنوب المتساقطة، وقشور البرتقال وروث الدواب.

كان المطر قد توقف منذ ساعة، حينما اندفعت إلى مكان ما في الظلام ووقفت حيال بيت حنة تماماً. وطفقت أرسل من بين شفتي صفيراً على نحو خاص.. كان الحي هادئاً والظلمة تخيم عليه إلا من مصباح كهربائي يتربص كعين شاهدة على فم زقاق ضيق يبعد عن ركني ثلاثين متراً، ونوراً آخر ينبعث من حانوت مقابل لبيت جارتي، وكانت المكانس وسلة البيض الحديدية والشموع ورزمات الحبال وربطات القنب وشتى أنواع السلع المعلقة تلقي ظلالاً سوداء على الجدار المقابل، وصفرت مرة أخرى. كنت أحمل في يدي لفة ورق اقتطعتها من صحيفة قديمة وطويتها على شريطة خضراء وجورب أبيض. وكان الجو دافئاً وأرض الحارة المعبدة مؤخراً تلمع قليلاً بتأثير مياه

الأمطار المتخلفة. وعبر صبي حافي القدمين الساحة ركضاً، وارتفع من ورائي صراخ طفل، وصفرت للمرة الثالثة، كان النور مطفأ في البيت ذي الغرفتين والمطبخ المنخفض.

رددت: «عما قليل تخرج حنة وأقتطف من شفتيها قبلة. وستكون فرحة بالشريطة الخضراء، والجورب الأبيض مثل فرخ دجاج يعثر على أول حبة قمح في حياته. وستحضر حفلة الغد ونذهب إلى بيت العمة وندخل السينما». وما كدت أصفر للمرة الرابعة حتى جمدت الصفرة على شفتي. لقد خرجت حنة من دكان الحانوتي، وفي يدها شريطة خضراء وجورب أبيض وشيء آخر لم أميزه. كانت قلقة كمجرم مبتدئ لم يتدرب كفاية. وما كادت تصل إلى عتبة بيتها حتى استوقفها الحانوتي ولحق بها. ووقفت في الضوء وشفتاها حمراوان كثمرتي توت ناضجتين. لم أرها في حياتي أجمل منها في تلك اللحظة. واقترب الرجل ونطق عبارة لم أفهم مضمونها. كان في أذني طنين يشب طنين النحل. واعتصر نهدها الصغير بين أصابعه فنفرت منه بلباقة. وسقط الضوء عليها أكثر ، فبرز شيء في يدها الأخرى «يا الله» إنه قطعة جبن تزن مئة غرام وذات شكل هلالي.. ثم دخلت البيت وعاد الحانوتي وتراقصت الظلال على الجدار المقابل.

وحينما يممت شطر البيت كان شيء كروي فظ يقف في حلقي ويعرقل تنفسي، ويحتجز الدموع عن عيني.. وهبت نسمة غربية دافئة. بعثرت خصلة شعر على جبهتي.

غداً وغداً آخر وكل الأيام التالية.. كيف يمكن تصور هذا؟ فتاة عمرها أربعة عشر عاماً، تجلس أمامي مباشرة، وشعرها مربوط بشريطة خضراء.. وفي كل الأماسي كنت أعود إلى الجهة الشمالية من المدينة مارا ببيت ذي غرفتين ومطبخ منخفض تحت ممطري.. وحدي.

* * *

# عـلـقٌ

ما إن وطأت عائشة عتبة البيت حتى تخلصت من الصرة التي تحملها، ثم شرعت تتخفف من ثياب السوق، فطرحت ملاءتها جانباً ونفخت:

- أف ! يا له من يوم رهيب.

وتبعت عائشة على الأثر امرأة قصيرة في ظهرها انحناء. يميزها شعر رمادي لا يتناسب مع سنها فيظهرها علاوة على ملامحها المتعبة أكبر مما هي في الواقع. سألت:

- أين كنت؟

وأدارت عائشة لسانها في فمها قبل أن ترد:

- في السوق.

- يا ربي كم أرغى وأزبد؟ لقد..

وقطع حديثها فتى أقبل من أقصى الغرفة يقضم قطعة خبز ملفوفة على إدام:

- إنه عجوز خرف.

واكتفت المرأة بالنظر إليه، فرفع كتفيه فعل طفل حرد وازدرد لقمة أخرى:

- لماذا لا يتركها وشأنها؟! إنها لم تعد صغيرة..

- اسكت بحق النبي.. إنه أبوكم على كل حال.

ورنت عائشة إلى أخيها بعينين فيهما امتنان ومحبة. كان أخوها فارع العود، ذهبي البشرة كثمرة مشمش فاخرة، وكان خليقاً بها أن تحبه أكثر لولا تلك الحكايات التي رويت عنه. وأعادت عائشة النظر إليه رجاة أن تجد في مظهره عكس ما يشاع عنه فتفحصت متمهلة:

- ياقته المقلوبة، ذراعيه المحسورتين عالياً، ثم خصره المحصور بنطاق معدني لماع عريض، غير أن بصرها ارتد حاسراً. كان منظره في الواقع لا يبعث على الارتياح.

وتقلقلت الأم في وقفتها، ثم قالت بجرس أرق من ذي قبل، بينما انحدرت عيناها على الصرة:

- أين كنت يا عائشة؟

وخف الفتى يجيب نيابة عن أخته في الوقت الذي كان يفكر في ذات نفسه: «في هذه الصرة ما يخصني»:

- قالت لك إنها كانت في السوق. وفكر ثانية «اليوم نهاية الشهر، أخمن أنها ابتاعت لي قميصاً كما وعدتني». والواقع لم تعده بشيء، وإنما حملها على وعده. كان ذلك منذ يومين حين كلفته قضاء حاجة لها. سألت عائشة:

- أين أخي سلامو؟

وسلامو هو أصيص عائشة المورق، في بيت لا توجد فيه زهور أخرى. فقالت الأم:

- لست أدري. لعله في مكان ما من الدار. ربما يلعب مع أولاد الجيران.

وطوت عائشة جسمها لتخلع ثوبها الخارجي، في حين كانت نظرات أمها تزداد إصراراً على الربطة عسى أن تنفد إلى داخلها وهي تتساءل: «ترى هل جلبته؟». وقذفت عائشة فستانها إلى حبل مثقل بالثياب، مربوط إلى جدارين متجاورين، وقد طافت بخاطرها خزانة ملابس رأتها مرة في سوق السقط وفكرت: «ما ثمنها؟».

واهتز الحبل تحت ثقل الثوب، فطارت ثلاث ذبابات، عادت اثنتان إلى نفس موضعهما وأما الأخرى فحومت قليلاً ثم حطت على الجسم الجديد وراحت ترعى فيه. وسادت فترة صمت قصيرة لم يسمع خلالها سوى تردد أنفاس عائشة وطنين الذباب في جو الغرفة ثم ازدراد الطعام الأخرس.

- ماذا تأكل يا رضوان؟

ولم تنتظر عائشة الجواب بل أردفت فوراً وهي تتحسس خدها ثم عنقها:

- ما هذا الحر؟ إنه لا يطاق.

فكرر الفتى:

- نعم إنه لا يطاق؟ سوف أمتح لك بعض الماء البارد من البئر.

وقالت الأم:

- لقد هيأت لك ماءً ساخناً.. لقد أشعلت الموقد وحضرت لك بعض الماء الساخن. قلت في نفسي «لسوف تأتي عائشة من المصنع تعبة هل أنت تعبة؟».

- ليس كثيراً.

- ليس كثيراً؟ هذا أفضل، ولكنك تأخرت.. لماذا تأخرت؟ هل أنت جوعانة؟

ودست عائشة إصبعها بين أسنانها وعضت عليه مترفقة:

- هل صحيح؟

وقطعت الأم عبارتها، وانتظرت عائشة تكملة السؤال، ولكن مرت تلك اللحظة الحاسمة التي تشعر المرء أن كلمة أخرى لن تضاف مما حدا بعائشة أن تخف لتصل ما انقطع:

- صحيح ماذا؟

- أوه لاشيء ذي بال. هل تغتسلين أم تأكلين؟ أيهما تؤثرين البدء به؟.

فقال الفتى:

- هل أمتح لك بعض الماء البارد من البئر أم تؤثرين الماء الساخن؟

وحدث نفسه: «الخنزيرة تتجاهل.. لو كان في مقدوري. لتذهب إلى الجحيم» ثم استرق النظر إلى داخل، فخجل وسخر وضحك معاً. وسألت عائشة للمرة الثانية:

- صحيح ماذا؟ ما هو هذا الصحيح؟ عن أي شيء تتحدثين؟

وأسقط في يد الأم وناضلت السمكة العالقة:

- إنما.. إنما كنت أتساءل هل صحيح؟ «ثم بعجلة». يقال أن أجوركن ستنقص لرداءة الموسم.

وهبت على عائشة نسمة باردة أو هكذا خيل إليها، ثم ابتسمت:

- ليس رديئاً لهذا الحد.. إن التبغ معافى أكثر منه في السنة الماضية.

ونفذت إلى أنفها رائحة التبغ الخام المخزون، رائحتها هي بكل عرقها وغبارها، وكأنها تشمه للمرة الأولى وتساءلت «لماذا لا تكون له هذه الرائحة المقيتة هناك؟» واستنكرت أن تكون مصدر هذه الرائحة. وتذكرت أنه ينبغي عليها أن تغتسل. كانت الأم قد اقتربت من اللفافة حتى صارت لصقها فسرقت منها لمسة رقيقة، ثم جلست بجانبها وراحت تواصل إليها النظر.

- هل أمتح لك بعض الماء؟ إني أوثر ماء البئر في جو كهذا..

وقدّم لها كرسياً:

- ألست تعبة؟

وفكر «في هذه الصرة شيء يخصني حتماً.. أعرف ذلك من عينيها المتهربتين وأجفانها المرخية». وانزاح الغطاء عن فم الدهليز، فرده إلى موضعه. كان قد رسم منذ زمن حداً لخجله وكان لا يحب أن يتخطاه.

قالت الأم:

- إذن كنت في السوق؟! حسناً؟ ولكن لا تتأخري بحق النبي بعد اليوم.

وتساءلت عن محتويات الصرة، وإمكان ما يخصها منها:

- ألست جائعة؟ إنك لا تأكلين كفاية في الأيام الأخيرة؟.

وفكرت: «النحول يبدو عليها.. لماذا هي نحيلة؟ صحيح أنها لم تكن أفضل كثيراً عند زوجها ولكنها اليوم ناحلة ناحلة»، وخطرت لها خاطرة سرعان ما أبعدتها «أعوذ بالله.. استرنا يا رب» ومرت بيدها على جبينها.

- يا له من يوم حار!

كانت لا تدري في الواقع أفعلت ذلك لتمسح حبيبات العرق الناضحة أو لتمسح الفكرة التي خطرت، ولكنها على كل حال كانت كمن فوجئ بمنظر لا يسر، أو ليريح فكره المكدود.. وتذكر الفتى أن عليه أن يمتح الماء من البئر، وقد كان يتساءل «كم يمكنني أن أستخلص منها؟». وانطلق لفوره إلى صحن الدار، فكشف البئر، واغتنمت الأم فرصة انفرادها بالفتاة فكررت سؤالها:

- أين كنت يا عائشة؟..

فتنهدت عائشة بعفوية وهي تتحسس أضراسها العليا بطرف لسانها، ثم قالت:

- في السوق.

- حتى هذا الوقت؟

- حتى هذا الوقت.

وبسطت الأم يدها كأنها تقول «يا حيرتي». ولم تلحظ عائشة حركة أمها ولو قدر لها أن تلحظها لفسرتها: «أمي تقرأ الفاتحة أو أمي تدعو ربها». إن عائشة في الثامنة عشرة من عمرها، وهي تصلي منذ سن الثانية عشرة. تزوجت منذ خمسة أعوام من رجل وجبته خمسة أرغفة خبز مع إدامها. ولكن زوجها مات ذات يوم ولم يكن موته بسبب خمسات أرغفة الخبز اليومية، وإنما بحادث في الميناء. وهكذا سقطت ورقة عائشة –بلا تمهيد- من شجرة السماء، كفرعونية صغيرة.

وتلمست الأم اللفافة وهي تحاول أن تخمن مضمونها، فصر الورق تحت لمسات أصابعها الحانية. أشارت عائشة برأسها وهي تحل شعرها:

- فكي رباطها.. هناك مايخصك فيها.

- واندلق شعرها على ظهرها عسلياً موصولاً كدفقة السوس المصبوب من دن التخمير. قال الفتى:

- لقد متحت لك بعض الماء..

وعصر يديه المبتلتين، ثم نقل بصره على التوالي بين أخته وأمه والصرة. وأضاف:

- إن أبي آت.

ولم يلبث أن ارتسم ظل على عتبة البيت، استطال شيئاً فشيئاً حتى ملأ الغرفة، وانعكس نصفه العلوي على الجدار المقابل بفعل الشمس الغاربة. وخيم الصمت وتململ الفتى ثم انسحب مثل كلب مبتور الذيل قائلاً:

- لقد تركت الدلو في البئر.

واستدرك الفتى على شيء من الغيظ وهو خارج: «إنما قصدت أن أقول ثبت حبل الدلو في شق في فوهة البئر». ردد الأب ثانية وهو يهز رأسه ساخراً:

- إنه نسي الدلو في البئر أو البئر في الدلو. إن الأمر لديه سواء.

لقد كان يبحث عن طرف خيط وقد أعطاه الفتى له، ولكن ليلفه حول عنق آخر. وثبت الطعم، وألقى الصنارة:

- وأنت في أية بئر أسقطت دلوك؟..

وتململ شيء في داخل الأم، وأهاب بها لتصحح «لقد قال: تركت وليس أسقطت» ولكن نفس ذلك الشيء عاد فأهاب بها ألا تفعل. لقد أطل الجد لحظة ثم انحسر. قالت الأم:

- لقد مرت بالسوق.

وفكر: «أعرف ذلك. الصرة تشهد، وتقدم خطوة فتمدد الوحش على الأرض والجدار حتى أطل برأسه من سقف الغرفة التي كانت إسطبلاً من قبل. واختفى الجرذ تماماً.

- لقد مررت بالسوق.

ورنت عائشة إلى أبيها. كان واقفاً هناك وسط البيت، طويلاً نحيلاً، فذكرها بعمود كهرباء منطفئ المصباح، كثيراً ما اتخذت منه شاهد توقيت وهي في طريقها إلى العمل.

- بالسوق أم بالقمر!...

فحدثت نفسها: «لم أره مرة مضاء».

- ليست لي أجنحة لأصعد إلى القمر.

فقال بلهجة ذات مغنى:

- لست بحاجة إلى أجنحة.. إن الأرض مليئة بالأقمار.

ولم ترتح إلى لهجته فتساءلت: «ماذا يعني أن الأرض مليئة بالأقمار.. أوه لماذا هو معقد هكذا؟!» وعبر خاطرها مصباح الكهرباء المنطفئ ففكرت : «متى أراه مضاء؟».

وأحست بالضيق فمسحت على عنقها. كانت موجة الحر قد ازدادت في تلك الفترة المعلقة بين الليل والنهار. وأومأت برأسها إلى اللفافة، وهي تمضغ طرف لسانها على فكها الأيسر.

- لقد ابتعت بعض الحاجيات.

وبدأت الأم تحل الربطة كأنما أعطتها كلمة السر. ودارت عائشة ببصرها في أرجاء البيت، فغمزت لها قطعة صابون من فوق الرف، فلم تلتفت إليها ولعلها لم ترها.

- لماذا لم تقولي ذلك منذ الصباح؟

والواقع أنه لم يكن لزاماً على عائشة أن ترسم خط طريق العودة من العمل. كان اليوم آخر الشهر، وكانت العادة أن ترتاد السوق في مثل هذا اليوم. فقد قالت الأم منذ خمسة أيام وهي ترفو شرشفاً: «هناك أكثر من شيء تالف يا إلهي؟» ربما قالتها الأم عرضاً. ولكن رأس الكلبة قد تحرك في أعماق عائشة. لقد أدركت ما ينبغي عليها أن تفعل كما كانت وصيات أخرى.

- لم أر ضرورة لذلك.

- لم تري ضرورة لذلك.. أنت بنت سائبة.

وانتفض عرق في صدغ عائشة، واكتفت فيما بينها وبين نفسها: «أنا لست سائبة» وسادت فترة صمت. وغمزت عائشة قطعة الصابون من فوق الرف، وسأل الأب وهو يجلس على خوان متظاهراً بالهدوء:

- قولي أين كنت؟..

ونشرت الأم عالياً برؤوس أصابعها قطعة قماش مزهرة لا تتلاءم مطلقاً مع جو القبو وهي تقول في ذاتها: «طول عمرك يا زبيب..» وداخلها شعور بالارتياح، إذ أدركت أن القماش يخصها، فتابعت «.. لماذا لا يكشف عن مراده مرة في حياته من أول وهلة» وطوت قطعة القماش بعناية فائقة وتساءلت: «كيف كانت حاله مع زوجاته الأخريات؟! يا ربي إنه لم يعد يطاق».

كان في الخمسين من عمره، وكانت حياته أشبه بالسمكة الطيارة، فقد عمل معمارياً، ونجاراً، وجندياً، ودهاناً، كما اشتغل في أخريات أيامه قصاباً. كان رجلاً صالحاً أو هكذا خيل إلى الناس، حتى كشف أمره خبيث ذات يوم. فقد أشاع أنه رآه ليلة عيد الفطر بالذات.. رآه يخيط «إليات الضأن» إلى أقفية الماعز وتندر جيرانه في اليوم التالي بهذا الحادث وضحكوا وهم خروج من صلاة العيد وقال أحدهم: نعم كان ماهراً حتى أنه كان يجعل من أناث الذبائح ذكوراً. قال مرة «لن أشتغل بعد اليوم» وهكذا أحال نفسه على التقاعد، ثم لزم البيت. وفي البيت كان يراوده حنينه إلى مهنه القديمة من فترة إلى فترة: فقد رمم السقف والجدران وطلاها بالجير، وعبّد أرض الغرفة، وأصلح الكوى كما اصطنع طاولة، ولكنها ظلت أبداً ترتعش من أخف اللمسات. وعبثاً ما كان يدخله عليها من تعديلات من حين إلى حين. لقد أزمنت الرعشة فيها فتركها لحالها. قالت عائشة وهي تطوي بعض ثيابها الداخلية النظيفة:

- كنت في السوق.

وخرجت الأم تحمل قطعة القماش مزهوة:

- سأمر على الخياطة.

والواقع إنما كانت تريد أن تقول: «سأمر على الجيران». واستوقفها الفتى عند البئر.

- ألم ينته بعد؟

ولمس القماش الجديد.

- ما أجمله؟ مبروك.

- لم ينته.

وتابعت الأم طريقها فتمتم:

- تمساح لعين.

وارتفعت بعد قليل صرخة مكتومة . فحدث الفتى نفسه: «ها قد بدأ بضربها» ثم صرخة أخرى أكثر وضوحاً، فقال: «ولكن هل القصة حقيقية!» وعدا نحو البيت طفل فحاول إيقافه:

- سليم؟ لا تدخل.

ولكن الطفل لم يلتفت إليه، فتابع الفتى بلا وعي وهو يسقط الدلو في البئر «دعه يؤدبها». وانزاح الغطاء قليلاً عن فم الدهليز فأعاده إلى موضعه، «ولكن هل يحق لي؟!» وأطل الجيران من أبواب الأقبية التي كانت إسطبلات لبغال الأتراك ثم الفرنسيين من بعدهم ذات يوم ووقفوا على عتباتهم بلا حماس. كانوا من فئة العمال، وإنما خرج معظمهم لمجرد تزجية الوقت بعد أخذ وجبة العشاء.

كانت الدنيا قد تسربلت بذلك الرداء الرمادي الذي يعقب فترة الغروب. وأفرغ الفتى دلواً طافحاً آخر في صفيحة، ثم حملها إلى المطبخ فتبعه شريط ماء من سافل الصفيحة، وقد تردد في خاطره: «هل أمضي؟». وأطل جار آخر وهو يدعك عينيه ولعله استيقظ لتوه من النوم. قال ساخطاً:

- ماذا يجري هناك؟

فرد عليه ثان:

- رستم وعائلته.

فصحح عجوز:

- رستم وعائشة.

فقال الرجل الذي أطل مؤخراً:

- وهل تستأهل الحكاية؟ ماذا لديه من جديد؟

فرد العجوز، وكان جالساً على كرسي نصفي، وقد أسند ظهره إلى جدار:

- إن لديه دائماً ما يقوله ضد الآخرين.

وشق السكون صرخة جديدة مكبوتة، تبعها عويل طفل يصحبه ارتطام خشب بجسم معدني. فتابع العجوز:

- ليذهب أحدكم يا شباب فيفض هذا الخصام.. إن الخصام عمل من الشيطان.

- إلى الجحيم رستم وعائلته. لقد أيقظوني من النوم.

ثم نكص إلى الداخل وهو يتساءل:

- يا له من حي لعين؟ لماذا قطنت في هذه الثكنةَ؟

قالت امرأة:

- ألا يوجد أحد هناك؟ لماذا لا تتدخل أمها في الأمر؟

فقال زوجها:

- صه! هيا إلى الداخل.. ابنك يبكي.

فلملمت نفسها ومضت إلى الداخل. علق رجل:

- لعلها لاتجرؤ.

فسأل آخر:

- لماذا؟ ما الذي يمسكها؟ إنها أمها؟

فرد الأول:

- لست أدري. الناس يخافون.. إننا نبدو في الظاهر أكثر شجاعة، ولكن لكل شخص ما يخشى عليه.. فما الذي يمسكك أنت؟ لماذا لا تتدخل؟.

- أنا لا يعنيني الأمر في شيء.

- بل يعنينا جميعاً.

- لو كانت امرأتي هنا لجعلتها تتدخل.. المسألة مسألة حريم.

- بل ورجال أيضاً.

فنهض العجوز قائلاً:

- ليس لدي ما أخاف عليه.. إنني على حافة القبر.. ليس ثم ما أحرص عليه سوى طقم أسناني، وسأعرف كيف أطبق فمي وقت اللزوم.

وأحكم إغلاق فمه من قبيل المزاح، ثم اتخذ سبيله نحو بيت رستم فلحق به حفيده، ففكر: «لقد تبعني ظلي. هل أرده؟».

وانسحب الرجل الذي تكلم أولاً، فغمز أحدهم:

- لماذا يغلق بابه عندما يضرب امرأته؟

فسأل ثان:

- لماذا يضرب امرأته؟

- لست أدري.. ولكن الضرب للمرأة كاللجام للفرس. فرس ليس لها لجام قد لا تقود إلى السلامة.

وعقّب آخر:

- يضربها لأنه يملكها.. إنها الشيء الوحيد الذي يجده أمامه بعد تحطيم أدوات البيت. إنه عاطل منذ شهر.

كان الصراخ قد هدأ عندما وصل العجوز إلى بيت رستم، فوقف على العتبة بشيء من الخشية. كانت عائشة قاعدة مطأطأة الرأس وكان شعرها المشوش يحجب وجهها، في حين كانت يدها اليمنى تخطط دوائر وحلقات متداخلة وهمية على الأرض، وكان جسمها ينتفض من فترة لأخرى. أما رستم فكان واقفاً بجانبها، طويلاً كعادته وهو يكرر بلا هوادة:

- ماذا فعلت عند الطبيب؟..

-من أجل أسناني.

- ما حال أسنانك؟ كم مرة ترددت عليه؟

- مرة.

- هل أسنانك مسوسة؟

- كلا.

- إذن لماذا ذهبت إلى عيادته؟

- ...

وكرر رستم سؤاله بصوت كالرعد، فجفل سليم فيما كان يجمع شتات محتويات اللفة. كان ثمة شرشف جديد في طرف القبو، واستلقى في جانب آخر منه سروال أحد طرفيه مفرود، أما الطرف الآخر فما زال على طيته، ولمعت في مكان ما من أرض القبو أزرار قميص صدفية، كأنما هي نجوم توصوص من سماء بعيدة ، فقال سليم في ذاته:

- «هذا القميص لأخي وهذا السروال لأبي» وطوى الكم المفرود وفكر «كأنه برجل واحدة».

- لماذا ذهبت إلى عيادته؟

- من أجل سني.

- ما لها سنك؟

- ...

- ما لها سنك؟

- لقد سلخت الذهب عنها.

- لماذا؟ هل كانت تؤلمك؟

- كلا.

- إذن لماذا سلخت طبقة الذهب عن سنك؟

وهمس الطفل في أذن جده: «لماذا يضربها يا جدي؟ أنت تقول: الضرب للملاعين والحمير. هل هي ملعونة؟».

- صص..

وحدّث الطفل نفسه: «إنها ليست حماراً حتماً.. إنني أعرف الحمير، فقد ركبتها أكثر من مرة» وفكرت عائشة أن تقول: «لقد وضعتم لي عندما

زوجتموني سناً ذهبية لاعتقادكم أنني سأكون مرغوبة أكثر، ولكنني أردت أن أعرف ألست أحلى بدون سن ذهبية، مثل معظم الفتيات» ولكنها استبدلت ذلك بقولها:

- لم تكن منسجمة مع السن التي تحتها.

وفكرت ثانية «إنها عادة قديمة لم تعد دارجة» ولكنها قالت:

- كنت أشعر كأنما في فمي حصاة.

وحدّث العجوز نفسه: «لقد وجد السبب هذه المرة أيضاً» وألقى نظرة على البيت «.. القبو أخذ في التحسن منذ عودة عائشة» وتلفّت الطفل حواليه، ثم أمسك بيد العجوز قائلاً:

- هيا.. لنعد كي نخبر الجيران.. إنهم ما زالوا ينتظروننا.

وسحبه من يده فانقاد له الشيخ وهو يفكر «... إنه وجد السبب هذه المرة، ولسوف يجده دوماً».

وتساءل الطفل:

- لماذا يضربها؟..

- لسبب ما في رأسه.. إنك لن تفهم. أنت كثير الأسئلة

وحدّث الطفل نفسه: «سأقص على أبي وأختي كيف كان شعرها مشوشاً» واستخفه الظفر لانفراده بمعرفة هذه الأحداث من دون الآخرين جميعاً، فحلج في سيره «... وسأخبر أبي عندما يأتي من العمل» وجذب يد العجوز.

- ها هم الجيران.. ألم أقل لك أنهم ينتظروننا؟

فسأل أحد الجيران:

- هم. ما القصة؟

واستفسر ثان:

- لماذا يضربها؟ هل صحيح ما أشيع عنها؟

فاكتفى العجوز وكأنه عرف مقدماً ما يدور في رؤوسهم بالقول:

- يا بني.. ليس كل ما يقال صحيحاً.

وقال ثالث:

- أراهن أنها كذبة.

فعاد الأول يقول وهو يحك ظهره إلى الجدار:

- لعله هو الذي اخترع حادثة الشاب.

- أي شاب؟..

- شاب ذو شعر أشقر.. يقال أنه عالق بها.

- ولكن لماذا يفعل ذلك؟ كيف يجرؤ؟ إنه أبوها.

فرد الأول ساخراً:

- لماذا يجعل من إناث الذبائح ذكوراً؟

وقال العجوز:

- لقد ضربها في الشهر الماضي بسبب الخياطة.

ووضع أحد الجيران إبهامه على صدغه:

- لعل في رأسه مشروعاً؟

وقال ثان:

- ربما يريد أن يجعل منها مزواجة مثله.. يقال أن ثمة ثرياً مُسناً في الجوار يحوم حوله.

وأفلت الطفل عندما لم يجد ثغره ينفذ منها إلى الكلام، وانطلق نحو البيت. ولكنه وجده مقفلاً فقال في نفسه: «لعل أحدهما تمتح ماء من البئر» وعدا نحو البئر..

كانت الظلمة قد بدأت تزحف نحو الكون مشوبة باحمرار الغسق، ذلك النوع من الاحمرار العكر الذي لا يترك أثراً طيباً في النفس، وكان الصمت مخيماً إلا من قرقعة الدلو على جوانب البئر.

- هل رأيت أمي يا رضوان؟

وفكر «ما أجمل نطاقه؟!»

- كلا.

- وأختي؟

ثم فكر ثانية «ما أشد لمعانه! لعله من الذهب؟»

- حتى أختك!؟

وصمت قليلاً.

- إنني أبحث عنهما. ترى أين ذهبتا؟

ودار دورة حول البئر وقد استبدّ به الضيق. كان يخشى أن تفوته الفرصة دون أن يتعرض لحدث المساء. سأل:

- لماذا لم تتدخل؟ لقد جذبوها من شعرها.

ومسح الفتى العرق الراشح من وجهه بظاهر كفه قبل أن يلفظ:

- أوه..

ثم انحنى فأفرغ الدلو في الصفيحة المعدة لنقل الماء، واستوى واقفاً:

- .. هل كان ينبغي أن أفعل؟..

ورفع قدمه اليمنى فأسندها على ركبته اليسرى ثم تطلع إلى حذائه، وقال وهو يفكر: «الماء تسرب إلى أصابعي.. أعتقد أن حذائي تشقق».

- آه؟ لست أدري.

وفكر ثانية: «يلزمني حذاء جديد. إنه موشك على البلى».

- حسناً؟ لعله ينبغي أن أفعل.

وحمل الصفيحة ثم اتجه نحو مطبخ الدار المشترك، وقد تبعه شريط من الماء.

* * *

# مات البنفسج

وفي هذا الأصيل، كما في أصيل مضى، كان أولاد الحارة يلعبون بكرة القدم، وكانت سلمى مقبلة. قلت: «يا إلهي ألهمهم أن يتوقفوا لحظة». كانوا أولاداً أردياء. وغالباً ما كان يطل رأس من نافذة صاخباً شاتماً طالباً إليهم الانصراف، أو تظهر خادمة على شرفة وقد يئست من طردهم فصبت عليهم ماء. لكن شيئاً من ذلك لم يحدث الآن، لقد واصلوا كرّهم وفرّهم، وسلمى تتحاشى هذا وتبتعد عن ذلك. إنني في هذه اللحظة بالذات أود لو أطأ أعناقهم جميعاً. ما هي إلا ثوان حتى تمر الأميرة اللطيفة تجاه بيتنا.

انتقلنا إلى هذا الشارع - أمي وخالتي وأنا - منذ أربعة أشهر ابتدأت في أول شباط، ومع ذلك ما أزال أحس أني دخيل. إنه شارع طبقة متوسطة، فيه مدرسة، طويل تتصّب في طرفيه عدة أزقة، وهو خالٍ من الحوانيت وهادئ في الأوقات التي لا يؤمه فيها أولاد الأحياء للعب الكرة. وكان مسطوراً على الجدار في مدخله الجنوبي بخط طباشيري رديء وغير واضح «هذا شارع العشاق»، وثمة عبارات أخرى متفرقة تكاد تكون مطموسة مثل «نادية أجمل صبية في الحارة، لكن وردة أسمن من البغل» وأيضاً «زوروا زينب من النافذة الشمالية فهي تتناول وجباتها اليومية واقفة. أما سلمى فقاطعوها لأنها صامتة كأبي الهول».

عندما قرأت هذا ضحكت، ثم فكرت «إن هي إلا أسماء خيالية». لم يكن لبيتنا نوافذ تطلُّ على الشارع وليس له شرفة كالبيوت الأخرى، ولهذا كثيراً ما حملتُ كتاباً واقتعدت أول دكة من السلم المؤدي إلى سطح المنزل قرب باب الدار. وفي اللحظات التي كنت أسأم فيها من الوحدة في الداخل ومن القراءة والتأمل، كنت أقف على العتبة مستنداً بكتفي إلى إطار الباب الخشبي. ها هنا وقفت ساعات طوالاً مبدداً الوقت بمشاهدة المارّة. ها هنا

عرفت أشياء كثيرة عن فتيات حيّنا الجديد بثيابهن الضيقة وشعرهن المقصوص: الفتاة المدربة ذات النظرة الثابتة، الفتاة المبتدئة القلقة التي تنظر إلى الوراء كل بضع خطوات لتطمئن لوجود الحبيب، وتلك التي تستتر في الظلام برفقة شاب. أنا أكره أن تمارس الفتيات اللطيفات الحب في الزوايا المظلمة. لقد كانت الأسماء الطباشيرية المسطورة حقيقية. ولاحظت أن الفتيات يبدلن أحباءهن بالسرعة التي تبدل بها الحرباء ألوانها فازدريتهن لذلك. كن إذا تعبن من التسكع أمام مدرستهن في الصباح والظهيرة قبل الدخول إليها، تسللن إلى الشرفات أو ربضن وراء ستائر النوافذ بين الأصيل والمغرب يوزعن الحب على الشبان. أما النافذة الشمالية فقد ضربت رقماً قياسياً بعدد العشاق. لقد أسفت من أجلها ووددت لو تكون أختي لأصونها. إن زينب رائعة مثل كعكة العيد.

طالت وقفاتي على عتبة الدار فعرفت أن ثمة سلمى حقيقية في الحي. إن سلمى لا تقص شعرها على طريقة الصبي، ولا تمشي باستهتار كالأخريات، ولا تحك وجنتيها الشاحبتين بالجوخ. كان عمرها بين السادسة عشرة والسابعة عشرة، قامتها معتدلة ونحيلة إلى حد ما وبشرتها بلون اللبن تميل إلى الشحوب، حتى ليخيل للمرء لأول وهلة لرقتها وشحوبها أنها تعاني مرضاً مزمناً، عيناها عسليتان واسعتان هادئتان تظللهما أهداب طويلة.

وكانت لا ترفع بصرها عن مقدمة حذاءيها إلا نادراً أو لتتفادى ماراً ما. وكان كل لون من هذه الألوان يكسبها في نظري شكلاً ومعنى. فهي، بصدريتها البيضاء، أشبه بممرضة عشقت أحد مرضاها، وهي بثوبها الأسود المحتشم وضفيرتها الكستنائية الثخينة المنحدرة من جانب عنقها الأيسر، حيث تستلقي بإهمال على صدرها، كقطعة من حبل بحار قديمة، مثل يتيمة زاهدة في الحياة. وهي في فستانها الدفليٌّ مثل كم ورد كبير قطع عنه الماء.

ولكن أحَبَّ ألوانها إلى قلبي كان اللون النيلي، ولعله كان المفضل لديها أيضاً. إذ كانت في هذه الحالة تقسم شعرها إلى ضفيرتين وترسلهما إلى الوراء. وفي بعض الأحايين كانت تعتمر «بيريه» ذات لون سماوي مشوب حتى لقد شبهتها في لحظة من اللحظات بزهرة بنفسج.

كانت خطواتها القصيرة الهادئة، وكتاباها المدرسيان الصغيران الأسودان وكانت حدبة ظهرها الخفيفة، وانعطاف رأسها قليلاً إلى اليسار ثم

لون بشرتها السفرجلي، تحملني إلى جو الأديرة وأقبيتها الرطبة وتذكرني بالحملان في المروج الخضر.

كان يقوم منزلها في المنعطف إلى اليمين وسط حديقة لا يغفل البستاني لحظة عن الاعتناء بأزهارها. وما كانت تغيب آخر طية من ثوبها وهي تدور لتدخل الشارع الثاني، حتى تصير في عالم حلمت به دائماً. يا لها من أحلام أطفال، ولكن من منا لا يحلو له أحياناً أن يحلم كالأطفال؟..

يُفتح الباب الأسود الخشبي الكبير. هناك خادم في العاشرة يرتدي ثياباً بيضاء ويعتمر عمامة ضخمة مثل هندي صغير يتناول كتابيها الصغيرين الأنيقين وينحني حتى تكاد جبهته تمس الأرض، بينما يتراجع خطوتين إلى الوراء. ثمة تجويف في الجدار نصف دائري عُلّق في صدره جسد المصلوب. تتقدم سلمى أربع خطوات وربع الخطوة، ثم تركع وتبدأ في الصلاة. في البداية يكون صوتها خافتاً وغير مسموع، ثم يندرج قليلاً قليلاً في الارتفاع حتى يقف عند طبقة معينة بشكل يمكن معه تمييز كلماتها بوضوح. عند ذلك تسمع هذه الصلاة:

«يا إلهي أنزل مطراً في الشتاء.

يا إلهي مُرْ الزهور أن تتفتح في الربيع.

يا إلهي عَرِّ أشجار التين في الخريف، واجعلها تحمل ثمراً في الصيف.

يا إلهي احفظ أبي وأمي من المرض وكذلك كل أهل الأرض.

يا إلهي لا تغضب على ذوات الشعر المقصوص، لأن شعرهن سينمو من جديد.

يا إلهي احفظ خادمي الصغير، كي لا أظل بلا خادم.

يا إلهي احفظ حمامي وكلابي وقططي، ولا تجعل كلابي وقططي تأكل حمامي.»

وبعد أن تنتهي من صلاتها ترسم إشارة الصليب، وتنهض وقد اكتسى وجهها مسحة إلهية، وشع من عينيها نور هادئ لطيف؛ وتسير ذاهلة فيحييها

الخادم الصغير الذي وقف عند بداية الدرج من جديد بانحناءة أخف من الأولى، فتمسح بيدها الناعمة على وجهه الغارق في السمرة، وعندما تستقر أصابعها عند نهاية ذقنه ترفع وجهه إلى أعلى بحركة رقيقة، وتنظر قليلاً في عينيه، ثم تتمتم ببعض عبارات المباركة، وتصعد الدرج وئيداً فيتبعها الخادم من السلم المقابل ويفتح باباً فتدخل الأميرة اللطيفة وتتهالك وقد اشتد شحوب وجهها على فراش أبيض لين. فيسارع الصبي ذو الرداء الأبيض والعمامة الهندية حاملاً مروحة ذات قبضة طويلة فيحركها مرة كل تسع ثوان.

في أيام الآحاد كانت تلوح لي أكثر بعداً عن هذا العالم. لقد لحظتها دائماً عدا هذا اليوم من الأسبوع - الأحد- إنها ما إن تصير على بعد ستة أمتار أو سبعة من باب دارنا حتى تختلس بحركة غير مباشرة نظرة من تينتنا المغبّرة التي تطل على الشارع، وقد شملتني نظرتها مرتين. لم تكن نظرة طويلة، بل قصيرة متمهلة لا تكاد تنتهي، وكانت تبعث فيَّ خدراً لطيفاً كأنفاس البنفسج، خدراً لا يجثم فوق الصدر فيرهقه، ولكنه أشبه بذلك الشعور الناعم العذب الذي ينتاب الحالم للحظة ليس غير في ليلة شتوية قرب المدفأة. كان هذا في البداية. ولكن ذات يوم- لم تخرج سلمى خلاله إلى مدرستها بسبب وعكة ألمت بها إذ كانت في اليوم الثاني أشد شحوباً- أدركت أن رؤيتها باتت ضرورية كخبز الصباح.

إن ثمة فتياناً كثيرين في الحي يلاحقونها. أنا أدري أن واحداً منهم لن يستطيع أن يوقعها في شباكه، ولكنني أشفق أن تسمع كلمة لا تحب. إن هذا سوف يبكيها حتماً ويجعلها تفكر فيه كل يوم. وهكذا حفظت برنامجها اليومي تماماً وتبعتها أحياناً مثل كلب الحراسة، ولكن من بعيد. أنا لا أريد أن تنظر إلى الوراء مرة فتراني أرقبها. وكما أنها حريصة على الصلاة ومباركة الخادم كذلك اعتادت من مساء كل يوم أن تمضي لزيارة خالتها المقعدة التي يقع بيتها في الحي الثاني. وذات مرة كانت تحمل بيدها طاقة من الزهور. لشد ما وددت أن أحمل الطاقة بدلاً منها. كان بصرها آنذاك أكثر إصراراً فوق حذائيها ورأسها معطوفاً أكثر من ذي قبل. وكنت دائماً آخذ على أهلها هذه الخطيئة.

لقد وفروا لها كل أسباب الراحة والرفاه ولكن هذه الطاقة، هذه الكتب الصغيرة البنية والسوداء، لماذا لا يحملها الخادم؟.

«أواه يا إلهي كم أرغب أن أقوم من أجلها بعمل طيب. إنني أود ذلك من صميم قلبي. اجعلها يا إلهي مصادفة. أنا لا أريد أجراً. وعند ذلك سوف ينطلق فمي لك بالدعاء».

وكثيراً ما فكرت بهذا:

سلمى عائدة إلى البيت ذات مساء. والأولاد يلعبون بالكرة فيصيبها أحدهم. أنتهز الفرصة وأضرب الولد الجاني فتأتي هي تعتقه.

- أوه سلمى. كان ينبغي أن لا تفعلي ذلك. أنهم أولاد أردياء.

- ليس ثمة أردياء على الأرض. كل الناس صالحون.

ونسير الهوينا..

- ولكنه أصابك.

- آه هاهي إصابته.

وتنفض بإصبعها الغبار الذي علق بثوبها وتقول:

- أترى؟ لم يعد ثمة إصابة. لقد زالت. أترى؟

ويجري لساني بصمت:

- يا إلهي ما أطيبها!

ويأخذني الخجل من لطفها أغمغم:

- عفواً. لم أكن أدري أن هذا لا يزعجك. لن أفعل ذلك ثانية.

ونتابع سيرنا في صمت وآلاف أجنحة الهوام ترف في سمعي. ومئات البقع الصفراء والحمراء المتطاولة والمتجددة باستمرار تلوح أمام عينيّ قبل أن أقول بصوت أخاله آتياً من صدفة بحرية:

- أنا أحب ضوء القمر على شجرة من الصفصاف أغصانها متدلية فوق نهر من الفضة. أنا أحب أماسي الخريف ومئة ألف فراشة ملونة. أحب البنفسج والفاغيه والياسمين، ورتلاً من الجمال يقوده طفل في فجر رائع.

وتستطرد وقد شردت عيناها قائلة بصوت أقرب إلى الهمس أو النغم البعيد:

- على رابية خضراء والشمس الذهبية تشق طريقها بجهد عبر الغبش الرمادي، وصلصلة أجراسها الرتيبة المتقطعة تزف للسماء تباشير الحياة.

وأضيف من حلق جاف:

- وهناك عند نهاية الأفق الفاقع الخضرة قرب السماء ذات الزرقة العميقة، يقوم بناء قرميدي فخور بلونه النبيذي الزاهي، وثمة سبع حمامات بيض أو ثماني يحومن فوقه وحواليه، ويظهرن، تارة كمثلث وطوراً كمتوازي أضلاع، ووراء صف من أشجار الحور المعطوفة رؤوسها نحو الغرب. ثمة دخان رمادي يتصاعد حلزونياً من أحد جوانب البناء القرميدي ومن إسطبل ما بعيد يردد الصدى خوار ثور ناعس.

وعندما نحاذي بيتنا نتمهل أكثر فتسأل وهي ترنو إلى تينتنا:

- ما اسم هذه الشجرة؟

- فأقول إنها شجرة تين. ألا تعرفين ثمار التين؟

ويرتفع حاجباها دهشة:

- تين؟ لقد حسبتها تفاحاً حقاً؟ إن جميع الأشجار متشابهة بودي لو أرى شجرة تفاح حقيقية.

ويغمغم لساني بصمت:

- يا للسذاجة! يا للسذاجة!. إن الماء نفذ من سلة الراعي، عندما دخلت إلى ذهنه الحقيقة.

وأسارع:

- صدقيني إنها شجرة تفاح حقيقية. أواه يا سلمى لا تجهدي نفسك فهو تفاح حقيقي.

وتعود عيناها فتشردان.

- لعلها كذلك. من يدري؟

وأقودها إلى الداخل:

- هذه أمي، وهذه خالتي، إنهما تحبانك. لقد حدثتهما عنك دائماً.

وتغمغم أمي:

- يا إلهي ما ألطفها. أنا لم أر منذ مائة عام فتاة تصنع ضفائر.

وتدمدم خالتي وهي قابعة في مكانها الأبدي:

- احفظها يا رب.

انظري يا سلمى هذه كتبي. ألا تحبين الكتب؟.. هذا ديستويفسكي، أندريه جيد، اكسوبري، مورياك وهذه مينو (مينو أو الحب) لطاغور، هل أحدثك عن مينو؟

وترتعش عيناها بالإيجاب:

تساءلت مينو المريضة ذات صباح: «أرى أن هذه الشجرة تفقد أزهارها الجميلة شيئاً فشيئاً. وكل يوم جديد يذهب ببعض بهائها. فلماذا؟» ثم قالت لخادمتها: «اذهبي واقلبي الأرض حول جذورها واسقي جذعها في كل يوم».

وفي صباح أحد الأيام رأت كاهناً برهمياً يمسك سلة بيده، ويهز بالأخرى الشجرة في عنف، وعندئذ أدركت لماذا تزول الأزهار عن شجرتها. واستغاثت مينو بخادمتها: «هيا انزلي بسرعة وعودي إليَّ بالبرهمي».

ودخل الكاهن الغرفة فحيته مينو وهي في سريرها بخشوع:

- أبت. لمن تجمع هذه الأزهار؟

- أجمعها لله. لا لسواه.

قالت مينو:

- ولكن الله هو نفسه الذي أرسل هذه الأزهار إلي.

- إليك أنت؟

- أجل إلي. والله لا يستعيد أبداً ما يهبنا.

غضب الكاهن البرهمي. وفي صباح اليوم التالي كان تحت الشجرة يهزها بقسوة. ودعت مينو جميلة خادمتها وقالت:

- بربك انقلي سريري إلى الغرفة المجاورة، قرب النافذة المطلة على جهة أخرى، خذيني بعيداً جداً، إنني لا أطيق رؤيته.

عندما صار الحر لا يطاق في المدينة مضت سلمى برفقة أبيها وأمها إلى أحد جبال لبنان، وهجر أولاد الحارة الجانبية لعب الكرة، فأمسى الحي مقفراً وكئيباً للغاية. صرت لا أقف على عتبة الباب إلا نادراً، وكنت أقضي معظم وقتي تحت السرير إذ كان الجو هناك أكثر طراوة، قارئاً أو حالماً، وغازلاً آلاف الخيوط حول ذات الجدائل. لكن ميلي للقراءة أخذ يفتر شيئاً فشيئاً. وذات يوم نحيت الكتاب جانباً، وجررت نفسي خارج السرير. كان الوقت ظهراً والحر شديداً.

فتحت صنبور الماء، ووضعت رأسي تحته، ووقفت في صحن الدار والماء يقطر من شعري ووجهي أبحث عن مكان أستظل فيه. ومضيت تحت شجرة التين وجلست على أول دكة. وبعد قليل تلاطمت أوراق التين ثم سقطت ورقة بجانبي. كان لونها أخضر شاحباً انتشرت فيها كثير من البقع الصفراء. ونظرت إلى الجو. كان ثمة بضع غيمات رصاصية اللون، فضجت أعماقي بحبور صامت: مرحباً أيها الخريف. مرحباً يا فصل النضج والجمال. خيل إلي أنك لن تأتي وها أنذا أنتظرك منذ ألف عام.

وفي صباح يوم أحد تركت عتبة الدار المغطاة بورق التين الأصفر في سبيلي إلى السوق. كان ثمة في الطريق تلميذان صغيران يحثان الخطى؛ وفي نهاية الشارع ترددت قليلاً ثم انعطفت نحو اليمين. كانت المسافة من هنا أطول، ولكن الشارع أهدأ. دق جرس دراجة فملت لأتفاداها. وحينما ابتعدت الدراجة خيم السكون من جديد ومشيت عشر خطوات أُخر، فتعالت ضحكة عن يساري. ضحكة رائقة كانت أشبه شيء بآنية من البلور تحطمت على أرض صلدة. لم أصدق أياً من عيني أو أذني في البداية، ومع ذلك كان كل شيء حقيقياً، حقيقياً أكثر من التلميذين الصغيرين والدراجة ذات الجرس ومن

هذا الصباح نفسه. آه لو لم تصدر هذه الضحكة عنها. آه لو صدرت عن غيرها لكنت فديتها بعمري. يا إلهي لماذا تفعل ذلك؟ لماذا؟ كانت سلمى في الحديقة مع زينب وثلاث فتيات غريبات عن الحي، وكان شعرها مجزوزاً، ووجنتاها موردتين. لماذا وجنتاها موردتان؟ وكانت عيناها مشرقتين وذراعاها عاريتين. وضحكت ثانية، ثم مالت على أذن رفيقتها فدفعتها عنها. وعندئذ استغرقن جميعاً في الضحك. أواه يا سلمى ماذا تقولين؟ ماذا توشوشين؟ لماذا تفعلين ذلك؟. أنا أريد أن أعرف لماذا؟ وبحثت عيناي عن الخادم الصغير بعمامته الهندية، الخادم المقطب الذي لا يرضى عن عمل سيدته، ولكني لم أجد إلا رماداً. كان واقفاً هناك مصلباً يديه فوق صدره متهلل الأسارير لمعاكسة الفتيات فيما بينهن. وصاحت: «يا إبراهيم»! أي صوت جاف هذا. أين العذوبة والنغم البعيد، أين الوداعة؟ أين البنفسج؟

وخفَّ إليها فأشارت إليه بكل من سبابتيها وإبهاميها. كانت إشارة تعني شيئاً دائرياً، وابتلع الباب المارد. إنه باب مبتذل يفتح ويغلق بسهولة. لقد حلمت أنه سميك، وأنه لا يفتح إلا بصعوبة مصحوباً بصرير حاد. ودارت عيناي تبحثان عن البستاني الكهل بظهره المتكور. لم أجد غير مراهق يقتلع شجيرات العنبر الذابل والأضاليا بقسوة. تساءلت: ولكن الحمام أين الحمام؟ لا بد أنه في مكان ما يهدل» ولكني لم أر إلا الجدران العارية والقرميد الأسود.

كان كل شيء يبدو غير حقيقي، ومع ذلك ها هي الشمس والأشياء تتحرك. والسماء التي كانت منذ لحظة زرقاء عميقة الزرقة أصبحت الآن أميل إلى البياض الرصاصي.

لو قيل إن الشمس في هذا الصباح بالذات بزغت من الغرب وليس من المشرق، وأن السنونو نبتت له مخالب، وأن سرباً من الفراش التهم بالأمس غابة من البلوط، لملت إلى التصديق. ذلك لأنه مات البنفسج. وبعد قليل شق الباب فظهر الخادم. كان يحمل بيده طبق تفاح حقيقي أحمر كالدم.

* * *

# العَربة والرّجُل

حينما مات فهيم منذ شهرين لم يكن محمود قد هيأ نفسه ليحل مكانه. لقد استيقظت الأسرة ذات صباح فوجدت فهيماً ممدداً بلا حراك «لم يشك مرضاً يوماً». قال محمود لنفسه وقد انحط بصره على البقعة التي يزحف عليها ظله المنكمش. كان محمود يقود عربته في مرتفع الطابيات، وكانت مثقلة بأثاث منزل.

لقد مات لمحمود أكثر من حمار، ولكن فهيماً شيء آخر كان يعرف ما ينبغي عليه أن يفعل في مختلف الظروف، ولم يكن اسم فهيم قد أطلق عليه عبثاً، فهو يبطئ عندما يتعين عليه أن يبطئ، ويسرع حين تدعو الحاجة إلى ذلك؛ حتى أنه عاد إلى البيت مرة وحيداً. وكان محمود يتفنن في مناداته. لقد أطلق عليه كلمة «فهيم» أول ما أطلق عندما لاحظ أنه حمار غير عادي، ثم تعددت الأسماء بعد ذلك: كفاهم، وفهمي، وفهمان. وكانت آخر أسمائه «أبو الفهم».

لقد طرق الباب عليه في الصباح سالم وقال له:

-أريد أن أنقل أثاث البيت.

فوافق محمود من حيث المبدأ.

- وإلى أين؟ خير إن شاء الله.

- إلى داري في المشروع.

- مبروك يا سالم.

- اتفقنا.؟ أريد همتك وهمة فهيم. كيف حاله؟..

مرة أخرى فهيم. لماذا يذكرونه به؟؟..

- بسلامة رأسك.. لقد مات منذ شهرين.

وفكّر سالم أن يعيد النظر في عملية نقل الأثاث.

- ولكنه سيكون من الصعب عليك نقلها.

فرد الحمّال:

- لا شيء يصعب على محمود.

- العوض بحياتك.. اتفقنا إذن.

«اتفقنا». استرجعها محمود لنفسه بصوت مسموع مستأنساً، وتذكر كيف شدَّ نفسه إلى العربة عندما يمم صوب بيت سالم في الصباح ليبدأ نقل أثاث المنزل، كما تذكر أيضاً نقلاته الست، ثم طمأن نفسه : «هذه آخر دفعة على كل حال.. وبعدها؟ وبعدها ماذا؟ إنك ستمضي إلى البيت دون شك.. يكفيك ما قمت به اليوم. أنت متعب».

هو متعب، هذا لا ريب فيه، ولكن التعب شيء ينبغي أن لا يفكر فيه الآن. إنه لا يزال في بداية مرتفع الطابيات. فليتشاغل إذاً بأي شيء آخر.

وظل لحظة بلا تفكير محدد. كان ذهنه فارغاً تقريباً، لكنه لم يكن أملس. كان في تلك اللحظة أشبه برجل يقف على مفترق طرق ذات مساء صائف في مدينة ليس فيها سلوى.

وتابع قدميه وهما تدوسان رسمه وقد أخذ ينزلق منسحباً إلى الوراء. فانزلق فكره بعينيه من بين ساقيه بلا إرادة منه إلى الوراء أيضاً، حتى طرف الشارع عبر أسفل العربة. ولاحظ رجلاً يجتاز الطريق إلى الرصيف الثاني وامرأة مائلة تحمل دلوا خمن أنه ملآن.

وأمسك بطرف الشارع فتساءل «كم بقي عليَّ من الطريق؟» كان لا يجرؤ على رفع بصره لاستطلاع دربه. إن شيئاً ما قد بدأ يخزه في ظهره. وأمامه عشرات الشواهد عليه أن يجتازها قبل أن يصل إلى غايته. وطار بخياله إلى الدار الجديدة.

هو أيضاً كانت له أحلامه. لقد فكر أكثر من مرة أن يدَّخر بعض المال. فجمع مئة وسبعاً وتسعين ليرة. ولكن شيئاً ما كان يحول دوماً دون ازدياد هذا

المبلغ. لقد رفض هذا الرقم بعناد أن يتحرك إلى الأمام، حتى جاء يوم استنفذت معظمه عملية إجهاض، ولم تبق إلا على خمسين منه، بالرغم من شفاعة شهادة فقر الحال. ثم قضى الحمار الأول مع كد ثلاثة أشهر على ما فضل منه.

لقد خطر له في ذلك الحين أن يفتتح حانوتاً. مجرد مبلغ صغير للإيجار، ومثله للعمل، وبعد ذلك: «من دهنه اقليه».

ولكن ماذا كان يمكن أن يعمل فيه. هذا أمر لم يقف عنده طويلاً. ولقد فكر بحانوت للخضار. وكان التفكير بمثل هذا العمل له مبرراته بالنسبة إليه. إنه كثيراً ما يعاني من نفقات الخضار التي يحملها إلى البيت. ولقد قال في نفسه ذات مرة «إنني أبيع الطازج منها: وأحمل البائت إلى البيت». ولا غرابة في ذلك، إذ كان محمود في الواقع أبا لسبعة أولاد، أربع إناث وثلاثة ذكور.

كما بحث يوماً قابلية افتتاح محل للبقالة. ولكن سرعان ما استبعدها، إذ تتطلب معرفة بمسك الدفاتر للزبون وهذا ما لا قبل له به.

لم ير على كل حال أي من هذه المشاريع وجه الشمس. لقد ظلت في إضبارة المحفوظات. ولكن ما باله الآن يعيد النظر في الماضي، وينفض الغبار عن تلك المشاريع؟؟.

اليوم سيكون في حوزته مئتا ليرة. بما فيها الخمس عشرة ورقة أجرة نقل أثاث المنزل.

لقد قرر محمود عندما مات حماره الأخير أن يدخر، كعادته، مبلغاً جديداً من المال كي يشتري به حماراً، غير أن بوادر مشكلة لاحت في أفق الأسرة بالأمس بسبب المبلغ لم تلبث أن انفجرت هذا الصباح، عندما زف للعائلة نبأ صفقة نقل الأثاث.

كانت أكبر البنات من صف الأب. فقد كانت على أبواب خطوبة. لقد فكرت أن امتلاك أبيها للحمار سيدعم مركزها في ذلك المجال. حتى أنها تخيلت أن حماراً مشدوداً إلى عربة جدير بأن يوقع أثراً أطيب في نفوس

الخاطبين. أما الابن فقد أراد الحصول على المبلغ لتنفيذ مشروع رآه الأب هوائياً، في حين كانت الأم تريد اقتطاع جزء منه لشراء ستائر.

«مجنونة» قال محمود وقد ازداد انحناؤه إلى الأمام بفعل تصاعد الطريق، مما اضطره أن يبذل جهداً أكبر كي يحافظ على سرعته «من يشتري ستائر لبيت بالإيجار مخلخل النوافذ، وهناك ألف شيء ألزم منه. وأي شيء ألزم من حمار أشده إلى هذه العربة، إلى هذا الحبل الذي عقر كتفي وأدماه.. آه لو كان فهيم معي اليوم».

واشتدت حاجته إلى حماره الراحل. كان فهيم أكثر من حمار يساعد محموداً في العمل. كان رفيقاً، وكم باح له بمتاعبه العائلية. كانا يفهمان بعضهما. صحيح أن محموداً قد اقتنى كثيراً من الحمير، ولكن فهيماً انفرد بميزات لم تتوفر في الآخرين. وكان هذا الإحساس بالحاجة يتفاقم كلما تصاعدت الطريق.

كان الوخز قد أخذ ينتقل من أسفل الظهر زاحفاً إلى المناطق العليا منه بعد أن ترجم إلى ألم. لقد شعر به في الوسط أول ما شعر، وبالتحديد في الفقرة السابعة من العمود الفقري. كان ذلك في الصباح بعد أن أنجز قسماً من العمل. لم يخطر له وقتئذ أن يستأجر عاملاً لحسابه. كان محمود خلال حياته العملية كلها يشتغل منفرداً، حتى إذا صادفه صندوق ثقيل مثلاً رفعه بين يديه وأسنده إلى مكان أعلى ثم نزل تحته وعتله على ظهره.

وازداد إحساسه بالألم بعد أن وصل إلى كتفيه «ما قيمة حمار الآن؟. إنه يعادل وزنه ذهباً» لقد تساءل عن ذلك في نفس الوقت الذي أدرك فيه أن عليه أن يدير نفسه. لقد تلفت يمنة ويسرة. كان الوقت الثانية عشر ظهراً وكانت الطريق خالية، أما الشمس فقد وقفت بدورها في الصف المعاكس له، وإنها قد اختصته من بين البشر جميعاً بكل ذلك الغضب الذي تنفثه في حزيران، في الثانية عشرة من منتصف النهار. لعله بدأ يتذمر.

كلا. ولكن ما الذي سقط من الحمل في المؤخرة فتحطم؟ وألقى نظرة من بين ساقيه عبر أسفل العربة. فلفت انتباهه بادئ ذي بدء انحدار الطريق

الحاد حتى طرفها الأول في القاعدة. وسرعان ما أدرك استحالة التوقف، رغم أن هذه الفكرة كانت لا تزال إحساساً بعيداً غامضاً.

ثم انسحب نظره على نحو عكسي مستطلعاً، فتمهل عند الأداة المحطمة هنيهة، وتابع بعد ذلك انسحابه حتى استقر في ذات نفسه فقال: «ترى كم ثمنها؟ إنها من البلور الجيد» وظلل جبينه نوع من الكدر فقال: «ليحسم قيمتها إذا شاء، فقد وقع ما وقع» واستغرب سقوطها مسترجعاً في ذهنه خلال ثانية من الزمن الحالة التي تركها عليها، وندم لأنه لم يصطحب أصغر أولاده في هذه العملية، لو كان معه فلعله من الممكن أن ينبهه في اللحظة المناسبة، كذلك فكر. أما من ناحيته فلم يأل جهداً في الحرص على الآنية. لقد دارى أمرها فوضعها في صفيحة بعد أن لفها بمزق قديمة منعاً للاحتكاك. وفكر بعجب «إننا نحسب لكل أمر حسابه، ولكن شيئاً أقوى منا لا يني يمد لنا لسانه بين حين وآخر. إننا لا نستطيع أن نقف في وجه المكتوب» وقال أيضاً وهو يزرر عينيه ليمنع عنهما ملوحة العرق: «ربما لو كان الحبل أطول.. من يدري». وفكر أن أتفه الأشياء قد تسبب للمرء أذى بالغاً فقرر أن يكون أحسن استعداداً في المستقبل.

إنه لحسن لا ريب أن تفكر على نحو أفضل في المستقبل. ولكن ماذا بشأن الآن. وأنت على هذه الحال.. هو ذا شيء آخر يسقط.. إنه المنبه هذه المرة.

وخيل إليه لفترة أن الزمن قد توقف، وأن العالم قد خلا إلا منه مشدوداً إلى هذه العربة المثقلة، والشمس فوقه تصب عليه جام غضبها. وأنَّ تاريخه كحمّال بدأ العمل منذ الخامسة عشرة، ماضيه، حاضره ومستقبله، مهدد في تلك اللحظة «هذه الدفعة لا ينقلها ثور.. اعمل حسابك يا محمود». ذلك آخر شيء قاله سالم. وفكر «ربما أخطأت في تقدير قوتي وهذا ليس ذنبي على أية حال.. إن المرء يجهل نفسه حقاً.. هيا يا محمود واخلص من هذه الورطة إذا كنت رجلاً» ثم قال بصوت مسموع: «إنما أردت أن أنتهي باكراً.. كان لا يزال هناك متسع من الوقت للمرور على مخزن مصطفى الطحان. يا إلهي إن ورائي ثمانية أفواه يأكلون رأس الحية».

وأفرغ محمود مزيداً من القوة. غير أنه في الواقع لم يضف شيئاً جديداً إلى قدرته السابقة سوى ضغط جزئي على ذراعي العربة، لم يستطع المحافظة عليه طويلاً. إذ ما لبثت أن تراخت قبضتاه، فأدرك أنها النهاية. ورشح جلده عرقاً أكثر من ذي قبل نتيجة لشحنة الجهد التي بذلها مؤخراً، وقد انضاف إليها إحساس بالفشل لم يكن متوقعاً، ونظر حواليه بلا هدف محدد شأن إنسان موشك على الغرق.

كانت عيناه مليئتين بالدموع والضياء الباهر. وكان العالم عن يساره ظلالاً تنقصها الحياة. لقد مسَّ بصره فيما مس البحر والشريط الرملي والبساتين. كان يجوز في تلك اللحظة منطقة ليس فيها بناء. وكم حملت له هذه الفجوة في الماضي انشراحاً خاصاً. وأحس أن الأشياء بدأت تفقد بريقها شيئاً فشيئاً بالنسبة إليه: فالبحر صفحة زجاجية غائرة اللون يفصلها عن الشاطئ حد رملي باهت.

وكانت البساتين ملفوفة بغلالة رملية، أما عن يمينه فثمة جندب يصر في أسفل جدار مقهى الطابيات.

واستحال الإحساس القديم بالخوف إلى شعور بالعجز، واحتلت المركز فكرة التوقف، غذّاها على التوالي إحساس بالتظلم والتوحد والقهر والسن والتفاهة والعقوق، وكل ما يمكن أن يكون في صفه لو كانت الحال غير ما هي الآن.

ولكن التوقف أضحى مسألة ينبغي عليه أن يعيد فيها النظر. كان قد قطع مسافة طويلة من الطريق الصاعدة حتى أشرف على نهايتها. وأمسى الانحدار أكثر حدة. كان يحتاج في حال توقفه إلى رجل يدعم عجلتي العربة من الخلف بحجرين. «لو توفر ذلك الرجل فمن ذا يضمن توازن العربة وعدم انقلابها على مؤخرتها في اللحظة الفاصلة بين تثبيت الحجر وصدمة التوقف». هكذا فكر محمود وهو يرمش بعينيه الملتهبتين المخضلتين بالدموع. ثم أضاف صعوبة تحرره من الحبل المار فوق كتفه اليسرى عبر صدره في اللحظة المناسبة. ولم يلبث أن واجه نفسه بهذه الحقيقة «ولكنك وحدك يا محمود، وحدك في هذه الطريق. لا أولاد، ولا امرأة، ولا عابر يدعم عجلتك

بحجر.. يا هوه.. هل خلت الدنيا من البشر؟... ماذا بك؟ هل أصبحت عاجزاً تماماً؟.. أنت تبكي؟. كلا.. أنت تضحك؟ كلا.. أنت تبكي وتضحك معاً؟ كلا، لكني سأبكي حتماً عندما لا يكون هناك ما أعمله..إن المرء لا يفتقر إلى الحيلة، فثمة دوماً ما يمكن عمله.. يبدو لي أنه لا يزال في مقدوري أن أفعل شيئاً ما.. هيا يا محمود وامش في خط منحن، ولكن الطريق تطول. ولكنه يسهل عليك صعودها».

وانحرف محمود بعربته ودبت الحياة في العجلة اليمنى بعد أن أوشكت على التوقف، في حين تباطأت اليسرى وهي تدور على نفسها.

وازدادت ثيابه التصاقاً بجسمه، وأمست كل خلية فيه عيناً تنضح عرقاً. وتصالب عرقان في جبهته وأحس شريطاً بارداً تدحرج على ساقه انطلق من مغارة الفخذ.

ونشطت اليسرى بيننا أخذت اليمنى تدور على نفسها. لقد طفا الرأس فوق سطح الماء من جديد. «عندما أصل إلى تلك الصنوبرة. تلك الصنوبرة.. ماذا بعد؟ سأجد أولاداً وسأطلب إليهم أن يدفعوا العربة من الخلف. هيا يا أولاد وادفعوا العربة مع عمكم العجوز.. ولكن الأولاد يلعبون عادة على عتبة العابد.. ودار العابد أمست وراءك منذ زمن طويل.. إذن لا يوجد أولاد. سأبكي هذه المرة دون ريب.. ها أنت تنسى مرة أخرى موقع الأشياء وقد نسيت من قبل «وسطعت في ظلام خياله كلمة (فحام)» فاستدرك على الفور ضاحكاً: «ولكن اسمه مصطفى الفحام. وليس مصطفى الطحان.. من أين أتيت بهذا الطحان يا محمود؟ أنت تهرف».

كانت الشمس حتى تلك اللحظة قد ركزت غضبها عليه. لقد بحثت في الشارع عبثاً عن ضحايا آخرين. كانت هي الأخرى تبدو متوحدة وضائقة بحملها. إنها راحت تقرع قرعاً متواصلاً على صدغيه وتكوي نقرته. ولكن آلامها لم تكن شيئاً ذا بال إذا قورنت بآلام ظهره. فمنذ قليل فرقع شيء ما في جسمه. وارتاع منه في البداية فارتخت ركبتاه. ولكنه لم يلبث أن اطمأن في اللحظات التالية حيث لم يقع ما يخشى منه. «إنها جراح ورضوض قديمة..

كسور وصدوع أكثر من أن تحصى موزعة في أنحاء هذا البدن المهدم. لعل التعب قد حرك أحدها». ومع ذلك لم يدخل هذا التعليل كثيراً من الراحة إلى نفسه. كان قلقاً بشأن ظهره على نحو خاص.

ولاحق قدميه الحافيتين وهما تمران فوق ظله كأنما تحاولان أن تتخطياه. كما لاحظ انفراج أصابع كل قدم عندما تلامس الأرض ثم تضغط عليها لتنثني مرتفعة في الهواء. وشده شيء إلى داخله». من يستأهل مثل هذا التعب يا محمود؟.. ثلاثون سنة وأنت تعتل على ظهرك.. بيتك بالإيجار، ونوافذك بلا ستائر، وأولادك يخجلون منك.. هه. لنرى ماذا سيصيرون في المستقبل؟ فرسان برماح؟ هاها.. أي شيء في الدنيا يعادل آلام ظهرك الآن؟

ولكن إذا استمررت في التفكير فيه.. طيب.. طيب بماذا أفكر؟ خذ أم محمد مثلاً. آه البنت الكلبة لقد رفضت أن تنام معها بالأمس من أجل الستائر.. لم تعلم كم يكلف الحصول على القرش.. ولكن ماذا بشأن ظهرك؟ ظهري من جديد.. آه ماذا لو لو تصدع؟ لو تصدع؟ ولكنه لم يعد ظهرك الآن.. أحياناً أنكر ذلك لولا الألم.. أما ذراعاك فلن تكونا لك بعد قليل على كل حال وسيزول دبيب النمل منهما».

كان الألم في تلك اللحظة قد احتل الظهر والنقرة وركز فيهما جيوشه. ثم راح يوسع منطقته فاتجه ناحية أخرى وأخذ يغزو الطرفين السفليين. لقد بدأ بالرجل اليمنى. كان الاحتلال كاسحاً ومريعاً. وقد تم له كل شيء في نفس اللحظة التي انطلق فيها حتى إن الجسم لم تسنح له أية فرصة للمقاومة. لقد وجد نفسه مسحوقاً تحت ضربة صاعقة. ثم انتهت المعركة بانتصار الألم. ولم يبق منها إلا آثار بروق. أما اليسرى فقد استفزت كل ما لديها وكمنت للعدو. لقد تهيأت تماماً، ولكن ليس إلى الحد الذي يمكن أن يضمن انتصارها. لقد استنفذت حيويتها خلال هرج التهيؤ. لعلها كانت تدرك أن المعركة خاسرة. ولكنها لم تشأ أن تستسلم دون مقاومة. لقد فقدت على كل حال تعلقها فراحت تخبط خبطاً. وفي الوقت الذي امتد فيه التيبس إلى الرجل اليمنى، وأمست هزيمة الجسد محققة. ظهرت مشكلة جديدة.

كان التعرق قد وصل إلى ذروته، فتعيّن على محمود أن يبذل جهداً خاصاً كي يظل ممسكاً بذراعي العربة ولاح له أن المحافظة على هاتين الذراعين بات حقيقياً أكثر من الألم. فقد بدأت يداه المتعرقتان تخونانه بدورهما.

وبينما كانت جميع الدلائل تشير إلى أنه سينفض يده من هذا الأمر اتصل الحبل من جديد. «لماذا مات فهيم.. كان حماراً صغيراً، ولكنه جيد.. هش.. هش يا فهيم ويمشي.. هش.. هش يا فهيم ويسرع.. طريق الطابيات طريق صعب. لكني كنت سأدفعه من الخلف.. ليس فهيم أقوى من الثور، غير أنه أكثر صبراً. والرجل يفضل الاثنين.. الستائر شيء حسن لا ريب، ولكن لا معنى لها في بيت بالإيجار.. ليس ثمة طريق آخر غير طريق الطابيات».

وتلاحقت أنفاسه. وبات لهاثه أكثر تقطعاً. كان يقترب شيئاً فشيئاً من الفحيح، لكنه رغم ذلك فقد تابع طريقه، لأنه كان يدرك أن الرجل أكثر قدرة على احتمال الألم طالما هو قائم على قدميه، وطالما هو مستمر في سيره إلى الأمام.

* * *

# اللعنَــة

كان في قديم الزمان ملك في مدينة اسمها مدينة الشمس. وكان في هذه المدينة ميدان عام انتصبت فيه تماثيل آلهة وحكماء الأيام الخوالي. وأعمدة من رخام كي يُعلّق عليها اللصوص والقتلة والحواة. وكانت النسور قد عششت في هذا الميدان، لأنه لم يكن يخلو يوماً من المعلقين. ولكن رغم ذلك لم ينقص عدد القتلة ولا اللصوص ولا الحواة. فما كان من الملك إلا أن ضمهم إلى عسكره ليأمن شرهم، حتى صار كل عسكر الملك بمرور الأيام من الحواة واللصوص والقتلة.

وكانت هذه المدينة سعيدة، أو هكذا كانت تبدو على الأقل في بعض الأحيان، فعندما كان الملك يتفقد أحوال الرعية، سرعان ما كان المشعوذين والحواة يمرون بلمساتهم السحرية على المدينة، فترفل بألوان قزحية، وتحمرُّ مياه الآبار فإذا هي خمر معتقة. وتنضر الوجوه وتضحك. فيهتف الملك عندئذ:

- أوه ما أسعد مدينتي!

فتتابع الحاشية وراءه:

- نعم ما أسعد مدينتنا!
- حقاً ليس في الأرض أسعد منها.
- نعم ليس في الأرض أسعد منها.

أما تماثيل الحكماء التي كانوا لا يستطيعون شيئاً حيال ابتساماتها الرزينة، الساخرة من طرف خفي، فقد كانوا يجنبون الملك رؤيتها. حتى إذا ما انتهت رحلة الملك خبت الألوان، وفقدت الآبار سرها السحري، ومات الربيع المشتعل في العيون، وتصاعدت الأنات، متناغمة كثيفة، طافية - كالضباب - فوق المملكة. ولكن رغم هذا كانت الأنّات لا تبلغ آذان الملك،

لأن أسوار القصر عالية. ولو أصغى الملك يوماً لراعه ذلك الأنين الموصول، ولكن الملوك لا يصغون.

كان يجري إلى الشرق من مدينة الشمس نهر يدعى نهر الحياة. هو في الصباح والمساء نهر من الدم، وفي رابعة النهار دنانير فضية تلمع. وكان في أنحاء المدينة لافتات حمراء دموية مكتوبة بخط ملكي أنيق، موجهة إلى الشعب، مثل: «انظروا إلى الملك ألف مرة، وإلى نفوسكم مرة» و«كل الدجاج والبيض للملك» و«كونوا سعداء مثل الملك» وأخيراً «لا تغتسلوا في ماء النهر إلا بإذن الملك». وكانت هناك لافتات أخرى كثيرة. ولم يكن الاغتسال محظوراً في الماضي، ولكن لكل علة سبب.

فقد حل ذات يوم بالمدينة رجل غريب. لقد جاء عبر النهر ووقف طويلاً أمام لافتات الملك العجيبة. لقد قرأ خطوطها الدموية ومنذ ذلك اليوم صارت الحال غير الحال في مدينة الشمس:

- هناك على الشاطئ الآخر ينظر الناس إلى نفوسهم مرة وإلى الملك مرة.

- وماذا بشأن الدجاج؟

- للملك دجاجة وللفلاح دجاجة.

- والبيض.

- آه. هناك لا يأكلون البيض. إنهم يحتفظون به للنسل. كثير من البيض يعني مزيداً من الدجاج.

وفغروا أفواههم. وهزوا رؤوسهم بالشك، ولكنهم مع ذلك ازدادوا قرباً من الغريب. كانوا لا يصدقون آذانهم. لقد كان ملكهم يحتفظ بالدجاج والبيض معاً. وكان لا يترك لهم إلا ما يكفي للتفريخ.

- حبذا لو أخذ الملك الدجاج وترك لنا البيض.

- لو فعل لأطعمت ابني المريض بيضة.

- لو كانت لدي بيضة لأطعمت زوجتي بعضها، ومضغت أنا البعض الآخر. إن زوجتي حامل.

- أما أنا فسأفرِّخ منها دجاجاً.

- صه. لو سمعكم الملك فسيعلقكم على أعمدة الرخام لتنقر عيونكم النسور.

- آه.

وتلفتوا حواليهم بذعر، بينما تابع الغريب وهو ينظر إلى مزقهم البالية:

- وفي الأصائل عندما ينتهي الناس من أعمالهم، يرتدون ثياباً نظيفة ويتزاورون فيما بينهم، وعلى مصطبات بيوتهم، أو فوق الأسطحة - وهم يحشون غلايينهم - يتحدثون في أمور الزواج والموت والسدود والولادة والقحط والخصب والمرض.

وفكروا جميعاً في وقت واحد:

- ما أحلى الحياة هناك!

- أما في الأعياد؟

- أما في الأعياد؟

- فيلبسون حللاً زاهية وينحرون الأضاحي.

فرددوا مشدوهين، وهم يتحسسون معدهم الخاوية:

- أضاحي!

- نعم. إن الناس هناك لا يموتون من الجوع أو المرض.. إنهم يموتون بفعل السن.

وتناول أحدهم عوداً جافاً، قسمه نصفين، راح يحك جلده بنصف، بينما قدم النصف الثاني إلى آخر فحذا حذوه.

فقال الغريب للرجل الأول دهشاً:

- ليس ما يحك الجلد كالظفر.

فقال الرجل بخوف:

- ما حاجتي إلى الأظافر؟ إن هذا العود اليابس يفي بالغرض.

وهمس الثاني بعفوية:

- نحن لا نملك أظافر.

واستفسر الغريب عن السبب فران عليهم الوجوم أولاً، ثم الخوف.

- في بلاد العالم يحتفظ الناس بأظافرهم. إنها ملكية احترمتها الأديان السماوية. وكذلك المشرعون. من يدري فقد يجد الإنسان نفسه فجأة وجهاً لوجه أمام الغابة.

وما زال الغريب بهم حتى فهم بعد حرص شديد أن سجيناً فرَّ ذات يوم من سجنه بعد أن فتح ثغره في جدار السجن بواسطة ظفره. فقلع الملك منذ ذلك اليوم أظافر الرعية.

- إن ملككم ظالم.

وحدثهم عن الحياة وراء النهر. الطرقات النظيفة، الأناشيد، الألوان، الأزهار، الصحة، القمح، الأحذية، المراعي.

- نعم إن مراوح الطواحين لا تكل.

وتقلقل الفلاحون. كان يتنازعهم شعوران، كانوا في صراع بين الفرار من هذا الغريب والانجذاب إليه.

- كالأمطار بين الرمال، كذلك المحبة في غير موضعها..

إنه يتكلم أفضل من كل حكمائهم وآلهتهم السابقين. لقد مرق من جراحهم ودخل إلى قلوبهم فأشاع فيها الفوضى والاضطراب.

- إن الذين يموتون منكم، أكثر ممن يولدون، وعرقكم مهدد بالانقراض..

فأمنوا برؤوسهم.

- إنهم هناك يشقون الأرض بالمحراث، وعجلاتهم لا تصدأ.

وحدّثوا نفوسهم:

- بينما نحن نحرثها بأيدينا، وتجارتنا بائرة، ولا نجد قوت يومنا..

- إن بساتينهم مثقلة، وكلابهم ملت من التثاؤب على عتبات الدور، وخلف الأسيجة.

- أما نحن فكلنا نعوي.

- إن حكماءكم يجهلون التقاويم، وتعاقب الليل والنهار. يجهلون تناوب الفصول: الربيع، الصيف، الخريف، والشتاء، بينما جعب الصغار هناك وأكياسهم الملونة ملأى بالشموس.

وانحجب نور الشمس فجأة، فتطلعوا إلى الأعالي: إن أسراباً هائلة من النسور فوقهم وتخفي دونهم وجه السماء.

وما إن أقبل المساء، حتى كان الغريب ومن كان برفقته من الفلاحين، قد علقوا على أعمدة الرخام، وعن يمينهم وعن شمالهم تماثيل آلهة وحكماء الأيام الخوالي ببسماتهم الرزينة وغضبهم الوقور. في حين كانت أسراب النسور تحوم منذ زمن فوقهم وحواليهم. وقد حسب الناس أنها تقوم بهذه المناورات تمهيداً للانقضاض عليهم.

ولكن مضى وقت طويل دون أن تفعل.

- ما بال النسور؟..

- لماذا تلوي أعناقها؟

- لماذا لا تمزق مناقيرها الأجساد المعلقة؟.

وصُعق الملك وحاشيته وراعهم الحدث الغريب. ولم تلبث أروقة القصر أن خرجت عن وقارها الملكي. وراحت تستشير الحكماء، وتبحث في بطون الكتب وبين ضباب المباخر. وروعت النسور أكثر من غيرها فازداد صراخها مع ازدياد عجزها. ولم يكن الشعب في تلك اللحظة أقل روعاً.

- ما الأمر؟

- ماذا أصاب النسور؟

- ماذا أعجزها؟

- لعلها معجزة؟

- إنها معجزة!

- نعم إنها السماء أخيراً.

وخف الناس فعفروا وجوههم بالتراب، تقرباً للسماء، وقدموا لها النذور المنسية. ونبشوا صررهم، فأحرقوا لها مخزون بخورهم. ولكن السماء رفضت نذورهم، وأرسلت ريحاً صرصراً فأطفأت بخورهم. وانكفأ الناس فجزوا شعورهم حزناً وغماً.

ولكنهم لم يقنطوا فأعادوا تعمير مجامرهم. وقد حسبوا أن السماء رفضتها لنقص في إيمانهم. ولكن حدث في اليوم التالي نفس ما حدث في اليوم الأول. بل ازدادت نقمة السماء واشتدت. فقد سيّرت عليهم أسراباً من الحشرات الطائرة غطت عين الشمس. راحت تطن فوق رؤوسهم وتقرص أجسادهم، كأنها تريد بذلك تذكيرهم بقربان متأخر، أو لتحيي فيهم شعوراً ميتاً. وقد دامت هذه الحال ستة أيام وست ليال. في الوقت الذي كانت الريح تحمل فيه كلمات الغريب العجيبة وتنشرها فيتنفسها الناس مع الهواء والشمس.

وفي اليوم السابع ذهبوا لزيارة أحبائهم. وكانوا قد نسوهم في غمرة حزنهم وتملقهم للسماء. فقرروا أن يسألوهم المشورة بعد أن أعيتهم الحيل في كسب رضى الآلهة. قالوا:

- نحن أشقياء.

فرددت الجبال والوديان وراءهم:

- أشقياء.. أشقياء.. أشقياء.

وسرعان ما ذبلت الأزهار، فمالت أعرافها، واكفهرت منها الألوان. وسرعان ما نبتت الأشواك حول القبور.

- أي آباءنا وأجدادنا! أي أحباءنا! لقد غضبت علينا الآلهة وما نظنكم هنا راضين، فما العمل؟

ما العمل؟ ما العمل؟ ما العمل؟

وجاءهم صوت أحبائهم من بعيد طاوياً السهول وذرى الجبال والوديان والأنهار. صوت عميق هادر كأنه ينبثق من قلب الزمان:

- إن ملككم ظالم.

وتذكروا في الحال الدجاج، الأحذية، الدروب النظيفة، الألوان، والنجوم. وكل ما هو ممكن، وقابل للإمكان وراء النهر. قالوا:

- إن ملكنا ظالم. ونحن لا نملك قدرة، ولا أظافر.

- أظافر.

وحملت إليهم الريح أنيناً موصولاً متسق النغمات كجدول دائم الجريان، ينبعث من الأجساد المدفونة تحت أحجار القصور من الأقبية المظلمة، من الخرائب، من الأكواخ، من الأفواه الفاغرة، والظهور المحنية تحت لهب الشمس. ولطم الناس وجوههم وهيئوا قواريرهم.

- إن قوارير الدموع لن تجدي حتى، لو استنفدتم صلصال الأرض، ونذوركم باطلة..

وصعقتهم لعنة الأحياء.

- إن الأرض قد حبلت بفساد الملك.

وتملل شيء ما في نفوسهم، هناك تحت الأنقاض المتراكمة عبر الأجيال السالفة. وأفرخت كلمات الغريب: «ليس الأطفال وراء النهر هدفاً للصقور». وبكوا على كل الصغار الذين مزقتهم مخالب بواشق الصيد الناشئة «الجوارح تتدرب بصغار الطيور هناك. أما الأطفال فطيور الله على الأرض».

- يا ويلتا ماذا نفعل ونحن لا نملك قدرة ولا أظافر؟! لا قدرة ولا أظافر، والأرض تشكو من فساد الملك.

وأسفوا على كل النذور والقرابين والدجاج المنهوب والبخور والخمور والدموع المسفوحة تحت أقدام الآلهة والصلوات الحارة لخلود حياة ملك شرير.

- الهم مجلبة للضعف، ولا يخلف الحزن إلا يأساً.

- ماذا نفعل ونحن لا نملك مذراة ولا فأساً؟ وكل جنود الملك من القتلة واللصوص.

- لصوص. لصوص. لصوص.

- أي أحباءنا! أي حكماءنا. فليحرم علينا الطعام. فليحرم علينا الشراب قبل أن ترضى عنا الآلهة.

فقال الحكماء:

- صوم بلا معنى، شأنه شأن صلاة بلا هدف. إن الآلهة لن تقبل نذوركم حتى يقضي الشر.

وبرقت في خواطرهم فكرة.

- وكيف يقضي الشر؟

- فقال الحكماء ببساطة:

- لكي يوضع حد للموت ينبغي أن يقابل بالموت، فليس ما يقهر الموت كالإقدام عليه. وما دمتم لا تملكون مذاري ولا فؤوساً ولا أظافر.. ما دمتم لا تملكون جنود الملك، لأن كل جنوده من القتلة واللصوص، أنتم على الأقل تملكون ذواتكم..

وخيّل إليهم وعلى نحو ضبابي أنهم اهتدوا إلى شواهد الطريق.

- أما أجسادكم ففانية. وليس ما يشرِّف الإنسان ويضعه في مكانه الصحيح كانتصاره على الجسد

* * *

وعندما جاء الملتزمون في الأيام التالية لتحصيل الضرائب، فوجئوا بأمر غريب. فقد رأوا الموتى ومن هم في طريقهم للموت أينما حلو. فعادوا مذعورين إلى الملك.

- المرض. المرض

- الطاعون في كل مكان

فقال الملك بلا مبالاة:

- وماذا في الأمر؟ فليمت بعضهم.. إنهم كِثار يستنفدون الغلات.. كثار حتى أنني فكرت أن اصطنع بعض الحروب المحلية.

وقالت الحاشية:

- وماذا يهم؟ بإمكانهم أن ينسلوا غيرهم

في حين هزَّ الحكماء رؤوسهم وابتسموا بسخرية، كأنهم يقولون:

- إنها النهاية.

وفي مرة أخرى قيل للملك:

- إن الطاعون قد استشرى في المملكة والناس ينفقون بكثرة.

وقال آخر:

- إنه مرض غريب. لعله مرض فقدان الشهية.

فسأل الملك غاضباً، وكانت أعصابه قد وهنت في الأيام الأخيرة، وبات ينفعل لأتفه الأسباب، لقد استيقظ شك الملوك وهجر مناطقه البعيدة:

- ما هذا المرض الملعون؟ فليأخذكم الجحيم جميعاً.

- إن المريض يرفض الطعام والشراب والنوم. يرفض حتى الكلام.. ربما كان مرض فقدان الرغبة في أي شيء

فقال الملك:

- لماذا لا يأكلون؟ لقد تركنا لهم سوق الذرة والحنطة والشعير.

قال الحكماء:

- لن يأكلوا بعد.

- لماذا لا يأكلون؟ اجعلوهم يأكلوا. أي مُروهم بأن يأكلوا. أعطوهم العقاقير. أني آمرهم بأن يتناولوا العقاقير.

قال الحكماء:

- إن ما بهم ليس من المرض في شيء.. إن حالهم يستعصي على كل عقاقير الأرض..

وتوقف الحكماء قليلاً ونظر بعضهم إلى بعض، ثم أدلوا بهذه الحقيقة:

- إنهم ليسوا مرضى على الإطلاق. إنهم صائمون. وقديماً كان الحكماء يلجئون إليه. إنه أضعف أنواع المقاومة

فقال الملك:

- ولكن ما معنى هذا؟ لماذا يريدون المقاومة؟ ماذا يبغون من المقاومة؟ إن مدينة الشمس أسعد مدينة في الدنيا.

- ربما كان ذلك في الماضي. إن مدينة الشمس أتعس مدينة في الدنيا.

فقال أحد أفراد الحاشية:

- إن هذا الزمن العاق لم يعد يصلح للملوك.

فرد الحكماء:

- بل إن الملوك ما عادوا يصلحون لهذا الزمن. إن نظرتهم هي هي لم تتغير.

واقترح الحكماء على الملك أن يتفقد أحوال المملكة.

حينما نزل إلى الشعب. رأى مدينته على حقيقتها. كان مفعول السحرة والمشعوذين على الأشياء قد بطل. واعترضه البؤس في كل أنحاء المملكة: الدروب القذرة، الجحور المظلمة، الذباب، الجوع، العري، المرض، الأرض القاحلة والموت في كل مكان. وكان الملك يصرخ مستنكراً: «هذا محال. إنها ليست مدينتي. إن مدينتي هي مدينة الشمس. أما هذه المدينة فملعونة». ولكن اللافتات الملكية الحمراء كانت في كل ناحية. «انظروا إلى الملك ألف مرة قبل أن تنظروا إلى نفوسكم مرة» و«كلُّ الدجاج والبيض للملك». ولم يجد الملك عندئذ ما يقوله سوى أن يردد بذهول:

- كيف؟ منذ متى؟..

قال أفراد الحاشية:

- لقد أفسد الغريب الشعب. فقد قال أشياء عجيبة.. شريرة ينبغي أن نقيم السدود في وجه الغرباء.. الموت للغرباء الأشرار

وقال الحكماء:

- لقد فات الأوان. وعبثاً تقيمون السدود. فقد وجد النهر طريقه.

فقال الملك:

- هراء. إن تحويل الأنهار أمر شائع في التاريخ. انزعوا هذه اللافتات. هيا. بدلوها. أطعموهم. أعطوهم دجاجاً ولبناً وعسلاً. أدخلوهم إلى بيوت الخمر. افتحوا لهم مخازن الميرة. إني آمرهم بأن يغرفوا ما يشاؤون من مخازن الميرة.

فقال الحكماء:

- هذا محال. فقد خدعهم جد جدك مرة

وحاول أفراد الحاشية إغراء الشعب. فاستوقفوا بعضهم:

- كلوا. نطلب إليكم أن تأكلوا.. إننا نأمركم باسم الملك أن تأكلوا. كلوا دجاجاً فأنتم لم تذوقوه يوماً. وحضرت في الحال أطباق الطعام الملكية، غير أن أفراد الشعب لم يعيروها أدنى اهتمام.

- اشربوا واسكروا من هذه الخمرة. إنها من أجود كروم مدينة الشمس وعمرها ألف عام.

ولكن الشعب ظلَّ على حاله. وبدا لهم في لحظة من اللحظات أن كل محاولة معه لثنيه عن عزمه ضرب من العبث. ولاحظ الملك أية حياة شقية يعيشها شعبه. كان الموتى في كل مكان. وكانت التجارة بائرة، والمخازن قد هجرها أصحابها، فلا شراء ولا بيع. وأما الأحياء فبدوا كأنما يمشون بسيقان خشبية. كان بعضهم يحمل الموتى إلى جهات مجهولة. والبعض الآخر يواسي من كانوا في النزع الأخير. كان عملهم يجري بصمت الشعائر في المعابد. كانوا يتفاهمون بإشارات غريبة. وكان يستحيل على الآخرين فهم هذه الحركات. لقد أمسوا يتكلمون لغة أخرى.

واحتار الملك فيما يفعل فأطلق سهماً أخيراً. أمر بالهجوم عله يبعث فيهم غريزة العراك. واندفع الجند في تشكيلات هندسية رائعة مثلثات ومربعات على نفخات الأبواق المنذرة وضربات الطبول القارعة وقد صوبوا الرماح وسددوا الحراب. غير أن الناس تلقوا الطعنات بلا مقاومة، ولم تصدر عن أحدهم آهة توجع، كأن ذلك من مستلزمات الدور الذي يلعبون. حتى أن جنود الملك أصابتهم الدهشة وكادوا ينقلبون في اللحظات الأولى. وتساقط

القتلى كما تتساقط الأوراق في فصل الخريف. في حين هز الحكماء رؤوسهم كأنهم يقولون:

- عبثاً تحاولون.

وأمر الملك بوقف القتال. فقد بدا له أنه يقبض على حفنة من الرمال. كلما ازداد عليها ضغطاً ازداد عجزاً عن إمساكها. وغمغم:

- لا فائدة ولكن كيف لم يتسن لي معرفة ذلك.

قال الحكماء:

- البحر عميق واللؤلؤة في المحارة

وأعطى الملك إشارة الانسحاب ثم بدأ المسير. وكان الملك لا يفتأ يردد بذهول:

- نعم لا فائدة. لابد من الرحيل

وخشي أفراد الحاشية على نفوذهم. وقالوا فيما بينهم:

- إذا رحل الملك ضاع كل شيء

وحاولوا منعه عن الرحيل. فرفض. واستبد الغضب بأحد أفراد الحاشية فقتله. فما كان من عسكر الملك إلا أن هجموا على أفراد الحاشية وأتباعهم فقتل بعضهم بعضاً. في حين كانت أسراب النسور التي كانت تلاحقهم طوال الطريق ترسل صرخات حادة وهي تقترب من الجثث المنثورة على الأرض الحمراء.

قال أحد تلامذة الحكماء بإعجاب:

- لقد كان نبيلاً على الأقل عندما قرر الرحيل.

فقال حكيم وهو يسرح الطرف عبر الأفق:

- بل كان مثالاً للأنانية..

كانت الشمس قد مالت وراء التلال، واصطبغ نهر الحياة بلون الدم.

- لقد عرف أنه لو كان ثمة أمل في نجاة فرد واحد لآثر البقاء.

واستغرب التلميذ. فاستطرد حكيم ثان:

-لقد أدرك أنه لو رفض الرحيل لنفق آخر فرد من الرعية.

وقال حكيم آخر:

-كان يخشى أن ينقرض الشعب.

فقال التلميذ:

-وإذن؟

-إن انقراض الشعب يعني لديه انقراض أسرته من التاريخ.. لقد كان ملكاً.. إيه.. إن الملوك لا يتغيرون.

وحينما زار الناس قبور أحبائهم في اليوم التالي، لاحظوا أن الأشواك السوداء قد اختفت تماماً، بينما تفتحت الأزاهير حول القبور، فأدركوا عندئذ، وعندئذٍ فقط، أن الآلهة رضيت عنهم.

* * *

# متاعب «رتيبَة»

كانت في الثامنة أو التاسعة من عمرها. شعرها أشقر، عيناها زرقاوان واسعتان ترتدي فستاناً قصيراً كأنما خُيِّط لفتاة أصغر سناً. أما بشرتها فمن لون شعرها أو تكاد.

إنها تقف في الصباح قرب مدرسة خاصة للراهبات، شعرها محزوم عند القحف بشريط رفيع من المطاط وسائب عند الأطراف. وجهها مجلو مشرق كأنها تنتظر إحدى لدَّاتها لتلجا معاً بوابة المدرسة. بل كانت تبدو على أتم الاستعداد لتفعل ذلك وحدها بعد لمستين أو ثلاث تمران سريعاً عليها. إن الناظر إليها يحسب، فيما لو غض الطرف عن بعض الاعتبارات الأخرى، أنها ابنة تاجر، أو ملاّك، أو صاحب مشاريع. رجل ما ذو شأن فارغ البال عن معاش يومه. حتى أن المرء ليتوقع إذا ما اتخذت الأمور هذا المجرى الطبيعي أن يكون لها أيضاً اسم ما عصري مبتكر. هالة، أو شيء من هذا القبيل. اسم يدل على الاهتمام والتعلق.

من الممكن أن يحسب المرء أي شيء، ومع ذلك يبقى الواقع شيئاً آخر. كان اسمها رتيبة لكنه تحوَّل بفعل التحبب أو السخط إلى رتوب. ولم يكن أبوها تاجراً، ولا ملاّكاً، ولا أي شيء من هذه الأشياء المرموقة، بل صياداً. والحق أنه كان يشتغل في الصيد أيام المواسم، وفي السكر حين لا يكون ثمة صيد. أما الآن فإنه لا يشتغل إلا في السكر. طبعاً كان ينبغي ألا يسلك هذه الطريق مهما كانت ظروفه قاسية، وهو أب لخمسة أولاد، ومع ذلك فقد سلكها. حينئذ لم يكن من سبيل أمام الأم بعد أن يئست من إرجاع الأب إلى جادة الصواب سوى أن تتحرك للعمل.

لقد فحصت أقفاص الصيد وقلّبتها على مختلف جوانبها لترى مقدار العطب فيها. كانت خَرِبة بعض الشيء، وصدئة من قلة الاستعمال. وسرعان ما أصلحتها ببعض الأسلاك المتبقية من الماضي. ثم زودتها بالطُعم وقذفت بها إلى اليم قريباً من الشاطئ.

وقامت بعد ذلك بتوزيع المسؤوليات على أفراد العائلة. استخدمت محمداً وهو صبي في الثانية عشرة من العمر في دكان حداد وطلبت من المعلم ألا يدَّخر وسعاً في شأن تعليمه. وقالت له: «اللحم لك والعظم لي». بالإضافة إلى تكليفه بالبحث عن الخبز اليابس في ذهابه وإيابه لتعمير الأقفاص بالطعوم.

أما رتوب فكان ينبغي عليها أن تبيع السمك المصيد في الأمكنة المجاورة. وأضافت الأم بعد مدة إلى مسؤولياتها مهمة غسل ثياب الناس. في حين لم يكلف الأولاد الثلاثة الباقون بشيء، لأنهم في الواقع أصغر من أن يكلفوا بأي عمل.

حدث ذلك في مواسم الصيد أيام الصيف والخريف. أما الآن فليس ثمة من صيد. وإنَّ رتوب تبيع اللحظة الكعك والجوزية على باب مدرسة خاصة للراهبات في صينية من النحاس.

لكن رتوب بردانة الآن، والتلميذات في الداخل. بينما راح فكرها يتساءل في قلق: متى تخرج التلميذات إلى الفرصة؟

متى يخرجن؟ عندما يُقرع الجرس دون ريب ورتوب تعرف ذلك. لكنها تشعر بالوحدة الآن علاوة على أنها بردانة. لو يمر الآن بعض عتالة المرفأ لكان من الممكن أن يبتاعوا بضاعتها.

إنَّ مِنْ شأنهم أن يمشوا جماعات. جماعة واحدة منهم تكفيها. كعكة من هنا. قطعة جوزية من هناك. وإذا بضاعتها بعد فترة أثر بعد عين.

وتدير رأسها ناحية اليمين. لا عابر. إذن فلتدر رأسها ناحية اليسار. لا أحد أيضاً.

لا أحد إلا هي بجانب الجدار، وبضاعتها في صينية من النحاس على الأرض. حتى أنّ الريح الصافرة التي كانت تهب من الشرق وتعبر الشارع باتجاه البحر، كانت تستغرب من وجود هذه الطفلة في الطريق في وقت لطى الناس فيه قرب مواقد النار.

يا الله ما أحلى أن يكون المرء جالساً قرب منقل عامر، وساقاه مكسوتان بجرابين سميكين أسودين كجوارب هاتيك البنات! وأحلى من ذلك سروال كحلي طويل حتى الكعبين. ولكن من أين لها مثل ذلك السروال الطويل! آه لو كان لديها واحد مثله.

بيد أن رتوب الآن في الشارع وريح الشرق الباردة تصفع ساقيها وتدور حولها، وترتفع لتنفخ فستانها، ثم تتغلغل فيما بين فخذيها وطرفي سروالها الداخلي فيبرد أسفل بطنها وظاهر ساعديها وظهرها.

لو كان هناك شيء تحتمي به ويرد عنها الريح كسيارة الأمس. ولكن لا يوجد شيء اليوم. وفراغ العتبة الذي اعتادت أن تحشر نفسها فيه، فيما بين باب المدرسة الحديدي الأسود وطرف الجدار في الزاوية، يبدو لها أضيق من أن يتسع لجسمها. كل شيء مختلف اليوم. إنها تقف منذ الساعة السابعة وبضاعتها لم ينفق إلا جزء منها، والبرد قارس. وكنزة الصوف الحمراء في الغسيل. ليت أنها لم تخلعها هذا الصباح عنها. لماذا يغسل الناس في البرد؟ لكم هي مسرورة أنها ليست كبيرة لتقوم بغسل الثياب.

ودارت على نفسها استدارة. ونظرت من شق فيما بين طرف الجدار والباب الحديدي المثبت فيه برزّات طويلة بعض الشيء. كان ذلك الشق من السعة بحيث يسمح لها بأن تمد منه بصرها إلى الساحة، كما تمرر منه بضاعتها إلى زبائنها.

وكانت وهي تنظر من الشق أشبه بخارجة على القانون تتحين الفرص لتبيع أشياء محرمة. وكم تعرضت هذه المهربة الصغيرة حقاً إلى زجر الراهبات بحجة أن كعكها وحلوها مكشوفة ليس يحفظها غطاء على الأقل.

وعادت إلى وقفتها السابقة بعد أن ارتدَّ بصرها خاسراً. كانت الساحة خالية تماماً. ثم عجبت لماذا لم يأت أخوها حامد، أو أمها. يا لطيف كم هي جائعة! ولكن أمها مشغولة اليوم بالغسيل، فاستبعدت زيارتها. أما أخوها فلا شك أنه يداعب أخته الصغيرة الآن. وفكرت أن تنتقل إلى الطور الثاني.

إنها تود أن تلقي نظرة من هناك على باب البيت على طرف الشارع، علها تصادف أحد أفراد العائلة داخلاً أو خارجاً لشأن من الشؤون فتذكره بنفسها. كان البيت قائماً في الساحة المقابلة للشارع الذي ينعطف يميناً إلى الكورنيش، ويساراً إلى الميناء، بين جملة البيوت القديمة. غير أن الريح شاءت أن تندفع في تلك اللحظة باردة دافعة أمامها بعض الورق أو الأشياء الأخرى التي صادفتها في طريقها فذكرتها بما يمكن أن تتعرض له في مغامرتها فامتنعت عن الذهاب، واكتفت من ذلك بالتمني: لو مر حامد فسأقول له: «هيا يا حامد واجلب لي بعض الخبز والزيتون ولا تتأخر». ثم فكرت أنها ستبصق على كعبه كما تفعل أمها حين تبعث بها إلى السوق لشراء حاجة، لتزيد من عجلته فلا يتهاون.

وأفلت منها خيالها. كانت تعرف أن أخاها لن يعطي الأمر ما يلزم من أهمية، فلحقت به إلى البيت. كان الدفء أول ما صادفها ولفها في غلالة لطيفة حانية. ولم تسمح له بأن يعطلّها عن قصدها. كانت جائعة تماماً. ثم ينبغي أن ترجع إلى بضاعتها التي تركتها على الطريق. ومضت إلى الوعاء الذي يحفظ فيه الخبز، وأزاحت عنه غطاء من الخشب ذي حواف. فانزاح فكرها معه. ومشت في الطريق المؤدية إلى بوابة المرفأ حافية القدمين على رأسها غطاء من خشب فيه سمك لا تزال فيه رائحة البحر فتملأ أنفها «سمك.. سمك طري يا سمك». الجو حار تماماً. والأرض ساخنة حتى لتحس سخونتها الآن في بطنها وصدغيها.

لكنها سخونة كاذبة. رتوب أنت بردانة حتى العظم.. هيا لزّي.. لزّي إلى الزاوية. اسندي قحف رأسك إلى باب الحديد.. ولكن الحديد بارد.. ولكن الريح قرصت أنفك أيضاً.

وتراجعت رتوب إلى الحد الذي لا تستطيع بعده شيئاً. حتى بات ثقلها على أصابعها أكثر منه على بقية قدميها. وشدَّت يديها ممدودتين على جنبيها. كانت أشبه بصورة حلوة في أرضية غير مناسبة. زهرة ذهبية في إطار أسود. لقد أخفت كل ما تستطيع أن تخفيه من جسمها عن مسرى الريح الشرقية. لكن الريح الشرقية كانت تندفع في هذه اللحظة لا من مكان معين. من فوق، من الشمال والغرب حتى من ورائها، من الشق الذي تتعامل من خلاله. والواقع أن ثمة صراع بين الريح الشرقية، والريح التي تحاول أن تجد لنفسها طريقاً من الغرب. وقد استطاعت الرياح الغربية بعد كرٍّ وفرٍّ دام ثلاثة أيام من أن تلامس قدماها الشاطئ منذ قليل. وهدأت الموجات الخفيفة التي كانت الريح الشرقية تحدثها على الشاطئ حتى صارت غصوناً. وران على البحر سكون ظاهري مؤقت حتى تتجلى المعركة. وتوقفت الغيوم في الأعالي كتلة قطن قذر. أما رؤوس الأشجار في الحديقة المجاورة، فكانت تخفق في أكثر من اتجاه اللحظة بعد اللحظة. كان هذا الصراع يجري في غفلة من رتوب، وإن كان غير بعيد عنها. فقد اندفعت على حين غرة فلول مذعورة من ريح الشرق، واختبأت في فستان رتوب، فأحدثت في جريها هرجاً، واضطرب الفستان فانتفخ.

وخطر لها أن تبدل مكانها. لم يعد مكاناً آمناً من الريح والبرد. لكن أين تمضي؟ الشارع كله مكشوف.. لا سيارة ولا عتبة بيت بينما البرد يزداد شدة. آه لو لم تخلع عنها أمها الكنزة الحمراء هذا الصباح للغسيل. إنها لم تشعر في حياتها بمثل هذا البرد. فشفتاها زرقاوان. وأرنبة أنفها حمراء. وأطراف أصابعها تؤلمها. يا الله! إنها لم تعد تشعر أن لها أصابع. وجسمها كله يرتجف وعنَّ لها أن تمضي إلى البيت.

ولكن كيف تمضي إلى البيت وبضاعتها لم تنفق. وماذا بشأن أمها؟ لتذهب إذا كانت لا تريد أن تبيت ليلتها دون طعام. هيا لتفعل إذا شفي كتفها من عصا البارحة. وشيء آخر لابد أن تحسب له رتوب حسابه. ذلك أن أمها كانت غاضبة بسبب شجار حدث بينها وبين زوجها ليلة البارحة.

كان ذلك في منتصف الليل، حين دخل الزوج مخموراً. كان لابد أن تقول له الزوجة شيئاً بعد غياب دام عشرة أيام. إذ ليس من المعقول أن تفتح له صدرها وتقول: أهلاً بزوجي العزيز، بل الذي حصل هو العكس. ومما قالته: هيا اغرب عن وجهي. أنت لا تعرف هذا البيت إلا عند حاجتك. وطبعاً هو لم يترك البيت بالتي هي أحسن. كان صياداً يعرف كيف يتصدى لعاصفة في اللحظة المناسبة.

إن ما جرى ليلة البارحة لا يزال حياً في ذهن رتوب. وقد زادت الأم الطين بلة حين أضافت صباح اليوم معقبة على الحادثة، إنها ستترك البيت والأولاد، لأنها – وهي المرأة – لا تستطيع أن تسد حاجات بيت فيه ستة أفواه. ورتوب تشفق الآن أن تنفذ الأم وعيدها. فيالشقائها إن فعلت.

لتبحث إذن عن وسيلة تقي بها نفسها هذا البرد حتى يدق ذلك الجرس الملعون.

وانحنت رتوب تحمل صينية الكعك والحلوى، فاستغفلها الهواء وأطار شعرها، ورد فستانها إلى ظهرها، فبان سروالها. إنه سروال قصير أزرق. ها هي ذي الصينية على رأسها. لكن الريح تريد أن تقلبها فماذا تفعل؟ لتتشبث بها أولاً بأول. ثم لتدبر أمرها بعد ذلك.

وتحركت باتجاه شجرة زنزلخت لتتخذ من جذعها واقياً. غير أن الريح الشرقية صفعت صينيتها فتقلقلت إلى الوراء، وطارت كعكة، أو كعكتان. ثم استدارت لتسير في الاتجاه المعاكس. بيد أن الريح كانت لها بالمرصاد أيضاً. ودفعت الصينية من الخلف، فانحنت إلى الأمام وسقطت كعكة، كعكتان، ثلاثة.

وتوقفت، يا لحيرتها! وأعملت ذهنها. إذ ليس من الحكمة أن تظل واقفة في مهب الريح والطبق على رأسها.

هناك باب ثان للراهبات والمعلمات فلماذا لا تلجه. إنه باب حديدي أصغر من باب التلميذات، إحدى درفتيه مفتوحة دائماً. ووراءه مباشرة طولانية تتشمل ثلاثة أمتار في عشرة يميناً ويساراً من الباب.

هيا. لتمضي إذن بحملها. إنَّ الفسحة ستقدم لها مكاناً آمناً. وحقاً كان الهواء وراء باب المعلمات يكاد يكون معدوماً. كانت الفسحة محوطة من أكثر الجهات. فمن الشمال بناء المدرسة، ومن الشرق والجنوب جداران عاليان. ناهيك عن بعض الأشجار في طرف الفسحة الشرقي.

وأنزلت رتوب الصينية عن رأسها. إن عليها أن تسترجع الكعكات التي بعثرها الهواء. ما كادت تفعل فتخرج إلى الشارع، حتى كان الهواء في انتظارها وأطار فستانها عالياً ففضح نحول نصفها السفلي.

وراحت بعد ذلك تتحرك في دائرة، ثم قطعت هذه الدائرة وأخذت تذرع أرض الفسحة جيئة وذهاباً. ثم على صورة غير معينة كما تقودها قدماها أو كما أوحى إليها البرد أن تفعل.

والواقع أنها ما كادت تتخلص من الريح التي كانت مشكلة تفاديها تشغل معظم تفكيرها، حتى وجدت نفسها وجهاً لوجه أمام البرد. كان إحساسها به يتفاقم. وهكذا شرعت تتحرك كيفما اتفق لتبعث الدفء في أوصالها.

وتسلل الجوع من معدتها إلى خيالها. يا إله السماء كيف نسوها! ألم يفطروا هم في البيت؟؟ أمها وأخوتها. كلهم. فماذا لو أكلت بدورها كعكة؟.

إن البحر القريب لن يطغى في الليل ويبلغ الدار. ولن يتسلل الغول من كوة البيت فيخطفها من فراشها. ولن تجثم أم مرزوق الجارة العجوز على صدرها وتخمد أنفاسها. لن يحدث شيء من ذلك على الإطلاق، سوى أن أمها ستغضب ويجن جنونها: «بثمن كعكة تشترين رغيف خبز يا بنت الكلب. إن شاء الله سم». وهات يا ضرب.

وقد فعلت رتوب ذلك مرة. فيا لذلك اليوم المشؤوم.

وأشاحت بوجهها عن صينية الكعك. ولكن كعكة معينة حمراء ولامعة لاحقتها. وبدأ خيالها يقضمها. قضمة وراء قضمة، والسمسم ينسحق تحت أضراسها محمصاً دسماً، واللعاب السائل يسد حلقها.

«متى يدق الجرس» تساءلت. كانت خائفة من نفسها. لم يعد الجوع في معدتها، بل في رأسها. كانت الكعكة الذهبية. المدورة المتألقة كنجم، المرقشة

بالسمسم المحمص قد تسللت إليه وجعلت تنمو فيه، حتى ملكت خيالها. وتلقت المعدة إشارة بالعمل فقرقرت، ثم شرعت تقرصها.

صبراً، صبراً رتوب. عما قليل تخرج البنات إلى الفرصة، وتنفق بضاعتك فتعودين إلى البيت وتأكلين ملء بطنك.

لكن الجرس لا تبدو عليه أدنى رغبة في الحركة في هذا الجو القارس. ورتوب بردانة حتى الموت. لا بل جوعانة. يا الله أيهما كان أقسى عليها من الآخر. أكلاهما وحش لا يرحم؟

وتألقت عيناها استعداداً لمشروع بكاء. لكنها بدلاً من أن تفعل ذلك، انطلق لسانها على حين غرة وقذف «يلعن أبوكم».

من خصَّت بهذه اللعنة؟ الله أعلم. ولعلها شملت أباها وأمها وإخوتها وبنات المدرسة والجرس والناس جميعاً.

ونفخت رتوب في يديها ووضعتها تحت إبطيها. ودارت دورة أو اثنتين، ثم حانت منها التفافة إلى الكعكات بنصف إرادة. ولكن كعكة واحدة انفردت عن الأخريات بتألق خاص، وتدوير خاص، وترقيش خاص. وتحركت حركة أخرى. ثم عادت وقرفصت، وانشمر فستانها عالياً، فبان ساقاها وفخذاها.

ومدَّت يداً مشفقة، فلمست الكعكة الذهبية بحنو بالغ. ثم تناولت سمسمة، سمسمة ليس غير، محروقة بعض الشيء. والتقطتها بلسانها ذي بدء. ثم سحقتها فأحسست ألماً في أسنانها وأضراسها من فرط اللذة. وامتلأ فمها لعاباً. كان الوحش قد فتح شدقيه وحطم الحواجز، لقد أهاجته سمسمة.

وغابت عنا رتوب في سحابة بنفسجية. وأحست دواراً. وامحَّى الكل. فالتقطت الكعكة، وبدأت تلتهمها.

وحينما فرغت منها. أغرتها كعكة ثانية. كان الوحش يريد أن يقتطع رغيفاً آخر من قوت العائلة. لكنها أسكتته قائلة: يكفي واحدة. لقد أمسى في مقدورها أن تقف الآن في وجهه.

حسناً لقد انتهت الكعكة إلى جوفها. وانفتح الطريق واسعاً أمام طيور القلق لتخفق فوق رأسها. وإذ طرأ لها أن عملها سيجلب سخط أمها. عللت النفس بأكثر من أمل. إنه ليس من المستبعد أن تخدع إحدى المشتريات إذا ما أعطتها قطعة نقود من فئة الربع. أو النصف ليرة. أما إذا أعيتها الحيلة وكانت كل الرغبات في الشراء من صاحبات الفرنك، فليس ما يمنعها آنئذ أن تهرب بأحد فرنكات هؤلاء، وهن ما هن عليه من عجز، وراء باب المدرسة الكبير المغلق.

لقد جعلت رتيبة تُطمئِّن نفسها. لكنها في الواقع لم تستطع رغم ذلك أن تبدد سحابة الخوف التي لاحت في أفقها.

ثم.. ثم ماذا يمنع أن تكلفها إحدى الرهبات بعمل وتنقدها فرنكاً كما حصل مرة.

كان ذلك منذ بضعة أيام حين قالت لها راهبة قصيرة مدورة الوجه: احملي هذه الملفوفات إلى الداخل. ما عليك إلا أن تتبعي هذا الرجل. كان ثمة صندوقان خضار، أو ثلاثة على باب المدرسة، وسلة وبضع ملفوفات.

إن رتيبة تقدر الآن في سرها تلك الراهبة، إذ طلبت إليها أن تنقل الملفوفات واحدة فواحدة. طبعاً كان في مقدورها أن تحملّها ملفوفتين أو أكثر دفعة واحدة. ثلاث مثلاً. اثنتان على اليدين وواحدة فوقهما لكنها راهبة لطيفة. وليس ما يمنع رتيبة أن تميل إليها. حتى أن خيالها يزين لها أنها رأت وجهها المدور الحلو من قبل في مكان ما. هو أو شبيه له رأته فيما بعد. وجه يحنو على طفل، أو يقبل طفلاً. إنها لا تدري.

لكن جو المدرسة في الداخل دافئ وغريب معاً. وليس ثمة ما يمسك رتيبة اللحظة أن تعاود نقل الملفوفات. إن رتيبة تتباطأ الآن في رواق جانبي. صور ورسوم عن يمينها ويسارها، والجو ساكن لطيف. ما أحلى أن تعيش هنا إلى الأبد! تنام على هذه الأرضية النظيفة وتأكل من المطبخ.. تشاهد هذه الرسوم وتتجه إلى المطبخ كلما جاعت. لعل هذا ما تفعله البنات هنا، فوق أنهن يلعبن في الساحة أيضاً. بيد أن رتيبة لا تريد أن تلعب في الساحة. في

الساحة برد. وهي لا تحب البرد. أما إذا كانت الشمس طالعة فستنزل إلى الساحة وتلعب بالحبل.

كانت رتيبة لا تزال على حالها منذ أن قرفصت لتأكل الكعكة. كانت تحس بالدفء في وضعها ذاك. والواقع أن رتيبة مدينة للجو إلى حد كبير بذلك الدفء. كانت الريح الشرقية في تلك اللحظة تدافع عن نفسها متراجعة أمام الريح الغربية بعد أن كانت مهاجمة. وأراحت رتوب ظهرها إلى جذع شجرة.

يصدر من مكان ما ترديد نشيد. ومن ناحية ثانية أقرب كلمات. نقرات موسيقية تصل إليها بوهن؛ الموسيقى تجذب رتوب فتتقدم محاذرة بضعة أمتار. تقترب من زجاج نافذة مرتجة. ثمة شيء غريب لامع يشبه الصندوق تجلس وراءه امرأة. على جانب بضع تلميذات صغيرات ومعلمة. المعلمة تنتقي واحدة منهن وتفردها عن الأخريات. تحزر رتيبة من حركات المعلمة أنها تدربها على الرقص. المعلمة الجالسة وراء الصندوق تنقر على خط أبيض فتتصاعد موسيقى. الحياة تدب في الأرجل. الفتاة ترقص. المعلمة ترقص جانبها. الأذرع ترتفع. الأكف تنثني، تدور. تتكلم. الفتاة تفشل في ملاحقة حركات المعلمة. الموسيقى تتوقف. المعلمة تختار واحدة أخرى.

وتعجب هذه اللعبة رتيبة فتزداد اقتراباً، وينسحق أنفها على زجاج النافذة.

وتعيد المعلمة الحركات نفسها أمام التلميذة الجديدة. وتصدح الموسيقى. وترقص الفتاة. وترقص المعلمة. النتيجة غير مرضية. اختيار جديد.

تتقدم في هذه اللحظة الراهبة القصيرة المدورة الوجه، تلك الراهبة التي لا تدري رتيبة أين رأت وجهها ذات مرة، وتقول لها من الخلف: «أنت هنا؟! ماذا جاء بك إلى هذه الناحية؟» وتصرفها بعد أن تنقدها فرنكاً.

لكم تود لو تركتها الراهبة حيث كانت بدلاً من ذلك الفرنك. هناك، في الرواق، حيث تاهت، لا بيع للسمك، ولا شجار بين أمها وأبيها المخمور، ولا ضرب بالعصا، ولا برد، ولا جوع، ولا نقل ماء في الأماسي على كتفها في صفيحة من بئر الجيران.

وتنهض رتيبة من جلستها.

ماذا لو أبقتها تلك الراهبة الحلوة الوجه؟ إنها مستعدة أن تنقل ملفوفاً وراء ذلك الرجل الذي يحمل الصناديق على ظهره طالما شاءت الراهبة ذلك. وترقص وتلعب بالحبل وتعمل كل ما تفعله الأخريات.

ها هي ذي قدمها اليمنى تتقدم. أو ليس على هذا النحو ترقص المعلمة. ذراعاها يرتفعان. الصندوق الأسود اللامع يزفر بالموسيقى. قدمها اليسرى تلحق باليمنى. ذراعاها ينبسطان في مستوى كتفيها. إنها صليب. إنها طائر يشق الهواء. قفزة وراء قفزة. الشعر المحزوم عند القحف، السائب عند الأطراف يخفق على ظهرها. نسمة غريبة دافئة، مشبعة بالماء تلامس وجهها. تداعب شعرها. رتيبة تجري في دائرة. شعرها يطير وراءها ذيل مهر صغير. فستانها القصير يرتفع. ينتفخ بالهواء ويكشف عن نصفها السفلي النحيل.

وتابعت رياح الغرب زحفها المظفر. واندفعت الأمواج إلى الشاطئ جليلة مهيبة وعطفت الأشجار رؤوسها نحو الشرق تنظر هل ثمة من أثر للعدو. كان غزواً كاملاً من البر والبحر والجو. وتساقط المطر يغسل أرض المعركة من أشلاء الرياح الشرقية المنهزمة.

أما رتيبة فقد واصلت رقصها بعد أن انحرفت قليلاً حتى صارت في حمى شجرة خرنوب كثيفة. لقد استخفها الفرح وسرت الدماء دافئة في عروقها. إنها لم تعد بردانة الآن. وتألقت عيناها. إنها أشبه بسنبلة ذهبية جارت عليها شمس تموز. «أنا أرقص أحسن من كل البنات». وارتفعت في الهواء للحظة، خفيفة لا تلامس الأرض إلا بأصابع قدميها. هنا أيضاً تعثرت البنات. القدمان تضربان الأرض.. تقرعان قرعاً متتالياً. اليمنى. اليسرى. رتيبة تخطو إلى الأمام خطواً إيقاعياً. ذرعاها ممدودتان تتقدمانها. وثنية صغيرة تستعطف آلهة غير منظورة.

وحالما استوت قائمة على قدميها أقبلت تتفقد مصير الكعك والحلوى. لقد فعلت ذلك حتى قبل أن تفكر بأن تنفض الوحل والماء عن نفسها. ولكن

ماذا ترى؟! آه يا إله السماء رحماك. كان كل شيء مشوهاً وملوثاً بالوحل والماء.

إن البحر القريب الهادر لن يطغى في الليل فيطوي البيت ويبتلعه. ولن يتسلل الغول من الكوة الخالية من الزجاج ليخطف رتيبة من فراشها. ولن تجثم أم مرزوق مجنونة الحي على صدرها لتستل روحها.

لكن.. لكن بالرغم من ذلك. فإن رتوب لم تمض في ذلك اليوم الماطر، ولا الأيام التي تلته إلى بيت ذويها.

* * *

# البِّذوُر الطيّبَة

كانت كلمات أمه لا تزال ترن في سمعه عندما صفق الباب وراءه، وبيده سلة من النايلون المشبك في طريقه إلى حانوت العم حسنين. لقد طلبت إليه العودة دون إبطاء وحذرته من التأخر، شأنها دائماً عندما ترسله في طلب حاجة ولا سيما بعد الحرب.

ولعل عمار قد عقد النية بادئ ذي بدء على العمل بنصيحة أمه خلافاً لعادته، لولا أن وجد العم حسنين منشغلاً مع بعض الزبائن، فلم يلبث أن فترت همته في الوفاء بوعده. والواقع أن عماراً لو شاء من ناحيته أن يستعجل العم حسنين لكان من الممكن أن يلبي له طلباته وينصرف من ثم إلى البيت. ولكنه وجد في هذه المناسبة ثغرة ينفذ منها إلى انتحال الأعذار جرياً مع طبيعته التي تهوى التسكع.

لقد أدرك بعد وهلة من وقوفه أمام الحانوت أن الاهتمام الأول بين العم حسنين والزبائن كان منصباً على الحديث أكثر منه على عمليات البيع والشراء. وفوق ذلك فقد كان الحديث يدور حول مسألة تمسه بشكل مباشر، ألا وهي إضراب المدارس احتجاجاً على السلطات الإسرائيلية المحتلة. لقد أحب عمار أن يستمع إلى ما يقوله هؤلاء الرجال بهذا الشأن. إنَّ «عمار»، وإنْ بدا قليل الاهتمام في تأدية بعض الواجبات المنزلية، وحتى وإن كان يميل إلى التسكع في كثير من الأحيان، غير أن هذه العيوب تعتبر قليلة الشأن بالقياس إلى شغفه بدروسه وتفتحه كما يقال.

لقد نهض هذا الصباح مبكراً نشطاً كمعظم الصبيان الذين في مثل سنه في يومهم الأول للمدرسة، لكنه لم يلبث أن صدم حين قيل له: «لا ذهاب إلى المدرسة طالما هناك يهود في نابلس وغيرها»، وقيل له أيضاً رداً على أسئلته الملحة «هذه المسائل أكبر من عقلك. هيا إلى السوق واشتر صابوناً».

واقترب عمار خطوة ونصف الخطوة من المتحدثين كي يسمع على نحو أفضل.

كان هناك ثلاثة رجال في مدخل المخزن قرب نضد العم حسنين. كان أحدهم شاباً ملتحياً، وآخر ملفعاً بكوفية. أما الثالث فله شارب أسود كث كسف كل معاني وجهه، أو جعلها على الأقل تبدو أقل بروزاً في إطار وجهه لولا عيناه الحافلتان.

قال ذو اللحية:

- لقد حاولوا أن يغروا الأساتذة بالمال.

فعقب الملفَّع:

- مجانين! لن يجدوا عربياً يتساهل معهم.

قال العم حسنين:

- إنهم سيغيرون البرامج.

فقال الرجل ذو الشارب:

- نعم! إنهم يهدفون إلى تخريب أفكار النشئ.

وقال العم حسنين في لهجة هي إلى الثقة أقرب منها إلى الاستفسار:

- لعلهم سيقبضون على الأساتذة بتهمة التحريض.. إن الغزاة يجدون دائماً سبباً للقبض على الناس.

وغشيت المكان فترة صمت. قال ذو اللحية:

- إنهم يدمرون البيوت بحثاً عن الفدائيين.

فقال الملفِّع:

- حجة.. هذه حجة يتخذونها ذريعة للإرهاب.

وعلَّق الرجل ذو الشارب:

- الطريقة الوحيدة..

وتلفت حواليه فوقع بصره على عمار والتقت عيناهما:

- الطريقة الوحيدة أن نشعرهم بأن الشعب كله من الفدائيين.

ونظر عمار إلى كتفي الرجل العريضتين. وتساءل الرجل الملَّفع:

- ولكن كيف؟...

فقال الرجل ذو الشارب:

- من السهل أن يستفرد اليهود بأي شخص بدعوى أنه من الفدائيين. ولكن حين تتحرك الضفة الغربية كلها كجسم واحد يصعب عليهم اتهام أفراد.

ونظر عمار إلى ساعدي الرجل المفتولين، إلى رقبته الملفوفة، إلى جسمه القوي جملة وتفصيلاً، ولم يلبث الرجل ذو الشارب أن انصرف، وقد ترك وراءه سحابة من الهيبة والغموض.

لقد تساءل كل واحد من الواقفين في سره: «أليس هو من الفدائيين؟!». ثمة شيء ما أمسكهم عن إلقاء هذا السؤال جهراً. ربما كان الشعور بأن لليهود عيون كثيرة، وأنه لمن الخطورة بمكان التحدث في مثل هذه الأمور في جماعة التقت عرضاً، أو لعلهم أدركوا بالحدس أن الجواب بالإيجاب، فلماذا إذن إلقاء هذا السؤال؟ حتى عمار شيَّعه بنظره إلى أن غيّبه المنعطف. وكان لا يزال خياله في خاطره حين بدَّد العم حسنين الصمت الذي خلفه الرجل:

- لقد ابتاع عدداً كبيراً من علب التبغ.

ولكن هذا القول كان من الإيحاء حتى بدا أنه قد ألقى ضوءاً كافياً على الدرب الذي مضى فيه شكهم.

والتفت العم حسنين إلى عمار:

- إيه! ماذا تريد يا عمار؟ ما أخبار أختك وراء النهر؟

- لقد سمعنا صوتها أمس بواسطة الراديو، إنها بحالة جيدة.

فقال العم حسنين عل الفور وبلهجة مشوبة بالسخرية:

- طبعاً.. طبعاً حالتها جيدة. لعلها قالت. أنا عزيزة بنت الشلت من نابلس عمري ١٩ سنة. آه لقد نسيت أنهم لا يذكرون السن. ذكر السن في الراديو شيء زائد. حسناً. أنا عزيزة بنت الشلت من نابلس أبعث تحياتي إلى

أبي أحمد وأمي وأختي فاطمة وأخي نمر وأخي الصغير عمار. صحتي جيدة. اطمئنوا وطمنونا. يا لها من رسالة مطمئنة. وقبل أن تنهي الكلمة الأخيرة قطع الراديو صوتها كي تحل غيرها محلها. أو لأنها لم تستطع أن تخفي غصَّتها. إن إظهار الانفعال في الراديو شيء غير مستحسن. يجب أن نبدو أقوياء كأنما نحتنا من الصخر.

ثم التفت إلى الرجلين، وتابع بلهجة أقل انفعالاً:

- لست أدري. لعله ينبغي أن نبدو كذلك مهما كانت الظروف.

ثم إلى الطفل:

- حسناً. ماذا تريد يا عمار؟..

- صابون وشاي.

ثم أضاف عمار الذي حرص أن يبدو أنه يعرف من أخبار أخته أكثر مما قال:

- كانت ستأتي إلى نابلس. لكن إسرائيل قطعت عودة النازحين، لقد قدمت طلباً. إنها تعيش الآن في مخيم مع جماعة من ضواحي نابلس.

قال الملتحي بحماسة ظاهرة، ولعله لم يشأ أن يبدي أية محاولة ليخفي انفعاله:

- عجباً! برقبة من هذه المآسي.. تصوروا فتاة تذهب إلى عمان لشأن ما ثم يحال بينها وبين العودة إلى ذويها.. ماذا كنا نفعل خلال كل هذه السنين. لماذا يتعين علينا نحن من دون أهل الأرض جميعاً أن نملأ فم هذا السرطان.. وها هي ذي الأرض تتقلص في كل مرة من تحت أقدامنا.

ثم واتته صورة بعد لحظة من الانقطاع. وحين وفق إلى صياغتها في عبارة، وجد أن الحبل الذي انقطع لم يعد في متناوله، إذ كان العم حسنين قد مضى إلى داخل المخزن باتجاه رف المعلبات. فانصرف الملتحي، ولكنه لم يشأ أثناء سيره إلا أن يضيف العبارة فيما بينه وبين نفسه إلى حديثه السابق، فقال بشيء من التأسي: «إننا نشبه المياه التي أصابها الجزر.. إننا ننحسر مع الأيام موجة بعد موجة».

قال العم حسنين:

- هل قلت يا عمار صابوناً وسكراً؟

ووضع المعلبات على النضد. كانت ثلاث علب ويطل من كل علبة رأس ثور. تناول العم حسنين من الملفع ثمن المعلبات ورماها في الدرج، بعد أن أحصاها بسرعة. فتصاعد منها رنين أصم، وردد:

- صابون وسكر.

وسارع الرجل الملفع إلى القول متقدماً على عمار الذي فاته أن يصحح طلبه في اللحظة المناسبة:

- أحسب أنه قال صابوناً وشاياً.

ولعق عمار عندئذ شفتيه كأنه يلحس الكلمات التي هيأها على رأس لسانه، بينما أشعل الرجل الملفع سيجارة وأخذ يلف حاجاته بقدر من العناية، وبدا أنه غير مستعجل الذهاب.

- صابون وشاي. نعم نعم. كم تريد صابوناً وكم تريد شاياً؟

- خمس قطع صابون وعلبة شاي.

وكرَّر العم حسنين:

- خمس قطع صابون وعلبة شاي.

وتقدم إلى الأمام فحمل الصابون من طرف المخزن الأيسر، ثم وضعه على النضد، وقال دون تعيين فبدا كأنه يحدث نفسه:

- نعم. ماذا فعلنا خلال كل هذه السنين.

وقرّب قطعة صابون من أنفه بحكم العادة أكثر منها بفعل الاختبار. وكأن حركته تلك كانت أشبه بالنقطة أو الفاصلة بين عبارتين:

- يا إلهي أين نضع وجوهنا.. كل هذه الملايين من العرب. نحن شعب فشّار.

وتناول علبة عن يمينه دون أن يخطو خطوة. ومدَّ عمار بثمن مشترياته إلى العم حسنين الذي أخذها بدوره ونظر إليها. ثم قال للصغير:

- لقد بقي لك في ذمتي مليم. فماذا أعطيك بهذا المليم يا عمار؟

وطافت عينا عمار بسرعة في أرجاء المخزن، بينما كانت يده تنقل الصابون إلى سلة الشبك. ثم ارتدت العينان ثانية فبدأتا رحلة فوق رفوف قريبة. فمر بصره فيما مر بالدفاتر والمماحي وأقلام التلوين، ثم بالعلك والمربى والشوكلاته ولب السوس.

وأهمل عمار رف اللوازم المدرسية، لا لأنه لم يعد يستشعر حاجة إلى الدفاتر وأقلام التلوين بعد إغلاق المدارس، بل بالعكس، إن أول ما استوقف نظره هي أقلام التلوين، وكاد يشير إليها، عندما تذكر أن محفظته حافلة بهذه الأشياء. أما رفُّ الحلوى فلم يكن فيه أي شيء طريف. وكل أصنافه قد مرت تحت أضراسه. وكاد ييأس من العثور على شيء يبهره حينما استحثه العم حسنين:

- حسناً يا عمار. ألم تنته إلى قرار بعد؟...

- أعطني من هذا.

أشار عمار بسبابته.:

- ولكن هذا طباشير ملون. عجباً ألم تعرف أن المدارس لن تفتح؟ فماذا يمكن أن تستفيد من هذا الطباشير؟ أنت كعادتك دائماً لا تعرف ماذا تريد حقيقة.

كان الرجل الملفع قد مضى لشأنه منذ لحظة. وكان العم حسنين يحس برغبة ملحة إلى الكلام. كان رجلاً صامتاً في الماضي، ولكن الهزيمة زلزلت روحه وحولته إلى إنسان لا يكف عن الثرثرة. وكان يتحين الفرص ليمرر انتقاداته. قال بلهجة أكثر لطفاً:

- لا عليك يا عمار. كلنا هكذا لا نعرف ماذا نريد.

ثم بلهجة أبوية حانية:

- كانوا أفضل منا. نحن جيل لا خير فيه.. إليك طباشيرك. اختر شيئاً لفمك. أحب أن أقدم لك شيئاً على حسابي. هل ما زلت تحب لب السوس؟ خذ إذن قليلاً منه.

وتناول عمار الحلوى، وهمَّ بالانصراف، فاستوقفه نداء العم حسنين:

- يا عمار قل لوالدك أن يمرَّ بي. فلدي ما أود أن أحدثه به.

ومرَّر عمار يده في أذني السلة حتى استقرت هناك مكان التقاء الساعد بالعضد. ثم طوى ساعده فتدلت السلة كأنها معلقة في مشجب، وأصبحت يده أكثر حرية في حمل لب السوس إلى فمه.

وفتح يده الأخرى بينما هو يتابع سيره. كان فيها أربع أصابع من الطباشير الملون. أبيض، أحمر، أزرق، أخضر. يا لسروره! تلك هي أول مرة يرى فيها مثل هذه الألوان في الطباشير. ونقّل حبة السوس في فمه بسرعة من جانب إلى جانب. حتى الأبيض وهو لون مألوف لديه صار له ضوء خاص في نفسه. كل لون يزهو بنفسه ويشير إلى اللون الآخر. كل قالب عالم قائم بذاته غير محدود الضياء. الآن يستطيع أن يكتب ويرسم ويلوِّن على لوحه الأسود الخشبي الجديد ما شاء له مزاجه أن يفعل.

ورأى فتيين يعرفهما من حيه يتحدثان بجانب جدار. كان أحدهما يقضم كعكة بغير شهية، وآخر يدخن لفافة، فتمهل حينما حاذاهما. قال صاحب اللفافة:

- لقد اعتقلوا الأساتذة، ويقال إن ثمة مظاهرة ستنطلق من مكان ما.

فقال الآخر:

- وماذا تنتظر من اليهود؟

وابتلع لقمته بصعوبة. وقال بعد تأمل قصير:

- لقد مزقوا أحلامنا يا محمد ودمروا كل شيء. لقد اعترضت سيول النازحين نحو الشرق مرة وقلت: «يا جماعة إلى أين أنتم راحلون؟». كان هناك عجوز يحملها حفيداها. لقد اصطنعوا لها نقالة من شرشف وعودين، «بالله عليك يا جدة» قلت. وعبثاً بحثت في ذهني عن شيء أقوله لها. ورمى الكعكة دون أن يكملها.

- من الصعب أن تطلب من الآخرين أن يقاتلوا بإيمانهم فحسب.

فرد الآخر:

- ولكن هل تعتقد أننا نملك الإيمان.. إني أشك في ذلك.. إني أشك.

وقال بعد لحظة توقف بلا مقدمات كما يسقط الشهاب في الفراغ:

- هؤلاء الأطفال.. هؤلاء الآلاف من الأطفال في مخيمات.. غداً عندما يحل الشتاء.. إني لا أستطيع أن أتصور ذلك.

وكان عمار في أثناء ذلك ينقل بصره بين الاثنين. فما يكاد أحدهما يمسك بزمام الحديث حتى يترك الآخر ويلاحق المتكلم.

وقال صاحب اللفافة منفعلاً:

- لقد سمموا حياتنا فيجب أن نسمم حياتهم. لنزرع الرعب في قلوبهم. قل لي يا محمد لمن هذا القول: «إذا لم تمت حبة الحنطة في باطن الأرض لن تزهو في الربيع سنبلة؟».

- لست أدري. لعله كاتب كبير أو نبي كبير. ولكن ما الفرق. يبدو لي أنه ليس هناك خلاف كبير بين الكتَاب والأنبياء في بعض الأحيان.

فعقّب الآخر:

- ليكن من كان صاحبه. يخيل إليّ أن هذا القول يفسر كل شيء.

وانصرف الشابان بعد أن سحق صاحب اللفافة لفافته بعقب حذائه. واستأنف عمار سيره فقطع بضعة أمتار حتى اقترب من نهاية الساحة حيث يتفرع طريقان. كان كل من الطريقين يؤدي إلى بيته، وإن كان لكل منهما ميزاته. فالطريق التي في صدر الساحة طريق قصيرة مباشرة، وإن كانت مغبرة في الصيف وموحلة في الشتاء، أما الطريق الجانبية فهي طريق أطول.

وقد اعتاد عمار أن يسلك هذه الطريق في الأوقات التي لا يكون فيها على عجل من أمره، ولا سيما أيام العطل الأسبوعية. فبعد أن يجتاز عدداً من القناطر يتوقف عند عين العسل فيبتلع حفنة أو حفنتين من الماء يتلذذ بها، وقد يرشق وجهه أحياناً ببعض الماء تبرداً قبل أن يمضي في الشارع العريض متسكعاً يشقشق فستق العبيد أو يمض لب السوس.

وما كاد يصل إلى النقطة التي بات يتعين عليه فيها أن يحدد وجهته، حتى فكر أن الوقت لا يزال مبكراً كي تبدأ أمه الغسيل، فليتقدم إذن في الطريق الجانبية. وفوق ذلك فهو إذا ما سلك هذه الطريق فسيمر من جهة الشرق بمدرسته التي اشتاق إليها، ومن يدري، فقد يصادف المظاهرة التي تحدث عنها الفتى ويستمع إلى بعض الأشعار والخطب الحماسية. ثم.. ثم هو لم يزر شارعه العريض منذ أن حدثت الحرب.

وبدأ عمار سيره في أزقة مسقوفة بالقناطر. كان الجو هناك بارداً نوعاً ما. والنور أقل ضياء. وكانت العتمة تشتد أحياناً، أو تخف تبعاً للشمس، حيث تتكشف أو تحتجب وراء غيمات أيلول الفضية، وكانت الطريق خالية باستثناء الشخصين اللذين صادفهما عمار في فم الزقاق واحداً بعد الآخر.

وفكر عمار: «عجباً أين ذهب الناس؟». وتسارعت خطواته. لم يشعر أبداً في هذا الطريق من قبل بمثل هذه الوحشة. ففي الأيام الصائفة كان يحس بشيء من الراحة، بل من الفرح يسري في رجليه ويديه وأنحاء بدنه عامة، فيتواثب كالعصفور وهو يجوز هذا البلعوم الرطب المعتم.

حتى عين العسل كانت خالية من السقائين بينما الماء يخرخر بهدوء. واجتار العين دون أن يشعر بأدنى رغبة بالتوقف لازدراد جرعته المعتادة، أو يرشق وجهه بالماء.

وشاعت البرودة في أطرافه، وتسارع وجيب قلبه مع تسارع خطواته، حتى أحس خوفاً لم ينقشع إلا عندما صار في الشارع العام. وفاجأته الشمس في الخارج بتألق حاد فبهرت عينيه وآذتهما، ثم ما لبثت عيناه أن اعتادتا الرؤية.

كان أول ما لفت نظره في الشارع مشهد دورية إسرائيلية تتقدم في اتجاهه، مؤلفة من أربعة جنود يهود وشرطي عربي. وكان الجميع يمتطون جياداً. كان الشرطي العربي يسير في المقدمة جامد الملامح كأنه وجه مصكوك على عملة قديمة، أما اليهود الأربعة فيسيرون وراءه مباشرة مثنى مثنى، على وجوههم تعبير وقح. ذلك التعبير الذي لا يظهر إلا على

الأشخاص الوضعاء حين يحصلون على أشياء لا يحلمون بها في الواقع. وكان الجنود اليهود مسلحين ببنادق سريعة الطلقات، بينما الشرطي العربي أعزل من أي سلاح.

ولم يكن هذا شأن الدوريات دائماً. كانت الدوريات في الأصل مؤلفة من اليهود فحسب. ولكن حدث في الشهر الماضي أن اختفت دورية يهود بأحصنتها في حارة الياسمينة. فلجأت السلطات الإسرائيلية عندئذ إلى اتخاذ شرطي عربي كدرع لحماية الدورية.

وتقدم عمار بضع خطوات أخرى. ثم توقف فقرأ على جدار مواجه «يسقط الاحتلال الإسرائيلي»، وتحت هذه العبارة مباشرة بخط أصغر «المدارس مغلقة حتى إشعار آخر».

وتوقفت الدورية فجأة. ونظر قائدها إلى الكتابة على الجدار، وتمتم ساخطاً ببعض الكلمات. ثم استأنفت الجماعة سيرها. وما كادت تعبر عماراً حتى تفل في أثرها «كلاب. أولاد كلاب».

وتابع الصبي سيره بعد ذلك حتى وصل إلى مخزن لبيع القطع الأثرية فوقف أمام واجهته، وبدا للحظة أنه يبحث عن شيء معين. ولم يطل تنقل عينيه، إذ سرعان ما استقر بصره على نسر محنط مثبت إلى قاعدة منشور الجناحين. لكنه لم يمكث طويلاً حتى تملّكه الملل، عبثاً كان يأتي في كل مرة كي يرى أن النسر قد تخلى عن قاعدته. كان يود أن يراه يوماً يطير طيراناً حقيقياً.

واستأنف سيره من جديد. كان الشارع كعهده به دائماً. والمخازن والدور والأرصفة في أماكنها، كذلك أشجار الكينا على جانبي الطريق. والسينما! ها هي ذي السينما هناك. ولاحت له من بعيد بقية صورة في لوحة للإعلانات السينمائية تمثل قبضة مغلقة كأن صاحب تلك الصورة قد اشترك بدوره في الحرب ولم يبق منه إلا هذا الذراع المهدد، أو القارع على باب أصحابه صم.

كل شيء في شارعه الأثير كما كان يعرفه من قبل، سوى أن مخزن «القناعة» للألبسة الجاهزة قد حطم كما حَدَّث أخوه، وقيل إن اليهود قد نهبوه. وسوى عمود كهرباء قد لُوي حتى ناخ إلى الأرض وتقطعت منه الأسلاك.

وأما ما خلا هذا وذاك، فلم يكن ثمة شيء قد تغير أو أُزيح من موضعه. لكن مع ذلك بدا له أن كل شيء قد تغير وأزيح من موضعه. فالشارع والمخازن والدور والحوانيت والناس وأشجار الكينا والواجهات البلورية لاحت لعينيه أنها ليست هي ذاتها. وإنما هي قد استبدلت بأشياء شبيهة بتلك التي يعرفها. وأن الشارع لم يعد نظيفاً حلواً، وأنه يعج بأشياء غريبة ترقبه وتشاركه أنفاس الهواء.

وانتقل فجأة إلى الرصيف الثاني كأنه يحاول الإفلات من تلك الأشباح التي تكدر عليه صفاء نزهته. ثم شرع يحلج، فيركض. وسرعان ما عاد يحلج ثانية حتى تعبت منه رجلاه، فاقتعد عندئذ جانب الرصيف ومد رجليه على السكة.

«لا تتأخر يا عمار» تذكر وصية أمه، وفكر أن عليه أن يرحل إلى البيت. لماذا هو منقبض النفس؟! ما الذي حدث لشارعه الأليف؟! ربما لأنه تأخر أكثر من المعتاد؟ لكن من عادة عمار أن يتأخر أكثر من ذلك أحياناً. لا شك إذن، لا شك أنه حزين لأن عزيزة وراء النهر.

ومرت دورية يهودية في سيارة لوري. كان فيها صفان متقابلان من الجنود اليهود«١، ٢، ٣، ٤، ٥، ٦-١، ٢، ٣، ٤، ٥، ٦,٦ و٦=١٢. في السيارة إذن ١٢ يهودياً، ١٢ يهودياً يعني ١٢ خنزيراً».

ولاحق السيارة وهي تدرج ببطء، كما لاحظ الجنود اليهود. كان كل منهم قد ركز أمامه بندقيته بين رجليه واعتمد سبطانتها بيديه.

واستعرض وجوههم بسرعة. ثم توقف عند واحد منهم له سحنة غير مألوفة وشاربان مقرفان. وشعر نحوه بنفور خاص، وللحظة كان الصفان من الجنود لهم نفس السحنة الغريبة والشاربين الكريهين.

«يسقط الاحتلال الإسرائيلي» صاح بصوت رفيع غاضب. وأحسَّ أن هؤلاء اليهود هم الذين شوهوا شارعه وسلبوه إياه. وأن آلاف العيون التي كانت ترصده في الخفاء إنما هي عيونهم. ورفع يده التي تحمل السلة مهدداً: «لماذا أختي عزيزة وراء النهر يا خنازير. اللعنة عليكم». ولوّح له أحد

الجنود بيده، ولعله حسب أن الطفل يرحب به، وسره أن يحييه عربي وإن كان طفلاً، فأشار له ضاحكاً. ونظر عندئذ باتجاهه أكثر من جندي يهودي. وابتعدت السيارة.

«تقول لهم: يسقط الاحتلال الإسرائيلي. فيضحكون. وتقول: اللعنة عليكم، فيشير البندوق بيده». وأضاف بعد لحظة: «ربما هم لا يفهمون كلامنا». وبصق على الأرض بين رجليه ثم مسح البصقة بقدمه وتذكر الدورية التي كانت تمتطي الجياد واعتلى في لحظة ظهر الحصان الأحمر مكان الشرطي العربي واستلَّ سيفه من غمده في مثل لمح البصر وضرب يميناً، وضرب يساراً، فجندل الجنود اليهود وتدحرجت رؤوسهم مضرجة بالدماء.

آه لو كان أطول! وحرر ذراعه من السلة. ثم وضعها بقربه. وأحس بلزوجة في يده فبسط راحته. كانت حبات لب السوس قد تميعت. وفكر أن يرميها. لم تكن الحبات السوداء لذيذة مثلها في الماضي. إنها تترك في فمه طعماً غريباً يزداد كثافة.

واخترقت الطريق سيارة مسرعة. ومرّ رجل فقال له عمار بوقار:

- يسقط الاحتلال الإسرائيلي.

فقال الرجل:

- يسقط الاحتلال الإسرائيلي.

- ونصحه الرجل أن يمضي إلى البيت، لأن الجلوس على الرصيف بهذه الوضعية ليس آمناً في هذه الأيام.

«إنهم سيفتقدونني» فكّر عمار. ثم قال حانقاً بصوت عال: «لماذا ينبغي أن أعود دائماً إلى البيت»، ثم برفق أكثر: «لعلهم يخافون عليّ، إذ يحسبونني ما زلت ولداً صغيراً». ودفع حبة سوس إلى فمه. وقال بسخرية مضخماً صوته كصوته أمه: «لا تتأخر يا عمار فالغسيل على النار». طبعاً طبعاً الغسيل على النار. وعمار من يجب عليه أن يشتري الصابون. هيا يا عمار اشتر الشاي، هيا يا عمار اشتر الخبز. هيا يا عمار.. هيا عمار.. ونمر لا

عمل له في هذه الأيام إلا التغيب عن البيت. وإذا ظهر في البيت فلكي يغير ثيابه على عجل. وليأكل أحياناً لقمة كيفما اتفق وهو مطرق مقطب وسط أفراد العائلة يجيب قليلاً على أسئلتهم الكثيرة. ومع ذلك فعيناه لا تغفلان لحظة عن صرّته المجهولة التي حملها معه. وإذا اقترب منها عمار قيل له: ابتعد عنها لا تمسها. وإذا حاول عمار أن يشارك الآخرين التحدث عن اليهود والمقاومة والسياسة قيل له: أنت صغير حتى تتحدث في هذه الأمور، طبعاً صغير في التحدث عن السياسة واليهود والحرب، ولكن غير صغير عندما يشتري الصابون والسكر والشاي والخبز واللبن. وعندما قال هذا الصغير لنمر: والله سأبصق على اليهود. قال له: لعلهم سيقطعون رقبتك إن فعلت. وها آنذاك بصقت ولم يقطعوا رقبتي.

ولاحظ أن يده الثانية ما برحت مغلقة منذ زمن طويل فاستغرب ذلك. وفتح يده فطالعته أصابع الطباشير الملونة وضحكت له. وسرعان ما حملت خياله إلى البيت ودخلت به رواقاً حيث لوحه الأسود الخشبي الجديد يستند إلى جدار. قال عمار مخلصاً: «ينبغي أن أعود إلى البيت». لقد وعده اللوح الأسود، والطباشير الملون بعدد من التخيلات الملونة لا حصر له.

لكنه بدلاً من القيام بأية محاولة حقيقية في سبيل التحرك إلى البيت، يدفع حبتي السوس إلى فمه ثم يجفف باطن يده الرطبة في مؤخرة سرواله.

والآن لينقل إليها أصابع الطباشير بعد أن يستبقي في يده الأخرى واحداً من تلك الأصابع. ولكن أيهما يختار؟ الأبيض؟ ليس الأبيض حتماً. حسناً لعله الأزرق دون ريب.

ولكن السماء الفسيحة زرقاء أيضاً. ثم إن بيته أزرق بدوره. ليكن الأحمر إذن. وسرعان ما انفرد الأحمر بتألق خاص.

واستبقى عمار الأحمر في يده، بعد أن نقل أصابع الطباشير إلى اليد الثانية.

حسناً ليجرب الأحمر الآن على الأرض. أليست الأرض سوداء بدورها كاللوح الخشبي. هو ذا خط وآخر. يا للون الجميل!

ومر بيده على أرض السكة بحنان. ثم انبطح على الأرض والآن ليكتب. ولكن ماذا يكتب؟ وفكر فخطر له عفواً: «إلى أختي عزيزة وراء النهر. لقد اشتقت إليك كثيراً. ولم يعد أحد يضربني في البيت. حتى نمر لم يعد يفعل ذلك. ربما لأنه يتغيب كثيراً عن البيت. لقد بكت أمك كثيراً أمس عندما سوّت سريرك، وقالت: يا ويلي كيف تنام الآن؟ وقالت أيضاً: أنتم لا مراحيض عندكم في المخيمات، وإنما تقرفصون في البراري وتقضون حاجاتكم».

وتوقف لحظة عن التخيل. لقد فكّر أن يسألها: «ألا تستحون من بعضكم...» ورفع رأسه فشاهد شابين يحثان الخطى وسمع طلقات رصاص بعيدة. ثم تابع تفكيره: «لقد بصقت اليوم على اليهود الخنازير، وقلت لهم: يسقط الاحتلال الإسرائيلي».

وكاد يختم خطابه إلى أخته، عندما تذكر، فأضاف: «لقد قالت الماما أيضاً: لا بد أن ثيابك قد اتسخت كثيراً».

لكن عماراً لم يخط حرفاً مما خطر له، لقد فكر أن هذه الكلمات الكثيرة تليق برسالة. ثم تابع تفكيره بصوت عال: «سأكتب لها رسالة حتماً عندما أعود إلى البيت» ولكن ماذا يكتب الآن؟!

ووضع إصبعه على صدغه. وراح يبحث في ذهنه عن شيء آخر. شيء سريع ومقتضب مثل: «يسقط الاحتلال الإسرائيلي» أو «المدارس مغلقة...».

وبدأ بكتابة حرف عين. ثم محاه وهاد فكتب فاء، ثم كتب لاماً. وعندئذ انكسر إصبع الطباشير تحت ثقل يده الضاغطة، فأهمل القطعة الخلفية من الطباشير وأمسك برأس الأصبع من جديد.

ولعل انكسار الطباشير قد أتاح له مجالاً لم يكن في الحسبان، فاغتنم الفرصة وراح يتأمل جمال اللون الأحمر. أو يسترجع ما كتب ليختبر مدى صلاحيته كبداية.

واستأنف الكتابة ثانية. فمد قاعدة اللام قليلاً وشرع يصلها بحرف آخر.

ومرقت في الشارع سيارة إسعاف تزمر تزميرها الخاص. فلاحقها المارة بأبصارهم. لعلها فسّرت لهم همهمة الرصاص البعيدة التي سُمعت منذ قليل. ولاحظ عابران يقطعان الرصيف عماراً فسأل أحدهما رفيقه:

- عجباً ماذا يفعل هذا الصبي المنبطح هناك؟..

ومن بعيد لاحت الدورية الإسرائيلية الآيبة تتقدم فوق أحصنتها. أما عمار فقد تابع عمله وشرع يثبت الحرف الأخير من كلمته الأولى، واستطاع العابران أن يقرآ «فلسطين» حتى قبل أن يكمل عمار تنقيط الحرفين الأخيرين من الكلمة، وتوقف عابر ثالث وسأل:

- ما الحكاية؟..

ثم سكت عندما قرأ كلمة فلسطين. وكاد يتكلم من جديد عندما نظر إليه أحد العابرين. فأمسك ثانية. وساد الموقف جو من الهيبة أشاعه انهماك الصبي الجاد في عمله. وتساءل كل من الواقفين في نفسه عن الكلمة التالية.

وفي الأعالي كانت الشمس تحتجب أو تمدّ رأسها من خلال غيمات الخريف الرمادية كأنها تتوقع أمراً ما. وصفقّت أغصان الكينا لمقدم الشتاء. وعلى طول الشارع الذي يكاد يكون خالياً تقريباً كانت الدورية الإسرائيلية تتقدم باستمرار فوق أحصنتها.

وبلل عمار أصابعه بريقه ومسح الحرف الثالث بعد العين والراء من الكلمة الثانية، ولفّ ساقاً على ساق في انبطاحه. وبدأ يخط حرفه الثالث من جديد فكتب باء، ثم ألحقها بياء.

وحينما مدّ الياء كي يصلها بالحرف الأخير ليُتم كلمته، استأنف العابران الأولان طريقهما ثم لحق بهما الثالث على الأثر. لقد قرؤوا الكلمة قبل أن تتم. كان واضحاً بالنسبة إليهم أنه سيقفل الكلمة بالتاء المربوطة. قال أحد العابرين بتأثر:

- تصور هذا الطفل!

ثم غصّ. وقال رفيقه:

- يا إلهي هل حسبنا اليهود لقمة سائغة حقاً؟

وكادت الدورية الإسرائيلية المارة تعبر عماراً. غير أنّ قائدها تساءل في اللحظة الأخيرة عما يفعل هذا الصبي المنبطح في عرض الطريق، وشد عندئذ عنان جوداه نحو النقطة التي انبطح فيها الصبي، فتبعته بقية الدورية على الأثر.

حدث ذلك في نفس اللحظة التي نهض فيها عمار واقفا وبدأ ينفض ثيابه وهو يقرأ بالخط الأحمر الكبير: «فلسطين عربية».

وفي البيت كان الأب ينتظر الشاي ليتناول وجبة الصباح. أما الأم فقد تساءلت بقلق عن السبب الذي أعاق ولدها. بينما كانت الثياب التي تحتاج إلى الغسيل تغلي فوق النار بانتظار الصابون.



# الملاح وَسرّ البلورة

وعندما وصل إلى مشارف القرية هرَّته كلابها. ولكنها لم تتعد حدود ذلك. ثم تراجعت وركنت وبدأت توصوص إليه بعيون مرتابة من على مصطبات البيوت. وكانت ألسنتها المتدلية الحمراء بعيدة عن القرار.

أما هو فقد تابع طريقه بهدوء في دروب القرية. وكانت الشمس تبعث إليه برسلها من خلال أوراق الأشجار، فترسم على ثيابه رماحاً وأشكالاً من نور سريعة الانمحاء.

وكان أهل القرية كغيرهم من البشر يتصايحون من على أسطحة المنازل. وكانت النساء حبالى، والرجال يجترون ذكريات الماضي البعيدة، والأطفال يدورون في حلقات، بينما الثعالب تُغير على العناقيد الدانية. وكانت الحملان والذئاب تطعم جنباً إلى جنب. قال:

- هذه قرية غريبة.

ورنَّ في أذنه دوران دولاب. كان ثمة صبية قاعدة على مصطبة تغزل. وعلى مسافة منها قطة تداعب كرة الغزل. وكان شعرها حبلاً مجدولاً أسود. وكان يعلم أنها ترنو إليه من جانب.

وكرَّر قوله:

- هذه قرية غريبة

ثم أضاف:

- أهلها سعداء حتى الثعالب

فأمنت الصبية برأسها. وتابع:

- إنها تلتهم العنب بلا خوف.

فقالت الغازلة:

- بل إنها تقوم بمداعبة العناقيد فحسب. لقد لوينا أعناقها يوماً، احتفظت ببعض حركاتها القديمة ليس غير. أما الذئاب فلم نهادنها. ولكنها ارتضت أن تعيش إلى جانب الحملان.

وقال لنفسه «إنها فتاة ذكية الفؤاد». سأل:

- هل رحلت يوماً إلى مكان ما؟..

- رحلتُ إلى كل مكان.

- أعني هل تركتِ القرية يوماً وذهبت إلى أي مكان في العالم؟

- آه. طبعاً طبعاً. لقد رحلت إلى بلاد الأعاصير والعواصف والأمطار والرياح في الشتاء، وإلى عوالم الأزاهير في الربيع. وسافرت بين الأفلاك في الليل: نحن كوكب سيار. وفي الخريف يأتي إلينا العالم. إن عالم السحاب عالم سحري.

وحدّث نفسه: «إن الأشياء معكوسة في ذهنها، ولكنها سعيدة». وتلفّت حواليه وأشار بيده سائلاً:

- أين رحلوا؟..

كان ثمة بيوت سقوفها من القرميد الأحمر وكانت العناكب قد عششت على أبوابها الموصدة، ونوافذها الخاوية. ومدت الأعشاب والحشائش رؤوسها، وغزت المصاطب وعتبات الدور. فحزّ ذلك في نفسه وفكر «هل ماتوا؟». ثم لم يلبث أن أوجد لنفسه تعليلاً أكثر أملاً، إذ قال «لعلهم ذهبوا يبنون حياتهم من جديد تحت سماء لا تعرف الجفاف». قال:

- كيف كان شكلهم؟ هل كانوا يستنبتون الأزاهير، ويقرضون الشعر؟

- كانوا يفعلون ذلك إذا ما عادوا من أعمالهم. وكانوا يرقصون ويغنون. أما الأطفال، فيبنون أعشاشاً من الأوراق المتساقطة يخربها لهم الكبار في الظهيرة وقت الغداء، ثم يعاودون بناءها في الأصائل. ولكن الكبار يهدمونها بغضب في الأماسي.

ورفَّت أجنحة الأسى

- لقد وجد الحزن طريقه إلى هذه القرية أيضاً

قالت:

- إن الحزن يعطي الأشياء طعمها الحقيقي

ولاحظ النسيج بين يديها

- يا للنسيج الجميل. لمن هذا الثوب؟

وتجاهلت المرأة سؤاله، ولعلها لم تسمعه، إذ قالت:

- لعلك قادم من بلد بعيد، إنك كثير الغبار

- نعم من بعيد. من بعيد جداً

ولمعت في خاطره قصة الملاح التائه، وعين الشمس الملتهبة. سألت:

- هل تغزل الفتيات هناك أثواباً؟

- كن يفعلن ذلك ذات يوم. لقد استعضن عن المغزل بالآلة. إن الآلة تنتج أثواباً أكثر.

- أواه! وماذا يفعلن إذن؟

- يأكلن المثلجات ويضعن الفلفل اليمني على ألسنتهن. في بلدي تحلم الفتيات بفرسان من الدمى. وعندما يسري فيها الدم تولي فراراً. في بلدي لا يميز الناس بين زرقة البحر وزرقة السماء.

سألت فتاة المغزل:

- ما هو البحر؟! يبدو لي إنني سمعت عن شيء اسمه البحر، أو حلمت به. لست أدري.

- إيه. أنه عالم مليء بالأمواه. مليء بالغرائب. إنه شيء رائع يمور بالأسرار وتحلّق فوقه طيور الماء. إنه البحر.

وتدحرجت كرة الصوف فتدحرجت معها الهرة.

- وماذا هناك أيضاً؟ يبدو لي أن بلدك غريب حقاً

- في بلدي يجلس الناس على الأرصفة يدخنون النراجيل ويقيّمون العالم من وراء حلقات الدخان المتصاعدة. في بلدي يقتتل الناس من أجل كلمة. الكلمة هناك سيف مشرع.

فقالت الصبية بحزن:

- أواه، أن هذا لمروع. لماذا يفعلون ذلك؟ لماذا؟.

وبدأت ترفع رأسها الأول مرة عن بكرة الدولاب. وبدأ القلق عليه. فقالت بسرعة:

- لست أدري.. لست أدري. ربما كانت الثعالب وراء كل ذلك.

وحدّث نفسه: «يا لها من مخلوق رائع!». وألقم النار صنوبراً. قالت:

- إن الثعالب أشياء خبيثة ما لم نسحق أنوفها في التراب.

ورجف قلبه «إنها تحس بكل شيء. وتتقصص الأثر كحيوان الأرض الأول». وعبقت في أنفه رائحة البن المحروق. وانغلقت النوى وتبرعمت. واشتعل الزهد ضياء في عينيه. ومادت الأرض من تحته. كان يشعر أنه أمام قاض مهيب قد ألم بقضيته، وأن العالم قد خلا إلا منهما. ورفع يده مستدركاً كأنه يقول: «ثمة شيء أساسي أريد أن أضيفه إلى القضية». ودفع في يدها بلورة زجاجية بحجم بيضة الإوز. قال:

- بلورتي من اليابان أهدانيها ربان ياباني.

وتذكّر ذلك المساء. يوم كان في المرفأ مع رجال الجمارك والأمن العام وخفر السواحل. كان في ذلك الحين يعمل في البحر. وكان يصعد إلى كثير من السفن. ولقد تعرف من خلال عمله على كثير من مدن العالم. ونبضت دماؤها في عروقه.

«كم قوساً رسمت الشمس فوقك وأنت تدور في الأرض؟ أما آن لك أن تفيء إلى ظل، وتركن إلى ينبوع؟!» حدث نفسه.

لم يفكر يوماً أن الأمر سيغدو على هذا النحو من التعقيد. مجرد مصادفة كان يمكن أن تقع لأي شخص آخر لو أعطي هذه البلورة الزجاجية.

لو حدث لكان ذاك الشخص الآن يتلقى سياط الشمس. أو ربما قذف البلورة إلى اليم وهو يهبط درج السفينة منذ اللحظات الأولى.

قال لفتاة ذات يوم:

- ماذا ترين في هذه البلورة؟

كانت فتاة تهوى المطالعة والشعر، وتجيد الإصغاء. وكان يحسب أنها تفهمه.

- لا شيء.

أما هو فكان يرى فيها شيئاً.

هكذا بدأت الحادثة بسيطة مثل أي شيء آخر. ومنذ ذلك الحين اتخذت الأمور سبيلاً مختلفاً تماماً. وهكذا بدأ يعرض بلورته على الآخرين. وعبثا كان ينتظر منهم أن يروا مثل ما يرى.

- آه ما أروعها!

قالت فتاة المغزل وقد قبضت على البلورة بيديها الاثنتين. وراحت تتطلّع إليها باستغراق، ثم أضافت بهمس وهي مطرقة الرأس:

- يا الهي ما أعمق زرقته!

وقال لنفسه «إنها فاتحة لا بأس بها. إن البحر بعض الحقيقة ولا يضير أن تبدأ من هذه النقطة». وبدأ أنه لو بدرت منها إشارة أخرى لألقى عصاه، ثم شرع في خلع نعليه واستسلم للنوم.

وكان يعلم أنه لو فعل فسيصبح صديقاً للثعالب والذئاب، وسيقوض الأعمدة والركائز التي ترفع العناقيد، ويلغي عمل النواطير، وسيقود جماعات الصغار يدافع عن حقهم المشروع في بناء أعشاش لا يخربها لهم الكبار وسيمسح عن القرى أحزانها.

كان قميناً في تلك اللحظة بأن يفعل أي شيء، حتى تلك الأشياء التي لا يستطيع القيام بها البشر العاديون، فقط حين تبدو أنها أدركت سر البلورة الزجاجية. وكانت المعجزة تختنق في صدره.

قال:

- وماذا ترين أيضاً؟ لعلك ترين ملاحاً أو شراعاً. هناك دائماً ملاح تائه في البحر.

ولكنها سألت:

- من هو الملاح التائه؟ يبدو لي إنه شيء غريب حقاً

قال في نفسه «إن التصور بعض الحقيقة أيضاً. إذا ملكت التصور بالإضافة إلى البحر، ملكت نصف الحقيقة». كان واضحاً أنه قد بدأ يتساهل في بعض شروطه. لقد بات يفكر في الشمس على نحو غير عادي. لقد أضحت تؤذي عينيه. لعله بدأ يشعر بالهرم.

قال:

- لقد خرج إلى اليم ذات يوم. خرج ولم يعد

من المؤكد أنه لم يكن قد قرأ قصة الملامح التائه. فقد كان موظفاً، ويبدو أنه يستحيل بالنسبة إلى الموظفين أن يقرؤوا قصصاً. إذ إنهم يقضون أوقاتهم في التفكير في البيت حينما يكونون في العمل، بينما يمضون في البيت النصف الآخر في التكلم عن العمل. بالطبع هو لم يكن تماماً من هذا النوع من الموظفين. وقد لاذ بالفرار عندما أحس دبيب الأنشوطة يلتف حول عنقه: وعندما امتلك البلورة الزجاجية. وعندما ناداه حنين الشواطئ المنسية، وصر في أذنيه أنين السواري المقلقلة.

وهكذا قال متخيلاً ما ينبغي أن تكون عليه قصة الملاح التائه حسب ما أسعفه به خياله:

- لقد أقلع يوماً بحثاً عن شيء ما. ربما خرج يجني المحار، أو يصارع الحيتان. وفي الطريق استهوته النجوم كما يستهوي النور الفراش.

وأمسك عن الكلام وتلفّت حواليه. فاستوقفته بيوت القرميد المهجورة وخشخشة الأوراق، وترددت أنفاس السكون في الظل الذي راح يتقلب تحت ناظريه كحيوان متعب. وحدّث نفسه «هذه البيوت كانت عامرة بالحركة، وكان الأطفال يملؤونها لغطاً وضوضاء».

ووصل إلى سمعه وجيب الحياة من أسفل القرية. ودار دولاب الغزل. سألت:

- ما الذي حدث بعد ذلك؟ هل جنى المحار؟

- لقد استخرج اللؤلؤ. وصرع الحيتان ثم بصق عليها جميعاً.

سأل وقد أدرك فجأة أن سهامه أخذت تطيش لحظة بعد لحظة

- متى ينتهي هذا الثوب؟..

قالت:

- لست أدري. قد ينتهي اللحظة، وقد يستغرق عمله طول العمر.. إنني أعيد حياكته منذ أمد بعيد.. إنني أريد أن أجعله لائقاً.

فقال على سبيل الاختبار:

- ولكن أليس هذا مضيعة للوقت؟

فسألت بدهشة:

- ألا تعيد الفتيات هناك حياكة الأثواب؟

- كلا. إن الناس هناك لا يجدون متسعاً لذلك. إنهم ينتجون أثواباً بالجملة ويقذفونها إلى المخازن. آنذاك نأخذ أثوابنا من المخازن.

- عجباً! كيف تتعرف إلى ثوبك ما دامت لم تنسجه لك أية فتاة؟

قال:

- إن الآلة تنتج أثواباً لكل الناس.

- وكيف تنسج الآلة ما يناسبك إذا لم تفكر بك، ولم تركَ في أحلامها؟ إنك ترتدي ثوبك بلا ذكرى.. وإذا بلي فلن يكون ثمة أحزان.. وستكون شيخوختك موحشة بلا صرر تفرشها في وحدتك.

وقال لنفسه: «هذه الفتاة تفكر على نحو غريب. إنها لقمينة بأن تملك بلورة زجاجية». وفكّر أيضاً: «وإذا امتلكتها فلن يكون لها أي معنى لأنها مربوطة إلى هذه المصطبة بينما الملاح التائه يزداد فقراً يوماً بعد يوم».

وسادت فترة صمت وتمطت الهرة، ثم ماءت. وبدأ يفكر في الرحيل. سألت:

- ماذا حل بالملاح التائه؟ هل عاد إلى جزيرته؟

- كلا. لقد فقد شواهد العودة.

- أواه!

وبدأ يصدق قصة الملاح التائه.

- لقد علق في شرك الشمس بعد أن خلص من أسر النجوم. إنه أراد أن يتحداها فوقع في شباكها. وإنني لأتخيلها وقد فرشت حوله أصابعها الأخطبوطية فراح يعمل فيها تقطيعاً. نعم إنه يملك قوة عجيبة حتى ليستطيع أن يقطع آلاف الأصابع الشريرة. إن له قدرة مدهشة على ترويض الأشياء.

- يا له من بطل! بماذا يقاتل؟

- لست أدري. لقد فقد سكَانه في إحدى العواصف، كما فقد مجذافيه ومديته في صراعه مع الحيتان. إن الرجل لا يعدم وسيلة للدفاع عن نفسه.

وباتت قصة الملاح التائه حقيقة لا يتطرق إليها الشك

- غير أن ما يحزّ في نفسه هو أن الشمس صارت توجع عينيه على نحو غير عادي. لسوف يؤلمه أن انتصاره لن يكون كاملاً في النهاية. لأنه لن يستطيع حينئذ أن يحمّل بصره قدراً كافياً من التحدي للنظر في وجه الشمس.

واعتمدت خدها بيدها بينما دار دولاب الغزل دورة أو دورتين بفعل قوة الدفع مرسلاً أنيناً. وحدث نفسه: «أحسب أنها في صراع مع نفسها.. لسوف يدور دولاب الغزل ويكر النسيج بين يديها حتى تتكشف له أحبولة النجوم.. ستخرج إلى العراء لتعمل في الحقول وستثيرها رائحة عرق الرجال، وسيبقى الثوب معلقاً في زاوية البيت. سينام النواطير بعين وستبقى العناقيد عالية. وستعرف الثعالب أن جمال الأشياء ليس في النظر إليها فحسب».

وعندما رفعت رأسها كانت عيناها نديتين - ونظرت إليه للمرة الأخيرة فقاست منكبيه وبدا له أنهما استقرتا على قامة وهمية أطول ومنكبين أكثر

عرضاً. وانحنت بعدئذ على مغزلها وراحت تطور الثوب المنسوج حسب قياسها الخيالي الجديد. ومع ذلك استطاع أن يميز في عينيها صورة رجل قدَّر أنه الملاح التائه.

وحينما ترك القرية كانت الشمس في انتظاره. فأطرق رأسه تحاشياً لأذاها. وكان هذا الإطراق يتيح له وضعاً أفضل كي يسير مع أفكاره. «كم قوساً رسمت الشمس فوقك وأنت تدور في الأرض؟!».

وأحس برطوبة تحت عينيه فمسحهما بيده.

«ولكن دعنا من الرثاء.. إننا نواجه مشكلة الشمس الآن ما مسافة القرية التالية؟».

وبدا على حقيقته في العراء. غريباً عارياً بلا سند. منحنياً نوعاً ما كأنه يتقصص أثر كنز. كانا وحيدين هو والشمس. أما هو فقد كان الإعياء واضحاً عليه وإن كان بعيداً عن البؤس. وأما الشمس فقد لاحت أنها تعرف طريقها. ولم يكن يبدو عليها أنها ستحيد عنه. وكانت ترمقه بشواظ من لهب في الوقت الذي أخذت فيه ذرى القرية التالية ترتعش في خياله متوهجة كالسراب.

* * *

## «أرض الرّجَال»

«ستذهب إليهم طالما أنك تقدر على حمل جسمك وفي هذه الحالة لا أحبذ الفلقة». أنا من ناحيتي لا أحب الفلقة على الإطلاق. ومن المؤكد أنها ليست أروع أعمالهم، إني أوثر أي ضرب آخر. ليس لأنها تكسو القدمين حذاء سميكاً، ثقيلاً كنعليّ الغواص؟! فبعد مدة من الزمن تستوي كل الألوان تماماً كالتخمة. ولا يفضل أحدهما الآخر. إن أي واحد منها يمسي ليس أكثر أذىً ولا أقل. وإن وخزة دبوس في أي مكان من عالم الجسم البشري، تكهرب هذا العالم كله وتدوّي فيه.

مالنا الآن «في الحلزون اليساري انحن عند الدرجة الخامسة والثلاثين». في الحلزون اليساري. نعم.. نعم.

واحدة.. اثنتان. «انحن. إنك لن تجد من يسندك إذا سقطت.. إن الظلمة هناك لا تصدق». أي شيء في هذا العالم يُصدق؟؟.

ثلاث. «حسناً سأعد حتى ثلاث. إذا لم تعترف؟!». طبعاً إني أدرك أبعاد هذا الوعد. أدري أن اللعبة ستبدأ. لعبة العصفور والنسر«إذا أعطيتهم طرف الخيط أفرغوا البكرة شئت أو لم تشأ». ترى ماذا حدث له؟؟ أين حملوه؟!

أربع «سيعترف.. إنه رفيق قديم لكنه سلك الطريق الخاطئة». من قال إنني سأعترف؟؟.. إنني لا أملك هذا الحق. هكذا تعلمنا.. أليس كذلك؟.. أنت وأنا.. كلانا.. وكل الذين مشوا في الطريق. لا أملك منه أكثر من ملكيتي حق اختيار اللعبة. متى كنا نملك حق الاختيار؟.

ومع ذلك فقد قبلنا ممارسة اللعبة مرغمين رغم معرفتنا بأصولها. لقد نسينا في دوراننا الدائب أنَّ أحصنتنا لم تعد من الخشب، وأنَّ جيوبنا ليست ملأى بالنجوم.

لقد أسكرنا رعد الفرسان ووقع سنابك الخيل اللاهب.. لا شك أنك تحلم. مالك والفرسان؟.. لم يعد في الدنيا كلها فارس واحد. فكِّر بما ينبغي عليك أن تصنع.. بما هو آت بعد قليل، ولا تسقط من حسابك الدرجة الخامسة والثلاثين.

حسناً. حسناً. سبع.. ثماني. تسع. إذا خلت الدنيا من الفرسان، فقدت الصحراء أعظم أسرارها.. هل يعني ذلك انحسار الصحراء وطغيان البحر؟.. لا معنى للصحراء دون فارس ملفع وجواد كريم.

لماذا ذكّرتني بالبحر؟.. أنا لا أريد أن أحلم. إن البحر يحمل الدمع إلى العين.. الهدير؟؟. ليكن. ليست المفاضلة دائماً خاسرة. إني أنشد البحر.. إن الهدير يخيف الأطفال.. أنا أيضاً كنت طفلاً. وكان عندي صدفة ألصقها بأذني. ولكن ذلك كان منذ زمن سحيق.. إنك تذهب بعيداً.. لكن البحر أرحب صدراً. وإن كان يضيق بقذاراتنا. ولفاظات الشاطئ لا تخطئها العين.

إنك تكثر اليوم من ترداد العين؟؟ طب نفساً. فقد لبست دوري تماماً: أمس الأول كنت «رفيقاً ضالاً». والبارحة «ما هو تنظيمك؟؟ خائن» مع مداعبة أظافر، هكذا؟؟ كل يوم خسارة جديدة. تماماً كالأمير السعيد[1]. كل يوم عري جديد. ولكن قلبه امتنع عن الانصهار.

«لست أحب قلع الأظافر، مع أنه ليس أروع أعمالهم. ومع أنه أول خطوة على عتبة الفن». إن اللوحة مدرجة حافلة. ولا يزال الباب مفتوحاً لإبداع جديد. وإن كان عنصر البساطة يتناقص كلما أمعنت اليد الخلاقة صعوداً في اللوحة.

«كنت أوثر أشد أعمالهم الفنية تعقيداً مع أنها أجدى.. أوتدري لماذا؟ إنها تبعد المسافة بيني وبينهم. تبعدها لدرجة أقنع بها نفسي بأن ما ألقاه من صنع الآلة. كان ذلك يخفف عني بعض الشيء.

ها أنت قد شططت ثانية. أين وصلت من السلم؟.. لتذهب السلم إلى الجحيم. تبدو لي أنها ليست حقيقية. خمس عشرة.. ست عشرة.

---

(١) الأمير السعيد: قصة قصيرة للكاتب الايرلندي أوسكار وايلد.

ولكنها ستصل بك إلى الحقيقة. قلب الحقيقة. حيث اللوحة، ومن حولها يدور الراقصون.

ولكن لا حقيقة حيث يلعب الراقصون؟! وهذه حقيقة أخرى. احتفظ بالجانب الذي يعدّ. سبع عشرة..

لماذا لا تشغل نفسك بالأغنية التي بدأناها معاً أمس.. ولكن أي الأغاني؟ لقد صنعنا منها الكثير حتى الآن. أتلك التي تقول:

وإذا نُفخ في البوق

تخفف المثقلون من أحمالهم

وخلّفوا وراءهم حزنهم الأرضي

لأن عروقهم لم تعد تنبض

بدم بشري

لو كان صوتي جميلاً غنيتها للعالمين.. ولكن ماذا يجدي ذلك هنا؟؟

المغنون يفنون والأغاني تبقى.. لا عيب في غنائك. وأفضل الأغاني أبقاها، وأصدقها ما خرج من حنجرة لا تجيد الغناء، وحيث لا يكون التوقع.. وعندما تزدرد المرارة اليمامة.. وعندما ينشر طير الشؤم جناحيه.

ها نحن أولاء نعود إلى الرمز؟! نعم أوليس عالم الخيال أقصى درجات الفرح الإنساني؟ أما الرمز فأعلى درجات الفن، ولا يرقى إليه إلا المصطفون. وهذه هي مشكلة الثوار الحقيقيين. «لا تلبس دور البطل.. هات ما عندك.. قل أسماءهم. إن العناد لا يجدي».

أخفقي يا طيور الأسى.. وازحفي يا جيوش الحزن. هي ذي أنفاس التتار قد هبَّت ريحها اللافحة. ونشرت ألويتها السوداء. ولقد تحملت كل شيء وتقبلته كشرط من شروط اللعبة. أما العناد فليس لي.. إني أرفضه.. ببساطة شاركت وببساطة يترك المد آثاره. ولا يحتمل العالم صليباً آخر».

هكذا النعاج تمضي نحو مصيرها المحتوم. فقط لو كانت ترفع رأسها.

«في الحلزون اليساري. كان يبدو لي إنني فقدت صلتي بالأرض، وإنني أصعد في سماء بلا نجوم. وكان إحساسي يزداد طرداً كلما أوغلت..

أما إذا أردت أن يتكامل هذا الشعور لديك فأغلق أنفك. وليس هذا كل شيء. إن الدرج المتآكل لا يلبث أن يصفعك».

هكذا إذن؟! إن السماء حبلى بالنزلاء ولن يضير ذلك في شيء. وسيجد المرء دائماً متسعاً له فيها. أما أن يكون دربها بلا روائح عطنة، فإني أشك في وجودها شكي في سماء بلا نجوم. وأما الدرج المتآكل فيبدد وحشة الغريب.

ما رأيك أن نختبر الجانب الذي بعد؟؟..

خمس وعشرون؟. ما زال أمامنا بعض الوقت للتفكير. وإني أقدِّر هذا الذي يحسن العدّ فيك.

«ولكن رغم ذلك.. رغم كل ذلك لن تلبث بعد فترة أن تحرم متعة هذه النزهة. سيأتون إليك ما دمت لا تستطيع الذهاب إليهم.. سيمرضك الانتظار والتوقع. وستبدأ الأشياء هذه المرة بمنطلق غريب. آخذة طابعاً جديداً».

سيختفي مع الأيام ذلك الطعم المر، ويصبح مذاق الحلزون أكثر استساغة.. إن رحلة الحلزون آخر نِعم الإنسان. كان يبدو لي وأنا مسافر على نحو ما إنني ماض إليهم طوعاً.. وإنني لا أزال أملك حتى الاحتجاج.

سبع وعشرون. ثمان وعشرون. كم مرة سأقطع هذا الدرج؟! هل حقاً إننا لا نزال في بداية الطريق.

«كانوا يحملون بعض أدواتهم إلى هنا، وأنا قابع أنتظر مثل كلب طعن في السن. إن أقسى ما يعانيه الإنسان أن يتلقى الضربات كحصة محتومة، وحيث لا يستطيع الوقوف كالرجال. وحيث يفقد العطاء معناه».

تسع وعشرون.. ثلاثون. إحدى وثلاثون. «التعذيب لا يهين الثوار، ولكن الفلقة باتت أداة مزعجة... لقد صارت تؤنس وحشتي. كم أنا خجل؟! كانت مفتاحاً يصرُّ في خزائن الماضي المغبرة. لقد راحت تحرض ريح الطفولة الشقية. وتنفخ في الأشرعة المطوية».

اثنتان وثلاثون «أما نقع الأقدام فكان يفتح القلب على ضعف جديد وهجران ليس باليد. ويشقق ضباب النسيان عن أماسي البيت الحافلة المسلوبة.. ومباهج أضحت محرمة.

ثلاث وثلاثون..

لست أريد أن أقضي كالدودة.

أربع وثلاثون. لقد أمضى أياماً صعبة مهينة. هل تذكر؟! أذكر الدرجة الخامسة والثلاثين. وأشياء كثيرة أخرى.. أذكر «أن الظلمة كانت رهيبة في رواق الموت» وأنها كانت تشتد كلما اقتربت من ملعب الراقصين. و«هناك خيط نور لعله بداية شق أحدثه جرذ» ها هو ذا خيط النور، لا بل رمح النور. رمح النور يسقط من مكان ما لينغرز على عتبة الملعب. حيث تعمق الظلمة إلى حد خيالي. وحيث يتهيأ الراقصون للعبة اللحظة المجهولة؟؟ أيها الأخ! سأذكرك دائماً. وسأعرف جبينك المميز من بين الملايين.

إن الفلقة لا تليق بالثوار. ولا أريد أن أقضي كالدودة. ولست أحب قلع الأظافر.. ليست المفاضلة خاسرة دائماً. وإني أوثر الجلد، لأنه يعطي كلاً منا صفته الحقيقية، ولأنه لعبة الإنسان الأولى.. وإن طمعت في شيء آخر فلتكن ذراعاي منشورتين. لقد بدأت يوماً بناء نصف سقف من القرميد الوردي. وأريد الآن أن أكمل النصف الآخر. وما أخال الأحلام تعيب الرجال.

«يا عالم ؟! يا هوه». أين سمعت هذا النداء، هذه الصرخة الضائعة؟!.

ربما في «أرض البشر». ولكن العنوان الأصلي هو «أرض الرجال». لماذا نترجم الأشياء بغير أسمائها. إني أوثر أرض الرجال.

* * *

# ديكنـــا

بعد أن جمعت أولاد حارتنا، واكتمل عدد الذين سيرحلون إلى قرية الضرف، قلت:

- هيا نمضي إليهم.

فقالوا:

- هيا نمضي إليهم.

قال إبراهيم وهو ولد شكوك مفلطح الأنف أشعث الشعر:

- لعلنا نسينا الديك!

قلت:

- وكيف ننسى الديك وهو هدف رحلتنا؟

قال:

- لعلنا نسينا شيئاً آخر غير الديك؟

واتجه إلى نديم:

- أرني نقافتك.

وأخرج نديم نقافته من جيبه وعرضها قائلاً:

- ها هي!

- والحصى؟

- والحصى أيضاً.

ثم بعث في طلب سليمان من مقدمة الجماعة وسأله:

- أين مقلاعك؟

فضرب سليمان جبينه مستدركاً:

- آه لقد نسيته في البيت؟

فانسحبت زاويتا شفتي إبراهيم إلى الوراء قليلاً، وقال دون أن يبالغ كثيراً في انتصاره:

- هيا واجلبه من البيت.

وما كاد سليمان يجري باتجاه البيت حتى هتف وراءه:

- لا تنس الخرطوش.

فحمل الجميع صوت إبراهيم الضعيف الذي لا يتناسب مطلقاً مع ضخامة حجمه ومركزه كقائد لعمليات القتال بيننا وبين الجماعات الأخرى.

يقول لك: لا تنسى الخرطوش.

وكان المقصود بالخرطوش طبعاً هو حجارة المقلاع. وكان الأجدر لو أسميناها في ذلك الحين قنابل. فالحقيقة أن المقلاع عند الصغار في قتالهم بعضهم مع بعض يقوم بدور المدفع عند الكبار.

المهم بعد أن تفقَّد إبراهيم عدة القتال من مقاليع ونقافات وعصي، أعطيت من ناحيتي إشارة التحرك. كانت الكلمة العليا ترجع لي أخيراً. كنت يومها ابن المختار.

وهكذا اتجهنا نحو قرية الضرف التي تبعد عن قريتنا مسافة يجتازها المرء في عشرين دقيقة سيراً على الأقدام، وفي عشر دقائق على مركوب. وطبعاً لم يعتل أي منا في سفرته هذه ظهر مركوب. مع أنه كان في استطاعة بعضنا أن يفعل ذلك على دابة من دواب العائلة الخاصة. لكن كنا نخشى أسوأ العواقب.

كان أولاد الضرف قد هزمونا منذ خمسة أيام خلت في مباراة لكرة القدم هزيمة شنيعة، ولم يكن ذلك يرجع إلى ضعف في لاعبينا، وإنما كان بسبب سوء إدارة الحكم. وحينما رفض أولاد الضرف إقامة لعبة الثأر، فكرنا في وسيلة أخرى للانتقام منهم. وجرت مفاوضات لإجراء قتال بين ديك من

عندنا وديك من عندهم. كانت الهزيمة قد تركت مرارة في حلوقنا حقاً. وكنا واثقين من انتصار ديكنا.

كان ديكاً فتياً ضخم الحجم، عالي القائمتين، طويل العنق، مزين الريش، ومتوّج الرأس بعرف قان جميل.

وكان خلافاً لما هو معروف عن طباع الديكة ينقر كل دجاجة تقترب من الطعام في الوقت الذي يتناول فيه وجبته. بل أكثر من ذلك يتعين على الدجاجات أن تقدم له كل حبة صحيحة طيبة إذا هو غفل عن التقاطها. حتى أنه لم يعد يكلف نفسه عناء النبش عن طعامه. وهكذا أخذ يمتلئ شحماً ولحماً طبقة فوق طبقة. ولم تحمل الدجاجات له أية ضغينة. فهي قد اعتادت سلوكه هذا وكيّفت نفسها على أساسه. إن الدجاج يتصرف أحياناً كالبشر. أليس هو ديكها وحاميها؟ إذن فلتتراجع إلى الوراء حتى يتم طعامه، ولتتم في مرتبة أدنى من مرتبته.. ليكن منامه في القن في أعلى مكان.

كانت الدجاجات تنظر إلى ديكها فخورة مزهوة عندما يخطر أمامها جميلاً أنيقاً بريشه الملون المذهب والمفضض، ولا سيما عندما يستيقظ في الأصباح يوقظ النيام بصياح حاد ممطوط، فيه رجع قصير مبحوح يعقبه نغمة تنضح دلاً، وتنطق بفخار وتفضل واضح. كان صياحه فعلاً من أجمل صياح كل الديكة التي عرفتها قريتنا خلال السنين الطويلة كما يقول الكبار في القرية. وكان أروع ديك بعد تلك السنين العجاف التي مرت على المنطقة وقصمت ظهور الديّكة. ريش ملون جميل، وصحة موفورة، وصياح يملأ الأسماع. فمهلاً أولاد الضرف. ها نحن قادمون إليكم. فاحشدوا كل ما في قريتكم من ديكة مقاتلة.

حينما وصلنا إلى مشارف الضرف بعثنا رسولاً يطلب إلى أبناء القرية أن يخرجوا إلينا بديكهم. كان إبراهيم قد اختار مرجاً أخضر ليكون ميداناً لصراع الديكة. وعندما قال له بعض الرفاق: يجب أن نسحقهم في قلب قريتهم ونجعلهم سخرية الساخرين. ردَّ عليه إبراهيم بوقار قائد مسؤول عن جماعة ويعرف ماذا ينبغي عليه أن يفعل في مثل هذه الظروف:

- من الناحية الشكلية يحقق لما المرج هذا الغرض على أتم وجه. إذ أنه قادر على استيعاب جميع أبناء القرية. في حين أنه لا يوجد داخل القرية ساحة تستطيع أن تحتوي مثل هذا الجمع من الناس. وفوق ذلك فالمرج ملتقى عدة طرق للقرى المجاورة.

ثم أضاف بعد فترة صمت:

- لعلكم فهمتم قصدي.

نظر أولادنا عندئذ بعضهم إلى بعض، وانبسطت الأسارير وعلت الابتسامات الوجوه. فقد دل إبراهيم على حكمته مرة أخرى كقائد ليس له نظير. ولم تقف عبقرية إبراهيم عند هذا الحد. فقد تابع: انظروا إلى هذه الصخور.

ونظرنا باتجاه الصخور دون أن نفهم مغزى قوله في البدء، لكنه تابع:

- هذه الصخور تقع في طريق العودة إلى قريتنا. ولما كان نصرنا محققاً مئة في المئة. فإن هذه الصخور تهيئ لنا مكامن جيدة للقتال إذا ما راودت أولاد الضرف فكرة التحرش بنا من أجل الانتقام لهزيمة ديكهم. نعم إنهم سيكونون تحت رحمة نقافاتنا ومقاليعنا.

ورقص البعض للخطة، بينما وثب البعض الآخر في الهواء تحمساً. وعلى العموم نالت الفكرة استحساناً ساحقاً بالرغم من تخوف أصحاب العصي بأن هذه الطريقة لا تحقق لهم التحاماً كاملاً مع العدو، مما يعطل فعالية أسلحتهم.

على كل حال لم يطل انتظارنا، إذ سرعان ما جاء أولاد الضرف يحملون ديكهم في قفص مغطى ويلحق بهم جمهور من المؤيدين. ووقف بعض العابرين الذين كانوا في طريقهم إلى القرى المجاورة، فتشكّل من ذلك كله حلقة كبيرة حول المرج.

وبدأت المراهنات بين المتفرجين، ما لبثت أن تصعدت وهمي وطيسها عندما أُطلق سراح الديكين. وكانت معظم هذه المراهنات في صف ديكنا. كان لدينا سمعة طيبة حقاً في المنطقة.

وأخذ الديكان يدوران في الحلقة ويتجهان إلى الجمهور أحياناً بالصياح. كان لكل منهما طبقته الصوتية، كما كانت له طريقته الخاصة في الاستعراض. والواقع كان صياح ديكنا أشبه - لو جاز القول - بنصلٍ حاد ينغرز في شيء ما. وإذا أجزنا القول مرة أخرى لقلنا إنه ينغرز في القلوب.

وإذا ما أضفنا هذا الصياح القاطع الحاد إلى بنيته المشدودة وجرمه الضخم وشكله الجميل لكانت النهاية المحتومة واضحة منذ البدء بلا أدنى التباس.

نعم فقد بدا لكل ذي عينين البون الشاسع في اللياقة البدنية بين كل من الديكين. كان ديكنا يرفل في ثوب قشيب من الألوان الرائعة، ويتفجر حيوية وقوة.

أما ديك أولاد الضرف فكان أسود نحيلاً ظاهر جلد العنق عاريه. وكان عرفه صغيراً ذا حمرة قاتمة وله منقار أصفر، وعينان ناعستان غافيتان. كان بالإجمال ديكاً «عادياً» جداً، إن لم يكن تافهاً، بالقياس إلى ديكنا.

ودار ديكنا دورتين ونفش ريشه،، وانتصب عرفه واشرأب وتوهج حمرة وغضباً. وتقهقر الديك الآخر أمام ديكنا وانكمش. ثم انفلت من ديكنا وأخذ يلف حوله.

كان من الجلي أن كلا منهما يروز الآخر ويبحث عن نقاط الضعف في خصمه التي ستكون موضع الهجوم. ويحاول أن يلقي الرعب في قلب عدوه.

قال أحد الخصوم:

- هذا ديك استعراضات.

فقال واحد من الأنصار:

- الاستعراض ضروري لإلقاء الرهبة في قلب ديككم الرعديد.

- ولكن الرهبة لا تجد طريقها إلى قلوب الديكة الحقيقيين.

فرد عليه واحد من أولادنا:

- وهل تحسبون ديككم ديكاً بين الديكة؟

وقال أحد الخصوم:

- العبرة بالفعل.

فأجيب من جماعتنا:

- العبرة بالنتيجة. والنتيجة واضحة كعين الشمس.

ودعم آخر هذا القول:

- هل تحسبونها مباراة كرة القدم يا أولاد قرية الضرف. نعم لقد استغللتم بالأمس فساد إدارة الحكم.

وتابع ثان:

- الآن سوف تدفعون ثمن التباس الأمس وتبصقون انتصاركم المزيف دماً وريشاً.

- ولكن هل لديكتهم ريش؟

- إذن سوف نفقأ عيون ديكتهم.

- ولكن عيون ديكتهم غافية نائمة حتى لتبدو بلا عيون

- مرحى إذن سوف نمرغ أعراف ديكتهم بالرغام.

- ولكن ديكتهم بلا أعراف.

- حسناً لماذا يسمون إذن ديكتهم ديكة؟..

وقهقه أفراد جماعتنا ساخرين. ودبت الحماسة في الجمهور الذي أخذ يتماوج مع مناورات الديكين وحركات المد والجزر التي يقومان بها.

وتقدم ديكنا إلى الأمام وقد انتفش ريش عنقه المتطاول حتى أصبح أشبه بلبدة أسد صغير، وتألقت عيناه واحمرتا. وصفق بجناحيه صفقتين فبان ما يطويه هذان الجناحان الرشيقان من ريش جميل. وصاح صيحات الحرب المنذرة. كان جميلاً أنيقاً في القن. وكان أجمل بما لا يقاس في ساحات القتال.

وارتفع صوت:

- قلت لكم إنه ديك استعراضات.

وسانده أحد الخصوم أيضاً:

- وحق الله هذا الديك لا ينفع. إنه ديك بين دجاجاته فحسب.

والواقع أن ديكنا بعد أن حاصر خصمه الذي ظل يتراجع أمامه، حتى لقد راودنا الاعتقاد بأنه سيقضي عليه لا محالة، انقض الديك الأسود على ديكنا وراح يعمل منقاره في رأسه حتى أخذ بعض الريش يتساقط.

وهتف نصير:

- هذه حلاوة الروح. إن الديك الأسود حفر قبره بنفسه لقد أرادها جدية. فليقطف إذن ثمرة رعونته. لقد كان الديك الضخم يداعبه فحسب. ولو شاء لبطش به.

- ولماذا لا يبطش به بحق الله؟

- انتظر وسيفقأ عينيه.

ومد ديكنا عنقه إلى الأمام وصاح غضباً. نعم لقد جرح فسال دمه. فالويل للديك الأسود وليدفع الثمن إذن غالياً. إن ريش الديكة الأصيلة لا يسقط على الأرض هدراً، ودمها لا يراق جزافاً.

غير أن الديك الأسود سرعان ما عاجل خصمه بعدة نقرات في التويج تماماً. وأخذ الدم يسيل. يا لله! إن التهديد لم يعد يجدي معه. فهيّا أيها الديك الجميل. هيا واقض عليه. إن اللين لا ينفع مع أمثال هؤلاء الديكة الجربة.

لكن واأسفاه لقد استمر الديك الأسود في الهجوم واستمر ديكنا في التقهقر. وظل الريش الملون يتساقط والدم ينزف. وتعرضت مواضع جديدة من ديكنا لنقر مركّز. فبعد أن شوه العرف الرشيق انتقل إلى العينين ثم إلى العنق.

وقال قائل:

- إن ديكة الاستعراضات غير ديكة القتال.

وقال ثان:

- إن الديك المقاتل ينقض كالباشق، ويدور كالمغزل حول خصمه.

وقال ثالث:

- إن السمنة أفسدت ديككم. نعم إن الترهل خاصة سيئة في الديكة المقاتلة؟

وأضاف الكبار في قرية الضرف:

- ليكن كلامكم على قدكم أيها الأولاد. ولا تتحدوا ديكة الآخرين بديكة أفسدها العلف الكثير.

وقال آخر:

- يا للخسارة! إنه ديك جميل وصيّاح لا يشق له غبار، ولكنه غير مقاتل. يا لطيف لو اجتمعت فيه ميزات الديك الأسود أو العكس.

وعقب أحدهم:

- يا شيخ لا تعترض على حكمته عز وجل. الكمال لله وحده.

والحقيقة أن منظر ديكنا الجميل تشوه تماماً، وإن الصياح العالي الذي كان يطلقه في أول القتال أخذ يخف شيئاً فشيئاً حتى تحول إلى قوقأة. لكن الغريب بعد ذلك، أنه عندما أعيد إلى القن بكل هيئته المزرية راح يتبختر أمام الدجاجات. والأغرب من ذلك أن هذه الدجاجات تراجعت كعادتها إلى الوراء عندما بدأ بتناول وجباته.

* * *

# الصّقر وَالسّلحفاة

الجريمة واضحة كعين الشمس، امرأة مشبوهة ورجل غريب في غرفتها.

- من؟

- أنا.

- من أنت؟

- أنا.

ودفع الباب. ودفعت الباب. ولكنه كان ذا عضل. وكان الأقوى فانتصر عليها.

طاق. طاق. وركض إلى سرواله وغيب فخذيه فيه. ثم نزل في سرواله الأسود، وود لو ينطمر فيه إلى الأبد، ولكنه لم ينطمر إلا إلى منتصفه، إلى ما فوق السرة بقليل. وأما ما عدا ذلك فقد ظل عارياً لا يكسوه إلا الشعر وخاصة في منطقة الصدر. ولكن الشعر لم يلبث أن تحول إلى دبابيس منغرزة في الجسم وغرق الصدر في بحر من العرق.

- الأخلاقي[١].

وجرت مذعورة ودخلت في «روبها» المعرَّق. ثم أطل رأسها فذراعها، فذراعها الأخرى، وانزلق الفستان حتى الركبتين فبدت كالسلحفاة.

وربض الزمن. تعطل. توقفت الحركة في ملايين أرجله الدقيقة السريعة. وغار زعيق السيارات، ومات بائع فستق العبيد في الشارع، وذاب وقع أقدام العابرين. عميت النجوم وتلاشت الأصوات وكل نأمة تدل على الحياة. وانزلق الكون في بحر من الظلام والعدم.

---

(١) الأخلاقي: شرطي الآداب.

كل شيء أصابته العطالة والسكون. كل شيء تحول إلى لا شيء، وفقد أبعاده وسماته ولونه ورائحته وطعمه وقيمته.

- هذه المرة علقت.

وتحرك الأخلاقي فتقدم إلى وسط الغرفة. ووقف هناك عملاقاً متسلطاً وأخذ جناحاه يكبران ويكبران حتى ملآ جو المكان، ثم امتدا فشملا العالم الخارجي. بينما كانت الأشياء، بما فيها الرجل العاري حتى منتصفه والمرأة السلحفاة، تزداد صغراً. وأحس الرجل والمرأة كلاهما أن يد الأخلاقي الفولاذية قد امتدت – دون أن تمتد فعلاً إليهما - وأنها قد أطبقت على عنقيهما.

وقال الرجل على الفور:

- إنها الفضيحة.

وقالت المرأة على الفور:

- إنها النهاية!

ورأى الرجل في الحال بعيني فكره جميع المخازن في سوق التجار في الصباح مفتوحة إلا مخزنه. أما المرأة فقد استلقت على منضدة طويلة مكسوة بجلد أبيض وقد خرشت أنفها رائحة كيماوية حادة، بينما الطبيب الذي تهيأ للكشف عنها انشغل فجأة في الغرفة المجاورة، فظلت هكذا معلقة تتأرجح في الهواء يسترها ولا يسترها حتى منتصفها ملاءة بيضاء. وقد بقيت كذلك زمناً قالت عنه فيما بعد أنه يعادل عمرها كله. وأحسّت فجأة بقشعريرة تسري في جسمها فانتفضت كأنما لسعتها أفعى وقررت أن تقاوم ولكن كيف؟ وانحسرت إلى قوقعتها.

وشمل الأخلاقي المكان من عل بنظره. السرير المشوش الكراسي، الصوفا، الطاولة التي عليها زجاجة عرق لم تنقص كثيراً، وثلاثة كؤوس وفواكه وأعقاب سجاير وعيدان كبريت محترقة، وصورة معلقة بلا إطار لزعيم، والستائر والمرأة المرقطة والرجل ذو السروال، الذي بدا كوتد دَقَّ حتى منتصفه وما يزال ينتظر دق النصف الآخر. فأحنى رأسه وراح يتشاغل بالنظر إلى الأرض. قال الأخلاقي:

- سكر وزنا.

وسأل بغلظة وبلهجة قاطعة:

- لمن الكأس الثالثة؟

فقالت السلحفاة من داخل قوقعتها وكأنها تتكلم من عالم آخر أو هذا ما أحست به على الأقل:

- لأخي.

فقال بغلظة وبلهجة قاطعة:

- كذابة.

وقال لنفسه: «أعرف ذلك. كان الزوج من قبل. والآن الأخ. كان الزوج يقوم بدور الستارة وتدبير الأمور من قبل. والآن الأخ. أي صنف من البشر هؤلاء؟ ولكن ما وجه الغرابة في ذلك؟ كنت أعرف أماً كانت تقوم بدور الوسيط لابنتها».

واغتنم الرجل فرصة انشغال الأخلاقي مع المرأة، فمد يده إلى قميصه. وقالت المرأة:

- لأخي وحق كتاب الله.

وانتبه الأخلاقي إلى حركة الرجل فتوجه إليه قائلاً بغلظة وبلهجة قاطعة:

- دع القميص مكانه. لا أحد يلمس شيئاً.

ثم تابع ببطء وكأنه يعلك كل كلمة يقولها منتقماً لاستغلاله:

- أما تستحي يا رجل؟ فمنذ قليل كنت تنام مع هذه المرأة. والآن تقوم بدور اللص.

وقال الرجل بآلية، ولعله حاول التنصل:

- أنا؟

وسارع الأخلاقي يردد قوله الرجل ساخراً:

- أنا؟ لا أنا... وماذا كنت تفعل إذن بحق الله؟

وبسط كفاً على كف وقال بلهجة ذات مغزى:

- هل تريد أن أتصور أنك كنت تطحن برغلاً؟..

ثم للمرأة باحتقار كاد يسحقها:

- وأنت لا تحلفي بالكتب السماوية.. إنها بريئة منك. لو كانت الشرائع السماوية تُطبّق لكنت الآن ترجمين في ساحة عامة.

ونبست شفتاها: «يا ساتر يا الله».

وفتح الطبيب الباب واقترب منها بنظارتيه.

وحجبت عينيها بيدها ثم مررتها على جبينها فحملت بعض العرق الذي تفصد منه. وقالت، وهي تنظر في كفها الذي يلتمع تحت النور:

- وماذا فعلت حتى أُرجم؟...

- ماذا فعلت؟ لا شيء.. هل تريدين أن أقول إنك كنت تطحنين أيضاً؟ أم أنك كنت تمتحين الماء وأنت مغمضة العينين مثل بغلة الناعورة.

بغلة الناعورة. وابتلعت التشبيه المهين مرغمة. وأحست بالجرح كما لم تحس من قبل، واعتبرت «بغلة الناعورة» أكثر إيلاماً من كل الإهانات التي ألحقها بها. وأدركت عدم جدوى هذا النوع من الدفاع، هي نفسها غير قانعة به. فما جدوى الإنكار.

وثقل جو الغرفة. وضغط شيء ما على الصدور. وبدأ إحساس واحد بالضيق والانزعاج بالنسبة إليهم جميعاً. وإن كان هذا الإحساس ليس واحداً في دلالته لدى كل منهم.

ودار الفأر في المصيدة. واقترب من قضبان سجنه. ثم رنا إلى حذائه قرب السرير فلاحظ أن إحدى الفردتين تستند إلى الأخرى. ومدت السلحفاة رأسها خارج قوقعتها فرأت نفسها تقف على شفير هاوية، وأن دفعة صغيرة في الاتجاه الآخر ستؤدي بها إلى الهلاك. فامتلأ قلبها رعباً. لقد قُبض عليها قبل الآن وأُنذرت. وها قد استنفدت آخر إنذار لها. وضغطت بقدميها كأنما

تختبر صلابة الأرض التي تحملها، أو تريد تثبيتها في النقطة التي هي منها على شفير الهاوية.

وأغمض يوسف عينيه. كان البئر مظلماً عميقاً بلا قرار. وتمتمت: «يا سند المكروبين ويا رجاء المضطرين أغثني».

أما الأخلاقي فقد كان قوياً صلباً كعادته مثل كل رجال السلطة السريين، وإن كان في ملامحه بعض العصبية والنرفزة، كأنما يود الخلاص بأسرع ما يمكن من هذه المهمة التي أسندت إليه، والفرار بعيداً عن هذا الجو المقيت.

وخلل الرجل أصابعه في شعره متحيراً بعد أن جدد النظر إلى حذائه. وتفكر ماذا يتعين عليه أن يفعل. وعزم أن يسأل الأخلاقي السماح له بانتعال حذائه لدى أول سانحة توحي باللين.

ولاحق الأخلاقي حركة الرجل. ثم ضاقت ساحة ملاحظته فشملت ظاهر كفه، ثم إصبعين من كفه مزينين بخاتمين غير عاديين، أحدهما له حجر أسود، والآخر أحمر. ثم انتقل بصره إلى يد الرجل الأخرى.

- اسمك؟

- أحمد.

ونظر الأخلاقي إلى يد المرأة متفكراً. كانت نظرة طويلة متأنية. ثم رفع نظره إلى وجهها وسأل كأنه تحت تأثير خاص:

- متزوج؟

واستبشر الرجل خيراً فراوده أمل من نوع ما. ولكنه كان قبل كل شيء متلهفاً لارتداء ثيابه كأن ارتداءه إياها سيخفي فعلته. أو لعله كان يود القيام بأي عمل مهما كان نوعه للخروج من سكونه ليداري انفعاله. وعلق السؤال على رأس لسانه. ورد بلهجة حمّلها كل تعاسته وانكساره:

- متزوج.

وماذا يقول أيضاً حتى يستدر شفقته. وأضاف:

- وعندي أولاد أيضاً.

ورد الأخلاقي باحتقار:

- وعندك أولاد أيضاً وتتورط في أمثال هذه المشكلات؟..

تورطت؟! نعم! كيف؟ لا أدري. ملعونة هي المرأة. وملعون من يستجيب إلى دعوتها. كل هذه الأشجار لك. أما هذه الشجرة فلا تقربها. ولكن كلُ يا آدم. ولكن الله يا حواء. هيا انزلا من جنتي وعيشا في الأرض.

وارتد بصر الرجل خائباً. كان البناء راسخاً سامقاً كحصن من الحصون. ورأى الرجل كل صرامة الجهاز الحكومي وهيبته متمثلة في شخص الأخلاقي.. في قامته المشدودة الملفوفة، ووجهه الجامد، وملامحه الصمَّاء. وأدرك أن كل محاولة من قبله للنفوذ إلى قلب هذا البناء محكوم عليها بالإخفاق.

أما المرأة فقد توقفت عند نقطة من البناء. لقد تراءى لها أنها لمحت شقاً فيه. وعندما أعادت النظر إليه، صارت أقرب إلى اليقين فيما اتجه إليه شكها. وأعملت فكرها. كيف تستطيع أن تتأكد من صدق تخمينها.

فقد لاحظت منذ بعض الوقت أن الأخلاقي كان يسترق النظر إلى خاتمي أحمد الثمينين. واستطاعت أن تلمح في عينيه شيئاً عبر بسرعة مرة، ومرة أخرى استطال حتى أنها تكاد أن تلمسه. لكنها احتارت في تفسيره، وقالت لنفسها: هل يمكن أن تكون الخواتم عقدة هذا البناء؟ واستدعت خبرتها كامرأة عرفت رجالاً كثراً. إن لكل رجل نقطة ضعفه. فهل نقطة ضعف هذا الرجل الحديدي هي الذهب؟ ولكن أنى لها أن تتأكد في هذه اللحظة. إنها لا تعرفه جيداً. كل ما تعرفه عنه أنه اعتقلها مع آخرين مرة أو مرتين، حيث اقتيدت بعد ذلك إلى الأخلاقية[1]. كما رافقها عندما بعثوا بها إلى الطبيب للكشف.

ونقلت بصرها إلى يديه. كانتا خاليتين تماماً. ليس هناك خاتم زواج ولا خاتم زينة. فهل هو أعزب أم متزوج؟ أُرجح أنه متزوج. ترى هل أضاع

---

(١) الأخلاقية: مركز شرطة الآداب.

خاتمه وهو يضرب شخصاً؟ أم باعه في ساعة من ساعات الضيق؟ إنه موظف وربما كان راتبه صغيراً. مهما يكن يجب أن تنفذ من هذا الشق، إذا كان هناك شق، وما عليها إلا المحاولة. وتراءى لها أن بصيص النور الذي يتسرب منه هو الشيء الوحيد الذي يضيء في الظلمة المحدقة بها. وحضنت بذرة.

قال:

- هل أستعد فأرتدي ثيابي؟

وعضت على شفتها. وقالت لنفسها على الفور. لقد تعجلت. لعله كان يجب أن أدعوه أولاً إلى قدح من القهوة. لو أستطيع التخلص من أحمد. يا له من عقبة! والمشكلة ليست مشكلته على كل حال. وهو في أسوأ أحواله لن يتأذى كثيراً. وسيعود إلى فتح مخزنه والحياة والشارع مرة أخرى. أما هي فقد قضت على آخر فرصة أعطيت لها وبعدها.. وبعدها..

وأورقت البذرة فتبرعمت. وغامرت بالقول:

- دعه يذهب. إنه تاجر له سمعته ورب أسرة ومن عائلة محترمة.

- أبو بشير لم تفتح المخزن البارحة! خير إن شاء الله.

- كنت مريضاً في البيت.

- أين نمت البارحة يا رجل؟ لقد أخفتني وأخفت الأولاد.

- صدمتني سيارة فنقلتني إلى المستشفى.. شيء بسيط لم أشأ أن أزعجكم.

- عجيب وهل جهل السبب في تغيبك عن البيت أقل ازعاجاً للزوجة والأولاد.

لو تجمع كل عبوس الدنيا لما كان أكثر قدرة على التعبير من حركة تمثلت في تقطيب جبين الأخلاقي. وقال بلهجة صارمة، ولعله بوغت من سؤالها:

- اخرسي.

ومع ذلك لم تيأس. ولم يوهن من عزمها هذا المظهر الساخط، فليس هنالك من إنسان يولي ظهره إلى الذهب. والمجانين وحدهم لا يعرفون قيمة الأشياء الجميلة. وتابعت بنفس الجرأة ولكن على نحو أكثر استعطافاً. لقد فكرت أن القيام بعمل ما عرضة للإخفاق بين ثلاثة. وهو ناجح بين اثنين:

- أنت رجل كريم وتعرف قيمة الرجال.

ورمقه الرجل نصف العاري بنظرة عجلى مستطلعاً أثر هذا الاستعطاف، ولكنه لم ير ما يدل على الاستجابة. وتمنى في دخيلة نفسه أن تواصل رجاءها.

ونبر الأخلاقي:

- ما شاء الله. متى كانت (الأوادم) من أمثالك يلقون إليّ بالأوامر؟ هذا ليس شغلك.

آه ها قد وصلت إلى شيء. شيء ما تحسه أكثر مما تستطيع أن تضع يدها عليه. فلتقف إذن ولتلتقط أنفاسها. ولتتحسس ما وصلت إليه. «ما شاء الله» ينضح بالسخرية. ولكنه ينضح أيضاً رغبة في مواصلة الحديث. لا شيء يمنعه من أن يقول اخرسي مرة أخرى. ولكنه قال ما شاء الله. وما شاء الله تعني أني أسخر مما تقول ولكني أستمع إليك. وكلمة (الأوادم) مثلاً، ألم يكن يستطيع أن يستبدلها بكلمة أخرى. حقيرات. ساقطات كلمة أكثر حدة وتليق بالمقام.

ولم تضع الوقت سدى، واتخذت من نقطة الاستناد هذه مشجعاً فتابعت:

- قلبي يحدثني بأنك ذو أصل. إن ملامح الشهامة تلوح عليك، وابن الأصل لا يريد الفضيحة للناس المحترمين. أحمد شخص خدوم كريم لا يرد طالباً. إنه ملك في متجره.

- يا سلام. ما هذا؟ أهناك قصة حب؟

ورنت المرأة إلى الرجل ورنا الرجل إلى المرأة. كانت نظرة ذات مغزى، ولعلهما أرادا أن يدعما قول الأخلاقي كي يستدرجاه إلى الاقتناع بأن ثمة علاقة بينهما، أكثر من مجرد اتصال عابر.

افرحي واستبشري «يا فطوم» إذا لم يكن هذا ليناً وتساهلاً فماذا يكون إذن؟.

- فطوم.. فطوم أين كنت يا لعينة؟..

- والله العظيم يا أمي دكان بياع اللبن بعيدة.

- بعيدة أين؟ هي على رأس الحارة يا بنت.

- يا سيدي أنت أبوها.

- يا ستي وأنت أمها. لا ترسليها إلى السوق.

وتابعت المرأة بنفس التوتر:

- أطلق سراحه. واقبض عليّ.

- كفى ثرثرة. إن ذلك سيوقعني في مشكلة.

ها قد بدأ يتراخى فعلاً فلا تتوقفي.

- اقبض عليّ. وقل أن الفاعل هرب. تسلل من النافذة أو تسلق السطوح. قل أي شيء.

- ولكن أي شيء ليس هو الحقيقة. والحقيقة هي أن أقوده إلى (الأخلاقية) لينال جزاء فعلته.

- يا سيدي الناس للناس. والسجن لا يفرغ إذا نقص زائراً.

وشدَّ الأخلاقي قامته ورمق الرجل بنظرة. نظرة غير محددة قد تعني شيئاً وقد لا تعني أي شيء. واهتز الرجل انفعالاً، والتمعت عيناه حتى لتوحيان بأنهما على وشك البكاء، وأقبل الرجل الذي كان ملكاً في متجره على يد الأخلاقي إقبالاً صادقاً يريد تقبيلها أو الشد عليها امتناناً. ولكن الأخلاقي سحب يده ولم يعلق بشيء. ولم ينتظر أحمد إشارة صريحة من الأخلاقي، بل شرع في ارتداء ثيابه، وعجل بالانصراف.

ولمسها الطبيب فأجفلت.

الطبيب - النتيجة إيجابية.

الزوج - أنا كنت معها.

الأخلاقية – يا وحيد القرن.

والآن لم يبق غيرهما، ولا تزال أمامها معركة أخرى من أين تبدأ؟! يجب أن لا تجرح إحساسه. وهبه رفض. فيا للحرج! قالت تمزق الصمت:

- لن أؤخرك أكثر. سأرتدي ثيابي.

ودفعت عدداً من أساورها في يدها اليمنى. ودفعت عدداً آخر في يدها اليسرى. والتمعت عينا الأخلاقي للحظة. ولم يفت المرأة أن تلحظ ذلك. ولكن سرعان ما عادت العينان إلى سابق عهدها الأول قاسيتين جامدتين.

ثم قالت وهي تغرز المشط في شعرها المشوش:

- هل جئت يا رجل واقفاً؟!

ولكن الأخلاقي ظل على صمته قائماً هناك جداراً من الإسمنت.

- ما رأيك في قدح من القهوة؟

ودفعت به برفق إلى المقعد.

- لا تخف لن أضع لك فيه شيئاً.

ونظر إلى المصاغ ولكنه ظل على صمته.

- قدح قهوة وسيجارة يصفيان الرأس.

ومع ذلك فقد ظل صامتاً كأنما يعلك في رأسه فكرة.

- هل أنت متزوج؟

- ...

- هل تحلي يديها الأساور.

ونظر إلى الأساور مجدداً.

- في المرة القادمة تعرفين النهاية.

- هاتِ يدك اليمنى وابصمي هنا. لا. كل يدك. بكل أصابعها. هاتِ اليسرى.

- والآن انصرفي. ولكن اعقلي ودبري نفسك.

ثم وهي غير بعيدة عنه.

- ترى هل تعجبها هذه الأساور؟

ولمس بيده المصاغ لمساً رقيقاً. ولانت نظرته القاسية.

كانت يداها عاطلتين من الزينة عندما رحل، بعد أن احتسى القهوة. ولكن ثمة شيء انبثق في ذهنها فجأة لحظة أطلت من وراء زجاج النافذة. لماذا جاء وحده وكانت العادة أن يأتوا جملة في سيارتهم الخاصة؟! وبدأ الشك يتسرب إلى رأسها من السهولة التي تمت بها المساومة.

واستعادت تفاصيل الموقف، فأحست أن ما جرى كأنما شيء ما كان له أن يجري على هذا النحو. وراعها أن لا تنتبه إلى هذه الحقيقة. ولكن هبها فعلت، فماذا عساها تستطيع أن تغير من مجرى الأمور.

وتجمهر الناس حولها. ودفعوها في ساحة عامة بعد أن أوثقوا يديها.

- والآن اجمعوا الأحجار.

لنضرب الساقطة.

- اسرعوا.

- إياكم أن تفلت من أيديكم.

- هذه تحويشة عمري. كنت أخبئها لأدبر بها نفسي.

وتساءلت عما ينبغي عليها أن تفعل. وكان أول شيء خطر لها هو أن تنتقل إلى بيت آخر.. إلى بلد آخر. واجتاحها حزن عميق، ثم سحقت أنفها وجبينها على زجاج النافذة وبكت.

* * *

# عَودَة الأحبَاب

لم تستقبل محموداً صيحات الأطفال. ولا أحد جرى فتعلق بذيل سترته، أو وضع يده الغضة على العربة الصغيرة ودفع معه. بل شرع يتقدم وحده ليسلك طريقه بين صفين من بيوت الصفيح.

ولم يكن ذلك شأنه دائماً. فمنذ خمسة عشر عاماً أو يزيد كان هناك على الدوام طفل أو أكثر يقوم بطقوس الاستقبال له؛ يهتف لمجيئه، أو يمده يده الصغيرة إلى جيبه مستفسراً عما يحمل له، أو يصيبه بكرة القماش، وآخر يتواثب حوله جذلاً كحيوان صغير أليف.

أما الآن فها هو قد اجتاز الفسحة المستطيلة التي تقوم حواليها بيوت الصفيح دون أية مظاهرة أو احتفال. وحالما وصل إلى شردقته، أوقف عربته الصغيرة التي كانت ذات يوم سريراً لطفل، وبدأ يفرغ حمولتها. ولم تكن حمولتها سوى سلتين عامرتين بكسارة الزجاج.

قال:

- يا ستار.

وشال السلة الأولى بعسر من أذنيها الاثنتين وحملها إلى داخل الشردق.

وقال مرة أخرى:

- يا معين العواجز..

ونقل السلة الثانية. ثم عاد فظهر من جديد على العتبة.

كان الوقت مساء. ونقيق الضفادع يشق أجواز الفضاء. أما البيوت فقد خيم عليها صمت يشبه الصمت الذي يعقب عاصفة مرت على قرية، فكنستها من أهلها كنساً. واحمرت رؤوس شجيرات الصبار خلف بيوت الصفيح بفعل الوهج الذي خلفته الشمس وراءها

ودار بعينيه في أرجاء المكان، فأحس بالوحشة والرهبة. كانت الأبواب مشرعة، ومخلفات العائلات التي رحلت عن الشرادق منتثرة في أرض الساحة، مزق من صحيفة قديمة، صورة من مجلة، مكنسة مهترئة، صحن ألومنيوم مسوَّد، صفحات من كتاب قراءة للصف الأول، قطعة وشاح أحمر، جرة محطمة على يمين باب بيت سعيد الناطور، غير ذلك من الأقذار والنفايات هنا وهناك.

صورة تبعث الأسى وتحرك في النفس الشجن. وقفل عائداً إلى الداخل.

- لم يبق أحد إذن.

نعم لم يبق أحد. لقد رحل الجميع. عائلة إثر عائلة. أحمد تفوح أولاً، ثم نديم طفران وسعيد الناطور وسامي الجرو وإبراهيم المشنوق. واليوم.. اليوم بالذات سليم الجاموس وعلي شاهين.. مسبحة انفرطت. بعضهم رحل إلى حارة الجمَّال وبعضهم إلى الرمل، وآخرون توغلوا في اتجاه الشمال سعياً وراء البيوت الرخيصة. فما الذي أبقاك أنت؟.

ما الذي أبقاه؟! سؤال لم يلقه على نفسه، وإذا ألقاه فقد لا يجد جواباً شافياً.

- تعال معنا.

قالت له عائلة سليم الجاموس في سهرة الليلة الماضية وكررت عائلة علي شاهين:

- أنت فرد منا سواء بسواء.

قالت له عائلة سليم في سهرة الليلة الماضية وكررت عائلة علي شاهين:

- أنت فرد منا سواء بسواء.

كذلك فعلت بقية العائلات قبل أن ترحل كل واحدة بدورها.

- مع السلامة. لن أذهب مع أي منك. في رعاية الله.

- خاطركم عم محمود.. تعال لزيارتنا.

- إن شاء الله.

كان رجلاً في الخامسة والستين من عمره. قصير القامة صغير الجسم. في عوده اندفاع إلى الأمام ابتداء من أسفل البطن. ثم يتقعر العود ثانية عند بداية الصدر ويرتد إلى الخلف مع الرأس مما يكسب صاحبه رسم الأوزة وخطوها. لا ولد ولا زوجة. وربما لا أقارب أيضاً. شيء يشبه نبتة لا تزهر ولا تثمر. خطأ فني حدث للطبيعة، فدفعت به قبل أن يكتمل، وتلاعبت به الرياح والأنواء حتى قيّض له أن يستقر ظاهر المدينة في شردق من شرادق الصفيح السوداء التي تحيط بها بعض الأراضي الزراعية بين سبع عائلات أخرى.

- كنا عائلة واحدة.

وأشعل الفانوس فلاحظ أن سواد بلورته لم يمسح. وفكر أن عليه أن يقوم بهذا العمل في المستقبل. هو ذا عبء صغير جديد يضاف إلى هموم القلب المستوحش.

وأشعل لفافته من الفانوس، ثم ثبَّت البلورة في قاعدتها، وتلفت حواليه كأنه يبحث عن شيء فلا يجده.

لم يكن يحس بالجوع ولا بالعطش، وإنما يحس بشيء يشبه الوهن. لعله سقيم، ولا رغبة لديه بالتجول خارجاً. إذن فليستلق على فراشه.

ولكن ما أشد ما تهفو نفسه الآن إلى فنجان من القهوة. غير أن لا بن لديه ولا سكر. ولم تكن به حاجة يوماً إلى ادخار البن أو السكر. كان يكفيه أن يدخل أحد الشرادق حتى تقدم إليه القهوة أو الشاي وربما البابونج أحياناً. حلم لذيذ عاشه خمسة عشر عاماً لم يعلق خلاله مرة طعاماً على نار. فطور هنا وعشاء هناك. لكن ليس معنى ذلك أن محموداً كان يعيش عالة على الآخرين. معاذ الله. كانت له خدماته في المقابل.

- أنا مشغولة يا محمود وهذا الطفل لا يكف عن البكاء.

ويقبل محمود فإذا الطفل ينهنه فيسكت. وإذا هو يهش بعد قليل ثم يضحك ويغرق في الضحك.. حقاً لقد كان يتمتع بقدرة عجيبة على إرضاء الأطفال.

وقد تمازحه امرأة فتقول له:

- أنت تطبخ، وأنا أحمل الماء من عين أم إبراهيم.

فيسارع إلى القول وهو يحمل الجرة:

- لا أنا آكل وأنت تطبخين.

إلى غير ذلك من الأشياء الصغيرة التي يعهد إليه بها. ومع ذلك فليس هذا كل ما كان يقوم به. فقد كان له عمله أيضاً.

كان يجمع كسارة الزجاج من حيث اتفق. من البراري.. من زوايا الجدران وعلب القمامة في المدينة ويبيعها في البازار.. عمل صغير لا يدرُّ كثيراً. ولكنه رغم ذلك يكفيه لشراء التبغ وبعض الحلوى للأولاد.. هؤلاء الأولاد الذين كانوا يملؤون الدنيا ضوضاء. فما أكثر اشتياقه إليهم الآن.

قالت له أم أحمد:

- هيا يا محمود امض معنا. الأولاد يريدون أن تأتي معنا.

كلام حلو على الرأس والعين.. طيب مضى معهم.. ولكن ماذا بخصوص بقية الأولاد؟.. كلهم أولاده.. وكلهم أحباء إلى قلبه.. فإما أب للكل.. أو ليمضي كل في سبيله.

- لنمكث بضعة أيام أخرى..

قال محمود قبل أن تبدأ أول عائلة رحيلها بلحظات، وقد أحس أن جذراً من جذوره يقتلع من الأرض.. ينفصل عنه..

- بضعة أيام فقط.. من يدري؟.. فربما تراجعت البلدية عن قرارها..

- ولكن البلدية لن تتراجع عن قرارها يا محمود.. الطريق ستمر من الشرادق.. هناك مشروع لتزيين مدخل المدينة. هذا ما جاء في المخطط.

- أي مخطط هذا؟.. هل المخطط مصحف منزل من عند الله.

- قلنا للمسؤولين: إلى أين نذهب ولا مال لدينا؟. احرفوا الطريق قليلاً إلى اليسار نحو الأرض المزروعة فتنجو الشرادق من الهدم.. فقط بضعة أمتار.. نعم قد تأكل الطريق شيئاً من كتف الساحة. ولكن الشرادق ستبقى في مكانها.

وقال محمود:

- لنشكل وفداً ونذهب إلى المحافظ..

- لا فائدة من الوفود.. لقد قال المسؤولون إن الطريق لا تنحرف يميناً أو يساراً إلا حسب المخطط.. وإذا أراد المخطط للطريق أن تأكل من هنا.. أكلت.. وإذا أراد أن تأكل الشرادق .. أكلتها.

وقالت النساء:

- ماذا نفعل؟.. إلى أين نذهب بأولادنا ورجالنا يعملون يوماً ويظلون خمسة أيام بدون عمل؟.

- احزم أمتعتك.. لا فائدة من مراجعة المسؤولين.. ولا بد من الرحيل يا محمود..

- لا بد من الرحيل.. ولكن إلى أين؟.. سنشيع في الطرقات يا مجانين.. ارحلوا أنتم..

- لا يهم.. أما أنا فسأذهب إلى المحافظ.

- أنت تذهب إلى المحافظ.

- سترون..

عجباً! ولكن الأمور ليست على هذه الصورة من الصعوبة. وما أيسر ما تسير به الأشياء! إنها أسهل من جميع العقبات التي واجهت محموداً في حياته. إنه متفائل يعوم على طوف من الأمل.. بل إنه منشرح الصدر إلى حد الفرج.. فلا حواجز ولا حدود اعترضته عندما دخل لمقابلة المحافظ.

- أيها المحافظ.. يا سيادة المحافظ.

- نعم.. من أنت؟..

- أنا محمود بن محمد الدباح يا سيدي.

- ماذا تريد يا محمود.. يا بني.؟

- الطريق ستهدم الشرادق.

- أي شرادق يا بني.. هل يسكنها ناس؟..

- نعم يا سيدي.. عمال يومية.. رزقهم مثل الصياد.. حضرتكم تعرفون مطالب العائلة: صابون.. سكر.. خبز.. كاز.. لباس.. وإيجار سكن الشرادق.

- مساكين.

- الشرادق ليست أحسن مكان للسكن يا سيدي. إنها تدلف في الشتاء. ولكن اعتدنا على السكن فيها. إننا نضع طستاً أو صحناً تحت المكان الذي يقطر منه الماء.

- حياة صعبة..

- ولكن الشرادق ستهدم..

- ومن سيهدمها يا محمود يا بني..

- البلدية يا سيدي.

- البلدية..؟ لا يصح أن تهدم البلدية الشرادق وتشرد الناس لأجل طريق.. موظفو البلدية أرذال.. سنمنع الهدم.. اطمئن.

والآن ستظن أن ذلك حلماً يا محمود بكل تأكيد.. ستظن ذلك بدون شك. ولكنه حقيقة.. يا له من عمل.. وطبعاً لن يصدق أفراد العائلات أنك فعلت كل ذلك لأجلهم. ولكن.. ولكن كيف سيعرفون إنك أوقفت البلدية عند حدها.. وأنَّ عليهم أن يرجعوا للسكن وقد تفرقوا في كل مكان.

- هناك أمر آخر يا سيدى لا أعرف كيف أدبره.

- أي أمر يا محمود؟..

- لقد تركت العائلات الشرادق ومضت تبحث عن أمكنة للسكن.. لقد تفرق الأفراد في كل مكان.

- مساكين.. تعذبوا في نقل الأثاث.

- لم يكن هناك أثاث كثير يا سيدي.

- مهما يكن.. لقد انزعجوا وفي هذا الكفاية.. لا تحمل هماً.. سنعمم عليهم أمراً بالعودة إلى الشرادق.

وفعلاً عادت العائلات بسرعة مدهشة إلى الشرادق. عربة وراء عربة.. شيء لا يصدق.. ولكنه حدث بشكل حقيقي وملموس.. فها هو محمود يعانق العائدين ويعانقونه.. والمأخذ الوحيد الذي كدره أنهم عادوا في وقت كان آخذاً فيه طريقه إلى الخارج، وقد أطبق يده على شيء غير عادي عثر عليه بين كسارة الزجاج.. لكنه استطاع في اللحظة التالية الإفلات والتسلل بطريقة عجيبة في الوقت الذي ساد فيه الهرج وعمت الفوضى ساحة الشرادق، بسبب لغط العائدين وفرحتهم بالعودة إلى بيوتهم والتقائهم من جديد.

ومشى محمود في سوق الصاغة.. كان يلهث من كثرة ما ركض.. وكان العرق يرشح منه.. قال محمود للجوهري وهو لا يزال يلهث..:

- هل تشتري هذا؟..

وفتح راحته.. فاتسعت عينا الجوهري إعجاباً ودهشة.. كان شيئاً رائعاً غريباً حقاً، أدهش محمود نفسه في تلك اللحظة، شيئاً متألقاً كأنه دمعة تجمدت على ذوب النور.. قطعة من الشمس في يوم بهي سقطت فاستقرت في يد محمود.

وقال الجوهري:

- يا لطيف..! أنا لم أر مثل هذه التحفة في حياتي.. ليس معي من المال ما يكفي لشراء هذا الشيء العجيب.

قال محمود:

- ما معك إذن؟

- مئة ألف.. ها هي على الطاولة..

وصفَّر محمود من ضخامة المبلغ الموجود أمامه.. إنه لم ير مثله في حياته كلها.. ورمى له الجوهرة وحشا جيوبه وعبه بالمال.. وخشخش الورق بين أصابعه من جِدته فأسكره.. ثم جرى.. فهتف به الجوهري:

- ولكنك لم تأخذ المئة ألف كلها.. تعال وخذ مالك يا مجنون..

ولكنه ظل يجري حتى وقف أمام لبَّان:

- أعطني تنكة حليب.

- وما حاجتك إلى تنكة حليب؟ قدح واحد يكفيك..

بل أعطني تنكة. واحدة لا تكفي كل الأطفال يجب أن يشربوا الحليب وليس ابن سامي الجرو المريض فقط. تصور كانوا يغارون من ابن الجرو؟!. لقد تمارضوا كي يشتري لهم أهلهم الحليب.

- ولكن من أين أتيت بكل هذا المال؟!.. أنت تجمع الزجاج؟.

- نعم..

وتمشي مثل البط؟

- نعم.

- محمود بن محمد الدباح؟

- نعم.

- من أين حصلت على هذا المال؟.

وهز الرجل رأسه في ريبة.. وكان لا يزال يهزه حين مضى محمود في طريقه.. ثم حين توقف أمام مخزن:

- أعطني معطفاً لسلمى.

- ولكن أنت لا ولد لك.

- نعم لا ولد ولكني سأتزوج بعد قليل. أعطني معطفاً لسلمى بنت أخي سعيد الناطور.. إنها تقرأ لنا عنترة في الليل.. ولكن المطر ينتظرها على باب المدرسة فيبلل شعرها حالما تخرج والبرد يقرصها. وأعطني لها أيضاً كتاب تاريخ.. إن كتبها تنقص هذا الكتاب ولا مال لديها لتشتري واحداً..

- وماذا تريد أيضاً؟

- دفاتر سجاير

- طيب..

- ورق الشام.. هه

- طيب..

- وماذا تريد أيضاً؟.

- حذاء من المطاط كي لا يتسرب الماء إلى رجلي عندما أجمع الزجاج..

- وماذا تريد أيضاً؟..

- كيساً للماء الساخن أضعه في فراشي.

- عجباً ألا تنوي الزواج؟

- بلى..

- لا حاجة بك إذن إلى الماء الساخن.

- وماذا تريد أيضاً؟..

- بطيخة كبيرة شق السكين.

- أنت تحب البطيخ..

- كثيراً.. وطول عمري كنت أشتهي أن آكل بطيخة بكاملها لوحدي.

- ولكن لا بطيخ عندي.

- لماذا؟..

- لأنه لم يأت أوان البطيخ.. ولكن أنت مجنون.

- لماذا؟

- لأني لا أبيع المعاطف ولا البطيخ.. ولا كتب التاريخ قال تاريخ... قال. وقالت له امرأة تنتظره في زاوية من الطريق:

- أنت تريد أن تتزوج؟.

- نعم..

- كيف تريدها؟..

- مكتنزة.. شعرها طويل أسود.. مثل فريدة .

- أي فريدة يا رجل؟.

- امرأة أحمد تفوح..

- ولكنه صديقك.

- نعم.

- وتريد امرأة مثل امرأته.

- نعم.

- انظروا الخائن.. إنه يشتهي امرأة غيره..

فجرى محمود، وبرز اللبان من الظلام وصاح:

- امسكوا اللص.. لقد سرق أموال المحافظ..

وقال رجل المعاطف:

- إنه يريد أن يشتري معطفاً لابنة صديقه.

وجرى الجميع وراءه.. فجرى أكثر.. ودار إلى اليمين فدخل في زقاق.. ولكنهم ظلوا يطاردونه.. فجرى أكثر.. فأكثر.. واقتربوا منه فضاعف من سرعته.. وجرى أكثر.. فأكثر.. فأكثر.. غريب. ولكنه مع كل جريه لا يجري كفاية ولا يستطيع أن يبعد المسافة بينه وبينهم. وتساقطت الليرات من جيوبه.. وانزلقت من كمي سرواله وطرف قميصه فجمعها المارة. وتكاثروا وراءه وازدادوا لحاقاً به.. ولكن ماذا حدث لرجليه؟.. ماذا يعوقها؟.. اقتربوا أكثر.. عجز عن الجري أكثر. حرّك رجليك.. تخلص مما يعوقهما؟. ولكن ماذا يعوقهما؟.. إنها خيطان قنب. ولكن لا.. لعلها حبال قنب.. ولكن لا.. ارفس أكثر.. ارفع رجلك أكثر.. الأعداء يقتربون.. الطريق مسدود أنت تجري. أنت لا تجري.. اصرخ.. ارفع صوتك أكثر.. رجلاك مقيدتان.. ولكن بماذا؟.

- وفتح عينيه...

- باللحاف طبعاً..

وفتح عينيه أكثر فبهرهما الضوء وتدحرج العرق حبات على وجهه، وتتالى لهاثه المتلاحق فبسمل على عجل وتلا: «لا إله إلا هو الحي القيوم. لا تأخذه سنة ولا نوم. له ما في السموات وما في الأرض. من ذا الذي يشفع عنده إلا بإذنه».

ونهض في إعياء فنقل لولب المصباح الذي التهبت شعلته فخفت النور. ثم انحنى أكثر ونفخ في البلورة فأطفأ الضوء بكامله من قبيل الأمان. وعاد فاستلقى على فراشه ونام من جديد.

* * *



# النجــوم

مجموعة قصصية


الهيئة العامة
السورية للكتاب

# النجوم

رضيت عني الآلهة يوماً فأحببت أميرة. كان قصرها في أعلى التل شرقي المدينة وهكذا كانت أول من يستقبل شمس الصباح. وكان قبالة القصر شجرة جميز هرمة يأوي إليها ديك وثلاث دجاجات مع فراخها الخمسة عشر. ولعل شجرة الجميز العتيقة شهدت من مكانها ذاك عهد أكثر من أميرة وآلاف الدجاج الراحل. إن عهد الإمارات سريع الزوال.

وكنت في كل ليلة أتسلق التل كي أتأمل النجوم حتى لقد أوشكت يوماً أن أصل إلى معرفتها ولكن بعد مولد هذا النجم، نجمتي، استعصى عليّ الأمر. إن سر النجوم يزداد غموضاً كلما اقتربنا منها فقد قالت لي ذات مرة:

- أوه... علينا أن نرحل

قلت:

- إلى أين؟

قالت:

- إلى بلد آخر.

قلت:

- أمضي حيث تمضين

فسألت:

- كم نجماً تملك؟

قلت:

- آلاف حتى اللحظة، وفي الليلة القادمة تمسي عشرة آلاف وواحدة.

قالت:

- هذا قليل. إنّ سر الوجود الذي سأعطيك يساوي أضعاف هذا القدر من النجوم. أواه، لاتحزن كثيراً أيها العزيز. ابدأ المشارات مع أبي وولي نعمتي، لسوف أقف في صفك وأقنعه أنَّ العالم لم يعد يملك نجوماً كثيرة.

وشعرت بالخجل. الحق أن من كان في مثل سني كان عليه أن يملك أضعاف هذا القدر من النجوم لقد كنت سعيداً فيما مضى، لاعتقادي أن من يملكون مثل ثروتي قلة في بلدي ...نعم لقد حسبت نفسي غنياً ذات يوم. وأضفت بتواضع. كان لايزال في صندوقي بعض الثروة.

- هناك مليون نجمة صغيرة أيضاً.

- إن النجوم الصغيرة ليست ذات قيمة مضمونة، فهي لاتساوي شيئاً أحياناً لأنها تتبدل بتبدل الزمان والمكان.

- هذا حقيقي إلى حد ما.

وأحسست بغصة واندفعت إلى عينيَّ دمعتان فأضفتهما إلى نجومي الصغيرة...أليست الدموع شبيهة بالزهور؟؟؟

وفي الليلة التالية سعيت إلى التل وأحصيت نجومي قبل أن أبدأ القطاف فنقصت اثنتان، فأحصيتها من جديد فانخفض الرقم إلى تسعة آلاف وتسعمائة وسبعة وتسعين فحزنت حزناً شديداً، وظللت أحصيها مرة بعد مرة حتى اكتمل العدد القديم، عندئذ تنفست الصعداء ولكن قلبي ظل مهموماً. لقد أدركت أن النجوم رغم عظمتها فقد تحجبها أحياناً غيمة صغيرة عابرة.

وأضفت نجمة الليلة إلى الثروة الرئيسية، كما أدخلت في حسابي زهرة نادرة عثرت عليها تحت شجرة عليق. صارت ثروتي عشرة آلاف نجم ونجم، ومليون وثلاثة نجوم صغيرة. لقد كنت أسير قدماً نحو الغنى، فليت الأميرة تنتظر. آه ولكنها لاتريد. لقد سئمت هذا البلد المقفر. غداً أذهب إلى القصر وأطلب يد الأميرة.

* * *

نهضت في الصباح فرحاً كالعصفور، فغسلت وجهي ورتبت شعري ثم اتخذت سبيلي إلى القصر. ولكن رؤوس الحكمة التي التقيتها في الطريق نصحتني أن أبعث رسلاً يطلبون يد الأميرة. لقد رددوا «تلك هي العادة» إن العادة سلسلة ثقيلة تشد عنق الإنسان.

وعندما عاد الرسل قالوا:

- لا تصعد التل هذه الليلة.

قلت:

- لماذا؟

فقالوا بجد ظاهر:

- لقد حرّم والد الأميرة عليك الاقتراب من القصر حتى يبت في قضيتك. إن والد الأميرة أمير.

وهكذا مضت ليلة دون أن أصيد نجماً. إن النجوم لاتصاد إلا من الأعالي.

* * *

وذات ليلة صعدت التل خلسة، فللتلال أكثر من درب كلها تنتهي بنا إلى النجوم. كانت قد مضت خمس عشرة ليلة منذ أن طلبت يد الأميرة. إن خمسة عشر نجماً قد نقصت ثروتي.... ايه لقد بدأ ثوبي يتهلهل.

واقتربت من القصر ولكن أبوابه كانت موصدة فقلت:

- مساء الخير ياشجرة الجميز.

- مساء الخير.

كانت شجرة الجميز لاتزال يقظى، وكانت ثمارها تغازل ضوء القمر. سألت:

- أين الأميرة؟

فقالت:

- انتظر حتى يغيب القمر أروي لك سر غيابها. إنني أهيء عرائسي لأبعث بهن إلى سوق المعرفة. فاقتعدت حجراً وطفقت أرقب العرائس وهي تتزين بألوان شفق من أشفاق تشرين الأول. قلت في نفسي:

- «يالها من شجرة كريمة! إنها مافتئت منذ الأزل تبعث بثمارها إلى المجهول لتدرك معنى وجودها على هذه الأرض. كم هي عطشى أرض المجهول»؟.

وحينما آوى القمر إلى الغرب تنفست شجرة الجميز الصعداء:

- إيه؟

- احكي لي سر غياب الأميرة ياشجرة أعطك مزقة من ثوبي وهي تعادل نجمة.

- كم أنت كريم: إن لي غلافي وهو بمثابة درعي، ولي أوراقي وهي تنوب عن لساني.

- إن غلافك رمادي مبقع وأوراقك فضية ياشجرة وعرائسك أشهى من القبل.

فتابعت دون أن تعير اطرائي لها التفاتاً:

- لقد التأم شمل الأسرة ذات ليلة وأخذت تبت في أمرك بينما انفردت الأميرة تداعب قطتها. لقد بدأ الأب فقال: «إن يديه فارغتان. إنه لايملك نجماً البتة» وقالت الأم: «إنه لايملك حدوة فرس ولاعتبة فكيف يواتي الحظ أميرتنا؟؟». وأضافت أخت الأميرة الصغرى، والصغار يرددون دائماً أقوال الكبار: «إن يديه فارغتان، وهو لايملك نجماً البتة ولاحدوة فرس. في الحق كيف يواتي الحظ أختنا». ثم تابعت من عندها: «إنه يبيت تحت شجرة جميز، وهو ليس أميراً أما أختي فهي أميرة فيا للطريد»

- أوه. ألم تغضب الأميرة ياشجرة؟.

- عندما سئمت الأميرة مداعبة هرتها –والأميرات سرعان ما يسئمن من الأشياء –طفقت تردد: «واحد وواحد يساوي اثنين. اثنان وواحد يساوي ثلاثة»

- أوه لعلها كانت تحصي أصدافاً. إن الأصداف أشياء جميلة. إنها عظام ملساء مدورة ومذّهبة. لسوف أمضي إلى الشاطئ ذات صباح رائق وأنقب عن قدر منها بين الرمال فأضيفها إلى نجومي الصغيرة. ولسوف ترقص لها عروسي طرباً كما يرقص الطفل بهدية من الكرات الزجاجية الملونة في صباح ميلاد. إيه إيه كيف فاتني ألاّ أفعل ذلك من قبل؟.

- ولكنها كانت تحصي حفنة من حبات الذرة الصفراء. لقد فكرت في ذاتها: «هل هي مفردة، أم مزدوجة.» كان ثمة رهان بينها وبين نفسها من أجل ذلك.

- إن حبات الذرة الذهبية جميلة أيضاً. لولا أن بعض الأغبياء يتخذون منها أحياناً علفاً للدواب. فوا أسفاه كم من الأشياء اللطيفة تفقد رونقها بسوء استعمالنا.

- وأما أخ الأميرة ولعله الوحيد في الأسرة الذي كان يفكر على نحو حكيم أو سخيف لست أدري. كان يملك طيراً غريب الشكل والتغريد لايفارق نافذته لحظة، وكان يقضي بالقرب منه ساعات طوالاً يرقب قفزاته حيناً ويصغي إلى تغريده أحياناً. لقد كان يستقي منه الحكمة. ومن مآثر هذا الفتى أنه أنقذ ذات يوم نملة كادت توشك على الغرق في قطرة من الماء. لقد قال: «إنه أغنى من في البلدة، فهو ملك على عشرة آلاف كوكب وكوكب وفي حوزته مليون وثلاث زهرات وواحدة في طور الولادة. إنها ماتزال كماً، ولكنها سوف تتشقق في الغد، إنها زهرة مدهشة جداً، وهي أشبه بالفكرة ولكنها أصدق من الحقيقة. إنها عارية تماماً لاتزينها ورقة ولا يتوسطها تويج، وهي ذات أريج مُسكر إلى حد يفقد الصواب. طعمها مرّ وحلو المذاق معاً. لسوف تولد في الغد في نفس اللحظة التي ستتهدم فيها آلاف الأفلاك وتزيل ملايين الزهور. نعم إنها زهرة ذات أشواك سامة. إيه زهرة الشوك اضربي هذه القلوب الإلهية وانفثي فيها نفحة من الدم البشري».

- يا لها من زهرة عجيبة للغاية: هل صادفت في حياتك زهرة من هذا النوع ياشجرة؟.

- لا لم أصادف ويقال إنه يوجد منها وراء هذا التل. لكم أود أن أترك مكاني هذا لأبحث عن واحدة بدلاً من عرائسي. إنّ عرائسي اللطاف سرعان مايضعن في خضم هذا العالم الفسيح. أوه ما أجمل أن تحصل الشجرة المربوطة أبداً إلى هذه الأرض على إحدى رغباتها في الحياة. رغبة ليس غير.

وقلت في سري:

- «لو كانت هذه الشجرة شاعراً لملأت الدنيا قصائد ملونة مثل عرائسها. لو كانت امرأة لأنتجت كثيراً من سنونو «وايلد» التي تحتاج إليها الأقصاب القائمة أبداً هناك في الصقيع عند شطآن الأنهر ترقب أوبة الطيور التي مضت إلى مجاهل مصر تبحث عن زهرة اللوتس، ولتمتطي ظهور الفيلة تعاكس التماسيح الخطرة لقد أنهك الشوق الأقصاب فهي تتمايل مع كل نسمة...»

أيقظني صوت شجرة الجميز:

- لقد سألت أخت الأميرة اخاها. وماذا تعني الزهور؟

فأجاب مندهشاً:

- إنها نجوم صغيرة.

- وماذا تعني النجوم الصغيرة؟ هل أستطيع أن أستبدل ببعضها جواداً لأختي الأميرة. إن أختي الأميرة بلا جواد.

- إن أصحاب الجياد لايستبدلون جيادهم بالنجوم، لأن النجوم دموع معلقة في كبد السماء.

- إذاً ما فائدتها؟

- إن الزهور رمز لاستمرار الحياة وتجددها بين شخصين أو أكثر، فقد تنثر على قبر راحل عزيز، وقد يقدمها امرؤ لأميرته في إحدى المناسبات فتضعها هذه في إناء، ثم تختار لها مكاناً مناسباً لايغيب عن بصرها كي تذكّرها بأميرها.

- وماذا تعني الذكرى؟

فردَّ بغيظ:

- إنها استحضار لصورة شخص ما. إنها تثبيت شيء معين في الرأس والإيمان بأنه خالد.

- أوه هذا شيء غير عملي. إني أعتقد أن أصحاب الجياد عقلاء إذ لايستبدلون جيادهم بالزهور لأن الجياد تنقلنا إلى حيث يكون الشيء الذي نريد وضع صورة مشابهة له في الرأس.

* * *

حملت زادي في اليوم الثاني ومضيت بعيداً وراء التل لقد نصحتني شجرة الجميز أن أمضي كي أبحث عن الزهرة ذات الأشواك.

* * *

وفي الأصيل مررت ببلد. كنت متعباً وكان الدم ينزف من قدمي لأن حذائي قد تمزق. دخلت بستاناً وطفقت أجمع بعض أوراق التوت المتساقطة لأعمل واقياً لقدميّ، ولكن مالبث أن هرّني كلب، ثم أقبل رجل قاس الملامح وقال:

- لمن تجمع هذه الأوراق؟

- لي كي أخيط منها واقياً لقدميّ، ولكن ما شأنك بذلك؟

- هل تريدها دون مقابل؟ إنّ هذا البستان ملكي.

- إن أوراق التوت عديمة الفائدة مادامت الأشجار لم تعد تعطي ثماراً... لسوف يأتي الربيع فتكتسي الأشجار بالأوراق الخضراء من جديد، ولكن من جعلك مالكاً لهذا البستان؟

- لقد أورثنيه أبي.

وقذف بي إلى الخارج وفيما كنت أنهض سمعته يقول:

- ها إنه يريد أن يصنع حذاءً من الحرير...مهلاً يادوداتي ها أنا ذا آتٍ إليك بأوراق التوت الخضراء.

ونفذ زادي فأحسست بالجوع، نقبت عن سنبلة في المدينة لأجعل منها رغيفاً، لكني لم أجد. وإنما عثرت على تلال من الأرغفة على مناضد. كانت أرغفة حمراء كشمس المغرب. طلبت واحداً فزجرني الخبَّاز. وتابعت طريقي فالتقيت بصياد. قلت له: «أعطني سمكة فأنا جائع حتى الموت» فأجابني ساخراً: «امض إلى المحيط فهو حافل بالسمك».

وهبط الظلام ونفذ البرد إلى عظامي فقلت في نفسي: «ليتني لم أترك التل، ليتني بقيت أرعى نجومي» وتطلّعت إلى فوق أبحث عن نجم، عن أحد رفاقي كي يؤنس وحدتي ولكني لم أجد. عندئذٍ نظرت إلى نفسي فإذا أنا عار تماماً وشددت قبضتي في الظلام، فخيل إلىّ أنني أمسكت بالزهرة ذات الأشواك.

قذفني الجند في الصباح خارج المدينة بدعوى التشرد. سألت حراس الأبواب أن يرشدوني إلى بلدي، فظلوا قابعين وراء صمتهم. مشيت على غير هدى فشاهدت رجالاً ونساءاً يعملون في حقولهم توقفت عند بعضهم وقلت:

- يا إخوتي دلوني إلى بيتي.

لم يحفلوا بي وبقوا منكبين فوق أرضهم وجباههم تتصبب عرقاً. جلست عند حافة نهر. كنت ظمآناً فلم أجرؤ على تناول جرعة منه. لقد خشيت من مالك النهر وكلبه. وفكرت في نفسي «إنني لا أملك شجرة توت لأتخذ من أوراقها حذاء ...إنني لا أملك مخبزاً، ولاسلكاً أصيد به سمكاً من المحيط، فما أشقاني». وبينما أنا كذلك سمعت:

- صباح الخير.
- صباح الخير. من أنت؟
- فأر الأرض، ومن أنت؟ ما اسمك؟
- أحد رعايا الدولة.
- أي دولة؟ ما اسمك؟

إن من يفقد معنى وجوده عند عتبة الأميرة يفقد اسمه واسم دولته. فقلت:

- لقد تركت بالأمس قوقعتي وأنا أريد العودة. هل تعرف الطريق اليها؟

- ما من أحد لايعرفها.

- أرشدني اليها فأجلب لك اسمي واسم دولتي. لماذا لم يرشدني الآخرون؟....

- ليس من أحد يعمل عملاً دون أجر.

- دلّني إلى بيتي فأجلب لك اسمي واسم دولتي. مامعنى أجر؟

- لا، لا ضرورة لعودتك فأنت أحد رعايا الدولة الصغار دون ريب. إن الرعايا الصغار فقط ينسون أسماءهم... ولكن ليس هذا خطأك في شيء.

- خطأ من إذن؟ ما معنى أجر؟

- هو أن تعطي شيئاً مقابل شيء... ماذا جاء بك إلى هذا القفر؟.

- جئت أطلب زهرة الشوك.. ماهو أثمن شيء يقابل أثمن شيء؟....

- إنه الذهب أو الفضة وهي عادة قطع برّاقة مدورة تشبه النجوم إلى حد ما. هل عثرت على زهرة الشوك؟

- بلى. في بلد أهله لايبصرون ولايسمعون. لقد قذفوا بي خارجاً بعد أن كتبوا على ظهري وصدري كلمة طريد.... مامعنى طريد؟...

- تعني أن إنساناً ما، من أمة ما لا يجيد عملاً.

- أوه إني سعيد لأني لم أكن طريداً في الماضي. لقد كنت أتأمل النجوم و ..

- إنّ التطلع إلى فوق واصطياد النجوم شيء غير عملي ..

فقلت في نفسي: «إنه يتحدث على نحو مماثل لأخت الأميرة».

- ... قد يكون ذلك عملاً صالحاً في الماضي، ولكنه اليوم لايجدي بعد أن أخذت الدولة على عاتقها بعض مهام السماء. إن السماء لم تعد تمطر مَنّاً ولا عسلاً ولاذهباً ولافضة.

وهنا أمسكت بقرني الثور وصمت.

- هذا صحيح .. هذا صحيح فلو كنت أملك قدراً من هذه النجوم لفزت بالتطلع في عيني الأميرة الخضراوين ولسمحت لي بمداعبة شعرها. أواه يجب أن أحصل على بعضها. كيف يمكنني أن أفوز بقدر منها؟

- لسوف تشقى كثيراً ولربما أدركك الموت قبل أن تتمكن من الحصول على قليل منها .... إنها عزيزة المنال بالنسبة لرعايا الدولة الصغار.

واستشعرت في نفسي اللحظة التي خيل إلي فيها أنني أمسكت بخصلة من شعر الأميرة، استشعرت أنها تنزلق كما ينزلق الرمل من قبضة مشدودة وأن بثوراً جديدة بدأت تتفتح في وجداني.

- اسمع أيها الفأر. إنني أدفع أي شيء مقابل أن أفوز ببعض النجوم الحقيقية.

- ما ستدفعه نفيس للغاية.

- انني أدفع أنفس ما أملك

- حسناً إنك لن تدفع شيئاً. فإنك لاتملك شيئاً.

- هذا صحيح إنني لا أملك شيئاً البتة.

وقادني الفأر في دهليز مظلم كثير المنعطفات فقلت له:

- أخشى أن نضلّ طريقنا. هل تعرفه جيداً؟

- لقد حفرته.

- حفرته؟! هل تعيش هنا؟

- ليس هنا بالضبط. إنني أملك أنفاقاً كثيرة مثل هذا.

- هل تمضي كل حياتك في الأنفاق؟

- كل حياتي ونادراً ما أخرج إلى العراء.

- أواه إن هذا أقسى عقاب يمكن أن يوقع بالنفس. وإني لأتساءل دائماً كيف يستطيع إنسان ما أن يعيش ساعة ليس غير دون أن يرى الحياة. إن هذا لقمين بأن يقتل الإله في قلبي.

ولكني ندمت في اللحظة التالية فهمست لنفسي: «لعل الأسفار قد غيّرت من طباعي وأجرت عليها تعديلاً. إن التحدث عن الإله على هذا النحو من الخشونة عمل غاية في القبح» وسعل الفأر ثم أشاح بوجهه. فسألت:

- هل أنت مريض؟ لعلك أُصبت ببرد؟ يجب أن تعتني بنفسك.

- كلا. كلا لست مريضاً، ولكني أعتقد أنني أعمل اليوم في أرض رطبة. إني لا أجد لذةً في العمل في الأرض الرطبة. ونظرت حواليّ لأتفادى أشياء تشبه الأغصان كنت أصطدم بها من فترة لأخرى.

- لماذا تحفر هذه الأنفاق؟ ماصنعتك في الحياة؟

- حفّار ليس غير.

- حفّار؟ إذن أنت تخرب الأرض. لماذا تحفر هذه الأنفاق؟

- لأن هذا يسليني.

- لأنه يسليك فقط؟

- لأنه يسليني فقط.

- إنك تذبل الورود وتدمّر الزهور لماذا تفعل ذلك بحق الآلهة. دعني أعود إنني لا أريد رفقتك لقد قتلت النجوم، لقد النجوم. أواه لا أريد مرافقتك.

واستدرت لأعود ولكن الجدران كانت موصدة أمامي والظلام دامساً فارتددت إليه ثانية وتابعنا طريقنا. وصلنا إلى نهاية النفق فتسلق رفيقي السقف بخفة عجيبة وبدأ يحدث ثغرة فيه. وسقط شيء ما لامع في الظلام واستقر على الأرض مرسلاً رنيناً أصم، وتلاه آخر ثم آخر حتى صارت منه كومة أضاءت النفق كله.

وهبط الفأر وفرك يديه فرحاً وقال:

- خذه فهو لك.

وتناولت واحدة وقلّبتها بين أصابعي وأنا مبهور الأنفاس.

- يا إلهي إنها نجوم حقيقية.

- بلى خذها فهي لك

- هل هي ملكك؟

- ليست ملكي تماماً وإنما كانت لفلاحة عجوز قضت، لقد عاشت عمرها تزرع البطاطا. كانت تملك خمسة خطوط لزراعة البطاطا وكانت تقتات من دقيق الذرة. لقد ادّخرت هذه النجوم الذهبية لوحيدها ليوم عودته. نعم كان قد مضى بدوره ذات يوم سعياً وراء الحقيقة.

- آه لن أستولي على واحدة منها طالما أنها تخص شخصاً آخر... لعله طريد آخر كان يهوى أميرة قصرها قرب شجرة جميز.

- حسناً لقد وضعت كنزاً بين يديك فافعل مايروق لك، خذه إن شئت أو دعه. إنّ البشر لن يحفلوا لهذا الأمر، لقد روى لي فأر أرض مهاجر ذات مساء قصة عجيبة للغاية. قال لي: «لقد قررنا نحن فئران الأرض ذات عام أن نكون صالحين، فندع الأرض وشأنها لانعيث فيها فساداً، على أن نقتات ممّا تخلفه المواسم وما يهمله الفلاحون في الأرض.

ولكن ما حدث بعد ذلك كان غريباً جداً!!! لقد أعطت الأرض محصولاً مدهشاً، غير أن الملاّكين عمدوا عندئذ إلى إتلاف القسم الأكبر منه».

لقد ابتكر الانسان مؤخراً حيلاً بارعة للفوز بكنوز الأرض وثرواتها الدفينة، ولكن ذلك لم يخفف من بؤس البشر.. إنّ العالم مليء بالذهب والفضة، ولكن ماجدوى هذا كله ما دام ثمة طريد على ظهر هذا الكوكب لايملك فرساً بينما أميرته تنتظر هناك عند مفترق طرق ليبدآ التصعيد بين النجوم.

* * *

خرجت من النفق فبهرني ضوء النهار لدرجة آذت عيني. التفت إلى رفيقي. كانت عيناه ملتمعتين على نحو مؤذ ووجهه يطفح ببشر غير إنساني فقلت:

- وداعاً. أشكرك.

- دعني أرافقك قليلاً. ثمة نصائح أرغب أن أسديها إليك.

- إن وقتي ثمين كما ترى وأخشى أن يداهمني الليل قبل أن أصل موطني. وداعاً.

- وداعاً... لا تخشى شيئاً بعد الآن. لقد صرت شيئاً سحرياً وفي إمكانك أن تُسخّر كل شيءٍ لمشيئتك... تستطيع أن تسقط الأمطار في الصيف، وتُنبت الأزهار في الشتاء. مُرْ الريح أن تحملك إلى بلدك فتفعل.

- أو صحيح هذا؟

- ما عليك إلا أن تحاول.

- أيتها الرياح احمليني بعيداً إلى بلدي... خذيني فإن وقتي لثمين.

وما هي إلا برهة مضت حتى أحسست أني محمول في الهواء ونظرت ناحية رفيقي ولوحت له بيدي مودعاً، فقال لي شيئاً لم أسمعه فقلت في نفسي: «ترى ماذا يقول؟.. ياله من صديق حكيم» فردت علي الريح:

- لقد قال رفيقك: «هكذا الحال دائماً مع صغار الناس.. تمضي الحياة من حولهم دون أن يحسّوا بها، ولكن عندما يصبحون رعاياي يعرفون معنى الزمن: السنة، الشهر، اليوم، الساعة، الدقيقة. لقد أدرك أخيراً أن وقته ثمين.. نعم إنه الآن إنسان حقيقي».

كان الارتفاع والسرعة قد شوشا أفكاري وشعري، فأمرت الريح أن تقترب من الأرض وتسير على مهل فامتثلت. كنت تعباناً فلم أشأ أن أفكر بشيء أو أقوم بحركة ما. لقد راق لي أن أستلقي هكذا على سحابة رقيقة مغمضاً عينيّ. وبينما أنا على هذه الحال من النشوة والسعادة سمعت من يقول:

- سلاماً ياعزيزي.

فقلت:

- سلاماً من أنت؟

- أنا زهرة. ألا تعرفني؟

- زهرة! ماهي الزهرة؟ ما فائدتك؟...

- إنك صديقي ألا تذكر؟

- لا لست أذكر، ما عملك في الحياة؟ هل تنتجين ثماراً؟..

- كلا، ولكنني رمز أُهدى. إنني أعني تفاهماً، عقداً، اتفاقاً... إنني رسول المحبة.

- وما هي المحبة؟ ما تعني المحبة؟...

- تعني أن هناك شيئاً ليس غيره في العالم، ذو لون خاص، ذو معنى خاص، ذو نكهة خاصة... شيء مزيد وكلّي لاينازعه منازع.

- لا لا إنّ هذا تحيز يازهرة. وأعتقد أن الكمثرى شبيه بالتفاح، كما بالإمكان الاستعاضة بالبرقوق عن الاثنين. فردت الزهرة:

- أوه!

ثم لفظت أنفاسها... وتناهى إلى سمعي أنين. فسألت:

- من يندب هناك؟...

.....

خطوت عدة خطوات.

- من أنت؟ لماذا أنت حزين؟

- لقد هوى شهاب من السماء، ألا تذكرني؟...

- لا، من أنت؟ ما معنى شهاب؟..

- إنك صديقي انظر إليّ. لقد كنت عطشاناً يوماً فاغترفت من مائي حفنتين. إن فتيات القرية وشبانها يدعونني بالينبوع.

- إن الينابيع ليست ذات شأن كبير فهي لا تبتعد كثيراً عن مسقط رأسها... إنها محدودة لاتعرف شيئاً عن العالم الخارجي. اني أؤثر الأنهار.

- إن مياه الأنهار عكرة.

- ولكنها حافلة بالسمك.

وألقيت نظرة في الينبوع أبحث عن بعض السمك كي أرى مدى استعداده حتى يصير نهراً.... ولكن ماذا رأيت؟.. أواه كيف أمسيت كذلك بحق الإله؟ من أين لي هاتان العينان الشريرتان وذلك اللسان الدامي المدبب؟ آه يا إلهي ثمة شيء في داخلي قد تصدع. إني خجلان.

* * *

وفي مساء اليوم التالي تسلقت التل. كان بيت الأميرة مازال قائماً هناك، وكانت نافذة البيت الوحيدة مضاءة.

كان البيت يبدو أقل ارتفاعاً وأقل ضخامة.. في الحق كان وضيعاً. فاقتربت من شجرة الجميز:

- مساء الخير ياشجرة الجميز. كيف حال الأميرة؟

- إنها في أفضل حال. من أنت؟ مساء الخير.

- أحد رعايا الدولة.

- يلوح أنك غريب عن هذه المنطقة.. أأنت الأمير الذي تتحدث عنه البلدة؟... لقد عقدت الأسرة اجتماعاً من أجله. إن رسلاً جاؤوا اليوم يخطبون له الأميرة.

- آه

- لقد قال الأب: «إن يديه مليئتان» وأضافت الأم وهي تربت على كتف أميرتها: «لقد صنع له الحدادون ألف حدوة فرس».

قلت:

- ولكني يا شجرة لم أوصِ إلاّ على مائة حدوة.

غير أني استدركت فوراً:

- إن الأمير لم يوصِ إلا على مائة حدوة.

- إن أهل البلدة يتناقلون فيما بينهم على أنها ألف حدوة... مهما يكن فإن هذا لن يبدل من الأمر شيئاً، طالما أهل الأميرة راضون وسعداء... ايه، ثمة أشخاص شغوفون بتكبير الأرقام.

وتابعت الشجرة:

- وأما أخ الأميرة ذو المأثرة الخالدة فقد قال: «إنه أفقر من في البلدة» فلم يعره أحد التفاتاً. وردّدت أخت الأميرة التي كانت ذات يوم صغيرة: «إنه أمير حقيقي يملك نجوماً حقيقية. وهو فارع الطول فسيح الصدر ذو بشرة سمراء مشوبة بحثالة النبيذ. نعم إنه أمير حقيقي فليتني كنت كبيرة كفاية».

وسأل صرصار كان يبحث عن شيء أشد كسلاً منه ليتخذه ذريعة عندما يذهب إلى النملة في الشتاء:

- مامعنى أمير؟ ما فائدة الأمراء؟

فقالت أخت الأميرة:

- ما فائدتهم؟ إنهم أمراء.

وأضاف كلب هرم سبق له أن عمل في خدمة أمير:

- إنهم يقضون معظم أوقاتهم في تنظيف أظافرهم... فعندما يضحكون يجب أن يضحك الآخرون، وعندما يغضبون يجب أن يكف الحضور عن الضحك ويغضبون أيضاً.. إنهم أشياء غريبة. تافهة ومسلية معاً.

سألت:

- وماذا بشأن الأميرة؟

كانت الأميرة تدرب ببغاء ناشئة على حفظ الكلمات. قالت: رددي ياببغائي ورائي «حرير» فرددت الببغاء: «قنّب» قالت الأميرة: «ذهب» فتابع الطير: «تراب».

غضبت الأميرة وقالت في نفسها: «إما أنها ببغاء خبيثة، وإما هي ببغاء غبية حقاً» وعمدت الأميرة إلى عكس الأمور فرددت «جواد» على أمل أن تحصل على أمير، غير أن الببغاء زاغت من الفخ ورددت «نجوم» فحدّثت الأميرة نفسها ثانية: «إن النجوم والأمراء شيئان متلازمان» ولكن الببغاء خيبت ظنها من جديد. فرددت «أصداف». عندئذٍ سئمت الأميرة من تدريب الببغاء فقذفت بها بعيداً.

- إن الأميرات سرعان ما يسئمن الأشياء.

* * *

# البغـل

طلعت الشمس من جديد. ودخلت من الكوة فسقطت على وجهه. فتح عينيه بصعوبة. حرّك أجفانه أولاً. ارتعشت أهدابه، ثم تباعدت بتؤدة. سقط الضوء في عينيه فآذاهما. كان ذلك أول عذابات نهاره فعاد إلى إغلاقهما. كان النور يؤذي عينيه، يوجعهما حتى يعتصر منهما الدمع. فهو منذ زمن بعيد لم يعد قادراً على النظر في الضوء. لقد غطوا عينيه ذات يوم بحاجبتين سميكتين. لم يفهم سبباً لذلك في البداية. حتى اتفق له في أحد الأيام أن يعمل بلا حاجبتين. كان ذلك ذات صباح حينما اقتادوه كالعادة فشدّوه إلى زند الناعورة. وبعد أن هيأوه تماماً للعمل بحثوا عن الحاجبتين فلم يجدوهما. لقد أضاعهما ابن المعلم الذي لم يلبث أن هرب أمام غضب والده حين قرّعه لأنه أضاع الحاجبتين بإهماله.

في تلك اللحظة كانت العائلة قد تجمعت حوله من أطراف البيت والبستان. الأب والزوجة والأولاد. وراحوا يتشاورون في ما ينبغي علهم عمله بعد أن ضاعت الحاجبتان.

قال أحد الأولاد:

- فليعمل بلا حاجبتين.

قال الأب:

- لم يسبق لبغل أن أدار ناعورة بلا حاجبتين.

قال ولد ثان:

- لماذا لا تعمل بغال النواعير بلا حاجبات؟

قال الأب:

- ربما كي لا تدوخ من كثرة الدوران. أو كي لا ترى ما حولها. وربما لأسباب أخرى. أنا لا أعلم.

واقترحت الزوجة أن يوقف العمل حتى تصنع للبغل حاجبتان شفقة عليه كي لايصاب بالدوار. فقال لها الأب: إن ذلك محال لأن الزرع عطشان والخضار ستتلف إذا لم تسق بالماء. ثم أضاف بعد تفكير:

- لا بد أن يدير البغل الناعورة حتى لو لم يكن فوق عينيه حاجبتان.

وأسرع أصغر أولاد المعلم عندما سمع كلام أبيه فتناول عصا كأنه تلقى إشارة فضرب البغل على كفله وصاح:

- دي.

فانطلق البغل يدور ويدور بلا حاجبتين فوق عينيه منذ الصباح إلى المساء. وفي ذلك النهار رأى لأول مرة ما حوله وفهم ما كان خافياً عنه من قبل.

شقق البغل عينيه ثانية. ولكن بهدوء وتأن مختبراً في الوقت ذاته وقع الضوء في عينيه. كان الألم الآن أخف منه في المرة الأولى. اطمئن قليلاً فعاد إلى إغماضهما . كان عليه أن يفعل ذلك مرة بعد مرة حتى تعتاد عيناه النظر في النور.

فكر البغل «ليت الحاجبتين لم تضيعا في ذلك اليوم ولم أرَ ما حولي ولم أفهم. إذ ماذا يجدي الواحد أن يشعر بالظلم اذا كان عاجزاً أن يفعل شيئاً لنفسه سوى أن يتألم».

في ما مضى كان يجهل تماماً طبيعة عمله. ويجهل أكثر ماذا يعني هو بالنسبة للبستان. كل ما يعرفه أنه كان يُقاد من الزريبة فيشد إلى زند الناعورة ويمضي في دوران يخاله لا نهاية له منذ الصباح إلى المساء. في البداية نظر إلى الأمر كلعبة. تسلية. هو الذي اعتاد حمل الأثقال في الطرق الوعرة والجبال. كان يروق له أن يدور وهو يصغي إلى ذلك الصوت الذي يصدر عن الناعورة فيطرب له. وقد ظن غير ذات مرة أن كل عمله ينحصر في هذه النقطة بالذات. أن يُشد إلى زند الناعورة الخشبي ليحدث ذلك الصوت كي يدخل السرور على قلوب أفراد العائلة. وكان يسر لذلك أيما سرور. ويزيد

خرير الماء المتساقط بهجته فتتسارع خطواته وتخف حتى لتكاد تمس الأرض مساً. لكنه ما لبث بمرور الأيام أن سئم هذه اللعبة. وتسرب الملل إلى نفسه. ولم يجد ما يشغل به وقته سوى أن يسرح مع أفكاره. ويطير إلى الماضي. يوم كان يعيش في البرية مع شرشي يتنقلان بين القرى يحملان البضائع ويقايضان عليها بالبيض والزبدة والعسل والزبيب. وكيف كانت الصبايا والنساء يتجمعن حولهما فرحات بما يقدمان إليهن من خرز وعقود وأقراط وأساور ومناديل وحراير وغيرها من الأشياء التي تبهج قلوبهن. لم يشعر عند الشرشي يوماً بالضيق. كان يعامله كرفيق حقيقي. يسيران في الشعاب بين أشجار الصنوبر والعرعر والغار. لم يسحبه مرة بمقود وإنما ترك له حرية الحركة والتنقل يسير ويتوقف على هواه. حتى أنه كان لايستعجله إذا تمهل ليستمتع بمنظر أعجبه. أو رأى رقعة أرض معشوشبة وراح يقضم قبضات منها على الماشي. كان يقول له اذا ما تخلف عنه ولاحظ تقصيراً عن مجاراته في السير : هل تعبت! حسناً أعرف نبعاً قريباً عندما نصل إليه سنصيب قسطاً من الراحة.

وتنهد قائلاً: «آه ما أحلاها أيام». وشقق عينيه قليلاً ونظر من خلال أهدابه. كانت الشمس قد تجاوزت الكوة. فكّر: «الوقت يمضي بسرعة ولن يمكثوا طويلاً حتى يأتوا فيضعوا عليّ عدة العمل ويشدوني إلى زند الناعورة».

كانت حدة الضوء الآن أخف وطأة في الزريبة بعد أن عبرت الشمس الكوة. وما لبث أن فكر أنه كان من الممكن أن يمضي بقية حياته سعيداً مع رفيقه الشرشي لولا أن سرقه لصوص دواب ثم ساقوه إلى بستان في المدينة حيث باعوه إلى رجل علم فيما بعد أنه صار معلمه الجديد.

وسمع في جو الزريبة طنين فأجفل. كان في ظهره عقر أحدثته عدة العمل. وكانت ذبابة زرقاء قد علمت بقصة هذا العقر بعد حدوثه مباشرة. وهكذا ما إن انفك من العمل وعاد إلى الزريبة حتى كانت الذبابة الزرقاء في انتظاره. فأشبعته قرصاً منذ الساعات الأولى. قامت بواجبها كأحسن ما تقوم

به ذبابة تحط فوق عقر. ولم تفارقه بعد ذلك. وإذا ما ابتعدت عنه فترة فلتنقض عليه ثانية. باستثناء تلك الأوقات التي يغطي ظهره فيها بعدة العمل ويُشد إلى الناعورة. فكانت تمكث في الزريبة وتقضي وقتها في شحذ ملسعها استعداداً لعودته.

وسكت الطنين فقدر أنها الآن فوق ظهره في طريقها إلى العقر. ثم أحسن بدبيبها يقترب ويقترب. حسناً ها هي الآن فوق القعر تماماً. وتماوج جلده كأنما مسته كهرباء. كان يستجمع طاقته لتحمل الألم. وما هي إلا ثانية حتى قرصته في العقر. فلوى عنقه إلى الوراء بقوة وتململ بجسده المضطجع على جنبه وخافت الذبابة التي فاجأتها ردة الفعل العنيفة فطارت.

قال في نفسه: «ليس في الدنيا ما هو أسوأ من معلم جائر إلا ذبابة العقر».

وشقق عينيه. كانت الشمس قد مضت بعيداً عن الكوة فلم يعد ثمة وهج يخشى أذاه. وفتح عينيه على اتساعهما لكن بكسل. رأى الطعام أمامه كاملاً لم يُمس، قال: «لعلهم دخلوا باكراً فوضعوا الطعام. لا شك أنني تأخرت اليوم في النوم فلم أشعر بدخولهم». قرّب فمه من الطعام ثم تشممه بأنفه. قالت له الرائحة أن هذا الطعام هو وجبة الليلة الفائتة. وهنا تذكر حادث صغير وقع له بالأمس.

البارحة مساء بالضبط وبينما كان في طريقه إلى الزريبة، بعد أن حُل وثاقه الذي شُدَّ به إلى الناعورة. صادف كومة من الفجل فوق المصطبة جِيء بها لجعلها رزماً. كومة بكاملها مغسولة متألقة. أوراق خضراء في أذيالها رؤوس حمراء ريّانة مضيئة. عبق الجو برائحتها الطيبة الزكية. وملأ أريجها المعطار أنفه فسال لها لعابه. ولم يستطع وهو ماضي إلى الزريبة أن يمسك نفسه عن أن يميل برأسه ويأخذ بفمه حزمة صغيرة ليتذوق هذا الشيء الذي لم يذقه من قبل.

وبينما هو بدأ يلوك بأسنانه ويستنفر إحساسه ليبدأ تجربة مع الفجل لم يعرفها في أي يوم من أيام حياته. أحس بضربة وضربة ثانية وثالثة فوق رأسه من ابن المعلم:

- كيلو الفجل بسبعين قرش. لم نقطف البواكير إلا من أجل أسنانك أيها البغل.

فكّر أن يرفسه رفسة تطيح به. لم تكن هذه هي المرة الأولى التي يقسره فيها ابن المعلم على ترك شيء كان يحمله بفمه ويهم بالتهامه. مرة قال له رأس كرنب شهي: «أنا شيء طيب. لماذا لا تأخذني بين أسنانك وتتذوق طعمي؟». كان يسير في دروب البستان. وكان أصحابه في غفلة عنه.

لقد دفعه في ذلك اليوم فضول قوي لم يستطع كبحه لكي يتفقد أبعاد المكان الذي كان يعمل فيه. كانت ثمة خضرة يانعة تعم البستان. وكان يشعر بالزهو والخيلاء، إذ كان يعلم، أنه هو، وبفضل الماء الذي يمتحه من البئر سبب هذه الخضرة اليانعة. واقتلع رأس الكرنب وحمله بفمه ليختبر مذاق ذلك الشيء الذي دعاه إلى التهامه. وفجأة انقض ابن المعلم، كأنما انشقت الأرض عنه، وراح يضربه حتى أخذ رأس الكرنب من فمه. شيء مثير للدهشة والغرابة ويدفعه لئن يفكر: «إنني أعمل منذ الصباح إلى المساء دون تذمر أو شكوى. أعمل لأنه ينبغي أن أعمل. ولكن حين أمد رأسي لأتناول شيئاً مما أنتجه بعملي. لأختبر طعمه وأعرف أي شيء هو، يُنزع مني ويسخر بي ويقال لي: هذا من البواكير. هذا ليس من أجل أسنانك أيها البغل. بغل أنا أعرف ذلك. لكن ماذا تساوون دون هذا البغل؟ أنتم يا أصحاب هذا البستان؟». وفكر للمرة الثانية أن يرفس ابن المعلم الذي انتزع منه رزمة الفجل وقال: «قد تقتله رفستي. ليس القتل شيئاً حلواً. وأنا لا أحب أن أمارسه. لكن ينبغي عليهم ألا يعتمدوا كثيراً على صبري. قد يفلت الأمر من يدي يوماً. ووقتها سيكون أسفي كبيراً. لأنني سأرغم على فعل الشيء الوحيد الذي لا أحب أن أفعله».

وما أن اُقتيد إلى الزريبة حتى وُضعت له وجبة المساء. كان يشعر بالخيبة والمرارة فلم يقرب منها فمه. وها هي ذي وجبة الأمس أمامه كاملة لا يشعر بأدنى رغبة بالطعام. والتفت حواليه في أنحاء الزريبة. كانت زريبة صغيرة عديمة النظافة راكدة الهواء. وكان فراشه القشي الرطب ينشر رائحة عطنة قوية. اشمئزت نفسه وكأنه يرى هذه القذارة لأول مرة. واجتاحه شعور مرضي.

ومن خلفه فُتح باب الزريبة ووصل إلى أذنيه صريره المعهود. لم يبد أي اهتمام. ودخل ابن المعلم واقترب منه حتى وقف فوق رأسه. ولم يبد أي اهتمام أيضاً. نظر ابن المعلم إلى الطعام . قال:

- لا شك أنهم وضعوا لك طعاماً كثيراً فلم تستطع أن تأتي عليه كله. هيا أيها الكسول تحرك.

ودفعه بقدمه:

- انهض صار الوقت ظهراً.

ونهض البغل بتثاقل فاستوى واقفاً. ومن مكان ما من الزريبة طارت الذبابة الزرقاء وحطت على ظهره. فكر «ليست عندي رغبة بالطعام ولا بالعمل». وعاوده شعوره المرضي. كان ابن المعلم يقف وراءه يحمل بيده قضيباً. ضربه بالقضيب على كفله وقال:

- الوقت متأخر. هل أنت مسطول اليوم. تحرك.

وتحرك البغل طائعاً لكن دونما أي اندفاع وفكر: «سأتحرك الآن. لكن ينبغي ألا يعول كثيراً على صبري. لقد استكثرتم عليّ بالأمس فجلة. ومن قبل رأس كرنب فأية حياة تافهة هذه؟».

وساق ابن المعلم البغل حتى الناعورة. ثم طلب إليه الهدوء وعدم ترك مكانه ريثما يأتي بعدته. وامتثل البغل لأوامر ابن المعلم فظل واقفاً في مكانه وفكر: «أخذتم مني كل شيء. ولم تعطوني بالمقابل أي شيء. حبستموني في زريبة ضيقة وحرمتم علي التجول في البستان الذي صنعته لكم ونشرت الخضرة في جوانبه».

وأتى ابن المعلم بعدة البغل. وضع السرج على ظهره أولاً فآلمه عقره وتماوج جلده كأنما مسته كهرباء. وطارت الذبابة عندما غُطي العقر بالسرج فوقفت فوقه. وعندما يئست من العثور على العقر ثانية عادت إلى الزريبة وأنشأت تنتظر البغل هناك. ثبّت ابن المعلم السرج بقشاط التف حول بطن البغل. ثم أنزل «الكدَّانة» في رقبته. بعد ذلك جذب زند الناعورة. كان ثمة حبلان يتدليان منه ينتهيان بكلابتين صغيرتين. علق الكلابة الأولى في حلقة

في الكدانة وعلق الكلابة الثانية في الحلقة الأخرى. أصبح البغل الآن مقروناً إلى زند الناعورة بالحبلين من كلا جانبيه. ثم أتى بحاجبتين وضعهما فوق عينيه أعقبهما بلجام بين شدقيه. وكان البغل أثناء ذلك يقف طائعاً مسلوب الإرادة. هو ذا الآن صار جاهزاً للعمل بعد أن اكتملت عدته وحزّم بها تحزيماً.

صاح به ابن المعلم:

- دي.

وفكر البغل أن يرفسه. لكنه قال: «هل أريد رفسه حقيقة؟ أنا لا أعرف حقيقة شعوري بعد إذا كنت راغباً في ذلك فعلاً أم لا. ثم ما جدوى أن أرفسه وأنا مشدود إلى ناعورة محزّم بالجلد والحبال؟».

وكرر ابن المعلم:

- دي.

قال البغل في نفسه: «ها قد بدأ صبره ينفد. ينبغي أن أتحرك قبل أن يلفظ «دي» الثالثة. أنا أعرف ماذا تعني «دي» الثالثة عند هذا الابن الكلب. لكن ليست عندي رغبة لا بالحركة ولا بالطعام. ليست عندي رغبة في أيما شيء». وعاوده شعوره المرضي.

وتحرك فنقل قوائمه نقلة أعقبها بأخرى. ثم بثالثة. واهتزت الناعورة وأنّت وتوجعت ودارت دورة فانهال الماء من علٍ منشنشاً زاخراً حياً. قال: «هاهي ذي دلاء تفرغ ودلاء تمتلئ. إلى متى كتبَ عليّ أن أدور لأملأ الدلاء التي تفرغ؟».

وتسارعت خطواته شيئاً فشيئاً، ومع تسارعها نسي نفسه وألمه والعقر الذي في ظهره. نسي أنه مشدود إلى الناعورة بالحبال. ولم يعد يذكر سوى شيء واحد. لم يعد يذكر سوى أنه فتح منخريه على آخرهما ليشم على بعد مئات الكيلومترات هناك فوق الجبال رائحة الصنوبر والعرعر والغار.

* * *

# تشرين والخطاف

لقد طوى الإضبارة التي كانت في يده مع أن الساعة كانت الثامنة والنصف، واتخذ سبيله إلى الخارج قال في نفسه: «انتهى الأمر وليكن بعد ذلك ما يكون».

كان يعلم أنه قد وصل إلى نقطة لا يستطيع معها متابعة العمل. وكان يعلم أنه من العبث مداراة إحساسه المتعاظم بالتشاغل عنه.

لقد ترك كل شيء فوق على طاولته، كما لو أنه ذاهب لمراجعة رئيس القسم أو زميل بشأن من شؤون العمل. نعم هكذا بكل بساطة. وتناول حصاته الملونة بنفس عفويته حين يذهب إلى دورة المياه وأثقل بها الأوراق كي لا يحملها هواء تشرين فيبعثرها في أرض الغرفة. رغم أن تركها بلا إثقال في رأيه يضفي على الغرفة جواً خيالياً. وخطر له أن يعود أدراجه ليدع أوراق المراجعين وعرائض الحال عرضة لهبات الريح المندفعة عبر النافذة. كما حدث مرة حينما عاد من إحدى نوباته، مما سبب له ملاحظة من رئيسه. وزفر بعمق وحدّث نفسه: «متى أذهب إلى أمكنة لا رؤساء ولا قوانين» وحاول أن يتخيل نفسه في مكان ما وقال أيضاً: «أو أن القوانين توضع لمصلحة الناس لا للايقاع بهم» وتساءل عن الكلمة التي ستضاف إلى سجل مواصفاته وقرأ: «فوضوي»، «فوضوي» إلى جانب «مهمل».

وحينما هبط إلى الشارع تلقاه بوجه حان. وعلى غير ما كان يتوقع رأى كل ما صادفه جديداً: البشر، الحركة، الهواء، النغم، حتى العجلات كانت ذات إيقاع خاص. وفكر: «كيف هي الأشياء في صباح ٢١ من أيام تشرين الأول في مكان ما من العالم؟!».

وألقى نظرة حواليه. كان أصحاب الحوانيت والتجار والعمال والخضارون الذين يجرون وراءهم عربات الخضار والطلاب والسائقون والجنود كأنما في أعقابهم الأبالسة. كما بدت له كرة الشمس العظيمة المتسلقة في مدارج السماء، أنه قد عيل صبرها، وأن أمامها رحلة بعيدة، وأنها لن تمكث أكثر مما فعلت.

وكانت حركة الناس تتسارع كلما أمعنت عربة الشمس تصميماً في سعيها الحثيث. وشغله ذلك الصراع فترة من الوقت. واستخفه فرح صبياني فهتف بصوت عال: «ليس أجمل من الحياة في ٢١ تشرين الأول في مكان ما». وحيّاه طفل مرتدياً صدرية بلون الدفلى، ومنتظراً عند موقف باص. فأحنى له رأسه بتأدب بولغ فيه. وتمتم: «مهلاً. مهلاً» ثم أضاف ساخراً: كم يبدو الأمر سخيفاً؟.. إننا نستعجل الزمن كي نكبر ثم نبكي بعد ذلك». وعاد السؤال فألحّ عليه: «كيف تجري الأمور في مكان آخر؟!.. العمال، الخضارون، النساء، الرجال تحية الصغار وبائعو اللبن» واستوقفته التحية فقال لنفسه: «الفارسي يضع يده على صدره، وآخرون يرفعون قبعاتهم. وهناك من يلمس موضع القلب»، وهام في بلاد العجم. تسلق ذرى الجبال. قطف مع الجانيات أوراق التنباك وعتقها في براميل صدئة عمرها مئات الأعوام. ناسَ مع أنوال الحائكين في مغاور تروي فيها العناكب قصة الدأب الإنساني في نسج آيات إلهية التلوين. وقال: «عمر الخيام شاعر خالد، أما أنا فزائل»، ولكن رغم ذلك فقد تمنى في سره لو أنه خلق بدوياً.

لو خلق بدوياً لكان الآن فوق صهوة جواد أزرق مجنح، قاطعاً الصحارى باحثاً عن مغامرة، أو متعقباً ثعلباً تحت سماء لا متناهية حمراء كالدم.

ولكن لا صحراء هنا ولا واحات. ها أنت تمشي على أرض من الإسفلت صلدة، والسماء من فوقك رقعة محدودة عكرة. موظف على الآلة الكاتبة.. لا صحراء ولا رؤوس نخيل مذّهب.. انتبه فالعجلات المجنونة لا ترحم رأسك الحالمة.

وشهق الناس وأمسكوا أعصابهم بقبضات مغلقة، بينما فحّت العجلات الزاحفة على الأرض السوداء مخلفة وراءها خطوطاً ثعبانية متطاولة.

ودق قلبه بعنف وبظاهر يده مسح جبينه المتعرق. وفكر: «أين رأيت ذلك؟ لكأنه حدث لي مثل هذا من قبل.. من أنا؟؟» ثم قال بعد خطوتين اثنتين: «أين أنا؟».

أين هو؟ ليس ذلك مهماً البتة. إلا قدر ما يهرب بعيداً من شيء لا يعرفه.

لا يذكر أبداً متى وكيف بدأ هذا الشعور عنده. ولم يحاول مرة أن يفعل. كل ما يعرفه أنه ألقى عصاه يوماً على كتفه على نحو ما يفعل الرعاة، ثم بدأ المسير. ومنذ ذلك اليوم أخذت جذوره تمتد بشكل أفقي.

لم تعد اللعبة القديمة ذات طعم. وباتت الرحلات المحلية، وانتحال الأسماء، والتشرد في الشوارع الجانبية، ومداهمة الفنادق، ونصب المخيمات ضرباً من خداع النفس. كذلك لم يعد الأمل زهرة.

إنه لا يكاد يستقر في عمل حتى يرفض أحدهما الآخر. وكان يستشعر أن الأمكنة والمخلوقات والعواطف بما فيها الحب والكره والأنانية والأسرة والوطن، وكل ما يضطرم في دوّار القلب البشري، كذلك الأشياء، كرة مستديرة لا يمكن القرار إليها.

وفي الساعة التاسعة والنصف بدأ ينتابه نوع من الملال. لقد أسقمته ملاحقة الصراع بين الناس والشمس وحدّث نفسه: «لقد بدأ كل منها مسيرته.. منذ ملايين السنين، الشمس تركض والناس يركضون» وفكر أيضاً: «ماذا يريد أن يبرهن أحدهما للآخر؟» ولم يستطع أن يمنع نفسه وهو يدور لينحدر في شارع متقاطع أن يقول: «سباق مجنون.. الرابح فيه خاسر»، وتهامست عليه فتاتان من بعيد فحدّث نفسه: «لن يمنعني تهامسهما من أن أرسم الصليب»، وبسط ذراعيه وهو يعبر مركز التقاطع باتجاه البحر. وقهقه عالياً وهو يلحظ نظرة الشك أطلت من عيونهما. وانكمشت الفتاتان وهما تجتازانه وتكتمان في نفس الوقت ضحكة مشوبة بالقلق، وأرسل من بين شفتيه لحنا معروفاً ودفع يديه في جيبي سرواله وعاد يفكر من جديد:

- «أين رأيت ذلك؟» إني أحس لست أنا.. لأنني روح تائهة ولدت في زمان آخر.

وتطايرت في رأسه أوراق المراجعين، وعرائض الحال، والآلة الخرساء. واجتاحت سماءه سحابة تجرر معها ظلاً تقبضت له نفسه. وحضرته على الأثر صور قديمة: جمال غير مسرجة. ضفيرة مقصوصة. أنشوطة. قطعة نقدية من فئة الخمسة قروش. فردة حذاء. رزمة مفاتيح. وطفل يبكي على جدار.

ثم لم تلبث أن أخلت السبيل لمشاهد اليوم، وغاضت جميعها في لحظة لتطفو صورة الفتاتين، وقد اتسعت ضحكتهما أكثر من ذي قبل. ورآهما بعين الخيال أنهما استرقتا إليه النظر بعد أن خلفهما وراءه. فقال بصوت عال: «إنه لجميل أن يكون المرء قادراً على إشاعة الحسرة في قلوب الآخرين». وفكر: «لماذا لم أعمل مهرّجاً؟»

لو عمل مهرجاً فسيكون أصدق مع نفسه ومع الآخرين أصدق إلى حد مرضٍ. وعلى نحوٍ لا يخجل فيه من تأدية أي دور. كل ما عليه أن يحمل تلك السمةً ويصبح عندئذ كل شيء مشروعاً.

بالأمس انحنى على خريطة ملونة. ونقل إصبعه بين نقاط عديدة سوداء: بغداد، القاهرة، روما، أثينا، طهران، اسطنبول.. وصوفيا غابات مجهولة، ومساقط مياه، حيث ترعى الوعول بلا رقيب، وحيث تبدو الحياة خارج حدود الزمن. في الظل. في البراري، حيث كل ما هو كائن مسربل بنور الشمس ولهيبها. في الشوارع المزدحمة.. في الوجوه.. في العيون.. تحت السقوف المأهولة. وبين الخرائب، وراء السحب المسدلة. كان يريد أن يحيا. أو هكذا كان يبدو له.

ولم ينس طبعاً في نهاية المطاف أن يتساءل عن أحوال الخريف في تلك العوالم.

في الماضي كانت الأزمنة تتربص به على مشارف الخريف. نوع من القلق الغامض، تنكؤه أعشاش الخطاف الخاوية. أو صرخة طير متخلف في غبش المساء.

وتصبح السفن المقلعة، والطائرات، والقطر، واللحى الكثة المغبرة، والأغاني ذات معنى جديد. ويدرك عندئذ تعاسة الأسماك المحتبسة في أطر الشواطئ. ويبدو أنّ في مقدوره أن يفهم لماذا تنطح الجدران قرون الغزلان، وترفض الطعام في آذار.

كان مستلقياً في الحديقة العامة يراقب دون اهتمام تمدد سحابتين. وكان يحسّ وجيب الأرض في قلبه. كان قد فرغ لتوه من تفحص قطعة من الفخار الأحمر، خمّن أنها كانت قسطلاً يزخر بالحياة ذات يوم. لقد انتزعها من جدار نفق شقّ مؤخراً، وجلس مقرفصاً يربت عليها مرة ويمسح بها وجهه مرة أخرى. لقد بحث في ذهنه عن شيء يقوله لها. «لو كنت موهوباً لفعلت شيئاً من أجلك» وتلفت في منطقة المرفأ حواليه حيث الحفريات على قدم وساق. وقال: «كم واحدة مثلك هنا؟ أنت لست خرساء».

وانتزع نبتة حشيش مضغها بتؤدة. وغير بعيد عنه سأل طفل خادمته:

- أين الله؟..
- صه
- أين الله؟
- فوق
- أريد أن أراه
- «هو ذا موسى آخر يريد أن يطير» قال لنفسه
- تلزمك أجنحة
- من أين لي بها؟
- «تلك هي المشكلة يا موسى»
- الملائكة وحدهم يملكون الأجنحة.

بينما أضاف هو: «والعصافير أيضاً» وتابع مضغ النبتة وفكر: «إنها مالحة بعض الشيء، ولكن يبدو لي أنها لذيذة مع ذلك. أنا حيوان راق أضع فوطة على صدري وألتقط الطعام بالشوكة والسكين.. لا جدوى . لن يجني

هذا الموسى الصغير إلا الفراغ.. الملائكة أتباع مخلصون.. كم من موسى أراد أن يطير؟ ليتني غمامة. لقد فقدنا قدرتنا على الطيران يوم عرفنا أن لنا أجنحة».

وازداد وجيب الأرض في قلبه.

«عبثاً نحاول استنبات أجنحة جديدة. عبثاً نحاول اجتثاث ألسنة اللهيب».

ومن بعيد تهادت في الأفق سحابة. وأومات له قطعة الفخار:

«كم عمرك. أنت لست خرساء ؟؟! طبعاً طبعاً؟! كم خريف مرّ عليك؟! ألف؟ ألفان؟ ثلاثة!!؟ لماذا تنطح الجدران الغزلان في آذار، بينما المعالف عامرة. الملائكة أتباع مخلصون. والعصافير مجنحة».

وسرت الدماء في عروقه وأحسن أنه أكثر التصاقاً بالأرض وإن بدت له كرة مستديرة أخذ ينزلق على وجهها الآخر. «لماذا يموت الأطفال؟؟ لماذا تدور العجلات؟؟ خط أحمر في سجل الأحوال المدنية وينتهي كل شيء.. هكذا يعتقدون.. المجانين.. إنهم لن يستطيعوا أن يخمدوا الحياة بالخطوط الحمراء. لعبة استغماية.. موظفو الأحوال المدنية وحدهم الذين يموتون. نعم إنهم يوقعون صكّ إعدامهم بأيديهم».

وأحسّ أنه محمول على تيار فضي التألق. وإن أحزنه أنه لايستطيع فكاكاً.

«أما المجنحون فينتهون إلى الأرض. وأما موظفو الأحوال المدنية فإلى عليقة القوانين والعادة.. وعندما تتحرر حبة الماء تصبح قطرة ندى. وفي آذار تلوي الغزلان أعناقها وتفحص عينيها على الفضاء.. وتبكي الأعشاش في الخريف ساكنيها.. أما نحن. أنت وأنا. فلنا القدرة على الانحلال. وهذا ما يفتقر إليه الآخرون.. وستعود إليك أمجادك وتتزاحم فيك المياه. وقد أنظر إليك ذات يوم من وراء الخطوط الحمراء عبر الانسلاخات المتعددة.. من يدري؟ ربما بعيون زرقاء.

وفاض النهر ولحست المياه جوانبه. ثم ارتفعت شيئاً فشيئاً حتى غمرته.

وعندما بدأ يدير ظهره للحديقة. كانت السحابة لا تزال منعقدة فوق رأسه. وكان يعلم أنها ستتبدد هناك. في حين درجت أقدامه في طريق صاعدة بعيداً عن الآلة الخرساء، وعرائض الحال المتطايرة. وكانت ستارة النافذة في خياله شراعاً أبيض منتفخاً بالهواء.

* * *

# الضحك في آخر الليل

لم تستقبل أنفه حينما ولج باب البيت شأنه دائماً عندما يكون الطعام بطاطا رائحة الزيت والثوم والكزبرة والبصل. عندها فكر ربما كانت زوجته قد هوّت البيت. واجتاز العتبة فانحرفت الزوجة التي كانت واقفة تمسك مقبض الباب لتفسح له الطريق. كان المدخل معتماً إلا من النور الذي كان يتسلل إليه من الغرفة الداخلية المضاءة. استطاع أن يلاحظ هيئة زوجته التي رفعت يدها إلى جبينها في تلك اللحظة. كانت بثياب المنزل العادية فقدر أنها لم تأوِ إلى فراشها وإنها كانت لا تزال يقظى تنتظره.

قال:

- ألم تنامي بعد؟

قالت:

- انشغل فكري. قلقت. فلم أستطع النوم.

قال:

- ليس هناك ما يوجب القلق.

ومد يده ليغلق الباب وراءه. فلمس يد زوجته التي كانت لا تزال تمسك مقبض الباب. أحس بها يداً دافئة. أبعد يده حالاً. لكنه مع ذلك شعر بها وكأنها أجفلت من لمسته.

قالت المرأة:

- قلت الدنيا برد. وثيابه خفيفة فلم أستطع النوم.

قال الرجل:

- لم يحدث البرد إلا في الليل. في النهار كانت الدنيا دافئة. وما أن هبط الليل حتى انصبَّ البرد دفعة واحدة. أين كان مخبوءاً كل هذا البرد اللعين. انتظر حتى غطست الشمس في البحر. ثم اندفع شرقياً صامتاً مثلجاً.

وأغلقت المرأة الباب بهدوء. وفي فكرها قالت: «ما أبرد يده. أنا لم أرَ في حياتي يداً باردة بهذا الشكل». واستدارت لتلحق بالرجل الذي تقدمها في مدخل البيت.

كان يخطو بهدوء ومن خلف سارت المرأة في غبش ممر البيت تصغي إليه. كان يتكلم برداً. كان البرد يقطر منه. من كلماته. من خطواته. كان يبدو وكأنه يحمل البرد على ظهره الذي ناء تحت ثقله. وكانت رقبته غائصة بين كتفيه. قال:

- ثيابي ليست خفيفة لكني لم أعمل حسابي لمثل هذا البرد. في المرة القادمة.

ولم تنتظر المرأة لتسمع أكثر فاندفعت قائلة:

- وهل ستكون هناك مرة قادمة؟ ألا يوجد موظفون غيرك؟

قال:

- بلى يوجد كثيرون لكن كان ينبغي أن ينزل واحد منا فنزلت أنا. كان يجب أن يكون هناك مندوب عن المؤسسة ليراقب تفريغ شحنية السكر فوقع الاختيار علي.

وفكّر: «وقع عليك الاختيار لتشهد تفريغ مئتي طن سكر ولتقاتل مع العمال ليحافظوا على أكياس السكر من التمزق وكي لاتتعرض للنهب ولتصاب أنت بكل هذا البرد اللعين وبالجوع والدوار والصداع والعطش».

ووصل إلى الغرفة المضاءة فبدا الرجل في النور، وجه نحيل أغبر اللون. مزرق من البرد. متعب غير حليق خفيف شعر الرأس مشعثه. صغير الجسم.

وأسرعت زوجته فسوّت غطاء الصوفا ومسدته بيديها. ثم مضت إلى مشجب علقت عليه ثياب. كان الرجل لايزال واقفاً في وسط الغرفة يداه في

جيبيه. وأدار نظرة عجلى حوله. كان ثمة سريران متقابلان في البيت أحدهما انحشر فيه أولاده الثلاثة وقد استغرقوا في النوم. منذ زمان كان يتمنى أن يكون لأولاده الثلاثة أسرتهم الخاصة وغرفتهم الخاصة. ولكن العين بصيرة واليد قصيرة. كما كان يقول لزوجته، أما السرير الثاني فينام عليه الزوجان.

وتعثرت عيناه بصوبيا أسطوانية منطفئة. ولعله كان يبحث عنها دون أن يدري. كان يعلم أن مخزونهم من المازوت قد نفد منذ يومين. لكنه كان يتوقع أن يراها مشتعلة بقدرة قادر. ربما لأنه يحس ببرد شديد. وربما بحكم العادة، أو لأن الصوبيات من المفترض أن تكون مشتعلة في الشتاء.

وفي ثانية أطفأ الصوبيا التي أشعلها في رأسه وهو هناك في البحر جوعان وبردان وعطشان. كما أطفأ ذؤابة شعلتها الزرقاء المتراقصة. ومحا ظلالها التي رسمتها على الجدار.

وقدمت له زوجته منامته التي حملتها من أقصى الغرفة وقالت:

- ألا تخلع ثيابك؟

قال:

- كلا. ليس قبل أن أدفأ. لكني أريد أن آكل الآن. إني جائع.

وبحث أنفه عن رائحة البطاطا المقلية بالزيت والبصل والكزبرة والثوم.

وقال:

- لكن سأغسل يدي أولاً.

وخلع ممطره وألقاه على طرف الصوفا. ثم مضى إلى المطبخ. وسمعت المرأة من مكانها في وسط الغرفة انفتاح صنبور الماء وقرقعة مائه المتساقط. قالت المرأة في سرها: «أنا لم أر إنساناً بردان على هذه الصورة». وخطرت لها فكرة فمضت إلى المطبخ. قالت: «يجب أن أحضر له الطعام قبلاً». غسل الرجل يديه ثم جففهما بفوطة وعاد إلى الغرفة. جلس على الصوفا ووضع يديه بين فخذيه ليدفئهما وأنشأ ينتظر. بعد قليل دخلت المرأة تحمل بين يديها صينية عليها صحاف طعام. قالت:

- هل أضعها على الصوفا؟

قال:

- ضعيها على الأرض أفضل

وضعت المرأة الصينية على الأرض. ولم يلبث الرجل أن هبط عن الصوفا وجلس على الأرض متربعاً. وكان تحته بساط رقيق فشعر بالبرودة تسري في مؤخرته. ألقى نظرة سريعة فوق الصينية. كانت هناك بطاطا مسلوقة وزيتون وبصلة ومملحة ورغيف خبز. عادت المرأة إلى المطبخ . قال الرجل في نفسه متأسفاً: «طول النهار وأنا أحضر شهيتي للبطاطا المقلية بالزيت والبصل والثوم والكزبرة ما من شيء يحدث كما تريد. لكنني جائع. سآكلها مسلوقة وإن كنت أفضلها بالطريقة الأخرى». واقتطع مزقة خبز وبدأ يأكل. دفع إلى فمه لقمة خبز أولاً. ثم أخذ حبة بطاطا بعد أن ملحها وقضم منها قضمة. تبعها بحبة زيتون ورقيقة بصل.

كانت الأرض والجدران والسقف تهتز به في حركة موجية إيقاعية. وكان يحس دواراً خفيفاً. والتقم لقمة أخرى. وطيبها برقيقة بصل. سمع قرقعة بابور الكاز. كانت قرقعة سريعة وعنيفة تبعها هدير اشتعال عال. قال في نفسه: «ألف مرة قلت لها خذي حذرك من وابور الكاز. احقنيه بلطف. العنف والضغط الكثير يفجره». ومضغ طعامه بقابلية وصمت. وفي فكره قال: «لا أظن أن الوقت مناسب لتطبخ شيئاً في هذه الفترة من الليل، لعلها تسخن لي ماء للاغتسال. أنا لا أحب الاغتسال في البرد. سأقول لها إني بردان». وأصغى بانتباه. لم يسمع قرقعة برميل الاغتسال ولا تساقط الماء فيه. قال: «لعلها تحضر الشاي. قدح شاي بعد الطعام يساوي الدنيا وما فيها في هذا البرد».

وما هي إلا لحظات حتى تغير وقع الهدير في أذنيه. ثم اقترب أكثر ودخلت زوجته تحمل بيدها وابور الكاز الهادر. ودهش لحظة ولم يلبث أن فهم. ثم تأكد عندما وضعت الوابور صوبه. أيام الشتاء منذ زمان بعيد. عندما كان صغيراً هو وإخوته كانت أمهم تلجأ إلى هذه الطريقة حين يخلو البيت من

الفحم والحطب وأي شيء يشعل. كانت تشعل الوابور وتضع فوقه صفيحة معدنية ثم تجمع الأولاد المرتجفين من حوله. والآن وبعد مضي زمان طويل تأتي هذه المرأة الغريبة التي كانت تجهل حيلة أمه. تأتي وتفعل الشيء نفسه. فكر وهو يلوك طعامه. وأسرّ لنفسه: «كل الفقراء يلجأون إلى بوابير الكاز عندما يعضهم البرد». ورأى في وجه امرأته صورة أمه وفي أولاده أخوته. وفكر لو لم يكونوا الآن نياماً لتحلقوا حول وابور الكاز الهادر. وهلع قلبه من المستقبل الذي ينتظر أولاده. وفكر: «لكأن الزمن يراوح في مكانه. وكأن شيئاً لم يحدث على هذه الأرض».

قالت المرأة:

- فكرت أن ذلك يدفئ قليلاً.

وهز برأسه موافقاً. وقعدت المرأة قبالته. واستمر في التهام طعامه.

قال:

- لم تطبخي بطاطا بالزيت؟

قالت:

- طلبت من السمان بعض الزيت على الحساب فرفض وقال لي: ما من طلعة إلا وبعدها نزلة. مرة طلبت من زوجك أربع خمس تنكات زيت نباتي فرفض. لماذا لم تعطه الزيت الذي طلبه؟

قال:

- كان سيبيعه بالسوق السوداء. لم يكن الزيت للباعة. كان الأمر يقضي ببيعه للمستهلك مباشرة.

قالت المرأة بتردد:

- لن أتعامل معه بعد اليوم. قال لي: زوجك سيموت من الجوع ويميتكم معه. فهو لم يتعلم من الحياة شيئاً. قلت له: استفد وأفد غيرك يا رجل. خذ وأعط. الحياة أخذ وعطاء. لكنه ركب رأسه وصم أذنيه فلم يصغ لي.

وتابع ازدراد طعامه بصمت. وفي فكره عاد إلى تلك الأيام التي كان يوزع فيها الزيت النباتي على المستهلكين. مئات الكيلووات وزعها. طن، طنان، ثلاثة. وقتها لم تكن هناك بطاقات ولا قيود تلزمه بتقديم كشوف بالتوزيع. وقد سعت الثروة إليه آنئذ. ساقها إليه غير تاجر من تجار السوق السوداء. ولو شاء لصار من الأغنياء ولودع حياة الفقر والعوز. حدث ذلك في وقت كانت الصفائح الفارغة والطناجر والدلاء وغيرها من الأواني ترتفع إليه بتوسل وإلحاح من أجل شيء من الزيت وكأنه إله يهب الرحمة والحياة. كان عليه أن يختار. أن يخيب رجاءها أو يرفض الثروة. وقد اختار الأمر الثاني. ركل الثروة بقدمه. وملأ الأواني الفارغة المرفوعة إليه بالزيت.

«حمار» قال غير واحد ممن سمعوا بقصة الزيت وغيرها وأضافوا: «الحمير وحدهم لا يفكرون في غدهم». خطر له ذلك في نفس الوقت الذي حملت فيه زوجته صينية الطعام بعد أن انتهى من تناول وجبته. ومضت بها إلى المطبخ. وفكّر: «قد أكون حماراً كما يقولون لكني لا أشبه حمارهم بالتأكيد» وضحك في سره وأضاف: «بالعربي الفصيح هم يعتبرونني حماراً لأني لم أغتنم الفرصة ولم أبع المواد التموينية لتجار السوق السوداء. أما أنا فأنظر إلى القضية من وجهة أخرى. فحمرنتي شيء أسلم به. مسألة لا أناقش فيها. فأنا لست سوى مستخدم بسيط يقضي أيام حياته من البيت إلى العمل. وبالعكس. وفي خمسة من بداية كل شهر يفرغ جيبه. وما تبقى من الأيام يقضيه عداً بين السبت والأحد والاثنين والثلاثاء والأربعاء والخميس والجمعة والسبت انتظاراً لمطلع الشهر الجديد. أقتل اليوم بتوقع اليوم الذي سيأتي. ذلك هو الفرق بين حمارهم وحماري».

ودخلت زوجته تحمل صينية عليها أدوات الشاي. أسرّ لنفسه: «ليس هناك أطيب من قدح شاي بعد يوم لعين في الباخرة بين العمال».

- انتبه على الأكياس.
- هذا سكر وليس تراباً.
- العمى هذا مال كفار.

وانفتق كيس فاندلق السكر المحمول بالرافعة من قلب العنبر إلى الماعونة شلالاً حليبياً أبيض ومزّق عامل كيساً بالسكين من أجل حفنة سكر وضعها في فمه. وانهال السكر على أرضية العنبر.

حملت زوجته إبريق الشاي. وضعته فوق وابور الكاز فتغير هديره وصار ألطف. استند بظهره إلى جسم الصوفا القائمة خلفه. بدأ يدب في أوصاله دفء خفيف. الغرفة سفينة تعلو وتنخفض في حركة إيقاعية. أطبق عينيه وأرخى جسمه. صار إحساسه بالدوار أوضح بعد أن أغلق عينيه. كان تعب النهار قد انحل إلى إعياء. وفي لحظة بسط له النوم جناحيه. وحين همّ بحمله والارتفاع به أجفل وقد حسب نفسه سقط من شاهق. فتح عينيه. أحس برعدة فانكمش في ثيابه. أنزلت زوجته إبريق الشاي عن النار فارتفع هدير وابور الكاز وعاد إلى سابق عهده. وضعت الإبريق على الأرض. جرّت نحوها صينية عليها علبتان معدنيتان وقدحان. أخذت من إحدى العلبتين قدراً من الشاي وضعته في الإبريق ثم أعادت الغطاء فوقه. انتشرت رائحة الشاي وعبق بها أنف الرجل. فكر في نفسه: «ليس هناك أطيب من قدح الشاي الساخن وسيكارة»! استوى قاعداً. قال:

- لعلي غفوت.

وتناول علبة لفائفه. نظرت زوجته إلى منبه قام فوق طاولة. قالت:

- إنها الثانية بعد منتصف الليل.

قال في نفسه: «يا له من يوم». ومرّت في خياله أحداث نهاره: «ما من شيء أطيب من قدح شاي وسيكارة بعد يوم شاق». فردت الزوجة القدحين الزجاجيين. كان أحدهما فوق الآخر فتصاعد من احتكاكهما قرقعة ضاحكة. صبت الشاي في القدح الأول فتصاعد البخار وانتشرت الرائحة الطيبة. وملأت القدح الثاني.

أخذت الزوجة بيدها إحدى العلبتين المعدنيتين وأخذت بالثانية ملعقة. استعانت بالملعقة على فتح غطاء العلبة. وما أن رفعت الغطاء حتى تسمر بصرها في قاع العلبة. تورد خداها قليلاً. ظلت نظرتها مثبتة في قاع العلبة. أخذ الرجل سيكارة من علبة لفائفه وقال:

- ألا نشرب الشاي؟

ابتسمت زوجته ابتسامة شاحبة. ومدت له العلبة. استقر بصره في قاع العلبة. ابتسم بدوره وقال:

- غير معقول.

واتسعت ابتسامته.

- أطنان من السكر.

ومر في خياله كل السكر المهدور في البحر وعلى ظهر الباخرة وفي العنابر والمواعين عدا الذي نهبه الآخرون.

- غير معقول.

وضحك. ضحك في البداية من حلقومه، موجة إثر موجة، ضحكاً غريباً جافاً لا روح فيه ولا نداوة. ثم استقام ضحكه. واستمر الوابور المشتعل يهدر. وبخار الشاي يتصاعد من قدحين مليئين لم يُمسا ذكياً ومعطراً. واستمر هو في الضحك. ودمعت عيناه.

* * *

# موجز سريع عما خفي من حياة موظف اسمه صابر يعيش في هذه الأيام

صابر موظف صغير في دائرة ما. وربما في مؤسسة ما. في الديوان. أو في قسم المحفوظات. أو غيرها من تفريعات الوظيفة. شعره أسود أو بني. أو لعله أبيض أو كان له شعر ذات يوم. ليس ذلك مهماً الآن. المهم عاش صابر حياته كلها في الوظيفة باستقامة المسطرة. فلم يدخل جيبه ثمن طابع فرضه على مواطن بحجة استكمال نقص في معاملة. ولم يعرقل مصالح الناس ليدسوا في يده ما تيسر لتستأنف تلك المصالح سيرها. بل على العكس كان يرشدهم دوماً إلى الطريق الصحيح إذا أشكل عليهم الأمر.

وصابر يدفع الضرائب كأحسن ما يكون عليه المواطن الصالح. ولم يعرف عنه أنه تخلف يوماً عن سداد دين. يسير في المدينة دوماً فوق الرصيف الأيمن للشارع، محاذياً الجدار حتى يكاد يلامسه وكأنه يخشى أن يعوق الناس في سيرهم. حتى أن ظريفاً من زملائه علّق مرة قائلاً: لو كنت ممن بَسم لهم الحظ في هذه الأيام وملكت سيارة لما ارتكبت مخالفات في حياتك. فنظر إليه صابر نظرة ذات معنى وقال: إذا لم أرتكب مخالفات فكيف يستطيع من كان مثلي أن يمتلك سيارة؟

وإذا ما سأله سائل سواء من زملاء الوظيفة أو من خارجها: «كيف الحال يا صابر؟» ردَّ عليه صابر بصوته الهادئ المستسلم: «الحمد لله. مستورة. الله مع الصابرين». في حين ينفلت خياله، وقد عجب لذلك في البداية، ينفلت دون إرادة منه إلى شجيرة الصبار. لكن عجبه ما لبث أن بطل. وما عتم أن فهم، أو هذا ما بدا له، صلة القربى بينه وبين تلك الشجرة التي كان يخيل إليه أنها شجرة منسية، وحيدة مثله. مهجورة في الطرف الآخر من

السياج. لا عراقة لها ولا أصل. تعيش على الهامش من تفكير صاحب البستان. يطلب إليها فتقدم في صمت. وإذا نفقت لا تجد من يذرف عليها الدمع.

وصابر لا يختلف كثيراً في حياته العائلية عنه في حياته الوظيفية. إذ هو رب أسرة مثالي، لا يعرف التفريط ولا التقتير في الإنفاق على أسرته.

وهو يكره أعداء بلاده كرهاً شديداً ويحب الله والوطن والخير للعرب حباً لا يفضله فيه أكثر المتحمسين للقضايا القومية، مع أنه لم ينتسب إلى حزب في يوم من الأيام. كما يحب مثل بقية خلق الله أن يرتدي الملابس اللائقة بالإنسان مثلهم. وأن يأكل اللحم والفواكه والخضروات والحليب والزبدة والبطيخ الأحمر والأصفر. وإن كان حبه للبطيخ الأحمر يزيد قليلاً عن حبه للبطيخ الأصفر. ولقد ربى أولاده، وكان عنده سبعة أولاد على مثل خلقه. فكانوا يكرهون الأعداء ويحبون الله والوطن والعروبة ويحفظون الأشعار التي تتغنى بالوطن الكبير. وأيضاً كانوا يحبون الثياب العصرية. ويحبون اللحم والفواكه والحليب والزبدة والبطيخ الأحمر والأصفر. وبالإجمال كل ما جادت به حديقة الله التي دعا فيها عباده إلى أكل طيبات ما رزق. حتى أن حب أولاده لمثل هذه الأشياء زاد عن حبه. الأمر الذي بدأ يقلقه كثيراً وزاد في قلقه الهزال الذي أخذ يظهر عليهم. والكلمات التي أخذوا يتفوهون بها. إذ قالت له ابنته الصغيرة مرة: «بابا أنا جائعة للحم». وقالت أختها في يوم آخر: «أنا جائعة للبيض» وقالت الصغيرة في مناسبة ثانية: «أنا جائعة للجبن».

وفكّر صابر بالكلمات التي عبر فيها أطفاله عن جوعهم وتساءل: «هل الجوع أنواع وهل حشو المعدة بأيما طعام لا يكفي؟». وقال: «ربما يوجد في دمنا حيوانات متخصصة. فللتفاح حيوان وللبيض حيوان وللبطيخ حيوان». بل إنه ذهب في خياله إلى حد القول بأن: «للبطيخ حيوانين أحدهما للبطيخ الأحمر والآخر للبطيخ الأصفر. وحيوان البطيخ الأحمر لا يفتذي بالأصفر». وفكر أنه عندما يجوع أحد هذه الحيوانات يصرخ بأعلى صوته طالباً طعامه.

منذ بضع سنين خلت كان راتب صابر يكفيه لعدد من أيام الشهر. واليوم وقد زاد راتبه عما كان عليه من قبل تناقص مع ذلك عدد الأيام التي يجد فيها المال في جيبه حتى بات ستة أيام أو سبعة على الأكثر من أيام الشهر الأولى. ثم يبدأ بعد ذلك في الاستدانة على امتداد الشهر. وعجب لذلك أشد العجب. وعجز عن فهم سر المعادلة التي يكمن فيها التوازن بين راتبه ومصروفه الشهري. حتى خيل إليه أن ثمة مؤامرة كبيرة قد حيكت في الخفاء لسرقة راتبه ورواتب أمثاله من الموظفين الصغار بحجة الغلاء العالمي كي تظل رؤوسهم منحنية باستمرار وكأنها تبحث في الأرض عن شيء تأكله. كان يفكر فيما بينه وبين نفسه: «لنفترض أن السلع المستوردة ارتفعت أسعارها لأن العرب- كما يقال- رفعوا أسعار البترول. ولكن ماذا بشأن الخبيزة والهندباء والجرجير والبقدونس والنعناع والبرتقال والعنب والحليب والبيض واللحم والبطيخ الأحمر والأصفر؟ أتراها تحولت إلى أشياء عالمية وصارت تخضع بدورها لمد وجزر أسعار البترول؟». ويهز رأسه متشككاً، يتساءل بينه وبين نفسه: أيكون للبترول حقاً مثل هذا السلطان حتى يطول بلهيبه الحارق المشمش والتين والرمان والباميا واللوبيا، الزيت والزيتون؟

وفي المساء من كل يوم ترفع زوجة صابر طلبات الصغار إليه. بالضبط في ذلك الوقت الذي يكون فيه الأولاد قد ناموا، وخيّم الهدوء، واستعد صابر كعادته ليشعل سيجارته الأخيرة قبل أن يأوي إلى فراشه فتقول له: «أحمد يريد تفاحاً. يوسف يلزمه دفتر. فاطمة اهترأت صدريتها. أو النونو يحب الموز». ثم تمضي بعد ذلك في رفع طلبات البيت العامة: «الشتاء على الأبواب وبطانياتنا تلفت. يلزمنا أخرى جديدة. الحصير صارت نتفاً. الأولاد يلزمهم أحذية شتوية. يا إلهي لم نعد نستطيع أن نعوض شيئاً بلي. وعرينا يزداد يوماً بعد يوم».

ويشعل صابر سيجارته بسرعة ويروح ينفث دخانها أنفاساً طويلة وهو يهز رأسه من حين لآخر. بهدوء ورزانة في البداية. ثم بعصبية ونزق حتى ينتهي إلى القول:

- أول الشهر يا خديجة. لا مال لدينا الآن. أنت تعلمين. أول الشهر إن شاء الله.

ويُقبل أول الشهر. ويقبض صابر راتبه. ثم لا يلبث هذا الراتب أن يتسرب من بين أصابعه كالماء خلال الأيام الأولى من الشهر وفاء لديون الشهر الفائت ومستلزمات البيت العاجلة التي لا تقبل التأجيل. ويعجز صابر عن البر بوعوده للأولاد. فلا أحمد يأكل التفاح. ولا فاطمة تستبدل صدريتها المهترئة ولا النونو يأكل الموز. وتبدأ عملية تقشف ليس لها مثيل. تتجلى أكثر ما تتجلى عندما يذهب صابر إلى سوق الخضار إنه ينظر حواليه. الدنيا بألف خير وكل شيء متوفر. التفاح والموز والبرتقال واللحم والبيض والجبن والسمك واللبن. كل ما لذَّ وطاب. لكنه لا يجرؤ على الدنو من هذه الأشياء. رقع الأسعار فوق البضائع واضحة لا لبس فيها ولا غموض. وهي أعلى من أن تستطيع ميزانيته تحملها. ويفكر في نفسه: «مادامت هذه الأشياء الرائعة التي لا يرى المرء لها مثيلاً إلا في الصور الملونة موجودة فهي للأكل إذن. ولكن من الذي يأكلها، إنهم ليسوا أولاد الموظفين والفقراء أمثالي على كل حال». ويتذكر نباتات الصبار الوليدة. ويفكر قائلاً في ذات نفسه: «أول ما تولد هذه النباتات تكون خضراء غضة دون شوك. لكن ما الذي يحدث لها بعد ذلك حتى تقسو وتمتلئ بالشوك؟ أهو الجفاف؟ ألأنه لا توجد اليد التي ترويها وتتعهدها بالعناية والرعاية؟».

ويلتفت صابر حواليه في السوق مشيحاً بوجهه عن الأشياء النفيسة التي تشتهيها العين ويسيل اللعاب لمرآها وذكرى طعمها الغابر. ثم يمضي قدماً نحو أعماق السوق حيث يعلم أين في مقدوره أن يجد بضائع تتلاءم مع ميزانيته البائسة. وغالباً ما تكون من سقط الخضروات أو في خريف مواسمها. عندما يصبح السلق وزهرة القرنبيط والبندورة والباذنجان والفاصوليا والفول وغيرها كاسدة أو تكاد. حتى إذا ما ابتاع إحدى هذه الخضروات راح خياله يبحث لها عن طريقة طهو مبتكرة. طريقة تعوض عن فقدان اللحم. «أوليست الحاجة أم الاختراع». كان يردد لنفسه ضاحكاً على نحو لا تعوزه السخرية. ذلك أن صابراً كان قد درج منذ زمن على شطب الكماليات والاكتفاء بالضروريات من قائمة حاجات البيت. وقد بدأ بالتفاح

يوماً ثم بالدراق والخوخ والتين. ثم بالحليب والبيض (أعاد البيض إلى قائمة الضرورات في الصيف. لكنه عاد إلى رفعه منها في الشتاء). والجبن الأبيض والعنب والبرتقال. ثم البطيخ الأحمر والأصفر. وقبل أن يجري قلمه فوق البطيخ ودّعه في العام الماضي باحتفال مهيب يليق بشغفه به. فاشترى بطيختين كلفتا ميزانيته المرهقة خمس ليرات وقال للأولاد: «كلوا لعل هذه أكلتكم الأخيرة من البطيخ».

أما اللحم فقد وقف طويلاً عنده. هل يلغيه؟ أولم يتفق فيما بينه وبين نفسه على إلغاء الكمالي والاكتفاء بالضروري؟ أولَيس اللحم ضرورياً؟ وماذا يعوض عن اللحم؟ البيض؛ لم يعد البيض طعامه وطعام أمثاله. لم يعد قادراً على شرائه في معظم أشهر السنة. صار لذوي اليسار وقد كان طعام الفقير في الأصل. وأبقى صابر، بعد أخذ ورد بينه وبين نفسه، على اللحم وإن كانت نسبة ما صارت تحصل عليه العائلة قد هبطت إلى السدس. وربما إلى الثمن. ثم تباعدت الفترات التي كان في ميسور صابر أن يبتاع فيها اللحم حتى أمسى ما يدخل منه إلى البيت ليس إلا رمزاً.

ولم يكن هذا الرمز هو آخر الرموز في حياة صابر. فلقد توصل بالأمس، والأمس القريب فقط إلى طريقة تعوضه عن اللحم وعن كثير من الأشياء التي يحبها. فقد عثر بطريق الصدفة في إحدى المجلات الملونة على طبق حفل باللذيذ الشهي من الطعام فانكب عليه يلتهمه. وعندما أتى على آخر قطعة لحم فيه قال لنفسه وهو يتجشأ: «لم يعد اللحم والبيض والجبن والحليب والسمك. لم يعد البطيخ ولا العنب والبرتقال والتفاح مشكلة. فأنا أستطيع أن آكل منها ما أشاء ولا يلزمني سوى قلم وخيال». وبالفعل فقد أكل مرة فروجاً مشوياً رسمه على الورق. كما أكل موزتين وبرتقالتين وتفاحة. وتساءل: «لماذا لا أعلِّم أولادي هذه الطريقة؟ من يدري فقد تعجبهم فيكفون عن الطلب». لكن المشكلة التي ما لبثت أن واجهته وظلت تقلق باله، ليس أثر هذه الطريقة من الناحية النفسية على الأولاد. ولكن فيما إذا كان في مقدورها أن تسكت حيواناتهم الصارخة، وتساعدهم على النمو في المستقبل أيضاً.

ولاح له عندما انتهى إلى هذا الاكتشاف. لاح له أنه فهم لماذا ينبت الشوك على أكف الصبار عندما يكبر.

# الوهم والحقيقة
# أو
# ما حدث لفتى أشقر جعدي الشعر ذات مساء

ما إن حاول النهوض على قدميه، لحظة فر خصمه، بعد أن تعاركا وتدحرجا على الأرض، حتى وجد نفسه ممسوكاً من شعره. هكذا من شعره تماماً. غرته وكل الخصلات التي خلفها مباشرة تقبض عليها يد قوية. وكردة فعل فورية وقبل أن يعرف من الذي يمسك شعره حاول الإفلات من اليد التي أحكمت قبضتها حول خصلاته الغزيرة. وللحظة خال أن رجليه لن تستقيما حتى ترتفعا عن الأرض كأنه سيعلق في مشجب. وحين أدرك أنه فشل في محاولته جرب أن يلتفت ناحية صاحب اليد الفولاذية التي تمسك به. لم يدع له صاحب اليد، من الطريقة التي يمسك بها شعره، مجالاً ليملي عينيه منه. بل أجبره على السير، ممسكاً به من شعره، فارضاً عليه وضعاً معيناً مما عجز معه أن يستدير برأسه ليرى إلى الرجل الذي يقوده.

وأحسّ، بالرغم من معرفته الأكيدة أنه كان طويلاً بين رفاقه، أن الرجل الذي يقوده من شعره هو أطول منه. وحاول لحظة تحقق من فشله في الاستدارة برأسه، أن يستدير بعينيه. بذل جهده. دفع عينيه جانباً إلى أقصى نقطة تستطيعان النظر منها. قالت له العينان اللتان فرض عليهما أن تتوقفا في نقطة معينة، وأن تنظرا من زاوية ضيقة جداً أن الرجل له طرف شارب أسود وخد أسمر.

معلومات فقيرة. جد فقيرة لم تغنه كثيراً في معرفة الرجل. ونظرت العينان جانباً إلى أسفل. وقالت له العينان إن الرجل ينتعل حذاء أسود وبنطالاً وقميصاً خاكيين فتساءل على الفور: «أهو شرطي؟». وجدد النظر جانبياً إلى

أعلى. إلى رأس الرجل وصدره. كان رأسه حاسراً. وأحسّ إحساساً غائماً أن صدره فسيح. وأحس معه أن الرجل يتمتع بالقوة. ولم يخامره الريب أنه يتمتع بالسلطان أيضاً. ولكن ماذا تراه فعل حتى يقبض عليه على هذا النحو؟ كل ما في الأمر أنه اختلف مع صديق بسبب عتاب وقيل وقال بينهما. ثم تضاربا وتماسكا وتدحرجا على الأرض. وقبل أن ينهض تماماً ويستوي على قدميه وجد نفسه ممسوكاً من شعره. من مقدمة شعره خاصة. أما صديقه فقد اختفى فجأة. ولّى الأدبار.

ووجد الفتى الجرأة أخيراً ليقول للرجل الخاكي:

- ولكن لماذا؟

ولم يأبه الرجل الخاكي بسؤاله. بل شدَّ قبضته حول شعره أكثر. وأمسك رسغه بيده الثانية. ثم اقتاده.

وخطر للفتى أن يخلص رأسه بشكل مفاجئ ويطلق ساقيه للريح. ومن قبيل الاختبار ركز انتباهه في شعره. وبهزة منه تمثلت في إحساسه أكثر مما هي في حركة رأسه، ليرى إلى مدى القوة التي يمسك بها الرجل الخاكي شعره. فأحس إحساساً عميقاً أن شعره مشدود حتى الجذور. وأنه من العبث أن يقدم على هذه المحاولة. فكر لحظة مع كل شعوره، المبهم، والأكيد بقوة الرجل الخاكي وسلطانه أن يمانع في الانقياد. بل إنه جرؤ على الممانعة فعلاً فدفع جسمه المقاد إلى الوراء. وتباطأ في رفع قدمه عن الأرض في محاولة منه للاحتجاج. فما كان من الرجل الخاكي إلا أن صرخ بحزم:

- امش.

مجرد كلمة مقتضبة حازمة آمرة. لكنه أحس بها لا تقبل النقض. وأحس إن هو لم يمتثل لهذه الـ «امش» فإنما يقف في وجه السلطان بكل أجهزته المعقدة. وطافت في خياله كل الحكايات التي سمعها عن هذه الأجهزة المعقدة والمبهمة. فسيطر عليه الخوف. وأذعن لمقتاده وهو ذاهل. مستغرب من وضعه. ماذا فعل؟ ماذا يريد الرجل منه؟. وفي ثوان استعاد في ذهنه عراكه مع صاحبه. فلم يجد فيه شيئاً غير عادي. مجرد عراك بسيط لا

يستوجب أن يمسك به من شعره على هذا النحو المزري والمهين. وفكر «في عراك من هذا النوع تمسك الشرطة بالمتعاركين من أيديهم، أو من ياقاتهم وليس من رؤوسهم. من شعر رؤوسهم». وازداد دهشة وتساءل بعجب: «ماذا فعلت؟». ورفع يده إلى رأسه في محاولة ليفك شعره من الأسر. فلامست يده يد الرجل. وأحس أن لها برودة وصلابة معدنية. وما عتم أن جاءه رد الفعل سريعاً متوعداً:

- أنزلْ يدك.

وأنزلَ يده راضخاً لمشيئة السلطان التي لا تقهر. وأدار عينيه، الشيء الوحيد منه الذي أحس به مازال حراً يملكه ويخضع في حدود لإرادته، أدار عينيه وكأنه يبحث عن مخرج أو تفسير لوضعه.

كان ثمة على جانبي الطريق أناس استوقفهم المشهد. مجرد عابري مساء أو ممن يودون ارتياد دور السينما. رأى إليهم وهم يملكون كل حرية الحركة أو الوقوف. نظر إلى عيونهم. إلى وجوههم تنعكس عليها أضواء النيون الملونة المتناوبة المنبعثة من المخازن ودور السينما القريبة. رأى فيها الدهشة والتساؤل. نفس دهشته وتساؤله. لماذا؟ لماذا يُقاد من شعره. واستمر ينظر إلى الوجوه الملونة بالتناوب. بالفضي والأحمر والأصفر. لم ير فيها أثراً لشماتة أو سخرية. بل رأى فيها على نحو ما شيئاً من الاستنكار المشوب بالاستهجان والغضب. مع ذلك لم يستطع هذا الانطباع الذي قرأه في الوجوه أن يمحي إحساسه بالخجل. إنما أعطاه شيئاً من الشجاعة ليقول:

- ولكن ماذا فعلت؟

فجاءه الجواب سريعاً من الرجل الخاكي:

- اخرس.

وخرس دفعة واحدة. وفكر: «لا بد أنني قد ارتكبت ذنباً عظيماً وأنا لا أدري».

وسار خطوة وخطوة ثانية ورأسه في يد الرجل الخاكي محمولة من شعرها كجوزة الهند. ودار الرجل الخاكي حول سيارة مرسيدس سوداء

مركونة بجانب الرصيف فدار الفتى معه. ثم توقف الرجل فتوقف الفتى الذي يحمل بين كتفيه جوزة الهند. ثم انحنى فانحنى معه. أطلق الرجل الخاكي يد الفتى إنما ظل ممسكاً بجوزة الهند. فعل ذلك حين قرّب رأسه من جسم السيارة الصقيل اللامع المغرق في السواد. وربما ليكون أكثر ارتياحاً لحظة اقترب برأسه من السيارة. أو ليشغل يده بشيء آخر بعد أن اطمأن إلى استسلام الجوزة في يده الثانية. وقد شغلها فعلاً إذ سحبها على جسم السيارة اللامع الصقيل برفق وحنان كأنه يتلمس خد عروس. ثم نهض الرجل فنهض الفتى معه. ثم انحنى على موضع آخر من جسم السيارة فانحنى بدوره.

كان عابرو المساء قد اقتربوا أكثر. جذبهم مشهد الرجل الخاكي الذي يمسك بيده جوزة لها شعر أشقر وعينان وفم وشارب بكر ولحية صغيرة ذهبية مجعدة. جوزة تحمل كل هذه الأشياء تقوم على كتف فتى غض.

قالت فتاة لرفيقتها متأثرة بمنظر الرأس المتدلية باستسلام من يد الرجل الخاكي:

- ماذا فعل؟

وسمع الفتى نغمة التأثر الواضحة في صوت الفتاة. وسمع أيضاً إنساناً يقول لآخر:

- كان يسير هو ورفيقه. ثم فجأة راحا يتعاركان ويتضاربان لسبب ما.

وقال آخر:

- كنت آكل ساندويشة في الداخل (مشيراً إلى حانوت وراءه) حين سمعت صدمة معدن. خرجت من المحل فرأيتهما يتضاربان قريباً من المرسيدس المركونة.

وكان الرجل الخاكي لا يني ينحني ثم ينهض منتقلاً من موضع إلى آخر حول جسم السيارة اللامعة السوداء. والفتى ينحني وينهض معه ورأسه بيده.

قال آكل السندويش:

- لعله صدم السيارة برأسه أثناء عراكه مع رفيقه. هل تعتقد أنه آذى السيارة برأسه؟

فقال رفيقه:

- سيارة فخمة. لست أدري.

ثم نظر إلى الرجل الخاكي. وكاد أن يقول شيئاً ما. لكنه ما لبث أن انكفأ يقول همساً عندما لمح حركة بدرت من رأس الرجل الخاكي والتفت إلى الخلف:

- ولكن هل الأمر يستأهل؟ كأنه يمسك بيده رأس خروف.

ولعل ريحاً معينة. أو رهافة في الحس غير اعتيادية حملت كلمة خروف وألقتها في أذن الفتى الذي التوت رأسه، الممسوكة من شعرها، جانبياً. فحركت فيه شوقاً لاهباً إلى البكاء. لكنه قال لنفسه: «عيب. أمام كل هذا الجمع. أنا رجل. والرجال لا يبكون».

حين أكمل الرجل الخاكي دورته حول السيارة اللامعة السوداء. وبدا أنه قد اطمأن إلى سلامتها وخلوها من أية رضوض أطلق رأس الفتى. فوقف هذا زائغ النظر مشتت الفكر كفرخ الدجاج الذي خرج لتوه من تحت السكين، لا يعرف ماذا يتعين عليه أن يفعل. نظر إلى الرجل الخاكي، ثم إلى المارة الذين استوقفهم المشهد. رأى الإشفاق في عيون المارة فشعر بالخجل والغضب. وقف ثوان بقامته الفتية الفارعة، وشعره الأشقر المشوش، وعينيه اللامعتين، وجهه المكفهر تفصله عن الرجل الخاكي مسافة. بدا من وضع يديه على جنبيه ورجليه المتباعدتين أنه متأهب لعمل ما. نظر إلى الرجل الخاكي، إلى بنطاله وقميصه وكتفيه. نظر إلى المرسيدس والى طاقتها الخلفية وقد استقر وراء زجاجها شيء. شعر بصدق حدسه الذي حس به منذ أول لحظة. التقط بعينيه الشيء الذي رآه وراء زجاج السيارة وعمّر به رأس الرجل الخاكي المحسور فاكتملت في ذهنه صورة السلطان تماماً. فكر أن يفعل شيئاً، أن يقول كلمة، أن ينبس بحرف، لكن القول ارتج عليه أمام حضرة

السلطان. وعادت إلى ذهنه كل الحكايات التي سمعها عن دهاليزه. وصرّت في أذنيه دواليب خشب يديرها رجال قساة غلاظ.

قال الرجل الخاكي بغضب:

- اذهب قبل أن أكسر رأسك. شباب... كذا.

نظر المارة إلى المرسيدس الفخمة المركونة بجانب الرصيف، إلى الرجل الخاكي، إلى الفتى بفتحتي بنطاله الواسعتين، إلى طرف قميصه السائب، إلى شعره الكثيف المشوش، إلى شاربه النضر وقد اتصل بلحية صغير مجعدة شقراء. إلى جبينه وقد بدت فيه كدمة. نظروا إلى كل ذلك.

قال أحد الواقفين:

- الحمد لله، سليمة.

وتساءل آخر في ذهنه:

- سليمة لجبين الفتى الدامي، أم لسيارة المرسيدس السوداء؟

وأدار الفتى ظهره وقد رأى إلى الغضب يتجمع في عيني الرجل الخاكي ويكاد يتحول إلى عمل أكثر من مجرد إمساك شعر الرأس إثباتا لسطوة السلطان وإنقاذاً لهيبته أمام الجميع، وقد شعر بالخيبة حين وجد أن السيارة لم تصب بأذى.

ومضى الفتى في طريقه، مرّ أمام باب سينما، سقطت على وجهه وهو عابر أضواء النيون الملونة المتناوبة الفضية والحمراء والزرقاء، دار إلى يمين باب السينما ومشى في شارع جانبي خافت الإضاءة سار في البدء على مهل. ثم باعد بين خطواته. لاحظ أن الطريق قليل المارة، معتم، فشعر بالوحشة. جرى مسافة فأحس بحرية أعضائه. انتعش قليلاً. عاد إلى السير متمهلاً، شعر بشيء يكوي جبهته. رفع يده إلى جبينه ومسح مكان الألم، تبللت يده بشيء رطب بارد، نظر إلى يده على ضوء الشارع. قال: «إنه العرق». تذكر أنه أصيب في جبينه. فكر بالرجل الخاكي والمرسيدس السوداء. فكر بأبيه. قال له أبوه يوماً ساخراً وهو ينظر إلى فتحتي بنطاله الواسعتين: «لماذا ترخِ لحيتك وشاربك؟ لماذا تطيل شعرك؟ الشعر الطويل

يغري بشدك منه؟» فقال لأبيه: «لأني إنما أثور على التقاليد وأمارس حريتي. العبيد وحدهم يشدون من شعرهم، أما أنا فإنسان حر، ولن يشدني أحد منه». فصمت أبوه ولم يجاوب إنما ابتسم ابتسامة عريضة، ثم لاك بين أسنانه كلمة ليس غير، لكنه أحس المرارة تقطر من تلك الكلمة.

قال: «جبان أنا». وانعطف في طريق أعرض قليلاً، عاد إلى الركض من جديد. رشح جبينه بالعرق واكتوت جبهته. ابتسم أبوه ابتسامته العريضة الغامضة. ودّ لو كانت بيده مرآة. جرى بسرعة أكبر، تعثر بكم بنطاله الواسع. عاد إلى ذهنه حديثه عن الحرية مع والده. أحس بالمرارة على شفتيه وأحس أن شيئاً ما قد تحطم عند حذاء أسود لامع. فكر أنه كان ينبغي أن يفعل شيئاً، أن يقول كلمة عندما أعتقه الرجل الخاكي. حمل الفتى شيئاً من نافذة المرسيدس الخلفية ووضعه على رأس الرجل الخاكي. اكتملت هيئة السلطان وبرزت هيبته.

قال له:

- «امشِ قبل أن أكسر رأسك.شباب كذا..».

دخل الفتى باباً. وصعد درجات سلم عدواً. وقف على بسطة السلم. وأدار مفتاحاً في قفل. دفع باب البيت ودلف إلى رواق مظلم. لاحظ أن كل البيت غارق في الظلمة والسكون. قال: «ليس في البيت أحد». وحمد الله لأن أهله غائبون عن البيت. تلمّس طريقه في الظلام ومشى حتى نهاية الرواق. ضغط زر كهرباء فأضاء مصباح فوق مرآة على مغسلة. اتجه نظره أولاً إلى جبهته المصابة. لاحظ هشاشة الجلد والدماء الخفيفة تحت. قال: «لعلي أصبت رفرف السيارة بجبهتي» نظر إلى وجهه جملة ثم حط بصره على شعره الكثيف المشوش. لاحظ أن حزمة كبيرة من مقدمة شعره قد انفصلت عن رفيقاتها واتخذت وضعاً معيناً. فكر أن هذه الخصل هي التي أمسك بها الرجل الخاكي. وخيِّل إليه أنها لاتزال محتفظة بآثار يده.

مدّ يده وأمسك خصلة الشعر الكبيرة المنفصلة وشدها بقوة إلى الأعلى حتى ارتفع جلد جبهته وتجعد. فكر: «أنا لست سوى خروف ورأسي لا

يساوي رفرف في سيارة مرسيدس سوداء يملكها رجل خاكي ينتعل حذاء أسود ملمع». وشعر بدونية وحزن ساحق مفاجئ.

- ماذا فعل؟

رن في أذنه صوت الفتاة واضح التأثر والعجب. هبط نظره إلى حامل زجاجي في أسفل المرآة. التقطت يده من بين فراشي ومعاجين الأسنان الموسى التي يحلق بها والده. شرّع نصل الموسى ووضع حدها على عنقه. أحس ببرودة المعدن ورهافة حدها القاتلة. تخيل برودة القبر، تخيل الدماء وقد لوثت صدره وثيابه. سرت برودة المعدن من عنقه وانتشرت في بقية جسمه. أحس قشعريرة في كل أنحاء جسده. نظر إلى وجهه الفتي. فكر في الفتيات. فكر في الأشجار. فكر في العصافير وكل المباهج الموجودة. وأخيراً تخيل الحزن الذي سيخلفه لأسرته وأصدقائه، فأخذته موجة من الإشفاق على نفسه.

وبتردد، وبعد عناء كبير حمل يده التي تمسك الموسى، ودون أن يرغي أي صابون على وجهه حلق لحيته، وأتبعها الطرف الأول من شاربه وبعده الثاني، ثم أطفأ المصباح القائم فوق مرآة المغسلة وتسلل في الظلام حتى انتهى إلى غرفته.

استلقى على سريره بكامل ثيابه، ومد يداً في الظلام تحسست طريقها حتى تعثرت بترانستور، فتل فيها مفتاحاً فانبعث منها على الفور موسيقا واهنة كأنما هي في انتظاره.

وفي وقت ما من الليل، وحين دبت الحياة في البيت وأهلت الدار بأصحابها سمعت أخت الفتى صوت الموسيقا المنبعثة من الترانستور، دخلت غرفته، نادته فلم يرد، حينئذ أضاءت المصباح، تقدمت لتقفل الراديو حينما تأكدت من استغراقه في النوم، وقفت فوق رأسه، لاحظت الكدمة في جبهته فعجبت لكنها تعجبت أكثر حين رأت إلى لحيته وشاربه الأشقر وقد اختفيا من وجهه. فكرت أن توقظه لتسأله لكنها خشيت أن تثير غضبه إن هي فعلت.

قالت: كم كان فخوراً بهما، وشد ما كان يعبث بشاربه، وأسفت كثيراً لاختفاء اللحية والشارب من وجه أخيها، وتساءلت عن السبب الذي حدا به

لحلاقتهما في وقت عجزت فيه جهود أبيه غير مرة على حمله لفعل ما فعل. وحين أعياها الجواب أرجعت تصرفه إلى مزاج الشباب المتقلب وفكرت: «كان رجلاً صغيراً، وكنت شديدة الاعتزاز به». وقلبت شفتيها عجزاً عن الفهم وحيرة ثم أقفلت الراديو. وأطفأت المصباح. وفي الظلام تسللت خارجة على رؤوس أصابعها كيلا توقظه. وكانت لا تزال في عجب من حال أخيها العامة، لا سيما تغير ملامحه بعد الحلاقة، حين أغلقت باب الغرفة وراءها قالت: «يا إلهي صار وجهه أقرب إلى وجوه النبات».

* * *



# البعض يأكل الدجاج

- ما الخبر؟
- ما الحكاية؟

هكذا راح يتساءل المهرولون الذين جذبهم التجمع بينما كانت الحلقة تتكاثف باستمرار في الساحة رقم (٥) من منطقة المرفأ.

كان الوقت صباح يوم من أيام الشتاء. وكانت برودة الجو قد جمدت الحياة، فبدا الركون على كل شيء. على الحمالين وسائقي اللوريات وعمال الموازين، والكتبة والمأمورين والرافعات والمواعين والقاطرات والسفن. وبدا كل ما يتحرك وكأنه ليس راغباً في التحرك.

وكان في وسط الحلقة خمسة رجال لم يلتقوا مصادفة. كان اثنان منهم يبحثان عن سيد. الأول قصير، والآخر طويل مشدود جلد الوجه إلى الأسفل، عيناه مدهوشتان بلهاوتان. وسيد معتمد فرقة التنضيد الخامسة. وأما الآخران فمن عمال الفرقة وفتوتها. وكانا يظهران مع سيد في كل المناسبات والأمكنة. وكانت الحاجة لوجودهما بجانبه تتجلى أكثر ما تتجلى في الظروف الحرجة. كانا يبدوان وكأنهما ضرورة لا بد منها. لقد وقف أحدهما عن يمينه والآخر عن يساره. قال القصير:

- أرى أنك قد أتيت بملاكيك الحارسين:

فرد سيد مازحاً:

- وجود الشياطين يستدعي حضور الملائكة.
- ولكن المثل يقول العكس.
- ليس كل ما تقوله الأمثال صحيحاً.

وفكر القصير أن يقطع هذه المقدمة. كان يرى أنها تذهب به بعيداً عن غايته. وكان يعلم أن سيداً قمين بأن ينفق النهار بمثل هذه المداورات: «ليس هناك من هو أشطر منه في هذا الميدان». وقال أيضاً: «كان ذكياً دائماً وطيباً».

قال القصير:

- دعنا من الأمثال يا ريس... ماذا حدث بشأننا؟..

فرد الريس:

- لا جديد.

- لماذا لا جديد؟ لقد قدمنا استدعاء منذ شهرين.

وخطف نظرة من سيد ما لبثت أن انطلقت من تلك النقطة في رحلة شكلت قوساً شملت الحوض والسفن والرجال والرافعات والمواعين والبضائع بما فيها الخشب والحديد وزجاجات الأحماض والخيش وكل ما يمكن أن يخطر في بال المرء في مرفأ من المرافئ وما لا يمكن. ثم عادت فاستقرت عليه ثانية.

قال سيد:

- انتظر حتى يبت في الأمر... الرأي للشركة.

فرد القصير على الفور:

- لقد راجعنا الشركة يا ريس. فقالت: الرأي للفرقة.

وقال الطويل بلا تمهيد وهو ينظر في وجوه المتحلقين حوله:

- لقد أنهينا الخدمة الإلزامية منذ ثلاثة شهور. وها قد مضت ثلاثة شهور لا نفعل فيها شيئاً حقيقياً. إن المرء لا يمكن أن يظل فترة طويلة بلا عمل.

وسأله أحد العمال:

- هل كانت الخدمة صعبة؟...

فأجاب:

- ليس كثيراً. ولكننا اشتقنا إلى العمل في المرفأ.. كنا نحصي الثواني.

قال سيد بلا مواربة:

- لماذا لا تعملان باليومية؟

لقد فكر: «ماذا يجدي الهروب؟ الآن وليكن بعد ذلك ما يكون... ولكن بلطف. قل له الحقيقة... قل له أنك لا تريده في الفرقة... هيا قبل أن تفوت الفرصة.. ماذا يوقفك؟ هل تخشاه؟ ولكن أحمد ليس كالآخرين.. كلا. كلهم بدأوا هكذا... ثم انتهوا أخيراً إلى عمال مياومة».

فتساءل أحمد:

- عامل مياومة؟ لماذا؟.

فرد سيد:

- هناك تضخم في الفرقة.

وقال الطويل:

- المياومون لا يجدون عملاً دائماً. إنهم يغربلون الهواء معظم وقتهم.. ويسبّحون بحبات القمح على الأرصفة.

ورد أحمد:

- لسوف أحمل رزقي معي إلى الفرقة.

وفكّر سيد «بدأت الفرقة بثلاثين عاملاً محاصصاً.. ثم ماذا؟ واحد وثلاثون. اثنان وثلاثون. ثلاثة وثلاثون. خمسة وثلاثون. ستة وثلاثون. سبعة وثلاثون. ثمانية وثلاثون. تسعة وثلاثون. أربعون. فكر قبل أن تفتح الباب من جديد».

قال سيد:

- كيف؟ أنت ترى أن الموسم كان رديئاً هذا العام.

فرد أحمد:

- مهما يكن. فهناك ما يتلهى به عمال المحاصصة دائماً. فتحت أضراسهم دائماً ما يلوكونه. لقد نزلت إلى الميناء يوماً بعد يوم. ولكني لم أجد

ما أعمله بشكل دائم. إن عامل المياومة أشبه بالصياد. يلقي صنارته ثم ينتظر وينتظر حتى تأتيه لحظة يتساءل فيها لماذا نزل إلى البحر؟ هل أقفر من السمك؟ هكذا... إن شعور عامل المياومة شعور إنسان يقتعد الرصيف العام.

ونفذ أحد عمال المياومة برأسه من إطار الحلقة وقال:

- المرفأ ملك أُم المحاصصين.

وغمز عامل حصة محاولاً أن يخفف الضغط المتواتر:

- وأمك أيضاً ملك للمحاصصين.

وعقب آخر ملفع الوجه:

- إن أمه الكريمة لا تشتغل بالمياومة، بل تشتغل بالمقاطعة.

وقهقه البعض. وأما الآخرون. أما عمال الحصة القدماء الذين يعرفون المتقابلين، فقد راحوا يرقبون تطور الحوار وينظرون إلى الأمور نظرة أخرى...

كان أحمد عاملاً قديماً مرموقاً. ولقد نزل إلى المرفأ منذ ثلاثة أشهر بعد أن أنهى خدمته الإلزامية، يرافقه العامل صاحب العينين المفتوحتين كي يعودا إلى عملهما.. وكانت فرقة التنضيد رقم (٥) أقل الفرق أعضاء. لقد نصحه بعض الزملاء بالتوجه إلى هذه الفرقة. فكان من الطبيعي أن يطلب الانضمام إليها دون غيرها. وقدم أحمد طلباً. ولكن الزمن يمضي يوماً بعد يوم دون أن تلمع في الأفق بارقة أمل.

قال سيد:

- لم تعد الأجور زهيدة كما كانت في الماضي.. إننا ندفع لعامل المياومة أجراً طيباً. وساعات العمل أمست أقل..

«هكذا إذن..؟ إنكم تدفعون أجراً طيباً» قال في نفسه ساخراً. ووخزته لهجة سيد المتعالية. وشعر بالمرارة. وحاول أن يتخطى الحاجز الذي انتصب أمامه على غير توقع رغم إحساسه بأنه يزداد ارتفاعاً لحظة بعد لحظة.

ونفذ برأسه من بين الأسلاك، وقد تمنى في سره أن يكون ما قدّره ليس إلا وهماً أملته عليه ظروف عابرة. قال:

- تعلم أن العمل اليومي لم يعد يناسبني..

وقال الرجل الطويل:

- إن والده ليس على ما يرام.

قال أحمد:

- ربما كان ذلك مجدياً بعض الشيء في الماضي، لأن الحال كانت غير ما هي عليه الآن. ولأنه لم يكن ثمة طريق آخر.

فرد سيد:

- ولكن العمال المياومين يتقاضون أجراً خيالياً.. ولا يفضلهم المحاصصون كثيراً.

وبلّل أحمد شفتيه الجافتين. لقد أمسى الحاجز حقيقة وأحس ببرودة المعدن وصلابته:

- لقد نزلت إلى المرفأ يا سيد. نزلت. فماذا كانت النتيجة. يوم عمل هنا بعد ثلاثة أيام عطالة. ثم يوم آخر هناك.. إن إحساسي بالتفاهة يتفاقم. لكأنني إنسان سائب... إنني أريد أن أعمل بين رفاقي القدماء.

«يا له من يوم شتوي شاق يا فارس. ولكن العمل أصبح لنا.. كل المدخول في نهاية الأمر... أوراق ملء اليدين. ومحاسب متواضع يعمل كشوف الحساب وسيجارته تحترق دون أن يمسها، ولا يلاحق حبات الزيتون بالشوكة في طبق من القيشاني اللامع. آه كم تمنيت أن أتناول الطعام في مثل ذلك الطبق ذات يوم». هكذا حلمت وأنا أقوم بنوبة حراستي في الليالي. إن كشك الحراسة في الليل يضفي على الأشياء في الخارج سحراً خاصاً ويمسي كل ما لا تملكه طريفاً ولامعاً.

وخرج أحد الملاكين الحارسين عن صمته، وأطل من وراء قناعه:

- ما شأن الزيتون في ذلك؟

وابتسم أحمد بألم وحدّث نفسه: «إذا لم يعاصر طبق الزيتون فكيف يجوز له أن يعمل محاصصاً؟» وقال الرجل الطويل وهو ينظر في وجوه من حوله:

- إن لطبق الزيتون حكاية.

وتجاهل الريس إشارة أحمد وقلب يده في الهواء.

- ولكن الحلم غير الواقع... لقد حلمت يوماً أنني سأصبح ملكاً... إن الأمر سواء عملت بين أناس تعرفهم، أم لم تعرفهم. فالعمل واحد.

ورد أحمد مغتاظاً:

- نعم إن العمل واحد. ولكنني لا أريد أن أعيش على فضلات المحاصصين. إنه ليس من العدل أن أعمل بالمياومة.. يبدو لي أنني قديم قدم الأحجار المرصوفة في هذا الميناء. إنه ليس من العدل أن يأكل البعض الدجاج.

قال سيد:

- دعك من الدجاج الآن... وسأسوي الأمر في المستقبل. سأسوي الأمر مع الشركة في المستقبل عندما تتحسن الحال.

وقال أحمد لنفسه: «ها هو يعود إلى نغمة الشركة مرة أخرى. إنه لا يريد»...

ثم بصوت عال:

- ولكن الشركة لا حيلة لها في هذا الأمر.. إن قضية تسميتي عاملاً محاصصاً مسألة تقررها الفرقة.. أعضاء الفرقة.

ونظر في دائرة الوجوه حوله. فكان بعضهم من رفاقه القدماء. ثم استقرت عيناه على فارس، فغض بصره وكأنه يقول له: «إنني أقبل من ناحيتي. ولكن ماذا بشأن الآخرين؟..

وتعلق سيد بالطوف من جديد:

- إذا كنت تتصور أن الأمر كذلك، فالقضية ليست في صالحك.. إن الشباب لا يريدون...

فرد أحمد:

- كيف؟.. إنه لا يحق لأي منهم أن يرفض انضمامي إلى الفرقة وتسميتي عاملاً محاصصاً.

وتقلقلت أرجل الواقفين لتبعث فيها شيئاً من الدفء.

- ولكن ما قصة طبق الزيتون.. دعونا نسمعها...

تساءل الملاك الحارس.. وقد قصد إلى تمييع الجو حين أحسه يتجه لغير صالح رئيسه. وقال أحمد:

- لماذا لا تسأل سيد؟ إنه يعرفها جيداً.

قال الطويل وهو يحاول أن يلفت نظر من حوله:

- إن والده مصاب بالشلل النصفي.. وليس في العائلة قادر غيره.

واندفع عامل مياومة ملثم بلفعة حمراء:

- إنها حكاية الملتزم السابق مع العمال القدماء.. من كان يتصور أن ذلك الكابوس سيزول. هو وكل الجبابرة الآخرين.. إنني لأتخيله الآن في ذلك المكان الصغير الخرب الذي اتخذ منه مكتباً، ومئات العمال في الخارج ينتظرون دفع أجورهم، والسماء تنخل فوقهم مطراً. بينما الملتزم في الداخل وراء طاولته يلاحق في طبق قيشاني لامع زيتوناً لا يريد أن يعلق في شوكته.. يا لها من أيام.

وأخذ أحمد نفساً من الهواء ملأ به صدره ثم نفثه ببطء متلذذاً. وود لو احتفظ به مدة أطول، وأحس بذلك الدوار الذي يستشعره البحار حين تلامس قدماه مركبه القديم بعد غياب طويل. إحساس ممتزج برائحة القنب والزفت المحروق والأسمدة الكيماوية والجلود والبطاطا والحبال والنباتات البحرية المتفسخة وكل الأشياء الجديدة والقديمة الموجودة وغير الموجودة التي لا يزال أثرها باقياً، المتعفنة وغير المتعفنة.

واقترب أحمد من الحاجز من جديد:

- هل تذكر يا سيد يوم عطلنا الملتزم. لقد ذهب الجميع في ذلك اليوم إلى العمل.. ماذا كان اسم الباخرة؟ إني لا أزال أذكر اسمها. كانت تدعى

بعلبك. لقد مضى الكل إلا أنا. أنت وأنا. «أنتما تسوسان العمال.. عناصر هدّامة». هكذا كانت حجته لتعطيلنا. ثم منعوا بعد ذلك دخولنا إلى الميناء.

وهمس سيد لنفسه: « أوه ما أخبثه؟ لماذا ينكأ جراحاً قديمة؟ ثلاثون واحد وثلاثون. اثنان وثلاثون.. والحصة الواحدة تصبح من حق اثنين. إذا استمر ينقر على هذا الوتر فقد... فقد...

وارتفع صوته:

- هيا يا أحمد اعمل بالمياومة وسأدبر الأمر في المستقبل.

فرد أحمد:

- لقد سئمت الوعود يا سيد.. ثلاثة شهور مضت وأنا أعيش بالأمل.. أخشى إن قبلت عرضك اليوم... كلا... كلا.. إن المرء يبدأ بمقدار صغير من الذل... ثم... ثم.. ينبغي أن نرفض ما هو غير عادل منذ البداية.. يبدو لي أنني قد وصلت إلى تلك النقطة التي يصبح بعدها الشعور بما هو حقي أمراً صعباً... اليوم وإلا سيغدو الأمر مستحيلاً.

قال سيد:

- ولكن الشباب لا يريدون.

قال الرجل صاحب العينين المشدوهتين لمن حوله:

- إن المرضى بالشلل لا يعيشون طويلاً.. ولكن مهما تكن الحال فقد قال الطبيب أن ما يحتاج إليه هو..

وضربت القدمان الأرض الواحدة بعد الأخرى وارتفعتا في الهواء تحاولان تسلق الجدار.

قال أحمد:

- مَنْ من الشباب لا يريد؟ إن أياً منهم لا يملك هذا الحق.. إن فرق المحاصصة مشاعة لكل من انتظم في ذلك الذيل الطويل تحت المطر.

وقال الرجل الملثم باللفعة الحمراء:

- ثلاثة اتفقوا على اقتناص الدجاج.. أحدهم اقتنص فعلق، واثنان تركاه عالقاً وهربا بالدجاج.

ونظر إليه الملاكان الحارسان شذراً. وحلّق نورس فوق صفحة الماء ثم غط وارتفع حاملاً بمنقاره سمكة.

قال أحمد:

- لقد تشكلت فرق المحاصصة عندما كنا نؤدي الخدمة الإلزامية.. أنا لم أهرب من المعركة هناك من اشتغل سمكرياً، وآخر في أعمال البناء، كما هرب البعض للعمل في ميناء بيروت. لقد وضعت السلطة يدها على العمل في المرفأ وطردت الملتزم القديم. وأمسى العمال أنفسهم هم الملتزمين. ليس من العدل أن يغلق الملتزمون الجدد فرق المحاصصة في وجهنا.. نحن لم نقاتل من أجل هذا.

وحاول أحمد أن يوضح لسيد:

- إنني لن أقاسم أحداً رزقه.. إن كمية العمل لن تكون هي هي. كلما ازداد المحاصصون ازداد شحنهم للبضائع.

وعقّب عامل:

- أو تفريغها.

وطاشت القدمان في الهواء، ولامستا الجدار، ثم بدأتا تنزلقان عندما رد سيد:

- إن قراراتنا بالأكثرية.. لقد أجمع العمال على إغلاق الفرقة في وجوه الجميع... رأوا أنه ينبغي عليهم إغلاقها.. إنهم يخشون أن تصبح الفرقة أكبر فأكبر وحينئذ لن يجدوا ما يعملونه.

قال الأبله الطويل وهو ينظر في وجوه المتحملقين:

- ذكر الطبيب «أن الراحة والدواء كفيلان بإنقاذه» إنه لا يستطيع أن يترك أباه يموت بين يديه دون أن يفعل شيئاً لإنقاذه.. إنه الجحود إن لم يفعل ذلك.

ونظر أحمد في عيون رفاقه القدماء.. وبسط جسوراً وشرع يحاول عبورها:

- فارس.. هل تذكر ذلك الصباح عندما قمنا بإضرابنا الكبير... ثلاثة عشر يوماً.. كيف قدرنا على الاستمرار.. نحن أنفسنا لم نتصور ذلك.. كان الأمر في البداية ليس جدياً تماماً. ثم بدأ البعض يساعدنا.. هناك دائماً من يساند العمال. ليس عليهم إلا أن يبدؤوا العمل.. ذلك الصباح.. إنني أذكر الحادثة وكأنها وقعت البارحة.. اليوم.. ذلك الصباح كان المضربون قد تجمعوا في مقهى النجمة، بعد أن قاموا بمظاهرة في المدينة.. وكنا أنت وأنا وآخرون جالسين إلى طاولة نستعرض ما ينبغي علينا عمله في الخطوة التالية.. وذلك الصباح كان «العجوز» يتقدمهم والرشاش بيده. كان الأبناء والأصهار والأحفاد وكل الأقارب حملة المسدسات خلفه.. ذلك الصباح سال الدم وفرّ البعض إلى داخل المقهى، وصمد آخرون، وأخذوا يقذفونهم بالكراسي.. تصور بالكراسي. إني لأتساءل ماذا كان يمكن أن يفعل العمال لو كانوا مسلحين ذلك الصباح.. إن المرء ليجهل حقاً مدى قدرة عمال المرافئ عندما يثورون.

وتوقف أحمد مستطلعاً. فرد فارس بارتباك:

- أنا من ناحيتي لا اعتراض لدي.

ومدّ أحمد جسراً آخر وبدأ يعبر:

- يوسف.. أنت تذكر؟ لابد أنك تذكر يوم مضينا إلى بيت الملتزم.. كانت جيوبنا ملأى بالديناميت. لقد درنا دورتين.. كان ينبغي أن نرد عليهم.. وتفحصنا المكان.. وبادرنا إلى العمل بسرعة. بوم.. بوم... واهتزت الدار. بوم.. بوم وانتشر الذعر لم نشأ إيذاءهم وقتذاك، وإنما قصدنا تخويفهم.

وأجاب يوسف وقد حوّل بصره بعيداً عن أحمد..:

- لو ترك الخيار لي.. لو ترك لي الأمر.. ولكنني لست وحدي.

وقال الرجل الطويل وهو ينظر في وجوه من حوله.

- للمحاصصين صندوق توفير.. إن باستطاعة أحمد أن يستفيد منه لو كان عاملاً محاصصاً... إن للمحاصصين إجازات بأجرة.. الإجازة المأجورة شيء جميل.. إذا توفرت الإجازة وتوفر المال استطاع أحمد أن يعتني بأبيه أكثر.

وخطا أحمد فوق جسر جديد:

- في السجن.. أنت تذكر يا محمود في السجن..لقد قبضت علينا السلطة بسبب التفجير.. كانت السلطة في صفهم وقتذاك.. قبضت علينا وتركتهم أحراراً مع أنهم هم الذين بادرونا بإطلاق الرصاص...

وقال مشدوه العينين وهو ما زال ينظر في وجوه عمال المياومة اليائسة. في عيونهم المتألقة:

- ولكن أباه سيموت لأن «أحمد» ليس عاملاً محاصصاً ولأنه لا يستطيع أن يأخذ شيئاً من صندوق التوفير وليس لديه إجازة بأجرة بينما سيد...

وتوقف الطويل كأنما تذكر شيئاً ثم تابع:

- ولكن «سيد» لم يعد يحس بحاجة إلى الآخرين. لقد نسي أنه كان عامل مياومة.

وبدا الاهتمام في عيون عمال المياومة. وحل الملفعون منهم كوفياتهم كي يسمعوا على نحو أفضل. والتفت الطويل:

- سيد.. هل حقاً أنك اشتريت براداً وغسالة؟.. طبعاً إن الدار الجميلة، تحيط بها حديقة يلزمها براد «هوفر» طوبى لزوجتك إنها لن تشعر بعد بألم الغسيل.. وسترق يداها وتنعمان..

في حين كان أحمد يتابع في الناحية الأخرى:

- هناك ضربوك.. عذبوك. كان باستطاعتك أن تدلهم على الفاعل.. لماذا لم تفعل.. لماذا آثرتني بآخر سيجارة كنا نملكها؟.. ما الذي حدث لك؟.. ما الذي حدث لكم جميعاً؟ أنا أخوكم.

وردّ يوسف:

- ولكننا أقسمنا يا أحمد.. كنت في الخدمة في ذلك الحين.. ليس فقط من أجلك، وإنما من أجل الآخرين أيضاً.. الكل. كان ينبغي أن نفعل ذلك.. لقد بدأت الفرقة بثلاثين.. ثم أمست أربعين.. كان من الممكن أن تصبح مئة.. مئتين.. أنت تدرك ذلك.

وواصل الطويل قائلاً وقد بدأ يتقدم نحو سيد ممدود اليدين:

- ستصبحان لطيفتين.. وستزول الشقوق القديمة منهما.. وستعرف مدى الفائدة التي يجنيها المرء من غسالة كهربائية عندما تطوقك يداها هكذا.

وانقض عليه محاولاً أن يلف يديه حول عنقه.. ولكن الملاكين الحارسين حالاً دون الوصول إليه. أما أحمد فسرعان ما صاح به قائلاً حين أدرك قصده:

- بل دعه لي.

وهجم بدوره. فحدثت معركة لم يفز فيها المغيران بغير الجراح. ثم حملهما المحاصصون على سيارة نقل صغيرة قذفتهما خارج الميناء.

ونفضا ثيابهما وسارا صامتين فترة من الوقت، ثم أشعل أحمد لفافة، فتشجع الطويل وقال بعد تردد:

- أحمد.. لماذا تنزل إلى الميناء؟.. دعنا نعمل شيئاً آخر.. في البناء مثلاً..

وعبّ أحمد نفساً عميقاً من الدخان نفثه بقوة في الهواء.

- كلا لن أفعل.. يبدو لي أنه ينبغي أن نعمل شيئاً من أجل الآخرين.. يا إلهي كم كانوا بائسين وجبناء عمال المياومة.. وأخذ نفساً ثانياً:

- لسوف أواصل نطح الجدار الذي أقاموه.. لن أعمل في البناء أو أي شيء آخر. عندما يبدأ المرء.. عندما يبدأ الاعتراف بالهزيمة فذلك يعني شيئاً واحداً.. أنه قد انتهى.. إنّ أحد اثنين ينبغي أن يتحطم: رأسي أو ذلك الجدار.

* * *

# السلطان العجوز

سأكون صادقاً ما استطعت في وصفه، وكشف بعض الأسرار، كما تراءت لي، عنه. وأقول بعض لأنه ليس هناك، حسب تقديري الشخصي، إنسان ما يستطيع الإحاطة بكل ما يلزم من الشواهد والمعلومات والأوصاف لوصفه في مكانه الصحيح.

ولن أكون أقل صدقاً إذا قلت أنني أحببته في البداية. ومن المؤكد أنني سأكون أنانياً بما فيه الكفاية إذا زعمت أنني كنت الوحيد في هذا الحب. لقد عرفت فيما بعد أن كثيرين قد انجرفوا في هواه.

كانت معرفتي به من قبيل المصادفة. وطبعاً من الخطأ الاعتقاد هنا أنني أستعمل كلمة المصادفة بمعناها الحرفي. فالواقع أنني لو لم ألتق به في تلك اللحظة كان لابد أن أصادفه في مناسبة أو أخرى. ما دام أنه قد حلَّ في المدينة. وثمة ملاحظة يتعين عليّ أن أثبتها في هذا المجال، ربما تكون جديرة بالاهتمام. وهي أن كل الظروف المحيطة كانت مهيئة لظهوره. وأسارع إلى القول – دفعاً لأي شك – إنني لا أنوي أن أتنصل من مسؤوليتي باعتباري أصبحت، فيما بعد، أحد رعاياه الذين عملوا على توفير أسباب الحياة له، وانبروا للدفاع عنه. وأحسب أن مسؤوليتي في هذه الناحية خطيرة جداً. فما دمت قد مكّنت له من البقاء فيتعين علي إذن أن أعمل للقضاء عليه. هذا الكائن. هذا الجسم الغريب الذي استطاع أن يخدعنا طيلة إقامته بين ظهرانينا.

كنت واقفاً أتأمل مياه النهر في مدخل المدينة الغربي عندما رأيته لأول مرة. لقد اقترب مني وطلب سيجارة. إن من عادة الغرباء أن يبادروا هم إلى تقديم السجاير لأهل مدينة عندما يريدون أن يتوددوا إليهم. ولكن هذا الرجل

خرق العادة. كانت طريقته في التودد غريبة حقاً. ومن الإنصاف أن أقول أن ذلك التصرف لم يكن الشيء الوحيد الغريب فيه. في الواقع كان سلسلة طويلة ومعقدة من الغرائب. لا سيما أني لاحظت بعد دقائق أن علبته كانت عامرة بالسجاير. مرة أخرى أذكر أنني لا أريد أن أتنصل من المسؤولية.

على كل حال فقد سألته في اللحظة التالية عن اسمه. فقال إنه لا يعرف أنّ له اسماً ولكنه أبدى رغبته أن أدعوه «السلطان». فضحكت في عبي ونظرت إلى ثيابه الرثة وقلت: «اسم على مسمى». ثم سألته عن البلد الذي أقبل منه. فأجابني بأنه لا يعرف أي بلد وأنه ولد في طريقه إلى هذه المدينة.

طبعاً اكتشفت فيما بعد أنه كاذب في هذه الناحية أيضاً، وأنه قد عرف بلداناً كثيرة.

سألته:

- ما هذا الذي تحمله على ظهرك؟

قال:

- صندوق الدنيا.

- يا له من صندوق عجيب.

قلت: لم يكن يشبه أي صندوق رأيته في حياتي. واقترح أن يعرض صور صندوقه أمامي فوافقت قائلاً:

- لا بأس إذا كان ذلك لا يعطلك.

فدمدم:

- إنما لهذا أنا جئت إلى المدينة.

وقام بجميع الطقوس التي يقوم بها حملة صناديق الدنيا عادة. فنشر أعلامه العجيبة، الزاهية الألوان. ونفخ في بوقه. وخطب وألقى أشعاراً ببيان رائع، والتمعت عيناه، وتهدج صوته وهو يعرض صور الظلم والقبح اللذين يشوهان جمال الحياة الإنسانية.

وما كاد هذا اللقاء ينتهي حتى كان الإعجاب قد تملكني لدرجة رأيت فيها نفسي في اللقاء الثاني أحمل بوقه وأنفخ فيه سائراً وراءه في أنحاء المدينة ندعو الناس إلى التفرج على صندوق الدنيا.

كانت تلك الأيام صعبة بالنسبة إلينا نحن الاثنين. وغالباً كنا لا نجد ما نأكله – نسيت أن أقول أنني تركت أهلي وعملي بعد أن صرت بواقاً – وأغلب الناس الذين كانوا يتفرجون على صندوقنا لا يملكون سوى أقواتهم. وفوق ذلك لم يكونوا على استعداد لتقديم أي جزء من تلك الأقوات من أجل صور ووعود قد تكون جميلة حقاً ولكنها خيالية.

أما الأشخاص الذين يرتعون في بحبوحة أكبر فقد كانوا يطردوننا عن أبواب بيوتهم ويلاحقوننا في الساحات العامة والحدائق حتى بلغ بهم السخط أن أخذوا يطالبون بشنقنا بدعوى أننا نفسد الناشئة ونهدد المدينة بشر كبير.

ولكن بالرغم من أننا كنا في تلك الأيام، وحيدين تجاه المدينة فقد ظل كل منا يعيش منفرداً. وحين اقترحت عليه أن نعيش معاً. قال إن شخيره يحدث من الضوضاء حتى ليتعذر عليّ أن أسكن بجانبه. ولقد اهتدينا إلى اصطناع لعبة في الأوقات التي كان يتهيأ لنا فيها الاجتماع سوياً. إذ اتخذنا من الخشب ومن نوع من الأحجار السمراء عدداً من الأشكال الإنسانية. كنا نتخيل أنها مخلوقات بشرية حية ونشرع من ثم في محادثتها – أنا على الأقل استمررت في محادثتها – ذلك أنه قال لي مرة ساخراً: «إن الدمية تظل دمية ولا يمكن أن تبعث فيها الحياة». كانت لعبة ساذجة حقاً، لكنها على أية حال كانت تؤنسني في وحدتي وتدغدغ أحلامي. كنت أقول لها مثلاً: أيتها الدمى! كوني بشراً مرة واحدة على الأقل. تحركي معي ففي حركتك الحياة. زمجري في وجه الآلهة. أسقطي مطرك برعودك، اعصري نبيذك بيديك. أنبتي زهورك. انهضي على أقدامك. اجني سنابلك. اجذبي الربيع إليك».

كان صديقي يصفق ضاحكاً عقب كل خطاب. وكانت جميع أعضائه تشترك معه في الضحك وهو يقول: «أقوالك نفيسة. ولكن أنفس ما فيها النبيذ. إن خطبتك رائعة بلا شك. ولكنك ما دمت قد تكلمت عن الربيع فيجب أن

تختتم خطابك البليغ بالفرح. إن معظم الشعراء في هذه الأيام يفعلون ذلك». ثم ينتهي كلامه قائلاً: «آه على بعض قطرات من النبيذ».

ورأيت نفسي أقول له مرة: «ولكن الفرح فارس أو على الأقل يأتي خلف فارس. إن الفرح له خوذته وسيفه».

ومن عجب أن الحياة دبت في الدمى ذات مرة وقامت بيننا صداقة متينة. وسرعان ما تعلمت الدمى النفخ في الأبواق وأجادته. وعندئذ أعفيت أنا من مهمتي كنافخ في البوق، وأوكلت إليّ قيادة الجوقة. ولكن سلطات المدينة ما لبثت أن اعتقلتنا وأودعتنا السجن. وهناك في السجن عرفت أشياء عن صديقي ظلت محل استغرابي لزمن طويل.

من المألوف في زماننا أن الرجل كان له خمس عيون. اثنتان تنظران إلى الشرق والغرب. وأخريان إلى الشمال والجنوب. أما الخامسة فدوارة لتغطية جميع الاتجاهات الفرعية. وله أيضاً ثلاثة أفواه. واحد للطعام، وواحد للصمت، وآخر للكلام. وغني عن القول أنّ له بالإضافة إلى ذلك عدداً من الأطراف والزوائد. كأن يكون له رجلان من الأمام، ومثلهما من الخلف. ورجل خامسة لها في الحقيقة أكثر من عمل. ففي حالات التعب مثلاً يمكن أن يستند إليها المرء كرجل ثانوية. وفي أوقات أخرى هي بمثابة ذيل لتغطية الأعضاء التناسلية وعدة إخراج الفضلات. ووظيفة فرعية تعتبر من ملحقات عمل الذيل. مثل كش الذباب وتهوية المؤخرة.

ولكن صديقي كان غير ذلك تماماً. بل ماذا أقول. كان شيئاً خارقاً للعادة. كنت في تلك الليلة أرقاً. ولكني أغمضت عيني استدراجاً للنوم. وفي اللحظة التي بدأ النعاس فيها يدب إلى أوصالي شعرت بحركة غريبة. ففكرت أن صديقي أرق بدوره، وأنه يتململ ضجراً.

غير أن تلك الحركة استمرت بعد ذلك مدة أطول مما تستغرقه حركة تململ أخرى. وأدركت أنها عمل، أو لعلها بداية الشروع في عمل. فباعدت بين أجفاني قليلاً. ولكن ماذا رأيت؟!

كان صديقي منهمكاً في عمل غريب. كان يتحرر من مشدات أشبه بأقمطة الأطفال وقد تطاول وكبر. وكان يزداد في الضخامة مع تزايد عدد الأقمطة المنزوعة. وهالني ما رأيت.

إنه يملك عدداً لا حصر له من الأيدي والأرجل والعيون والوجوه والأفواه ومع ذلك فقد كانت هذه الأعضاء تعمل باتساق عجيب في وقت واحد. فالأرجل تحل الأربطة عن الأيدي وبقية الجسم. والعيون تنظر في كل اتجاه. بينما راحت الأيدي تتحسس نفسها كما تتحسس بقية الجسد. في حين أخذت الأفواه تعمل منفردة ومجتمعة. بعضها يأكل. بعضها يغني. وآخر يتكلم وغيره يهيء الكلمات ويدْفعها إلى الفم الرئيسي ورابع صامت أو مفكر.

باختصار كان أشبه بخلية نحل. أو بجهاز غامض يقوم بأعمال غامضة.

وما كاد ينتهي من نزع الأربطة حتى بلغ من الضخامة مبلغاً رهيباً. وأرسل صوتاً يشبه صفير الأفاعي. ولكنه قطعاً أجمل بما لا يقاس. وأقدر على إثارة الذعر. كان واضحاً أنه يتنفس أنسام الحرية بعد ذلك الاختناق الذي سببته الأقمطة.

وطقطقت أعضاؤه وهو يتثاءب. ومدّ ألسنته يلعق جلده. ثم ما لبث أن نال منه التعب فراح في سبات عميق. وفكرت :«يا له من كائن مسكين. إنه يخجل أن يظهر أمام الناس بهذه الهيئة المشوهة، فأخذ يخفي تشويهه وزوائده بأقمطة».

وازدادت شفقتي عليه بعد ذلك. فقد اكتشفت وأنا أطوف حوله (لم أستطع أن أتغلب على فضولي) إن كل عيونه كانت مطفأة، والأصح القول أنها كانت مفقودة لأنه قيل فيما بعد أن هذه العيون قد فقئت حقاً في البلاد التي طرد منها، وأنها أشبه بفوهات البراكين الخامدة. وأنه لم يتبق لديه سوى عين مضيئة. ولكنه بلغ من البراعة حداً استطاع معه أن يوهم بأن عيونه الأخرى سليمة. إني أشعر بالندم الآن لأني لم أحاول القضاء عليه في تلك اللحظات كأن ألقي بكومة الأقمطة في فمه الفاغر. أن أفقأ عينه السليمة. والواقع أنني

لو فعلت ذلك لكان حظي من النجاح ضئيلاً. إذ أنّ له قدرة خارقة على الهضم. أما فيما يتعلق بفقىء العين فالحقيقة أنني كنت أحتاج إلى عدد من الأشخاص يسدون في ذات الوقت عيونه الأخرى الخامدة. حيث أن العين السليمة لها خاصة عجيبة. وهي أنها تستطيع أن تتبت في إحدى العيون الميتة. وكأنها روح تستطيع أن تتقمص فتظهر بشكل أو بآخر. وفوق ذلك فإن تدمير هذه العين يحتاج إلى أداة صلبة.

على كل حال فقد تأكدت فيما بعد أن هذا الكائن الخارق له أكثر من نقطة ضعف، ولكن القضاء عليه لا يتم إلا بتعاون جميع أهل المدينة.

وفي اليوم التالي كانت الدمى البواقة قد استشاطت غضباً ودمرت سجونها واتجهت نحو المدينة فاجتاحت الشوارع وحطمت الحصون والقلاع. وقضت على السجانين الذين ادعوا أننا أثرنا الصخب بموسيقانا، وخلقنا الفوضى والاضطراب بصور صندوق الدنيا. ثم انعطفت نحو سجننا، حيث كنت أنا وصديقي في سجن خاص بحجة أننا أكثر الآخرين خطورة.

وتدافع الهدير يصل إلى أسماعنا. كان هذا الهدير يزداد وضوحاً بازدياد اقتراب الغاضبين من باب سجننا وهم يرددون: «يحيا السلطان. يحيا السلطان».

كان صديقي في تلك اللحظة، مستلقياً على ظهره، متخذاً من ذراعيه المتصالبتين وسادة. وكان يبدو عليه الهدوء والتأمل حتى خيل إلي أن تلك الأصوات لا تصل إليه. كان لابساً رداءه الأحمر. ذلك الرداء الذي رأيته عليه يوم التقيت به في مدخل المدينة الغربي لأول مرة. وكان ثمة حبل يشد به خصره اتخذه من ألياف بعض الأشجار. ولاح رائعاً في هدوئه وتأمله. بل لقد بدا على قدر لا بأس به من الوسامة. حتى فكرت أن ما رأيته ليلة البارحة لم يكن سوى كابوس أو أضغاث أحلام.

ولكن ذلك الكابوس ما لبث أن تكرر حتى أصبح حقيقة أكثر من وتد الرحى. فبعد أن ازدادت شعبية صديقي، عقب تحطيم السجون وخروجه منتصراً، وازداد الإقبال على صندوقه العجيب، لم يعد يأبه كثيراً أن تظهر

زوائده: أرجله، وجوهه، ألسنته، وأيديه العديدة. حتى لقد أخذ الأطفال يربطون آباءهم وأمهاتهم بقوائم الأسرة. كانوا يخشون أن ينهضوا في الأصباح فلا يجدونهم إلى جانبهم. إن طول أيدي السلطان ومداعباته الغريبة سببت الأذى لبعض الأطفال فحرمتهم من آبائهم أو من أمهاتهم في ظروف لا تزال غامضة.

والحقيقة أن السلطان حين كانت الخمرة تلعب برأسه – وهذه هي أيضاً إحدى زوائده التي لم تكن في الحسبان ولا تليق بسلطان مثله – كان يقوم بحركات غاية في العجب.

ففي ذات يوم كان قد شرب قدراً كبيراً من النبيذ. كنت في تلك الأيام لا أزال مرافقه –حين صفق بيديه يصرف الجواري والمشعوذين. وقال:

- إني سئمت هذه التسليات. هيا إلى الشارع كي أريك شيئاً.

وفي الطريق العام طلب من المارة أعمالاً جعلتني أشك في سلامة عقله في البداية. ثم لم ألبث أن وقفت على حقيقة أمره. أو هكذا تراءى لي.

فقد كان من عادة حملة صناديق الدنيا الذين عرفتهم المدينة أن يفرغوا جيوب الناس. أو يكتفون باقتطاع أجزاء كبيرة منها لقاء التفرج على صناديقهم. أما هذا الأخير فبعد أن أفرغ جيوب الناس قال لهم: علي بالبصل والثوم والقمح والزبيب والتين والنبيذ والعدس. علي بالعسل وبقية البقول لقاء التفرج على صندوقي العجيب. لقد سقط الناس مرة أخرى في شراك مهرجيّ صناديق الدنيا. والحق أن السلطان كان من البراعة بمكان. فبعد أن سلب الناس ما في جيوبهم وأفرغ غلالهم ومؤونة بيوتهم في خزائنه، مضى ينصب لهم الأحابيل حتى استولى على كروم العنب وحواكير التين والزيتون والتلال والسهول الزراعية. ثم ها هو الآن بعد أن أفقر الجميع يطلب إليهم أشياء غاية في الغرابة.

فقد أمر السلطان بأن تجتمع النساء في ساحة الرقص الكبيرة. وهناك قص شعرهن على طريقة الرجال. ثم صرف النساء وأتى بعد ذلك بالرجال فأطال شعرهم على طريقة النساء. قلت دهشاً:

- ولكن ذلك لا يليق. إن الرجال يظلون رجالاً ولا يمكن تبديل عمل الطبيعة.

فرد ساخراً:

- أحقاً؟

ثم أضاف:

- ولعله يمكن أن يقال على نفس المبدأ: أن الدمى تظل دمى ولا يمكن أن تبعث فيها الحياة.

ومنذ تلك اللحظة انفصلت عنه. كان سلطاناً شقياً يتلاعب بنواميس الطبيعة ويحط من قدر الإنسان وقررت العيش في مكان لا تطالني فيه عينه الوحيدة. فقد لاحظت من خلال رفقتي الطويلة له أن عينه ثابتة كعيون الأفاعي، ولا تدور مثل عيوننا. وانزويت بعيداً عن الأنظار. كنت خجلاً من الناس. إنه لمن الصعوبة بمكان أن يبدل المرء كل يوم بوقاً ببوق. وتذكرت يوم جاءنا السلطان بقميصه القرمزي اليتيم وصندوقه على ظهره. فيا للجحود.

وبانفصالي عنه ازداد عزلة وازداد طيشاً. وأمسى من النادر أن يلقاه المرء صاحياً. واندفع يتفنن في إيذاء الناس. وكثرت الاجتماعات في ساحة الرقص الكبيرة. فمرة لتقلع النساء شوارب الرجال. وأخرى لتمتطي ظهورهم حتى بات من الأمور المألوفة أن ترى سيدة تسير في الطريق وبيدها سلسلة معدنية تنتهي برقبة رجل.

وفكرت: «لماذا يفعل ذلك؟ لماذا؟ لقد أعطاه الناس ما لم يعط لأي من حملة صناديق الدنيا. ومع ذلك فقد احتكر كل شيء لنفسه. كان الآخرون يتركون للناس في أواخر القطاف بعض العناقيد أما هذا فقد أتى على البواكير والعناقيد الرجعية معاً. فيا للتعاسة».

كان جدي يقول: «البذرة الغريبة عن أرضك تعطيك ثمراً حامضاً». والواقع أن المدينة رأت من قبل كثيراً من المهابيل والطغاة والسكيرين واللصوص والماجنين والمغرورين. ولكن يبدو أن هذا السلطان قد فاق

الآخرين جميعاً وفكرت: «كيف يمكن التخلص من كل ذلك؟». لقد بات من المحتم وضع حد لشذوذه وأذاه. ومما زاد الطين بلة اندفاعه في الأيام الأخيرة في مقايضة بعض كروم العنب بدنان من النبيذ المعتقة، قيل أنها ترجع في قدمها لأيام لوط، لبعض تجار الخمور العابرين. لقد كثر اللغط حول هذه المسألة. وطبعاً ليس كل ما يقوله الغوغائيون في حق السلاطين صحيحاً. إذ أنه ينبغي التمييز دوماً بين عدد كبير من فئات البشر. فهناك الحاقدون والمأجورون والنافخون في الأبواق، والتافهون والمنتفعون من العهود البائدة والشرفاء وأصحاب المروءات وغير ذلك من أصناف الناس. ولا شك أن الوقوف على كل ما يقوله كل من هؤلاء ليس بالأمر السهل. وأحسب أن شد الرجال إلى سلاسل معدنية كالكلاب تجرها سيدات مهذبات ليس بالوسيلة العملية لقطع دابر الشائعات. إذ أنه من الممكن أن يقول الرجل ما يريد قوله بالرغم من السلسلة المعلقة في رقبته فتتلاقح كلمات الكلاب كما يتلاقح غبار الطلع في الهواء. فما بالك إذا صادف سير سيدتين أو أكثر على نفس الرصيف؟ إن الكلاب في هذه الحالة تتبادل في غفلة عن السيدات مختلف الآراء حول الأوضاع التي انتهت إليها المدينة. لهذا لم يكن من المستبعد أن يصدر السلطان أمراً يحظر فيه اجتماع أكثر من كلب.

ولم يلبث أن تفتق ذهن السلطان عن حيلة بارعة أضافها إلى السلسلة المعدنية فوضع كلمات حول أفواه الكلاب. وهكذا اكتملت طقوس عدة الكلاب التي لا يؤمن جانبها.

لكن بالرغم من ذلك فقد جربت الكلاب أن تتفاهم بواسطة أذيالها. إن أذيال الكلاب هي الشيء الوحيد الذي لا يستطيع السلاطين شيئاً حيال حركتها.

وذات يوم أخذت الأذيال تتحرك بسرعة. عجباً ما الذي تقوله هذه الأذيال؟ إن الأذيال أدوات تفاهم غير متطورة. ولكن يبدو أنه في مقدور المرء، بقدر قليل من ربط الأمور، أن يخلص إلى القول أنها كانت تتحدث عن شيء خطير حدث للسلطان. لعله كان يحتضر.

والواقع لم يلبث أن شاع خبر احتضار السلطان في أنحاء المدينة. وتدافع الناس إلى ساحة الرقص الكبيرة. كان السلطان مكوماً هناك جليلاً مهيباً مجرداً من الأقماط واللفائف التي كانت تخفي زوائده وتشويهه. لقد أمست اللعبة مكشوفة حقاً في الأيام الأخيرة بين الكلاب والذئب.

كان الأولاد قد اتخذوا منه أداة للهوهم وعبثهم. بعضهم تسلق أرجله. وبعضهم أخذ يلعب الغميضة في دهاليزه. وآخرون قد نزلوا في فوهات عيونه وغابوا فيها. وخيل إلي للحظة، وأنا أنظر إليه، أنه رشقني بنظره خاطفة. فاقتربت منه لأتأكد من إحساساتي البصرية. ودغدغت ناحية معينة من جسمه، فعاد اللمع ثانية إلى عينه الوحيدة.

وفكرت أنه ينبغي العمل بسرعة. لقد أدركت أن السلطان لم يكن يحتضر كما أشيع. لكنه كان غائباً عن الوعي فقط. إنه شرب قدراً كبيراً من الخمر في الليلة الفائتة. إن ذلك يعني أنه باع كروماً أخرى. وقلت: «ينبغي اغتنام هذه الفرصة قبل أن يفيق من سكرته فيهرب كل الأرض».

وطلع طفل من أحد عيونه الميتة وقال فرحاً: - انظروا ماذا وجدت!

- رفع يديه فتناثرت أوراق مكتوبة بلغات غريبة. وظهر طفل ثان يحمل ملء يديه أقنعة. وحشا آخر جيوبه بحلقات ذهبية أشبه بخواتم الخطوبة عليها كلمات لعلها أسماء خطيباته مثل: ريكا، يونا، تانيا، مايينا.

وأوقف مكاري هرم بغاله وقال:

- آه.! هل وصل إلى بلادكم أيضاً؟ ألم يقض بعد؟

ثم طلب جرعة ماء. وتجمهر الناس حول المكاري الذي بدا أنه يعرف شيئاً عن هذا السلطان الشاذ.

والحق كان السلطان المستلقي وسط الساحة والناس من حوله أشبه بالجسم الغريب الذي دخل بدناً، فأحاط به جنود هذا البدن.

وقال المكاري مستنكراً بعد أن أخذ جرعة الماء:

- عجباً ما الذي حدث لمائكم. كان ماؤكم طيباً ذات يوم. لقد مررت من هنا منذ بضع عشرات من السنين.. إيه. نعم.. كان ماء طيباً حقاً.

فهز أحد الحاضرين ذيله. وقال المكاري مشفقاً:

- وكانت ألسنتكم أكثر طلاقة وطلاوة.

وربت آخر بذيله على ظهر المكاري مشجعاً:

- وكانت سواعدكم أكثر رقة في الملاطفة. ولكنها أشد مضاء عندما تصمم. إيه فما الذي حدث لكم؟

ونظر صوب السلطان.

- ربما كان هذا سبب دماركم. إن التخريب يشيع حيث يكون، وإن له وجوهاً عدة. لقد رأيت الشعوب تطارده من مكان إلى مكان. وآخر مرة التقيت به لم يكن قد بقي له سوى عين واحدة يعمل بها. إن سره في عينه. إن عينه هي قلبه. فافقؤوها قبل أن تشتعل عيونه الأخرى المطفأة فيفلت من قبضتكم.

وبصق طفل في عين من عيونه:

- لقد سرقت آباءنا مع أننا ربطناهم بقوائم الأسرة.

وقال طفل آخر:

- أنوفنا زكمتها الرائحة. فأين ذهبت بأمهاتنا أيها الداعر؟

ثم لكزه في جنبه فمار خيط من الحياة في عينه. لعله بدأ يستفيق. وفكرت أن أقول: «أيها الناس. كونوا دمى يوماً واحداً على الأقل. تحركوا. ففي حركتكم الحياة اصنعوا أمطاركم بأيديكم الحقيقية. زمجروا في وجه السلطان. اعصروا نبيذكم بسواعدكم. أنبتوا زهوركم. اجنوا سنابلكم.. اجذبوا الربيع إليكم. إن الفرح الحقيقي فارس له خوذته وسيفه».

ولكن لساني دار في الفراغ. كنت عاجزاً عن النطق. كان حول فمي كمامة مثل الآخرين. وتحسست مؤخرتي. وكان لي مثلهم ذيل أيضاً.

* * *

# النـوم

أخيراً وقع الشيء الذي كان عواد أبو السعود يخشى وقوعه دائماً. لقد ترك العمل. قدم استقالته وترك العمل. فعل ذلك لأنه لم يكن أمامه من سبيل آخر. قال: سوف أمضي إلى بلد لا يقف فيه الناس طويلاً أمام الأفران. ولا يريقون ماء وجوههم من أجل الحصول على الخبز. ولا تحصل مشادات. وقال أيضاً وهو يلملم أشياءه، قلمه ومنفضة سجائره من فوق طاولته: «ولا بد أن يوجد مثل هذا البلد في مكان ما». واتجه إلى سلم الخروج وقلبه لا يزال يغلي بالغضب حتى أنه لم يحاول أن يمسك لسانه عندما انطلق يقول: وظيفة ملعونة وحياة لم تعد تطاق. لأمت جوعاً لكني لن أعود إلى العبودية.

وبدأ يهبط الدرج مسرعاً. شيء لا يصدق. هو نفسه يكاد لا يصدق أن يترك العمل بعد خدمة ثلاثين عاماً إثر مشادة جرت بينه وبين رئيسه لتأخره عن الدوام من أجل الخبز.

ولكن الخبز ليس هو كل شيء. فكر عواد. وليس بالخبز وحده يحيا الإنسان. وإن كان هو مفتاح الحروب والسلام. وهو عواد. هو أيضاً بدأ حربه المعلنة من أجل الخبز.

وقال بصوت عال: سوف أعلنها صرخة مدوية من أجل الخبز. واشتعل قلبه بالحماسة وازدحمت في رأسه الصور. وفجأة وبلا أية مقدمات رأى نفسه يقف على رأس مظاهرة أمام السراي يقدم للمسئولين مطالب الشعب. وأضاف بعد أن قدم ورقة المطالب. أضاف قائلاً: «باسم الشعب أطالب الحكومة أن تكف عن لعبة القط والفأر، وتضع حداً للجشع. وتلقي القبض على اللصوص ومصاصي دماء الشعب الحقيقيين».

وعلت من كل مكان الهتافات وصرخات الاستحسان. وحين خفتت الأصوات وهدأت همهمة الناس تذكّر الأرض والاحتلال واستغرب كيف لم يذكرهما على رأس قائمة المطالب. وهيأ نفسه ليعكس رأي الشعب بهما حتى أنه حشد في ذهنه الكلمات النارية والعبارات المنتقاة التي سيقولها بهذا المعنى. لكنه رأى من المستحسن أن يذكي حماسة الجماهير التي فترت قليلاً بأغنية وطنية قبل أن يلقي قنبلته. وبدأ الغناء:

والله زمان يا سلاحي.

لم يسمع إلا صدى صوته. ولم يردد معه الآخرون الغناء. التفت حواليه فلم يجد أحداً. تذكر أنه لا يزال يهبط السلم. لكنه كان واثقاً أن الجماهير تنتظره في الخارج.

عندما صار في الشارع لم يجد أحداً كما كان يتوقع. أصيب بالخيبة في بادئ الأمر. لكنه لم ييأس. قال: «غير معقول. لا شك أن الجماهير تنتظر في مكان ما».

كان الشارع نظيفاً جداً، مقفراً إلا من بعض المارة بالرغم من أن المخازن والحوانيت لم تكن مقفلة. وكانت إمارات الحياة باهتة، شاحبة حزنة. فالشمس مقلة صفراء باردة معلقة في كبد السماء. وريح واهنة تولول في الطريق، مع أن اليوم من أيام الصيف. وحتى الأشخاص القلائل الذين كانوا يعبرون الطريق كانوا يمرون بسرعة لا مبالين.

استوقف عواد عابراً. وحاول أن يستدرجه إلى الكلام. لم يبد على الرجل أنه فهم شيئاً من كلام عواد. جرب أن يخاطبه بالإشارات. لكن العابر هز رأسه بالنفي ثم انطلق في سبيله.

قطع عواد مسافة أخرى. استمهل مارا ترافقه صبية. أبدى الرجل استعداداً لسماع عواد بعد أن ألحت الصبية على رفيقها بالإصغاء إليه. فشرح له أنه موظف وأنه ترك وظيفته لصعوبة الحصول على الخبز. رد عليه الرجل بالإشارات أنه لا يعتبر أن الوقوف على أبواب الأفران مشكلة. وإذا كانت هناك مشكلة حقاً فهو لا يحس بها، لأنه لا يأكل الخبز أصلاً . وحين

سأله عواد: وماذا تأكل إذن؟ ابتسم الرجل ابتسامة ساخرة. أما الفتاة فنظرت إليه وانطلقت في ضحكة مجلجلة. ضحكتها ذكرته بماري أنطوانيت ولويس السادس عشر.

أحس عواد بالحزن بعد انصراف العابرين. لكنه علل نفسه قائلاً: لم أثق بهذا الشارع يوماً. فأصحابه نظيفون جداً وغامضون جداً. ثيابهم أنيقة. كلماتهم أنيقة. وأنفاسهم أنيقة. يتكلمون لغة غير لغتي فكيف يفهمون مشكلتي مع رئيسي ومع الخبز؟.

وقال عواد وهو ينظر إلى الشارع المتأنق. واجهاته البلورية. معروضاته وأزيائه الملونة: «ليس أصحابه من جماهيري. ولم يكونوا معي في المظاهرة أمام السراي قطعاً». ثم ترك الشارع البلوري الملون وانحرف في طريق جانبية إلى اليمين لم تلبث أن قادته إلى حي شعبي. قال: «لعلي واجد هنا جماهيري التي هتفت لي أمام السراي».

مر بحانوت في صدره رجل جلس خلف ميزان إحدى كفتيه أعلى من الأخرى. كان الرجل ينظر من مكانه ذاك إلى شيء ما على الجدار المقابل. سأل عواد الرجل الذي كان لا يزال ينظر إلى ذلك الشيء على الجدار:

- هل مرت من هنا مظاهرة من أجل مشكلة الخبز؟

لم يلتفت إليه الرجل. فكر عواد أن الحانوتي لم يسمعه فأعاد سؤاله:

- هل مرت من هنا مظاهرة من أجل مشكلة خبز؟

بذل الرجل جهداً كي ينتزع نفسه من الشيء الذي كان ينظر إليه على الجدار.

نظر إليه الرجل نظرة متأنية، هادئة غائمة. ثم حوّل نظره واستغرق في تأمل ذلك الشيء الذي كان على الجدار.

التفت عواد إلى حيث كان ينظر الرجل. رأى صورة. كانت الصورة تمثل عنترة وقد ضرب بسيفه فارساً ففلق رأسه نصفين.

تطلع عواد إلى الرجل الذي كان يجلس خلف ميزانه فرآه ينظر إلى الصورة ويهز رأسه. يهز رأسه ويبتسم ابتسامة عريضة.

قال عواد بعد أن ترك الحانوت:

- ماذا كان يرى الرجل في الصورة حتى سلبت لبه؟

وشكَّ عواد بسلامة عقل الرجل. وفكر أنه ربما كان واحداً من مجانين عنترة المعجبين. استأنف عواد سيره. ومن حين لحين كان يمر به أناس بسطاء، في أيديهم أو متأبطين أشياء حملوها معهم من السوق. وجوههم صامتة حزينة، عيونهم فيها استسلام ونظراتهم منكسرة. كانوا يعبرون الطريق بخطوات واسعة مستعجلة وكأنهم يودون أن يخلوا الطريق بأقصى ما يستطيعون من سرعة. قال في نفسه: «هؤلاء هم جماهيري ولا شك أنهم ماضون إلى مكان ما من البلد. ومن هناك سوف ينطلق الجميع إلى السراي». شيء واحد راح يشغله ويثير قلقه في هيئتهم. هبوط الروح المعنوية التي رآهم فيها. غير أنه لم يلبث أن قال: «بسيطة. سوف أوقظهم. إذ ليس من الصعب رفع الروح المعنوية لأشخاص احتشدوا أمام السراي».

عبره رجل يتأبط شيئاً ومن خلفه يدرج طفل. قال له عواد:

- ماذا تحمل تحت إبطك؟

قال له:

- خبز.

قال عواد في نفسه: «هذا واحد من جمهوري» وسأله:

- ألن تذهب إلى السراي؟

سأل الرجل بريبة:

- لماذا؟

قال عواد:

- لتحرير رغيف الخبز من تسلط أصحاب الأفران.

قال الرجل:

- لا وقت لدي لأفعل ذلك. فنصف نهاري أقضيه في الجري وراء العمل ونصفه الآخر في تدبير أمور العيش لأسرتي.

ثم تركه الرجل ومضى في سبيله. وكان لايني يلتفت خلفه لينظر إلى عواد بريبة وخوف.

قال عواد في نفسه وقد تابع سيره: «هاأنذا قد خسرت واحداً من جمهوري كان ينبغي أن يضم صوته إلى صوتي أمام السراي. ولكن لا بأس فلا يزال هنا الكثيرون ممن يمكن الاعتماد عليهم».

وصل إلى ساحة في جانب منها خروف يجتر طعامه بصمت. وعلى مقربة وقف حمار وقد أحنى رأسه وأغمض عينيه. وفي صدر الساحة كان مقهى صغير انتثر رواده في فسحة أمامه يقرقرون بالنراجيل، أو يدخنون اللفائف ويحتسون القهوة والشاي بتراخ وكسل وعيون وسنانة.

قال عواد في نفسه: «هؤلاء هم جماهيري. فأحوالهم مشابهة لأحوالي وبؤسهم مشابه لبؤسي، وما علي سوى أن أوقظهم من سباتهم».

ومن مكان ما من المقهى راح مذيع يتحدث عن الاضطرابات في لبنان. وأبدى الخشية من تطور الأحداث هناك إلى حرب أهلية. وذكر أن البيانات الأولية تظهر أن مئة وخمسين قتيلاً قد سقطوا حتى الآن عدا مئات الجرحى.

قال عواد في نفسه: «هي ذي قبرص أخرى تحولت إلى مسلخ أيضاً». وأضاف وهو ينظر إلى الناس من حوله: «الطائفية قنبلة موقوتة بل تنين غريب نبت له ذات يوم رأس في لبنان ومن قبل في قبرص. وقبلها في أمكنة أخرى من العالم. ولا يعلم إلا الله المدينة التالية التي سينبت له فيها رأس جديد في يوم آخر».

كان الناس لا يزالون يقرقرون بالنراجيل. ويدخنون اللفائف ويحتسون الشاي، بتراخ وفتور وعيون وسنانة دبقة فآلمه ذلك. وحزّ في نفسه أن يقتل الأخ أخاه دون أن يحرك ذلك شيئاً في عواطف الناس.

ومن جديد تناهى إلى عواد صوت المذيع الذي قال أن اسرائيل تعتبر فتح قناة السويس خطوة طيبة على طريق السلام وإنها تتطلع إلى اليوم الذي تمر سفنها في القناة ليس تحت أعلام دول أخرى.

انتفض شيء في أعماق عواد. شعر بالغضب. نظر حواليه. النراجيل تقرقر. اللفائف تنس محترفة. والشفاه تمتص الشاي والقهوة بكسل وفتور. أراد أن ينقل غضبه إلى الآخرين. صرخ: أيها الناس.

التفتوا إليه بإعياء مشوب بالدهشة. قال: أيها الناسّ أين المفر؟ البحر من ورائكم والعدو أمامكم وليس لكم إلا الصبر والقتال.

استمر الناس في النظر إليه بعيون متعبة نصف مغلقة. ومن بعيد لمح عواد رجلين يتشاوران فيما بينهما ويشيران نحوه. عيونهما تقدح شرراً وتنذر بالشر. أحسّ عواد بالخوف. شعر أنه وحيد وأن جمهوره تخلى عنه، عاودته فكرة الرحيل إلى بلد يحصل فيه المرء على الخبز دون عناء كبير.

ومن بعيد واصل الرجلان النظر إليه ومشاورتهما بشأنه. اتجها نحوه. شعر بالخوف. أحس بالخطر. قال: يجب أن أنجو بنفسي. تسلل بهدوء. أحس بالخطر يقترب منه. قال: يجب أن أركض. وركض ركض. ولكن عجباً. فجأة ركضت معه في نفس الطريق ماري أنطوانيت ولويس السادس عشر. قرقعة وصخب في طرف الشارع. نظر خلفه. عنترة يمتطي جواده. يلكزه بمهمازيه. يسابق الريح ويلوح بسيفه ماري أنطوانيت تولول. تصرخ. ماذا جنيت؟ ماذا يريد الشعب؟ أعطوه الخبز. كلَّ الخبز. ماري أنطوانيت تختفي ويختفي معها لويسها. عواد وحده في الطريق يجري وحده. ومن خلفه يجري عنترة. أين المفر؟ عواد يلتفت إلى الخلف. عنترة يعدو وراءه وقد استبدل قلنسوته بخوذة من فولاذ. وسيفه برمح من نار. التنين. سأقضي على التنين الهارب. صاح عنترة. عواد صرخ: أين المفر؟ وفجأة. فجأة شعر عواد بعطش شديد وبجفاف في حلقه. ودفعة واحدة اختفى عنترة واختفت معه خوذته ورمحه وحصانه والطريق الطويل الذي لا ينتهي.

رفع عواد رأساً مثقلاً ونظر حواليه. كان أولاده الستة مستغرقين في نوم عميق. وكانت زوجه ترقد إلى جانبه. وكما تسقط، دون أي ضجيج أو صخب، قطرة الندى. سقطت مدينة ما، بغتة، في خيال عواد. يرفرف عليها سلام شامل عميق. نظر إلى أولاده مرة أخرى. ابتسم وقال:

-أين المفر؟ أيها الناس.

ثم وضع رأسه باستسلام فوق الوسادة. وعزم، في هذه اللحظة، عزماً أكيداً أن يستيقظ في الصباح. في الخامسة أو دون ذلك قليلاً، ليكون بكامل ثيابه على باب الفرن. حيث أَمِل أن يكون الزحام هناك أقل ما يمكن عليه في مثل هذا الوقت.

* * *

# سليمان ومعلمه

ثمة علاقة بين أحمد مرتجى الخبير الفني في مستودع «ج» لفرز التبغ الخام وسليمان عامل الترقيم. وسليمان هذا يقع إدارياً تحت سلطة رئيس آخر شأنه شأن زملائه وزميلاته في المستودع. لكن يبدو أن أحمد من ذلك النوع من الرجال الذين يستطيعون بطريقة ما أن يكونوا رؤساء ثانين إلى جانب الرؤساء الحقيقيين.

إن سلطة أحمد محدودة جداً على العمال والعاملات حتى لتكاد تكون معدومة. اللهم إلا ما يتعلق بالتبغ من تصنيف وترطيب. وبالاختصار كل الاستشارات الفنية المتعلقة بسلامة التبغ الخام. غير أنه مع ذلك كان يجد دائماً أسباباً للتدخل في شؤون المستخدمين. وغني عن البيان أن مجتمعاً مثل مستودع «ج» فيه ثلاثمائة رأس من البشر من كلا الجنسين معظمهم أميون ذوو أمزجة مختلفة، ومقاصد متباينة، ومنافسات مكشوفة حيناً وخفية أحياناً. مثل هذا المجتمع لا يعدم أفراده وسيلة للخلاف بين حين وآخر. فقد تبدأ الأزمة بسبب العمل على شكل من الأشكال ثم تمتد إلى الأمور الشخصية وقد يكون العكس بالعكس.

أما علاقة سليمان بخبير التبغ فتعود إلى سبع سنوات خلت. كان سليمان يعاني صعوبات مالية في تلك الأيام. فقد عوّد نفسه منذ بدأت حاله بالتدهور على شراء ثياب البالات لكسائه وكساء العائلة. وامتنع عن إدخال اللحم إلى بيته بالرغم من رخص الأصناف التي يبتاعها. كان رجلاً رزيناً بعض الشيء. لا يشابه أحداً من أولئك الذين لا يعيرون اهتماماً لما في يديهم حينما يتعين عليهم أن ينفقوا. فقد قال لزوجته مرة: «يجب أن أدخل المؤسسة نظيفاً ليس لي وليس علي». وهكذا تخلص من مطعمه المتنقل على العربة قبل دخوله مؤسسة التبغ بسبب من كساد الحال. وحاول أن يوجد نوعاً من

التوازن بين دخله ومصروفه في حياته الجديدة. لكنه رغم ذلك عجز عن التخلص نهائياً من همومه فجرَّها إلى داخل العمل.

لهذا كثيراً ما جلس في الأطراف البعيدة من ساحة مستودع التبغ وراح يدخن حزيناً. حتى كان يوم اقترب فيه أحمد منه ومس كتفه: «ماذا يشغل بالك يا سليمان؟». ورفع سليمان رأسه «آه يا سيد أحمد». كان سليمان قد ترك زوجته في ذلك اليوم وهي في حالة مخاض وراح يردد في نفسه منذ الصباح: «إنك تسكن في واحد من أكواخ التوتياء العديدة في دار السمكري. وعندك ولدان يا أبا مصطفى. وها هو آخر قادم وليس في جيبك ثمن دجاجة شوربة النفساء.. ناهيك عن ثمن الملبس، وأتعاب القابلة. فياله من استقبال للطفل الجديد».

وسرعان ما تُحل الأزمة على يد أحمد وتُحمل الدجاجة إلى دار السمكري. تلك الدجاجة الشقية التي استطاعت الإفلات من بين يدي أصغر ولديّ سليمان حين أصر على احتضانها كشيء لم يسبق له أن رآه في البيت. فراحت تحيي الجيران من فوق أسطحة التوتياء وتعلن عن مجيئها بخشخشة أظفارها وقوقأتها.

والواقع أن «سليمان» كان قد قطع على نفسه عهداً بأن يبتاع دجاجة للنفساء في هذه الولادة الأخيرة تعويضاً عما فاته في الولادتين السابقتين، ولا سيما أن زوجته قد عتبت عليه أكثر من مرة قصوره في عدم شراء دجاجة لها. حتى إنها شهّرت به مازحة لدى الأقارب في بعض المناسبات وفسّرت هذا القصور تفسيرات نأت بها بعيداً عن حقيقة الأمور.

وهكذا كان ذلك اليوم من الأيام المشهورة في حياة سليمان والعائلة. ليس لأنهم أكلوا جميعاً دجاجاً في شوربة النفساء فحسب، بل لأن الدجاجة كانت رمزاً لعهد جديد دخلته العائلة. فحينما كانت الزوجة تقول أحياناً في معرض أحاديثها عن الماضي مميزة بين عهدين: «منذ ولادة محمد حدث كذا» ظل أنفها لمدة طويلة يعبق في الحال برائحة الدجاجة، تلك الرائحة الزكية التي لم يكن يعكرها سوى رائحة مخلفات الولادة.

غير أن الزوجة استطاعت بمرور الأيام أن تعرِّي لدى كل استدعاء لذلك الماضي رائحة الدجاجة المضمخة بالبهار عن الرائحة المقيتة الواغلة فيها كشيء غير مرغوب فيه، وكأنه ذو صلة من ناحية ما بذلك الماضي بقدرة خاصة. قدرة تستنفر من أول لحظة تنوي الزوجة العودة فيها إلى الوراء فتنظف خيالها من كل رائحة دخيلة إلا من شذى دجاجة استلقت في طبق كبير من حساء الرز يتصاعد منه البخار. وبأمثال هذه المناسبات كانت الزوجة لا تنسى أن تضيف دائماً: «قلت لهم عندئذ: هل كلها لي. يا إلهي ألم تبقوا شيئاً للأولاد والآخرين».

أما الحال الجديدة التي انتهت إليها فلم تكن خالية تماماً من الشوائب غير أنها تخلَّصت من بعض بؤسها على كل حال. فقد تبنى أحمد مرتجى «سليمان». والحقيقة أن «سليمان» كان في حاجة لمثل هذا التبني خاصة في مؤسسة تعمل بنظام العلامات. وكانت علامة المستخدم موزعة على الانضباط والأخلاق والنشاط. لكن الرؤساء كانوا لا يعملون كثيراً بهذا السلم. حتى ليمكن القول أن المبدأ السائد في المؤسسة «قل لي من وراءك أقل لك من أنت».

ولم يلبث أن تغير وضع سليمان بفضل هذا التبني. فغدا عاملاً دائماً بعد أن كان مؤقتاً. وبفضله لم يعد عمله حمل الطرود على ظهره. وفكّر سليمان فيما بينه وبين نفسه: «بماذا أكافئ أحمد إزاء عطفه عليّ؟ وقرر أن يدعوه «معلمي» تمييزاً عن الآخرين الذين ينادونه أستاذ أحمد.

لكن سليمان عاد ففكر ثانية: إن دعوة أحمد «معلمي» قد تسره ولكنها لا تقدم له شيئاً من الناحية العملية. فهمس لنفسه: «كيف يمكنني أن أخدمه؟؟ كيف يمكني أن أخدمه؟».

وإذ كان سليمان جدياً في تساؤله عن السبيل التي تمكنه من خدمة معلمه فقد اتجه عصر يوم من الأيام إلى الحي الذي يقطنه أحد مرتجى رغم أنه لم تكن في رأسه فكرة معينة، وراح يطوف حول داره، وما هي إلا دورتين أو ثلاثاً حتى أطلق في ذات نفسه صرخة تشبه صرخة أرخميدس الشهيرة «وجدتها».

لقد فكر: «إن حديقة الدار قد رصتها الأقدام وشوهها الإهمال.. يمكنني إذن الاعتناء بها. حقاً إن خبرتي بالزهور ليست كبيرة. ولكن في مقدوري أن أفعل شيئاً». ثم راح سليمان يتردد على منزل أحمد. مرة يعزق أرض الحديقة، ومرة يروي أزهارها وأشجارها أو يشذب ما امتدت إليه يد اليباس.

ولم يكن أحمد أقل فرحاً حين عرض عليه سليمان فكرته حتى أنه قال: «لقد سبقتني. كنت سأفاتحك بذلك». وقال لزوجته: «سليمان رجل شهم». ودغدغ هذا الإطراء فرو الفأر في داخل سليمان. وحمله عالياً كأنه الطوف. ثم وجد الفأر بعد ذلك الطريق مرسومة إلى داخل المنزل فولج المطبخ أول ما ولج. كان ذلك حينما تركت الخادمة البيت. تلك الخادمة التي حاول إعادتها إلى أسيادها بالاتفاق مع أهلها. لكن الأهل رفضوا إعادة ابنتهم إلى بيت الكرم كما وصفه سليمان. وقال أبوها معلقاً: «ليذهب سيدك وكرمه إلى الجحيم.. أنا لا أريد أن أعتبر ابنتي في حكم الميتة» ووصف الأب هذا السيد الذي تفاخر سليمان بسيادته عليه كثيراً أمامه، وصفه بالقسوة والوحشية. وزعم أنه يضرب ابنته لأقل هفوة. وأنه كثيراً ما جعلها تنام على البلاط العاري بلا عشاء. أو حبسها في المنور مع زيتون قط البيت. بينما راح سليمان يقول في نفسه طوال الوقت: «مجانين. إنهم يهرفون بما لا يعرفون، ألشخص أريحي مثل أحمد مرتجى يُقال هذا القول؟. ليتهم يعلمون أن كل من في مستودع «ج» يتمنون أن يقدموا له خدماتهم. ويتبارون في تقديم الهدايا له» حتى إذا ما أمسى وحيداً في الطريق العام استدرك قائلاً: «حقاً ليس كل العمال، وإنما معظمهم»، فقد تذكر سليمان أن ثمة قلة في المستودع لا يرتاحون لوجود الخبير. وسرعان ما يتركون المكان الذي يحل فيه. وحين فكر سليمان بهذا لم يجد له تعليلاً سوى الحقد. وعجب في نفسه: كيف يمكن لإنسان أن يكره شخصاً كأحمد ينفق قسماً كبيراً من وقته أثناء العمل ينفرد بهذا العامل، أو يصلح ذات البين بين اثنين من الزملاء متخاصمين، حتى لو كلفه ذلك شيئاً من ماله الخاص. ولطالما دخل وسيطاً بين عاملة ومراقبها أو رئيسها الإداري فأعاد لها اعتبارها وكفلها عن كل قصور يصدر عنها.

ومع ذلك فقد آلم سليمان أن يجد ثمة دوماً من يهمس بأن تكسير العاملات الفنيات إلى كناسات، أو تكليفهن بأعمال خشنة هي من عمل العجائز أكثر منها بصغيرات السن، إنما يتم بتدبير أحمد عن طريق المراقبين. إنه نوع من الضغط يلجأ إليه لتحطيم كبريائهن لأسباب خفية ظاهرها الغيرة على العمل.

وحينما عاد سليمان ولم تكن برفقته الخادمة أحسَّ نوعاً من الخيبة، واعتبر نفسه مسؤولاً بعض الشيء عن فشله في إعادة الأمور إلى مجاريها بين الخادمة وبيت سيدها. وهاله أن تشمِّر السيدة فاطمة عن يديها الناعمتين وتغسل أواني الأيام الثلاثة الفائتة.

إن إهانة سيدة بشكل ما ليست أقسى على رجل شهم مثل سليمان من رؤية امرأة لطيفة وكريمة كفاطمة لم تعتد يداها الناعمتان على شظف الأعمال تقوم بغسل أدوات المطبخ القذرة، أو مسح زجاج النوافذ.

وهكذا وضع سليمان المريلة على صدره وراح يغسل الأواني ويجفف الأطباق بخبرة ودراية. ولكم تذكر وهو واقف إلى حوض الغسيل في المطبخ تلك الأوقات التي كان يقف فيها الساعات الطوال في البرد والحر والمطر بمحاذاة مطعمه المتنقل متصيداً زبائن آخر الليل.

ولكن سرعان ما كان الدفء ورائحة المطبخ اللطيفة يديران رأسه فيتمتم: «يا لها من أيام سوداء» ويتابع عمله بلذة وهو يجيل نظرات مطمئنة حوله ولكم تمنى في سره أن يكون له بيت فيه مثل هذا المطبخ لا ينقصه شيء، فيه من حبة الثوم إلى «قطارميز» الجبنة والمربى الملونة المرصوفة على الرفوف.

وما أكثر ما ردد سليمان بين معارفه: «إنني أدخل وأخرج مثل أهل البيت» كأن حبل الانتماء المعروف عند العرب الأوائل لايزال موصولاً لديه..

كان سليمان ما إن ينتهي من ساعات العمل الرسمي في المؤسسة حتى يمر مروراً سريعاً على بيته ويأخذ لقمة كيفما اتفق ثم ينطلق إلى منزل

معلمه. كان يحدث نفسه: «سوف آكل من هناك فلماذا لا أوفر طعامي للأولاد؟» وشيء آخر كان يفكر فيه أن الطعام هناك أطيب. وإن أخجله بعض الشيء أنه يتناول صنوف الأطعمة الشهية من دون الآخرين من أفراد العائلة. حتى أنه فكر أن يقتطع بعض هذا الطعام ويجعله لهم.

لكن السيدة فاطمة لم تدعه طويلاً طريدة هذه الفكرة. كانت مثل زوجها تحسب لكل أمر، حرام أن يختص نفسه بهذه الأشياء من دون أولاده وامرأته. هذا ما فكر به سليمان حينما قالت له: «خذ هذه الأشياء للأولاد وأم مصطفى. هذا بنطال يمكن صنع شيء جميل منه للولد الكبير. هذه سترة». ثم أعطته تيناً وزيتوناً من بقايا السنة الفائتة، وبعض الملابس لزوجته.

وقال سليمان في نفسه حينئذٍ: «إنه تين جيد لولا هذه الطبقة من السكر التي بدأت تغلفه. إن له رائحة الخمر. ولكن لا بأس به على كل حال. برقبتي لن يدعِ الأولاد الأسبوع يمر قبل أن يأتوا عليه». ولاحظ أن الزيتون أقل تماسكاً وحباته أقرب إلى اللزوجة.

وظل سليمان يتردد على المعلم حتى حينما جاءت خادمة جديدة. كان هناك ما يعمله دوماً. صحيح أنه لم يعد يضع المريلة على صدره. لكن كان ثمة مجالات أخرى لا تحصى إن خارج البيت أو داخله. ولقد عجب سليمان حتى أنه تساءل في نفسه: كيف كانوا يدبرون هذه الأمور قبل أن يعرفوه. فقد غدا البيت وكأنه لا غنى له عن سليمان. كان يتعين عليه تأمين لوازم البيت من خضروات وفواكه. ثم مؤونة الشتاء الموسمية في أواخر الخريف من كسرات الجوز واللوز والتين والزبيب وزيت الزيتون الطيب وغير ذلك من الأشياء التي يحتاجها البيت الشبعان. والحق كان سليمان أفضل من يشتري زيت الزيتون. إن له ذوقاً رفيعاً في انتقائه. ولم يكن تذوقه العينات ليضيع عليه فرصة ابتلاعه جرعات كبيرة من الزيت. «الزيت خير غاسل للمعدة والأمعاء. إنه يجعلها كالحرير». كذلك كان يقول في نفسه وهو يبحث في الأسواق. حتى كان يوم تذوق فيه أكثر من خمسين عينة وسرّب بلعات كبيرة منها إلى جوفه.

واستغنى سليمان شيئاً فشيئاً عن ثياب بالات البازار المستوردة. وانتعشت حاله نسبياً. ففكر بشراء قطعة أرض لتعمير مأوى في مشروع البلدية الجديد وبدأ بالادخار. ولماذا لا يدخر وقد صار في ميسوره أن يوفر بعض المال من حين لآخر. فهذه البدلة أمسى استعمالها غير لائق بالنسبة للسيد أحمد لقدم طرازها. وهذا معطف تركت القداحة التي اشتعلت لسبب من الأسباب في جيبه فوهة لا يمكن رتقها دون أن تترك شامة بمساحة الليرة الفضية. وبالاحتمال كان كل ما في منزل أحمد مرتجى من ملابس وطعام وغير ذلك ينتهي إلى بيت سليمان قبل أن يستنفد آخر طاقاته حيث يدركه البلى هناك تحت سقف التوتياء، بعد أن يمر بدوره على أفراد العائلة تدرجاً من الأكبر إلى الأصغر.

وعلق سليمان بمعلمه. وكان كل يوم جديد يضيف إعجاباً إلى إعجابه السابق. وكان أكثر ما يحب فيه عينيه اللتين كثيراً ما شبههما بعيني نمر. وبروده الذي يخفي وراءه إرادة لا تتراجع أمام شيء. وإن آلمته قسوة أحمد في بعض الأحيان.

فقد حدث مرة أن كانت السيدة فاطمة عائدة من زيارة معارف لها في طريقها إلى البيت، في الوقت الذي كان أولاد الحي يداعبون فيه كلباً أسود. كان كلباً سوقياً اتفق له يوماً أن عبر الشارع في طريقه إلى مكان ما. وهناك صادفه أولاد الحي وعقدوا معه صداقة. فقطع رحلته واستقر في تلك المنطقة. كان كلباً قنوعاً. لم يكن يطلب أكثر من الطعام فقدمه له الأولاد لقاء تسليتهم بعد انصرافهم من مدارسهم. أما المأوى فكفلته له خربة في الحي. وسر (سويدان) وهو الاسم الذي أطلقه عليه الأولاد. سر في حياته الجديدة. وبدا أنه يود أن يدخل السرور إلى قلوب الجميع حتى أنه عجب حين مرت السيدة كيف لا تشاركه اللعب. وأراد أن يجرها إليه فجذب طرف فستانها مما أشاع الرعب في قلبها. وما كان من السيد أحمد الذي أساء فهمه إلا أن لجأ إلى وسيلة للانتقام لا تتناسب مع مزحة الكلب.

فقد قدّم له في اليوم التالي قطعة لحم في شص ينتهي بخيط ثخين. ثم عمد إلى سحب الكلب بعد أن ابتلع الشص. وقد حاول سويدان أن يقاوم حينما

أخذ السيد أحمد يجره عبر بوابة البيت. لكنه رضخ عندما أحس شيئاً في داخله يتمزق كلما ازداد تشبثاً في موقفه. وانقاد لخيط السيد أحمد فولج عتبة البيت حيث اقتيد إلى الحديقة وقضى نحبه هناك معلقاً إلى إحدى الأشجار من ذلك الخيط.

وخفّ سليمان لتبرير عمل أحمد. صحيح أن الكلب قد مزق ثوب السيدة وجعلها تندفع إلى البيت مذعورة لا تلوي على شيء، سوى الخلاص من هذا الحيوان، لكن كان من الممكن أن تنتهي المسألة عند هذا الحد. وعندئذ قد يكتفي أحمد بالابتسام أو يعمد إلى نوع آخر من التأديب لا يوجع قائلاً لزوجته: إن تمزيق ثوب ليس بالشيء المهم. ولكن أرجو أن لا تكوني قد أصبت بأذى ما يا عزيزتي.

غير أن الأمور اتجهت وجهة أخرى. فبعد أن عبرت فاطمة بوابة المنزل ظلت تركض في أنحاء الدار وقد حسبت أن الكلب لا يزال يطاردها. وكانت ترى الأشياء الموجودة خلال ركضها وكأنها غير موجودة. فهذا كرسي يصطدم بها، وهذه عتبة ترتفع أمام قدميها اللاهثتين أكثر من اللازم.

إن أحمد لم يقتل الكلب. وإنما قتلته هذه العتبة التي شقت الأرض فجأة وانتصبت لتودي بحياة كلب بائس. حقاً كان كلباً سيء الحظ. فقد ارتطمت رجل السيدة بهذا الحاجز الجديد الذي لم يكن في حسبانها، مما سبب لها سقطة موجعة جعلت الدم يبدو وكأنه سينفذ من جبهتها.

لو أتيح لأي رجل في مثل سن أحمد مرتجى وفي ظروف مشابهة له كثيراً أو قليلاً لاستحال عليه أن يتصرف على نحو مغاير. إنه لمن الصعب أن تقول لرجل في الخامسة والأربعين متهماً بالعقم تعده زوجه بولد وهي تربت على بطنها منذ ثلاثة أشهر. من الصعب أن تقول له إذا ما سبب لزوجه كلب مشرد مثل سويدان سقطة أليمة وهدد كل أحلامه الذهبية، لا تفعل هذا الشيء بالكلب. بل افعل ذاك. ما هي حياة كلب تجاه حياة طفل ينتظره أبواه بفارغ الصبر لتقرّ به عيونهما؟؟.

بهذا أو بما يشبهه أقنع سليمان نفسه حينذاك واطمأن إليه. لكن سليمان راح ينظر اليوم إلى الأمور نظرة أخرى. فقد انفرد به منذ قليل أحمد مرتجى

وقال له: «ستجد هناك في الزاوية تحت علبة كرتون بضع ورقات تبغ. ضعها في جيب المراقب وقت الانصراف».

وحين عاد سليمان إلى موضعه حيث جلس على كرسيه النصفي خاطب نفسه بنفسه قائلاً: «نعم يا سليمان وهذه؟؟!». والتفت نصف التفاتة وتناول بيده اليسرى رقعة خيش مربعة من كومة معدة لصنع لافتات تبين هوية طرود التبغ. ثم طرحها على صندوق خشبي أمامه اصطنع كطاولة بتثبيت أربع قوائم خشبية على جوانبه بمسامير صدئة. وأخذ بيده اليمنى كليشة بنفس مساحة رقعة الخيش وضعها فوقها، وأمسك باليد ذاتها فرشاة من علبة صفيح تحتوي دهاناً أسود. وبدأ يمسح على الحروف المحفورة. حتى إذا ما انتهى أزاح الكليشة وقرأ بشكل آلي: المنشأ قدموس. النوع أول، العام - ١٩

وبدأ يعد لافتة أخرى بالطريقة ذاتها. ولكن السؤال عاد فاشرأب في رأسه أفعواناً لا يتزحزح: «نعم؟! ماذا تقول في صاحبنا هذه المرة يا سليمان؟!..». وتقهقر سليمان في طريق مسدودة فراح يتساءل: «لماذا يكيل أحمد إلى المراقب مثل هذه الضربة القاتلة؟؟..»

كان سليمان يجهل هوية هذا المراقب سوى أنه رجل أُرسل مؤخراً إلى مستودع «ج» ككثيرين غيره ممن يفدون إلى هذا المستودع أو يُنقلون منه. غير أنه يستطيع إذا ما استعاد حركات المراقب خلال غدوه ورواحه في الورشة، يستطيع أن يؤكد لنفسه أنه كانت تنقصه الطراوة في العمل. كانت طريقته مكشوفة. لم يشعر سليمان يوماً أنه اصطنع تأزيم الأمور، وسعى إلى خلوات مع العاملات لحلها كغيره من المراقبين. أما إذا قصرت عاملة في إنتاجها اليومي، أو عرقلت سير العمل أرسلها مباشرة إلى رئيسها الإداري. مما بدا معه وكأن مساعي الخير الطيبة لم تعد ذات فائدة كبيرة. وظهر لكل ذي عين أنه لا يخشى الخبير كالآخرين، ولا يحاول أن يخطب وده، أو يتملقه مثلهم.

ولاح لسليمان أن ثمة صراعاً خفياً بدأ يدور بين معلمه وهذا المراقب. لكنه رغم ذلك أعجب به إعجاباً بلغ به حد الميل. وإن عجز عن فهم سبب

هذا الصراع. مادام الإثنان يسعيان إلى تسيير العمل على الوجه الأفضل وإحلال روح الوئام بين الجميع. وكان أكثر ما يشد سليمان إليه صراحته المتناهية. فقد أعلن مرة: «المريضة تستطيع أن تمضي إلى فوق..» قال ذلك بصوت حرص أن يكون مسموعاً لدى الجميع مشيراً بيده إلى عيادة المستودع. «ومُحبّة الكلام لها أن تفرغ جوفها في الخارج. أما البيض فدعوه ساخناً تحت الدجاج». كانت إشارة واضحة إلى أنه لا يقبل هدايا. أما كلمة الخارج فقد اُختلف في تفسيرها. فقال البعض أنه قصد الساحة من أرض المستودع. وذهب آخرون مذهباً آخر وهم يضحكون.

وأضاف المراقب بعد مدة: «أن دجاجاً يقرّق في هذا المستودع. وسأقطع اليد التي تحمله من فوق البيض» وأبى أن يصغي إلى شكوى أية عاملة بعيداً عن مسمع من الآخرين.

ولم يسع سليمان إزاء ذلك إلا أن يزداد ميلاً نحو هذا المراقب الجديد. لقد عرف نوعاً آخر من المعاملة الطيبة. إنه لجميل أن يأخذ المرء بيد الآخرين ويقبل هداياهم بعد تمنع. وأجمل منه أن يرفض هذه الهدايا أصلاً. وحين قارن بينه وبين من تقدموه لاسيما المراقب السابق الذي كان يبدو لسليمان أشبه بخاتم في إصبع معلمه. ذلك المراقب الذي نُقل مؤخراً لأسباب لم تكن خافية على أحد، اعترف ضمنياً بالبون الشاسع بينهما فآثر الجديد على القديم رغم ما كان يربطه به من أواصر نتيجة علاقته بالمعلم. فكم من مرة أعطاه بعض الأشياء الملفوفة قائلاً له وهو يقرن ذلك بإشارة خاصة من عينه ورأسه «خذها إلى منزل السيد أحمد» حتى جاء يوم أصبحت فيه هذه الإشارة مع الشيء الملفوف غنية عن كل بيان.

وحينما انبثق صوت ثاقب حاد في داخله وطلب إليه أن يجري مثل هذه المقارنة بين المراقب الحالي ومعلمه دفع الصورتين معاً بعيداً عن ساحة عينه الفاحصة. وتحاشى سليمان ذكر المراقب أمام المعلم حتى صادف يوماً سأله هذا الأخير رأيه فيه فردد بحيرة: «من؟! إبراهيم» وقلب شفته السفلى، منتظراً أن يزيده الخبير إيضاحاً عما يكنه له. لكن السيد أحمد لاذ بالصمت واكتفى

بهزة من رأسه، مما أكد لسليمان على نحو لا يدع مجالاً لشك بأن أحمد لا يميل إلى إبراهيم. وحرص سليمان أكثر من ذي قبل على عدم ذكره من بعيد أو قريب. أما في الأوقات التي كانت الحاجة تدعو فيها إلى إيراد اسم المراقب فكان يشير إليه بكلمة «هو». ونادراً ما أطال سليمان الوقوف معه إلا فيما يختص بالعمل. لكن ذلك لم يمنع سليمان أن يحمل له شيئاً ما في داخله، شيئاً لا يعرف له اسماً.

تلك هي الصورة التي يستطيع سليمان استحضارها للمراقب، صورة إن لم تكن باعثة على الحب، فهي على كل حال تستبعد انتقاماً من هذا النوع، بمثل هذه الغلظة. ويلقي سليمان على نفسه السؤال التالي: «ماذا فعل المراقب وأي ذنب اقترف في حق السيد أحمد». إن سليمان لا يجهل العقاب المترتب على سرقة التبغ من المؤسسة. وبدأ يبحث في ذهنه وهو يعد لافتة جديدة بعد أن مرّ بعينيه مروراً سريعاً على اللافتة الجاهزة لتوها.

«أحمد مثل سن المنشار لا يعف عن شيء» وتذكر سليمان عم إسماعيل ذلك الرجل الوقور الذي لا يشك سليمان في صلاحه. أتراه قال ما قال جزافاً... كلا.. كلا لا دخان بلا نار. آه ليته أصغى لأقوال الآخرين. لكن هبه فعل فماذا يجديه ذلك؟! حسناً! كان في مقدوره أن يعرف على الأقل أين يضع قدميه. وربما فهم لماذا يلغم أحمد هذا اللغم لإبراهيم. ولعله من الممكن أن يدس التبغ في جيب الرجل وهو أكثر اطمئناناً لما يفعل قائلاً في نفسه آنئذ: «هذا جزاؤه.. فليحصد ما زرعت يداه». ولكن أن يفعل دون أن يعرف لماذا. آه يا لعذاب النفس. فما أدراه أن معلمه على حق.

ويقف المحب الشاك يطيل النظر إلى وجه القمر. ذلك الوجه الذي لا تتبدى ملاحه على حقيقتها لمن كانوا على عجل من أمرهم. «خذ يا سليمان مثلاً حادثة عليا. كانت فتاة حلوة ساذجة.. إنتاجها مضبوط. ذكية مجتهدة ولا غبار على عملها.. لكنها أنوف محتشمة ذات خفر وحياء.. لماذا هي أنوف؟! يجب أن لا تكون كذلك. همس مع المراقب. تفاهم مع المراقبة. يمسك عنها التبغ الجيد.. يُعطي لها التبغ الرديء.. الإنتاج ناقص في آخر الدوام.. الفرز

غير صحيح. بهيمة ثرثارة. عليا يحمر خداها.. عليا تبكي.. طاسة باردة.. طاسة ساخنة.. تفاهم مع المراقب.. همس مع المراقبة. الإنتاج يقفز من جديد ويزيد عن الحد المطلوب.. الفرز ممتاز. برافو عليا.. عليا لم تعد تبكي.. عليا لم تعد أنوفا.. همس هنا.. همس هناك.. أحمد وعليا.. عليا وأحمد».

وبرز أنف القمر الضخم أول تشويه في الوجه الجميل.

«وأم صادق يا سليمان؟! صار شغلها فجأة غلطاً كله.. ولسان الخبير قد كلّ من تنبيهها. لتدفع إذن، لتعمل على تنظيف المراحيض. عساها تكون في المستقبل أكثر استفادة من الملاحظات التي تلقى عليها. لكن أم صادق ليس لها أنفة العذراوات ولا خفرهن. لأنها امرأة في حدود الأربعين.. معلمي ألم ترجع الخادمة التي تركت البيت؟؟ معلمي بنتي صديقة عمرها عشر سنين. ولكنها نبيهة تستطيع الاعتماد عليها».

مسكين القمر. كان يزداد تشويهاً لحظة بعد لحظة. ونوره يلوح وكأنه ينفصل عنه شيئاً فشيئاً.

«هل نعدد حوادث أخرى يا سليمان يا فهيم؟! إليك هذه. هل تذكر محموداً وزوجته رغيبة. نعم محمود الذي كان يؤلمه ظهره فدفع فجأة للعمل في الساحة. أنت تعرف عمل الساحة كم هو شاق؟ ألم تكن عامل ساحة؟؟ من دفعة للعمل هناك؟! القضية مفهومة، عاملة حلوة وزوجها يشكو آلاماً في ظهره. لعله فكر. يمكنني أن أحل مكانه بعض الوقت ريثما يصلح ظهره. تذكر كيف اقتربت منه زوجه وطلبت إليه بخجل أن يعفي زوجها من هذا العمل.. كل العملية من أجل هذا الطلب.. من أجل هذا الرجاء.

كيف لم تنتبه إلى ذلك من قبل وأنت جالس على هذا الباب منذ خمس سنوات يمر بك الرائح والغادي وترى أمامك كل ما يجري داخل هذه الورشة كأنك في برج.. آه يا ويلي؟! طبعاً يا ويلك يا سليمان. كنت عاشقاً وقتها.. كنت غارقاً في بنطلونات السيد أحمد. في أكلاته الدسمة.. أعمى فلم تر قبحه. أنت يا سليمان كم من مرة استخدمك في تهريب التبغ.. وكنت تقول في نفسك آنئذ وأنت تحمله له تحت ثيابك: العمل في التبغ يتلفه. ليكن مثل جانيات

الزيتون، أو جانيات القطن. كنت تكافئه.. تبرر سرقاته. آه قلتها أخيراً. هل جعلت من نفسك قاضياً أخيراً. طيب هيا اعدل في هذه القضية. رجل لا تعرفه.. هيا واخرب بيته. لنرى كيف ستلقى ربك يوم الجمعة.»

ونهض سليمان بعد أن ترك الفرشاة التي لا تزال ندية بالدهان الأسود على الطاولة، فنهض معه. «نعم كيف ستركع بين يدي الله». وتذكر أن يوم غد هو يوم جمعة، وأن عليه الليلة أن يغتسل كي يمضي طاهراً إلى المسجد والحقيقة أن سليمان فكر في المدة الأخيرة بعد أن اطمأن إلى مستقبله ومستقبل العائلة. فكر أن يقوم بالفروض الدينية على الوجه الأكمل. فصار يتردد على بيوت الله أيام المناسبات والجمع عرفاناً بأفضاله عليه. وحين كان معارفه يسخرون قائلين: ما هذه الصلاة؟!. كان يرد عليهم: «أول الرقص حلج».

وأخذ سليمان يمشي في الورشة. كان مضطرباً فراح يبحث عن متنفس لضيق صدره. كان العمل في تلك اللحظة في قمة نشاطه. تلك اللحظة التي تسبق فترة الانصراف. فالعاملات يحدثن بصراخهن في رواحهن وغدوهن ضوضاء تصك الأسماع. ومكبس التبغ الآلي يهدر، ودولاب آلة غربلة التبغ يدمدم. والمراقبات يحضضن العاملات بنداءاتهن المتكررة. وقرقعة صناديق رص طرود التبغ التي تفتح أو تغلق تنقر الأعصاب من حين آخر. وصياح من هنا، ونداء من هناك. كانت الورشة أشبه بخلية نحل. لكنها رغم ذلك لم تستطع أن تخفف عنه ضغط الأفكار المتواتر، بل راحت تعمل على عزله، وتضعه أمام موضوعه الخاص. الموضوع الذي لم يعن له يوماً. من كان يخطر على باله أن السيد أحمد هذا الرجل المديد الهادئ ذي الحركات البطيئة المتأنية والابتسامة الأنيسة الذي ملأ مستودع «ج» خيراً وأفضالاً. هذا الرجل الذي كان يلوح مسالماً كحمل. هل كان في تصرفاته مرة ما يوحي بهذا القدر من القسوة. غير أن سليمان ذكر نفسه بنفسه: «والكلب المعلق بالشجرة يا سليمان؟ وعيناه من شبههما بعيني النمر؟.. أما كان ينبغي أن تتعظ من يوم الكلب».

وتذكر سليمان تلك الأمسية البعيدة. ووقف في اللحظة التالية في الحديقة بجانب الكلب الذي اختنق في أحشائه، أخذ يرسل عواء لا يشبه العواء،

منتفضاً في الهواء مقترباً لحظة بعد لحظة من الأرض مع ما ينسل متطاولاً دامياً من داخله.

كان النور قد انفصل تماماً عن القمر. وبدا أنه لا يمت إليه بصلة، فلاح ذلك الشيء الذي كان منذ قليل يشع حتى ليملأ الدنيا ضياء، لاح كتلة من الصخور والوهاد والنتوءات تحمل بشكل من الأشكال صورة إنسان مشوهة لا حياة فيها ولا روح.

وقفل سليمان عائداً قبل أن يكمل جولته في الورشة. وأشعل لفافة نفخ دخانها بحدة. ومرَّ به زميل ألقى عليه التحية دون أن يتوقف:

- كيف الحال أبا مصطفى.

- على خير ما يرام.. عال

«عال.. طبعاً عال..» ردد لنفسه عندما غدا وحيداً. «ألسنا أحياء نأكل ونشرب؟.. ماذا نطلب أكثر من الطعام والشراب لنستمر ونبقى أحياء قذرين نسعى؟.. لا شيء غير ذلك.. لكن المسألة تبقى ماذا نأكل؟! محلولة أيضاً. الأمر في غاية البساطة.. إننا نأكل الضغط.. الضغط يتحول إلى دجاج وأرانب ولبن، وإلى خادمات ونساء تفتح سيقانها.. نحن ديدان تأكل بعضها. وتركب بعضها بعضاً. الضغط هدايا.. الضغط رجل ينام مع رغيبة».

ووصل سليمان إلى موضعه فألقى نفسه على كرسيه النصفي إلقاء. لكنه أدار ظهره للورشة وأخذ ينظر إلى ساحة المستودع. «ما الذي جاء بك إلى هذا المكان الموبوء يا سليمان. كنت حراً طليقاً. في المكان الذي ترزق فيه تلزق. فما الذي ألقى بك في هذا الدوار.. كنت تشتري ثياب البالات المستعملة من البازار. نعم مالها ثياب الأميريكان البوالين.. شيء من الماء المغلي والتايد، فإذا هي بعد ذلك أنظف من الثلج.. لكنك سعيت إلى الوظيفة. إلى نفايات السيد أحمد. هاهي الوظيفة فماذا جلبت لك؟؟ سوى أن جعلت منك تابعاً. لماذا لا يحمل من يعمل في جني الزيتون زيتوناته التي منّ بها عليه معلمه في آخر النهار. إلى متى تجري وراءه لتقديم الفتاوى عن أعماله؟. إلى متى تغمض عينيك عن مخازيه؟.

وسحب سليمان نفساً أخيراً من لفافته نفثه بقوة، ثم رمى العقب المتبقي، فرسم قوساً في الهواء قبل أن يستقر على أرض الساحة. مما أجفل عصفور سنونو اتفق له أن عبر الساحة في تلك اللحظة. ولاحظه سليمان وهو يرتفع في الهواء بجناحيه المبتدئين، فحمله بعينيه حتى استقرتا به على أحد ذراعي لاقط تلفزيون لبناء مجاور. إنه أحد فراخ السنونو التي تعشعش في المستودع.

منذ ثلاثة أيام وسليمان يراقب هذا السنونو الصغير وهو يحاول الطيران. كان ضعيفاً تماماً في اليوم الأول. لقد ألقى بنفسه في الفراغ، لكنه بدل أن يرتفع في الهواء أخذ يهبط في خط مقعر، حتى اعترضه سلك كهربائي مار بالساحة فتشبث به. أما في اليوم التالي فقد استعمل جناحيه ليحافظ على توازنه الأفقي. وها هو ذا في اليوم الثالث يرتفع عالياً. لقد قوّى جناحاه فطار. إنه ينتقل الآن إلى الذراع الآخر من لاقط التلفزيون. ثم بطيران صغير يحط على مؤخرته. طير يحمل طيراً. كل شيء يطير.. كل شيء له جناح. السنونو ولاقط التلفزيون. وأنت يا سليمان ألم تكن طائراً ذات يوم. مطعم متنقل على عربة أمام دور السينما، وأبواب المقاهي والميناء. كل الأرصفة كانت ملكك في الليالي. لا دسائس ولا غم. أين منها هذه الأوقات المسمومة. لقمة ناشفة مع الشرف لا يعادلها شيء. كل الأشياء تطير. لاقط التلفزيون والسنونو وحتى الدجاج عندما تُسد في وجهه السبل.

وتذكر سليمان تلك الدجاجة التي طارت فوق سقوف توتياء الجيران مرة، فتذكر معها معرفته الأولى بأحمد. فلعن تلك اللحظة. وشتم الدجاجة وشوربة النفساء وزوجته وأحمد ونفسه وأولاده والحياة ومن فيها. وقال: «آه يا مغفل. كيف فاتك أن لا تلحظ ذلك. أهما عينا نمر أم قط. وشتان بين الاثنين».

وناداه أحدهم من الخلف:

- أبا مصطفى.. اللافتات جاهزة؟..

واتجه سليمان بجلسته إلى الداخل:

- جاهزة.. احملها.

«نعم جاهزة» استمر سليمان يحدث نفسه: «وأنا أيضاً جاهز.. بل على أتم الاستعداد. أجلو سكيني وأشحذها وألمعها لا لأقطع عنقاً بل لأقطع رزقا.. لأن معلمي طلب ذلك. أين هذا المعلم ذو الوجهين؟.. لعله هرب. فرّ كي لا تحوم حوله شبهة من قريب أو بعيد.. ليته الآن هنا لا لأقول له لن أفعل ذلك، بل لأسأله لماذا أفعل ذلك؟! وأي ذنب اقترف هذا الرجل. هذا الرجل.. ترى أين هو الآن؟؟ أليس هو ذاك؟.

وحدّد سليمان بصره وسط غبار التبغ المتصاعد.

- «آه إنه هو بعيد قرب القبان يلقي عليك التحية»..

وردوا التحية بأفضل منها.

- سلاماً يا إبراهيم.

- «سلاماً.. سلاماً.. سلاماً..»

وحمل سليمان منديله إلى وجهه فمسح عينيه اللتين بدتا حمراوين دامعتين بسبب الغبار، أو بفعل شيء آخر، ثم أعاد النظر إلى المراقب الذي كان جالساً قرب القبان يدخن، وقد اتجه بعينيه إلى الأرض. كان يبدو عليه الإنهاك والشرود. وكان مطلياً بطبقة كثيفة من الغبار حتى غدا ثوب العمل الأزرق ثوباً أغبر تماماً. أما وجهه فبدا وكأنه وجه رجل آخر أكبر سناً مثيراً للشفقة والرثاء «أواه يا إبراهيم. كلنا يلبس ثوباً يخفي ثوبه الحقيقي. ويبدو أنه لا غنى لنا عنه. كي نستمر ونعيش. آه بماذا تفكر؟! وما الذي شغل فكرك فظلل عينيك بالتعاسة في هذه اللحظة اللعينة؟! أأحد أولادك مريض؟؟ بسيطة. كل الأولاد يمرضون. أم أنك تفكر في تسديد قسط كهرباء متأخر. قاسية الحياة يا إبراهيم. طاحون تهرسني وتهرسك.. روحي ثقيلة تدق دائرة الحنطة والزوان والحصى وتخلطها خلطاً عجيباً بلا تمييز».

وشق صوت لنفسه طريقاً. صوت ساخر متألم معاً «هيا انهض يا سليمان وقبله. كما قبل يهوذا مسيحه قبل الصلب. قبلة تحمل الشفقة وتبعد الشبهة».

وفكر سليمان أن ينفض يديه من هذه العملية. لكن ذلك الصوت الساخر الأمرد رده قائلاً: «كيف يا سليمان هل تريد العودة إلى التسكع في الطرقات تبيع المقليات على عربة؟ أم أنك تؤثر في أحسن الأحوال أن ترجع عامل ساحة من جديد لتحمل الطرود على ظهرك صعوداً ونزولاً في السلالم. هل تستطيع أن تفعل ذلك بعد؟! لقد اعتاد جسمك الراحة وتقدمت بك السن. إن كنت قادراً فافعل. أم تراك تريد أن تحرم نفسك من الترقية وتسميتك عامل ترقيم رسمي».

وأخذت آخر الأصوات المضيئة تأفل في سماء سليمان المعتمة:

«من أدخل ولديك المدرسة عندما ردك مدير مدرسة طارق والمسؤولون قائلين: لا شواغر.. من كفلك عند تاجر البناء عندما بنيت الجدران في عمارتك. ومن ساعدك في شراء قطعة الأرض يا عقوق..».

وتخيل سليمان داراً صغيرة ذات غرفتين ليس فيها سوى بضعة جدران قائمة عارية نبتت على جوانبها الحشائش، داراً غير مكتملة البناء لن يضاف إليها أي حجر جديد في المستقبل. فانقبض لهذا المنظر قلبه. وسرعان ما اندفعت في عروقه شحنة جديدة نهضت به واقفاً، ثم سارت به بضعة أمتار في درب ضيقة بين كتلتين من طرود التبغ المرصوفة. لم تلبث أن عطفته نحو علبة كرتون في زاوية الورشة.

وحين اتجه سليمان نحو سترة المراقب المعلقة في مشجب مثبت إلى جدار مجاور لم ينتبه إليه أحد. كان الجميع في شاغل عنه. لكنه على الرغم من ذلك لاحظ وهو عائد لأول مرة في حياته، كم كانت يداه الملطختان بالدهان الأسود بشعتين وقذرتين.

* * *

# الجياد في الاستعراض

تململت الجياد في مواضعها، فحملت ثقل أجسامها من أرجل إلى أرجل أخرى. واصطكت حوافرها بالأرض الصلدة فتصاعد من اصطكاكها صدى أصم. صدى لا يهدأ لحظة حتى يبدأ من جديد. فبعض الجياد أراحت رجلها اليمنى وبعضها رجلها اليسرى. بعضها فعل ذلك منذ بعض الوقت. وغيرها قبل أو بعد الأخرى. ومثلما نقل بعضها ثقل جسمه من رجل إلى رجل ثانية، راحت أخرى تنظر يميناً أو يساراً إلى فرسانها الممسكين بأعنتها، أو إلى الناس الذين اصطفوا على جانبي الطريق.

- لماذا لا يعيدوننا إلى إسطبلاتنا؟ لقد مللت الانتظار.

قال الجواد الذي يقف في المقدمة لصف الجياد الذي يقف خلفه عندما أدار رأسه وراح يهرش في جسده.

فقال أحد الجياد الأربعة التي تقف في الصف الأول:

- إنني جائع. فلماذا لم يحملوا لنا طعاماً إلى هنا ما داموا يعرفون أن الوقت سيتأخر بنا؟

وقال جواد من الصف الثاني لرفيقه:

- إنني لم أطعم اليوم كفاية. قلت في نفسي عندما أحضروا لنا وجبة الصباح. يجب أن لا آكل كثيراً كي أجري جيداً. هل تعتقد أنهم سيجرون سباقاً في الجري؟

فرد رفيقه:

- لا أظن.

عاد الجواد الأول يسأل:

- لماذا إذن أتوا بنا إلى هنا؟

فرد الثاني:

- لست أدري. لكن ليس هناك سباق على كل حال.

وسأل جواد من الصف الثالث:

- إذا لم يكن هناك سباق فلماذا إذن وضعوا علينا عدتنا الجديدة؟

لكن سؤاله ما لبث أن ضاع حين قام هرج فجأة. فقال حينئذٍ لنفسه: «لعلنا سنقفز فوق الحواجز». وارتفع من ناحية ما، في الوقت الذي ساد فيه الهرج، صوت عال:

- لقد بدأ العرض.

ومرقت كلمة «العرض» بين الفرسان المترجلين الذين يمسكون أعنة جيادهم ومسّتهم كأنها شرارة كهربائية فدب فيهم نشاط ملحوظ. لقد أنشأوا يفحصون سروج الجياد والكرات الصغيرة المتدلية منها بخيوط صوفية حمراء مفتولة. نفضوا عنها الغبار وسووا تجعيداتها، مع أنها لم تكن تجعيدات ذات بال تُسيء إلى منظرها. أعادوا فحص السيور الجلدية. شدوا الرُكُب ليروا إلى متانتها. مروا بأكفهم فوق جلود الجياد ولمسوها لمساً رفيقاً للتأكد من نعومتها ونظافتها. ثم داروا حول جيادهم. كل فارس حول جواده ليلقي عليه نظرة أخيرة. ثم أمسك كل فارس عنان جواده ووقف ينتظر عند رأسه، متأهباً كأفضل ما يكون عليه التأهب.

قال جواد المقدمة وهو جواد أحمر عالي القوائم صغير الرأس، قال ساخراً:

- كل شيء على ما يرام؟

قال جواد من أربعة جياد تقف في الصف الأول خلف جواد المقدمة:

- لقد فحصتم مظهرنا الخارجي. وهذا ما يهمكم. إنني جائع.

وتماوج الناس على جانبي الطريق. وتدافعوا وتزاحموا لاحتلال أفضل الأماكن. وعلى امتداد الشارع جرى فرد أو أكثر والقى أوامره بسرعة وانفعال.

وما هي إلا لحظات حتى هدأت الحركة. وسكن الناس في أماكنهم. وخفت الضوضاء. ثم تلاشت وتصاعد على أثرها لغط وهمهمة طغت كالضباب. ثم تعلقت فوق الرؤوس. ولم يعد يُسمع في الجو سوى رفيف البيارق والرايات، وسوى أصداء موسيقى واهنة آتية من بعيد. سكنت فترة قصيرة ثم عادت إلى الطرق بقوة واضحة.

ارتفع صوت إنساني من جانب الطريق:

- قلت لكم بدأ العرض.

وتحرك الفرسان الممسكين بأعنة جيادهم وكأنهم تلقوا أمراً. وضعوا أرجلهم في الرُكُب ثم اعتلوا ظهور الجياد وقعدوا هناك بأنفة وكبرياء.

ومن بعيد، من المقدمة، تصاعد هتاف وتصفيق. فعاد صاحب الصوت الإنساني إلى القول بخفة ونزق:

- قلت لكم بدأ العرض.

وأحست الجياد بثقل الفرسان فوق ظهورها. فاضطربت في وقفتها ذلك الاضطراب الذي يسبق تأهبها للانطلاق. لقد سرت حمى الجري في دمائها. لكنها لم تتلق أمراً بالتحرك. وبذلت جهداً كبيراً من ناحيتها لتسيطر على أرجلها التي لم يعد يقر لها قرار. وبعناء استطاعت أن تتحرك في رقعة محدودة، وأن تدور في تلك الرقعة حول نفسها نصف دورة أو ربع دورة. ثم تعود إلى النقطة التي تحركت منها. فسبب لها ذلك التحرك القلق الحائر لطمة على الحنك أو الرأس بطرف الرسن. أو لكزة في الخاصرة، أو غير ذلك من الفرسان الذين اعتلوها.

لكن الجياد لم تستطع أن توقف نفسها عن الحركة، مع أنها أرادت أن تلتزم بالسكون وتهدأ في أماكنها خوفاً من اللكز واللطم. لقد دب فيها شيء من حماسة الجماهير على جانبي الطريق. كما سرت في أوصالها نشوة الموسيقى الصادرة من المقدمة. وفي فورة حماستها هيأت نفسها لغير احتمال. بعض الجياد فكرت بالجري الحر. وأخرى بالسباق. وغيرها بالقفز فوق الحواجز.

وشيئاً فشيئاً بدت فرقة الخيالة وقد أخذت أهبتها لتتحرك إلى الأمام. أصدر قائد المجموعة الذي يمتطي جواد المقدمة الأحمر أوامره بالاستعداد. ضبط الفرسان بشيء من العناء حركات الجياد. ثم بإشارة من يد القائد بدأت الفرقة بالتقدم إلى الأمام بخطى قصيرة. فرحت الجياد ببدء السير. تراخت عضلاتها التي قلّصها الوقوف الطويل والترقب. صفق الناس على جانبي الطريق لفرقة الخيالة. نظروا إلى الفرسان الذين شمخوا بأنوفهم. نظروا إلى سروج الجياد الفخمة المزخرفة. إلى السيور الجديدة. إلى الرُكب اللماعة في أرجل الفرسان. إلى جلود الجياد المحسوسة النظيفة ازداد الناس تصفيقاً للجياد التي بدت في أكمل زينة. انتقلت إليها حماسة المصفقين. ترددت في آذانها الصغيرة أصداء الموسيقى الآتية من المقدمة، ومنها وصلت إلى قلوبها فمشت الدماء حارة في عروقها، خطواتها. مست حوافرها أرض الشارع الصلدة مساً. وصدر عن وقعها قرقعة كتكسر البلور. فكرت الجياد أن الناس الذين اصطفوا على جانبي الطريق ينتظرون منها أن تجري في سباق. وأنهم يصفقون لها لهذا الغرض. أحبت أن تجري في عدو لاهب، فباعدت بين خطواتها. لكن الفرسان حالوا بينها وبين ما تحب، شدوا لجمها بلطف. صبَّرت الجياد نفسها وفكرت ربما لم يحن الأوان بعد. اقتربت الموسيقى أكثر، خفقت الرايات صفق الناس، ازدادت الحماسة، فلكز الفرسان خواصر الجياد بمهاميزهم. قالت الجياد حسناً نحن ننتظر ذلك، وتحركت لتعدو، لتنطلق إلى الأمام، لكن اللجم كانت لها بالمرصاد. شدت أشداقها إلى الخلف وهرستها بالحديد. فأقلعت عن تحفزها للانطلاق إلى الأمام. وفكرت ما دام الفرسان لا يريدون لنا أن تجري فذلك شأنهم. وكبتت الجياد رغبتها بالجري. وقاربت بين خطواتها. وفكرت بالأيام السالفة والجري اللاهب في البراري والصحاري المترامية لكن مهاميز الفرسان لم تشأ لها أن تمضي بعيداً في أحلامها. وعادت لتخزها في جوانبها. وتحفزت الجياد، وانثنت قوائمها لترتفع عن الأرض، ومدت إلى الأمام أعناقها. غير أن اللجم شدتها إلى الوراء. لكن بلطف أقل هذه المرة، وبقدر من الفجاجة أكثر منه في المرات السابقة.

فارتدت الجياد بأعناقها إلى الخلف بسرعة مجفلة، وقد أحست بشيء في أفواهها. شيء قاس صلب برز في حديد اللجم وارتفع منها إلى حلوقها فسحقها سحقاً. وأعادت الجياد في الحال شحنة التحفز التي سكبتها في أعصابها مع احتفاظها بوضعية أعناقها ورؤوسها مرتدة إلى الخلف. إذ أن أي تحرك، وقد جربت، للتخلص من ذلك الوضع قد سبب لها ألماً لا يطاق. واستقامت قوائمها بعد انثناء التحفز لتشعر فرسانها بأنها رغبت عن نيتها في الجري عساهم يخففون من شد اللجم التي تشد أشداقها إلى الخلف حتى تكاد تشرطها. ولتبعد عنها من ثم تلك البروزات الصلبة التي قامت في أفواهها، وارتفعت، بحدة لتسحق هناك حلوقها.

لكن الفرسان لم يرخوا أعنة جيادهم، بل ظلوا يمسكون بها بنفس التوتر، في حين راحت المهاميز تضرب خواصر الحيوانات. وارتبكت الجياد. وأخذتها الحيرة في ما يتعين عليها أن تفعل. فاضطربت خطواتها. فلا الفرسان يخففون شد الأعنة. ولا مهاميزهم تكف عن ملاحقة خواصرها.

واستمرت الجياد في تقدمها المضطرب الحائر. والتوت أعناقها يميناً أو يساراً وكأنها تبحث عن مهرب من محنتها التي حلت بها. والتهبت أكف الواقفين على جانبي الطريق بالتصفيق. وخفقت الرايات. وترددت أصداء الموسيقى. وازدادت عنفاً وقوة كلما أوغلت الجياد في التقدم، في قلب الشارع، إلى الأمام. وبدا أن جواً من البهجة يشيع فوق الجميع. ومست هذه البهجة، ممن مست، الفرسان الذين اعتلوا ظهور الجياد. وسرت في نفوسهم. كما وجدت طريقها إلى أيديهم وأرجلهم. فأحكموا إغلاق قبضاتهم حول الأعنة. وشدوها إلى الخلف وأعملوا مهاميزهم في الخواصر. وازدادت أعناق الجياد ورؤوسها ارتداداً إلى الخلف. وتراجعت أشداقها إلى الوراء لحد التمزق وكشفت عن أسنانها ولثتها الوردية. والتمعت جلودها النظيفة المحسوسة بالعرق. والتوت أعناقها، مرة أخرى، يمنة ويسرة تبحث عبثاً عن مهرب. ولم تجد في تلك اللحظة سوى اذنابها لتفرغ فيها شحنات الألم المتصلة. فتوترت أذنابها ورسمت أقواساً في الهواء. وبدت الجياد، آنئذٍ، كأجمل ما تكون عليه.

في ذلك الوقت انطلق من بين الواقفين، على أحد جانبي الطريق، صوت إنسان يقول لرفيقه:

- يا لها من جياد.

فقال رفيقه:

- إنها جياد عربية أصيلة. جياد رائعة.

ولم تكف المهاميز لحظة واحدة عن ملاحقة خواصر الجياد. بينما وقفت، بفعل شد اللجم المستمر، في أعلى حلوقها أشياء غليظة وصلبة لتحقق أفضل شكل تبدو فيه جياد في استعراض عام.

* * *

# الدرويش

«اثنان» قال درويش لنفسه «وبعدهما يأتي دوري» كان ثمة رجل ربعة قد استند بمرفقيه إلى حافة الفتحة التي ظهر فيها الصيدلي. وخلفه مباشر وقف رجل طويل ينتظر. أما درويش فقد كان ترتيبه في المؤخرة. «يجب أن أقرر ماذا أريد حقيقة» قال ذلك لنفسه ربما للمرة العاشرة. وأضاف وهو يرنو إلى صورة مركب شراعي. «ولكن هل أخطأت بمجيئي إلى هذه الصيدلية؟ أما كان ينبغي أن أسأل عن صاحبها. ربما كان لا يمارس مثل هذه الأعمال». لكنه فكّر أن مثل هذه الأعمال لا يمكن سؤال أحد عنها لأنها يجب أن تكون بين شخصين كالحب. «كالحب» ردد لنفسه بمرارة: «أين الثريا من الثرى؟». وشعر بالخزي. قال لنفسه: «ما الفرق يا درويش بينك وبين الآخرين. ها أنت قد ساويتهم». وفكر أن يتراجع. أن يحمل نفسه ويتراجع عما نوى أن يقدم عليه. وفكر أن ذلك سهل ما دامت وصفة الدواء لا تزال في يده. وما دام الصيدلي لما ينتبه لوجوده. وأنه ليس عليه سوى أن ينكص على عقبيه وينسحب بهدوء من الصيدلية. وحينئذٍ يعود للوردة نقاؤها وللشمس إشراقها وللديك زهوه. حينئذٍ ينشر الطير جناحيه ويعاود التحليق.

وعزم في الحال أن يدور حول نفسه ويمضي مبتعداً عن الصيدلية. بل إنه حرّك رجله بالفعل وكاد أن يضع الخطوة الأولى في سبيله إلى الخارج ليعيد للعالم بريقه الذي انطفأ في عين ذاته، حينما أمسك شيء بتلابيبه وقال: «إلى أين يا درويش؟ هذه فرصتك».

نظر درويش إلى الفتحة التي ظهر فيها الصيدلي. كان الرجل الربعة لا يزال يستند بمرفقيه إلى حافة الفتحة وقد انحنى باهتمام إلى الأمام يصغي إلى

الصيدلي. كان الصيدلي يتكلم برزانة وكان الجد بادياً على وجهه. وبنظرة سريعة إلى الرجل المنحني إلى الأمام والصيدلي الجاد وإلى كيس الدواء بينهما وقد أمسك به الرجل. قدّر درويش أن الأمر لا بد يتعلق بمريض غير عادي. وحمد الله أنه لا يوجد في بيته مريض يحتاج إلى مثل هذا الكيس الذي حفل بعلب الدواء. وتساءل بقلق: «ما مرضه؟». ونسي للحظات الغرض الذي جاء من أجله وقال: «الله يبلي ويعين».

حمل الرجل كيس الدواء ومضى مسرعاً. كان وجهه مقطباً وعيناه فيهما التماع وقلق. تنفس الرجل الطويل الصعداء. وتقدم من الفتحة. قال درويش في نفسه: «لم يبق إلا هذا الرجل وبعده يأتي دوري. يجب أن أحسم الأمر بسرعة». ظل درويش في مكانه. صارت بينه وبين الرجل الذي تقدم من الفتحة مسافة. نظر درويش إلى الصيدلي. كان يبدو منه في الفتحة أعلى صدره ورأسه. كان وجهه مليئاً وعلى عينيه نظارتان طبيتان. لم يكن وجهاً قاسياً كما لاح لدرويش في وقت ما. وكان منهمكاً في حديث مع الرجل الطويل. فكر درويش «ما أشبهه بصورة في إطار».

ارتفع درويش بنظره إلى ما فوق الفتحة. ووقف عند صورة طفل في شهوره الأولى. كان الطفل قد استقبله منذ أول لحظة وطأ فيها عتبة الصيدلي. كان عارياً كما ولدته أمه. وقد أبان عريه مدى الصحة والعافية التي يدخل فيها إهابه الوردي. كان واضحاً أنه دعاية لحليب من نوع ما، فكر درويش: «ما أروع هذا الطفل! ولكن ما اسم حليبه؟». ضحك الطفل وهش في وجه درويش فضحك له درويش وهش في خياله. وفجأة اخترق ظهره ألم سريع رفيع كلمع السماء. وضع يده على صلبه. فكر أنه أخطأ لأنه لم يأخذ هذا الأمر في حسبانه ويحتاط له قبل أن يضحك. لكنه قال لنفسه إنه لم يضحك حقيقة وإنما كان يضحك في فكره فحسب. وقال: «حتى التفكير في الضحك صار يؤلم ظهري؟».

لم يتحرك درويش من مكانه. وظلت المسافة بينه وبين الرجل الطويل على حالها. كان يخيل إليه أنه إذا ما تقدم خطوة إلى الأمام فذلك يعني أن

المشكل انتهى بالنسبة إليه وقرَّ رأيه على ما يريد بالفعل. وهو في الواقع لم يصل إلى هذا القرار بعد. وأحسّ بالفراغ وشعر أنه معلق وهو في وضعه ذاك من الصيدلية. قال لنفسه: «تقدم من الرجل الطويل. قف وراءه. تنحنح. مد رأسك قريباً من الفتحة. أَشعر الصيدلي أن هناك زبوناً. وإنه يضع يده على صلبه. لأن ظهره يؤلمه. افعل ذلك أو تنح جانباً حتى يقر قرارك». وفكر: «هو ذا شخص ما قد دخل الصيدلية لتوه. ظله سقط على الأرض. على ظهرك. صار خلفك».

كان درويش قد عرف قبل أن يلتفت خلفه أن القادم امرأة. أدرك ذلك من رائحة العطر التي نشرتها لدى دخولها. نظر وراءه. كانت سيدة في حوالي الثلاثين، ذات وجه جاد. انحرف قليلاً. أخلى للسيدة مكانه تأدباً أو ربما هرباً من مواجهة الموقف الصعب الذي لم يقطع فيه برأي. لم يكلف نفسه عناء التفكير في السبب الذي حدا به لفعل ما فعل. فقط شعر بالارتياح لأنه أخلى مكانه. شعر أنه أتاح لنفسه فرصة أخرى للتفكير.

نظر درويش إلى الفتحة. كان الصيدلي قد حمل علبتيّ دواء للرجل من أحد جوانب الصيدلية وضعهما على الطاولة أمامه. ثم انحنى مرة أخرى فوق الوصفة. حرّك شفتيه. ثم ترك الوصفة واتجه نحو خزانة دواء قائمة إلى اليمين. جلب منها علبة دواء زرقاء. بعد ذلك راح يقارن أسماء العلب بالأسماء الواردة في الوصفة قبل أن ينكب على كتابة طرق استعمال الدواء على العلب.

قال درويش: «لا يمكن أن أبقى هكذا إلى الأبد. يجب أن أقرر بسرعة. هل أريد دواء الظهر أم لا؟» في تلك اللحظة امتد سلك من الألم ابتدأ من ورك درويش ومرّ عبر الفخذ والساق حتى القدم.

قال الصيدلي لدرويش، وكان قد عبأ علب الدواء في كيس من الورق لرجل الطويل الذي ما لبث أن حمل دواءه ومضى:

- تفضل.

كان قد لاحظ وجوده منذ زمن.

فوجئ درويش بنداء الصيدلي له. كان قد عمل حسابه فابتعد عن مكانه القديم وتقهقر إلى ما وراء السيدة مفسحاً لها الدور. كان يؤثر في كل الأحوال، إذا ما تقدم من الصيدلي ووضع وصفته بين يديه، أن تكون الصيدلية خالية إلا منهما هما الاثنان. كان ذلك في رأيه أدعى للأمان.

وأتى درويش حركة من رأسه ومد بلطف مشيراً نحو السيدة.

أحنت السيدة رأسها لدرويش ونبست شفتاها:

- شكراً.

وهي تتقدم من فتحة الصيدلي، شعر درويش أنه سجل انتصاراً. وعاد له اطمئنانه. تمنى في تلك اللحظة ألا يدخل الصيدلية شخص جديد.

وضعت السيدة طلبها بين يدي الصيدلي ببضع كلمات، ذهب على إثرها إلى جانب من الصيدلية وحمل من خزانه علبة معدنية عليها صورة طفل فأدرك أنها علبة حليب. لم يتمكن من قراءة اسم الحليب. فكر: «أهذا هو؟». نظر إلى صورة طفل الدعاية الذي يزيّن صدر الصيدلية. كان الطفل ما زال يضحك. قال: «حليب المرأة غير حليب الصورة». وفكر أن حليب الأطفال أنواع على كل حال. لكنه أحب صورة طفل الدعاية أكثر وآثره على حليب السيدة دون أن يدرك لذلك سبباً محدداً. وفكر: «ربما كان هذا». وانحرف نظره يميناً فوقع على صورة المركب. كانت أشرعته منتفخة بالهواء. قال: «أين رأيت هذه الصورة؟».

- تفضل.

قال الصيدلي لدرويش.

- نعم.

أضاف وهو ينظر إلى ساعته. كانت السيدة قد حملت مشترياتها واتجهت نحو باب الخروج. وببضع خطوات صار درويش عند الفتحة. ثم بيد مرتعشة سلّم الصيدلي وصفة دواء من نسختين واحدة بيضاء وأخرى زرقاء.

نظر الصيدلي إلى الوصفة.

- هل يؤلمك ظهرك؟

قال دون أن يرفع نظره عن الوصفة. رد درويش:

- نعم كثيراً.

- وماذا تستعمل؟

قال درويش بصوت ضعيف:

- حقن ودهان.

هات الوصفة.

قال درويش بصوت ضعيف:

- أريد أن استبدل الدواء.

رد الصيدلي بلا مبالاة:

- لماذا؟ الدواء جيد.

قال درويش بصوت منكر:

- لا أنوي استعمال دواء الظهر. أريد أن أستبدله بشيء آخر.

رفع الصيدلي عينيه عن الوصفة. نظر ملياً إلى درويش. قال بلهجة أحس بها درويش تفتقر إلى الحزم:

- ذلك ممنوع.

فكّر درويش أن يقول «كثيرون يفعلون ذلك» لكنه استبدل قائلاً:

- إني أحتاج إليه أكثر من دواء الظهر. ظهري لا يؤلمني حالياً على الأقل.

وأبرق دماغ درويش إلى أعصابه ليكذب ادعاءه. وبسرعة اللمع أحس بالألم من الورك إلى إبهام القدم اليسرى.

وتبادل الرجلان نظرات لثوان خالها درويش لا نهاية لها، حاول أثناءها أن يسبر أغوار عيني الصيدلي. كانت العينان تبدوان له من وراء زجاج النظارتين، كبيرتين زجاجيتين لا أثر للحياة.

قال الصيدلي فجأة وقد أشاح بوجهه جانباً:

- ذلك ممنوع.

ولم يتحرك درويش من مكانه. بل ظل شاخصاً ببصره إليه. وما عتم الصيدلي أن أضاف بعد فترة صمت بسرعة ولهوجة:

- طيب. طيب. ماذا تريد؟ يبدو لي أنك في أزمة سأتساهل معك هذه المرة.

أخرج درويش بارتباك ورقة من جيبه ناولها إلى الصيدلي.

نظر درويش إلى صدر الصيدلية. كان الطفل يضحك سعيداً معافى.

قال درويش مشيراً إلى الورقة:

- وصفه طبيب الأطفال.

وأحس بلزوجة تحت أبطيه كأنه كان يلاكم.

نظر الصيدلي إلى الورقة التي في يده. وهز رأسه.

فجأة رن جرس الهاتف فمضى الصيدلي إليه ورفع السماعة إلى أذنه.

بقي درويش وحده. نظر إلى باب الصيدلية وراءه.

منذ خمسة شهور وضعت زوجته ولدها الخامس. وقتها قال: «هذا يكفي. لا إنجاب أولاد بعد اليوم. صارت أعباء الحياة فوق طاقتي. سأبحث عن مانع للحمل» وارتاح إلى هذا القرار. ومضت الأيام ولكن فجأة، ولسبب ما، نضب حليب زوجته فذهب إلى أمه، وكان سمعها قد ضعف، فأخبرها بصوت عال بما آل إليه وضع زوجته. فنصحته أمه أن يطعم زوجته اللوز والفستق والبندق. وقالت له في أيامنا عندما كان يجف حليب امرأة كانت تأكل المكسرات. كانت المكسرات أرخص من التراب. كما كانت تأكل اللحم والشحم فتعود إليها الدرّة. فقال لأمه بصوت عال: إن المكسرات صارت أغلى من التبر، وطلب إليها أن تدله على أشياء أرخص. فأشارت عليه بفستق العبيد. فقال لها: إن فستق العبيد صار بدوره باهظ الثمن. وطلب شيئاً آخر. فقالت له عليك بالبطم. فقال البطم تتحمله ميزانيتي. وبينه وبين نفسه شك قليلاً

في جدوى البطم. لكنه قال لأجرب فلن أخسر شيئاً كثيراً على كل حال. كما يبدو لي إنه الشيء الوحيد الذي تسمح لي ظروفي المادية أن أفعله الآن على الأقل. وحمل البطم إلى زوجته وحشا بطنها به. وطيلة ذلك اليوم، وكان يوم جمعة. عطلته الأسبوعية، وطيلة المساء والليل كان لا يني ينظر إلى صدر زوجته ليرى إلى ثدييها هل تكورا واكتنزا بالحليب. ومضى يومان ثلاثة. كان الطفل الذي لا يكف عن الصراخ أثناءها قد دار على نساء الحارة المرضعات حتى تعود إلى أمه الدرّة. لكن الدرّة لم تعد إلى أمه، وظل ثدياها على حالهما مهدلين بائسين ورفضا أن يستجيبا إلى البطم. وفكر درويش أن البقرة تُحول الحشيش والشعير إلى حليب. وكذلك العنزة والغنمة وكل الحيوانات الثديية. فما الذي يحدث للمرأة، وهي ثديية، من الثدييات. ما الذي يحدث لها حتى تعجز أحياناً عن تحويل علفها إلى حليب. وتذكر أنه قرأ مرة أن العلماء يعكفون على اختراع آلة، تعلف بما تعلف به الحيوانات، لإنتاج الحليب. وفكر ماذا حدث لهذه المحاولة. ثم تساءل في ما إذا كان عجز المرأة عن إنتاج الحليب، في وقت من الأوقات، يرجع إلى أسباب مرضية ونفسية.

لم يبق أمام درويش سوى العلم عساه يجد له حلاً فمضى بزوجته وطفله إلى طبيب أطفال بعد أن استدان من زميل أجر المعاينة.

قال الصيدلي الذي عاد لتوه بعد أن أنهى المخابرة الهاتفية:

- هل أنت متأكد أنك لا تحتاج إلى دواء الظهر؟

رد درويش:

- نعم.

فهز الصيدلي رأسه هزّة قالت: «أنت وشأنك».

ومن جديد أبرق الدماغ إلى الأعصاب ليكّذب ادعاء درويش فلمع صلبه بشكل عرضاني مما اضطر معه للوقوف فجأة على نحو متصلب مستقيم.

وعاد جرس الهاتف إلى الرنين فمضى الصيدلي وحمل السماعة إلى أذنه وقد بدا عصبياً نوعاً.

تشاغل درويش بالنظر إلى رفوف الدواء من حوله. لاحقه صوت: «ماذا فعلت يا درويش أنت الذي كنت تستصغر الآخرين من مثل هذه الأعمال؟ هذه سرقة». قال درويش باستحياء:

«حط في الخرج. كلهم في الشركة يفعلون ذلك. من الرئيس إلى الآذن. من أعلى السلم إلى أسفل السلم. ما من أحد يفوت فرصة. ما من أحد يترك وسيلة».

وقفت عينا درويش عند صورة الطفل الضاحك الرافل بالصحة. كانت ثمة كتابة محجوبة في أسفل الصورة. فكر: «ما اسم حليبه؟ إنه حليب ممتاز». انتقل بعينيه إلى صورة المركب الشراعي. فكر: «منذ زمن بعيد رأيت هذه الصورة، هذا المركب المبحر. أين؟».

وعندما عاد درويش من رحلته كان الصوت في انتظاره: «لا تسرق. عيب عليك». فدار لسانه بشكل آلي: «لا تسرق. لا تزن. لا تشته امرأة جارك. لا تشهد شهادة زور».

وتساءل درويش عما إذا كان موسى قد قال وصاياه قبل أن يقتل المصري. وتساءل عما إذا كان يحق لقاتل أن يصير نبياً لشعب ويرفع شعارات ويقول وصايا. وقال: «بالتأكيد لم تجرش زوجة موسى البطم من أجل الحليب، ولو فعلت لربما صارت وصاياه ٩ وليست ١٠». وفكر: «لماذا لم يقل موسى وصاياه عندما كان المقلاع في كتفه؟» وأضاف: «سهل على الأنبياء الذين لا تتهدل أثداء زوجاتهم أن يقولوا الوصايا». وقال: «كل أخلاق لا يشارك الدراويش في صنعها باطلة».

ابتسم درويش لما دار في ذهنه من أفكار. وسخر من فلسفته المفاجئة. وتساءل عما إذا كان يؤمن حقيقة بهذه الأفكار. وعمّا إذا لم تكن ردة فعل إزاء العمل المخزي الذي يقوم به.

حين عاد الصيدلي من مخابرته الهاتفية مقطب الوجه، واسع العينين وراء زجاج نظارتيه طارت كل الأفكار الفلسفية من رأس درويش وعاد إلى ثيابه ليرى كم هو غارق في بحر من العرق.

قال الصيدلي:

- إذن ماذا قلت؟ طيب. طيب. فهمت.

ونظر إلى الوصفة. وأجرى عملية حسابية سريعة. ثم ذهب إلى خزانة وأتى بثلاث علب معدنية وضعها على الطاولة أمامه. نظر درويش إلى العلب المعدنية. كان عليها صورة طفل عار كما ولدته أمه يضحك رافلاً بالصحة والعافية.

سأل درويش:

- كم يوماً تكفي العلبة الواحدة؟

قال الصيدلي:

- يومين ثلاثة. ذلك يتوقف على عدد الوجبات.

أخذ الصيدلي كيساً من الورق غيب فيه العلب الثلاث.

قال الصيدلي:

- هذا بدل دوائك بعد الحسم. الحسم ٤٠%.

قال درويش: «هذا سارق آخر». وكاد يصرخ يحتج «الحسم ٣٠% وليس ٤٠%». لكنه كظم غيظه. وحمل كيس الورق. وحينما استدار ليتخذ طريقه إلى الخارج دخل الصيدلية شخص، فلملم درويش أطرافه ورأسه وانحسر داخل ثيابه ليسبح في عرقه وتساءل في الحال: «هل يعرفني ويعرف أين أعمل؟».

وقف على باب الصيدلية. تطلّع وراءه. كان الصيدلي في الفتحة منهمكاً في حديث مع القادم الجديد.

أخرج درويش علبة من كيس الورق. نظر إلى العلبة. كان طفل العلبة يضحك عارياً كما ولدته أمه مسربلاً بالصحة والعافية. أدار العلبة المعدنية بين يديه. قرأ عليها. السعر ٦٣٥ غ. س.. فكر بقلق أن العلبة الواحدة تكفي يومين. وأمامه أيام وشهور بطولها، وهو عاجز تماماً عن تحمل أي عبء صغير جديد يضيفه إلى أعبائه العائلية المرهقة. ثم خطر له أن هناك ظهره،

وقصته مع ظهره قصة طويلة لا نهاية لها كأغنية الشيطان وفي مقدوره أن.. ويوماً ما من يدري فقد تواتيه الشجاعة ويختلق شيئاً ما لطبيب الشركة عن معدته.

غيّب العلبة في الكيس. ومن فوق عتبة الصيدلية نظر إلى الشارع الطويل المكتظ الذي يتعين عليه أن يقطعه ليصل إلى بيته. وفي اللحظة التي عزم فيها أن يترك العتبة، في نفس تلك اللحظة بالذات، خيل إليه أنه دخل إلى الصيدلية درويشاً وخرج منها درويشاً آخر. ثم تنهد. وقذف بنفسه إلى الشارع وضاع في الزحام.

* * *

# الذي فقد جناحيه

كان على فرحان بعد أن انصرف رواد المشرب وأغلق على نفسه باب المحل من الداخل، أن يرفع الكراسي فوق الطاولات. كما فعل مرة بعد مرة، لأكثر من سنة قبل أن يأوي إلى فراشه، لينهض في الصباح كي يغسل أرض المشرب ويجلو المكان. لكن كان عليه هذه الليلة بالإضافة إلى عملية رفع الكراسي المعتادة، أن يضع عقاباً محنطاً في صندوق من الخشب اشتراه غرباء أجانب. كانوا ثلاثة اشتراه أحدهم بعد أن تعتعهم السكر، لقد نهض وبيده كأس مترعة فاقترب من الطائر. كان مخموراً تماماً. وكان قد توقف عند طاولات كثيرة يسقي أصحابها من كأسه قبل أن يتوقف عند الطائر.

قال للطائر:

- لم يبق إلا أنت.

قال له صاحبه:

- العقبان لا تشرب.

كان الطائر ينهض على حامل، منشور الجناحين مدفوع الصدر إلى الأمام. أما عنقه فمرتد إلى الخلف. كان يبدو وكأنه قد تهيأ للطيران هرباً من المشرب. كان الجو في المشرب في تلك اللحظة صاخباً تماماً. الموسيقى الصادرة عن الصندوق القائم في الزاوية تصدح مختلطة بغناء البحارة وصخبهم. وكان المكان عابقاً بالدخان.

قال صاحب المخمور لرفيقه:

- دعه وتعال اشرب معنا.

قال ذلك في الوقت الذي وصل فيه فرحان إلى الحامل الذي يستوي فوقه الطائر المتحفز للطيران.

قال المخمور:

- أريد أن أشرب معه. أحب أن أرى كيف يبدو عقاب بعد أن يشرب قدراً من الويسكي.

قال فرحان:

- إنه لا يشرب. كثيرون حاولوا أن يغروه بالشرب لكنه لم يفعل.

قال المخمور باستسلام:

- حسناً. هذا شأنه. فقط أردت أن أعرف كيف يبدو عقاب بعد أن يشرب قليلا من الويسكي.

وعاد إلى حيث يجلس رفيقاه وراء الطاولة وأنشأ يشرب معهما. وحسب فرحان أن المشكلة انتهت بعودة المخمور وإنهاكه في الشراب.

في تلك اللحظة لمح فرحان في عيني الطائر نظرة امتنان ترجمها على الفور.

- هذه خدمة أخرى أضيفها إلى ما أسديته لي سابقاً.

وبدأ فرحان برفع كراسي الطاولة التي في المقدمة رفع الكرسي الأول ثم الثاني.

إنه لا يزال يذكر أول يوم عمل فيه في المشرب. كان العقاب وقتها في واجهة زجاجية وكان في الواجهة بالإضافة إليه عاديات شرقية.

قال فرحان وهو يفتح باب الواجهة لينظفها من الغبار:

- ماذا جئت تفعل هنا؟

قال الطائر:

- إنني كما ترى حبيس هذا القفص الزجاجي حتى تحين اللحظة التي يبتاعني فيها أحد الغرباء الأجانب.

لقد شهدت هنا كثيراً من العاديات الشرقية التي ابتاعها أجانب واحدة إثر الأخرى ولا أدري متى يحين دوري.

وبعد فترة صمت سأل الطائر:

- ماذا يقع وراء المشرب؟ إنني ما فتئت. منذ أن جيء بي إلى هنا، أسمع هديراً مختلطاً بوصوصات غريبة.

فقال فرحان:

- أولا تدري ماذا يقع وراء المشرب حقيقة؟ إنه البحر. أما الوصوصات فهي أصوات النورس.

قال الطائر:

- آه تلك الطيور الضعيفة. إني أعرفها.

في ذلك اليوم قرر فرحان أن يُخرج الطائر الحبيس من قفصه الزجاجي. لقد أشفق عليه. وبقي أن يقنع معلمه.

ورفع فرحان بتثاقل الكرسي الثالث فوق الطاولة. كان قد شرب قليلاً من هذه الطاولة أو تلك وهو يقدم طلبات رواد المشرب مع أن معلمه قد حظر عليه الشرب أثناء العمل. لكنه كان حزيناً من أجل الطائر. فالمخمور الذي حاول في البدء أن يرغم الطائر على الشراب، ما لبث أن عقد صفقة مع صاحب المحل على شراء ذلك الطائر مع بعض العاديات.

قال فرحان في نفسه: «غداً لن يكون هنا بالتأكيد». واستعاد في خياله ذكرى ذلك اليوم الذي تم فيه نقل الطائر من الواجهة إلى الحامل. لقد بذل فرحان جهداً كبيراً حتى نجح في إقناع المعلم بضرورة تغيير مكان العقاب تسهيلاً لعملية تنظيف الواجهة الزجاجية والعاديات. وخوفاً على الطائر من إصابة غير مقصودة أثناء التنظيف.

كان الوقت صباحاً والمحل مازال مغلقاً أبوابه عندما فتح فرحان باب الواجهة الزجاجية. لقد حصل منذ الليل على موافقة رئيسه بالنقل. وحمل الطائر باحتفال مهيب ثم وضعه حامل خشبي كان في الأصل لأصيص من

الزهر. لقد سحب فرحان الحامل إلى قرب النافذة المطلّة على البحر. أراد أن يعد للطائر مفاجأة. شاء أن يكون البحر أول شيء يقع عليه نظره.

قال فرحان في نفسه وقد بدأ يرفع كراسي الطاولة الثانية: «لن أنسى تلك اللحظة عندما حملته إلى قرب النافذة».

في ذلك اليوم كان البحر هادئاً مترامياً أزرق. وفي البعيد كان يلوح شراع أبيض يتألق تحت ضياء الشمس. وهنا وهناك في الميناء بواخر. وعلى الشاطئ تحت النافذة توشوش الموجات الرمل والحصى ثم ترتد عنهما. وعلى صفحة الماء أو أعلى قليلاً أو كثيراً تحوم طيور النورس.

ظل العقاب صامتاً فترة طويلة ينظر من فوق الحامل عبر النافذة. ناشراً جناحيه دافعاً صدره إلى الأمام ومرتداً بعنقه إلى الخلف. كان كل ما فيه متحفزاً للتحليق. وبدا أنه لم يكن يعوزه سوى أن يحزم أمره وينطلق.

وهمس قائلاً:

- عالم رائع. ولكن ما أتعس أن يكون الواحد عاجزاً عن الطيران وسط هذا الكون المدهش.

ثم تساءل بأسى:

- ترى كيف هي المروج والغابات وقمم الجبال الآن؟ كيف تبدو من الأعلى؟

وحضّر فرحان لنفسه قدح قهوة وجلس بدوره وراء النافذة يرشف منه بتلذذ. وهناك عرف كل منهما قصة صاحبه. فرحان ترك عائلته في الريف تعاني من الفقر والتسلط. وجاء إلى المدينة بحثاً عن عمل ليدخر شيئاً من المال يساعد به عائلته. أما العقاب فكان يعيش في وكر على قمة جبل. وذات يوم هبط من علٍ لشأن ما. وفجأة «طاخ» أصيب في جناحه. ثم وجد نفسه في واجهة زجاجية لا يقوى على الطيران مع غزال وثور ورأس (نفرتيتي) وهاون نحاسي أصفر ونارجيلة وكوفية وعقال وأشياء أخرى يتفرج عليها الغادون والرائحون على طريق الميناء.

ورفع فرحان كرسياً آخر فوق الطاولة. فعل ذلك ببطء هذه المرة أكثر منه في المرات السابقة. كان قد بدأ يشعر بثقل في معدته وبشيء ينبت في رأسه. قال في نفسه: «كان ينبغي أن أحمله وأمضي». مرة قال له الطائر بعد أن انصرف رواد المشرب: «خلصني من هذا المكان. لم أعد أطيق البقاء في هذا الجو المبتذل. إنني أختنق». ووعد فرحان الطائر أن يفعل. فكّر مرة أن يسرقه ويهرب به. وفكر مرة أخرى أن يدّخر مبلغاً من المال كي يدفعه لصاحب المشرب ليحرر الطائر. لكن مجرد التفكير بجشع صاحب المشرب جعله يؤجل الموضوع في البدء، ثم يعلقه إلى أجل غير معلوم. قال فرحان وقد أخذ إحساسه بثقل معدته يزداد على نحو لم يكن يتوقعه: «كان ينبغي أن أدّخر ذلك المبلغ مهما كان مقداره». وحمل كرسياً ثالثاً فوق الطاولة الثانية وفكر: «لكن كان عليّ أن أعيل أسرتي هناك. ماذا أفعل؟ كنت رجاءها». وبينه وبين نفسه شعر أنه لم يكن صادقاً تماماً. شعر أنه لم يمد لها يد العون كما كان يُؤمل منه. وجلّ ما فعله أن أجزل لها في الوعود في حين أمسك يده عن العطاء الفعلي.. وهمس لنفسه وهو يتحرك نحو الطاولة الثالثة: «أنا نفسي لم يخطر ببالي يوماً أن ينتهي حالي إلى ما انتهى إليه». وفكّر أنه سكر وعربد كثيراً. غرق في المباذل حتى الأذنين. جرى وراء النساء. خدع البحارة المخمورين الذين جاؤوا يبحثون عن التسلية. سرق نقودهم. زيّف فواتير الحساب. قُوّد فأتى لهم بالنساء. ونزل عند رغبة معلمه فغش لهم الشراب.

ورطب شفتيه الجافين. قال: «ماذا بقي مني؟ لم أمد يد العون لأسرتي. ولم أعتق الطائر. لعله آن الأوان لأخجل من نفسي».

واقترب من الطاولة الثالثة. أمسك الكرسي الأول ليحمله إلى الطاولة. ارتطمت رجله بزجاجة شراب مكسورة فتصاعد منها رنين أجوف. شعر بإعياء فجلس على الكرسي الذي كان ينوي أن يرفعه فوق الطاولة. ازداد الثقل في معدته. نظر حواليه بوهن. الطائر فوق الحامل الخشبي. ثمة طاولات فوقها زجاجات فارغة وأقداح وبقايا طعام. كرسي مقلوب. أعقاب سجائر وشراب مسفوح ونفايات تغطي أرض المكان.

وشرّش ذلك النبت الذي قام منذ حين في رأسه. وتماوج هناك شيء ما في معدته. قال في نفسه: «لعله يحسن بي أن أترك كل شيء للصباح». نظر إلى يده. كان فيها قطعة نقود من عملة أجنبية. تذكر المخمور والمهمة التي تنتظره. نظر حواليه مرة أخرى. الطائر فوق الحامل الخشبي. الطاولات وفوقها الزجاجات الفارغة والأقداح وفضلات الطعام. الكرسي المقلوب. أعقاب السجائر والنفايات تغطي الأرض.

قال: «يجب أن أحمل الطائر إلى الصندوق وأثبت غطاءه». لكنه فكّر أن يترك كل شيء على حاله الآن لأنه لا يقوى على دق مسمار.

وبغتة وبينما هو نهب آلاف الأشياء التي ازدحم بها رأسه على غير توقع، هبّ على قدميه واندفع مسرعاً إلى الجانب الآخر من المشرب، متحاشياً أن تقع عيناه على الطائر. يده على فمه تحاول أن توقف ذلك الشيء الكريه الذي تصاعد إلى حلقه فجأة. بينما كانت يده الثانية لا تزال تطبق بإصرار على قطعة معدن باردة.

* * *

# الرجل العائم

عزم يوسف على الانسحاب من وسط الحشد. كان يشعر بالضيق في مكانه ذاك. في البدء فكر في البحث عن مكان أقل كثافة. في الأطراف أو في المقدمة. كان يريد أن يرى ماذا يفعلون هناك في المقدمة. وماذا يقولون. لم يكن يرى وهو في مكانه من الوسط شيئاً. ولم يكن يسمع سوى ترديد لما يهتفون هناك. يعيش. يعيش. يعيش. أو يسقط. يسقط. يسقط. لكن من هو الذي يعيش. ومن هو الذي يسقط. لا يدري.

ويوسف عصفور ملون الريش. رقيق التكوين، لكنه لم يكن يحمل بين كتفيه رأس ببغاء. فهو يحب أن يعرف قبل أن يرد على هتافات الهاتفين. لماذا يقول يعيش. يعيش. يعيش. أو يسقط. يسقط. يسقط. مرة قال أبوه: «المظاهرة قاطرة ملغومة تسيِّرها أهواء شخصية فحذار أن تركبها». فابتسم يوسف ووعد أباه بعدم ركوب القاطرة.

كان يوسف لا يحنث وعداً قطعه على نفسه. لكنه في هذا الصباح وجد نفسه يضعف أمام الإغراء. كان يقف على الرصيف أمام البيت عندما مرت القاطرة. كان أصحابها عصافير مثله. لهم نفس الريش. ونفس التيجان التي تزيّن رأسه. قال في نفسه: «لأكونن خائناً لأبناء جنسي إذا لم أرافقهم» وصفق بجناحيه وانضم إلى جماعة العصافير التي مرت به.

نظر يوسف مرة أخرى حوله. كان شعوره بالضيق يتفاقم. دفع كلتا يديه بين اثنين من الواقفين أمامه ليفسح لنفسه طريقاً. كانا كتلتين من الرصاص والحماسة فلم يستطع زحزحتهما أو على الأقل لفت انتباههما. كانا يشرئبان بأعناقهما إلى الأمام. ويهتفان كما تشرئب الديكة عندما تصيح.

وداس أحدهم قدم يوسف فآلمه. وأحس بلزوجة في حذائه. فكّر أن يلفت نظر الرجل الذي هرس إصبع قدمه. لكنه وجد من العبث أن يفعل ذلك. كان الرجل في شاغل عنه. كان مستغرقاً بكليته بنداء الحشد. تساءل يوسف: «هل جرح إصبعي». وتطاول بقامته حتى وقف على رؤوس أصابعه. ومدَّ عنقه إلى الأمام. كانت مقدمة المظاهرة واقفة في مفترق أربعة طرق متعامدة، وكانت تشكل رأس صليب. أما طرف الصلَّيب فكان يمتد، ماراً بيوسف، عميقاً إلى الخلف.

ورأى يوسف من مكانه ذاك خطيباً حُمل على الأعناق. كان وجهه محمراً، وشعره مشعاً. ولاحظ يوسف أن الخطيب طوى ورقة كان يحملها بيده فخّمن أنه قد أنهى خطابه. لكنه كان لا يزال يتكلم. يفتح فمه ويغلقه. كانت الضوضاء عالية فلم تصل إلى مسامع يوسف سوى كلمات متقطعة. الأرض. الوطن. الحرية.

وخيل ليوسف أن كلمات: الأرض. الوطن. الحرية. لم تترك في أذنيه وقعها الذي عهده في نفسه من قبل. قال لنفسه: «أيكون ذلك لأن أحدهم هرس قدمي؟ هل هرس قدم يجعل للكلمات وقعاً مختلفاً؟».

قال يوسف لفتى يقف قربه:

- ماذا يقولون هناك في المقدمة؟

قال الفتى:

- لست أدري.

قال يوسف:

- كيف تهتف إذن: يعيش. يعيش. يعيش. أو. يسقط. يسقط. يسقط. وأنت لا تعلم من هو الذي يعيش ومن هو الذي يسقط.

ضحك الفتى وقال:

- هل تعتقد أن ذلك مشكلة؟ فعندما يهتفون لشيء أستطيع أنا أن أهتف لشيء آخر. أستطيع أن أتخيل شيئاً أضعه نصب عيني وأتخذه نموذجاً ليعيش أو يسقط. قد يكون أستاذ الجغرافيا، وقد يكون أبي.

قال يوسف.

- إنه لشيء جيد أن يتخذ المرء أباه نموذجاً ليعيش. يعيش، يعيش.

قال الفتى:

- يؤسفني أن أقول لك أني اتخذته مثلاً ليسقط.

وتساءلت عينا يوسف دهشة كما تساءل لسانه:

- عجباً؟

قال الفتى:

- لك أن تعجب إن شئت. إنه يمثل الديكتاتورية في نظري. إن كلمته نافذة في البيت مثل قانون إلهي. لقد منعني من التعبير عن ذاتي. حتى ثيابي يُلبسني إياها على هواه. وليس حال أهل البيت أفضل من حالي. فقد عانوا من استبداده ما عانوا. أين كنت يا ولد؟ أين كنت يا بنت؟ ماذا كنت تفعل في الخارج يا ولد؟ ماذا كنت تفعلين يا بنت؟ لقد أحكم إغلاق النوافذ وسدّ منافذ الشرفات. مع أن أمي تلاحقه وتقول له باستمرار: دع الشمس تدخل يا رجل فقد تعفن أثاث البيت والجدران والأرض من الرطوبة.

وأضاف الفتى بعد أن أصاخ بسمعه برهة لهدير الحشد:

- صار ظله لا يطاق مع أن مظهره لا يدل على أفعاله. إنه شاب ويرتدي الثياب العصرية. وقد خدع بمظهره الكثيرين. والحق أن لأبي صورتين: صورة يختال بها في السوق وأخرى كريهة في البيت.

وفجأة انتفض الفتى مثل نابض واستجاب لنداء الحشد فهتف:

- يعيش. يعيش. يعيش.

وفكر يوسف أن يسأل الفتى: «من هو الذي يعيش؟». لكنه في اللحظة التي عزم فيها أن يفعل حال رجل بينه وبين الفتى فتعذر عليه أن يسأله. وفي اللحظة التالية كان الفتى قد ابتعد عنه. وحدّث يوسف نفسه: «من يدري! لعلي لو سألته من هو الذي يعيش لقال لي، وهذه أيضاً ليست مشكلة. إنني أستطيع أن أتخيل أباً لا يلبسني ثيابي على هواه وكلمته ليست منزّلة من السماء. ولا

يغلق نوافذ البيت دون الشمس. أستطيع أن أتخيل مثل هذا الأب وأهتف له: يعيش. يعيش. يعيش».

تناقص الحيّز الذي كان يوسف يستطيع التحرك خلاله. وتصاعد غبار ناعم لا يُرى، لكنه خانق بفعل حركة الأرجل المتقلقلة. كانت حركة كالموج لا تهدأ.

شعر يوسف بالضيق فرفع يده بمنديله ومسح وجهه. ابتدأ بجبينه. كان جبينه متعرقاً تماماً. ثم هبط بالمنديل إلى بقية وجهه. شعر بالانتعاش لحظةً بعد أن جلا وجهه. وأحس إتماماً للعملية برغبة في بصقة اندفعت إلى حلقه.

وفتح فمه ليتفل بصقته. لكن الزحام كان كثيفاً حتى أنه لم يجد أي حيز يبصق فيه. وفرد منديله ليفرغ بصقته، كان المنديل قد اتسخ تماماً بعد أن مرَّ به على وجهه. وأحس بالغبار وهو يشهق يملأ فمه المفتوح فاندفع يفرغ بصاقه بسرعة في المنديل. ثم ما لبث أن طواه وحرك يده المثنية ليعيده إلى جيبه. ارتطم مرفقه من الخلف بصدر إنسان ما فصدرت عنه شتيمة وتذمر. ودّ لو يلتفت إلى الخلف ويعتذر للرجل الذي أصابه بمرفقه. غير أن الزحام كان شديداً فلم يترك له مجالاً ليفعل ذلك.

أحس يوسف بضغط الأجسام خلفه وعلى جانبيه كما تخلخلت كتلة الواقفين. أدرك في الحال أن المظاهرة لا بد قد استأنفت السير فبذل جهداً من ناحيته ليتقدم إلى الأمام. استطاع أن ينقل قدميه نقله صغيرة ليس غير. خطوة أو بعض خطوة. قال في نفسه «كم تتحرك ببطء». وفكر كيف كان واقفاً في الصباح على طرف رصيف عندما مرت به المظاهرة وهي تهتف: «الحرية. الطغاة. الاستغلال». وفكّر أيضاً كيف حاول أن يصم أذنيه عن سماع كلمات: الحرية. الطغاة. الاستغلال. وكيف بذل جهداً جباراً كي لا يتحرك من مكانه. لكن رجليه. وقد كانتا مبتدئتين تبحثان عن إيقاع لهما بين أرجل الراقصين، خانتاه فلم يستطع أن يمسك بهما –وقد شرعتا تهتزان – عن الاستجابة لنداء الإيقاع.

ازداد ضغط الأجسام على ظهر يوسف وكتفيه. وحين وصل إلى حد لم يعد في مقدوره تجاهله، رفع رجله في محاولة لزحزحة موقفه بالتقدم قليلاً

إلى الأمام. غير أن رجله بحثت عبثاً عن مكان لها لتستقر عليه. كانت كيفما اتجهت ارتطمت بأرجل الآخرين. قال في نفسه: «لا جدوى». وحرك رجله ليعيدها إلى موضعها فصدرت أصوات وشتائم من الواقفين. لم يعد هناك موطئ لقدمه. لقد شغلته أقدام أخرى. واحتار ماذا يفعل بقدمه المعلقة في الهواء. وأرخى ثقل جسمه على رجله الثانية. وفكّر في الحال التي هو عليها وقال: «هل الذنب ذنبي. لم يكن في ميسوري تجاهلها. يا إلهي المظاهرة تستدرجك للجري وراءها كالمرأة».

واشتد الضغط على صدره من الأمام والخلف. تنفس بصعوبة ورشح جبينه عرقاً. أراد أن يرفع يده ليمسح جبينه. ابتدأ بيده اليمنى. كانت مدقوقة إلى جنبه بفعل ضغط أجسام الآخرين فلم ينجح في رفعها. قال في نفسه: «ربما كان الزحام هنا أشد من الجهة الأخرى». وحاول أن يرفع يده الثانية. استطاع أن يزحزحها حتى خصره. وحين ثنى مرفقه ليحمل يده إلى جبينه اصطدمت ببطن رجل ثم عجز بعد ذلك عن رفعها مقدار شعرة. لقد خيل إليه أنها ارتطمت بجدار من الإسمنت. وهنا واجهته مشكلة جديدة. فبعد ما فشل في رفع يده إلى وجهه كان يتعين عليه أن يعيدها إلى جنبه. كان وضعها هناك وهي مثنية، بينما المرفق في بطن الرجل أمراً لا يمكن احتماله لمدة طويلة خاصة وأن الرجل بدأ يسب ويلعن. وخطر له خاطر ثم ما لبث أن حشد كامل تأهبه لتجسيده في عمل. كانت خطته تتلخص باتخاذ يده المثنية المحصورة نقطة ارتكاز ثم حمل كل ثقل جسمه إلى هذه اليد، وفكّر: «من يدري لعلي أنجح في نفس الوقت في إعادة رجلي المعلقة في الهواء إلى الأرض». ثم شرع في الحال بتنفيذ خطته. بدأ بالميل بكتفه الأيسر. ثم حمل ثقل كتفه الأيمن ونصف جسمه الأعلى إلى نقطة الارتكاز. وعمد كي يكون تفريغ قوته كاملاً، عمد إلى رفع رجله اليمنى عن الأرض لدعم نصف جسمه الأعلى. لكنه وجد في الوقت الذي حسب أنه فعل شيئاً لفك يده المحصورة، وجد، وكم دهش لذلك، أن يده لا تزال أسيرة في حين تعلقت رجله اليمنى في الهواء. نظر إلى وضعه الجديد. ضحك في نفسه وقال ساخراً: «لا ينقصني سوى جناحين لأطير» ثم اكتئب وجهه وهمس لنفسه: «كأنني مسمار في آلة».

وقدّر أن ضغط الأجساد البشرية الذي عصره لن يستمر طويلاً. وفكّر أن هذا الضغط سيخف حتماً عندما ينتهي (أي يوسف) ومن حوله إلى طرف الشارع حيث تقوم الساحة التي تتفرع منها أربعة طرق متعامدة.

كان يوسف قد أضحى في تلك اللحظة لا حول له ولا قوة. رجلاه معلقتان في الهواء. وجسده ملتصق بكتلة الحشد. كانت حركته قد انعدمت تماماً وانتهت لتصبح شيئاً مرتبطاً بالمد والجزر لحركة الجمهور من حوله.

تقلقل الحشد في حركة متموجة. ثم سكنت حركته قبل أن ينعطف إلى اليمين ليدخل في شارع ثان. وسمع يوسف صدى بعيداً لكلمات لم يفهم مضمونها تصاعد على إثرها هتاف: يعيش. يعيش. يعيش. ثم استأنفت المظاهرة زحفها المتردد البطيء. كانت تسير بخطى وئيدة كالسلحفاة. كان يتخلل سيرها من حين لحين محطات تتعالى فيها الهتافات والنداءات، كأنها تتزود بوقود من الحماسة لمتابعة سيرها.

وتوقف رأس المظاهرة مرة أخرى هناك بعيداً في الشارع الثاني. وذيلها ما زال يلتوي وهو ينعطف ليلحق بالمقدمة. واتأد وسط المظاهرة في سيره حتى اضطر إلى التوقف تماماً فتوقف يوسف بدوره بتوقف حركة الحشد ليس غير.

كانت الشمس تأتيه من الخلف. كانت حامية فأحس بها وقد شرعت تعشش في رقبته. وبعد أقل من دقيقتين امتد عشها إلى يافوخه فشعر به يكبر ويكبر.

تفصّد جبينه بالعرق. وبحركة عفوية هم برفع يده ليمسح جبينه. كانت يده مسمرة إلى جنبه بضغط الأجساد المتراصة فلم يستطع. وجرّب باليد الثانية فلم يفلح. قال في نفسه: «إن جبيني ينضح بالعرق. إنني أملك يدين على جنبي. لكنني لا أستطيع رفعهما إلى جبيني. ما نفع يدين إذا كانتا لا تستطيعان مسح العرق عن جبين صاحبهما». ومن بعيد تعالى هتاف: يسقط. يسقط. يسقط. همس لنفسه: «ماذا يقولون هناك في المقدمة. ومن الذي يسقط. ليتني أعلم. ولكن ما أهمية ذلك؟ قد يكون أستاذ الجغرافيا أو أباً يُلبس أبناءه على هواه. ويسد عليهم منافذ الشمس».

وظل رأس يوسف يكبر ويكبر. والشمس تحفر عشها عميقاً فيه. وتدافع الحشد إلى الأمام والخلف فحمل معه يوسف في تقدمه وتقهقره. ولثوان استطاع يوسف أن يحمل نفسه على التفكير في وضعه الغريب الذي انتهى إليه وهمس لنفسه: «كنت يوماً أملك رجلين تساعداني على التنقل. ولا أزال أحس بهما مشدودتين إلى جسمي ولكن ما جدوى رجلين معلقتين في الهواء. ما جدواهما إذا كانتا لا تساعداني على الوقوف».

واستمرت الشمس تأتيه من الخلف. ولكن بعد أن انحرفت قليلاً فمست جانب وجهه وعينه تبعاً لوضعه الجديد الذي حمله إليه الحشد. ورشح جبينه بالعرق وتدحرجت حباته بانتظام في البدء. ثم على نحو عشوائي. قطرات اتخذت لنفسها مسيلاً الصدغ والسالف. وغيرها جرت من بين الحاجبين. وأخرى على صفحة الوجه مارة بالوجنة فيما عدا قطرة انسربت إلى داخل العين فأحرقتها. ثم تلتها قطرة وقطرة ثانية. وجاهد يوسف. وكان قد شعر أنه قد أمسى شيئاً ما. شيئاً خفيفاً جداً فوق تيار من الماء. جاهد كي يظل مشدود الانتباه. مفتح العينين لمعرفة ما يجري أمامه. غير أنه لم يستطع أن يمسك نفسه طويلاً عن إغلاق عينيه أمام حبات العرق الحارقة. ولا أن يوقف خياله عن الجري في حقول مترامية الأطراف وراء أبٍ يفتح للشمس طريقاً بين الغيوم.

* * *

# الحمامة والكشاش

لم تكن تحتاج إلى مزيد من الأدلة لتدرك أن في الجو شيئاً، طائراً أو أكثر. لقد فهمت من اصطفاق الأجنحة التي انطلقت منذ قليل ومن رفيفها المتباعد. ثم من الصفير المتلاحق أن الكشاش قد دفع سرب الإيقاع إلى الفضاء.

قالت بأسى: «هو ذا طائر آخر سيُخدع. طائر انطلق إلى الأعالي ليقوم بنزهة أو ليجرب الطيران منفرداً، لكنه سيُخدع. سيلتف سرب الإيقاع من حوله وسيوهمه بأنه سرب صديق وأنه إنما جاء ليرافقه في نزهته. أو ليعلّمه أسرار الطيران إذا كان حدثاً. أو ليرشده إلى بيته إذا كان ضالاً». وتمنت في سرها ألا تجوز عليه اللعبة ويقع في الأحبولة كما حدث لها ذات يوم عندما انطلقت إلى الفضاء لتتفرج على الدنيا وتجرب جناحيها.

ومن الخارج أتاها لغط الكشاش وهو يتحرك على سطح البيت يهسهس بشفتيه ويرسل الصفير تلو الصفير. ثم وهو يؤنب ابنه ويكيل له السباب لأنه لم ينتبه إلى طيور غريبة تعبر الفضاء.

وشرعت الحمامة تذرع الكِن في الداخل جيئة وذهاباً. ولحظة بعد لحظة راحت تجري غادية رائحة بنشاط ملحوظ كأنما انتقلت إليها عدوى الانفعال من الكشاش. وتساءلت: «هل تمكَن سرب الإيقاع من الطائر؟». ودّت لو تعلم. ولكن كيف لها ذلك وباب الكِن مغلق دونها.

تقدمت من باب الكِن ونقرته بمنقارها مرة ومرة ثانية. ثم تراجعت عنه. نظرت إلى زاوية الكِن. وجدتها فارغة فشعرت بالحزن. منذ بضعة أيام

كانت تشغل تلك الزاوية ثلاث حمامات. كانت حمامات من سرب الإيقاع والمطاردة. وقد أرسلت مرة في مهمة مع حمامات أخريات. ثم عادت مع السرب وفي رفقتها حمامتان غريبتان. في ذلك اليوم حصلت مشادة بين الكشاش وصاحب الحمامتين الأصلي الذي جاء يطالبه بحمامتيه اللتين أوقعهما سربه في الشرك. طبعاً أنكر الكشاش، كما هو متوقع منه، وجود الحمامتين في حوزته ولجأ إلى ما يلجأ إليه الكشاشون عادة فذبح الحمامتين ليخفي الدليل على جريمته. فعل ذلك أمام عيون الحمامات الثلاث التي تراجعت مذعورة حتى زاوية الكِن وظلت هناك أربعة أيام لائذة بعضها ببعض حزينة لا تأكل ولا تشرب. وفي اليوم الخامس دخل الكشاش إلى الكِن وقال:

- هذه الحمامات لم تعد تصلح لشيء.

ثم أخذ مديته من جيبه وذبحها واحدة بعد أخرى. وقال لابنه:

- خذها إلى أمك لتنظفها وتطبخ لنا بطاطا بالحمام.

تألمت الحمامة لمصير رفيقاتها الثلاث وقالت «لقد حزنت الحمامات لأنها أوقعت غيرها من الحمام في شرك الكشاش». لكنها لامتها لسلبيتها. وفكّرت أنه كان في مقدورها أن تفعل شيئاً آخر بدلاً من الوقوف ملتصقة بعضها ببعض ثلاثة أيام في زاوية الكِن مضربة عن الطعام. وقالت: «ما الذي يمسك الحمامة أن تمتنع عن إيقاع غيرها من الحمام في شرك الكشاش. وفي أحوال أخرى ما الذي يوقفها، وهي تملك جناحين، إذا ما دُفعت إلى الفضاء أن تمضي بعيداً عنه».

من ناحيتها هي لم تدّخر وسعاً في سبيل الخلاص والهروب بعيداً عن سيطرة الكشاش. وقد عزمت، منذ أول لحظة وطئت فيها عتبة الكِن وارتّج خلفها الباب. على الفرار من محبسها. وفي الليل عندما دفنت رأسها بين جناحيها ونامت حلمت أنها تطير فوق بحر أزرق.

في صباح اليوم التالي استيقظت فرحة. كان خيالها لا يزال يحلّق فوق بحر أزرق. وراحت في الكِن وجاءت. وعيناها لا تكفان عن التطلّع إلى باب الكِن المغلق متسائلة متى يفتح هذا الباب لتهرب من محبسها وتحلّق بعيداً. كانت ثقتها بجناحيها غير محدودة.

وحين ذهب الكشاش وترك باب الكِن مفتوحاً عجبت الحمامة من تصرفه. لكن عجبها ما لبث أن زال حينما اختبرت جناحيها، لحظة خرجت مع غيرها من الحمامات إلى سطح البيت للترويض وتناول الفطور، وألفت أنها غير قادرة على الطيران.

لم تشعر الحمامة باليأس مع ذلك، ولم تتراجع عن عزمها. وحينما سنحت لها الفرصة بعد قليل سارعت إلى اغتنامها. فتسللت إلى سطح مجاور ومنه إلى حديقة مجاورة. لكنها لم تستطع أن تبتعد عن الحديقة. كانت أسوارها عالية. وكان جناحاها لا يقدران على حملها. ولم تلبث أن أُعيدت إلى السطح. أعادها ابن الكشاش. ومن السطح دفع بها إلى سجن انفرادي. إلى صندوق من الخشب عساها تتعظ لتكون عبرة لمن يعتبر بعد نتف جديد لريش جناحيها الذي أهمل نتفه في المرة الأولى. وحُبست هناك. ومن يومها صار نتف ريشها الأساسي دورياً كيلا يكتسي جناحاها ويقويان.

اشتد صفير الكشاش على السطح وتلاحق بعصبية. تفاقم هياجه. شتم ولده وأنحى عليه باللائمة. فكرت الحمامة: «لعل سرب الإيقاع لم يتمكن من الطيور الغريبة». وانتظرت أن تسمع رفيف أجنحة السرب الآيب بالخيبة. وتصورت الطائر الغريب وهو يرفض الهبوط بإصرار ويحاول فك الحصار من حوله. ثم تصورته يناضل ليجد لنفسه طريقاً بين الطيور التي تحدق به. أكبرت الطائر واحترمت كفاحه في سبيل حريته. شعرت بالسرور لأنها لم تكن في عداد أفراد سرب الإيقاع والمطاردة. وقالت إن عمل سرب الإيقاع والمطاردة عمل قذر. وتساءلت كيف لا يشعر أفراده بالخجل عندما يوقعون طائراً في أحابيلهم ثم يسوقونه إلى الكشاش. وقالت لعل ضميرهم مات. وارتابت أن يكون عندهم ضمير أصلاً. وحمدت الله أنها لم تقم بمثل عملهم يوماً.

فُتح باب الكِن فجأة واندفع الكشاش إلى الداخل. نظرت الحمامة إلى وجهه. كان وجهه يطفح بالحقد وعيناه تنضحان بالغضب. نظر الكشاش إلى الحمامة. اقترب يريد الإمساك بها. قالت: «لقد دنت ساعتي». وفرّت مذعورة. لحق بها وسد عليها المنافذ. قبض عليها خرج بها إلى سطح البيت.

حسبت أنه سيذبحها لتوه فتمتمت صلاة قصيرة. ودعت في مثل لمح البصر بحراً أزرق حلمت به يوماً، كما ودعت تلالاً ومروجاً زاهية الألوان. ووديانا داكنة الخضرة.

وأغمضت عينيها استعداداً للحظة الحاسمة. توقعت أن تحس بالمدية على عنقها. طال انتظارها دون أن تحسّ ببرودة المعدن. فتحت عينيها. رأت الكشاش وقد رفع نظره إلى الأعلى وراح يلاحق سرباً من الحمام يحوّم في الفضاء، فقدّرت أن سرب الإيقاع والمطاردة مازال يحيط بالطائر الغريب وأنه لما ينجح في إيقاعه في شراكه. فكرت: «ما دام لم يذبحني حتى الآن فلماذا أتى بي إذن؟» ولم تلبث أن بدا لها أنها فهمت عندما أمسك بها من وسطها. ثم ترك جناحيها سائبين وأنشأ يحرك يده الممسكة بها، وقد رفعها عالياً، أنشأ يحركها في الهواء. بينما راح يخبط بيده الثانية إطاراً من الكاوتشوك على سطح البيت وهو يهسهس بشفتيه أو يرسل الصفير.

في تلك اللحظة لم يبد لها أنها فهمت لماذا جيء بها من الداخل فحسب، بل إنها تأكدت ما يراد منها بالضبط. فضمّت جناحيها إلى جنبيها.

استبدت الدهشة بالكشاش عندما لاحظ جناحي الحمامة المضمومين وزاد من حركة يده في الهواء ليبعث النشاط والحركة في جناحي الحمامة. لكن الحمامة ظلت على حالها ولم تشأ أن تفرد جناحيها وترفرفهما.

شعر الكشاش بالغضب فخبط الحمامة بكامل قوته على الأرض. لملمت الحمامة نفسها ووقفت منكمشة.

نظر الكشاش إلى الفضاء رأى سرب الإيقاع والمطاردة ما زال يحاول إدراك الطائر الغريب.

التقط الكشاش الحمامة ثانية. أمسك بها من وسطها وأنشأ يحركها في الهواء. خبط إطاراً صغيراً من الكاوتشوك على سطح البيت. وصفّر وهسهس بشفتيه. لكن الحمامة قالت بإصرار: «لن أشارك في هذه الخدعة القذرة». وضمت جناحيها إلى جنبيها بقوة أكبر من ذي قبل.

رنت الحمامة إلى الأعلى. رأت سرب الحمام يحوّم في الفضاء. قالت: «لن يتمكن السرب من الطائر العابر ولن أساعد من ناحيتي على إيقاعه في الشرك». شعرت بالسرور مرة أخرى لأنها لم تكن في عداد أفراد سرب الإيقاع. لكنها فكرت أنها لو قدر لها وأرسلت في مهمة كهذه لما عادت إلى هذا الكشاش. وتساءلت: «ما الذي يجعل الحمامة وهي تملك جناحين أن تعود إلى الكشاش دائماً. ما الذي يحول بينها وبين التحليق في الأعالي؟».

حينما أدرك الكشاش أن محاولاته فشلت في حمل الحمامة على فرد جناحيها ورفرفتهما لاستدراج الحمامة الغريبة خبطها بقسوة على الأرض.

تجمعت الحمامة على نفسها. شعرت بألم في جناحها. سحبت نفسها ببطء وانتحت جانباً. فكرت: «ربما كُسر جناحي».

أدركت بسرعة النهاية المحتومة لحمامة كُسر جناحها. استعادت حياتها كلها في لحظة. فكرت أنها كانت حمامة مدللة ذات يوم تختال في حديقة بيت، الخلاخل في قدميها. ويتدلى من أذنيها زوجان من الأقراط. وفكرت أنه لم يعد لذلك أهمية الآن.

نظرت إلى الأعلى. رأت سرب الحمام الخائب عائداً من مهمته. في حين انفلت من السرب طائر مفرد وحيد راح يشق طريقه نحو الشرق.

أحست الحمامة بألم في جناحها. فكرت أنه ليس هناك سوى نهاية واحدة لحمامة عطب جناحها. لم تشعر وقتها لا بفرح ولا بحزن. فكرت: «ينتهي الحمام بواحدة من اثنتين: إما بضربة مخلب أو على حد مدية الكشاش». وقالت: «ذلك هو قدر الحمام المحتوم».

التقط القشاش الحمامة وقلّبها بيده. قال: «يبدو أن جناحها كسر».

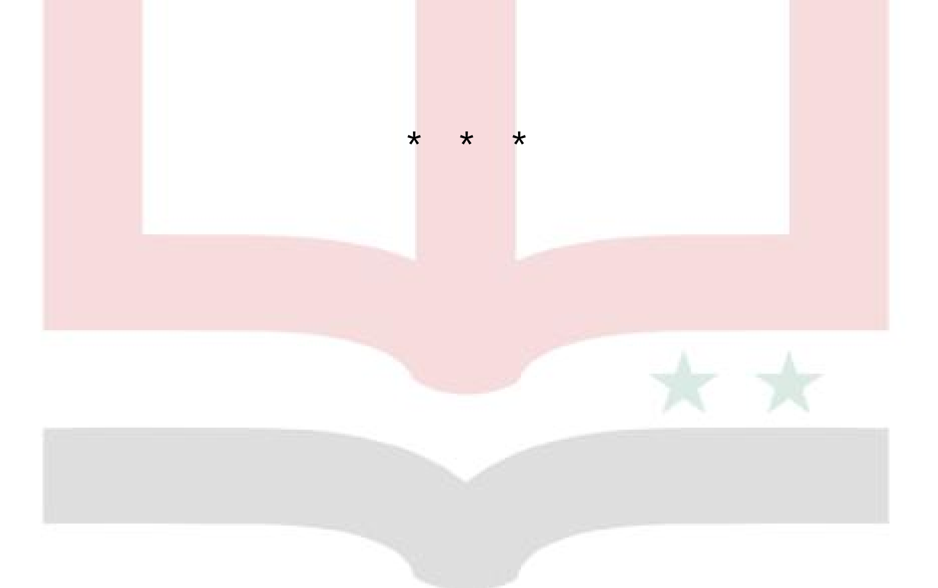
أعادت الحمامة النظر إلى الأعلى. رأت الطائر الوحيد يوغل مبتعداً في طيرانه نحو الشرق. شعرت بفرح غامر مفاجئ.

قال الكشاش:

- حمامة عنيدة. عنادها قضى عليها.

ومد يده فانتضى مديته. طقت المدية وهو يشرّع نصلها طقّات متتالية. شدَّ الكشاش رأس الحمامة إلى الخلف حتى توتر عنقها. سمعت الحمامة تمتمة خافتة: «بسم الله الرحمن الرحيم. سبحان من حللك للذبح». وكان لا يزال في مقدورها أن تتخيل الكشاش يقول لابنه: «خذها إلى أمك لتنظفها وتطبخ لنا بطاطا بالحمام». عندما التمع، أمام عينيها، نصل حاد هاوياً على عنقها.

* * *



# السيران ولعبة أولاد يعقوب

قصص للأطفال

- العصافير وحارس الحقل الخشبي
- الذبيحة
- الأمل
- الآباء يأكلون الحصرم
- طريقة عيش
- سلوم
- صورة
- السيران ولعبة أولاد يعقوب
- غربة
- وحدة امرأة

# العصافير وحارس الحقل الخشبي

ما إن تفتحت عيناي على الدنيا حتى وجدت نفسي في حقل محاط بالأسلاك وعلى مبعدة يلعب ولدان. وفيما وراء الأسلاك كان ثمة من الجنوب درب مهجورة، ومن الشمال أرض مزروعة، ومن الغرب طريق ترابية، ومن الشرق ثلاثة أكواخ من الصفيح أمامها بقرة ترعى بهدوء.

شعرت بالضجر وأحسست برغبة في الكلام. وددت لو يقترب الولدان، أو أحاول الذهاب والاشتراك معهما في اللعب. ومع ذلك شكرت الظروف لأنني لم أترك مكاني في تلك اللحظة للالتحاق بالولدين كي ألعب معهما. إذ أنني فهمت منهما فيما بعد أنني لم أوضع في ذلك المكان من أجل اللعب.

اكتفيت بمراقبة الولدين من بعيد، وإن لم أفهم اللعبة التي يمارسانها. كان بيد كل منهما عصا مربوطة من طرفيها بمزقة. اختفى أحد الولدين وراء شجرة ليس فيها من الأغصان سوى ثلاثة فروع عارية كأنها أذرع تتضرع. واختفى الآخر وراء جدار بناء صغير تخرج منه أسلاك تتفرع في الفضاء بواسطة عمود معدني في كل الاتجاهات. أطل الولد برأسه من وراء الشجرة محاذراً وقد مدَّ العصا التي يحملها. وأطل الولد الآخر من وراء البناء بالطريقة نفسها ومدّ عصاه أيضاً. وأطلق الولدان: بم ... بم. ثم خرجا من مكمنيهما وركض الواحد باتجاه الآخر حتى إذا التقيا جرى بينهما نقاش حاد ولعله بشأن البوم .. البوم. ويبدو أنهما اختلفا حول هذا الموضوع. إذ ملأ صراخهما وإشارات أيديهما المكان. أخيراً انصاع الولد الذي كان وراء الشجرة واستلقى على ظهره فوقف الآخر بقربه ووجه إلى صدره طرف العصا وأطلق: بوم .. بوم. ولعل الخلاف سوى بينهما إثر ذلك البوم.. البوم

الأخير حيث سارا معاً واتجها نحوي. وعندما اقتربا مني كان أول شيء سألتهما عنه هو تلك اللعبة. فأخبراني أنها لعبة العسكري. فأعلنت لهما عن رغبتي بمشاركتهما تلك اللعبة. فقالا لي: ان ذلك ليس مسموحاً لي، وانني لم أنصب في ذلك المكان لمثل هذه الأمور. عند ذلك سألتهما عن الأمور التي نصبت من أجلها. فأوضحا لي أن مهمتي تتعلق بالعصافير. سألتهما: وكيف ذلك؟. فأجابا أن والدهما قد بذر حبوباً في الأرض، وأنه يخشى عليها من العصافير. استفسرت منهما عن دوري في هذا الأمر؟ فردا أن عملي هو المحافظة على البذور. قلت: وكيف أحافظ على البذور؟ قالا برد العصافير عن الحقل. فإذا حاولت العصافير أن تهاجم الحقل لالتهام البذور، وقع بصرها علي وعندئذٍ تتراجع لأنني واقف لها بالمرصاد للإيقاع بها. في تلك اللحظة استرعى انتباهي البناء الصغير الذي تخرج منه الأسلاك وتتفرع بواسطة عمود حديد. فسألتهما عما إذا كانت حراسة هذا البناء داخلة في اختصاصي؟ فقالا: إن حراسة البناء ليست من اختصاصي وإنما هي من اختصاص الحكومة، فإذا كانت الحكومة حريصة على خزانها الكهربائي فلترسل من يقوم بحراسته. فقلت لهما: ولكن البناء واقع في الأرض المزروعة. فأجابا: أن الحكومة اشترت مساحة من الأرض الزراعية وأقامت عليها خزاناً كهربائياً ومسؤولية حراسته تقع على عاتقها. فكرت أن أسألهما عما إذا كان رد العصافير من خارج الحقل أم من داخله. غير أني في اللحظة التي رغبت فيها بتوجيه هذا السؤال لاحظت أنهما منشغلان بتحدي أحدهما الآخر لإجراء سباق بينهما. وبعد أن اتفقا على نقطة الانطلاق ونقطة الانتهاء تخلصا من العصوين اللتين كانتا بأيديهما بأن علقاهما في كتفي. وبدآا بالعدو فلاحقتهما بعيني بعض المسافة. ثم عدت لأقوم بمهمتي. وقف عصفور على السلك الشائك وهزّ ذيله ثم زقزق مرة أو مرتين وتهيأ للانقضاض على الحقل. لكنه عندما رآني تراجع عن فكرته وفرَّ طائراً. بعد قليل اقترب من الحقل ثلاثة عصافير، غير أنها بقيت وراء الأسلاك. وظلت فترة تتواثب. وظلت فترة تتواثب ولاشك أنها شعرت بوجودي فراحت تتشاور فيما بينها. اكتفت العصافير بالبحث عن الطعام خارج حدود الحقل. وبعدئذٍ رحلت. فشعرت

بالزهو لقدرتي على إبعاد العصافير عن الحقل. وددت لو أعرف أين صار الولدان وماذا بشأن السباق؟

في الوقت الذي عزمت فيه على تتبع مجرى السباق حط عصفور في الأرض المزروعة. استطاع العصفور أن يلتقط حبتين أو ثلاثاً قبل أن ينتبه لوجودي وينطلق من ثم بجناحيه هارباً. أحسست بالقلق لهذه الحادثة وفكرت... لو انتبه لوجودي منذ البداية لما جرؤ على تحدي واقتحام الحقل. عاد المتسابقان واحداً بعد الآخر. كانا تعبين بعد الجري فتهالكا بجانبي مستلقيين على ظهريهما. ظلا كذلك فترة من الوقت. وحين استردا أنفاسهما قال الذي وصل أولاً: انظر. انه يشبه جندياً حقيقياً ولكن ينقصه شيء ما يضعه على رأسه. وعقب الثاني: ويحمل بندقيتين. وتابع الأول مزهواً: بالتأكيد سأبحث له عن شيء يضعه على رأسه. أنا أتيت بالأخشاب. وقال الثاني متفاخراً: وأنا جمعت الأخشاب إلى بعضها بالمسامير. قال الأول: أنا حفرت له الحفرة. وقال الثاني: وأنا نصبته في الحفرة وهلت على قاعدته التراب. واستمر الأول: وأنا ألبسته سترة. وأضاف الثاني: أنا صنعت له وجهاً. وأكمل الآخر: وأنا حشوت رأسه بالقش. ثم قال الاثنان معاً: وهكذا صنعنا حارساً لحماية الحقل. وانفرد الأول: حارس ببندقية. وعقب الثاني: لا بل ببندقيتين. وقال الأول: أما إذا تمرد و ترك مكانه فتقدم إلى الأمام أو تراجع إلى الخلف فلم يصد العصافير عن الحقل فلسوف نعاقبه. وقال الثاني: سأنزع المسامير وأفصل الأخشاب عن بعضها. وتوعّد الأول: وأنا سأسترد سترتي التي ألبستها له. واستمر الثاني: سأشوه وجهه الذي صنعته له. وأكمل الآخر: أما أنا فسأحطم رأسه.

وارتفع نداء من أكواخ الصفيح يدعو الولدين للغداء. نهض الولدان وقبل أن ينطلقا في اتجاه النداء قال أحد الولدين: ألن نأخذ البندقيتين؟ فرد عليه الثاني: دعهما له فربما احتاجهما في رد العصافير. ثم توجه إلي بالكلام قائلاً: لا تترك مكانك. كن يقظاً من العصافير.

ثم يمما شطر البيت.

بعد أن أصبحت وحدي نظرت إلى الحقل من جميع جوانبه. كان في طرفه الجنوبي عصفور يقوم ببعض المناورات، يطير ثم يحط على السلك الشائك. لعله كان يستكشف. حمداً للّه. لقد رحل بعد أن وجد الحراسة مشددة على الحقل. نعم يجب أن أكون يقظاً وإلا ضاع الحقل واتجهت بنظري إلى الشمال. أقبل عصفوران معاً. أحدهما وقف على السلك وراح يهز ذيله ويدور في كل الاتجاهات، أما الثاني فقط حط مباشرة داخل الحقل هناك عند حده الغربي. تساءلت: ترى هل رأياني؟ نقر العصفور الذي كان داخل الحقل بعض الحبوب ثم دعا عصفور السلك الشائك إلى الوليمة. لم يلبِ العصفور الدعوة. إنه خائف ولا شك وهذا شيء جميل. إنه لجميل حقاً أنني لا أزال أبعث الخوف في قلوب العصافير. وأقبل عصفور آخر. آه إنهم صاروا ثلاثة. الآن يجب أن أقوم بعمل. يجب أن يشعروا بوجودي. عصفور أو عصفوران في الحقل شيء لايهم. ولكن إذا تكاثرت العصافير أصبحت شيئاً خطراً. يا عصافير ياهوه أنا هنا. وأقبل عصفور رابع يا للصفاقة؟! لعل العصافير تجهل أني أحمل بندقية لا بل بندقيتين في كل كتف واحدة. فلينفجر الغضب إذن ولتهتز البندقيتان المتأرجحتان المعلقتان في كتفيّ ولتحل اللعنة على العصافير. عجباً! ولكن العصافير لم تخف. وأقبل عصفور خامس حطّ على ذراعي. الآن بالتأكيد يجب أن تطبق السماء على الأرض. لتنزل الصواعق ولتدمر العصافير الملعونة. وحوّم عصفور جديد حولي ثم حط على رأسي. ثم راح ينقرني وينكش القش في رأسي. لا هذا كثير. لقد طفح الكيل. يجب أن يوقف هذا العصفور المجنون عند حده. بل كل العصافير. يجب أن تسحق. أن تحرق. ويجب أيضاً أن أرغي وأزبد وأسمع السماء صوتي. أنا هنا ... أنا هنا. أنا الحارس أين بندقيتاي؟! فلتهتز بندقيتاي. وقدم عصفور ثامن حط على رأسي، تبعه آخر على ذراعي وآخر على ذراعي الثانية أواه! لقد مزقوا سترتي وأفرغوا رأسي من القش. ماذا أفعل؟ لقد أمسيت عارياً فكيف أخيف العصافير القادمة مستقبلاً بسترة ممزقة تماماً. كيف أرسم الخطط لرد العصافير المهاجمة برأس أُفرغ من القش. يا إلهي!؟

ثم ... ثم استمر سيل العصافير الذي لا ينقطع .. مع أن بندقيتين كانتا لا تزالان تتدليان من كتفي وتتأرجحان في الهواء.

# الذبيحة

الذبيحة في الدست. الدست فوق النار. الذبيحة والدست والنار تحت شجر الزيتون. الطاهي وراء الدست. والمدعوون حول الدست والطاهي.

إذن الذبيحة والدست والنار والطاهي والمدعوون، وكذلك ربطات العنق التي تحلي صدور المدعوين، وغراف الفخار التي يحملونها بأيديهم كل ذلك تحت شجر الزيتون.

ونظر الطاهي بعين إلى شجر الزيتون و بالعين الأخرى إلى المدعوين والدست. ثم قالت العين التي نظرت إلى شجر الزيتون:

شجر الزيتون دائم الخضرة.

وقالت العين التي نظرت إلى المدعوين والدست:

- من أين سأملأ كل هذه الغراف وأطعم كل هؤلاء الطالبين؟

ثم صلى على النبي وقال:

- اذكروا حسنات موتاكم.

وطبعاً هو قال ذلك تحت شجر الزيتون. ومما قاله المدعوون كذلك تحت شجر الزيتون:

- مسكين المرحوم كان رجلاً طيباً.

قال رجل مهندم بيده كتاب:

- الله يرحمه. احسب حسابي بلحم الزور أيها الطاهي.

الله يصفح عنه. اذكرني بلحم الفخذ أيها الطاهي.

- أما أنا فأريد لحم الظهر.

ومرة أخرى نظر الطاهي بقلق إلى المدعوين، ثم إلى الدست وقال:

- الله يستر من الآخرة.

واشتد الزحام حول الطاهي. والطاهي كان لايزال وراء الدست تماماً. فاشتد الزحام تماماً حول الطاهي والدست الذي كانت بداخله الذبيحة، وكاد يقتلع الذبيحة والدست والطاهي. وامتدت الغراف إلى الطاهي عبر الدست.

- أكثر من اللحم أيها الطاهي. فكم حملت المصباح أمامه عندما كنت أقوده إلى الزريبة وزد لي في المرق أيضاً.

- أما أنا فكنت أضع باقات العشب نصب عينيه عندما كان يحرن في سيره حتى أوصلته نهاية الطريق.

- ولكنك لم تزد شيئاً كثيراً يناسب جهودي التي بذلتها في سبيله.

وقال آخر:

- نصيب رفيقي أكبر من نصيبي مع أنني خدمته أكثر منه.

- هذا غير صحيح فنصيبي لايزيد على نصيبك.

- بل يزيد.

وقال الطاهي:

- لا حول ولا قوة إلا بالله.

- حسن أيها الطاهي دعوتمونا إلى ذبيحة فاقسموا الذبيحة اذن بيننا بالعدل.

- والعدل أساس الملك.

- والعدل ملح الأرض.

- أنا أريد موزات أيها الطاهي

- ولكن لا موزات لدي. نفدت.

- نفدت؟! ولكن أنا أريد موزات.

- يا سيدي لايوجد في الذبيحة سوى موزات معدودات وقد طلبها عشاق موزات آخرون.

- ماذا لديك إذن؟..

- الدماغ

- الدماغ؟!

وتناول الرجل الذي يريد موزات الدماغ ونظر اليه بتأفف ثم أكل منه بلا شهية. كل ذلك حدث تحت شجر الزيتون. وتحت شجر الزيتون أيضاً اقترب رجل من الطاهي وغرفه بيده.

قال للطاهي:

- أريد لحم الابط.

- ولكن لم يعد لدي شيء من لحم الابط وأسفاه!

- وماذا لديك؟

- القلب.

- أعطني القلب اذن وأمري لله.

وسر الطاهي لأنه وجد أخيراً من قبل أن يأخذ القلب. حسناً لم يبق في دسته إذن غير العظام. وقدم القلب إلى الرجل. وهكذا برأ الطاهي ذمته أمام نفسه حيث وزع الذبيحة بأقل عدد من المعارك والمشادات. وتناول الرجل القلب ومضى ناحية شجرة زيتون فلاحقته نظرات الطاهي. قعد الرجل تحت الشجرة ثم قضم قضمة من قلب الذبيحة، لكنه ما كاد أن يلوك قضمته حتى توقف عن المضغ ونظر باشمئزاز إلى القلب، ولم يلبث أن رماه جانباً.

استغرب الطاهي سلوك الرجل وتقدم حيث كان القلب ملقى على الأرض فأخذه بيده ونظر إليه. وشد ما أدهشه عندما وجد أن القلب كان لا يزال ينبض بوهن وينز بالدماء...

* * *

# الأمَل

- هل أصلح طاقة الحمام؟
- بلى أصلح طاقة الحمام
- وجلا زجاج النوافذ؟
- جلا زجاج النوافذ
- وثبت البلاطة المخلوعة في غرفة الضيوف؟
- ماذا عندنا اذن لتشغيله؟ هل أصلح ضلفة الباب؟
- كلا قال إنه لايعرف شيئاً عن التجارة.
- ولماذا لا يعرف شيئاً عن النجارة؟ حمار. النجارة مهنة تدر كثيراً. ماذا نشغله اليوم يا ترى؟

وفكر لحظة. ثم قال موجهاً كلامه لفتاة صغيرة:

- لينظف سطح الدار إذن.

ونهض عن مائدة الغداء بتثاقل في الساعة الثالثة إلا ربعاً بعد أن تجشأ عدداً من المرات. واتجه إلى غرفة النوم فتبعته زوجته. سألته:

- هل أعجبك الأرنب؟
- رائع
- لقد نقعته بالنبيذ والبهار

وفكر بالنبيذ والبهار وما وراءهما فقال بتملق :

- سلمت يداك. لم أذق أطيب منه.

سأل:

- وماذا جلبت العاملة غير الأرنب؟

- سطل لبن... هل ستثبتها؟

- بكير. لماذا هي مستعجلة؟

أما الفتاة وكانت في الثامنة من عمرها فقالت وهي ترمق والديها:

- متى أصير كبيرة مثل ماما؟

- ثم استدارت واتجهت ناحية المطبخ فحملت من هناك مكنسة وتحركت نحو باب الخروج ففتحته.

- يوسف قال البابا نظف سطح الدار.

ووضع يوسف يده على رأسه وأحناه قليلاً دلالة الطاعة.

ثم تناول المكنسة وصعد درج السلم المؤدي إلى السطح. كان فتى في الرابعة والعشرين من عمره متين العود يرتدي قميصاً أزرق وسروالاً خاكياً. قال عندما انتهى إلى سطح الدار:

- من أين أبدأ؟

كان وجهه يطفح بالبشر والسعادة، وعيناه تتألقان بالأمل. قال:

- لأرتب هذه الأشياء المبعثرة قبل كل شيء.

ولاحظ أن هناك فوهة مزراب وبرميلاً فارغاً.

وصندوقاً من الخشب فارغاً أيضاً وكرسي خيزران بثلاثة أرجل فنقلها جميعاً مرة بعد مرة إلى غرفة صغيرة لسقط الأشياء. ثم حمل المكنسة واستعد لكنس السطح فجاءت الفتاة الصغيرة نفس الفتاة التي قالت له من قبل: يوسف قال البابا نظف السطح. قالت له:

- قال البابا لاتخبط على السطح إنه يريد أن ينام.

فقال لها:

- حاضر.

وكان وجهه لايزال يطفح بالبشر والسعادة وعيناه تتألقان بالأمل. فالسيد شفيق رئيس المستودعات وبيده تثبيته. فمنذ خمس سنوات ويوسف يشتغل في مصنع التبغ عاملاً مؤقتاً مختصاً بتعمير وترميم الأبنية. يشتغل سنة بطولها. سنة تنقص يوماً ثم يسرح مع المسرحين ليعاد تشغيله من جديد مع بداية السنة الجديدة بينما لايثبت إلا نفر ضئيل جداً كل عام. وانحنى قليلاً وبدأ الكنس. كان هناك شيء من فتات الاسمنت المختلط بالكلس وغبارهما المتخلفة عن البناء الجديد. قال:

- لقد أكل هذا البناء الجديد من يدي فكل يوم بعد الانصراف من العمل كنت أشتغل مع البنائين حتى اكتمل، بل لطالما اشتغلت فيه خلال أوقات دوام المصنع نفسه. وازداد أملاً. ألم يعده السيد شفيق بالتثبيت. وجاءت الفتاة الصغيرة مرة أخرى فقالت:

- يوسف قال البابا لاتخبط. أعصابه تعبانة.

فقال لها:

- أنت محقة. طيب لن أخبط بعد الآن.

وانصرفت الفتاة ففكر:

- لا بد أن حذائي قد أحدث ضجة فوق رأسه. وأخشى أن يكون قد سبب له صداعاً.

وخلع الحذاء من رجليه. ثم تابع الكنس قال:

- إذا مر الأسبوع القادم بسلام أصبحت من عداد المثبتين.

وفكر بالمكاسب التي سيحصل عليها إذا صار عاملاً مثبتاً: سترتفع يوميته قبل كل شيء وستكون أيام الجمع والأعياد أياماً مأجورة دون أن يمارس فيها أي عمل، وسيحصل على جعالة الدخان الشهرية بنصف السعر الرسمي وفوق هذا وذاك ستكون له إجازة سنوية بأجرة، وزيادة فوق الراتب كل سنتين.

- ولكن الفتاة عادت من جديد فأيقظته من أحلامه إذ قالت:

- قال البابا لا تخبط على السطح فقد أقلقته.

قال بعد أن رحلت:

- لا بد أني أقلقه بشكل ما دون أن أشعر.

وفكرّ:

- عجباً ما الذي يحدث هذا الخبط على السطح؟

وألقى نظرة حواليه ثم ألقى نظرة على نفسه فقال:

- ربما كان سروالي الطويل يلامس السطح. حقاً إن سقوف الإسمنت تضخم صدى الأصوات.

- ثم قال بحدة:

- قلت للخياط الابن الكلب. هذا السروال طويل فقال هناك من يلبس أطول منه مبسوط يا سيدي.. مبسوط يا شيخ الخياطين لقد أيقظنا الرجل من نومه.

ورفع سرواله حتى الركبتين. ثم أمسك المكنسة وبدأ يسحبها على السطح ولكن الفتاة لم تمكث طويلاً حتى عادت لتقول مرة أخرى وكأن نفاذ صبر أبيها قد انتقل إليها:

- العمى. قال لا تخبط على السطح طيرت النوم من عينيه.

فقال يوسف بيأس وقد انسحب على وجهه ظل سحابة قاتمة:

- يا ويلي كيف أنظف المكان دون أن أسبب له ازعاجاً؟

واحتوى السطح بنظرة ثم استقر بصره على المدخنة ثم عاد فانحسر إلى شخصه حتى توقف نهائياً على المكنسة فقال معزياً نفسه:

- إنها المكنسة دون شك. إن جرها على السطح يحدث خشخشة يضخمها سقف الاسمنت بالإضافة إلى جدران الخفاف المفرغ.

ورمى المكنسة من يده. وتحرك ناحية اليمين فخطا بضع خطوات ثم انحنى مقرفصاً ثم على أربع وأخذ ينفخ أرض السطح محاولاً تجميع غبار

الشمنتو والكلس في ناحية ما فوق الكومة التي جمعها من قبل. ولكن الصوت عاد ليقول له مجدداً. ولم يكن صوت الفتاة هذه المرة وإنما صوت السيد شفيق نفسه:

- العمى في عيونك. طيرت النوم من عيني.

وحاول يوسف أن يتكلم ولكن شفيق جذبه من ياقة قميصه. ثم وضع يديه على ظهره ودفعه من الخلف بكل ما يملك من قوة.

فانقذف يوسف مشدوهاً ودون أن يفهم سبباً لغضبه الكبير المفاجئ وجرى بفعل الدفعة بضعة أمتار. فدرجتين من السلم أو ثلاث. ولحظة بعد لحظة شرع يهبط الدرج طائعاً بحركات قدميه الحافيتيين نفسها. ولم يكن وجهه يطفح بالبشر أو السعادة. ولم يكن في عينيه أي بريق بأمل من نوع ما.



# الآبـاء
# يـأكلون الحصرم

ثمة شيئان يضايقانه، ويبعثان في نفسه شعوراً خاصاً. عندما يحمل البريد إلى رئيسه للتوقيع عليه، ووسائط النقل بعد الانفكاك من العمل.

ورغم أن شعوره عند امتثاله أمام رئيسه، شعور لايمكن أن يحوطه وصف لدقته. إذ لم يكن شعوراً بالمهانة أو الخجل، وإن كان يكاد يشبه شيئاً من ذلك. لكنه مع ذلك لم يكن أمراً يذكر إذا قيس بالنسبة إلى مضاعفات انتظاره الباص في زحمة الظهر. ففي تلك اللحظات تبدو له بعض الأشياء أقل بهجة ورواء.

كان ثمة جمهور غفير: عمال، موظفون عاملات. وقفوا ينتظرون كي يعودوا إلى بيوتهم. أما هو فقد وقف غير بعيد ينتظر بدوره. لقد اختار رقعة ظل تسكبها لافتة دائرية لمحطة بنزين قريبة.

ونظر في ساعته. لقد مضى عليه أكثر من خمس عشرة دقيقة. بينما – الباصات - يمر الواحد منها إثر الآخر عجلى حافلة كعلبة سردين. وفكر لو كان من ذوي اليسار لكان في مقدوره أن يستأجر سيارة لحسابه الخاص تقله إلى البيت. لكنه ليس سوى موظف من الدرجة السادسة.

ومسّت الشمس وجهه وجانب نقرته. فنظر إلى لافتة محطة البنزين كي يتعرف موقعه من دائرة الظل ليتفادى الشمس. فكان ما صادفه رسم الفرس المجنحة علامة شركة البنزين. وبدت له للحظة بفعل اختلاط الوهج والظل أن الفرس الطائرة قد دبت فيها الحياة. لكنها فلا فارس.

وفتل مالئ الساعة. غير أن المالئ مالبث أن تعثر فتوقف علامة الاكتفاء ثم أعاد الساعة إلى موضعها من جيبه الصغير في السروال. هذا الجيب الذي اعتاد أن يضع فيه مصروفه الشخصي. ولكن أي مصروف شخصي؟! إنه ليس أكثر من أجرة واسطة النقل في ذهابه إلى عمله في السراي وإيابه منه.

ولم يكن ذلك أمراً مستغرباً بالنسبة إلى سعيد أفندي، إن سعيد أفندي لا يبدو أنه يحتاج إلى أي مصروف خاص. فهو لايدخن ولا يحتسي القهوة في العمل مثل بقية الزملاء. إلا إذا آثر زميل ما أن يكون ملحاحاً فيقدم له سيجارة أو قدح قهوة فينزل عندئذٍ عند رغبته مغمغماً: أنا من أصحاب النارجيلة ولكن ولكن. كما أنه لا يرتاد السينما. وإن كان ثلاثة من أولاده أو أكثر من أصل ثمانية يدخنون ويرتادون السينما.

أما إذا دعي إلى شيء من تلك الأشياء التي يسميها الناس ترفيه عن النفس، جلوس في مقهى على البحر أو غيره تنصل بلباقة ووجد عذراً.

بالاختصار كان سعيد أفندي يبدو أنه قد أدار ظهره منذ زمن لكل متعة شخصية ذات ثمن. حتى شراء خسة من – عين أم إبراهيم – في يوم جمعة من أيام الربيع. أو التهام موزة على الماشي كما كان يفعل في الماضي. ولم يكن يلوح عليه أنه يعاني أي حرمان. كان يملك روح راهب صغيرة عرف كيف يقهرها. والحق كان حيسوباً مثل راهب. لقد آثر آخرته على دنياه. لكنه لم يكن له طموحه. ولم تكن آخرته جنات عرضها السموات والأرض وإنما كانت البيت. أو لعلها زوجته في البيت.

من يشتري لذة وقتية بجحيم أبدي. كذلك بدأ يفكر وهو ما يزال بعد في الشهور الأولى من زواجه. إن مساحيق العرس اللطيفة سرعان مازالت على نحو غير متوقع، فظهر وجه زوجته على حقيقته. لم يكن وجهاً قبيحاً كما يلوح للوهلة الأولى. إنها أبعد ما تكون عن هذه الصفة. كما أنها لم تكن مشاكسة. لكنها كانت تريد أن تعرف أين ينفق القرش وكيف، حتى أنه شبهها بالنملة في الحرص. واضطر أن يقدم لها أول كشف حساب دفعاً للمتاعب.

وأحس مع هذا الكشف للمرة الأولى في حياته بشيء غريب يستعصي عليه تسميته. شيء يشبه ثوباً زرياً لا يملك له دفعاً عنه. وكان هذا الثوب يزداد اتساعاً وفضفضة مع الأيام حتى ألفه.

«إذا كنت لا تريد أن تسمم حياتك فتنازل عن بعض الاشياء التي تحبها» قال لنفسه يوماً. كانت كشوف الحساب في الحقيقة قاصرة عن جلب السلام له. وبدأ يقص مسراته شيئاً كما يقص البستاني بعض الثمار من شجرة مثقلة كي يفسح للأخرى نصيباً أوفر من الغذاء. ثم راح يرقبها في يده بأسى واحدة إثر أخرى قبل أن يفارقها نسغ الحياة. وبات يحس منذ أن ظهرت على زوجه أعراض الحمل الأول أنها لا تلاحقه فحسب، بل أضحت ملتصقة في ظهره أشبه بحدبة. وهكذا أخذ يدفع إليها بمرتبة كاملاً. وكتب على جيوبه منذ تلك اللحظة أن تظل خاوية الأيام بطولها. اللهم ماعدا أجور وسائط النقل اليومية، عشرة قروش للذهاب إلى السراي، وعشرة قروش للعودة منها. وسوى قيمة بعض حاجيات تكلفة زوجه أحياناً أن يقوم بابتياعها من السوق.

ورغم أن مرتبه كان مرتب موظف صغير لم يلبث أن ظهر تدبير النملة الرائع في جوانب البيت. وبدا له أن هذه النملة لا تستفيد من حبة الحنطة فحسب، بل من قشرتها أيضاً. وعندئذٍ داخله شيء من الاطمئنان استعاض به عن ثماره التي تساقطت.

والواقع أنه أخذ يألف حياته الجديدة. بل يحبها أيضاً في بعض الأحيان. وجاء أول أولاده الثمانية فازداد ارتباطاً ببيته: فطور. عمل. غداء. قيلولة. قهوة وتدخين نارجيلة مع زوجته. عمل في حديقة البيت. عشاء. سمر مع زوجته ونارجيلة. نوم. فطور.

هكذا أخذت أيامه تمضي متشابهة مطمئنة. ولم يكن يبدو أنه يريد أكثر من ذلك. والحق أن مرتبه البسيط ومتطلبات بيته المتزايدة بازدياد الأولاد لم يتركا له أية فرصة للخيار. وزايله شعوره بالحدبة. كان قد أمسى جزءاً منه. بل كانت هذه الحياة البيتية سبباً في الكشف عن بعض مواهبه الدفينة. فحين هجر شلة أصدقائه، حول هذا الفراغ الذي أحس به في البداية إلى عمل جاد

في الحديقة. فأخذ يغرس ويشتل ويستنبت الزهور. ويؤلف بين نباتات لا يبدو بينها أية قرابة أو نسب. «هناك عدد من أنواع الورود: أبيض، أحمر. أحمر غامق، أحمر فاقع وحتى ورود صفراء. ولكن ليس هناك أية ورود سوداء...» قال لنفسه ذات مرة: «... نعم إن للفرحين والسعداء ورودهم فلماذا لا تكون هناك وردة للتعساء؟». وفي اليوم التالي بدأ العمل مبكراً في الحديقة. كان متكدراً بعض الشيء فحمل سكينه ومضى إلى الحديقة.

لقد اقتطع بعض أغصان الورود البيضاء، وراح يؤلف بينها وبين شجيرات الباذنجان بثقة بستاني خبير. غير أن طعومه تعرضت للتيبس في الأيام التالية. ثم لم تلبث الأمور أن سارت سيراً حسناً وكم كانت فرحته عظيمة عندما بدأت أزرار الورد الغريبة تتفتق. كانت سوداء كحيلة أشبه بعيون وعول الجبل. وكان الفخر يملأ جوانحه عندما يقف بعض العابرين أمام حديقته ويهتفون: ورود سوداء؟! يا للعجب. لله ما أروع هذه الورود.

وانفردت هذه الوردة بالنسبة إليه بمكانة خاصة من سائر طعومه الأخرى التي قام بها في الحديقة.

على هذا النحو كان يقضي أوقات فراغه. فهنا أرض النعناع تحتاج إلى قلب. وهناك يجب تجديد رش بذور البقدونس. وهذه شجرة الليمون تحتاج إلى تشذيب. كان يجد دائماً ما يعمله. سواء في الحديقة، أو في البيت كإصلاح نافذة مثلاً، منجزاً ذلك بمفرده حيناً، أو بمعاونة أحد أولاده أحياناً. وانقطع عن العالم الخارجي، ولم يعد يعرف شيئاً عنه إلا عن طريق زوجه وأولاده في البيت. أو بواسطة زملائه في العمل: فلان تزوج. فلان مات. فلانه وضعت مولوداً. وآخر سرق فكفت يده عن العمل. كان انقطاعه شبه طوعي في البداية ثم أمسى ضرورياً. كان يقول في نفسه: أن أي قرش أنفقه على نفسي جدير بأن يفعل شيئاً في البيت.

لكن ذات يوم وبالتحديد ذات صباح من أصباح شهر أيار بالذات حدث له أمر غريب حقاً. فبينما كان في طريقه إلى العمل مر بمقهى كثيراً ما مر به من قبل. لكن بدا له في ذلك اليوم شيئاً غير عادي. كان مقهى متواضعاً،

صغير البناء، على مفترق ثلاث طرق، يكاد يكون مهيئاً لحانوت بقالة أو شيء من هذا القبيل. وفوق ذلك له سقيفة في الخارج خضراء اللون تشغل ثلاثة أرباع رصيف يشكل شبه دائرة أمام هذا المقهى.

كانت السماء صافية كدمعة الديك وكانت الشمس تسكب أشعتها بفتور ورخاوة حتى بدت أنها لا تزال غير جادة في تبديد طراوة الصباح المنعشة. وتصاعدت من مكان ما أغنية صباحية قديمة النغم أحس أنه يعرف صاحبها.

وكان زبن المقهى يجلسون متفرقين إلى طاولات نظيفة. كانوا قلة ولعل كلا منهم قد اختار موضعه بعناية حتى خيل إليه أن كل واحد من هؤلاء الرجال قد استكرى هذا المكان وربط إليه منذ زمان طويل. وكان يبدو من هيئاتهم أنهم رجال أعمال مختلفة راحوا يدخنون النارجيلة ويحتسون القهوة أو الشاي باطمئنان شاردين مع أحلامهم قبل انطلاقهم إلى أعمالهم، وعلى طاولة كل منهم مزهرية مزدانة بالزهور.

كانت زهوراً من نوع عادي: قرنفل منثور. فم سمكة. لكنه رغم ذلك فقد استشعر أن في داخله شيئاً مدعواً إليها إلى هذه الطاولة، السقيفة، النارجيلة، هذا الحلاب وسط ماعزه. ذلك الفاكهاني الذي ينضد ثماره. مدعو من أحد هذه الأشياء متفرقة أو مجتمعة إلى هذا المفترق الذي يمور بالحياة والحركة.

واستخبر ساعته. كانت السابعة والنصف. كان هناك لايزال إذن فسحة نصف ساعة من الوقت يستطيع خلالها أن يدخن جوزة تنباك كاملة. وفكر أن في ميسوره أن يأتي منذ السابعة. بل أبكر من ذلك إذا شاء حيث أن المرء يستقيظ مبكراً جداً في هذه الأيام من الفصل.

لكن يبقى عليه تأمين شيء من التنباك وثمن قدح الشاي ورسم تحضير النارجيلة: لنقل يا سعيد أنه في ميسورك حمل كمشة تنباك من البيت ولكن من أين لك ثمن قدح الشاي ورسم النارجيلة. طبعاً تستطيع إذا شددت رجليك جيداً أن تقطع المسافة بين البيت وهذا المقهى...

وانطلقت عيناه بحركة عفوية تبحثان عن اسم المقهى فاستقرتا على لافتة صغيرة بيضاء فقرأ: مقهى الشباب.

بعشرين دقيقة فيتوفر في جيبك أجرة النقل تدفعها رسم تحضير النارجيلة. أما ثمن قدح الشاي فمن أين لك به. هل تحسب أنه من السهل بالنسبة إلى موظف مثلك تأمين نصف ليرة في هذه الأيام. شيء لا يصدق لكنه حقيقة. موظف سراي مضروب بحجر كبير. من أين جاءتك هذه الشهوة في أواخر الشهر ياسعيد. زمان كانت الدراهم قليلة في أيدي الناس. لكن المرء كان يجد دائماً شيئاً منها في جيبه. كنت تشتري حضن البرتقال بفرنك والآن الدراهم أكثر ومثلك عاجز عن شراء كيلو برتقال. وقال أيضاً، يبدو لي أن هناك جريا لا ينقطع بين الأشياء والدراهم. لعبة كلعبة الليل والنهار. فكلما كثرت الأشياء قلت الدراهم. وكلما كثرت الدراهم قلت الأشياء. متى تكثر الدراهم والأشياء معاً.

وحينما وصل إلى سرايه، كان قد استقر رأيه على مناقشة مسألة المقهى في بداية الشهر. وقد اطمأن إلى أنه قد يكون من الميسور عليه حين يقبض مرتبه أن يقتلع لنفسه بعض الفرنكات الكافية لارتياد المقهى. لكن ما أن خفت وطأة العمل حتى وجد نفسه يبحث الأمر من جديد فكتب على ورقة أمامه:

سكن.

سمان.

صيدلية.

لحام.

خباز.

حليب.

أجرة نقل.

مصروف أولاد.

مدارس.

أقساط أحذية.

أقساط قماش وثياب.

مصروف البيت الشهري.

ثم بدأ يضع الأرقام التالية مبتدئاً بايجار السكن.

٨٠ – ٧٥ – ٣٠ – ٢٧ – ٧٣.

وعندما وصل إلى خانة الحليب وضع أمامها ١٨ ليرة، ثم شطب هذا الرقم وكتب. لاشيء. ثم ألغى خانة الحليب. لقد تذكر أن البيت انقطع عن ابتياع الحليب منذ زمن لم يعد يذكره. ووضع الـ ١٨ ليرة على جانب من القائمة وقد داخله ارتياح. وتابع.

٢٥ – ٢٥

ثم عاد فزاد المبلغ الأخير مقدار ليرة فصار ست وعشرون وهو يقول في نفسه على شيء من الحبور:

هذا الشقي الصغير بسام يجب أن يعمل حسابه في المصروف مثل بقية أخوته.

واستأنف الكتابة فوضع أمام مدارس ٤٥، وبعدها ١٥، ثم ١٠، أما مصروف البيت فكتب بإزائه ٤٠ وغمغم: سنضطر إلى الاستدانة من جارنا أبي علي من جديد.

وعثرت عينه وهي تمر بالقائمة على الثمانية عشر ليرة المهملة. فشالها بكل جوارحه ونفض عنها الغبار فرحاً كطفل. غير أن فرحته لم تطل. إذ لم يلبث أن ختم القائمة بكلمتي: مياه وكهرباء سبع وعشرون. وقال برما: هذه المياه والكهرباء تأتيك كالصفعة على القفا في نهاية الشهر. المياه مياه الله على كل حال. قديماً كنا نستقي من الآبار ونسهر على ضوء الفوانيس. ما أحلى أيام الفوانيس.

واستند إلى ظهر مقعده.

وما كاد يقارن بين مجموع القائمة ومرتبه حتى اضطر إلى تخفيض مصروف البيت الشهري إلى ثلاثين ليرة.

وعبثا بحث عن شيء زائد في منجى عن حاجة الآخرين. طبعاً كان في مقدوره أن يحتفظ لنفسه بكل بساطة بليرة أو ليرتين. ثم يدفع بمرتبه إلى

زوجته قائلاً: هذا هو المرتب فتدبري الأمور. وقد يضيف ليحكم هذا الاختلاس: لقد حُسمت ليرتان من أجل تزيين المدينة. ولعله من الممكن أن ينطلي هذا عليها.

هذه الأشياء خطرت على باله لكنه لم يدع إليها سبيلاً كي تستولي على ذهنه. كان يعلم أن عليه المحافظة على هذا المرتب حتى آخر جزء فيه. إنه في نظره يشبه ساعة منتظمة تعمل من أكبر جزء فيها حتى أصغر جزء. المرتب والعائلة شيئان متلازمان يمسك كل منهما بيد الآخر. فلك مسؤول عن دورانه وانتقاص أي من دقائق هذه الساعة سيعطلها. سيدمر هذا الفلك. كل قرش في هذا المرتب له مكانه المضبوط ووظيفته المحكمة. كل ليرة رئة تتنفس.

وفاتته الفرصة عندما وضع المرتب بين يدي زوجته. ورأى أنه من العبث أن يكاشفها برغبته. ماذا يقول لها؟ تدخين نارجيلة في مقهى. باقة زهر على طاولة نظيفة؟ بائع حليب مع قطيعه؟ هذه أشياء من الصعب أن تفهمها المرأة. ولعلها ستقول له: أي باقة زهر؟ حديقتنا حافلة بالزهور. عندنا شاي ونارجيلة خير الله كثير. هذا تبذير لامبرر له.

غير أن الفرصة مالبثت أن واتته مرة أخرى، وجرت نحوه كما تجري الموجة نحو الشاطئ. فقد وضعت زوجه صباح اليوم بين يديه قائمة مشتريات مع أسعارها المبينة إزاء كل منها. وطلبت إليه تأمينها لفقدانها عند أبي أحمد السمان. وهذا هو سعيد يقف أمام محطة البنزين في مكانه المعتاد مبتعداً عن زحمة الموقف. إنه ينتظر الباص ليقلع إلى البيت وبقربه صرة حاجيات، وفي جيب سترته بعض المال ملكاً حلالاً له استطاع توفيره من مشتريات الصباح.

كان قد وضع خطته منذ اللحظة الأولى، فاستغل فترة الصباح المديدة قبل أن يمضي إلى العمل، وبحث عن نوع من الصابون. كان يعرف حانوتين أو ثلاثاً أصحابها يتقون الله ويتعاملون بأسعار معقولة. لقد فكر: «مادام لايزال يوجد ذلك الصنف من الناس الذي يقنع بربح بسيط فلا بد أن أجد عندهم صابوناً جافاً وجيداً».

وسرعان ما اتخذ سمته من جانب المحطة الأيسر عندما هبط من الباص متجهاً ناحية الحوانيت المنشودة. ولم ينس في طريقه أن يعرج على مقهى الشباب. كأنه يريد أن يتأكد أن المقهى لا يزال مكانه أو لعله يرغب أن يتزود منه بنظرة قبل أن يقدم على عمل حاسم.

وحقاً فقد وجد في مخزن في البازار ضالته. كان مخزناً كبيراً. جانب منه – وله باب على الشارع الشرقي – رصت في واجهته أدوات مدرسية. كما عرضت على رفوفه كتب منوعة.

أما الجانب الآخر وهو يشغل مساحة كبيرة فقد خص بالسمانة.

- هل عندك صابون جاف يا حاج إبراهيم.

وبينما كان الحاج إبراهيم يجلب له الصابون قرأ على رفوف المكتبة: مغامرات روكمبول، عبقرية محمد، العبرات، أبو ذر الغفاري، بائعة الخبز، البؤساء.

آه هذه الأخيرة قرأها ذات يوم. وتراءى له جان فالجان على نحو ضبابي يدفع بكتفه عربة في طريق موحلة. أما الكتب الأخرى فلا يعرف عنها شيئاً. وإن كان قد قرأ مرة على ظهر ورقة روزنامة شيئاً لأبي ذر، شيئاً حديدياً عنيفاً لم يعد يذكره.

يا لوجهه المهيب. شيء أشبه ما يكون بقرع الطبول مختلطاً بوقع حوافر الخيل. أتراه كان فارساً؟

«ياله من صابون» قال في نفسه وهو يرزمه صرة. كان صابوناً جافاً ذا رائحة طيبة وبسعر ينقص الكيلو خمسة وعشرين قرشاً عنه عند أبي أحمد السمان.

وأبي الحاج إبراهيم أن يدع هذه الفرصة تمر قبل أن يزكي بضاعته كما هو شأنه عقب كل سلعة تخرج من مخزنه: الصابون الجاف أطول عمراً بين يدي المرأة.

ولشد ما يود سعيد الآن لو أضاف إلى رأي الحاج في تلك اللحظة: وعدد قطعاته أكثر.

ويستخف الفرح سعيد. ولم لا؟! ألم يستطع أخيراً تأمين مايكفي لعدد من أقداح الشاي مع تدخين النارجيلة في مقهى الشباب.

لكنه في الحقيقة فرح مشوب بإحساس غامض. إحساس غير محدد يكاد يشبه إضاعة شيء، أو نسيان شيء.

ويعود سعيد فيستشير القائمة:

٦ كيلو صابون.

١ كيلو تايد.

٣ أكياس لافيكس.

« ماشاء الله. مطعم لايستهلكها» وطوى الورقة بين أصابعه.

لم يبق عليه إذن إلا أن يجري المراسيم الشكلية الأخيرة لتثبيت ملكيته الخاصة للدراهم التي وفرها فينقلها من جيب سترته إلى جيبه الصغير الخاص في السروال.

وخطر له خاطر. ماذا لو رأتها زوجته. آه هذه مسألة بسيطة أيضاً يمكن تدبيرها.. وسرعان ما أسعفه خياله. كانت ملكاته كلها متأهبة تعمل بانسجام «إنها ثمن طوابع لبعض المراجعين».

وتطاولت دائرة الظل التي تسكبها لافتة محطة البنزين، فاضطر أن يتقدم خطوة كي يظل في المركز. بينما الفرس الطائرة ما تزال صهوتها بلا فارس.

وألقى نظرة. كان الزحام قد خف فليتهيأ إذن ليمتطي الباص القادم.

كل شيء يجري في خياله حسب ما يرغب ويشتهي. الأغنية الصباحية تصدح. والأرض مرشوشة بالماء تحت السقيفة الخضراء، وعلى مفارق الطرق الثلاث. الطاولات نظيفة. والمزهريات حافلة. والحلاب وسط قطيع ماعز في أعناقها أجراس. السماء صافية كدمعة الديك. والجو ينز طراوة. وسعيد هناك في مكانه الذي اختاره إلى اليمين من عمود السقيفة في الصف الأول من الطاولات يحتسي شايه الكثيف ويدخن تنباكه المعتق. إنه ينقر

بملقطه على صينية النارجيلة – أن ناراً – والصباح كله يتفجر حيوية وانبساطاً، والحياة مترامية أمامه أغنية أبدية لاتنتهي. ويجيب النادل الرائح الغادي منغماً: حاضر. نشطاً، منسجماً مع الزهر والصباح وصليل الأجراس. كل شيء في عيون سعيد يشع ألفة ويقطر محبة: صباح الخير... صباح الخير. تحية بتحية. واحدة للجار الذي على يمينه. وأخرى لذاك الرجل الأشيب الذي التقت عينه بعينه عن يساره. كل الناس إخوانه وأحبابه!

ويقف باص ويستعجل الناس الصعود. وما كاد سعيد يحمل رزمته كي يصعد إلى الباص حتى استدرك فجأة. أف ما هذا الذي يثب من حنايا رأسه على غير انتظار. هذا ما كان يخشاه. إنه الأمر الذي لم يكن في الحسبان.

لقد تذكر تماماً. في هذا الصباح. كل شيء واضح وجلي. عندما أخذ طريقه إلى الخارج اندفع بسام. ابن الثلاث سنوات. أصغر أولاده وأحبهم إليه يجري ويجري وراءه حتى أدركه. فقال له بعذوبة لسان طفل لا يزال في أول سلم الكلام: «بابا هات لي معك كرز». فقبله في عينيه ووعده أتراه وعده حقاً. لا يذكر. «من علم هذا الشقي أكل الكرز»، وابتسم «لا أحسب أن الكرز دخل بيتي منذ الولد الثالث محمد». وضحك بمرارة «من أين جاءته هذه العدوى؟ أتراها جرثومة منسية تسللت إليه من دم أمه أو أبيه».

وذاب المقهى في لحظة. وجرت الصور في خياله مبتعدة متدافعة: الصباح، والنراجيل، والشاي، وجيرانه، والزهور، والأغنية. «أنا خلاص حبيت. ولكن هذه أغنية أخرى. زمان. زمان آه ياسيد درويش حبيت أم هويت؟؟ يجب أن تكون هويت..».

- يا عم هذه الصرة في حمايتك ريثما أرجع.

« خلاص أنا هويت وانتهيت».

وانطلق صوب بائع فواكه.

- نصف كيلو كرز من فضلك.

ودفع حبة في فمه، فهصرها ثم عراها بين أضراسه عن نواتها. فسال عصيرها سائغاً حلوا شهياً.

- مع بسام الحق.. كل الحق. الكرز شيء لذيذ وطيب.

وتفل النواة .

- كم ثمنها؟

- مئة وستون قرشاً.

وحينما عاد. كان هناك باص، وناس يهبطون وآخرون يصعدون. فحمل رزمته وتهيأ ليتجه ناحية الباص. ولكن شد ما كانت خيبته مريرة عندما وجد جيبه الصغير فارغاً. كانت عشرة قروش العودة قد ذهبت ثمناً للكرز أيضاً.

* * *

# طريقة عَيش

كان يسير متأنياً وقد مد عنقه إلى الأمام، ووسع فتحتي أنفه وراح يدير رأسه يمنة ويسرة ويشتم مرة هنا ومرة هناك مثل كلب الصيد السلوقي.

وسار إلى الخلف على مسافة مترين فتى يرتدي مثل الرجل الأول ثياب أهل المدن ولعله كان صبيه وقد سحب وراءه حمارين على كل منهما خرج. وكان أحد الخرجين منتفخاً بينما كان الآخر ضامراً، كما سار وراء الحمارين عدد من القرويين صبيان ورجال.

قال قروي ظهر لتوه على عتبة بيته:

- والله زمان ياشيخنا

ثم تبع الجمع. وكان هذا الجمع لايني يرفد من وقت لآخر بصبي أو رجل أو امرأة.

وتمهل الرجل الذي يسير في المقدمة بعد أن عبر عدداً من بيوت اللبن، ووسع فتحتي أنفه أكثر كما تشمم أكثر. ولم يلبث الموكب الذي يسير وراءه أن توقف بدوره وقد ران عليه الصمت.

قال قائل:

- لعل الحية في بيت محمد آغا.

ثم خيم الصمت مرة أخرى، واقترب الرجل الذي يتشمم من البيت الذي نسب إلى محمد آغا وأخذ يدور حول جدرانه ويتشمم باهتمام أكثر وقد كسى وجهه طابع من الجد.

وقال قروي:

- كانت هذه غرفة سكن ولكن الآغا حولها إلى بيت علف. الحيات تعشش في بيوت العلف.

وتبرعت إحدى القرويات فدخلت إلى القسم المسكون من دار الآغا ثم عادت تحمل مفتاحاً سرعان ما استلمه منها رجل وأداره في قفل الباب ففتح بيت العلف بصرير حاد.

قال الرجل الذي كان يدور حول البيت متشمماً:

- الحية هنا.

وتقدم فانفلق الجمع وتراجع الناس قليلاً إلى الوراء فأفسحوا له طريقاً ولاحقوه بنظراتهم حتى غاب في الداخل.

وتحرك الفتى الذي كان يسير وراءه ونفض عنه سكونه، فغيب في الأرض وتداً من الحديد شد إليه الحمارين، ثم حمل دفاً من إحدى فوهتي الخرج الضامر ورفعه عالياً بين يديه ونقر عليه نقرتين ففج الناس الذين تحلقوا على مدخل البيت وتقدم حتى وقف على عتبة الباب. ولم يلبث الناس أن أطبقوا على المدخل من جديد. ونقر الفتى نقرة أخرى فأقبل الرجل الشمام.

قال القروي الذي كان يعاين جدران وسقف البيت:

- ما نوعها ياشيخنا؟

فنظر الشيخ إليه نظرة جادة وقال باقتضاب:

- لا أعرف بعد.

ثم تناول الدف وحركة عالياً في الهواء فأرسل صليلاً اهتزت له قلوب القرويين رهبة وتوقعاً.

وأكد الشيخ ما سبق أن قاله من قبل:

- نعم الحية هنا

وطرح الدف على العتبة فتصاعد منه خشخشة وصليل أخرسين، ثم وقف في وسط البيت وأخذ ينضو عنه ثيابه. كان النور ضعيفاً داخل البيت، بل كان الجو أقرب إلى العتمة مما زاد في غرابة صورة الشيخ الذي يتعرى وأضفى عليه هالة من الغموض.

وتزاحم الناس على عتبة الباب وتطاولوا بأعناقهم وقد أراد كل منهم أن يفسح مجالاً لعينيه كي يرى أكثر مما يرى وتسلل ولد من بين الأرجل. غير أن صبي الشيخ حد من اندفاعه عندما حاول أن يتخطى العتبة.

قال رجل محذراً:

- انتبه يا شيخنا لسعة الحيات قاتلة.

فرد عليه رجل مسن:

- طول عمري وأنا أعرف الشيخ في هذه المنطقة يقبض على الحيات.

وقال ثان:

- الشيوخ الذين يقبضون على الحيات رجال أتقياء. فقال صبي الشيخ:

- صلوا على النبي... الصلاة على النبي أفضل.

وتمتم الناس بالصلاة على النبي وتراكمت ثياب الشيخ على الأرض ثوباً فوق ثوب حتى لم يبق على جسده سوى سرواله الداخلي، ولم يلبث الرجل العاري أن رفع يديه الاثنتين في الهواء ودار حول نفسه أمام الجمهور المتحلق على عتبة الباب. وتبرع الفلاح المسن ليزيد من لا يعرفون طقوس اقتناص الحيات معرفة:

- إنه يعلن عن براءة عمله من الغش.

وغاب الشيخ عن أنظار الجماعة لفترة وجيزة ثم تلامح جسمه البض ثانية من خلال العتمة وهو يسير بحذر متشمماً بمحاذاة الجدار المقابل. واتجهت أنظار الفتيان الذين يجهلون سير عملية اقتناص الحيات إلى الرجل المسن فسارع إلى القول:

- إنه يدور حول الجدران ويفحص السقف ليحدد موضعها للمرة الأخيرة.

وشيئاً فشيئاً أمسى هيكل الشيخ أقل وضوحاً لانعطافه حول الجدار الجانبي وابتعاده عن منطقة الضوء المباشر وما عتم أن حجبه الباب بضلفته الواحدة فغاب تماماً.

وفجأة انبعث صوت نابر من أعماق الظلام:

- الحية هنا. هيء الدف يا ولد.

وسرت همهمة بين الناس ربما لشعورهم باقتراب اللحظة الحاسمة بذلك الاكتشاف أو لأن أحدهم أعلن في تلك اللحظة عن مجيء الآغا صاحب البيت. وما لبث الجمع أن انفتح على نفسه فضم القادم الجديد وأفسح له مجالات في الصف الأول ثم عاد إلى انغلاقه.

وتساءل صبي الشيخ:

- ما نوعها يا شيخنا؟

- برجيل يا بني.. برجيل.

- برجيل يا سيدنا الشيخ. انتبه.

وتناول الشيخ الدف وقال وهو يعود متجهاً إلى الداخل:

- الاتكال على الله يا بني.

والتفت صبي الشيخ الواقف على الباب ليحول دون تخطي الجمع العتبة كيلا يفسدوا عمل الشيخ وقال باقتضاب وقور:

- هدوءاً يا جماعة: البرجيل حية خطرة.

وتصاعدت من الداخل خشخشة الدف مقرونة بصلصلة دائرية معدنية الوقع ثم علا صوت الشيخ:

- يا جداه... يا جداه.

وتلاحقت خشخشة الدف أكثر. وتلاحقت صلصلة الدوائر المعدنية أكثر كما ارتفع نداء الشيخ.

- يا خضراه... يا خضراه.

وتدافع الناس وتضاعفوا. وهيمن الصمت ورجفت القلوب. وقصرت الفترة بين الخشة والأخرى وتسارعت صلصلة الدوائر المعدنية:

- يا جدي جنيد... يا جداه.

وتطاول الناس فارتفعوا على رؤوس أصابعهم كما اشرأبوا بأعناقهم وحاول كل منهم أن يرى الشيخ وهو يقبض على الحية. ولكن الشيخ كان محجوباً بالباب ولم يكن يبدو منه إلا ظهره ورجليه وأحياناً كتفيه. وتواترت الخشخشة والصلصلة حتى صارت موصولة. وصمّ الآذان ذلك القرع المتواصل فهاجت الأعصاب والتمعت العيون.

- يا جداه.. ايه.. ايه يا جداه.

وتناقص القرع على الدف شيئاً فشيئاً ثم تباعد فخفت حتى سكن كنفس خمدت تماماً.

ولكن الشيخ عاد إلى الباب وطرح الدف على الأرض فأرسل صليلاً دائرياً رفيعاً كأنه استغاثة. كان العرق يقطر منه وتمتم ببعض الكلمات معبراً عن المشقة التي يلقاها. قال:

- إنها لا تستسلم بسهولة.

وغاب في الداخل مرة أخرى ثم سمع صوته يقول:

- تعالي ... تعالي يا مباركة.

ثم لم يلبث بعد قليل أن أقبل وبيده الحية، وقد أمسك بها بيد من تحت الرأس بينما أمسك باليد الأخرى باقي جسمها. وكان ثمة قطرتان من الدم أو ثلاث على ظاهر اليد التي أمسكت الحية من قرب الرأس. كانت بطول ذراع اليد حمراء اللون. وخف صبيه إلى حيث ربط الحمارين فحمل صندوقاً صغيراً له غطاء زجاجي فتحه للشيخ الذي أسرع فدفع الحية في داخله ثم أعاد الغطاء وثبته.

ووضع صبي الشيخ العلبة على الأرض كي يشاهد القرويون الحية. وضرب الناس حلقة حول الحية الحبيسة التي التفت حول نفسها في تلك اللحظة. واقترب صاحب البيت من العلبة حتى صار لصقها فقال:

- وحق سيدنا محمد لسعتها لاشفاء منها.

وبصقت بعض النساء اللواتي كن واقفات على سطح مجاور وتضاحكت واحدة أو اثنتان بفعل الخوف أو القرف. واتجه الرجل الذي أطلق عليه اسم الشيخ إلى بيت العلف مرة أخرى فارتدى ثيابه. وهتف صاحب البيت.

- علي امض إلى البيت واجلب مكافأة الشيخ.

ومضى علي إلى بيت الآغا بينما أقبل الشيخ من داخل بيت العلف. قال له أحدهم:

- لقد لسعتك يا شيخنا.

فرد عليه الشيخ وهو يلحس الدم عن ظاهر يده:

- إن لسعتها لا تؤثر في يا بني... انني استمد قوة من الأولياء الصالحين.

وسأله آخر.

- لماذا لم تقتلها يا شيخنا؟

فقال له:

- هذه حية نادرة يا بني.. انني سأحملها إلى المدينة وهناك سأعرضها على صيدلي علي أستفيد بثمنها.

وقال آخر:

- لعلهم يستخرجون سمّها فيصنعون منه دواء.

ثم تابع ضاحكاً:

- ومن يدري ربما أطعمونا إياها سمكاً معلباً.

فتضاحك القوم. وجاء الفتى الذي ناداه صاحب البيت باسم علي يحمل مكافأة الشيخ. وكانت المكافأة قدراً من زيت الزيتون وبعض البرغل فتناول صبي الشيخ المكافأة فدلق الزيت في صفيحة أعدت لهذا الغرض.

كما أفرغ البرغل في كيس يحتوي برغلاً أيضاً.

ودعا الشيخ لصاحب البيت بطول العمر ثم ودع أهل القرية بالجملة قائلاً:

- خاطركم يا شباب.

ومضى هو وصبيه والحماران.

عندما صار الشيخ والصبي خارج القرية. قال الصبي:

- أفكر أحياناً لو كشفوا أمرنا.

فرد الرجل:

- يكشفون أمرنا لماذا؟ إذا سار كل شيء على مايرام لن يستطيع الخضر نفسه أن يعرف شيئاً. امنعهم من الدخول أولاً ثم أخف الحية تحت الدف جيداً عندما أتناوله منك. ضع في يدي الحية مع الدف في الوقت المناسب لا تؤخر لحظة ولا تقدم لحظة.

وسارا مسافة صامتين. ثم قال الشيخ:

- أعد الحية إلى مكانها. إن القرية التالية لا تبعد كثيراً.

وألقى الفتى نظرة على الطريق. وحين اطمأن إلى خلوه فتح العلبة وأمسك الحية بسرعة بيد مدربة ودفعها في كيس صغير من الخام بمساحة راحة اليد، ثم طوى ما فضل من فوهة الكيس ورفع قميصه الحر فظهر عدد من أكياس الخام المشابهة حول وسطه وقد أطلت من تحت زناره بفوهات مطوية طياً خاصاً، وحشر الكيس الذي في يده في المكان الشاغر تماماً من وسطه ما بين جسمه والزنار. ثم أرخى القميص فوق سرواله. وسارا بعض الوقت صامتين.

قال الشيخ:

- تدري؟ أحس أحياناً بالخجل عندما أفكر أني أخدع هؤلاء الناس. ولكن ماذا أفعل. ايه إنه الشيء الوحيد الذي تعلمت أن أتكسب منه في حياتي.

ولم تمض بعد ذلك سوى فترة قصيرة حتى لاح عدد من البيوت تحت وهج شمس الأصيل من خلال بعض الأشجار الخضراء. ولم يلبث الشيخ والصبي وقد تبعهما الحماران أن انحدروا جميعاً في درب متعرج مفروش بالحجارة في طريقهم إلى قرية جديدة.

# سلوم

في الوقت الذي تميل الشمس فيه نحو المغيب، وتمسي على مرمى حجر من خط الأفق، وعندما يهدأ الجو إلا من همس أشجار الصنوبر في مشتل الحكومة، وخطى عابر مستعجل، وفي اللحظة التي يكون الريّس قد أخذ أهبته فيها ووقف على باب الحظيرة ليمضي نحو المدينة، في هذه الفترة بالذات ينفرج فم الطريق عن رجل يمشي الهوينا، محني الظهر، على كتفه الأيمن كيس منتفخ في أسفله.

أما الزمن الذي ينقضي بين لحظة ظهور حامل الكيس ووصوله إلى حدود مربط الدواب فأبعد من أن يتصف بالقصر. إن أقل ما يقال فيه أنه غير عادي وهو ثلاثة أضعاف المدة التي تلزم أي عابر.

لكن في الواقع يبدو أن تلك الفترة هي من أسعد اللحظات في حياة سلوم. فهو ما أن يوشك على ترك طريق الإسفلت العام حتى يخبط قدميه قبل أن يبدأ السير على الأرض الترابية. إن من عادة الريفيين أن يفعلوا العكس. بيد أن سلوم يلوح وكأنه ينفض عن قدميه شيئاً علق بهما في المدينة. وهو ما أن يفعل حتى يبدأ رحلة غريبة بين صف من أشجار الصنوبر يساراً، وجدار سوق الخضار يميناً. إن خطواته تغدو أكثر تباطؤاً، أما حركات ظهره ورأسه ويده الحرة ومن ثم ملامح وجهه عموماً، فتبدو وكأنها تقع تحت تأثير خاص.

إن أي عابر يصادف - سلوم - في تلك الحالة يحسب أنه قد أصيب بمس. إنه يدير وجهه مبتسماً من حين لآخر ناحية الأشجار ويغمغم كلاماً مبهماً. وفي بعض الأحيان يتوقف للحظة. ثم يرفع رأسه نسبياً ويهزه هزتين أو ثلاثاً دون أن تفارق شفتيه ابتسامته الغريبة. ثم يعاود إطراقه مستأنفاً خطوه القلق.

لم يدر أحد ماذا في خلد سلوم في تلك اللحظات. أما العابرون الأكثر سطحية فقد رموه بالجنون. ومن المرجح أن – سلوم – لم يكن مصاباً بمس. لكن يبدو أنه كان يتحدث إلى الشجر. ماذا يقول سلوم لها؟! ماذا تقول هي له؟!. كان الآخرون يجهلون ذلك.

يقال إن الطبيعة لغز مغلق. وهي لاتعطي سرها لكل عابر. ويقال أيضاً أنها امرأة فاتنة. ولكنها أبعد من أن تكون متعالية كما يلوح للوهلة الأولى. بيد أنها تطلب الإخلاص قبل كل شيء من طلابها.

ويبدو أن – سلوم – أحد أولئك الناس القلائل الذين استطاعوا أن يلجوا محرابها. لقد اجتاز سلوم فترة الامتحان ليس كأفضل ما يجتاز المرء امتحاناً، لكن إلى حدٍ مرضٍ. وإلى حد استطاع معه أن يحل بعض رموزها.

لقد توسد الثرى وسمع الشكوى المنبعثة من باطن الأرض: مسكينة أمنا الأرض إنها تتعذب فلماذا؟ ربما هي غير راضية عن أبنائها، أو ربما هي اشتاقت لضمهم إلى صدرها.

هذا ما كان يحس به سلوم وهو مستلق على الأرض يراقب سير الأفلاك في مجاريها. وفي أحايين أخرى خيل إليه أن تلك الشكوى إن هي إلا أنين المعذبين لما اقترفت أيديهم وأفواههم. وما هؤلاء المعذبون سوى أبناء المدينة.

كم طار مع العصافير وغنى في وكناتها. كم حملته الريح غيمة بين الغيوم، ولفظ في داخله مع السواقي.

كان سلوم يجهل التقاويم، يجهل عدد أيام السنة، وبالتالي كان جهله بالمناسبات فاضحاً لا يبارى. بأعيادٍ القديسين والأيام الفضيلة التي تبدو معرفتها في لحظة من اللحظات شرطاً يدل على مدى إنسانية المرء.

لكن ما حاجته إلى ذلك. يكفيه أن يقطف نبتة جرجير أو هندباء ويمضغها بتؤدة كي يعرف أن السنونو عائد، وأن القبرات والسمن ستتهالك في الحقول منشورة الأجنحة من رحلتها الطويلة قبل أن تبني أعشاشها، وأن جيوب السماء قد أمسكت عن المطر. ويحس أن الزهور ستتفتح وشيكاً. وأن

جسمه سيتصبب عرقاً في وقت من الأوقات وتحرقه الشمس إذا لم تمنحه سيدة في المدينة أحد قمصان زوجها القديمة.

إن – سلوم – يدور خلال النهار على بعض معارفه في المدينة، حيث يقدمون إليه بعض الطعام وأحياناً قليلاً من التبغ. لكن معارفه القدامى راحوا يتناقصون مع الأيام منذ أخذت المدينة بالاتساع. وأنه ليعجب أين رحلوا، حتى بات يخشى أن يصبح بلا معارف.

إن هذا الإحساس يزعجه، ويزداد إيغالاً في البعد كلما تقدمت به السن، وإن لم يشعر بالجوع يوماً. كانت الزوايا وقيعان الجدران غنية دوماً بما يحتاج إليه.

لكن ما بال هذا المساء لا تجري فيه الأشياء في درب المشتل مثلها في كل الأماسي الماضية. فالشمس قد انحدرت حتى باتت على بعد ذراع من مكمنها. والريس لم يطف حول الزريبة متفقداً. ولم ينفض سترته الرمادية قبل أن ينزل فيها وهو يأخذ مكانه من باب الحظيرة. أما سلوم فلم يظهر في فم الطريق. بينما ازداد همس الصنوبر. لماذا تأخر سلوم؟ لماذا؟! أواه لعله قد صادف بعض المتاعب في المدينة.

كلا إن (سلوم) لم يصادف أية متاعب لكن يبدو أن الحال لم تكن على مايرام بينه وبين الريس هذا الصباح. فقد أيقظه على نحو بعيد عن اللطيف وسأله بجفاء:

- سلوم! الترانسيستر مسروق وكذلك بعض الأشياء الأخرى.

إن من عادة الريس أن يعهد إلى سلوم بحراسة الزريبة في الأماسي لقاء السماح له بالنوم فيها، حين يتغيب لبعض شؤونه في المدينة. وحاول سلوم أن يستجمع شتات ذهنه.

- ألم تشتبه بأحد؟ قل إنك تشك ببعضهم ..

ونظر إليه سلوم بعينين فارغتين:

- إن ذلك حدث وأنا في المدينة.. عندما كنت غائباً عن الزريبة.

لكن – سلوم – قد عقد لسانه فلم يحر جواباً.

- لابد أنك كنت نائماً أيها الأبله. حاول أن تتذكر.. ألم يحوم بعضهم حول الحظيرة. عليك اللعنة.. هيا اغرب عن وجهي.. لست أهلاً لشيء.

ولملم سلوم نفسه بينما ترك أشياءه، إلا ما وقع تحت يده فدفعه في الكيس واتجه صوب المدينة. كان الوقت قبيل الشروق. وكان كل شيء سادراً في سباته حتى عشيقاته الصنوبرات وراء سياج مشتل الحكومة.

لهذا كان فرحها عظيماً حين انبثق صاحبها فجأة من صدر الطريق. وسرعان مادبت الحياة فيها على امتداد حد المشتل المقابل لجدار سوق الخضار: سلوم... سلوم أين كنت؟ لماذا تأخرت؟ وينظر اليها سلوم من تحت حمله ويبتسم لها. ويقص عليها ما كان بينه وبين الريس هذا الصباح.

ويتابع سلوم خطوه المتقلقل حتى يصل إلى حدود الزريبة. ثم يبتعد عنها إلى الجهة المقابلة ويقف تحت أشجار الصنوبر، ثم ينزل الكيس عن كتفه.

كانت الزريبة خالية كعادتها في مثل هذا الوقت إلا من حمار الريس. أما الريس فلم يظهر له أثر. ربما قصد المدينة. ولاحظ الدجاجات وهي توالي بحثها الناشط خلال روث الدواب عن حبات شعير لم يصبها حظ من الهضم.

إن الأشياء هي نفسها ككل يوم. فها هي ذي الشمس تسرع الخطى في منزلق السماء وهي تقترب من مرقدها. إنها تنثر الذهب في طريقها بكرم لايجارى. حتى شجرة النخيل وكم متع ناظريه برؤيتها وناجاها في جلسته من وراء حقل الحنطة المجاور. عندما كانت السنابل المثقلة خضراء وشقراء. كذلك المئذنة وسائر قمم الأشجار القريبة والبعيدة، أو ما تراءى أنها أشجار. وأيضاً أسطحة المنازل البعيدة. قد رفلت كلها في فيض ذلك السخاء السماوي.

لكن رغم ذلك، كان للأشياء من هناك وهو مستلق على الأرض، متكئ بمرفقه إلى الكيس يدخن سيجاراته التي منحته إياها المدينة، طعم آخر.

أواه كم تتغير الدنيا؟! ما الذي يهب الأشياء ذلك المذاق الخاص في مكان ما؟ وما الذي يفقدها إياه في نفس ذلك المكان ولكن من خارج سياج.

فالبارحة في مثل هذا الوقت، كان هناك تماماً، والدجاج يفرق من حواليه. لم يكن من المتصور أن يكون العالم أطيب مما هو عليه إذ يتيح له مثل تلك الجلسة بعد نهار طويل.. طويل في المدينة.

أما الآن فها هو ذا على قارعة الطريق عرضة لكل هذر الآخرين وتشنيعهم ومزاحهم السمج: سلوم ظهرك كرة. سلوم كم أتعبت أمك بهذه الرأس الكبيرة؟! لابد أنه قد أغمي عليها في تلك اللحظة الملعونة.. سلوم كيت.. سلوم كيت. ضربة على الرأس. ضربة على النقرة. ودفعة في المؤخرة.

إن – سلوم – في العقد الخامس ولقد عرف أماكن كثيرة قبل أن يهتدي إلى زريبة الريس. إن زريبة الريس تقع في ظاهر المدينة، وراء سوق الخضار مباشرة، وقبالة مشتل الحكومة تماماً. وهي عبارة عن فسحة من الأرض محاطة بأسلاك شائكة، في طرفها بيت من اللبن ينام فيه الريس حتى من قبل أن تموت زوجته منذ خمسة أشهر، إذ لم يكن على وفاق معها. كان رجلاً يتصف بالجعجعة بالدرجة الأولى، وكانت جعجعته أكبر منه في كل الأحوال. أما فضيلته فهي حبه للعصافير، وقد احتفظ ببعض أنواعها الأليفة في بيت اللبن.

لقد نام سلوم في المغاور، وفي صناديق سيارات خربة في العراء، وفي مخازن العلف، وفي البيوت المهجورة، والأقنان التي مر عليها مرض الدجاج أو مس أصحابها فمسحها مسحاً. لكنه في كل مرة يكاد لا يستبدل أحد هذه الملاجئ الا بعد حيطة وتدبر للأمر.

لم يشعر أبداً بمثل هذا التشرد. صحيح أنه لم يأو مرة إلى سقف من حجر. اللهم إلا المستشفى يوم كان صغيراً. لقد هبطت به أمه إلى المدينة في ذلك الحين لتعالج كسوره إثر سقطة من شجرة تين في القرية، ثم لم ير لها وجهاً بعد ذلك. لكن لم يصادف يوماً أن نام على قارعة الطريق.

كان يختار مآويه دائماً حسب إحساسه بالقر، أو بالحرارة، وفراراً من مضايقة المتطفلين له. لم يحدث يوماً أن انتقل بصورة مفاجئة وبلا سبب. كان

ثمة تمهيد دوماً يضاف إليه إحساس بالضرورة يسبق الرحيل: هذا مكان مناسب يا سلوم فانظر بعد ذلك في بقية الحسنات. وينطلق من ثم مبعوثه الشخصي .. أحد سلوميه.

والواقع كان هناك سلومان. أحدهما شجاع والآخر جبان. لقد حدث في المدينة يوماً أن كان ماراً بأحد الشوارع. كان هناك بوابة من الزجاج، وثمة أناس يدخلون، وآخرون يخرجون منها. فدخل مع الداخلين بدافع الفضول. كان البعض جالساً إلى طاولات يشرب وبعضهم يرقص. ولكن ما أن رآه أحد الراقصين حتى هتف: مرحباً أيها الفقير الهندي، ثم راحوا يدورون حوله منشدين حتى كادوا يصمون أذنيه. مرة يسقونه من ذلك السائل الذي يشربون، وأخرى يسكبونه عليه. وضربة هنا وضربة هناك، ثم وجد نفسه بعد ذلك في الخارج أرضاً مفكك المفاصل مدقوق العظام تقطر ثيابه بذلك السائل ذي الرائحة الغريبة. إلى غير ذلك من الحوادث المشابهة. لقد وقع هذا عندما كان فتى غراً. لكنه عرف بعد ذلك كيف يتحاشى أمثال هذه المشكلات ويفر من الأشراك التي تنصب له. فإذا ما أبصر جماعة من بعيد، أرسل في الحال عينه الكاشفة لتزن الأمور وتختبر نوعية تلك الجماعة. حتى صار يملك حساً خاصاً. وسرعان ما يأتيه الجواب: لا تتابع هناك سخرية.. هناك شد وجذب.. هناك ضرب على القفا.

وكان أكثر ما يخشاه هم الفتيان مع ما يثير عجبه من شدة الشبه بينهم وبين الزهور. كانت ضرباتهم ثقيلة تدير رأسه، وتطلق النجوم تباعاً في عينيه في عز الظهر.

أما الأطفال والشيوخ فأقل أذى بوجه عام. في حين أنه كان يستكين لمداعبة الفتيات: سلوم هل ترضاني خطيبة لك؟ سلوم أنت حبيبي. ولم تكن هذه الكلمات بما فيها من حلاوة قادرة على مسح إحساسه بالسخرية الكامنة وراءها. لكنها رغم ذلك كانت تدغدغ شيئاً في داخله.

وتوالي الشمس انزلاقها، ويشب حريق في السماء يتوهج منه وجه الأرض. إن الزمن يمضي بينما سلوم يقف سائباً بلا مأوى. ويجدد النظر إلى

الزريبة. لم يكن العالم في عينيه يوماً أضيق مما هو عليه الآن. ولم يكن هذا الضيق لينفي إحساسه باتساعه الرهيب في نفس الوقت.

وهكذا تعود المخاوف التي دفعت الإنسان الأول إلى إشعال النار. تعود فتحرك رأسها في أعماق سلوم مرة ثانية، ولكن بصورة أخرى. وهو إذ يطيل النظر إلى بوابة تلك الزريبة – على تفاهتها – التي من الممكن أن تضمه في داخلها إنما يضع حداً لتلك المخاوف البدائية، ويرسم في آن واحد حدود وجوده حتى ليحس بنفسه من قمة الرأس إلى أخمص القدم. ذلك الإحساس الخفي الذي يشبه عمليات الهضم الخفية.

ولكن البوابة من جهة أخرى رغم ما يشعر به إزاءها من خيوط حنين تشده إليها، أخذت تمثل في نظره كل الأبواب الموصدة في وجهه.

وتتحرك شجيرات الصنوبر وتتشاور فيما بينها، ثم توشوش في أذنه: سلوم تعال نحن نأويك. ويفكر سلوم في حارس المشتل وهو رجل أعرج شديد المراس وبما قال له بالأمس «ثمة من يسرق التفاح في الليل». ثم كيف طلب إليه أن يكون يقظاً في الليالي التالية ووعده بمكافأة إن هو فعل شيئاً يساعد على الإمساك باللصوص. لكن هبه أحس بوجودهم في الليل فماذا عساه يفعل؟! هل يصرخ؟ ألن يخمدوا أنفاسه إن فعل؟ كلا. كلا.. حقاً إنه ليس أهلاً لشيء. ولا يستأهل الخبز الذي يأكله كما قال الريس.

ولكن الصنوبرات لا تكف عن إغراء سلوم. فها هي ذي تسهل عليه الأمر: هناك ثغرة بين الأسلاك أحدثها الطلاب الذين كانوا يدرسون إبّان الامتحان في المشتل. ما عليك إلا أن تمر منها، ثم تتكفل الحشائش بإخفائك.

كانت الدعوة مغرية حقاً. وسرعان ما انسلخ عنه سلومه الآخر. واجتاز الأسلاك بسلام، ثم تمدد راقداً بين الحشائش. جن الليل. ولكن حارس المشتل الذي لاينام إلا بعين أقبل عليه بهراوته. هذا أنت إذن يا سلوم؟.. أنت من يسرق التفاح. وترتفع الهراوة في الهواء، ثم تنزل على رأس سلوم.. على كتفه، على ظهره ورجليه. ويتلوى سلوم خارج المشتل وتشق السكون صرخة، تتبعها أخرى. ولكن ممن؟! إن سلوما لم ينفذ خلال الأسلاك الشائكة. ولم يسرق تفاحاً، ولم يضربه الحارس بهراوته.

الطريق خال وليس ثمة من عابر. لا شك أن الصرخة اذن من هناك. من الخلف ومن الريس بالذات. ويدور سلوم الذي كان قد اتجه منذ قليل ناحية المشتل. فيرى الريس يركض مذعوراً في الاتجاه الآخر تاركاً بيت اللبن.

لقد عاد اللصوص اذن. ياللحمقى. ما الذي يمنع سلوم الآن وهو ما هو عليه من التقدم للإمساك بهم مادام الريس قد هرب. ولاح له أن القضية تخصه أكثر من أي شخص آخر. أليسوا سبب إبعاده عن الزريبة، وحرمانه من تلك النعم المسائية؟...

وتتكفئ نفس الدوافع التي كانت في الزمن الأول سبباً في إشعال النار. تتكفئ لتهيب بسلوم في اطفائها. وهكذا يتقدم سلوم الشجاع وسط الظلام ليس بفعل الغضب وحده، بل مسوقاً بهاجس قديم لتلمس موطئ قدميه.

« لايصلح لشيء ولا يستأهل الخبز الذي يأكله. لنرى إذن». ويستوقف سلوم الجبان، السلوم الآخر ويلحق به فيسيران معاً متشابكي اليدين. بينما كانت خرخرة النمر الصادرة من الداخل تتفاقم وتشق أجواء الفضاء.

انطفأ الحريق في السماء إلا من بضع غيمات لا تزال النار فيها مشبوبة بعناد. وكان العالم قد بدأ يتفحم حين خرج سلوم وبيده شيء ما، شيء يشبه السوط. كان هناك بعض العابرين الذين استوقفهم لغط الريس وقد استبد بهم فضول يمازجه القلق: آه هذا سلوم أخيراً. مرحى سلوم. مرحى. إذن لقد قبضت عليها. هل هي الأفعى السوداء؟. نعم إنها عينها حقاً. يا للعجب!! سلوم يمسك الأفعى السوداء. هذا آخر ما يخطر على البال.. سلوم يقتل الأفعى. وسرعان ما انتشر الخبر في الجوار.

والحق ان الريس حين ترك بيت اللبن مذعوراً. لم يفعل ذلك لمداهمة اللصوص بيته مرة أخرى بل كان بسبب عبلة. وعبلة هذه أفعى معروفة في المنطقة، وقد أطلق عليها السكان هذا الاسم لشدة سوادها، وكم التقى بها الناس هنا وهناك في ساقية ماء، أو تحت عليقة من عنب الريس، بين شجيرات الصبار. وكم صادفها الأطفال تسعى نحو أعشاش الفراخ على سوق الشجر. وقد مرت بسلام من كل المحاولات التي بذلت للقضاء عليها.

ويكرر الريس من جديد لعابر وصل لتوه ما شرحه للذين وصلوا قبله. كيف دخل إلى بيت اللبن ليجلب سكيناً من أجل تقشير حبتي بطاطا فشاهد منظراً اقشعر له بدنه. كان العصفور أبو ذنب أزرق يرتعش. كنت قد فتحت له باب القفص قبل قليل فراح ينقر بعض الحب في زاوية البيت. لقد حسبت في البدء أنه مريض. كان يرتجف وقد اتجه بعينيه إلى تحت الطاولة. زقزقت له فأحسست بحركة غير عادية. نظرت تحت الطاولة فماذا رأيت؟! آه يا لطيف. اللعنة على سيرتها. كانت قد عملت من نفسها قرصاً يشبه بكرة البئر. في حين انتصب رأسها في مواجهة العصفور. وما أحست بي حتى أدارت رأسها نحوي وصفرت في وجهي. ثم أضاف: أنا لا أخاف من المدفع، أما الأفعى فيرتعش منها قلبي.

لكن «سلوم» في الواقع لم يكن قد أجهز على الأفعى حتى تلك اللحظة. كان قابضاً على رأسها بجمع كفه كما يقبض المرء على السوط. وتلوت بجسمها اللدان وحاولت أن تضربه بذنبها. في حين كان سلوم يمضي إلى الأمام وقد بدا وكأن في رأسه فكرة. وتأتيه الأصوات من الواقفين: ارمها أرضاً واقتلها بحجر.. إليك هذه العصا علك تحتاج إليها... دس الجوخ في فمها وانزع أسنانها.. اللباد أفضل.. قطعة لباد يا شباب.. كم سيكون منظرها مضحكاً بلا أسنان .. العجوز.

ويتجه سلوم إلى هدفه مباشرة غير حافل باقتراحات الفضوليين. إن نزع أسنان الأفاعي بالجوخ أو باللباد حيلة يلجأ إليها المرتزقة المشعوذون، ممن يودون المحافظة عليها لعرضها في المناسبات لقاء بضعة قروش.

لكن غرض سلوم شيء آخر وهو يعرف ما ينبغي عليه أن يفعل.

وتوتر جسم الأفعى بينما كان سلوم ينشر ذراعه في الهواء. ورسمت دائرة للحظة ضاقت بعدئذ ليظهر طرفها الأسفل الذي أخذ يتطاول كلما صغرت الحلقة حتى بدت وكأنها لولب يدور. وقامت بمحاولة أخيرة، محاولة التفاف يائسة لتتعلق بأي شيء. لكن ذراعه كانت أسبق إلى الارتفاع في الهواء، وأسرع بالنزول على أسلاك الزريبة الشائكة. وارتفعت ثانية ثم انقضت. كان سلوم بقدميه المنفرجتين ويديه المبسوطتين أشبه بطائر كبير يتهيأ للتحليق.

وظلت الذراع تعلو ثم تهوي بجسم الأفعى الذي أخذ يفقد توتره شيئاً فشيئاً. وكانت الأسلاك تطن وترتجف لتعاود طنيناً وارتجافاً جديدين. ولاح سلوم خلال لحظات وكأنه نسي الأفعى فراح يعمل على هدم تلك الأسلاك. كان يضرب بصمت دون أن يطرأ أي تعبير جديد على وجهه خلا خدوش بسيطة أعطته مظهراً غريباً وجاداً في غبش المساء. كان ذراعاً، وذراعاً فقط تعلو وتهبط. ذراع تفكر وتتألم وتضحك وتغضب وتنتقم وتسخر من الآخرين.

واشتد قلق العابرين وحبسوا أنفاسهم: لماذا لايجهز عليها بحجر؟ لماذا لا يقصم ظهرها بضربة عصا؟

أما السؤال الذي ظل حائراً معلقاً: من أين أتت لسلوم هذه الجرأة؟! من أين جاءته هذه القدرة حتى لكأنه خلق خلقاً جديداً. حقاً الناس مخبأون في ثيابهم. قال أحد الحاضرين.

والتف ذنب الأفعى الميت حول السلك فجذبه جذبة أخيرة. وتداعت ركائز الاسلاك ولكن دون أن تهوي فتلامس الأرض.

وأطرح الافعى جانباً فصفرت صفرة أشبه بذلك الصوت الذي يحدثه عبور طائر جافل. كان نصفها الأسفل ممزقاً دامياً ميتاً. أما الآخر فلا يزال ينبض بالحياة. وقد حاول حال استقراره على الأرض أن ينتصب. وفتحت فاها ومدت لساناً دقيقاً رفيعاً، وقد راحت تنظر إلى سلوم بعينين ثابتتين حاقدتين. بينما انحنى هو وتناول حجراً. غير أنه بدل أن يهوي بها على رأس الأفعى كما توقع الجميع رماها بعيداً، ثم راح يجهز على الجزء الحي بقدميه. وكانت قدماه المتناوبتان في ارتفاعهما وهبوطهما كأنما تصران على تأكيد شيء فاتهما تأكيده منذ زمن بعيد. ثم تغير وقع القدمين شيئاً فشيئاً فصار أكثر طراوة وايقاعاً كأنه يلبي نداء أغنية بدأت تتصاعد في داخله. وفكر الواقفون: سلوم جن.. سلوم جن. وصرخوا: احذر يا سلوم ستقتلك.. ابتعد عنها دمها يغلي فلا تقربها.

بيد أن سلوم بدا أنه لم يكن أكثر تمالكاً لوعيه في أي وقت مضى منه في تلك اللحظة. لكنه كان يرقص رقصته السلومية الخاصة. تلك الرقصة التي حال بينه وبينها الآخرون زمناً طويلاً حتى فجرتها الأفعى.

فحينما صفرت من جديد لم يدعها سلوم تكمل صفرتها. إذ عاجلها بضربة على رأس أتبعها بأخرى دون أن تفقد إحدى قدميه الصاعدة النازلة إيقاعها الغريب. ثم بضربة ثالثة حتى هدأت تماماً إلا من بقية حياة تمثلت في حركة ضعيفة في وسط جسدها. أما عيناها اللتان نجتا من التلف فكانت لهما نفس النظرة الثابتة، وقد بدتا أنهما اتجهتا إليه. ولكنهما كانتا عينين زجاجيتين لم تعد لهما القدرة على بث الذعر. وبطل سحرهما في شل أجنحة الطيور.

وقفز العصفور أبو ذنب أزرق وحط على كتف الريس. وتنفس العابرون كأن حملا قد أزيح لأول مرة بدفء الكلمة وخلوها من السخرية. وشعر أنه قريب، قريب جداً من الآخرين حتى لكأنه واحد منهم. في حين راح صدره يعلو وينخفض ولهاثه يتلاحق، وجسمه ينشر في دائرة كبيرة رائحة عرقه الحادة.

وانفرط عقد الواقفين. بعضهم اتجه صوب المدينة لقضاء سهرة الليلة. وآخرون ناحية بيوتهم في القرية المجاورة وقد راحوا يتندرون بالحادث: كم ذعر منها الأطفال.. لقد رأتها امرأة المختار في الصيف الماضي في خط البندورة.. نعم ولكنها شوهدت كثيراً في الأيام الأخيرة على مقربة من البيوت. من كان يعلم ماذا يجري في رأسها. أنا لم أر في حياتي بمثل سوادها. ايه لقد وقعت عبلة أخيراً. وعلى يد من؟! الله يضع سره في أحقر خلقه.

وعقب أحدهم أنه رأى سلوماً مرة يقرأ في كتب سحر صفراء. وقال آخر إنه على صلة بالجان. وقال ثالث عجوز: إني لأعجب كيف تمكن منها؟! إن الأفاعي السوداء كثيراً ما تتخذ من ذنبها سوطاً تجلد به الآخرين حتى ليتعذر الاقتراب منها.

وتابع بعد فترة صمت: وإذا ما أعيتها الحياة لجأت إلى أنيابها.. يا له من أمر غريب.

أما سلوم فقد تحرك متجهاً إلى خارج الزريبة فاستوقفه الريس:

إلى أين يا سلوم؟! النوم في الزريبة حلال عليك.

وقدم له في تلك الليلة قدحاً من الشاي.

* * *

# صورة

- دنيا! لماذا أنت واقفة هناك؟ هاتي العربة وتعالي يابنت.

ودفعت دنيا عربة طفل فارغة في مسلك من مسالك الحديقة حتى صارت بمحازاة العائلة التي استقرت فوق أرض معشوشبة. كانت العائلة قد جاءت منذ قليل إلى الحديقة العامة بعد الانتهاء من صلاة «أحد الشعانين» لأخذ صور تذكارية. وكانت الصورة الأولى قد أخذت قرب شجرة ورد وبدأ الاستعداد لأخذ الصورة الثانية.

وقالت السيدة مرة أخرى:

- دنيا! تعالي خذي برنس سوسو وضعيه في العربة.

وتركت دنيا العربة واتجهت صوب الجماعة. كانت الجماعة مؤلفة من خمسة أشخاص. رجل بيده جهاز تصوير، وامرأة تحمل طفلاً في سنته الأولى وصبي وفتاة في يد كل منهما سعفة مزينة بالزهور. وكان الجميع في أبهى حللهم.

وتناولت دنيا البرنس من المرأة وطوته بعناية، ثم أراحته بحرص على ساعدها. وعادت إلى اتخاذ مكانها بالقرب من العربة والبرنس لايزال يرتاح على ساعدها.

قال الرجل الذي بيده جهاز التصوير:

- لنأخذ صورة جماعية أخرى.

فتصدرت الأم على اليمين تحمل رضيعها، ثم تلاها الصبي فالفتاة. وقف الزوج في مقابل الأسرة وأغلق عيناً ونظر بالعين الأخرى في جهاز

التصوير مختبراً وضع الأسرة من هناك، ثم تقدم خطوتين وانحرف قليلاً إلى اليسار.

أثناء ذلك كان الصبي والفتاة الواقفان عن يمين السيدة يتبادلان النظرات الحافلة مع دنيا ويبتسمان فخورين، فأجابت دنيا على ابتسامتهما بالابتسام.

قال الزوج:

- عندما أعد ثلاث سألتقط الصورة .. حسناً! استعدوا.

واستعد الصبي والفتاة وتشبثا بسعفتيهما المزينتين بالزهور ودفعاها إلى الأمام كأنهما يخشيان ألا تظهرا في الصورة. ونظراً في جد إلى جهاز التصوير.

وعدّ الزوج:

- واحد.. اثنان.. ثلاثة.. طق

والتقط الصورة.

وفتل الزوج البكرة وهيأ صورة. قال للسيدة:

- الآن جاء دورك.

وتبادلا موضعيهما. فأخذ الطفل منها واحتل مكانها بالقرب من الولدين، وأخذت الجهاز منه واحتلت مكانه.

مرة أخرى نظر الصبي والفتاة إلى دنيا الواقفة عند العربة وبسما لها فابتسمت لهما أيضاً كأنها تقول «تشجعا. التصوير شيء جميل».

وعدّت الزوجة ثلاثاً ثم التقطت الصورة. قال الزوج:

- والآن لنأخذ صوراً فردية للأولاد. هل نغير المكان؟

فوافقت الزوجة على تغيير المكان. وقالت موجهة الكلام إلى الفتاة الواقفة عند العربة:

- دنيا تعالي خذي سترتي. ولكن عجباً. أما زال البرنس على يدك؟! هل أنت مسطولة يا بنت؟

وانتفضت دنيا كأنها كانت نائمة فأوقظت من نومها، أو كأنها كانت تحلم فأوقظت من حلمها. وغمغمت معتذرة:

- قلت ربما طلبتيه مرة أخرى.

وتقدمت دنيا في الحال فتناولت سترة السيدة وعادت إلى العربة. في هذه الاثناء تحركت الأسرة فوق الأرض المعشوشبة لتغيير موضعها مما اضطر دنيا إلى دفع العربة ومسايرة الجماعة. اختارت السيدة موضعاً وقالت:

- هذا مكان جيد.

فوافق الرجل قائلاً:

- حقاً إنه مكان جيد.

وتوقفت الجماعة فتوقفت دنيا. وصاحت السيدة:

- دنيا.

فقال الرجل.

- ماذا تريدين منها؟

فقالت السيدة:

- لتأت إلى هنا تفعل أي شيء .. لتحمل الطفل.. لماذا هي واقفة هناك؟ أنا لم أعتد على حمل طفل لمدة طويلة. لقد تعبت يداي.

قال الصبي:

- دنيا تعالي خذي شعنينتي. أريد صورة لا أحمل فيها شعنيناً.

وقالت الفتاة الأصغر سناً وقد غارت من أخيها:

- وأنا أريد صورة بلا شعانين.

وتقدمت دنيا لتأخذ الشعنينتين كما طلب الصبي والفتاة فعقبت السيدة:

- حسناً ولكن ليس قبل أن نأخذ لكما صورة أخرى بالشعانين.

وتهيأ الصبي والفتاة أمام جهاز التصوير. وأعطت السيدة إلى دنيا الطفل الذي كانت تحمله، ثم قرفصت وشرعت تصلح هندام الولدين. اقترب الصبي من رأس أمه وقبلها في خدها وقال:

- أحبك يا ماما.

فقبلته أمه وقالت:

- وأنا أحبك ياحبيبي

وقالت الفتاة:

- وأنا أحبك يا ماما.

فقالت الأم:

- وأنا أحبك أيضاً.

حين اطمأنت الأم إلى هندام ولديها تراجعت عن ميدان الصورة ولكنها قالت فجأة:

- دنيا لماذا أنت واقفة هناك؟ ابعدي عن عدسة التصوير يابنت.

وانصاعت دنيا إلى أمر السيدة فتراجعت بارتباك. بعد أن تم التقاط الصورة.

قالت السيدة:

- دنيا! خذي الشعنينتين إلى العربة.

فأومأت الفتاة برأسها إلى الطفل تحمله على ذراعها. فقالت السيدة:

- هيا ضعي سوسو في العربة أولاً، ثم احملي الشعنينتين.

ومضت دنيا إلى العربة فوضعت الطفل فيها بعناية فائقة. ثم عادت فحملت الشعنينتين ووضعتهما خلف الطفل.

قال الرجل:

- والآن لنأخذ صورة جماعية جديدة. إن آلتنا تصور أوتوماتيكياً.

وفي الحال فتل بكرة الجهاز ووضعه على حامل، ثم أطبق عينه اليسرى ونظر باليمنى إلى أسرته من خلال ثقب الجهاز. ثم اتجه إلى الجماعة وأصلح أوضاع أفرادها. قال:

- أنا سيكون مكاني هنا.

ثم إلى زوجته:

- أنت ستكونين في الطرف. والأولاد في الوسط. وأنا في الطرف الآخر.

وحانت من السيدة التفاتة إلى العربة فهتفت:

- ولكن ماذا بشأن سوسو؟! لقد كدنا ننسى سوسو.

وإلى زوجها:

- ما رأيك أن نأخذ له صورة وهو في العربة؟

فوافق الرجل ونقلت عربة الطفل إلى الأرض المعشوشبة. فوضعت في ساحة العدسة مما أدخل تعديلاً طفيفاً على ترتيب الجماعة السابق، إذ وضعت العربة حذاء الأم.

أما دنيا فقد بقيت وحدها بعد نقل العربة تراقب عملية التصوير، ولكن بينما الرجل يعيد النظر في وضع الأسرة والآلة للمرة الأخيرة، هرولت باتجاه دنيا الجماعة، وبالتحديد نحو الفتاة تماماً.

فقالت السيدة باندهاش:

- لكن ماذا بك يادنيا؟!

فقالت دنيا وهي لاتزال ماضية بتصميم نحو هدفها:

- ياقة ياسمين مقلوبة. أريد أن أصلح ياقة ياسمين.

ومضت فأصلحت ياقة ياسمين، ثم سوّت بكفها شعر الصبي وتراجعت إلى الوراء. وانتبهت الأسرة بكل جد ورزانة إلى جهاز التصوير الذي أخذت إشاراته تتلاحق معلنة عن بدء تسجيل الصورة. غير أن الأم أبت إلا أن تفرض رعايتها على طفلها حتى في الرسم، فمدت يدها ووضعتها على مدفع العربة، ولكن في الوقت الذي لامست فيه يدها المدفع، أعلن الجهاز عن انتهاء التسجيل، فصفقت الأم بيديها الاثنتين أسفاً، وأنحت باللائمة على نفسها لأنها لم تبادر إلى فعل ما فعلت قبل ثانية من الزمن، ولم يستطع أحد أن يجزم فيما إذا كانت العدسة قد التقطت حركة يد الأم الأخيرة.

وبينما الرجل والمرأة يستعيدان الحادثة ويتأرجحان بين إثبات الالتقاط ونفيه وهم يتأهبون لمغادرة المكان، اقترب الصبي من أبيه وشد سترته. فالتفت الأب إليه. وقال:

- بابا صور دنيا.. هي تحب الصور.. أنت لم تصورها.

فضرب الأب على جبينه وقال باستنكار:

- حقاً أنا لم أصورها!

وقالت الأم:

- عجباً كيف نسيناها؟!

ثم إلى زوجها بحمية أكثر:

- انظر في الجهاز. ربما كان هناك مجال لصورة أخرى.

واستشار الرجل الجهاز بحماسة. وعضت دنيا طرف إصبعها باستحياء إذ أنها أصبحت فجأة محط اهتمام الأسرة.

قال الصبي لدنيا:

- دنيا! أليست صورتي أحلى من صورة ياسمين؟

وقالت ياسمين:

- بل صورتي هي الأحلى.

فقالت دنيا وقد اتجه نصف اهتمامها إلى الجهاز وحامله:

- صورتك حلوة وصورتها حلوة.

واستحثت المرأة الرجل فأعلن هذا بانتصار:

نعم هناك مجال لصورة أخيرة.

وانتقل هذا الانتصار من الرجل إلى الصبي صاحب الفكرة في الأصل. وأبى إلا أن ينسب الفضل الأكبر لنفسه:

- دنيا! أنا قلت لهم أن يصوروك، أليس كذلك؟

فقالت له دنيا بمثل عفويته إذ كانت في مثل سنه تقريباً:

- نعم أنت قلت لهم.

واستدعيت دنيا على عجل إلى ميدان التصوير. لم تكن ثيابها جديدة كالآخرين ولكنها كانت نظيفة. ووقفت بارتباك مبهورة الأنفاس لا تدري ماذا يتعين عليها أن تتصرف، أو ماذا تفعل بيديها الزائدتين أمام جهاز التصوير. مرة أرختهما على جنبيها ومرة شبكتهما على بطنها. ولكن سرعان ما جاءها الصبي بزهرة حمراء وقال لها:

- دنيا امسكي هذه الزهرة.

وأمسكت دنيا بالزهرة بكلتا يديها فأخرجتهما من ورطتهما.

قال الرجل:

- عندما أعد حتى ثلاث انظري إلى الآلة، وعندها سألتقط الصورة.

وتهيأت دنيا للتصوير بكل أعصابها فاستنفرت كل عضو من أعضائها حتى القلب. وعدّ الرجل:

- واحد..

وفكرت أن تلتفت إلى جنبيها عساها أن تحتاج إلى تعديل وضعها. ولكن كيف السبيل إلى ذلك وقد بدأ العد. وأفلتت منها عيناها فجرتا بالاتجاه المقابل نحو الصبي فالفتاة فالسيدة ورأت الجميع يبتسمون لها فابتسمت، ثم عادت فحملت عينيها إلى الآلة. وتابع الرجل.

- ... اثنان. ثلاثة.

حين أعلن الرجل عن انتهاء التصوير نظرت دنيا إلى يمينها ويسارها غير أنها لم تجد من تقول له:

- صورتي أحسن من صورتك.

ونظرت إلى يديها فوجدت الزهرة، فعرفت حينئذ أنها كانت وحيدة في الصورة، وأنه لم يكن أحد برفقتها إلا زهرتها الحمراء.

* * *

## السيران
## ولعبة أولاد يعقوب

والآن بعد أن أكلوا وشربوا ومرحوا، لم يبق أمامهم إلا أن يعودوا إلى المدينة. لكنهم فكروا كيف يعودون والوقت ما زال مبكراً، وفي إمكانهم أن يمرحوا قليلاً أيضاً. إنهم جماعة خرجوا في الصباح إلى«السيران» وهم يحسبون أن في جعبهم كثيراً من اللُعَب التي تعلموها، لكنهم مع ذلك استنفذوا كل هذه اللعب والنهار لمّا ينصرم. فماذا يفعلون حتى ينقضي نهار السيران هذا؟ لقد لعبوا الاستغماية بالرغم من أنهم كانوا كباراً، وتسلقوا الأشجار، وتدحرجوا على الحشائش، وتواثبوا هنا وهناك، ولعبوا على كل أنواع الحبال. غير أن النهار لم ينصرم، والوقت مازال مبكراً.

- تعالوا نلعب لعبة أولاد يعقوب.

اقترح أحدهم وهو ينظر إلى البئر. فتساءل آخر:

- ماهي لعبة أولاد يعقوب؟

فقال له الأول:

- لعبة قديمة ولكن الناس ما زالوا يلعبونها.

فقال الذين يعرفون اللعبة للذين لا يعرفونها وقد سروا بالفكرة:

- تعالوا نلعب أولاد يعقوب.

- هاتوا بساطاً. يلزمنا بساط. ما من لعبة مثيرة بدون بساط.

قال ثان:

- نعم هاتوا بساطاً نضعه على فوهة البئر.

- والآن من يقوم بدور الابن المدلل؟

- مدللاً كان ابن يعقوب أم محبوباً؟

- لافرق المدلل محبوب. والمحبوب مدلل.

- يجب أن يكون أذكانا.

- يجب أن يكون أشجعنا وأجملنا.

- يجب أن يكون أحلمنا وأحلانا.

- وأكثرنا صبراً على احتمال الأذى.

- وأكثرنا اندفاعاً للعفو عند المقدرة.

وبالفعل اختاروا أحدهم ليقوم بدور الابن المحبوب. وبعد ذلك حملوا البساط الذي تناولوا عليه طعامهم ونشروه فوق فوهة البئر فتدلت أطرافه مع جميع الجهات.

- حسناً ...

قال صاحب فكرة اللعبة:

- إذا قعد كل منا على حافة البئر شُدَّ البساط في الوسط وتهيأ من ذلك مكان رائع لأخينا.

- مكان لائق لأخينا.

- يناسب قدره وجلاله.

- ويضعه منا في منزلة القلب.

وبدأت اللعبة تأخذ طابعاً مثيراً.

- هيا يا شباب. طاب اللعب. ليأخذ كل مكانه حول البئر.

- على الحافة تماماً.

- اتركوا الوسط شاغراً للولد المحبوب.

ودبت الحماسة في اللاعبين. وشغل كل منهم حيزاً على حافة البئر. أما الرجل الذي عُهد إليه أن يلعب دور الولد المحبوب فقد ظل واقفاً مرتبكاً نوعاً لا يدري ماذا يتعين عليه أن يفعل، حتى توجهوا إليه بالقول:

- الطريق من هنا. اصعد لا تخش شيئاً. نحن من حولك.

وصعد الرجل المحبوب. وحينما قعد في الوسط على البساط علت سحنته حيرة مشوبة بالقلق فبادروه قائلين:

- لا تخف! إنما نحن نعيد حكاية أولاد يعقوب فقط.

- نلعب أدوارهم.

- ليس هناك شيء حقيقي.

- كلها مسألة تمثيل وبعدها نعود إلى بيوتنا.

- لاتنس أننا في يوم سيران. وفي يوم السيران كل أنواع اللعب مشروعة.

- والآن لنخمن ما يمكن أن يكون الأخوة قد قالوه لأخيهم وهو في وضعه ذاك من البساط؟

- يا أخانا أنت عزيز على قلب أبيك.

- ولكن المشكلة أنك حلو أكثر من المعتاد.

- محبوب أكثر من المعتاد.

- مرغوب أكثر من المعتاد.

- حسنك كسف الجميع من حولك.

- قد يكون فيك شيء خارق.

- لكن لا تنس أننا بشر. وأننا نحب أن توجه إلينا الأنظار مثلما توجه إليك.

- كنا محبوبين قبل أن تأتي.

- كنا محط أنظار والدنا قبل أن تأتي.

- وكنا في المقدمة قبل أن تأتي.

- لكنك جئت فاحتكرت كل الحب.

- وكل الإعجاب.

- وكل التأييد.

- بات من المستحيل أن نحيا جميعاً في قلب واحد.

- في بيت واحد.

- في بلد واحد.

- يا أخانا أنت عزيز على قلوبنا مثلما أنت عزيز على قلب أبيك.

- لكن اغفر لنا قسوتنا.

- اصفح عنا.

- أليس الأخ أجدر الناس بالصفح عن أخوته.

- إن مأساتنا لا تقل عن مأساتك.

- أنت متوحد في روعتك.

- ونحن متوحدون في أنانيتنا.

- فوداعاً.

- وداعاً.

- وداعاً.

وفجأة ترك الجميع حافة البئر ونهضوا واقفين فانحسر البساط من جميع الجهات وانفلق على الفتى المحبوب وهو يهبط به الأعماق.

وظل أفراد الجماعة لحظات مذهولين كأنما سكب عليهم ماء بارد فأفاقوا من نومهم. هوذا شيء حقيقي غير التمثيل قد حدث. لقد خرجوا جماعة إلى السيران وهاهم يرتكبون جريمة في وضح النهار. كيف يعودون إلى المدينة من دون صاحبهم؟ ماذا يقولون للآخرين؟ وكيف يبررون تخلفه عنهم؟ لكن ما أدراهم؟! ربما هو لا يزال حياً فليتقدموا. واقتربوا من البئر.

- يامحمد.

- يا يوسف.. ياجميل!

- يا أخانا!

- يا حبيبنا!

- يامتوحد!

- يا غريب!

- أيها البائس!

لكن لم يكن هناك سوى الصمت. ولم يرد على نداءاتهم غير الصدى. وضربوا كفاً بكف. واستغرقهم الذهول مرة أخرى. وحينما عادوا إلى طبيعتهم قلبوا بين أيديهم كثيراً من التعليلات، لكنها كلها باءت بالفشل. ولم يجدوا مناصاً من متابعة التمثيل وإعادة لعبة أولاد يعقوب حتى النهاية. فحملوا معهم قميصاً ملوثاً بالدماء واتجهوا نحو المدينة.



# غربة

كان في الستين من عمره، أو قل في الخامسة والستين، له حدبة خفيفة وخطوة قصيرة حذرة وبيده عصا يستعين بها في سيره.

اسمه أحمد القاضي، ولكن الناس ينادونه بأبي محمد منذ أن رزق بوحيده محمد. والحق كان أحمد يلقب بأبي محمد من قبل أن يمن الله عليه بمولوده هذا حتى ليبدو أن مجيء الولد بعد سنوات من زواج أحمد لم يكن إلا ليثبت هذه التسمية.

حينما ترك أحمد البيت منذ بعض الوقت وبدأ أولى خطواته خارج حي الشحادين بهرته الأشياء وفكر أن يعود أدراجه ويضع على الجرح ملحاً. لكنه مالبث أن أمسك بطرف الخيط لحظة وقع بصره على الكنيسة المعلقة.

هذا طريق الصليبية يستدل عليه من مقهى أبي رشيد بأبوابه الثلاثة عند مفترق الطرق. ذلك المقهى الذي كان منافسهم الوحيد في الماضي. أما اليوم فالمقاهي في الحي كثيرة والناس أكثر ولكل رزقه. ولكن الأمر لديه سيان الآن بعد أن ترك العمل وراء الوجاق في المقهى منذ زمان بعيد وآل إلى بيت ابنه بعد أن توفيت زوجته.

إن ما يهمه اللحظة هو أن يمضي إلى مكان ما. أين لا يدري. وربما كان يفعل في الأيام الغابرة عندما يهرب من الكتّاب. ولكنه الآن وقبل كل شيء ينبغي أن يحدد موقعه من العالم.

هذا الطريق الصاعد هو طريق الطابيات بلا شك، يستطيع التعرف عليه بين آلاف الطرق من عدد الشواهد التي تتكون منه وتدل عليه. وإذا ما

أسعفه خياله الذي لايزال يحتفظ بمواقع أشياء لم تعد قائمة، وإنما يحس بها على نحو مبهم، وإذا ما أمسكت عيناه بالطريق القادمة من الغرب وواكبتها على امتداد النظر نحو الشرق استطاع أن يؤكد لنفسه أن هذه هي طريق الميناء التي كانوا يتحدثون عنها. وأن الطريق الباقية هي التي ستقوده إلى البساتين.

يالطيف كم تغيرت الدنيا. حتى الكنيسة المعلقة يبدو أنها قد طرأ عليها بعض العديل. وعنَّ له أن ينكص على عقبيه مرة أخرى. لكنه كان قد صمم على مغادرة البيت.

كانت كنته تدس بينه وبين ابنه أو هكذا كان يتراءى له من حين إلى حين حتى أنها بدأت اليوم ثرثرتها وتململها باكراً جداً وعلى نحو لم يعتده منها من قبل. وكان يحس بظله يزداد ثقلاً على العائلة يوماً بعد يوم. ويشعر شعوراً عميقاً بأنه عضو غير طبيعي في جسم العائلة. عضو زائد عن الحاجة. قال: «سأريحهم مني». ثم اغتنم وقت القيلولة وخرج من البيت.

ولكن هل يزمع الرحيل حقيقة وإلى الأبد؟ ألن يرى أحفاده ثانية؟ هذه مسألة أخرى لا يريد أن يحسم فيها برأي، ولكنه أيضاً لا يريد أن يدفعها عنه. غير أن ما يشغله الآن هو أن يعرف الطريق إلى البساتين وبستان أبي جميل بالذات. أو على الأقل ما تبقى منها حسب ما كان يسمعه من الآخرين.

إن «أحمد» لم يغادر الحي منذ ثمانية عشر عاماً. والحقيقة أنه بعد أن ترك العمل وراء الوجاق في المقهى، كان قد استنفد كل متعة في الحياة خارج هذه العوالم الصغيرة التي عرفها في القسم الكبير من حياته: الوجاق والحي. كانت قد انقطعت كل صلة له بالعالم خارج حي الشحادين، ولم يكن يبدو أنه يتصل به بسبب ما إلا بواسطة أذنيه حينما يتحدث الآخرون عن الأشياء الطريفة التي دخلت الحياة. في تلك اللحظات كان يضفي على الأشياء التي يسمع عنها ألوانا زاهية ويعطيها أشكالاً وأبعاداً حسب ما يشاء خياله. فمشروع الصليبية في ذهنه عبارة عن صفوف البيوت المتشابهة الحمراء تظللها أشجار البساتين. وأما المشروع الأول والثاني والمساكن الشعبية في

الطرف الآخر من المدينة فلم يعطها أي شكل كما لم يعطها أي لون فظلت باهتة في خياله.

وأما المقاهي التي أنشئت على الشاطئ فكانت زرقاء زرقة البحر والسماء حتى أنها تصبغ بزرقتها دماغه نفسه عندما يتحدثون عنها. حتى الناس في ذلك العالم كان لهم هيئاتهم وألوانهم. فهم لا يشبهون أبناء حيه. إنهم قد تغيروا بطريقة ما مسايرة للأشياء الجديدة.

فكر: لابد أن التغير قد مسّ سليم الضوبي الذي ترك الحي وانتقل إلى مشروع الصلّيبة. فليته يراه كي يرى ما طرأ عليه من تبدل.

لقد قال له سليم عندما غادر الحي مودعاً: تعال لزيارتنا في المشروع يا أحمد من فترة لأخرى. وكان أحمد يحس إحساسا غامضاً أنه يستطيع التعرف على بيت الضوبي بمجرد أن يذهب ذات يوم إلى المشروع. فمنطقة البساتين يعرفها عن ظهر قلب. وكان عقله لا يستطيع أن يهضم فكرة أن البساتين يمكن أن تزال تماماً كي تحل محلها البيوت.

وانحدر في الطريق حتى ضمن أنها ستمضي به إلى بستان أبي جميل. إن لبستان أبي جميل منزلة خاصة في نفسه. قال: «في مثل هذه الأيام كنا نأكل من هناك تيناً وها هو منتصف تموز ولم أر في الحي ثمرة تين واحدة. يا إلهي كم تغيرت الدنيا».

كان يمشي بخطى متأنية متمهلة ويقف من فترة لفترة مجيلاً نظرات حوله: عجباً هل هذه هي الدور الجديدة!

إنها لم تصدمه بقدر ما أدهشته. إنها تشبه علب الدواء الملونة التي يحملها ابنه لأولاده بين حين وآخر.علب كبيرة مجلوة زاهية مفروشة في قلب حدائق. حتى الشباب الذين يطلون من شرفاتهم هم موضع استغرابه. صحيح أنه سمح لنفسه بأن يغير من أشكالهم، ولكن الصورة كانت مخالفة تماماً لكل ما خطر له.

إنه في كثير من الحالات بل في جميعها باستثناء حالتين عجز فيها أن يميز بين الفتيان والفتيات. نفس طريقة تصفيف الشعر. نفس اللباس. وأيضاً

نفس الوجوه. حتى هذه الأشياء السريعة المنطلقة كالسهام حيناً، المنسابة بوقار كالافعوان أحياناً، والتي لابد أنها السيارات هي شيء مدهش. هي الأخرى علب، ولكنها علب عجيبة رائعة.

- لماذا نصبت هذه الخوازيق على طول الطريق يا بني؟

- هذه ليست خوازيق ياسيدي. هذه أعمدة كهرباء.

- وما هذان الذراعان المنشوران في رأس كل منها؟

- إنها أضواء النيون.

وفكر أن هذه الأضواء لابد أنها شيء غريب أيضاً. وأنها لا تشبه بيضات الإوز المعلقة التي تضاء في صحون في حيه.

- وما هي هذه الأضواء؟

- انتظر حتى تراها في المساء. إنها شيء يشبه الفضة والحليب. شيء يضيء ضاحكاً بفتور. هل قبل البائعون عملتك يا عم؟

- أية عملة يابني؟

- يا عم أنا أمزح. انتظر حتى المساء.

كان الوقت عصراً وبعد العصر بقليل. وكان بعض الأطفال الذين سمح لهم بالخروج من بيوتهم بعد أن خفت حدة الشمس ومالت باتجاه الغرب مع الخادمات أو مع أخواتهم الأكبر سناً يلعبون في حديقة الحي. كانت حديقة حديثة العهد ليس فيها سوى ثلاث شجيرات وفلة ولكنها ذات أرض مخضوضرة. وكانت هناك مقاعد مشغولة.

كان بعض الأطفال يدور في حلقات وبعضهم الآخر يتقاذف كرة من المطاط. مجموعة من الفراش ملونة تهوم وتتراقص.

هو أيضاً كان يلعب الكرة مع أترابه. ولكنها كرة من القماش يلعبون بها على أرض متربة. محمد ومحمود ومصطفى وعلي وآخرون. ترى أين ذهب كل هؤلاء؟ بعضهم مات وبعضهم الآخر رحل إلى مكان ما. دنيا فانية كل من عليها فان.

وطارت الكرة باتجاهه فتصايح الأطفال: «تحرك يا أحمد وأوقف الكرة كأيام زمان. ولكن لا .. افعل بالرجل اليمنى فالرجل اليسرى كانت دائماً فاشلة».

وقامت الرجلان بحركتين متعاقبتين أرادتا أن تكونا بارعتين. كانتا رد فعل للاعب هرم واجهته الكرة فخانته سنه مما أظهر مبادرته كحركة هازلة تدعو إلى الضحك. وتضاحك الأطفال فشاركهم ضحكهم لفشله. ولكنه استطاع أن يلحق الكرة التي زاغت من بين رجليه بعصاه. ثم استطاع أن يعيدها اليهم بضربة من عصاه أيضاً. وهتف الأطفال للعجوز الذي أعاد إليهم الكرة بصوت واحد: هيه.

واستأنف سيره فاجتاز داراً، دارين، ثلاث دور. ثم انتبه إلى شيء رد ذاكرته إلى حقيقة غابت عن ذهنه. كان تل الطابيات إلى الشرق منه. عجباً معنى ذلك أنه كان يسير في منطقة البساتين منذ مدة. ولكن أين البساتين؟

وأصاخ السمع. كانت الزيزة تصرّ. نفس الصرير القديم المشدود الملحاح. وأجال نظرات حوله. أين بساتين التين والرمان والمشمس والجميز؟ أحقاً أنها اندثرت وقامت مكانها هذه العلب الغريبة.

وسرعان ما امتدت يد العبث إلى المكان وخربت كل شبر فيه. لوثته ودنست طهارته. وأحس في الحال أنه فقد شيئاً ما، عضواً من أعضائه. عينه أو يده أو قلبه. لقد أحب ذات يوم فتاة ثم رآها مرة تغازل فتى. وعندما تحرك ليقوم بعمل ما تجاه الغادرين أحس ببرودة تسري في أطرافه وأن شفتيه تنملتا وعجزتا أن تتلفظا بكلمة حتى أنهما صارتا كقطعة من الاسفنج ولكنه حينما استعاد هدوءه قال: «طز على الحب» ومع ذلك فقد ظل فؤاده يدمي فيما بعد.

وحانت منه التفاتة إلى جانب الطريق. كان هناك أثر من أخدود قديم. وكان فيه بعض نباتات برية بعضها مشوك ذو لون فضي. وحينما انحنى ثم عاد فاستوى واقفاً كانت بيده نبتة بقلة فرشت فروعها في قرص.. وكانت وريقاتها سميكة ريانة تتألف بحبيبات فضية. وارتعش قلبه. قال: «هذا الأخدود كان على يسار بستان أبي جميل، وعلى يمين آل ظريف».

من هنا ياما كان يقطف البقلة ويحملها إلى البيت ليرشو بها أهله، وعلى وجه التحديد والده بالذات الذي كان مغرماً بها، مدعياً أن غيابه عن الدار كان في سبيل جمع البقول. كانت اللعبة تمر أحياناً، وأحياناً تتعثر عندما يتذوق أبوه شعره بطرف لسانه، أو يقرب أنفه من رأسه. وفي هذه الحال كان يقوم احتمالان: فإما صفعة على القفا وأما أن يقول له: «يالعين! هل كنت تجمع البقلة أم كنت في البحر. سأخلع رقبتك إذا ذهبت إلى البحر ثانية».

وأنَّت النواعير في أذنيه وقامت الأشجار وعمت الخضرة الأرض وانسابت المياه في الأخدود فحثّ الخطى «بقلتي.. بقلتي أية ريح قذفت بك إلي. أية سماء حطت بك في هذا المكان لتكوني لي علامة ودليلاً» وبدا له أن روح أبي جميل ترفرف فوقه وتقود خطاه. ومشى مع الأخدود الذي كان يغيب أحياناً حتى يكاد أن يمحي ثم لم يلبث أن انتهى إلى أرض فضاء.

وفي الحال سكنت النواعير وامحت الأشجار وأقحلت الأرض وجفت المياه في الأخدود، وعلى مبعدة كان البحر يتألق بوقار، أزرق فضياً منبسطاً على مد النظر حتى يغيب في غلالة بنفسجية. كان وحده هو الثابت هو الحقيقة التي لا تتغير.

وأحسّ أحمد لثوان أنه غريب. إنسان قادم من عالم آخر، وأنه لا يمت إلى هذه الأرض الجديدة بصلة. ثم طفا ثانية فضرب قشرة الأرض بقدمه وعصاه معاً. تماماً كما يفعل طفل حرد عندما يؤكد ذاته: من هنا كان البحر يتلامح من خلال الأشجار كما يتلامح وجه فاطمة الغادرة من وراء الشعرية. ولم يكن يكشف عن نفسه بمثل هذا الوضوح إلا عندما نعبر منطقة البساتين.

وسقط ثانية في مهاوي الغربة. ترى أين هي هذه الفاطمة؟ دنيا. الله. الله يا دنيا تضحكين لنا بوجه وتسخرين منا بألف وجه.. لابد يا ناعم يوم ما تكبر ويذبل ورد خدودك. يا للذاكرة المجنونة. من أية لفّة منبوشة سقطت أنت أيضاً؟ هل أنت حكمة من الحكم. أم أغنية من أغاني الصبا: قل لحمامك ما يقارب حمامي. حمامي مسلم حمامك نصراني.

وعاد الأخدود إلى الظهور فتبعه بعينيه. ورأى مارقص له قلبه ارتعاشاً، وتملكته هزة. كانت هناك بقايا جدران كوخ متهدم. وعلى مسافة كان

ثمة شجرة. وخف باتجاههما قدر ما تسمح به شيخوخته: كنت أعرف أني سأجد شيئاً. نفس البيت الصغير الذي كان أبو جميل يضع سريره وعدته فيه. سرقوا التين يا أبا جميل. تعال لقد قبضنا على اللصوص. هكذا اكتسبنا ثقته أنا ومحمود ومصطفى ومحمد وعلي وهات يا سرقة بعد ذلك من بستان أبي جميل. شقاوة صبيان وما أحلاها شقاوة.

وأنتَ أي نوع من أنواعِ التين أنت؟ آه آه تين أسود إذن. عبيدي. إن تين أبي جميل هو السبّاق دوماً.

ودار حول شجرة التين وربت على جذعها وقد استبد به فرح طفولي «لم يبق إلا كلانا أنتِ وأنا. لقد رحل الجميع. أترين كيف خلعوا الأشجار ليقيموا مكانها علبهم الملونة. تصوري مدينة لا يعرف فيها الفتى من الفتاة. كلانا بقايا مدينة لم يعد لها من أثر. وحضرة محمد كنت أعرف أني سألقاك هنا وإلا ما الذي أتى بي في مثل هذا الوقت. نحن رفيقان قديمان. لقد هدموا القناطر في حي الصباغين وسوق البيلستان وشيدوا جدراناً لايجري في جنباتها هواء طري. أنت وأنا وشقفة أغنية قديمة وحي مهدد بالهدم كل ما بقي من مدينة. دنيا فانية كل من عليها فان.

ما كاد يخلف الأرض البور وراءه، ويبدأ أولى خطواته على الأرض المعبدة، حتى أضيئت أنابيب النيون. وأمست العلب الملونة والأشجار والطريق والوجوه التي تمر به والخضرة، أمست جميعها مغلفة بغلالة خيالية غريبة وجديدة فازدادت وحشته عمقاً، والتبست عليه معالم الطريق، فتردد في خطوه.

لقد أمسى يتعين عليه أن يأوي إلى سقف ما. فالظلام قد بدأ ينشر رداءه على الكون والتعب قد نال منه. لم يعد يحس بالغضب من كنته، وإنما يشعر نحوها بشيء من الشفقة: مسكينة أم أولاد ليكن الله في عونها.. خمسة أولاد ينخون ظهر الجمل، وفوق ذلك.. زوجها ثم أنا.. ليس لي من حق عليها.. ليست زوجتي ولا ابنتي ليست سوى كنة على كل حال. وكنة طيبة والله، ترى هل نام الأولاد. يا إلهي لعلي لم أعد أعرف طريق العودة إلى البيت.

- يابني دلني على حي الشحادين.

كان فتى يرتدي قميصاً ملوناً وبنطالاً أزرق ضيقاً ويتمنطق بزنار من الجلد عريض.

- حي الشحادين؟! أين يقع هذا الحي؟

إنه يقع قريباً من هنا أو بعيداً من هنا، إنه لم يعد يدري.. لا يستطيع التأكيد تماماً، ولكن لو كان في مقدوره أن يعرف الطريق إلى حيه لكان في غنى عن إرشاده وهكذا أجاب:

- يقع في مكان ما.

- عفواً. لا أعرف حياً بهذا الاسم.

اعتذر الفتى ثم انصرف.

واستغرب العجوز أن فتى يملك عينين حادتين وحيوية فتوتة كلها، استغرب أن يعجز هذا الفتى عن معرفة حي في المنطقة المجاورة. في زماننا كنا نعرف كل شبر في المدينة وكل إنسان فيها أيضاً. شباب آخر زمان، وأضاف دهشاً: «الجمّالون والدرك وحدهم هم الذين كانوا يتمنطقون بمثل هذا الزنار. دنيا آخر زمان».

واستوقف آخر له نفس الشعر الغزير الكث، والبنطال الضيق والنطاق العريض.

- هل تعرف حي الشحادين يابني؟

- أهو حي في هذا البلد؟

تساءل الفتى جاداً. ثم هزَّ رأسه نفياً وانصرف.

يا إلهي كم يشبه هؤلاء الفتية بعضهم. لكأنهم خرجوا من بين يدي فخاري واحد. إبريق يشبه إبريقا.

وعنت له فكرة: لو عرفت بيت سليم الضوبي فالوصول بعد ذلك إلى حي الشحادين سهل ميسور دون شك.

ورواده شيء من الأمل.

- هل تعرف بيت سليم الضوبي؟

- من هو سليم الضوبي هذا؟ كلا لا أعرفه.

وأصبح وحده من جديد. وتكاثف الظلام فوقه وحواليه وفي كل مكان طبقة فوق طبقة. وأخذت أنابيب النيون تواصل ضحكاتها الفضية الفاترة، وتبذل جهدها في تبديد شمل هذا الظلام. بينما ثمة في الشارع النظيف المتألق، رجل عجوز، له حدبة خفيفة وخطوة قصيرة حذرة، وبيده عصا يستعين بها في سيره يتصيد العابرين كي يسألهم عن بيت سليم الضوبي.



# وحـدة امـرأة

كان أول ما خطر لها عندما أفاقت منذ قليل، أنها مضطجعة بجانب ساقية بينما تدلت رجلها إلى المياه. ولكنها اكتشفت بعد أن قامت بعملية استحضار سريعة كذب رؤاها. وان رجلها لم تكن مغمورة في مياه الساقية، وإنما في طست من الألمنيوم . لقد استطاعت أن تتذكر كيف دخلت ابنة الجيران وأشعلت وابور الغاز فسخنت لها الماء بناء على طلبها. ثم كيف داهمها ذلك الدوار الذي لازمها في الأيام الأخيرة فأرغمها على الاستلقاء. استعرضت ذلك وهي مغمضة العينين.

أما إحساسها التالي فكان قشعريرة في كيانها جملة، لم يلبث أن تركز في الرجل المبلولة. وحاولت أن تسحب رجلها فقرقع الطست. ثم سرعان ما سمعت وقع أقدام على درج السلم الخارجي، فشققت عينيها. كانت الغرفة تسبح في ضياء رمادي كليل. فاستحال عليها أن تحدد الوقت من النهار، وعجزت أن تقطع برأي بين المساء والفجر. فعادت إلى إغماض عينيها علها تستعيد بالنوم ما خلفته وراءها قبل النوم.

ولكن الأقدام الصاعدة لا تنتظر. ينبغي عليها وحالها ماهي عليه أن تبتَّ في الأمر بسرعة إذا كان البكور فهي الصغيرة تحمل لبن الصباح. ليكن البكور إذن.

- غادة! يا غادة!

وتقترب الأقدام من البسطة وتنتظر زهرة. غير أن الصاعد يتابع طريقه دون أن يتمهل على بابها، ويخفت وقع خطواته، ثم يذوب في السكون.

وفكرت «إذا لم يكن الصباح فهو المساء دون ريب». فلترقب السلم إذن. فثمة من يعود في مثل هذه الساعة.

إن زهرة وحدها من جديد. وإن لها حاجات كثيرة يتعين عليها أن تلبي نداءها. فهي جائعة، وبردانة، وعطشى، ورأسها فارغة من الدخان، وركبتها تئن وترسل إشارات استغاثة. عليها أن توفي كل هذه المتطلبات حقها في وقت واحد. ولكن كيف السبيل إلى ذلك وزهرة قعيدة سريرها. وندعوه سريراً تجاوزاً. إذ كان عبارة عن درفتي نافذة طرحتا على أربع صناديق خشبية. إنها ليست مكسورة الأطراف ولا مشلولة – ولكن هناك بعض الورم. هناك بعض الورم ظهر مؤخراً وكأنه يلعب معها الاستغماية. وكان مسرحه في هذه اللعبة الرجلين واليدين. أما الوجه فحول العينين خاصة. ظاهرة غريبة، ومع ذلك لم ترع منها. ولكن كل ما فعلته أنها طلبت المرآة ذات مرة ونظرت فيها. ثم علقت بسخريتها المعتادة: «كم أسمن في هذه الأيام؟!» وقال الذين كانوا حولها في شبه تأكيد: «لعله الروماتزم!».

الرومتزم؟! ربما ولكن الروماتزم نفسه لا يحول دون حاجة الإنسان إلى الحركة، حتى لمجرد الرغبة. وزهرة تريد أن تتحرك. إنها حاجة تحس بها أقوى من الجوع والعطش والبرد.

وفكرت أن تعدل استلقاءها لتعطي جسمها المتيبس وضعاً أفضل. إنها تجهل كم مضى عليها وهي على حالها تلك. كل ما يشغلها الآن أن تريح ظهرها المكدود وتخلصه من ضغط جسمها الثقيل. ولكن زهرة فقدت مرونة الحركة منذ زمن. وكل يوم يمضي يباعد بينها وبين أطرافها. ومع ذلك فقد أعطت الأمر لرجلها أن ترتفع إلى السرير. غير أن الرجل رفضت الاستجابة لطلبها وصدرت عنها حركات غاية في الطيش. فعادت المرأة وشددت في الأمر زاجرة: «يلعن دينك رجل.. هيا تحركي».

وتجاهلت الرجل ذلك الأمر فسكنت بعد أن أقلعت عن هذرها، كأنها تريد بذلك أن تلفت نظر صاحبتها إلى عبث المحاولة، وتتيح لها فرصة للتفكير أجدى.

« والآن ما العمل؟! زهرة.. زهرة ماذا فعلت بنفسك؟».

ماذا فعلت بنفسها؟! لاتشعر أبداً أنها قد أتت عملاً إذاً. لقد تزوجت مرتين في حياتها. الأولى من رجل مات بعد ثمانية أشهر من الزواج. والثانية من رجل من غير دينها أحبته فهربت معه إلى المدينة. كان حصادها من هذين الزواجين ثلاثة أولاد. فريد وهو بكرها من زوجها الأول. وموسى وليلى من زوجها الثاني. أما موسى فنجار، وأما ليلى فمتزوجة وقد سافرت مع زوجها إلى الأردن منذ خمسة أشهر.

زهرة إذن ليست مقطوعة من شجرة. ويخطئ من لايضع في اعتباره أن أقاربها يملأون البلد. وأنهم كلهم أصحاب محلات. «أنا بنت ناس».

هي بنت ناس ولكن ما جدوى ذلك بالنسبة لامرأة في الخمسين، قعيدة الفراش، زجاج نافذتها مكسور، وأرض غرفتها عارية في أواسط كانون. وفراشها مبلل كطفل في سنينه الأولى.

إن زهرة تكره أن تفعل مثل هذا العمل. ولكن ما حيلتها. إنها تدري أن ذلك لا يليق. وأنه ينفر الناس من حولها، ويزيد – لابد- من مرضها، ويملأ أنفها رائحة حملتها في وحدتها على إعادة النظر في بهاء الصورة التي كونتها للإنسان.

ولكن كل ذلك يبدو الآن أقل أهمية من تحرير رجلها من أسار الطست الذي بدا وكأنه يصرُّ على التمسك بها.

ان إشارات الاستغاثة تنتقل من ركبتها وتمضي إلى الدماغ تعرض عليه حالها. وتمر في عبورها بالفخذ والعجز ومناطق الجسم كله تستعديها. ويتلقى الدماغ الطلب فيزداد ارتباكه. إنه أشبه برئيس دولة أسقط في يده وأفلت منه زمام الأمر.

وفكرت زهرة «سينقصم ظهري إذا ظللت على هذه الحال مدة أطول». ومدت يدها تبحث عن شيء ما.

كان الضياء الرمادي قد أمسى رصاصياً تماماً منذ وهلة. ثم أخذ يعتم شيئاً فشيئاً. ولم يفت زهرة أن تلاحظ ذلك. إنه يعني بالنسبة إليها عودة أبناء الجيران من العمل. بسيمه وكمال.

هيا إذن ولتهيئ نفسها. حتى إذا نادت أحدهما خرج صوتها واضحاً لا لبس فيه. وعزت ضياع ندائها في المرة الأولى إلى فشلها في إرسال صوتها عالياً بسبب ذلك الاستلقاء.

«بالأمس تركتها هنا». وتطاولت يدها أكثر فأكثر. ومست أصابعها جسماً صلباً.

حسناً زهرة! أنت تتمتعين بذاكرة فيل. هي ذي عصاك فماذا يمكنك أن تفعلي بها، وأنت لا حول لك ولاقوة.

وقبضت عليها بجمع كفها. نفس العصا التي كانت ترافقها في تجوالها في أرضية البيت. آه لو تغمض عينيها وتفتحهما فترى نفسها كأيام زمان قاعدة على عتبة العلية أو بسطة السلم تستوقف العابرين.. تمازحهم، تسأل: هل أنت مسيحي.. كلا.. أنتَ مسلم دون ريب.. لاتغضب. ما علينا. ماذا تطبخون في بيتكم اليوم.. كل الناس خير وبركة المسلمون طيبون. والمسيحيون على الرأس والعين».

وجرت العصا بجهد وأناة. نفس العصا التي ضربها بها أبو موسى ذات مرة لأنها رفضت الحجاب.

وهكذا انفصلت عن زوجها منذ ذلك اليوم. وراح ولداهما ينوسان بين الاثنين.

كانت مسيحية بطبعها. لا بل مسلمة. الحق لاتدري أيهما كانت. «إن أحد الولدين لايعدم وسيلة لبذر الخلاف». كذلك فكرت، أما خلافها الأخير مع هؤلاء فكان بسبب الختان. لقد أصرت عندما وضعت ابنها موسى في بيت العائلة بعد الانفصال: أصرت على ختنه على عادة المسلمين.

ولكن زهرة لا تضيع وقتها سدى. إنها عملية دائماً. وهكذا ما أن سحبت العصا حتى تحسست برأسها ما يحيط بها كأنها تبحث عن شيء معين. آه لو يضاء النور؟! لو حدث إذن لاستطاعت أن تميز ماتريد. وبدا لها أن النور أليف كالإنسان، لا يخشى المرء شيئاً بصحبته.

وحمل الهواء إليها وقع خطوات على درج السلم. فأصاخت السمع «هذا كمال يا زهرة.. نعم.. نعم. سأطلب منه أن يجلسني في الفراش قبل شيء. وحق النبي يا بني. لقد سئمت رؤية هذا العالم مقلوباً وسيضحك ملء فمه... ولكن وزنك ثقيل.. أعرف أن ذلك سيدفعه إلى الغثيان. وسأسأله أن يشعل لي سيجارة من لفائفي. ولكن لا لفائف لديك.. حسناً سيفعل ذلك إذن من تبغه الخاص».

وترهف السمع. الأقدام تقترب .. تتردد.. تقف على العتبة «قلت لك يا زهرة الناس أطيب مما تتصورين». وتفتح فمها لتصبح. لتنادي. لتدعوه إلى الدخول «تدعين من؟! كمال على العتبه طبعاً.. ولكن لا أحد على العتبة».

ويستأنف رأس العصا بحثه على أرض الغرفة. كأنه أشبه بأعمى أو بحيوان ضلّ طريقه في الظلام. ونفذ ضوء إلى العلية من نافذة في الشارع المقابل. فأدارت زهرة عينيها تبحث عنه، وكأنه عطية من السماء. غير أنه لم يلبث أن انطفأ، ولكن بعد أن أدركته وحددت البقعة التي سقط عليها. انه لا يزال عالقاً في خيالها. ابتداء من عليقة الثياب حتى الجدار المجاور، شاملاً منطقة فيها رسم للسيدة العذراء، تحمل فيه طفلها وترتسم على شفتيها ابتسامتها السماوية المعهودة. وانزلقت عيناها في ذات فكرها إلى أسفل الرسم وقرأت عن ظهر قلب. «سيدة النعم، السريعة الإجابة، العجائبية». وتراءى لها على نحو أو آخر أنها لها تبتسم. فتشجعت في غمرة من الحماسة العاطفية وهتفت «إيه يا سيدة النعم.. أنت وحدك القادرة على صنع العجائب.. وحدك القادرة على شفائي.. وإذا تعذر فاشعلي لي مصباح الكهرباء على الأقل .. إن الظلمة تجثم على صدري .. ليس عليك إلا أن تضغطي على زر صغير هناك قرب الباب.. أنت ترين...

إن ذلك ميسور وبسيط على أم الله صاحبة المعجزات. كم من مرة قلت لهم مدوا لي شريطاً.. اجعلوا زر الكهرباء قرب رأسي... قلت ذلك لموسى ولأبي موسى.. لهم كلهم. ولكنك لم تقوليه لكمال.. لقد فاتني أن أفعل. آه كم من أشياء فاتك أن تفعليها في حياتك يا زهرة».

وبيتت النية فيما بينها وبين نفسها على تجديد الطلب في الغد. والحق كان موسى يتردد عليها بين وقت وآخر يحمل لها الطعام، أو يرسل من ينوب عنه. وأحياناً كان أبو موسى يقوم بهذه المهمة.

بل ستقول له أكثر من ذلك «آه يا ولدي لم يعد في مقدوري أن أحتمل ... ويعلم الله متى ستعود ليلى..ابحث لي عن مخرج.. خذني إلى بيتك.. لن أسبب لك متاعب مع زوجتك..».

وتصدت فجأة كأنما خجلت من نفسها أمام نفسها فانبرت تدافع عن شخص غائب: «العمى خذها. هب أنها خادمة.. لن تكون متاعبها أكثر من متاعب أية خادمة في هذه الأيام».

وتسمع قرقعة في الخارج فتنصت، ثم تنشئ تحدث نفسها: «إنها الريح ثانية ولاشيء غير الريح، ولكن أية ريح؟! إنها خطى حقيقية.. افتحي أذنيك هوذا الرمل ينسحق تحتها.. هل هذه ريح؟؟ خطوات خفيفة ومتزنة. لعلها بسيمة أخيراً... لاشك أنها بسيمة... هيا احزمي أمرك إذن. لا تفوتي الفرصة».

وانتظرت أن تقترب الأقدام. خطوة أخرى وينتهي الأمر. خطوة ليس غير ويصبح هذا الكابوس نسياً منسياً. وطال التوقع. وظلت الأقدام على صمتها. فلم تكلف نفسها عناء تقديم أي إيضاح.

في حين انطلقت زهرة تقول في نفسها ما أعدته لبسيمة. «بسيمه يا بنيتي! بحق المسيح اكتبي له.. لفريد.. قولي له إن أمك مريضة. فريد سمعان.. أوه بقية العنوان.. لست أدري.. على كل حال. إنه هناك فوق الرف. لا بل تحت الوسادة مع رسالة ليلى.. قولي له إن أمك مشتاقة إليك. وأن الخراجات تملأ ظهرها .. فريد ولد طيب.. ولكن زوجته .. مهما يكن اكتبي له.. أنا لم أعد قادرة أن أفعل».

وتعثرت العصا، فانتبهت المرأة. أيقظها إحساس بالألم مفاجئ بفعل الاصطدام. وضغطت العصا على ذلك الشيء الذي صدمته وسحبته لمسافة قصيرة، حيث لم يلبث أن أفلت بعد لحظات .. وتاهت العصا في الظلام فترة، ثم اهتدت إليه ثانية.

وارتدت الإشارات بعد أن أبدى الدماغ عجزه. واستحالت الاستغاثة إلى شكوى ضجَّ لها الجسم كله. إن الحياة بدأت تلملم شعثها من الأطراف البعيدة أمامٍ الروماتزم الزاحف لتحتمي حول منطقة القلب. وأمسى الجسم المنهزم نزقاً ينفعل لأتفه الأسباب.

ومدت يدها، فتناولت ما سحبته بالعصا. وتفحصته بأصابع مذعورة أفقدها الألم صوابها. فإذا هو دمية بعد محاكمة بسيطة.

والواقع كان عقلها خلال ذلك كامناً. غير أنه لم يكن معطلاً. صحيح أنه قد فقد السيطرة على الجسد لكنه لا يزال يملك القدرة على الربط.

قالت في نفسها: «هذه لعبة حمود» وقبلتها «آه يا عين جدتك». وجنح خيالها إلى الماضي.

ولكن زهرة لا تريد أن تتراجع عن رفع رجلها إلى السرير. وبات حملها إليه أمراً ينبغي الخلاص منه أولاً بأول إذا أرادت امتلاك ذلك الماضي. لقد خيل إليها أن تلك الرجل تقف حائلاً بينها وبينه. وأنها جهاز ملأه ضجيجاً شريط خرب.

ونشط فكرها. إن العقل قد شمر عن ساعديه ونزل إلى الميدان من جديد: ماذا لو دفعت العصا تحت رجلها. وأسندت وسطها إلى حافة السرير؟! ثم ماذا؟ لتضغط على طرفها الآخر. اليد اليمنى لا تستطيع.. ولكن لها يداً يسرى.

غير أن ذلك كان يفترض جلوسها في السرير على الأقل.. وقد استطاعت أن تفعل بعد جهد فبدأت تسحب العصا فوق صدرها. في حين تثاءبت اليد اليسرى بتكاسل. كانت تتباطأ محاولة التنصل كانت يداً شقية تؤثر الرقاد تحت اللحاف كطفل يخشى البرد.

وسرعان ما اصطنعت من العصا وحافة السرير ما يشبه العتلة. إنها جاهزة للعمل. والآن لتضغط.. لترخي ثقل يدها على طرف العصا.

وترتفع الرجل في الهواء، وتمسي بمحاذاة حافة السرير والآن؟ والآن لتأمر رجلها أن تنتقل إلى السرير.

ولكن الرجل كانت من الوهن، حتى أنها عجزت عن القيام بحركة مجدية في هذا السبيل.. ومع ذلك فقد قامت بواجبها كما لم تقم به رجل

مريضة من قبل. فقد ظلت معلقة في الهواء هنيهه، غير أنها لم تلبث أن سقطت سقطة مفجعة سببت لصاحبتها ألماً بالغاً. مما جعلها تخلد إلى الراحة لفترة غير قصيرة.

هيا أم فريد جربي مرة أخرى. من كان يذهب إلى بساتين الريحان مشياً على الأقدام؟؟ من كان يحمل الصرة على ظهره.

آه ما أحلاها أيام حين كانت تذهب إلى القرى المجاورة، وبضاعتها على ظهرها. وخلفها أو أمامها الأولاد الثلاثة يطاردون الفراش، أو يحاولون اللحاق بجرادة. «اركن يا ولد.. أمسك يد أختك. أساور يا بنات. عقود .. أقراط.. شالات».

صحيح أن انفصال زهرة عن زوجها قد سبب لها ارتباكاً في البداية. ولكنها عرفت بعد ذلك كيف تسوي الأمور. وهكذا راحت تعمل لتربية الأولاد. لم يكن في مقدورها أن تتزوج. لقد وضعت قدميها ذات مرة في قارتين حسبت أنهما متجاورتان. ثم استحال عليها أن تنقل إحداهما إلى الأخرى. «أساور يا بنات .. دهون.. جرابات».

وهبت عليها ريح من بعيد دفعت كل ما أمامها، وتقاربت القارتان. ومشت زهرة على أرض صلبة إن اسمها لم يعد زهرة وإنما روز. وروز الآن فتاة حلوة ومدللة. تذهب إلى مدرسة المدينة على ظهر حصان. وتفور الرمال تحت قدميها «روز؟ ماذا يعني؟؟ ينبغي أن يكون للاسم معنى. ولكن روز!! يا لُه من اسمٍ غريب». وتضحك. يا الله كم كانوا بسطاء وجهله. أمه وأشقاؤه. «حسناً.. حسناً روز يعني زهرة». وتتباعد القارتان من جديد «روز؟ ماذا فعلت بنفسك؟! أين أولادك.. أنت ملعونة مثل الغراب. ولكن أي غراب؟! الغراب الضائع في كتاب المشوق.. في الصف الثامن أو التاسع.. الغراب الطاووس.. مَن مِن قريباتك تزوجت من خارج دينها؟ أمك وجدتك وجدة جدتك».

وتخيلت زهرة حبلا طويلاً من الجدات ممسكات بأيدي بعضهن. ثم اصطففن حلقة وأخذن يدرن راقصات. أما زهرة فكانت خارج الحلقة. وقد اختفت حين أرادت الانضمام إليها.

ومدت زهرة يدها تستفقد العصا. وما كادت تطمئن عليها. حتي أعطت نفسها قسطاً آخر من الراحة. إنها تستسلم لشعور من نوع خاص. كنَّة تقول:

لقد ضقت ذرعاً ببسملتها، وأخرى: إنها تصلّب على كل شيء... طيب. أليست الأديان كالأنهار كلها تصب في بحيرة الله».

وتراجعت إلى الخلف. وأسندت ظهرها إلى الجدار، فأحست ببرودة تسري في جسدها. لم تلبث أن اعتادتها. «كل شيء مثل الجليد ومع ذلك فليس عندك جمرة في كانون... أين أيام زمان والغلاية على النار.. تبقبق وتبقبق».

وطغت عليها موجة الغضب «هيا اخلعوني من شجرة العائلة.. لن آسف على شيء. لأني أراني قد فزت بالنصيب الأوفى. لقد فعلت ما يحلو لي. ولعل هذا ما يعطي الحياة قيمتها... وأنتن ياجداتي ارقصن حلقات حلقات».

وانحدرت الموجة. «أما أنا فقد آثرت الرقص وحدي. كلكن تافهات لأن واحدة منكن لم تجرب الرقص وحدها.. سأنزع شوكي بيدي.. وأحمل رجلي إلى السرير. وقد يعجز الغراب أن يصير طاووساً دفعة واحدة.. ولكن سيأتي يوم تمتلئ فيه السماء بطيور من نوع غريب تجمع بين الاثنين».

وسمعت طرقاً على الباب دخلت على أثره ليلى وزوجها وابنها حمود «آه يا ابنتي! ها أنت قد عدت أخيراً إلى أمك».

وأحاطوا بها جميعاً. ثم اندفع حمود إلى صدرها. فتناست في الحال جميع شقائها. وتخيّلت الملاحف البيضاء، وعبق أنفها برائحة الغار. وسرعان ما طلبت ماء من ابنتها.

كانت دموعها تنحدر على خديها من الفرحة، حتى كادت تكذب عينيها. واعتقدت أنها تحلم.

وشربت طويلاً. طويلاً جداً وتخيلتهم يقولون: «كم هي عطشى.. مسكينة .. منذ متى لم تشرب».

وبلغ بها التأثر حداً اهتزَّ له كيانها فسكبت الماء على نفسها. كان بارداً كالثلج. فانتفضت مذعورة.

وحين أدارت عينيها في أرجاء الغرفة. لم تجد أحداً. بل أحست أن ثمة شيئاً ينزلق تحتها ساخناً.. ساخناً. فتأكدت عندئذٍ أنها إنما كانت تحلم.

* * *



# العصفور المسافر

قصص للأطفال


الهيئة العامة السورية للكتاب

# البطة الثقيلة

كانت بطة في قرية بعيدة تسبح كل يوم في بركة صغيرة. ولكن ذات صيف، جف فيه ماء البركة، فحزنت البطة حزناً شديداً وتساءلت:

- متى يسقط المطر فتمتلئ البركة بالماء؟

سمعها عصفور وقف، لتوه، على غصن شجرة فقال لها:

- في الشتاء طبعاً.

قالت البطة:

- وهل أنتظر مجيء الشتاء حتى تمتلئ البركة بالماء؟ أنا عطشى جداً. وأرغب في السباحة.

قال العصفور:

- ولماذا لا تطيرين إذن إلى بحيرة ما؟ أعرف بحيرة تحيط بها الأشجار من كل جانب.

فقالت البطة:

- وهل هي بعيدة؟

أجاب العصفور:

- لا. إنها وراء هذه التلال.

فقالت البطة:

- لا أقدر على الذهاب إلى هناك، لأني لا أستطيع الطيران.

وسأل العصفور:

- عجباً كيف لا تستطيعين الطيران وأنت تملكين جناحين كبيرين؟

قالت البطة:

حقاً إني أملك جناحين كبيرين ولكنهما لا يقويان على حملي.

فسأل العصفور:

لماذا؟

قالت البطة:

- لقلة الاستعمال يا عزيزي العصفور. لم أكن أحتاج إليهما في القرية. كنت أنتقل على رجلي، وألتقط طعامي من هنا وهناك، فلم أفرد جناحاً يوماً وأحلق في الفضاء.

قال العصفور:

- وهكذا ثقل وزنك، وضعف جناحاك فلم تعودي قادرة على الطيران.

فهزّت البطة رأسها بالإيجاب. وتابع العصفور:

- وآثرت حياة الراحة والكسل في القرية على حياة السفر والرحيل؟

فأجابت البطة بندم:

- نعم هذا ما فعلت حقاً.

فقال العصفور:

- يا للأسف تحملين جناحين ولا تطيرين بهما. سمعت طفلاً يقول مرة: ليتني أملك جناحين كي أطير بهما.

ورفرف العصفور بجناحيه فقالت البطة:

- احملني معك إلى البحيرة أيها العصفور، فإني أكاد أهلك عطشاً.

فقال العصفور وهو يغادر الشجرة طائراً:

- لا أستطيع يا عزيزتي البطة. كل عصفور يطير بجناحيه.

ثم تركها وحلق في الفضاء باتجاه البحيرة. عندئذ صفقت البطة بجناحيها وحاولت أن تقلد العصفور في الطيران. لكنها كانت ثقيلة جداً فلم تستطع أن ترتفع فوق الأرض.

# من يحب أكثر

اشتد الخلاف بين الكلب والهر فذهبا إلى القاضي ليحتكما عنده. فقال الهر للقاضي:

- أيها القاضي! أنا أحب أكثر من الكلب.

وقال الكلب:

- أيها القاضي! أنا أحب أكثر من الهر.

فقال القاضي:

- حسناً ليتكلم كل منكما بدوره. هيا أيها الهر قل ما عندك إني أستمع إليك.

فقال الهر:

- إنك تعلم يا سيدي القاضي أنني أعيش في البيوت وأقوم بأعباء كثيرة هناك. فأنا أصطاد الفئران والصراصير وأقتل العقارب والأفاعي وذلك لقاء ما يتفضل به عليَّ الناس من فتات الموائد وما يسرقه لي الأولاد، أو يخبئونه لي من حصصهم وهذا كله لا يغني ولا يشبع من جوع، لأن العمل كما تعلم كثير ويتطلب مجهوداً كبيراً.

فقال القاضي:

- هذا صحيح.

فقال الهر:

- وليت الأمر يقف عند هذا الحد. فإن الأطفال يجذبونني من ذيلي ويشدون فروتي وينتفون شواربي ويقذفونني في الهواء. ومع ذلك فأنا لا أشكو

وإنما أصبّر نفسي وأقول: يجب أن تكون معاملتي لهم أحسن من معاملتهم لي من أجل نظافة البيوت والقضاء على الحشرات والآفات حباً بالمصلحة العامة وسعادة الآخرين.

ثم التفت القاضي إلى الكلب وقال له:

- والآن جاء دورك أيها الكلب. فما هي أقوالك؟

قال الكلب:

- إنك تعلم، يا سيدي القاضي، أنني أقوم بحراسة البيوت وتنبيه أصحابها إلى خطر اللصوص. لذلك فأنا لا أعيش تحت سقف مثل الهر ولا أرّفه مثله لأن مكاني هو التطواف في الحديقة أو الانتظار على باب الدار. وغالباً ما ينسى أصحابي أن يحملوا لي الطعام فأظل جائعاً. كما يقرصني البرد ويبللني المطر وأقضي الليالي وحيداً. ومع ذلك فأنا لا أشكو ولا أتذمر، وإنما أحب ما أفعل لأنه واجبي. ولأن حب الآخرين يملأ قلبي.

قال القاضي:

- كل منكما يدعي أنه يحب الآخرين أكثر من رفيقه فكيف أتأكد من ذلك؟

ثم قال لنفسه: علينا بالتجربة.

وقام من فوره فجلب عصفوراً وأخبر الكلب والهر أنه يحب هذا العصفور كثيراً، وأنّ عليهما أن يحرساه ريثما يعود من قضاء بعض الأعمال. ثم ترك العصفور في حمايتهما.

وقف الكلب في جانب الحديقة، ووقف الهر في الجانب الآخر. أما العصفور فراح يتواثب جذلاً هنا وهناك.

بعد انقضاء بعض الوقت قال الهر للكلب:

- أيها الصديق إني أسمع قرعاً على الباب فاذهب وانظر من الطارق.

فقال الكلب:

- والعصفور؟

فقال الهر:

- لا تخف عليه. إنه في حراستي.

وما كاد الكلب يمضي ليستطلع من الطارق حتى انقضّ الهر على العصفور وقضى عليه ثم راح يلتهمه.

عندما عاد الكلب من مهمته ورأى الهر يلتهم العصفور شعر بالغضب وهجم على الهر الخدّاع واشتبك معه في معركة عنيفة وأشبعه ضرباً، ومنذ ذلك اليوم كره الكلب الهر.

وهكذا صار من عادة الكلب كلما صادف هراً أن يهجم عليه لأنه لم يفِ بوعده للقاضي، ولأنه أكل العصفور الصغير الذي أئتمن عليه.



# السنونو

بعد جولة في المدينة وقف زوجان من طيور السنونو على شريط كهربائي في رواق بناء هادئ يجتازه على عجل عدد قليل من أصحاب الحاجات. وكان كل زوج من هذه الطيور عائلة: عصفور وعصفورة.

قال أحد الطيور:

- حمداً لله. انتهت رحلتنا بسلام وتخلصنا من بلاد البرد. وها نحن في مدينة تسطع فيها الشمس.

وقال ثان:

- يا لها من مدينة دافئة حقاً.

وقال سنونو آخر:

- نعم يا لها من مدينة دافئة وجميلة. غداً سوف أطير إلى رأس مئذنة وأشاهد المدينة من هناك.

وقال سنونو:

- أنا متعب. كم أرغب بالنوم في هذا المكان بعد رحلتنا الطويلة. فردّت عليه رفيقته العصفورة:

- يا لك من طائر كسول. أليس من الأفضل أن تبحث لنا عن مأوى بدلاً من التفكير بالنوم.

فقال سنونو:

- هذا مكان مناسب تماماً لبناء عش.

وقال ثان:

- إنه بعيد عن نقافات الأولاد الأشقياء.

وقال ثالث:

- وعن سلالمهم الخشبية وقصباتهم الطويلة التي تهدم أعشاشنا.

واتفق طيور السنونو الأربعة على تقاسم العمل فيما بينهم. كُلف أحدهم بجلب الطين، وآخر بحمل القش أو زغب الصوف. وثالث بنقل الماء. ورابع بالبحث عن الطعام.

وقت الظهر توقفوا قليلاً عن العمل فتناولوا غداءهم. ثم هتف السنونو الذي أراد أن ينام في الصباح.

- استمعوا يا رفاقي إلى غنائي.

وطفق يغني. لم يكن صوته حلواً كثيراً. لكنه كان صادقاً في غنائه وإحساساته.

إيه يا بلاد الدفء

ياه يا بلاد الخيــر

إيه يا بلاد الجمال

مرحباً أيتها الشمس

مرحباً أيتها الشمس

مرحباً أيتها الشمس

وعندما انتهى من غنائه صفق له رفاقه. ثم عادوا بعد ذلك إلى العمل من جديد.

وما إن أقبل المساء، حتى أتموا بناء عش في زاوية سقف الرواق نام فيه طيور السنونو الأربعة، وقد صمموا على الاستيقاظ باكراً لكي يتعاونوا جميعاً على بناءِ عشٍ ثانٍ في الصباح للعائلة الأخرى التي ساهمت في بناء العش الأول.

* * *

# صبـاح

استيقظت العصفورة في يوم من الأيام ووقفت تتمطى على مدخل العش. كان الجو دافئاً، والسماء صافية تتلألأ بأول أنوار الصباح.

ومن جحر أطل أرنب برأسه وتلفّت حواليه بحذر.

وحط نقار خشب على ساق شجرة وبدأ يستعد ليُعمل منقاره في تلك الساق.

وصفق ديك بجناحيه وتهيأ لجولة جديدة من الصباح.

في تلك اللحظة التفتت العصفورة إلى داخل العش. كان رفيقها العصفور قد استيقظ لتوه من النوم. فقالت له العصفورة:

- هل تعلم أن الربيع عاد؟

قال العصفور:

- حقاً؟ لننطر قليلاً لنتأكد من عودته.

وطارت العصفورة والعصفور.

وخطا الأرنب خارج الجحر وقال:

- يجب أن أجد بعض الطعام. وآمل أن لا يكون هناك صيادون اليوم.

وقال نقار الخشب:

- والآن حان وقت العمل.

وبدأ يُعمل منقاره في الخشب كأنه الأزميل، لينحت عشاً فيه.

وقال الديك:

- يجب أن أيقظ النيام قبل أن يفوتهم الوقت ويتأخروا عن أعمالهم.

ضحكت الشمس لما يجري تحتها واستمرت تتسلق السماء.

* * *

# السمكة الكبيرة

كانت سمكة صغيرة تقوم بنزهة غير بعيدة عن وكرها. وكانت هذه السمكة سعيدة جداً بنزهتها فتارة تسبح بسرعة. وتارة على مهل. وأكثر من مرة مالت على كل واحد من جنبيها واسترخت بعد حركة فالتمعت تحت أشعة الشمس كقطعة من الفضة. وبينما هي تقوم بهذه الألعاب البريئة أحست فجأة بالخطر. التفتت بسرعة فرأت سمكة كبيرة تتجه نحوها لالتهامها. وفي الحال لاذت بالفرار ودخلت وكرها. غير أن السمكة الكبيرة كانت سريعة جداً حتى أنها أدركت طرف ذيل السمكة الصغيرة وأمسكت به.

قالت السمكة الصغيرة للسمكة الكبيرة:

- اتركي ذيلي ودعيني أمضي في سبيلي.

لكن السمكة الكبيرة لم تتركها. فقالت السمكة مرة أخرى:

- أرجوك اتركي ذيلي فأنا لا أستطيع أن أعيش بدون ذيل.

لم تصغ السمكة الكبيرة إلى توسلات السمكة الصغيرة، بل اقتطعت منه ذلك الجزء الصغير الذي كانت تمسك به في فمها، ثم ذهبت لشأنها.

بعد ذلك عاشت السمكة الصغيرة بذيل ناقص مشوّه. وظلّت فترة طويلة تعاني آلاماً من ذلك الجرح الذي أحدثته في ذيلها السمكة الكبيرة. وكانت تجد بعض الصعوبة في السباحة عندما تقوم بألعابها الحلوة. وصارت أكثر حذراً من الأسماك الكبيرة فعرفت كيف تحافظ على نفسها، ونمت وترعرعت حتى أصبحت بمرور الأيام سمكة كبيرة. ولم تعد تحس آلاماً في ذيلها الذي شفي

تماماً وصار قوياً. لقد بات في مقدورها الآن أن تقطع المسافات الطويلة بحثاً عن طعامها. وفي يوم من الأيام التقت بسمكة صغيرة فانقضت عليها تريد التهامها. حاولت السمكة الصغيرة الإفلات والنجاة بنفسها، لكنها لم تستطع إلى ذلك سبيلاً. عندئذ توسلت إلى السمكة الكبيرة قائلة:

- أشفقي عليّ ودعيني أمضي في سبيلي. أرجوك. أنا أريد أن أعيش.

غير أن السمكة الكبيرة لم تهتم بتوسلات السمكة الصغيرة. ولم يرق لها قلبها، بل ابتلعتها. ونسيت أنها كانت سمكة صغيرة ذات يوم، وأنها توسلت إلى سمكة كبيرة كادت تلتهمها، ولكنها لم تظفر إلا بجزء صغير من ذيلها.

* * *



# الملك والغزال

ذهب الملك ذات يوم إلى الصيد فشاهد في الغابة غزالاً. عندئذ رفع الملك قوسه وتهيأ لإطلاق سهمه على الغزال. لكن الغزال بدلاً من أن يهرب بعيداً عن مرمى القوس قال للملك:

- لماذا تقتلني أيها الملك؟

فأجاب الملك:

- من أجل لحمك طبعاً!

قال الغزال:

- ولكنك أيها الملك بعد أن تصيدني ترمي بي إلى الخدم لأنك لا تأكل الغزال، وإنما تؤثر لحم الضأن.

رفع الملك قوسه للمرة الثانية وتهيأ لإطلاق سهمه لكن الغزال سأل مرة أخرى:

- لماذا تقتلني أيها الملك؟

فأجاب الملك:

- لأرضي طبيعتي العدوانية.

رد الغزال:

- ولكنك ترضيها بإثارة الفتن بين فئات الشعب، وتسعير نار الحروب بين مدن المملكة.

ورفع الملك قوسه للمرة الثالثة وتهيأ لإطلاق سهمه. غير أن الغزال سأل من جديد:

- لماذا تقتلني أيها الملك؟

أجاب الملك:

- لأجلب التسلية إلى نفسي بعد أن استنفد مهرجو القصر كل حيلهم وطرفهم.

ردّ الغزال:

- ولكنك أيها الملك جعلت من كل حكماء المملكة مهرجين وسخرت منهم في كل مناسبة.

ورفع الملك قوسه للمرة الرابعة وتهيأ لإطلاق سهمه. لكن الغزال سأل:

- لماذا تقتلني أيها الملك؟

قال الملك:

- أخشى أن يزداد عدد الغزلان حتى يطغى على عدد الأسود، فتضيع بذلك هيبة الغابة ورونقها.

فرد الغزال:

- ليست هيبة الغابة ولا رونقها بكثرة الأسود وحدها يا مولاي.

التفت الملك حينئذ إلى كاتم أسراره وقال له:

- ما رأيك يا كاتم أسرار الملك؟

فقال كاتم أسرار الملك:

- إنه غزال ذكي وأرى أن تعتقه وتُخلي سبيله.

قال الملك:

- هناك صنفان من الذين يسألون: صنف يسأل ليزداد معرفة. وصنف يسأل ليزيد المتاعب. وأحسب أن الغزال من الصنف الأخير.

ثم رفع الملك قوسه وأطلق سهمه على الغزال. وحالما أصاب السهم الغزال ابتسم وسقط على الأرض تنزف منه الدماء. وظل يبتسم وهو يموت لأنه قال كل ما كان يحزن فؤاده ويود قوله للملك منذ حين.

* * *

# العصفور المسافر

وقف عصفور على حافة وأراد أن يأكل بعض حبوب القمح منه. ولكنه شاهد رجلاً مبسوط الذراعين يرتدي سترة سوداء وسروالاً رمادياً. قال:

- ها هو حقل الحنطة قد نضج تماماً وطاب نقر بعض حبات منه لولا أن هذا الصياد يقف بالمرصاد. إن سفرتي طويلة ولا أعرف حقل حنطة مجاور. ولو كنت أعرف حقلاً مجاوراً لطرت إليه وتجنبت المخاطرة بحياتي من أجل بعض حبات القمح.

وطار في الهواء فدار دورتين ثم عاد فحط على حافة الحقل بينما ظل الرجل على وقفته السابقة مفتوح الذراعين يرتدي سترة سوداء وسروالاً رمادياً.

قال العصفور:

- ما أقدر هذا الصياد على الوقوف صابراً. لقد درت دورتين في الجو ومع ذلك ظل ساكناً لم يأتِ بحركة ما. ولعله يريد أن يخدعني حتى يتمكن مني تماماً فلا تخيب طلقته. وتوارى وراء بعض النباتات البرية ثم قفز خلف سياج الحقل وقال لنفسه:

- هنا لا تصيبني طلقاته لأن هذا المكان أكثر أمناً وسأمكث خلف السياج بعض الوقت عساه يضجر فيرحل. وفوق ذلك فالهواء في الظل أكثر إنعاشاً.

ونبش في الأرض ليقطع الوقت فعثر على دودة صغيرة فنقر منها عدة نقرات وقال:

- الديدان شيء كريه تشمئز منه نفسي وليس هناك أطيب من حبوب الحنطة.

وسرق نظرة من خلف السياج فرأى الرجل كما رآه في المرة الأولى.

اقترب من ساق سنبلة وبادرها قائلاً:

- صباح الخير يا سنبلة.

فردت عليه السنبلة قائلة:

- صباح الخير يا عصفور.

أخبريني يا سنبلة..

- ماذا أخبرك يا عصفور؟

سألت السنبلة بدلال ومالت يميناً ومالت يساراً. كانت سنبلة فاتنة حقاً ذات ساق طويلة وتاج ذهبي مثقل بحبات الحنطة.

قال العصفور:

- متى يرحل هذا الصياد؟

فتمايلت السنبلة ولم تعجل بالجواب. كان قد مضى عليها وقت طويل لم تكلم فيه أحداً. وكانت تخشى أن تمضي إلى البيادر قبل أن تعقد صداقة مع عصفور. لهذا تجاهلت سؤاله عامدة وسألت بدورها:

إلى أين أنت راحل أيها العصفور؟

فتواثب العصفور حواليها بفرح وقد نسي الرجل للحظة. كان يشعر بالسعادة لاهتمام السنبلة به.

- إنني راحل إلى الجبال فأنا عصفور رقيق لا أطيق الحر.

فقالت السنبلة في سرها:

- هذا العصفور متكبر نوعاً. ولكن ذلك لا يعيبه كثيراً فهو عصفور جميل.

وحانت من العصفور التفاتة، فرأى الرجل الذي يرتدي سترة سوداء وسروالاً رمادياً فقال:

- انظري إلى هذا الصياد. إنه يتهيأ لإطلاق النار.

وحدّثت السنبلة نفسها: إذا قلت له أن هذا الرجل ليس صياداً بل فزاعة[1] أكل العصفور طعامه ورحل ثم تركني وحيدة وإذا كذبت عليه فسيظل قلبه الصغير خائفاً.

وقعت السنبلة في حيرة. ماذا تقول للعصفور. كانت تخشى أن يتابع رحلته إلى الجبال. وكانت تتمنى أن يبقى معها أطول مدة ممكنة في نفس الوقت. لكنها قالت له بالرغم من ذلك:

- لا تخف يا عصفور. إنه فزاعة فلا تخش شيئاً.

وهتف العصفور:

- فزاعة إذن. يا للسخرية! لقد حسبته صياداً.

ثم طار فرحاً وحط على رأس الفزاعة.

سألت السنبلة:

- هل أنت راحل يا عصفور؟

فقال العصفور:

- كلا ليس الآن. ليس قبل أن أعرض عليك بعض ألعابي.

وحلّق العصفور في الجو وشرع يقوم ببعض الحركات. فمرة يطير طيراناً أفقياً، ومرة يصعد إلى الأعالي أو يهبط من شاهق أو يطير في خطوط شبه دائرية.

حطّ العصفور على أحد ذراعي الرجل الذي كان يحسبه صياداً.

قال للسنبلة:

- هل أعجبك طيراني؟

فقالت السنبلة:

---

(١) الفزاعة صورة وهمية تشبه الإنسان وتوضع في الحقول والبساتين لتخيف الحيوانات والطيور.

- رائع ولكنك سترحل وا أسفاه.

فقال العصفور:

- نعم سأرحل إلى الجبال. تعالي معي أيتها السنبلة.

فقالت السنبلة:

- لا أستطيع. إن جذوري عالقة في الأرض.

فقال العصفور لنفسه:

- مسكينة هذه السنبلة. إنها لا تستطيع الرحيل إلى مكان ما. أما أنا فأطير بجناحيَّ إلى كل مكان. وأنتقل جذلاً إلى ذراع الرجل الأخرى.

قال العصفور:

- أشكرك يا سنبلة.

فسألت السنبلة:

- تشكرني على ماذا يا عصفور؟

- أشكرك لأنك أخبرتني عن حقيقة هذا الشيء. الذي حسبته صياداً.

وكادت السنبلة تقول:

لا تشكرني يا عصفور لأني أحبك كثيراً ومن واجب المحبين أن لا يكذبوا على بعضهم.

ولكن الخجل عقد لسانها فلم تقل شيئاً.

قال العصفور:

- أنا راحل.. وداعاً.

قالت السنبلة:

- وداعاً خذ بعض حباتي يا عصفور لتكون لك زاداً في الطريق.

قال العصفور:

- كلا لم أعد جائعاً كما كنت من قبل وربما أجد بعض بساتين الفاكهة في الطريق.

وقفز العصفور إلى رأس الفزاعة ثم قال وقد نفض عنه غروره الذي كان يتظاهر به أمام السنبلة:

- أحبك يا سنبلة وسأذكرك دائماً.

فقالت السنبلة:

- وأنا سأذكرك.

قال العصفور:

- سنلتقي في كل موسم.

فقالت السنبلة:

- أجل سنلتقي في كل موسم.

قال العصفور:

- إذن إلى العام القادم:

فرددت السنبلة:

- نعم إلى العام القادم.

وبسط العصفور جناحيه طائراً باتجاه الجبال.

* * *

## الغميضة

اتفق القمر والشمس يوماً أن يلعبا الغميضة. وعندما حانت لحظة البحث. فتش أحدهما عن الآخر فلم يجده.

وما زال القمر والشمس يجري كل منهما في أعقاب رفيقه يبحث عنه.

* * *

# هموم خلد

قعد الخلد تحت شجرة يفكر مهموماً. وهناك التقى بعصفور وغزال وثعلب. سأل العصفور الخلد:

- لماذا أنت حزين أيها الخلد؟

وقال الثعلب:

- الحزن لا يليق بك.

وقال الغزال:

- نعم لا يليق بك. فقل لنا ماذا أحزنك عسانا نتشاور فيما بيننا ونجد حلاً لمشكلتك.

فقال الخلد:

- شكراً لكم أيها الأصدقاء. ولكن مشكلتي صعبة ولا أعتقد أن لها حلاً.

قال الثعلب:

- ما من مشكلة بدون حل.

وقال الغزال:

- الثعلب يقول الحق.

فتنهدَّ الخلد وقال:

- لقد حدث خلاف بيني وبين صاحب الحقل.

قال العصفور:

- بسيطة.

وقال الثعلب:

- وما سبب الخلاف يا رفيع الذيل؟

قال الخلد:

- كنت أعيش في حقل زُرع بالخس. وكنت سعيداً في هذا الحقل، أقضم قضمات كبيرة من الخسة التي تعجبني. وأنتقل في أرجاء الحقل من مكان إلى مكان، بعيداً عن أعين الحساد والحاقدين. حتى صادف يوماً أن أقبل صاحب الحقل وبرفقته رجل. فقال الرجل لصاحب الحقل: في أرضك خلد. يجب أن تتخلص منه.

ومنذ ذلك اليوم راح صاحب الحقل ينصب لي الفخاخ والأشراك للإيقاع بي حتى علق ذيلي البارحة في أحدها. ولو لم أسارع فأضحّي بذلك الجزء الذي علق لجاء صاحب الحقل وقضى علي.

فقال الغزال:

- حقاً إنها مشكلة.

واقترح عليه العصفور أن يرافقه في رحلته لاكتشاف منابع أحد الأنهار. فاعتذر الخلد عن هذه الدعوة لأنه لا يملك جناحين.

وقال له الغزال:

- أنا في طريقي إلى الغابة فتعال نعيش معاً هناك.

فقال الخلد:

- وكيف أستطيع بخطواتي القصيرة أن أرافقك أيها الغزال. أنت تحب الجري واللعب وإطلاق ساقيك للريح.

وقال له الثعلب:

- تعال معي نقتنص الدجاج. فأنا حقيقة أحتاج إلى رفيق مثلك يستطلع لي الطريق إلى أقنان الدجاج ويراقب تنفس الفلاّح الراقد في فراشه ليرى هل هو ينام فعلاً أم أنه يتظاهر بالنوم.

فقال له الخلد:

- لو كنت أحب لحم الدجاج إذن لرافقتك. ولكن أنا من القواضم والأسفاه.

وتساءل العصفور:

- كيف نستطيع أن نساعد صديقنا الخلد. ونحل له مشكلته!

فقال الغزال بابتهاج:

- عندي فكرة.

فسأله العصفور:

- وما هي هذه الفكرة؟

قال الغزال للخلد:

- لماذا لا تهاجر إلى بقعة أخرى عساك تجد حقلَ خسٍ لا صاحب له.

فسخر الثعلب قائلاً:

- ليس هناك حقلَ خسٍ بدون صاحب.

وقال الخلد:

- وفوق ذلك فأنا لا أحب الاغتراب.

فقال الغزال:

- إذن ما العمل؟

وقال العصفور:

- نعم ما العمل؟

وهنا تكلم الثعلب فقال:

- أين تقضي الليل.. أيها الخلد؟

قال الخلد:

- في العراء وأحياناً تحت الأشجار عندما تهطل الأمطار.

فقال الثعلب:

- هناك طريقة تستطيع بها أن تخدع صاحب الحقل ولكنها تكلفك بعض الجهد.

فسأله الخلد عن تلك الطريقة. فأوضح له الثعلب أن عليه أن يحفر الأنفاق الطويلة المتعرجة في الحقل كي يختبيء فيها لدى أول إشارة تنذر بالخطر.

رحَّب الخلد بالفكرة كما رحَّب بها العصفور والغزال أيضاً. ثم شكر الخلد الثعلب. ومضى إلى حقل الخسِ، فحفر فيه الأنفاق الطويلة الملتوية، التي سرعان ما أخذ يختفي فيها عندما يحسُّ بالخطر. لكن الخلد الذي صار يقضي قسماً كبيراً من وقته في تلك الأنفاق، اضطر أن يحب البصل والبطاطا إلى جانب الخس أيضاً.

* * *





# الخروف يقاتل

اعتاد ذئب أن يهاجم كل يوم قطيعاً من الغنم ويفترس واحداً من خرافه. وكان هناك خروف وقور يرعى منعزلاً. وكان يقول لنفسه كلما أغار الذئب على القطيع:

- ما دام الذئب لا يهاجمني فلا شأن لي معه.

وذات مرة تناقص فيه عدد الخراف كثيراً فقال الخروف الوقور:

- الخراف تنقص كل يوم واحداً، ولا بد أن يصل الدور إليَّ.

وأخذ يبحث عن وسيلة للخلاص من هذا الذئب ودفع الأذى عن القطيع. وخطرت له فكرة فجمع القطيع وخطب فيه قائلاً:

- يا معشر الأغنام هناك ذئب تسلط علينا ويكاد يقضي على القطيع، فتعالوا نتحد لمواجهته قبل أن يفوت الأوان ويفترس الجميع واحداً بعد واحد.

سخرت الأغنام من أقوال رفيقها الخروف واتهمته بالغرور.

عندئذ قال الخروف الحكيم بشجاعة:

- سأبدأ بنفسي وسأقاوم الذئب وحدي.

فقال له خروف:

- ولكنك لست في مثل مقدرة الذئب، ولا تستطيع أن تتغلب عليه.

فقال الخروف الجريء:

- ولماذا لا أستطيع أن أتغلب عليه!؟ هو يملك أسناناً حادة، وأنا أيضاً أملك قرنين قويين.

وقام في الحال فقص صوفه الغزير، ثم أخذ يجري في السهول ويتسلق التلال حتى رق جسمه المكتنز واكتسب رشاقة وقوة. كما شحذ قرنيه الأسودين على الصخر فصارا حادّين كالسكين.

حينما هجم الذئب في اليوم التالي كعادته على القطيع ليفترس خروفاً فوجئ بأمر غريب.

فقد برز من بين الأغنام خروف رشيق الجسم قوي العضل حاد القرنين ووقف أمام الذئب. ثم قال له:

- ارجع أيها الذئب إلى الوراء واترك هذا القطيع.

فقهقه الذئب وقال ساخراً:

- ابتعد عن طريقي أيها المسكين قبل أن أقضي عليك.

كانت الأغنام تراقب المشهد بخوف وتستمع إلى المحادثة التي تجري بين رفيقها الخروف والذئب.

فقال الخروف:

- لن أتحرك من هذا المكان. ولن أسمح لك بعد اليوم بالاعتداء على رفاقي.

فقال الذئب بغضب:

- سأمزقك بأسناني الحادة إذا لم تبتعد عن طريقي.

فقال الخروف:

- لن أبتعد.

فهجم الذئب على الخروف، لكن الخروف تلقاه بقرنه الأسود الحاد فجرحه في بطنه.

وعندما عاود الذئب الهجوم على الخروف نطحه الخروف بقرنه مرة ثانية حتى جرى الدم من رأسه. وهكذا وقف الخروف يرد هجمات الذئب وينطحه بقرنيه بقوة في كل مرة حتى قُضي على الذئب تماماً.

فرحت الخراف كثيراً وصفقت ورقصت ليس فقط بسبب انتصار رفيقها الخروف على الذئب، ولكن لأنها اكتشفت أيضاً أنها تملك قروناً تستطيع أن تقضي بها على كل الذئاب التي قد تهاجمها في المستقبل.

* * *

# الشجرة المنسية

كان هناك فلاح عجوز يملك حقلاً صغيراً. وكان هذا الفلاح نشيطاً يستيقظ كل صباح مبكراً فيعمل في حقله حتى المساء. ومع ذلك فقد كان سعيداً لا ينغص عيشه سوى تسلل الحيوانات إلى حقله بين الحين والحين فتعيث فيه فساداً وتدمر عمله.

وذات يوم اشتد أذى الحيوانات كثيراً فوقف العجوز في حقله وقال:

- أنا رجل عجوز، أملك حقلاً صغيراً. ولكن حقلي بلا سياج وقد خرّبت مزروعاته الحيوانات وعاثت فيه فساداً.

فردّت عليه الريح وقالت:

- حقاً أنت رجل عجوز وحقلك بلا سياج.

تابع العجوز:

- لو كان عندي أبناء لوزعتهم حول الأرض كي يحرسوا الحقل، لكني رجل وحيد ولا أبناء لي.

فردّت عليه الريح وقالت:

- حقاً أنت رجل وحيد ولا أبناء لك.

تابع العجوز:

- لو كان في زندي قوة لمضيت إلى المقلع واقتطعت أحجاراً فبنيت منها سياجاً حول الحقل. لكني قد طعنت في السن، والمحجر بعيد ولا عربة لدي أنقل بواسطتها الأحجار من المقلع. فماذا أفعل؟

قالت الريح:

- نعم المحجر بعيد ولا قدرة لك على اقتطاع الأحجار. وأيضاً لا عربة لديك تنقل الأحجار بواسطتها. لكن أنا من ناحيتي وا أسفاه لا أستطيع أن أفعل من أجلك شيئاً.

وقالت الشمس في السماء:

- ولا أنا أيضاً.

وقال السحاب:

- أما أنا فلا وطن لي ولا أبقى في مكان.

رقت الأشجار لحاله وقالت له:

مسكين أنت حقاً أيها الفلاح العجوز.

وهمست الريح:

- حقل العجوز بلا سياج. مزروعاته تخرّبها الحيوانات، وثماره تأكلها الثعالب فمن يصنع سياجاً لحقل العجوز ويحمي مزروعاته؟

تقدّمت من أقصى الحقل شجرة قصيرة وقالت:

- أنا أجعل من نفسي سياجاً حول الحقل. ولكن لي شرط واحد.

فقال الفلاح بسرعة:

- قولي ما هو هذا الشرط؟

وقالت الريح:

- تكلمي حالاً أيتها الشجرة التي تنكر نفسها لتصنع سياجاً حول الحقل.

فقالت الشجرة القصيرة:

- لا أريد سوى أن تُشذب أغصاني وتُروى جذوري العطشى بالماء.

فقال الفلاح:

- هذا طلب بسيط.

قالت الريح:

- أنتِ تنكرين نفسك من أجل الآخرين فمن حقك أن تلقي كل رعاية.

واقتربتِ الشجرة القصيرة من طرف الحقل وامتدت شيئاً فشيئاً حتى صارت سياجاً حول الحقل كله. غير أن الفلاح لم يبرّ بوعده تماماً، ونسي الشجرة التي جعلت من نفسها سياجاً حول حقله بمرور الأيام. فحزنت هذه كثيراً وغزتها الطفيليات وشاعت حولها النباتات الضارة. وأخيراً نبتت فيها أشواك كالأبر. لكنّ كان ثمة من لم ينس الشجرة تماماً. تلك هي الريح. فكلما مرت بقربها توقفت وقالت:

- سلاماً يا شجرة.

فتجيب الشجرة:

- سلاماً أيتها الريح.

فتسأل الريح:

- أين صاحبنا الفلاح؟

فتقول الشجرة:

- لا أدري.

فتسأل الريح من جديد:

- ألا ترينه كثيراً؟

فتجيب الشجرة:

- أراه مرة واحدة في العام عندما يقطف ثماري.

وتقول الريح:

- ألا يشذب أغصانك؟

فتجيب الشجرة:

- كلا.

- ألا يروي جذورك؟

فتجيب الشجرة:

- كلا.

وتقول الريح وهي تمضي في طريقها:

- مسكينة أنت يا شجرة الصبار. نعم أنت شجرة منسية حقاً.

* * *

# النـورس

كان النورس في قديم الزمان سمكة تعيش في البحر. وكان كل يوم يراقب الشمس منذ شروقها وحتى الغروب ويتمنى أن يكون قادراً على الصعود إلى السماء مثلها ليتفرج على العالم.

وذات صباح وجد على جنبيه جناحين ففرح بهما، وطار تاركاً وراءه البحر.

طاف في جهات الدنيا الأربع. حلّق فوق الأنهار والسهول. وشاهد الجبال والغابات وسُحر بجمالها. وعندما تعب من رحلته عاد إلى البحر. أراد أن يرجع سمكة ويعيش في الماء فعاقه جناحاه.

رحل مرة أخرى إلى الغابات والوديان والسهول. لكن حنينه إلى البحر كان أشد. فعاد إلى موطنه من جديد.

وما زال النورس يعيش على الشواطئ، يغمس رأسه في الماء. أو يحلّق فوق البحر مرسلاً أحياناً صرخات الألم.

وفي كل صباح عندما يستيقظ يلتفت على جنبيه آملاً أن يرى جناحيه وقد اختفيا ليرجع سمكة وينزلق في الماء.

* * *

# الشــتاء

عندما جاء الشتاء كان يرافقه ثلاثة فرسان هم المطر والثلج والريح. صاروا يتجادلون ويتفاخر كل منهم على الآخر مدّعياً لنفسه الفضل في الخير الذي يعم البلاد. وحينما اشتدَّ النقاش بينهم قال الشتاء برزانة:

- لنُجرِ امتحاناً لنتبين صدق كل منكم.

وقد ابتدأ بالريح فقال بعد أن حبس المطر الثلج:

- لنر شطارتك أيتها الريح.

شمرّت الريح عن ساقيها ونزلت إلى الميدان. بدأت بضجة كبيرة فصفّرت وأعولت وجرت هنا وهناك. هبطت إلى السهول وعبرت الوديان وتسلقت الروابي والتلال. اقتلعت أشجاراً وهدمت سقوف أكواخ وظلّت على هذه الحال حتى لم يبق في جعبتها نفخة هواء.

نظر الناس إلى السماء وقالوا:

- شتاء ليس فيه سوى الرياح لا معنى له

سأل الشتاء الريح:

- هل عندك شيء آخر؟

قالت الريح:

- لا!!

فطلب إليها الشتاء أن تقف جانباً. ثم قال للثلج:

- والآن جاء دورك أنت.

وفي الحال أخذ الثلج يهز منخلاً كبيراً بيده فراحت تتساقط منه نتف رقيقة بيضاء هبطت بلين كالريش حتى اكتست الأرض والأشجار وكل شيء بثوب ناصع البياض. وقال الأطفال الذين ألصقوا أنوفهم وجباههم على زجاج النوافذ:

- آه ما أحلى منظر الثلج.

أما الكبار فقد قالوا:

- الثلج يقتل الديدان الضارة بالزرع لكنه ليس هو كل شيء.

قال الشتاء للثلج:

- هل عندك شيء آخر؟

قال الثلج:

- لا

قال الشتاء:

- حسناً! والآن جاء دور المطر.

ثم طلب من الثلج والريح أن يظلا ساكنين لا يقومان بأية حركة.

كان المطر ينتظر دوره بشوق. وما إن تلقى أمراً بالعمل حتى راح ينهمر بغزارة، فارتوت منه البساتين والحقول وتدفقت الينابيع والسواقي.

غير أن المطر لم يفض إلا على قسم من البلاد، لأن الريح كانت ساكنة فلم تحمل المطر بعيداً. وقال الناس في البلاد التي لم يهطل فوقها المطر:

- لقد تشققت أرضنا ويبست مزروعاتنا وغاضت ينابيعنا فمتى تمر الغيوم فوقنا ويهطل المطر؟

خجل المطر وهو الذي كان يعتقد أنَّ الفضل يعود إليه وحده في الخير الذي يعم البلاد. حتى أن الشتاء قال له بصراحة:

- أيها المطر لولا الريح ما استطعت أن تروي إلا الأراضي القريبة. أما الريح بدون أمطار فأشبه بطبل أجوف.

فتساءل كل من المطر والريح:

- وماذا بشأن الثلج؟

فقال الشتاء:

- الثلج يكمل عملكما والسنة التي يكثر فيها الثلج تكثر فيها الغلال.

تقدم كل من المطر والثلج والريح من جدهم الشتاء فقبلّوا لحيته البيضاء لحكمته العظيمة. ثم سافر الجميع وهم ينشدون أغاني الحب والتعاون والوئام.

* * *

# في الحديقـة

قالت الوردة للياسمينة:

- أنت لا شوك لك.

فأجابت الياسمينة:

- نعم لا شوك لي. ولكن ما حاجتي إلى الشوك؟

فقالت الوردة:

- كي يحميك.

فقالت الياسمينة:

- لست بحاجة إلى حماية لأنني لا أعداء لي. ومع ذلك فأنا لي ساق طويلة أتسلق بها على الأسيجة فلا أحتاج إلى شوك.

لم يرض هذا الكلام الوردة فقالت:

- أنت تافهة أيتها الياسمينة ولا شأن لك

فقالت الياسمينة بتواضع:

- لماذا أنا تافهة أيتها الوردة؟

فأجابت الوردة:

- لأنك لا تُزرعين إلا في الأطراف من الحدائق. أما أنا فمكاني في وسط الحدائق وفي الصدارة منها.

فما كان من الياسمينة إلا أن ابتسمت وأدارت ظهرها للوردة ثم أطلّت على الشارع تتسلى بمشاهدة المارة.

غضبت الوردة من تصرف الياسمينة فقالت لزهرة فم السمكة:

- انظري إلى الياسمينة كم هي مبتذلة. إنها تتلصص على المارّة طوال الوقت.

كانت زهرة فم السمكة تعيش بجوار الوردة.

وكانت تخاف من شوكها الذي لا تملك سلاحاً مثله.

لذلك قالت زهرة فم السمكة:

- حقاً هي مبتذلة.

وتابعت الوردة استغابتها لجارتها الياسمينة:

- إنها رخيصة تماماً.

فجارتها زهرة فم السمكة في استغابتها تملّقاً:

- نعم رخيصة تماماً. فأين هي من رزانة الورد وترفُّعه.

قالت الوردة:

- الياسمين لا يملك شيئاً من عزّة النفس.

فتساءلت زهرة فم السمكة:

- وكيف ذلك؟

فقالت الوردة:

هي تتظاهر بالكبرياء فقط. ولكنها في الحقيقة تبذل نفسها للرائح والغادي حتى تفرش بساطاً من أزهارها تحت الأقدام.

فقالت زهرة فم السمكة المتملّقة:

- نعم الياسمين زهر رخيص يترامى على الآخرين.

ما أحلى الترفَع.

فقالت الوردة:

- إن تراميها المخجل يلحق المهانة بنا نحن الأزاهير.

فيا للعار.

قالت زهرة فم السمكة:

- لو كان لي مثل قدرتها على الارتفاع فوق الأسيجة ومثل رائحتها الفوّاحة لجعلتُ نفسي أكثر تعزُّزاً ولحجبت أزهاري عن الغير.

فقالت الوردة:

- حقّاً الياسمين ليس أهلاً للعيش في الأمكنة المرتفعة.

انزعج السرو من تآمر الورد وزهر فم السمكة على الياسمين فقال وقد ضاق صدره بما سمع ولم يستطع عنه سكوتاً:

- كفى غيبة أيها الأصدقاء. الياسمين زهرٌ متواضع كريم. يبذل أزهاره دون ضوضاء ويعطي بصمت. إنه ينزل إلى الناس إذا لم يستطيعوا أن يرتفعوا إليه. فليت كل الأزهار في مثل سخائه وتواضعه.

فوجئ الورد وزهر فم السمكة بكلام السرو وافتضاح أمرهما أمامه. فأحمرّ بعض الورد من الخجل وبعضه اصفّر من الخوف ووقع المفاجأة.

أمّا زهر فم السمكة فأراد أن يتكلم. لكن الكلمات جمدت في حلقه. ولم يجد إلى اليوم ما يدافع به عن نفسه أمام شجرة السرو التي نطقت بالصّدق، فظلّ فمه مفتوحاً وعجز عن قول أي شيء.

* * *

## الباشق والعصفور

أطلق الصياد باشقه ليصطاد عصفوراً فطار الباشق بأقصى سرعته حتى لحق بالعصفور.

قال الباشق:

- لماذا تطير من هنا أيها العصفور؟

قال العصفور:

- ومن أين أطير إذن؟ طريقي من هنا.

قال الباشق:

- تعال معي.

قال العصفور:

- لا أستطيع لأني على موعد.

قال الباشق:

يا للعجب! وما هو هذا الموعد؟

أجاب العصفور:

- أنا على موعد مع البحر. سأتوقف قليلاً عند شجرة تين.. لي عتاب معها. وبعد ذلك سأمضي إلى البحر.

قال الباشق:

- تعال معي، أنت اعتديت على فضائي.

ردَّ العصفور:

- لن أذهب معك. أنا لم أعتدِ على أحد.

قال الباشق مهدداً:

- من الأفضل لك أن تأتي معي.

فتساءل العصفور:

- ولكن إلى أين؟

قال الباشُق:

- ذلك يتوقف على سلوكك. إذا رافقتني بدون مقاومة مضيت بك إلى قفص جميل.

فارتعد العصفور من سماع كلمة «قفص». قال:

- لن أرافقك. القفص سجن. أنا صديق الحقول والمراعي.

فرفع الباشقُ مخلبه وضرب وجه العصفور فأسال دمه.

قال الباشقُ مرة أخرى:

- حسناً والآن تعال معي إلى القفص.

قال العصفور بشجاعة:

- لن أذهب معك. الموت أفضل من العيش وراء قضبان القفص. أنا أغني للمروج والتلال.

وضرب الباشقُ بمخلبه وجه العصفور من جديد، ثم قال وقد اعتقد أن العصفور خاف منه، وأنه سيطيع أوامره:

- تعال معي أو أضربك حتى تموت.

فقال العصفور:

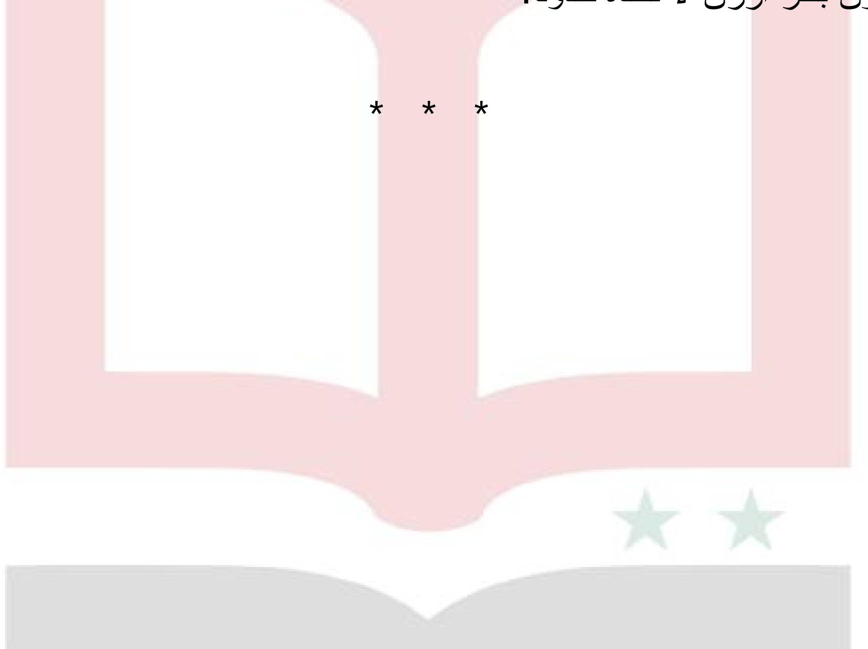
- أيها الباشق. أنت طائر ظالم. قد تستطيع أن تضربني حتى تنزف كل دمائي ولكنك لا تستطيع أن تجبرني على العيش كما تريد. أنا أحب الطيران في السماء والتحليق فوق البحر.

قال الباشقُ بغضب:

- يا لك من عصفور عنيد!

ورفع مخلبه وضرب العصفور الشجاع مراتٍ ومراتْ، لكنّ العصفور لم يخضع له لأنه كان يحب الحرية، ولأنه كان في تلك اللحظة يطير بخياله فوق بحر أزرق لا تحدّه حدود.

* * *



# النجـوم

## مكافـأة

قال الولد الصغير لأمه عندما رأى أول نجمة تزهر في السماء:

- أعطني النجمة التي وعدتني بها.

فقالت له الأم:

- خذها فهي لك.

وبعد قليل أزهرت نجمة ثانية فقال الولد الصغير لأمه:

- أعطني النجمة التي وعدتني بها.

فقالت له أمه:

- خذ هذه أيضاً فهي لك.

وحينما تفتحت نجمة ثالثة قال الولد الصغير لأمه:

- أعطني النجمة التي وعدتني بها.

فأعطته أمه النجمة الثالثة التي طلبها. وكرّر الولد طلبه مرة بعد مرة حتى حصل على عدد من النجوم.

وكانت أمه قد وعدته منذ النهار أن تعطيه نجمة عن كل عمل طيب يعمله. وعندما أحصى نجومه وجدها اثنتي عشرة نجمة. واحدة لكل من طاعة الوالدين والحب والشجاعة والعطف على الحيوان والصدق والنظافة والحساب والقراءة والتربية والتاريخ وحفظ الأناشيد.

## الحارس

سألت الفتاة الصغيرة أمها:

- ما هذه الأشياء التي تلمع في السماء؟

فقالت الأم:

- نجوم

فسألت الفتاة:

- ما هي النجوم؟

فقالت الأم:

- النجوم زهور السماء.

فسألت الفتاة:

- وهل لزهور السماء رائحة طيبة مثل الفل؟

فقالت الأم:

- كـــلا.

سألت الفتاة الصغيرة:

- ما فائدتها إذن؟ لماذا خُلقت؟

فقالت الأم:

- خُلقت لتؤنس وحدة الساهرين فتجعل حياتهم أمتع.

فسألت الفتاة ببراءة:

- أتراها خُلقت لتجعل حياة الحارس الذي يقطع الشارع طوال الليل جيئة وذهاباً أمام بيتنا أمتع أيضاً؟

## مســـافر

وقفت أم وابنتها بعد مغيب الشمس وحيدتين على باب بيتهما. فسألت الفتاة أمها بحزن:

- أين أبي؟

فأجابت الأم:

- مسافر.

فسألت الفتاة:

- ألا يضيع في الظلام؟

فقالت الأم:

- كلا. لأن لكل مسافر نجمه الذي ينير له دربه.

وأشارت الأم إلى أول نجم تلألأ في السماء. وقالت لابنتها:

- هو ذا نجم أبيك.

بعد قليل لمع نجم ثان. فقالت الفتاة مشيرة بإصبعها:

- آه هذا أب آخر مسافر.

وظلّت الفتاة ترقب بزوغ النجوم واحداً بعد آخر. وحينما صار عددها أكثر مما في مقدورها أن تحصيه، همست الفتاة الصغيرة بأسى:

- يا إلهي ما أكثر الآباء المسافرين تحت النجوم في هذه الليلة.

* * *

# الأسماك الشقية

كانت سمكة كبيرة تسبح ذات صباح مع فراخها المولودة حديثاً بالقرب من شاطئ صخري. وكانت السمكة الأم تنتقل بصغارها من مكان إلى مكان لكي تريها عالمها الجديد.

أما الأسماك الصغيرة فكانت مشدوهة بما تراه عيونها وكانت لاتفتأ تردد:

- آه! وما هذا أيضاً يا أماه؟

فتسارع الأم لتخبر صغارها عن الشيء الذي سألت عنه وتصف لها أيضاً طباعه. فيردد الصغار معاً:

- أوه! هكذا إذن؟ يا للعجب.

كان الصباح رائعاً في الأعماق. فالنباتات البحرية تكسو القاع بحلة خضراء. والسكون سلطان يهيمن على المكان ويلفّه بردائه. والنور يمرق من خلال المياه أعمدةً أعمدةْ، ويبذل جهده لتبديد الظلمة.

كان هناك أخطبوط استيقظ لتوه من النوم فراح يتثاءب، ثم أخذ بعد ذلك يمارس رياضة الصباح. وكانت سلحفاة تتحرك ببطء ملوكي. وفتحت محارة فكيها وهتفت:

- آه ما أحلى هذا الصباح.

فلمعت لؤلؤتها الوحيدة في شدقيها. وناسَ قنديل البحر فيما بين سطح الماء والقاع.

قالت سمكة صغيرة لأمها:

- هذا عالم رائع الجمال. ولكن ماذا يوجد بعد المياه؟

أجابت الأم:

- لا أدري ماذا يوجد بعد المياه. ولكن حدث لجدتك يوماً أن حملتها الأمواج إلى شاطئ رملي وكادت تموت هناك لولا أن أعادتها موجة أخرى إلى البحر. لم تبق هناك سوى بعض الوقت ومع ذلك فقد كادت تموت تماماً. لم تجد وهي تنط في الهواء بحثاً عن الماء سوى الأرض فعجبت كيف يمكن أن تحيا كائنات، مثل الإنسان هناك، بدون ماء.

وتساءلت سمكة صغيرة أخرى:

- ومن يكون هذا الإنسان؟

فقالت السمكة الكبيرة:

- إنه محتال تماماً لا يني يخدعنا بشتى الوسائل لكي يصيدنا. فمرة بالشباك وأقفاص الصيد. ومرة بالسموم وأخرى بتفجير الديناميت وأحياناً بالصنانير.

فقالت الأسماك مطمئنة:

- لن نعلق بالشباك ولا بالأقفاص ولا بالصنانير.

وبعد قليل قالت الأسماك الصغيرة:

- نحن جياع يا أماه.

فقالت الأم:

- انتظري أيتها الأسماك العزيزة حتى أبحث لك عن مرعى. ولكن احذري الأسماك الكبيرة وقروش البحر كيلا تبتلعك. احذري المدّ والتيارات كيلا تحملك إلى الشاطئ حيث المياه ضحلة هناك.

فقالت الأسماك:

- سمعاً وطاعة يا أماه.

حين مضت الأم للبحث عن مرعى، هبطت الأسماك الصغيرة إلى القاع، وراحت تلعب الاستغماية بين النباتات البحرية حيناً، وترقص في أصداف تشبه الأطباق الفضية حيناً آخر. لكن الأسماك ما لبثت أن سئمت

اللعب في الأعماق، فقررت الصعود إلى سطح البحر لتكتشف ماذا يوجد وراء المياه.

كانت تعلم أنها تخالف وصية أمها لكنها عللت النفس بأنها سرعان ما ستهبط إلى الأعماق بعد أن تلقي نظرة على اليابسة من فوق سطح الماء. وقالت:

- ما هي إلا نظرة خاطفة وبعد ذلك نعود عاجلاً إلى القاع ولن تعلم أمنا بما حدث.

وصعدت الأسماك إلى سطح البحر وأطلت برؤوسها ولكنها كانت صغيرة فلم تر شيئاً. وحاولت مرات أن تنطّ في الهواء فوق سطح الماء كما تفعل الأسماك الكبيرة أحياناً. لكنها كانت ضعيفة فلم تقو على ذلك. ونال منها التعب بعد أن بذلت جهداً في محاولاتها فلم تستطع أن تقاوم التيار، فحملها معه إلى الشاطئ.

وجدت الأسماك نفسها على الشاطئ في بركة صغيرة ضحلة المياه. كان في انتظارها صبيّان، كل صبي يملك قارورة بيضاء وضعها على الصخر ليُسقط فيها السمك الصغير الذي يقبض عليه.

ما كادت الأسماك التي حملها التيار منذ قليل ترى ذلك، حتى خافت تماماً وامتلأت قلوبها الصغيرة رعباً من المصير الذي ينتظرها.

لقد رأت بعيونها المدوّرة كيف كانت الأسماك السجينة تناضل للخروج من الوعاء الزجاجي.

ولاحقها الصبيّان ببراعة وسدّا عليها السبل، وقبض أحدهما على سمكة وأسقطها في قارورته. وهتفت سمكة:

- هذه واحدة منا قد علقت في يد الصياد ورحلت عنا إلى الأبد.

وأحست الأسماك الصغيرة بالندم وقالت:

- يا ليتنا عملنا بنصيحة أمنا. لقد تركنا المحيط بأعماقه وأصدافه ولآلئه وقناديله الملونة لنُحبس في قارورة من الزجاج.

هتفت واحدة:

- هناك كنا نلعب الاستغماية.

وقالت أخرى:

- ونرقص على خشخشة الأصداف.

وقالت ثالثة:

- وتضحك المحارات لنا فتلمع لآلئها.

وقالت سمكة حكيمة:

- هيا نبحث عن مخرج بدلاً من هذا العويل قبل أن يفوت الأوان.

وفتحت خياشيمها فشمت رائحة المحيط الطرية المنعشة فقالت لأخواتها:

- من هنا يمد البحر لسانه فيلعق الصخر ويدخل إلى البركة ومن هنا تعود المياه إلى البحر ثانية.

واستجمعت السمكة الحكيمة قوتها وقفزت من فوق حافة البركة وعادت إلى المحيط. ولم تلبث أن قفزت وراءها كل السمكات الشاطرات.

* * *

# البستان والرمانة الهرمة

بينما كان البستاني يتفقد الأشجار في بستانه، وقف أمام شجرة رمان وقال لها:

- أيتها الشجرة! لقد كانت براعمك وأوراقك الخضراء قليلة هذا العام، بل هي أقل من العام الماضي والعام الذي قبله.

فقالت له شجرة الرمان:

- نعم إنها كانت كذلك.

وقال البستاني:

- ومثلها أيضاً كانت أزهارك الحمراء التي تشبه جمرات من النار.

فأجابت شجرة الرمان:

- فعلاً... هذا ما حصل.

- أما ثمارك فقد كانت أقل كثيراً من أزهارك.

فقالت له الشجرة:

- صحيح. لقد تساقط الكثير من أزهاري ولم تعقد ثماراً.

وقال البستاني:

- وحتى ظلّك انكمش وقد كان في الماضي يشغل رقعة واسعة تنعم فيها زوجي وأولادي.

فقالت الشجرة:

- حقاً أيها البستاني انكمش ظلي وتناقصت أزاهيري الحمراء وثماري وقلّت براعمي وأوراقي الخضراء، ولكن ليس لي حيلة في كل ذلك.

فتساءل البستاني:

- لماذا أيتها الشجرة؟

- بسبب الشيخوخة يا عزيزي. فقد هرمت وتقدّمت في السن حتى لم يعد ماء الحياة يجري جيداً في عروقي.

فقال البستاني لنفسه:

- يا للشجرة المسكينة.

وسادت فترة صمت بعض الوقت، لم تلبث أن قطعتها شجرة الرمان بقولها:

- أيها البستاني هل تسدي إليَّ معروفاً؟

فقال البستاني على عجل:

- أية خدمة أستطيع أن أقدمها لك أيتها الشجرة العزيزة؟

فقالت الشجرة:

- أحقاً تفعل ما أطلب إليك؟

أجاب البستاني:

- نعم أفعل، أنا في خدمتك.

فقالت الشجرة:

- إذن خذ فأسك واقطع جذعي وأغصاني.

فقال البستاني مستنكراً:

- كيف أفعل وقد ربيتك غرسة ورعيتك حتى صرت شجرة كاملة؟

فقالت الشجرة:

- أيها البستاني لقد هرمت ولم يعد في مقدوري أن أقاوم الصقيع والبرد والسوس. فهيّا خُذ فأسك واقطعني فتقدم لي معروفاً أكافئك عليه.

فقال البستاني:

- وأي صنيع هذا الذي أؤديه لك بقطع جذعك. أما أفضالك فقد غمرتني حتى لم أعد أريد منك أية مكافأة.

فقالت له الشجرة:

- إنك عندما تقطع جذعي وأغصاني تساعدني على البقاء والاستمرار في الحياة.

فتساءل البستاني:

- وكيف أساعدك على البقاء إذا ما قطعت جذعك وأغصانك.

فقالت له الشجرة:

- إن جذعي وأغصاني تكاد تكون متيبسة كما ترى. أما جذوري فهي حية ضاربة في الأرض وهي تستطيع أن تُفرّع[1] من جديد.

وصمتت الشجرة لحظة ثم تابعت قائلة:

- وإذا بحثت الآن بين الأعشاب التي تنمو حوالي استطعت أن تميز فرعاً جديداً. هذا الفرع إذا تعهدته بعنايتك كما تعهدتني، ورعيته مثلما رعيتني، صار شجرة وارفة[2] تعطيك من ثمارها الشيء الكثير. والآن هيّا تناول فأسك واهوِ بها على جذعي بلا شفقة.

ولكنّ الفلاح لم يتناول الفأس كما طُلب إليه أن يفعل ولاحظت شجرة الرمان تردده فقالت:

- لا تتردد إن الحياة للأقوى وفروعي الآن أقوى مني والحياة ممتدة أمامها.

حينئذ لم يجد البستاني أمام إلحاح الشجرة الهرمة مفراً من أن يحمل الفأس ويهوي بها على جذعها الذي لعب به السوس وما كادت الشجرة تسقط على الأرض حتى سارع إلى البحث بين الأعشاب التي كانت تحيط بالشجرة. ولشد ما كان سروره عظيماً عندما وجد أربعة أو خمسة فروع من الرمان فتية منتصبة تشمخ برأسها.

* * *

---

(١) تُفرّع: تنبت أغصاناً جديدة.

(٢) وارفة: مديدة الظل، كثيرة الأوراق.

# دعابة ثقيلة

جلس ولد يأكل قطعة من الحلوى. وعندما انتهى من التهامها رأى نملة تحاول سحب نثارة سقطت من قطعة الحلوى بحجم حبة الحمص غير أنها عجزت عن جرها. حينئذ قطعت مسافة صغيرة فرأت عدداً من النملات فاستوقفتها وحدثتها بما رأت. اقتربت من كل نملة ووشوشت في أذنها تصف لها الكنز الذي صادفته في طريقها.

غيّرت النملات اتجاهها وتبعت النملة التي عثرت على نثارة الحلوى. كان الولد يراقب المشهد. وكان من النوع الذي يحب المزاح فخطر له أن يداعب النملات فما كان منه إلا أن حمل نثارة الحلوى وأخفاها.

وصلت النملة القائدة ومن ورائها بقية النملات لكنها لم تجد شيئاً. عادت النملات إلى استئناف سيرها السابق وتركت القائدة التي فتحت فمها دهشة واستغراباً.

قالت النملة:

- تركتها هنا. فيا للعجب أين اختفت؟

وسرعان ما أعاد الولد القطعة الصغيرة فعثرت عليها النملة الحائرة.

قالت النملة:

- وافرحتاه ها هي. إذن أنا لست واهمة.

وجرت نحو النملات فقالت لها:

- لعلي قدتك في الطريق الخاطئة. القطعة لا تزال هناك.

وتبعت النملات القائدة مرة ثانية في الطريق التي أخذتها فيها.

واستمر الولد في لعبته فأخفى من جديد فتات الحلوى حتى إذا ما وصلت النملات لم يجدن شيئاً. رجعت النملات في الطريق التي جاءت منها. في حين راحت النملة المكتشفة تقول:

- غير ممكن. فأنا رأيتها بعيني وتذوقتها بفمي. حلوى فيها سكر وسمن وجوز.

وتحركت شرقاً وغرباً وشمالاً وجنوباً. تحركت في كل اتجاه. لم تعد تدري أين ينبغي عليها أن تبحث عن الكنز الضائع منها. وكم أُحرجت أمام النملات الأخريات.

ابتسم الولد العابث ثم وضع فُتَات الحلوى في طريق النملة الباحثة وحين شاهدتها كادت أن تطير من الفرح. قالت:

- يجب أن ألحق بالنملات وأخبرها بعثوري على الحلوى. لعلها ظنت أني أكذب عليها.

وأسرعت تجري وراء النملات حتى أدركتها فقالت:

- أنا متأسفة أيتها الصديقات. ولا شك أني أخطأت الطريق في المرة الثانية كما أخطأته في المرة الأولى. أما الآن فلا مجال لخطأ في الطريق التي سأقودك فيها. فهيّا معي. الحلوى اللذيذة هناك. وإذا شككت في صدقي فها هو ذا فمي وعليه آثار السكر والسمن والجوز.

واقتربت النملات فتحسست آثار الحلوى على فم النملة. حين تذوقت النملات الطعم الحلو على فم صديقتها قالت:

- لعلك تقولين الصدق.

ووافقت على العودة للمساعدة في حمل قطعة الحلوى إلى صيوان المؤن.

لكنها ما كادت أن تصل إلى البقعة التي أرشدتها إليها النملة القائدة حتى خاب أملها، إذ لم تجد فيها أي أثر لقطعة الحلوى. ولم يعد لديها مجال للشك بأن رفيقتها تسخر منها.

وسرعان ما استبد الغضب بالنملات فهاجمت النملة الحائرة وراحت تلسعها لسعاً موجعاً فما كان من الولد إلا أن أسرع بوضع فتات الحلوى بقرب النملات. رأت النملات فتات الحلوى فتوقفت عن لسع رفيقتها واعتذرت لها.

غير أن الولد شعر بالندم من دعابته الثقيلة التي سببت الأذى للنملة المسكينة وكادت أن تودي بحياتها.

* * *

# الدبور والزهرة

وقف دبور يزهو بطنين جناحيه فوق زهرة. فقالت له الزهرة:

- ماذا تفعل هنا؟

فقال:

- جئت أبحث عن الرحيق الطيب. إنني جائع.

فقالت له الزهرة:

- وهل تريد الرحيق بلا مقابل.

فقال لها الدبور:

- ماذا تريدين مقابل رحيقك؟

فقالت الزهرة:

- إما أن تنشدني أغنية أو تقدم لي بعض العسل.

وكان الدبور غبياً لا يعرف الغناء، كما كان لا يجيد صنع العسل. فانصرف خائباً.

* * *

# أحـرار

اجتمع عدد من الرجال في بلد احتله الأعداء.

فقال الرجل الأول:

- لقد ذهبت إلى الحقل لأجمع غلالي فطردني المحتلون.

وقال الثاني:

- أما أنا فذهبت إلى بستاني لأقطف الثمار والفواكه فمنعني المحتلون.

وقال الثالث:

- بالأمس رحلت إلى النهر لأصطاد فأبعدني المحتلون.

وقال الرابع:

- لي أقارب يقيمون في مدينة أخرى فعزمت على الذهاب إليهم فلم يسمح لي المحتلون.

وقال الخامس:

- لقد وقفت في الساحات العامة وقلت: أنا إنسان حر.. أنا إنسان حر. فسخر الحقل والبستان والنهر. عندئذ شعرت بالخجل وعرفت أنني لست إنساناً حراً لأن الأعداء في بلادي.

وقال صاحب الحقل:

- كيف أسترجع حقلي؟

وقال صاحب البستان:

- كيف أسترجع بستاني؟

وقال الصياد:

- كيف أصطاد بحرية على شاطئ النهر؟

وقال الرجل الذي له أقارب في مدينة أخرى:

- كيف أزور أقاربي الذين اشتقت إليهم؟

وقال الرجل الذي يحب الحرية:

- كيف أقول في الساحات العامة وفي كل مكان: أنا إنسان حر.. أنا إنسان حر. دون أن يسخر مني الحقل والبستان والنهر؟

فردّ الحقل والبستان والنهر والساحات العامة والأقارب الذين يعيشون في المدن الأخرى، رد كل هؤلاء وقالوا للرجال بنفس واحد:

- اطردوا الأعداء في كل مكان وأجلوهم عن البلاد.

فجمع الرجال أنفسهم، ورتبوا صفوفهم، وسحبوا السيوف من أغمادها ثم ركبوا خيولهم السريعة وهجموا على الأعداء.

وكان الأعداء يتوهمون أن هذه البلاد التي احتلوها قد أصبحت ملكهم إلى الأبد لاعتقادهم أن الرجال لا يقاتلون لأنهم يخافون من الموت.

لكنهم فوجئوا عندما رأوا أصحاب البلاد يهجمون عليهم، ودبَّ الرعب في قلوبهم وعمّت الفوضى صفوفهم فأخذ الرجال المهاجمون يُعملون فيهم سيوفهم حتى أبادوا منهم عدداً كبيراً، وهرب الباقون أمام استبسال الرجال الشجعان الذين يحبون الحرية.

بعد انتهاء المعركة عاد صاحب الحقل إلى حقله فجمع غلاله، والبستاني إلى بستانه فقطف الثمار والفواكه. وحمل الصياد شبكته ومضى إلى النهر. وسافر المشتاق إلى أقربائه. ووقف الرجل الذي يحب الحرية وقال في الساحات العامة:

- أنا إنسان حر.. أنا إنسان حر. فصفق الحقل والبستان والنهر وكل شيء في البلاد وقال:

- حقاً.. حقاً حقاً.

* * *

# من أجل الشوكولا

طلب ولد صغير من أبيه فرنكاً فأعطاه أبوه ما طلب. حمل الفرنك ثم مضى إلى البائع واشترى قطعة شوكولا فأكلها بِنَهمٍ. ولكنه شعر برغبةٍ ملحة إلى قطعة أخرى، فعاد وطلب من أبيه فرنكاً آخر. لكن أباه نَهَرَه ولمٍ يعطه شيئاً، فبكى الولد الصغير وتمنى في تلك اللحظة أن يموت أبوه الذي لا يعطيه فرنكات كثيرة وبائع الشوكولا وكل من في المدينة.

وفي المساء مات أبوه وبائع الشوكولا وكل من في المدينة ففرح الولد الصغير وقال:

- الآن أستطيع أن أفعل ما أريد.

ومضى إلى محل بائع الحلوى فوجد مخزنه مفتوحاً فدخل إلى المخزن. هناك كل شيء في مكانه كما كان يراه دائماً لماعاً، أنيقاً وشهياً.

أخذ أول ما أخذ قطعة شوكولا من الصنف الذي اعتاد أن يشتريه فأكلها بسرعة ثم لعق شفتيه وقال:

- لأجرب صنفاً آخر.

وتناول قطعة كبيرة مغلّفة بورق أحمر لماع. لوح من الشوكولا بكامله بحجم اللوح الحجري الذي كان يكتب عليه في العام الماضي وأسمك منه أيضاً وأثقل.

مزّق الورق الذي يغلّف الشوكولا. ثم جلس على كرسي وشرع يلتهم الحلوى بهدوء. كانت المروحة تدور في السقف كعادتها وكان الجو منعشاً رطباً.

نام قليلاً على كرسيه وعندما استيقظ أكل من جديد بعض الشوكولا، من أصناف لم يتذوق طعمها من قبل. ثم حشا جيوبه بالشوكولا وترك المخزن. قال:

- أنا رئيس المدينة فماذا أفعل الآن؟

وأكل قطعة شوكولا أخرى. قال:

- لماذا لا أمضي إلى البحر؟ أنا أحب البحر كثيراً ووالدي كان يمنعني دائماً من الذهاب إلى البحر بمفردي.

ثم اتجه إلى البحر. في طريقه شاهد حانوت أبي محمد مفتوح الأبواب وأطباق الفواكه في الخارج أكل أجاصتين وحمل بكل يد تفاحة. قال:

- ليس في المدينة غيري وأستطيع العودة إلى محل الفواكه وآخذ الكثير منها متى أريد.

تابع طريقه إلى البحر. كانت الشمس في السماء، وكانت الأرض حارّة جداً فقال:

- الأرض مثل النار. وأنا حاف فليتني انتعلت حذائي.

وتذكّر أن حذاءه قديم مهترئ فتابع:

- غير مهم. فأنا رئيس المدينة وأستطيع الحصول على حذاء جديد متى أريد.

عندما وصل إلى الشاطئ خلع ثيابه ونزل في الماء. هناك سبح بعض الوقت وفعل كل ما يحلو له: زعق بأعلى صوته، ضرب الماء بيديه وقدميه ورشق حفنات منه في الهواء. قال:

- ليت أبي كان معي.

غير أنه سرعان ما استدرك قائلاً:

- ولكن ليس في المدينة غيري. الجميع ماتوا. أبي وبائع الشوكولا والآخرون.

وشعر بالوحشة فبكى.

سمعته سمكة فسألته:

- لماذا تبكي أيها الصغير؟

فقال:

- لقد مات أبي وبائع الشوكولا وكل من في المدينة.

فسألته السمكة:

- ولماذا مات هؤلاء؟

فأجابها:

- ماتوا لأنني تمنيت لهم الموت.

فقالت له السمكة باستغراب:

- أيها الصغير ألا تحب أباك؟

فقال لها:

- بلى أحبه.

قالت له:

- ما دمت تحبه فلماذا تمنيت له الموت؟

قال لها:

- لم يعطني فرنكاً لأشتري قطعة شوكولا.

فقالت له:

- طيب! وبائع الحلوى والآخرون. لماذا تمنيت لهم الموت أيضاً؟

فأجاب:

- كي أحصل على الشوكولا وأفعل ما أريد.

قالت السمكة:

- هل أنت مسرور بعد أن حصلت على الشوكولا وفعلت كل ما تريد؟

فقال:

- كلا.

قالت السمكة:

- أنت ولد شرير.

فبكى الولد الصغير ثانية. فرح فرحاً شديداً عندما أفاق من نومه ووجد أباه بقربه يبتسم له. عندئذ نهض وتعلّق بعنقه وقبّله. سأل أباه:

- بابا هل مات بائع الشوكولا؟

فقال له:

- كلا لم يمت.

وسأل أباه ثانية:

- وهل مات الناس في المدينة؟

فقال له أبوه بدهشة:

- كلا لم يمت أحد في المدينة.

فتعلّق بعنق أبيه بحرارة أكثر وقبلّه مرة أخرى.

* * *

# الأرنب الشجاع

اشترى رجل أرنب وأرنبة. وحينما حملهما إلى البيت تساءل عن المكان الذي يمكن أن يضعهما فيه. قال:

- إذا وضعتهما في الحديقة يمكن أن يخربا الأرض ويأتيا على الأزهار والنباتات.

وما لبث أن صعد بهما إلى سطح الدار لأنه وجده أفضل مكان يتركهما فيه. وهنا أفرخت الأرنبة، بعد مدة ثلاثة فراخ، تشبه ثلاث كتل من اللحم وردية اللون. أخذت الأرانب الصغيرة تتغذى من أثداء أمها. أما الأب والأم فقد راحا يطعمان من الأشياء التي كان يحملها إليهما الرجل من حين لحين من خس وملفوف وجزر وغير ذلك.

ولكن الرجل كثيراً ما كان ينسى أن يحمل الطعام إلى الأرانب على السطح بسبب مشاغله، مما جعل الأرانب المسكينة تشعر بالجوع خاصة وأن الفراخ نمت قليلاً وصارت تقضم الطعام بأسنانها الصغيرة. فما إن تنتهي الحيوانات الخمسة من التهام الطعام الطري منه والبائت حتى يبدأ الأب والأم بقرض خشب القن الذي تأوي إليه الحيوانات. أما الفراخ الثلاثة فكانت أسنانها الطرية أصغر من أن تستطيع أكل شيء من الخشب. وسرعان ما عافت نفسها هذا النوع من الطعام. وفي يوم من الأيام التي اشتد فيها الجوع كثيراً على الأرانب قال أرنب شاطر لأخويه:

- ما العمل؟ إني أشعر بالجوع.

كان الرجل قد نسي أن يحمل الطعام في الصباح إلى السطح. فقال له أحد أخويه ساخراً وهو يهز شاربيه:

- اذهب واقضم الخشب كما يفعل والدانا.

فقال الأرنب الشاطر:

- أنا لا أحب الخشب.

فرد عليه أخوه:

- ما عليك إذن إلا أن تنتظر صاحبنا حتى يأتينا بالطعام في المساء.

فقال له:

- إنني جائع كثيراً ولا أستطيع الانتظار حتى المساء. فسأله أخوه:

- وماذا ستفعل إذن؟

فردَّ عليه الأرنب الشاطر:

- لست أدري ولكن لا بد أن أجد طريقة أملأ بها بطني بالطعام. وتحرك على الفور فأخذ يتفحص جدران السطح ويتشممها بمنخريه حتى عثر بعد ساعة من الزمن على الدرج فذهب إلى أبويه أولاً ثم إلى أخويه وأخبر الجميع باكتشافه وطلب إليهم مرافقته للبحث عن الطعام، لكن لم يوافقه أحد على طلبه. وقال له أبواه:

- إننا نتسلى بقضم الخشب كما ترى ولا نعرف ماذا يُخبأ لنا عند أسفل الدرج.

أما أخواه فقد قالا له:

- نحن نفضل البقاء على السطح والاسترخاء في الظل.

عندئذ قال الأرنب الشاطر بشجاعة:

- لا مناص إذن من هبوط الدرج بمفردي عساني أعثر على بعض الطعام وإذا صادفتني متاعب من نوع ما فسأتدبر أمرها وذلك على كل حال أفضل من قضم الخشب على السطح والاسترخاء في الظل بينما معدتي خاوية.

وبدأ بنزول الدرج. كان قلبه خائفاً قليلاً. فقد كان يقف على الدرجة طويلاً يتشممها بمنخريه الدقيقين وشاربيه قبل أن يتركها ليهبط إلى درجة

جديدة. وكان في كل لحظة منتبهاً تماماً وعلى أتم استعداد ليجري عائداً إلى أبويه وأخويه أمام الخطر الحقيقي. وقد ظل على هذه الحال من الحذر حتى هبط درجات السلم كلها، ثم اجتاز بالحذر نفسه الممر الصغير تحت درج السلم. وما كاد يفعل حتى وقف مدهوشاً، فماذا رأى؟!

كانت حديقة البيت أمامه خضراء يانعة فيها أشكال وألوان من النباتات والأزاهير. حسناً! هو لا شأن له بالأزهار. أما النباتات! وفتح منخريه على اتساعهما وتنشّق عبق الروائح الطيبة. هذا بقدونس وذاك فجل وآخر نعناع، وفي الممر على الجانبين وهنا وهناك الحشائش أصنافٌ وأصناف. وبدأ بتناول الطعام بلذة غامرة وتمنى أن يكون برفقته الآن بقية أفراد العائلة تشاركه هذه الوجبة الشهية. وفكر أن يحمل إليهم بعض الطعام عندما يعود إليهم. لكنه قال:

- لو كانوا شجعان حقاً وتركوا السطح، فنزلوا إلى الحديقة لتمتعوا بوجبة شهية لكنهم وا أسفاه آثروا البقاء هناك والاسترخاء في الظل على المخاطرة فتعيّن عليهم أن يظلّوا جياعاً. ثم تابع بهدوء وحذر قضم النباتات اللذيذة الخضراء.

* * *

# الغـابة

ذات مرة عندما غابت الشمس منذ زمان بعيد، وقف النمر والضبع والأسد والفيل والفهد والعصفور والأفعى والغزال وقالوا:

- أين نذهب؟ نحن خائفون من الليل.

فقالت لهم الغابة:

- تعالوا يا أبنائي.

وضمّتهم إلى صدرها.

* * *

# العقاب

اغتنم الغراب فرصة غياب القبرّة عن عشها فأكل فراخها الموجودة فيه. وحينما عادت القبرّة ووجدت عشها فارغاً غضبت كثيراً. وقالت:

- من أكل فراخي؟ الويل لمن فعل ذلك.

ثم ذهبت تتحرى عن الفاعل.

وكان يعيش في الجوار ثعلب وخلد وذئب ونقار خشب بالإضافة إلى الغراب. وكان الغراب قديماً أحمر المنقار أبيض الريش.

طارت القبرّة إلى الثعلب. سألته:

- هل أكلت فراخي؟

فقال الثعلب:

- أنت تعلمين أيتها القبّرة أنني لا أكل سوى الدجاج.

فتركته وطارت إلى الخلد. سألت الخلد:

- هل أكلت فراخي؟

قال الخلد:

- أنا لا آكل سوى جذور النباتات.

بعد ذلك طارت القبّرة إلى الذئب. سألته:

- هل أكلت فراخي؟

- أنا لا آكل سوى الخرفان.

أخيراً ذهبت القبرة إلى نقار الخشب. سألته.

- هل أكلت فراخي؟

قال نقار الخشب:

- معاذ الله. هل سمعت بنقار خشب يأكل فراخاً.

حينئذ لم يبق هناك سوى الغراب فطارت إليه القبّرة. سألته:

- هل أكلت فراخي؟

أنكر الغراب جريمته وادّعى أنه كان مسافراً في مكان بعيد. لكن القبّرة لاحظت آثار دماء على فم الغراب فسألته عنها. فاضطرب وتلعثم قائلاً:

- هذه ليست دماء. لقد أكلت بالأمس وجبة من العنب الأحمر فاصطبغ منها فمي.

قال له الثعلب:

- أيها الكاذب منذ زمان بعيد لم أسمع بوجود شجرة عنب في هذه المنطقة. ولو كان هناك شجرة لعشت على أكل العنب وأقلعت عن اقتناص الدجاج.

بعد أن انكشفت كذبة الغراب عقد الثعلب والخلد والقبّرة والذئب ونقار الخشب اجتماعاً وتباحثوا بشأن العقاب الذي ينبغي أن ينزلوه بالغراب جزاء فعلته.

قال الذئب:

- ينبغي أن تأكل القبرة فراخ الغراب.

قال الثعلب:

- الفراخ لا ذنب لها. العقاب يجب أن يصيب الغراب نفسه.

قال نقار الخشب:

- أستطيع أن أفقأ عينيه بمنقاري الحاد.

قال الثعلب:

- إنه عقاب جيد. سيصاب الغراب بالعمى. وسيضل طريقه ولن يستطيع بعد ذلك أن يجد طعامه. ولن يلبث طويلاً حتى يموت.

قال الخلد:

- نحن لا نريد له أن يموت من أجل فراخه. يجب أن ندعه يحيا كي يحمل الطعام لصغاره.

قال الثعلب:

- وماذا تقترح علينا إذن؟ كيف نعاقبه؟

قال الخلد.

- بأن نمتنع عن التحدث إليه ونزدريه.

وافق الجميع على فكرة الخلد. وتوقف الثعلب والذئب والخلد والقبّرة ونقار الخشب عن التحدث إلى الغراب. وكان حيثما مرّ سمع من يقول: «هذا هو الغراب الذي سرق فراخ القبّرة المسكينة وأكلها».

عندما رأى الغراب مقاطعة الجميع له تحاشى الظهور في النهار. وبعد مدة لم يطق البقاء في مكان لا يرغب فيه الآخرون. فترك البلاد تحت ستار الظلام وتوارى بعيداً عن الأنظار ليخفي وجهه الذي صار أسودَ كالليل.

* * *

# اليد أولاً

عندما مات الملك ترك سيفه الذي قتل به كثيراً من الأعداء، وكان لهذا السيف صيتٌ في كل البلاد. فقبضته من الذهب ونصله المرهف قد صنع من صاعقة سقطت على كوخ حطّاب.

وكان الملك ولداً يحب اللهو واللعب كثيراً، ولا يهتم بشؤون رعيته ويقضي أوقاته في أمور تافهة لا تليق بحاكم مسؤول عن رعيته.

وكانت والدته كلما قالت له: يجب أن تتدرب على القتال وحمل السيوف كان يرد عليها:

- ولماذا أتدرب على السيوف؟ إن سيف أبي الذي قبضته من ذهب ونصله من صاعقة كفيلٌ بدحر الأعداء وقطع رقابهم.

حينئذ كانت الأم تخلد إلى الصمت ولا تنبس ببنت شفة. حتى جاء يوم أغار فيه الأعداء على البلاد. وكان هؤلاء الأعداء يتحينون الفرص للثأر من الملك الذي هزمهم كثيراً. ذلك الملك الذي لم يستطيعوا أن يتغلبوا عليه وهو حي.

حمل ابن الملك سيف أبيه باحتفال مهيب، ثم سار على رأس جيشه لملاقاة أعدائه.

عندما التقى بأعداء بلاده نشبت بينه وبينهم معركة صغيرة، لكنه لم يستطع أن يصمد طويلاً أمامهم وسرعان ما انهزم.

ذُهل ابن الملك واستبدّ به العجب فقال لمن حوله وهو يرمي سيف أبيه على الأرض:

- أي سيف تافه هذا. إنه لا يستأهل الصيت الذي أُذيع عنه.

فقال له أحد قوّاده:

- بل إنه سيف عظيم جداً يا مولاي.

فقال ابن الملك:

- أين هذه العظمة التي تتحدث عنها. إنه سيف مثلوم الحدِّ لم يقطع رقاب أحد من الأعداء.

فأجاب القائد:

- السيف لا يقطع الرقاب يا مولاي.

فقال ابن الملك:

- عجباً ومن يقطع رقاب الأعداء إذا لم يكن السيف هو الذي يقطعها إذن؟!

فقال القائد:

- إن الذي يقطعها يا مولاي اليد التي تحمل السيف.

فقال ابن الملك:

- ماذا تقول أيها القائد؟

قال القائد:

- أقول يا مولاي إن الذي يقطع رقاب الأعداء هو اليد التي تحمل السيف. حسناً اترك السيف في غمده ألف سنة فإنه لا يتحرك ولا يقتل أحداً من الأعداء. أما اليد فتستطيع أن تقتل الأعداء بدون سيف.

فقال ابن الملك:

- وكيف تستطيع اليد أن تقتل الأعداء بدون سيف؟

فأجاب القائد:

- تستطيع أن تفعل ذلك بأية أداة قاطعة: بالمنجل.. بالفأس أو الرفش. المهم يا مولاي أن تكون اليد مصممة على قتل الأعداء.

فقال ابن الملك:

- ما تقوله أيها القائد غريب حقاً.

وقرر أن يبدأ صفحة جديدة. ثم ركب حصانه وانطلق يتدرب على السيف. بعد مدة من الزمن صار ابن الملك يُجيد استعمال السيوف وكل أدوات القتال.

قال:

- والآن يجب أن نقاتل الأعداء ونهزمهم.

ثم مضى بجنوده لقتال الأعداء الذين كانوا يغطوّن في نومهم عند الفجر. حينما استيقظ الأعداء سخروا من ابن الملك وجيشه لأنهم كانوا يعتقدون أن ابن الملك وجيشه لا يحبوّن القتال، ولا يجيدون استعمال السيوف.

قال ابن الملك:

- أيها الأعداء اتركوا أراضينا وعودوا إلى دياركم.

فضحك الأعداء من ابن الملك، وقالوا له:

- كلا لن نترك هذه الأراضي.

فقال ابن الملك:

- أيها الأعداء إذا لم تتركوا بلادنا وتعودوا إلى دياركم فسنذبحكم.

فقال الأعداء ساخرين:

- أنتم لا تستطيعون إخراجنا من بلادكم، لأن سيوفكم لا تقطع.

فقال ابن الملك:

- ليست السيوف هي التي تقطع.

فقال الأعداء:

- وما الذي يقطع إذن، إذا كانت السيوف ليست هي التي تقطع؟!

فقال ابن الملك:

- إن الذي يقطع حقاً هو اليد التي تحمل السيف. لقد غلبتمونا في المرة السابقة لأننا اعتمدنا على سيوفنا. أما الآن فنحن نعتمد على أيدينا.

ثم هجم ابن الملك وجيشه على الأعداء هجوماً صاعقاً وانتصروا عليهم. ولم يكن ابن الملك في هذه المرة يحمل سيفاً قبضته من ذهب، ونصله من صاعقة سقطت على كوخ حطّاب. وإنما كان يحمل بيده شيئاً آخر غير السيف. ربما كان فأساً. وربما كان منجل حصاد. وكذلك فعل بقية أفراد الجيش.



# الطائر الذي كان يتكلم

في قديم الزمان عاش ببغاء في قصر أحد الملوك. وكان الببغاء في تلك الأيام طائراً يتكلم. وذات يوم ظنَّ الملك أن في مقدوره أن ينطق كلاماً عن شيء ما فيصير حقاً كما قال. التفت الملك إلى من حوله.

وقال:

- الشمس اليوم ظهرت من الغرب. وغابت في الشرق.

فقال جلساء الملك:

- فعلاً ظهرت الشمس اليوم من الغرب. وغابت في الشرق.

أما الببغاء فقد ظل صامتاً.

- وقال الملك أيضاً:

- صار ماء البحر حلواً بعد أمطار الأمس الغزيرة.

فقال جلساء الملك:

- نعم نحن شربنا منه اليوم فكان أحلى من ماء الينابيع. أما الببغاء فقد ظل صامتاً.

وقال الملك:

- القسوة على الرعية تنشر الأمن والطمأنينة في البلاد.

ووافق جلساء الملك على ما قال. أما الببغاء فقد ظل صامتاً. لاحظ الملك صمت الببغاء فاستغرب سلوكه وسأله قائلاً:

- ما رأيك أيها الطائر؟

فقال الببغاء:

- يا مولاي الشمس تطلع من الشرق وتغيب في الغرب والأمطار لا تحلّي ماء البحر. أما القسوة والبطش فتولّد عند الناس الخنوع والخوف.

ثار جلساء الملك على الطائر الشجاع واحمرّت عيونهم بالغضب ووصفوه بالعقوق. وصاحوا:

- العقاب للطائر العاق. العقاب للطائر العاق.

وسرت حمى الغضب إلى الملك. فأمر رجاله على الفور بقطع لسان الطائر.

ومنذ ذلك اليوم عجز الببغاء عن الكلام الحر. ولم يعد قادراً إلا على نطق الكلمات القليلة التي توضع على لسانه.





# الفأر يخدع القط

كان يعيش في أحد البيوت قط وفأر. وكان هذا الفأر ذكياً فأراد التخلص من مطاردات القط المستمرة له. فاقترح على القط أن يوقفا الحرب بينهما ويتفاهما فقال القط:

- وكيف يتفاهم قط وفأر وهناك عداوة بينهما؟

ضحك الفأر وقال:

- إن هذه العداوة سببها الإنسان. يمكننا أن نتصالح أنا وأنت ويسود بيننا السلام.

قال القط:

- ولكن كيف يسود بيننا السلام وقد جلبني أهل البيت للقضاء على الفئران؟

حرك الفأر ذيله وقال:

- تستطيع أن توهمهم بأنك قضيت علي؟

فمسح القط وجهه وسأله باستغراب:

- وكيف نقدر أن نوهمهم؟

قهقه الفأر وأجاب:

- يمكنني أن أتوارى عن الأنظار وأوقف تنقلاتي في النهار فلا أبحث عن الطعام إلا بعد أن ينام أهل البيت.

قال القط:

- ولكنهم سيعلمون بعد ذلك لأنك ستثقب أكياس المؤن وتترك علامات تدل على وجودك.

فكر الفأر قليلاً ثم قال:

- حسناً. سأترك أكياس المؤن في سلام ولن أمس طعام أهل البيت. سأقتات من أشياء أخرى لا تخطر على بالهم.

تساءل القط:

- وإذا اكتشف أهل الدار اتفاقنا وعلموا به؟

أجاب الفأر:

- لن يعلموا.

وقال القط:

- ولكن ماذا سأفعل بعد أن نوقف الحرب بيننا. كيف سأقضي وقتي. كنت أتسلى بالحرب بيني وبينك. ولا شك أنني سأموت من الضجر بعد ذلك.

قال الفأر:

- بالعكس. بل ستجد أمامك متسعاً من الوقت للترويح عن نفسك، فأنت تقضي وقتك في التربص بالفئران في هذا البيت، لقد رأيت بالأمس قططاً تقوم بجولات هنا وهناك، فلماذا لا تفعل مثلها وتقوم بنزهات! ومن يدري فلعلك تجد رفيقة تموء وتنجب لك قطات صغيرات.

فوافق القط على فكرة الفأر وأعجبته كلماته وأوقفا الحرب بينهما وتصالحا، وفعلاً انقطع الفأر عن الظهور في جنبات البيت، وأقلع عن ثقب الأكياس وقضم الحبوب ونقر الخضر وتشويه الفواكه والثمار حتى ظنَّ أهل البيت أن القط قد قضى على الفأر وزادت مكانته عندهم.

أخذ القط بعد وقف الحرب بينه وبين الفأر ينام ملء عينيه ولا يصحو إلا عند الظهر، وأخلد إلى الراحة وحياة التبطل وصار يقوم بنزهات خارجية ولا يعود إلى البيت إلا في وقت متأخر ولم ينزعج أهل البيت من تغيب القط وإنما قالوا بفرح:

- يجب أن يتمتع قليلاً بعد أن قضى على الفأر الخبيث الذي أكل المؤونة وعاث في البيت فساداً.

وزادوا له وجبات الطعام مكافأة له وأكثروا له فيها من اللحم كما حملوه على الأكتاف تفاخراً به.

ولكن ذات يوم اكتشف أهل البيت في خزانة الكتب حبيبات سوداء استدلوا بها على وجود الفأر. فأدركوا أنه لم يمت وأن القط لم يقض عليه فغضبوا غضباً شديداً وقالوا:

- لقد خدعنا القط. ربما طعن في السن وصار عاجزاً. إنه لم يعد قادراً على اصطياد الفئران.

ثم حملوه ورموه بعيداً عن الدار. وعندما اطمأن الفأر إلى طرد القط وذهابه بعيداً عن البيت عاد إلى الظهور. ولم يكن هذه المرة يخاف عندما يتنقل في جنبات البيت. وإنما كان يمضي بهدوء نحو أكياس المؤن واثقاً من نفسه بعد أن خدع القط الغبي وأبعده عن البيت.

* * *

# الأفعى

خرجت الأفعى من جحرها ذات صباح. انسابت بين الحشائش حتى وصلت إلى مكان تكثر فيه الأشجار. أخذت تلهو بالصعود إلى الشجر أو النزول منه وأحياناً أخرى بالالتفاف حول سوقه.

وفي اللحظة التي وصلت فيها إلى الأرض زقزق عصفور على شجرة قريبة قالت الأفعى للعصفور:

- أيها العصفور هل لك أن تقترب مني فلي معك حديث؟

قال العصفور:

- ابقي حيث أنت. لا تقربي مني وقولي من بعيد ماذا تريدين؟

ورفرف العصفور بجناحيه يختبرهما كي يلوذ بالفرار لدى أول محاولة من الأفعى للاقتراب منه. كان العصفور يخاف من الأفعى، فقد شاهد ذات مرة كيف ابتلعت زميلاً له وغيّبته في أحشائها، ومنذ ذلك اليوم صار يكره الأفاعي ويرتجف قلبه الصغير من منظرها.

قالت الأفعى للعصفور:

- لماذا أنت محبوب وأنا مكروهة؟

فقال لها العصفور:

- لأني أغني للبشر والحيوانات وسائر المخلوقات أما أنت فتسببين لها الموت.

وصفّق العصفور بجناحيه وطار. كان يعلم أن الأفعى لا تعمل عملاً طيباً وليس بين أنيابها سوى السم القاتل.

قالت الأفعى بأسف:

- لقد خاف العصفور فطار. ما أجمل الحب.

اجتازت الأفعى بعد ذلك حقلاً للذرة فشاهدت على جانبه بقرة ترعى العشب.

قالت الأفعى للبقرة:

- أيتها البقرة هل لي أن أسألك شيئاً؟

فقالت البقرة مجفلة:

- ابقي بعيدة، ماذا تريدين؟

سألت الأفعى:

- لماذا أنت محبوبة وأنا مكروهة؟

قالت البقرة:

- لأني أنفع الناس. فأنا أفلح الأرض وأهيئها للزراعة ليعمَّ الخير وتكثر الغلال. إنني أعطيهم اللبن كما أترك لهم جلدي ولحمي بعد موتي. أما هم فيقدمون لي الغذاء والمأوى والرعاية. أما أنت فليس بين أنيابك سوى الموت.

سعت الأفعى حتى اقتربت من قرية. شاهدت من بعيد كلباً وحوله عدد من الأولاد. كان الأولاد يعاكسون الكلب، فتارة يجري وراءهم وتارة يجرون وراءه حتى أنهم أمسكوا أذنيه وشدّوا ذيله. كانوا يهارشونه ويهارشهم فيعض ثيابهم وأكمام قمصانهم ويجذب سراويلهم من الخلف. أما هم فلم يتوانوا عن احتضان رأسه وتقبيله.

انتظرت الأفعى حتى رحل الأولاد وبقي الكلب وحيداً.

قالت الأفعى للكلب:

- لماذا يقبل عليك الأولاد يداعبونك وتداعبهم، بينما هم يهربون مني خوفاً عندما يشاهدونني؟

فقال الكلب:

- لأنني أحبهم ويحبونني كما أنني أحرس البيوت من اللصوص.

قالت الأفعى:

- وماذا أفعل كي لا أكون مكروهة من العصافير والأطفال وسائر الناس والحيوانات؟

فقال الكلب:

- ألاّ تعملي عملاً ضارّاً على الأقل، وتستعدي لتحمل بعض الأذى أحياناً.

بعد رحيل الكلب قالت الأفعى:

- ما أجمل الحب!

وقررت أن تصير غير ما هي وأن تصبح محبوبة فانسلخت من جلدها القديم وتمددت تحت قطعة حطب قديمة مُسوّسة في جانب ساحة القرية. وهناك حلمت بأنها صارت صديقة للأطفال والعصافير وسائر البشر والحيوانات.

جاء الأطفال وصاروا يلعبون في الساحة. ابتعد أحدهم حتى وصل إلى ساق الشجرة القديم. امتطى الساق ولوح بقضيب في يده.

قال:

دي.. دي.

عجب لأمر هذا الحصان الذي لا ينطلق به مع أنه يقول له:

- دي.. دي.

نظر إلى أسفل قطعة الحطب القديمة فرأى الأفعى ممددة قال:

- ما أجمل هذا الحبل الفضي.

ومد يده ليمسك بالأفعى التي حسبها حبلاً فضياً. فما كان من الأفعى إلا أن لسعته. قال:

- ما أغرب أمر هذا الحبل!

ومد يده ثانية. فلسعته مرة أخرى. عند ذلك صرخ الطفل. شعرت الأفعى بعد أن أفرغت سمها في يد الطفل أنها قد أتت عملاً شريراً فتسللت ولاذت بالفرار. صادفت الكلب في طريقها. فقالت له:

- لم يحبني الأطفال مع أنني انسلخت من جلدي وحاولت أن أكون غير ما كنت عليه.

فقال لها الكلب:

- أيتها الأفعى لقد استطعت أن تنسلخي من جلدك ولكنك لم تستطيعي أن تتخلصي من طباعك. أيتها الأفعى ستظلين ملعونة إلى الأبد يكرهك الأطفال والعصافير وسائر البشر والحيوانات لأن قلبك لا يستطيع أن يحب.

* * *

# قطرة الندى

سقطت قطرة ندى فوق وردة فأجفلت الوردة وقالت:

- من أنت؟

قالت قطرة الندى:

- أنا قطرة ندى.

قالت الوردة:

- من أين أتيت؟

قالت قطرة الندى:

- من السماء.

عندئذ نظرت الوردة إلى قطرة الندى فرأتها تلمع كاللؤلؤة فقالت في نفسها: «كأنها نجمة صغيرة هوت قبل أن تنمو وتصير كبيرة».

وأشفقت الوردة على قطرة الندى. قالت لها:

- هل آلمتك السقطة كثيراً؟

ردت قطرة الندى:

- ليس كثيراً.

فقالت الوردة:

- أنا سعيدة لأنك لم تتألمي كثيراً.

وبعد قليل قالت الوردة لقطرة الندى:

- كنت أصغي إلى غناء بلبل عندما سقطت عليّ. كدت أموت من الخوف.

فابتسمت قطرة الندى للوردة بلطف لكنها لم تقل شيئاً.
كانت الوردة قد بدأت تحب قطرة الندى فقالت في نفسها:
- سوف أكون صديقة وفية لقطرة الندى إذا رغبت بالبقاء معي.
غير أن قطرة الندى ما لبثت أن ذابت عندما ارتفعت الشمس.
حينئذ حزنت الوردة كثيراً وقالت:
- ما أقصر حياة قطرة الندى.

* * *

# الأطفال ينتظرون الفرح

مشى الفرح في إحدى طرق المدينة فالتقى بطفلة.

قالت له الطفلة: أنا حزينة.

فقال لها الفرح: لماذا أنت حزينة؟

قالت : طلبت من أبي دمية مثل دمية رفيقتي فنهرني وأمرني أن أكف عن طلب الدمى، لأن مثل هذه الأشياء لا ترغب في المجيء إلى بيوت الفقراء.

قال الفرح: لا تحزني أيتها الطفلة. إليك ما تطلبين.

وتناول دمية من خلف ظهره وأعطاها للبنت الصغيرة فذهب الحزن عنها في الحال. ومضت في سبيلها.

قال الفرح في نفسه: الحزن لا يليق بالصغار.

وتابع طريقه. شاهد بعد قليل طفلاً يحتمي بجانب جدار.

قال له الطفل: أنا حزين.

فقال الفرح : لماذا يا عزيزي الصغير؟

قال الطفل : أنا مقرو[١] وليس عندي قميص صوفي.

فقال الفرح : إليك هذا القميص الصوفي. هل أنت مقرور الآن؟

قال الطفل : كلا.

---

(١) مقرور: بردان.

وطفق يلعب ويتواثب كالأرنب هنا وهناك.

قال الفرح في نفسه: الفرح قميص صوفي.

ثم استأنف سيره من جديد. صادف طفلاً استغرق في تأمل صورة يحملها بيده وعلامات الكآبة على وجهه.

قال له الفرح: ماذا تحمل بيدك يا صغيري؟

قال الطفل: صورة دراجة حمراء اقتطعتها من صحيفة.

قال الفرح: هل تحب الدراجات الحمراء؟

قال الطفل: نعم أحبها؟

قال الفرح: لماذا لا تطلب من أبيـــك أن يشتري لك واحدة مثلها؟

قال الطفل: أبي لا يملك نقوداً ليشتري لي مثلها.

قال الفرح: هل أنت حزين من أجل ذلك؟

قال الطفل: نعم.

عندئذ أخذ الفرح دراجة حمراء من خلف ظهره وأعطاها للولد الصغير الذي امتطاها وانطلق بها.

قال الفرح: الحزن دراجة حمراء على الورق والفرح دراجة بعجلتين ينطلق بها ولد صغير.

واستمر الفرح في تجواله. شاهد صبياً صغيراً يبكي.

قال له الفرح برقة: ما الذي يبكيك يا صغيري؟

قال الولد الصغير: إنني جائع.

قال الفرح: ولماذا لا تأكل؟

قال الصغير: ليس في بيتنا طعام.

فقال الفرح برقة متناهية: وماذا تريد أن تأكل؟

قال الصغير: أحب الخبز بالسمن والسكر.

وأخذ الفرح من خلف ظهره قطعة خبز مدهونة بالسمن والسكر وقدمّها للصغير.

قال الفرح: الجوع بكاء والفرح قطعة خبز مدهونة بالزبدة والسكر.

حينما أخذ الفرح طريقه ليعود إلى البيت اقترب منه طائر.

قال له الطائر: إلى أين أيها الفرح.

قال الفرح: إلى البيت كي أستريح فقد تعبت من عمل اليوم.

قال الطائر: مررت وأنا في طريقي إلى هنا بمدينة سمعت فيها الأطفال يرددون اسمك ويسألون أمهاتهم عنك.

قال الفرح: وكيف أذهب إليهم؟ ألم أقل لك أنني تعبت من عمل اليوم.

قال الطائر: حسناً سأعطيك جناحيّ لتذهب بهما إلى تلك المدينة التي ينتظرك فيها الأطفال. لن تشعر بالتعب ما دمت تحمل جناحين.

وذهب الفرح إلى المدينة التي أخبره عنها الطائر فمسح الحزن عنها ولبى طلبات أطفالها. ثم رجع إلى الطائر وأعاد له الجناحين.

قال له الطائر : احتفظ بالجناحين. من يدري فقد تحتاجهما لتطير إلى مدينة ثانية وثالثة. ربما كان هناك مدن حزينة كثيرة أخرى في العالم. أيها الفرح هل تستطيع أن تغمض عينيك وأنت تعلم أن هناك في بلد ما أطفالاً حزانى؟

شكر الفرح الطائر لرغبته الصادقة في إبعاد الحزن عن الصغار.

وفي الحال حمل الفرح الجناحين اللذين أعارهما له الطائر وحلّق بعيداً ليبحث عن المدن التي ينتظره فيها الأطفال.

* * *

# ولدان وطابتان

كان هناك ولدان. وكان مع كل منهما طابته التي يلعب بها.

قالت الطابة الأولى لرفيقها:

- أما آن لك أن تكف عن اللعب وتعود إلى البيت؟

وكان الولد قد لعب بعض الوقت مع طابته جرياً وقفزاً ونطّاً.

قال:

- بلى آن.

وعاد إلى البيت فوضع طابته في صندوق وانصرف لحفظ دروسه.

وقالت الطابة الأخرى للولد الثاني:

- ألم يحن الوقت لتعود إلى البيت وتكف عن اللعب؟

وكان الولد الثاني قد قضى مثل الأول بعض الوقت في الجري والقفز والنط.

قال:

- كلا لم يحن الوقت للعودة إلى البيت.

واستمر في اللعب.

وفي نهاية السنة الدراسية نجح الأول ورسب الثاني. فقالت له طابته:

- تعلّم أن تفعل كل شيء في حينه. فللّعب وقت وللجد وقت.

* * *

# الغيمة والريح والفلاح

مرّت الريح فوق البحر فقالت له:

- أيها البحر هل ترافقني؟

فقال البحر:

- إلى أين؟

فقالت الريح:

- للقيام برحلة في البلاد.

فقال البحر:

- لا أستطيع.

فسألته الريح:

- لمـــاذا؟

فأجاب البحر:

- لأني أنا البحر.

ولم يعجب هذا الجواب الريح فقالت:

- يا له من متكبر.

وتابعت الريح طريقها فوق البحر فشاهدت مركباً فقالت له:

- هل ترافقني؟

فقال المركب:

- إذا سمحت لي، فالتجار ينتظرون على الشاطئ الآخر وعنابري حافلة بالجوز واللوز والفراء والفلفل والصنوبر والمرجان.

ونفخت الريح في الأشرعة فانتفخت وتهادى المركب فوق البحر حتى وصل إلى الشاطئ حيث كان تجار الجوز واللوز والفراء والتوابل والصنوبر والمرجان ينتظرون، ثم توقف عند الشاطئ ولم يتقدم بعد ذلك.

تابعت الريح طريقها فشاهدت شجرة فقالت لها:

- أيتها الشجرة هل ترافقينني في رحلتي؟

فأجابت الشجرة.

- كلا.

فسألتها الريح:

- لمـــاذا؟

فردّت الشجرة:

- لأني أنتظر الربيع كي أورق وأزهر وأصنع ثمراً للناس.

وجرت الريح بين البيوت فقالت لأحدها:

- هل ترافقني في رحلتي؟

فقال البيت:

- بودي لو أرحل معك، فقد ضجرت من البقاء في مكان واحد. ولكن البيوت واأسفاه لا ترحل لأنها ثابتة.

وواصلت الريح سيرها فالتقت بجبل فقالت له:

- هل تسافر معي؟

فقال لها الجبل:

- كيف أسافر معك وأنا أحمل على ظهري الثلج والغابة.

وانحدرت الريح إلى الطريق العامة وقد علّلت النفس بأنه من الممكن أن تجد هناك أحداً ما فصادفت عمود كهرباء فقالت له:

- أيها العمود هل تمضي معي فتتفرج على الدنيا بدلاً من أن تقف هنا ثابتاً فيدخل الملل إلى قلبك؟

فقال عمود الكهرباء:

- ليتني أستطيع أن أفعل، ولكن عما قليل تغيب الشمس ويعمُّ الظلام وهنا تأتي مهمتي فأحمل النور إلى البيوت؛ وعندئذ ينحني التلاميذ على كتبهم لحفظ دروسهم، وتحمل الأم صنارتها وخيطانها لتتابع نسج الصوف، ويفتح الأب صحيفته ليستطلع الأخبار قرب الموقد.

وشعرت الريح بالوحدة فأنّت وأعولت. تلفتت هنا وهناك فرأت غيمة فقالت لها:

- أيتها الصديقة هل تسافرين معي؟

فقالت الغيمة بفرح:

- نعم. نعم فأنا على موعد مع فلاح بذر حبوبه وغرس شتوله في الأرض ثم راح ينتظرني في حقله. لعلي قد تأخرت في السفر إليه. وأخشى أن أصل بعد فوات الأوان.

فقالت الريح:

- امتطي ظهري وسأحملك إليه قبل أن تذوي شتوله وتموت بذوره في باطن الأرض.

وامتطت الغيمة ظهر الريح التي سرعان ما انطلقت في طريقها فرحة جذلى لأنها تحمل الأمل والخير لفلاح ينتظر.

* * *

# اكتشف العصفور جناحيه

منذ زمان بعيد، بعيد جداً كان العصفور يعيش كما يعيش الأرنب والخروف والحصان وسائر الحيوانات ينتقل من مكان إلى مكان على رجليه مثلهما، ويلتقط بمنقاره البذور المتساقطة من الثمار المتشققة وينقر الفواكه والخضار. وكان يفرد جناحيه عندما يتمطى في الصباح، وفي الصيف يحركهما طلباً للتهوية. أما في الشتاء فيدفن فيهما رأسه. وفيما عدا ذلك لم يكن العصفور يستعمل جناحيه.

وكان الناس طيبون في ذلك الزمن يعيشون على بقول الأرض وثمار الأشجار وما تدرّه ضروع الحيوانات اللبونة، لا يؤذون العصافير ولا يطاردونها ولا ينصبون لها الفخاخ، بل كانوا يحبونها ويعطفون عليها ويرون أنها جديرة بالعناية لأنها مخلوقات لطيفة سريعة التلف مثل الأزهار.

ولم تكن العصافير في ذلك الزمن تغنّي فهي لا تعرف الغناء لأنّها لم تكن تعرف الألم ولا الظلم.

ولكن حدث مرّة أن كان رجل فوق تلٍّ عالٍ. قال هذا الرجل: لقد حرثت حقلي وبذرت بذري وحلبت أبقاري وليس ليَ ما أعمله فماذا يتعين علي أن أفعل كي أبدد وقتي؟

والتفت باحثاً حواليه، كان هناك في تلك اللحظة ثلاثة عصافير تتواثب لاهية عابثة. وخطرت له فكرة فقال:

- لماذا لا أشغل نفسي بمحاولة القبض على هذه العصافير.

ودخل إلى بيته فأتى بعصاً طويلة. كانت العصافير مطمئنة تماماً وليست عندها أيّة فكرة عمّا يبيته لها الرجل.

رفع الرجل العصا وأهوى بها على العصافير فأصاب واحداً منها فقتله. عندما رأى العصفوران ماحل برفيقهما ذعرا وحاولا الهرب. ولكن الرجل

طاردهما. عندئذ اختبئا في شجرة عليق. أدخل الرجل عصاه الطويلة في شجرة العليق وظلّ ينكش بها الشجرة والعصفوران يتراجعان ويتراجعان أمام رأس العصا ويصدران أصواتاً غريبة متألمة حتى رأيا منفذاً فتسلّلا منه.

أبصرهما الرجل لحظة تخلصهما من شجرة العلّيق فلحق بهما. لم يبتعد العصفوران كثيراً حتى تعب أحدهما وعجز عن متابعة الهرب فقبض عليه الرجل وأسقطه في عبه بينما العصفور يصرخ صرخات حادة.

وما إن رأى العصفور الثالث ما أصاب رفيقه حتى خاف خوفاً شديداً وجرى بأقصى سرعته. لقد وضع في رجليه كل حبِّه للحياة. وصل العصفور إلى حافة التل فازداد وعياً.

لم يعد قادراً على متابعة الجري. كانت هناك هوة عميقة الغور بعد الحافّة. وازداد اضطراباً. كان عليه أن يختار إما أن يسلِّم ويقف عاجزاً حتى يأتي الرجل ويقضي عليه. وإما أن يقذف بنفسه إلى الهوة فيتحطم، كان يشعر أنه هالك في كلا الحالتين. وفكر:

- أنا أملك جناحين أفردهما عندما أتمطّى في الصباح وأحرّكهما في الصيف طلباً للتهوية، وأدفِّئ بهما نفسي في الشتاء. فماذا لو استعملتهما للهرب. ألا أستطيع أن أنزل بهما إلى الوادي نزولاً ليّناً دون أن يتحطم رأسي؟

كان الرجل يجري نحوه بسرعة ويقترب منه أكثر فأكثر. كان عليه أن يقرّر فوراً. قال:

- لم أستطيع الإفلات من الرجل بواسطة رجليَّ ولا بد من محاولة الإفلات بواسطة جناحيَّ.

وألقى بنفسه في الهوّة في ذات اللحظة التي فرد فيها جناحيه فرأى نفسه يعوم في الهواء. وحرّكهما مرّة ثانية فلم يسقط بل أحس أنه محمول على كفٍّ لطيفة. قال:

- إنَّ كفَّ الهواء تحملني في الوادي أفلا تحملني في الأعالي أيضاً؟

وحرّك جناحيه وشقّ طريقه إلى الأعلى فارتفع. نظر إلى الوراء فرأى الرجل الذي كان يطارده يتطلّع إليه مدهوشاً.

وحرّك جناحيه أكثر فارتفع أكثر. ومنذ ذلك اليوم كلّما طارد إنسان ما عصفوراً صفّق بجناحيه وطار خوفاً من أن يضربه بعصا طويلة، أو يقبض عليه فيضعه في عبّه.



# الـرأس والجـدار

رواية



شد عضلات رجليه ثم أرخاهما ليبعث فيهما الحياة. كان يشعر بالإعياء. وغير مرة خيل إليه أن ركبتيه شرعتا تئنان. وأن مفاصله ترسل صريراً موجعاً بعد التيبس الذي فرضه السفر الطويل بالجلوس على نحو معين في السيارة. الآن يستطيع أن يقول بكل بساطة أنه أنهى خدمته الإلزامية. وتنفس بعمق. ثم نتر حقيبته من أذنها ومشى مبتعداً عن السيارة.

حلوة مدينته في ليالي الخريف ورائعة سماؤها. إنه يعرف هذا الصفاء الرائق كالبلور عقب زخة مطر عابرة في أيلول. ويعرف أيضاً لذعة برده هذه التي تقرصه قرصاً لذيذاً.

ترك الشارع وانحرف في زقاق جانبي خافت الإضاءة. كان الطريق خالياً. لم يكن ثمة ما يعكر صفوه سوى إيقاع خطواته. وكان لها وقع طيب في أذنيه. نعم كان سعيداً من قمة الرأس إلى أخمص القدم بعودته إلى الحياة المدنية.

إنه يعلم أن والده مريض وأن هذا الأمر محزن حقاً. وأنه عما قليل سيصير في مركز المسؤولية. بل إنه صار فعلاً، بشكل ما، في هذا المركز وهو في الجيش ومن قبل في الميناء. ولكن كل ذلك يجب أن يُدفع إلى الخلف الآن ليخلي الطريق أمام لحظة الفرح الغامرة الراهنة.

ومضى في طريقه الهوينا يستقطر نشوته على مهل. إنه إنسان محب أنهى خدمته الإلزامية، فهل لكائن ما أن يتصور مدى رغبته القوية في الحياة.

صعد عدداً من الدرجات ثم دقّ باباً. سمع خطوات ثقيلة تقترب فقال لنفسه: «إنها أمي بلا ريب». انفتح الباب وما كاد بصر الوالدة يقع على ولدها حتى هتفت:

- من! أحمد؟

وفتحت ذراعيها.

- يا عين أمك.

وضمّته إلى صدرها.

كان ما يزال منتشياً عندما دخل البيت. كان السكون شاملاً فخمَّن أن أخوته نيام. واجتاز صحن الدار تتقدمه أمه نحو الغرفة الكبيرة.

ثمة شيئان استقبلاه منذ الوهلة الأولى عندما دلف إلى الغرفة وراءها. دفء لطيف متميز عن لذعة برد منتصف الليل الخريفي ورائحة الكاز الحادة.

«سوف أستبدله بالكهرباء ذات يوم. إن رائحته لا تطاق». همس بذلك لنفسه ووضع الحقيبة التي كانت في يده حذاء الطاولة التي استقر عليها مصباح الكاز. ثم جلس على خوان لا يبعد كثيراً عن الطاولة نفسها واسترخى متكئاً بظهره الأعلى إلى الجدار الملاصق للخوان. أجال نظرة عجلى حوله. كان هناك تعديل طفيف قد طرأ على الغرفة منذ أن سقط والده مريضاً. كانت الزاوية في أقصى الغرفة خالية فهمس لنفسه: «المستشفى نُقل إلى الغرفة الثانية». ولعل أمه حدست ما جال في خاطره فقالت:

- كم مرة قلت لك لا تردد هذه الكلمة. إنني أتشاءم منها.

- أية كلمة؟ المستشفى؟

ثم ضحك ولم يعلق بشيء آخر.

لم يكن في البيت سوى سرير واحد. وكان أحمد قد أطلق عليه اسم المستشفى، ذلك أنه ما أن يمرض أحد أفراد العائلة حتى يُعزل عن الآخرين ويفوز بشرف النوم فيه. لكن ذلك الامتياز لا يلبث أن يُسحب من المريض عندما يهبط الليل، فيرجع السرير إلى الأب، صاحبه الأصلي لينام عليه.

نظر مرة أخرى إلى مكان السرير الشاغر في أقصى الغرفة. لم تكن عيناه قد اعتادتا بعد رؤية المكان فارغاً فقال مشيراً إلى والده:

- كيف حاله؟

- أحسن. لكن لسانه لا يزال ثقيلاً.

- إنه الفالج. قال الطبيب. ويحتاج إلى زمن حتى يشفى.

وأضاف:

- هل يستطيع السير؟

- ليس بمفرده . يحتاج إلى من يسنده.

- عال. سوف نجلب له أحسن الأدوية وسيتحسن حتماً.

وقلبت الأم يديها في الهواء استسلاماً أو حيرة. ولكنه سمعها تستدرك بعد لحظة:

- إن شاء الله.

وبعد فترة صمت قالت:

- سأهيئ لك شيئاً تأكله.

ومضت إلى المطبخ.

كانت الغبطة بادية على الأم لعودة ابنها رغم المظهر الجاد الحزين الذي اتخذه وجهها وحركاتها. وداخل الارتياح أحمد. كانت الأم مختلفة قليلاً عما رآها عليه في آخر إجازة عندما أُستدعي برقياً بسبب مرض والده.

عندما صار وحيداً نظر إلى إخوته. كانوا مستغرقين في نوم عميق على فرش بُسطت على الأرض. أنفاسهم تتردد بهدوء وإيقاع. عاطف أصغرهم ينام كالعادة بعينين نصف مغلقتين. ومحمد بفتحتي أنفه المتوترتين لكأنه يوشك على البكاء. ونديم على شفتيه ظل ابتسامة. أما فاطمة فقد زوّت ما بين حاجبيها تساءل: «ترى هل تحلم. وماذا تعاني في حلمها»؟

عادت الأم بعد قليل تحمل صينية كانت تُستعمل ذات يوم لتقديم القهوة، ثم حُولّت بعد أن تساقط دهانها وعتقت ليأكل عليها فرد واحد. وضعت الأم الصينية على الخوان. كان عليها صحن شوربة ورغيف خبز. كان أحمد جائعاً فراح يلتهم طعامه بصمت.

جففت الأم يديها المبللتين بخرقة. ثم مدَّت فراشاً في الزاوية الفارغة التي كان يحتلها السرير. عادت فجلست على الخوان قبالة ابنها.

قالت:

- مر علينا إبراهيم أول أمس. قال إنك ستكون هنا خلال يومين. لماذا تأخرت؟

قال:

- لقد سلّم حاجاته قبلي. كان هناك ما ينقصني فتأخرت قليلاً.

بعد أن انتهى من طعامه قالت له أمه:

- ما رأيك أن تُحلي ضرسك؟

وحملت له بعض البلحات المجففة ثم أضافت ضاحكة:

- حلوى الفقير.

فعلّق ضاحكاً:

- وما لها حلوى الفقير؟ أطيب من حلوى الغني.

كان ثمة سؤال ما فتئ يراود أحمد منذ مدة ولم يشأ أن يمضي إليه مباشرة فقام بحركة التفاف. قال:

- كيف حال الحارة والجيران؟

- بخير. عائشة بنت محمد سمسم خُطبت. بنت لقطة لو كنت في شغلك لخطبتها لك.

فقال لها:

- الله كريم.

ثم تابع بلا مبالاة في الظاهر:

- هذه كل خطوبات الحارة؟

تمنى لو كانت فاطمة مستيقظة في تلك اللحظة. إذ كان يستطيع أن يتحدث إليها عن رتيبة بلا حرج كبير.

قالت:

- ورتيبة.

ونهضت لتسوي اللحاف الذي انحسر عن أحد إخوته. فقال متضاحكاً بقلق:

- وما لها رتيبة أيضاً؟ خُطبت؟

فقالت الأم بعد أن سوت اللحاف وعادت إلى مكانها من الخوان:

- طُلبت يدها. ولكن رفض الطلب. ويقال أنّ البنت هي التي رفضت. بنات آخر زمان. متى كانت الفتيات تتدخل في مثل هذه الأمور؟ في أيامنا كانت البنت لا ترى عريسها إلا في يوم الزواج.

داخله الارتياح فقال:

- لكل زمان عاداته.

بعد قليل نهضت الأم ولعلها لاحظت تثاؤب ولدها منذ بعض الوقت فقالت:

- لا شك أنك متعب. فقم وأرح جسمك.

خلع ثيابه وتمدد على الفراش. تململ في استلقائه. كم نام في هذه الزاوية من البيت في الأصائل أو في الأصباح المتأخرة. عندما كان مريضاً أو متعطلاً عن العمل. وكان السرير قد شغر من صاحبه الأصلي. إحساس بالهدوء والسكينة كانت تسكبه هذه الزاوية على قلبه. ولكن ما باله الآن يتقلق في فراشه؟ ما الذي حدث؟ أهو الذي تغير أم الزاوية؟

عندما تمدد في فراشه كان قد تهيأ تماماً للنوم. ولكن ها هو ذا النوم يجفوه ويهرب من عينيه. ربما لم يعتد النوم على هذه الصورة في هذا المكان من قبل. كان فيما مضى من الأيام ينام ها هنا أحياناً على سرير والده. فإذا هو يجد نفسه محشوراً فجأة، في نفس المكان. ولكن لا على السرير. وإنما على الأرض. وشعر بالضياع لحظة. وتململ كأنما أراد أن يتفقد أبعاد جسده الذي شكَّ في وجوده لثوان، رأسه ويديه ورجليه. وأنه هو أحمد الذي يستلقي هناك. وداخله شعور بالغربة. تساءل: «لماذا. أهو السرير؟». وعجب كيف تؤثر الأشياء في الإنسان حتى أن تغييراً بسيطاً مثل إخلاء زاوية من سرير يخلق في نفسه الفوضى والاضطراب.

ووجد نفسه ينتقل بفكره إلى والده المريض هناك في الغرفة الثانية. غير أن دولاب فكره لم يلبث أن عرج على إخوته ورتيبة والميناء والزملاء في الميناء. فكره الآن عجلة مشحّمة، مزيتة، تنتقل من صورة إلى صورة. الحاضر والمستقبل ميدانها. ولكن ها هي ذي العجلة تدور الآن بنزق. تدور إلى الوراء. إلى الماضي البعيد. يوم كانت الدنيا غير الدنيا. والملاعب والأتراب والأحلام. وبهدوء ولين. ودون أية تعقيدات انفلت أحمد من جلده ودخل في إهاب ولد صغير. ولد صغير يقبض على الزنابير وينزع أبرها.

دخل أحمد في اليوم التالي غرفة أبيه. ولقد أحزنته الحال التي انتهى إليها. بدا له أن شعره قد ازداد بياضاً عما رآه آخر مرة، ووجهه أكثر نحولاً وشحوباً. ولاحظ العين وجانب الوجه واليد التي امتد إليها المرض وتركها عاجزة عن الحركة وعن إصدار الأوامر. يا للمرض الكاسح. شيء يشبه الصاعقة انقضَّ عليه فأمات نصفه الأيسر. أهذا هو الرجل الصامد الصابر الذي يعرفه؟

حاول الأب أن يتكلم لدى رؤية ولده فخانه لسانه. عندئذ تكلمت عيناه. أفاض الدمع في البوح عن مكنون الصدر.

كان والده بّلاطاً، معلماً في مدِّ البلاط. لم يكن متعلماً. لكنه أراد أن يكون أولاده متعلمين وحلم بذلك كثيراً. وقد بذل جهد لتحقيق هذا الحلم. غير أن ظروفه الصحية لم تسمح له بذلك. كان كثيراً ما ينقطع عن العمل ويضطر للبقاء في البيت بسبب آلام ظهره التي كانت تعاوده من حين لآخر.

في البداية قال له البعض: إنه البرد. فقال: نعم إنه البرد. البرد سبب كل علة. لكنه ذات يوم عدل عن فكرة البرد وقال: إذا كان هذا الألم من البرد فلماذا يهاجمني في الصيف؟ ثم بحث عن سبب آخر حتى وجده، أو هكذا خيل إليه، عندما حمل ذات يوم بين يديه تنكه رمل وقام بجبلة من خليط الاسمنت والرمل بعد صرف عامله المعاون «من يومها أحسست بشيء في ظهري».

وعندما استشار طبيباً نصحه بالإخلاد إلى الراحة لأن القرفصاء تفاقم حالته. وأفهمه أن ما يشكو منه قد يكون بداية انقراص فقرات. فقال للطبيب: «كيف يرتاح مبلط وراءه ستة أفواه»؟

عجيب أمر هذه الحياة. كيف يمكن تصور أنَّ مصير عائلة مؤلفة من سبعة أفراد، رهن لا بشخص بالذات، وإنما بفقرة تائهة في ظهره. وما أكثر ما اتجهت أنظار العائلة في أمثال هذه الأزمات المرضية بالدعاء إلى العائل وبالتحديد ربما إلى ظهر العائل وتساءلت برجاء متى يستوي عوده كي تأكل أكثر.

* * *

- متى وصلت؟

سأل إبراهيم وهو يجلس على الخوان إزاء أحمد.

قال أحمد:

- ليل البارحة.

فقال إبراهيم:

- لقد تأخرت.

ردّ أحمد:

- بسبب التسليم. كان عندي نقص في حاجياتي. بطانية من بطانياتي كانت مسروقة. فسرقت بطانية غيري وسلمتها. ماذا أفعل؟ أنت تعلم. عسكرية دبِّر نفسك . يدخل الواحد إليها خروف ويخرج منها ثعلباً. والويل لمن يبقى فيها خروف.

- تماماً مثل الميناء. الويل للخروف فيها.

قال إبراهيم ذلك وهو يضحك. كان إبراهيم في مثل سن أحمد. وكانت تربط بينهما كثير من الأواصر. فبالإضافة إلى كونهما زملاء عمل في الميناء وأبناء حارة واحدة، فقد أديا خدمتهما الإلزامية معاً. وصادفا سوية قليلاً من اليسر وكثيراً من الضيق.

قال أحمد: في الميناء وغير الميناء. هناك دائماً خروف. بين أربعة يوجد خروف. وبين ثلاثة يوجد خروف. وبين اثنين يوجد خروف كذلك. وحتى في الشخص الواحد نفسه خروف وغير خروف. محمود أبو لحية نادل

المقهى ظل يعمل عند معلمه خمسة عشر عاماً. كل يوم من الصباح إلى المساء يروح ويجيء بين الزبائن مثل النعجة. لم يشك منه زبون. ذات ليلة انقض على معلمه فذبحه وذبح نفسه.

قال إبراهيم:

- حادثة مروعة. لا أكتمك أنني ذهلت يوم جئنا كعادتنا إلى المقهى لنأخذ الشاي وفوجئنا بالخبر. ليسامحه الله. لقد كدر إجازتنا الأسبوعية في ذلك اليوم. من يدري؛ مات وطوى سره معه. لم يعرف أحد لماذا قتل معلمه؟

قال أحمد بعد تأمل:

- أما أنا فيبدو لي أنني أعرف. لقد ثار شيء ما في نفس أبي لحية على الخروف فيه. استيقظ فجأة فقال له: أعطني أذنيك يا أبا لحية. أنت تعمل منذ خمسة عشر عاماً من الصباح إلى المساء. فماذا جنيت من وراء ذلك كله. أنت تعمل ومعلمك يجمع الفيش. ليس في رجلك حذاء مثل الخلق. ولا على عجيزتك بنطلون. ولا على كتفك قميص. طز في حياتك.

فقام على الفور وأخذ سكينه وانقض عليه.

أصغى إبراهيم إلى أحمد وهو في دهشة مما يسمع. فمثل هذه الأفكار لم تخطر على باله. ولكن لا غرابة أن ينطق أحمد بذلك. كان إبراهيم ينظر إلى أحمد نظرته إلى شيء كبير. إلى إنسان ذكي دفعه سوء الطالع قبل أن يكمل تعليمه للعمل في الميناء. ولولا ظروف أبيه المالية الصعبة لواصل تعليمه ولكان يشغل الآن وظيفة محترمة. وكان يقول عنه: «ولد دهب» والذهب عند إبراهيم هو مقياس الأشياء.

قال إبراهيم:

- يجوز الأمر كما تقول.

قال أحمد:

- بل هذا هو الواقع. أنت تذكر الشباب الذين كانوا يجلسون وراءنا عند النافذة . طلبة جامعة.. مثقفون. مرة سمعت أحدهم عندما عاد المحل إلى

استئناف عمله بعد مضي فترة الحداد. سمعته يقول: أنا مع الفصل الأول من المسرحية أما الختام فلا.

ونظر أحمد إلى وجه إبراهيم فلم يلاحظ أي صدى لما يقول في عينيه أو أي من ملامح وجهه. وعندئذٍ تابع يقول موضحاً:

- يعني أن الشاب كان مع الجزاء الذي أوقعه أبو لحية على معلمه المرابي ولكنه لا يوافقه على قتل نفسه.

وقال إبراهيم:

- آه فهمت. يعني أن هذا الكلب يستأهل مثل هذه العصا.

- هذا هو.

- أبو لحية هذا لم أكن أتصوره يوماً قادراً على قتل ذبابة.

- الرجال مخبئون في ثيابهم أخي إبراهيم. ألم تر كيف كان يمازح أولئك الشباب ويمازحونه عندما يقترب من طاولتهم يحمل إليهم الشاي والقهوة. لا شك أن كلمات الاستغلال والعدالة والاضطهاد التي كانوا يرددونها في جلساتهم قد وجدت طريقها إلى أذنيه وعششت فيها. نظر أبو لحية إلى نفسه يوماً فوجد أن أولاده سائبون عراة في الطرقات لا يستطيع أن يدفع بهم إلى المدارس. وأن سيف التهديد بالطرد مسلط فوق رأسه كلما طالب بزيادة أجره. لقد هبت عليه رياح هؤلاء الشباب فكان ما كان. تألق لحظة مثل الشهاب ثم هوى.

قال إبراهيم:

- مضى على ذلك الحادث سنة وأنت ما زلت متأثراً به.

- أحياناً أتساءل ما الذي حدث لأولاده من بعد ذلك.

- مسكين أبو لحية ومساكين أولاده.

- أقول لك. لو لم يكن خروفاً في وقت ما لما حدث ما حدث. خذ الحال في الميناء مثلاً، قبل التأميم كنا نشتغل ثمان عشرة ساعة أو تسع عشرة. وإليك الوضع، في جانب كان هناك قطيع من الخرفان، وفي الجانب

الآخر ملتزمون قساة غلاظ. ذات صباح تجمع العمال على الرصيف وبدلاً من أن يذهبوا إلى البواخر مضوا باتجاه باب الميناء الخارجي ورفضوا أن يكونوا خرفاناً.

- ذلك عهد مضى. الله لا يعيده علينا.

- الله لا علاقة له بشغل الميناء.

- شغل الميناء ليس من اختصاصه؟

- ليس من اختصاصه. لو كان له ضلع في الأمر لما سمح بكل ذلك الاستغلال والقسوة اللذين مارسهما الملتزمون. الله والفساد لا يجتمعان. وإذن شغل الميناء من شأن الناس. لقد أراد العمال المضطهدون أن يغيروا الوضع في الميناء فغيروه. ثاروا على الفساد، تمردوا على الظلم، فقط عندما ركلوا الخروف في داخلهم.

قال إبراهيم بزهو:

- جنى العمال أخيراً ثمار نضالهم وصاروا محاصين[١].

- صاروا هم الملتزمين.

- صاروا هم أرباب العمل. الدخل على قد العمل. لا استغلال، لا لصوصية.

قال أحمد وسرح بخياله لحظة ثم تابع:

- تدري يا إبراهيم؟ إنني آسف على شيء واحد. هو أني لم أكن هنا يوم طرد الملتزمون وأمسك إخواننا بزمام الأمور في الميناء. لكم كنت أود أن أنظر في عيونهم وأرى هزيمتهم.

- كنا وقتها في الجيش.

- نعم كنا وقتها في الجيش. قل لي يا إبراهيم كيف تجري الأمور هناك اليوم؟

---

(١) المحاصة: توزيع الدخل حصصاً متساوية بين العمال.

فقال إبراهيم ضاحكاً:

- ليس هناك ركل ولا صفع على القفا. لا أبوك. لا أمك، لا أختك ولا دينك. انزل وسترى. سبع ساعات عمل وبعدها كل دقيقة بأجرتها. شغل لعب. ثماني ساعات أو تسع. شغل شوكولاتة. تصور خمسة أيام شغل بثمانية وأربعين ليرة. ليس ذلك فحسب وإنما هناك ثلاث أربع عشاءات أيضاً.

- لكم اشتقت إلى العمل.

- لقد سألني الإخوان عنك. ألن تنزل غداً؟

- سأنزل.

- وطار أحمد بخياله إلى الميناء. عندما همّ إبراهيم بالنهوض نسل من جيبه ورقتين من فئة عشر ليرات دسهما تحت علبة تبغ صاحبه في غفلة منه ثم ودعه وانصرف.

* * *

ما كادا يخلفان وراءهما الشوارع والطرقات حيث يحتمل أن يتعرف عليهما أحد حتى تناقصت المسافة بينهما شيئاً فشيئاً ثم مشيا جنباً إلى جنب. كان أحدهما يسير خلف الآخر تفصل بينهما مسافة تزيد أو تنقص تبعاً للزحام حيناً أو خوفاً من مصادفة أحد الأقارب أو معارف الأهل حيناً آخر. أما الآن وهما يسيران في شارع البحر وقد أمنا خطر الرقباء فلا بأس أن يسيرا معاً.

وانحدرا فتركا الطريق العام ونزلا إلى الشاطئ. اختارا لمجلسهما صخرة حتى إذا ما كشفتهما عينا فضولي بدوا كخطيبين أو كزوجين. مخاطرة في كلا الحالين. ولكن المخاطرة لابد منها في بعض المراحل . الحب لا يقف عاجزاً أمام الخطر. إنه يفكر ويصمم وينفذ مع الحذر. من ساعة أن يولد الحب ينشأ معه الحذر. كأنما الحب يمشي أبداً في حقل ملغم.

- هل أنت خائفة؟

سأل أحمد رتيبة ولم يكن هو أقل خوفاً. بل لعله لم يكن خائفاً قدر ما كان سعيداً.

قالت رتيبة:

- الستر ة قال بها الله.

قال:

- الستر ة لمن يرتكبون المعاصي.

قالت:

- ماذا تسمي ذلك؟

- حباً.

- أوليس الحب معصية؟

- كلا.

وضحك.

- أو على الأقل ذلك الذي يوصل إلى المأذون.

وأمسك بيدها. كانت يداً رخصة بضة. وقلبها ظهراً لبطن.

- هل أنت خائفة حقيقة؟ هذه ليست أول مرة نلتقي فيها.

- أخشى أن يرانا أحد.

ولم تفته نغمة الدلال التي شابت صوتها. أتراها تلوح من طرف ما إلى الخاطبين وتذكره بما اتفقا عليه. تساءل في سره: رتيبة فتاة في الثامنة عشرة من عمرها. حلوة وممتلئة صحة وفتوة. صارت في سن تؤهلها للزواج. وهاهي ذي العائلة قد رفعت بيارقها.

قالت في شبه اعتذار:

- لقد انتظرت طويلاً حتى وجدت الجو مناسباً.

قلت لنفسي: الآن لم يعد في الغرفة الغربية غيرك. وبدأت أدق على الجدار.

قالت رتيبة:

- في البداية حسبت أختك هي التي تدق. ثم ميزت دقة إضافية ضعيفة. لماذا لم تدق بعد ذلك؟

قال وهو ينظر إلى شفتيها الممتلئتين النديتين:

- جاءت أمي إلى المطبخ فلم أستطع أن أعاود الدق.
- لعلها سمعت دقاتي أنا على الجدار.
- آه. نعم. قالت رتيبة تعرف أن فاطمة الآن عند معلمة الخياطة.

فقلت ربما نسيت ذلك.

سألت:

- ماذا قالت عني؟

قال مداعباً:

- احزري.

فقالت متخابثة:

- ما مكافأتي إذا حزرت؟

فتابع مداعبته ملوحاً بيده:

- كف.
- وإذا لم أحزر.
- كف أيضاً.
- في الحالين أنا خاسرة. فلماذا إذن أتحزر؟
- إذا حزرت كف ناعم.
- وإذا لم أحزر؟
- كف أنعم.
- وضحكا. وأخذ راحتها بين يديه وقبّل باطن يدها.
- هذه عربون.

ونظرت في وجهه بوله. ثم غلبها الحياء فغضت من بصرها.

- ماذا قالت عني؟

- قلت لك احزري . ألم يعجبك عربوني.

وظلت تغض بصرها.

- كيف كنت تقضي وقتك هناك، ألم تكن تشعر بالملل.

- قال:

- الرجل يجد دائماً ما يتسلى به في بلاد الغربة.

قالت وقد ظهر على وجهها تعبير احتجاج:

- ولكنك قلت غير ذلك من قبل.

قال محاولاً أن يعطي لهجته إيحاء خاصاً:

- في البداية نعم. ثم عرفت بعد ذلك كيف أقضي وقتاً طيباً.

- بالدق على حيطان الجيران.

وانفجر ضاحكاً.

- سجلت عليك نقطة. لقد أثرتك.

قالت:

- هل حسبت أنني صدقت كلمة مما قلت. أنت لا تستطيع أن تبتعد كثيراً.

وتطلعت في عينيه ولم تضف كلمة أخرى. حتى عادت إلى القول من جديد:

- كنت ألاحقك من وراء النافذة وأنت تمضي إلى الميناء مبكراً حتى تغيب في الحارة الثانية. وفي المساء أنصت إلى خطواتك المتعبة تصعد الدرج. ثم. ثم يصر الباب «سييك» ويصر مرة أخرى وهو يغلق فأقول: إنه الآن في أمان.

قال:

- يا له من باب لعين. قلت لنفسي سوف أزيته. صريره يوقظ أهل الحارة.

فقالت باسمة على استحياء:

- بل صريره هو الذي يطمئن الحارة ويجلب النوم إلى عيون أهلها.

فاكتفى بالابتسام وضغط على يدها التي كانت في يده.

قالت:

- لماذا تأخرت البارحة؟ شد ما انتظرت. هل سمعت بأحد ينام وقلبه مستيقظ؟ فاتني صرير الباب. ولكني أدركت الحركة في البيت. جلبة ماسورة الماء. وهدير بابور الكاز. كنت أقول لنفسي: إنه الآن يغتسل. إنهم يسخنون طعامه. وبعد بعض الوقت هدأ كل شيء. قلت إنه ينام. ونمت.

قال:

- كانت هناك سهرة البارحة في الباخرة. كنا نشحن القطن. رصيد الشحنية كان مائة طن. عند المغرب قالوا: هيا يا شباب. مائة طن لا تستأهل أن تبيت من أجلها الباخرة. يومية الباخرة تكلف آلاف السترلينيات. وسهرتنا ببضع مئات من الليرات.

- مرات قلت لنفسي. لعلي سهوت فلم أشعر بمجيئه. وأحياناً كنت أقول ربما جرى له حادث. أمضيت الليل تأخذني موجة وتعيدني موجة. سمك البحر نام وأنا لم أنم.

وتابع ببصره شفتيها المكتنزتين وهي تسأل:

- أهناك خطورة في شغل الميناء؟

وابتعد اللنش عن باخرة السكر.

- «بسرعة إنه ينزف بكثرة.

- «على مهل خذوا قدمه.

- «ماذا هناك؟

- «الصبّان حلق القدم مثل المنشار.

- «يقولون إنهم نسوا القدم في الماعونة. ثم رموها بعد ذلك إلى اللنش».

همس أحمد لنفسه: «مهنة محفوفة بالمخاطر. ولكنها مهنة لذيذة على كل حال. ومن ذاق يوماً خبز الميناء الذي جففته الشمس ومرت عليه أنسام البحر محال أن ينساه».

قال أحمد:

- بالعكس شغل الميناء ممتع.
- «مسكين صار برجل واحدة».
- «كم ولد عنده؟»

وأضاف أحمد:

- شغل الميناء شغل رجال حقيقيين.

وبان الاطمئنان في عينيها. وظل يتابع شفتيها المكتنزتين:

- قل إنك ستحافظ على نفسك.
- طيب سأحافظ على نفسي
- هل تتعهد؟
- أتعهد

وهي تنظر إلى البحر:

- كنت أعد الدقائق

وهو ينظر إلى البحر أيضاً:

- كنت أعد الثواني.

وبعد فترة صمت:

- هل أخبرت فاطمة؟ هل ألمحت لها بشيء ما؟
- كلا وإن كنت أعتقد أنها تعرف.

وعضت على شفتها السفلى:

- قلت أنك ستفعل في زيارتك الأخيرة.
- تركت الأمر ريثما أنتهي من الجيش. فكرت أن الوقت ما زال مبكراً.

ومرت فترة خيل للفتاة فيها أن ذهنها خلا تماماً من أية فكرة خليقة بالاهتمام كموضوع للكلام. وهنا نظرت إلى كنزة رفيقها فقالت:

- هل أعجبتك الكنزة؟

ونظر الفتى إلى الكنزة الكحلية التي يرتديها.

- فكرت ربما دخل الشتاء ولم تسرَّح. يقولون إن الشتاء قاس في الداخل.

قال:

- من صنعها لك؟

قالت:

- يداي هاتان.

وأخذ يديها بيديه وقبلهما:

- سلمت يداك.

- لم تقل هل أعجبتك؟

- لم ألبس في حياتي لا أحلى ولا أغلى.

وطفرت فجأة:

- آه. يااللأنانية . نسيت أن أسألك عن أبيك. كيف حاله؟

- بخير. إنه يتقدم في طريق الشفاء.

وبعد برهة صمت:

- وأنا نسيت أن أسألك عن الحال في البيت. وعن مصير بعثة الخطّاب.

- كانت رتيبة تشعر بالسعادة في تلك اللحظة. فلم تشأ أن تتعرض لأحوالها العائلية. فتعكر، كما بدا لها، صفو هذه الجلسة الهادئة.

إن رتيبة فتاة عجية ماتت أمها منذ عشر سنوات دون أن تخلف غيرها. كان عمر الفتاة آنذاك ثماني سنوات. وكان أبوها واسمه حامد المكاوي يملك

مخزناً لبيع الخرضة بالجملة. يحب النساء بلا أية تحفظات. كما يحب التوابل الكثيرة في الطعام. حتى إن المرء ليلحظ في أي وقت آثار هذه التوابل على فمه الشهواني الواسع وشفتيه الممتلئتين النديتين كأنه ترك المائدة لتوه. أو أنه انسلَّ من جانب امرأة، رغم أن صاحبهما كان قد تجاوز العقد الخامس. ولقد تزوج حامد بعد انقضاء أقل من شهرين على وفاة زوجته من فتاة كان من الممكن أن تكون في مثل سن أولاده لو أنه رزق بأولاد في سنيه الأولى للزواج.

وبالرغم من أن حامد المكاوي كان نمراً في عمليات البيع والشراء والمساومات وكل ما يتعلق بمهنته ويمت بسبب من طرف ما إلى الناس الدائرين في فلكها، وإلى المجابهات اليومية مع الآخرين. هذا النمر كان يتحول إلى قط بين يدي زوجته الثانية التي تصغره بنحو عشرين عاماً.

قالت رتيبة متجاهلة الشق الأول من السؤال:

- فشلت في مهمتها.

وعندما عادا إلى بيتيهما تذكر كل منهما أشياء كثيرة كان يود قولها للآخر. وفكرت الفتاة: «كيف سرقني الوقت. أشياء كثيرة. في المرة القادمة حسناً. في المرة القادمة سأذكرها حتماً». وأيضاً كان هو يفكر ويهمس لنفسه: «كم يمضي الوقت سريعاً عندما أكون برفقتها. كيف نسيت؟ في اللقاء المقبل... أشياء وأشياء. في اللقاء المقبل سأذكرها بالتأكيد».

* * *

في منطقة المرفأ وفي المقهى القريب من الأقبية التي اتخذتها فرق المحاصة مكاتب لها، جلس بعض العمال يقطعون الوقت بلعب الورق، أو يتنادرون في انتظار قدوم باخرة لتفريغ مائتي طن بضاعة منوعة منها قبل أن تواصل طريقها إلى بيروت.

ويمرور الوقت ازداد الجو ثقلاً وتكاثف بالدخان كما اشتد فيه الصخب. وعندها نهض أحمد وانسحب إلى الخارج. كانت أمام المقهى

فسحة ترابية مثلثة جلس في طرفها القصي عجوز ينسج شبكة. كانت الشمس قد وجدت طريقاً لها إلى الركن الذي اختاره العجوز.

وبدا ذلك الركن منوراً دافئاً يغري بالجلوس فيه.

تناول أحمد كرسياً وجلس. كان العجوز منكباً على عمله. يده تروح وتغدو وتخرج وتدخل لتصنع عيوناً للشبكة. قال أحمد: «ما اشبهه بعنكب». كان الرجل يدمدم بأغنية قديمة بينما عيون الشبكة تزداد واحدة بعد أخرى. تساءل أحمد عما جاء بهذا الصياد إلى هذا المكان وليس في الميناء منطقة صيد. وفكر أنه كان من المفترض أن يكون الآن في مغارة الصيادين في ميناء القزاز أو وراء الدبجيات أو في ابن هانئ ورأس البسيط. ولاح لعيني أحمد لحظة أنه واحد من صيادي أقوام الأيام الخالية التي عاشت في هذا الميناء الصغير.

ترك الرجل طرف الشبكة يفلت من يده وأخذ كيس تبغه. وخطر لأحمد أنه لن يلبث أن يتناول غليوناً من الفخار ويحشوه تبغاً.

التفت العجوز ناحية أحمد وبدا عليه أنه لم يشعر بوجود الفتى إلا في تلك اللحظة.

كان العجوز في حوالي السبعين من عمره. له وجه مغضن حافل ينتهي بذقن عريضة يعلوها فم شهواني، كث شعر الحاجبين والشارب أبيضهما.

لكن الرجل وأسفاه لم يتناول غليوناً من الفخار ليحشوه تبغاً كما لاح لأحمد، وإنما فرد بين سبابته وإبهامه ورقة ليلف لنفسه سيكارة. وقتها مد أحمد يده بعلبة سجائره وقال له:

- سيكارة!

نظر الرجل إلى أحمد وكأنه يروزه بنظره. ثم مد يده وتناول سيكارة من علبة التبغ المقدمة إليه. قال له:

- يعطيك العمر. بفرحتك.

وأشعل سيكارة.

- متزوج؟ لايبدو عليك.

ضحك أحمد لهذا الاستهلال الطريف. تساءل:

- وهل هناك ما يميز المتزوج؟

قال الرجل:

- طبعاً. أذناه.

فاتسعت ضحكة أحمد وردد مستغرباً من هذه القرينة:

- أذناه؟

فأكد الرجل:

- نعم أذناه مهدلتان.

كان في العجوز شيء محبب جذب أحمد إليه.

فتساءل:

- وأذناي؟

- ما زالتا مشرئبتين.

فقهقه الفتى. كانت الطلقة الثانية له فقال:

- أما أنت فيبدو لي أنك تزوجت كثيراً.

فتابع الرجل مداعبته:

- كم تبدو أذناي مهدلتهين إذن. الخائنتان؟

- إنهما تفضحانك.

قال الرجل:

- كرهت الأذنين دائماً. غيري يعتبرهما من زينة الوجه. لم أثق بهما يوماً في الكتّاب والبيت كانتا الشيء الوحيد الذي يقهرني. ولم أكن استطيع حيالهما شيئاً. بالفلقة كنت أتمكن دائماً من الإفلات برجل. بالضرب أراوغ. أما الأذنان فكنت أقتنص بسببهما تماماً. ومن ناحيتهما، كانتا لا تحاولان شيئاً وهاهما تشيان بي الآن. الخائنتان.

قال أحمد:

- لم تكن محظوظاً مع أذنيك.

- كانتا تحرجانني دائماً وما أكثر المآزق التي وجدت نفسي فيها بسببهما. مرة وأنا أمشي في حي في إحدى المدن التقطت أذناي صريراً. توقفتا. حاولت دفعهما إلى متابعة السير فرفضتا. حرنتا مثل بغل. قلت: وماذا بعد؟ قالتا لنر ماذا يجري في الداخل. لم أستطع مقاومة الإغراء. فقلت لبيكما. اقتربت من النافذة. كان الوقت ليلاً والنوافذ مشرعة بسبب الحر. أصغيت. استمر الصرير وتتالت التأوهات. قال صوت أنثوي بعد قليل: لا تطل غيبتك. أنا في انتظارك. الوحدة قاتلة. ثم صُفق الباب وخرج رجل. بعد ذلك ساد السكون. فقالتا والآن هل تترك المرأة تقتلها الوحدة. أين شهامتك؟.

بعد ذلك لم أجد نفسي إلا في قلب السرير بجانب المرأة. كيف؟ لست أدري. أذناي هما اللتان قامتا بترتيب الأمور. اللعنة. ما الذي ذكرني بهذه الحادثة؟ أه صحيح الأذنان. حاولت المرأة أن تصيح فوضعت يدي على فمها. حاولت أن ترفس فطوقتها برجليّ. كانت مثل مهرة برية. لكنني عرفت كيف أسلس قيادها.

فضحك أحمد ودفع للعجوز بسيكارة أخرى. قال له:

- لعلك ضربتها.

- يضربها ولد أحمق مثلك. تضربها فتخسرها. لا تضرب امرأة إلا عندما تريد هي ذلك. سوف تعرف هذا في حينه. تقوله لك عيناها ولسانها ويداها.

وأشعل الفتى السيكارة للرجل.

- كانت منيعة مثل بنك. وكدت أفلس في العثور على كلمة سرها.

قال أحمد مداعباً:

- كانت لها كلمة سر؟

- كل امرأة لها كلمة سر والرجل الشاطر يعرف كيف يكشف عن هذه الكلمة. انهارت مناعة الحصن عندما لمست شيئاً ما هناك وراء الأذن تماماً.

ونظر في عيني الفتى:

- هل تستغرب مثل هذا الأمر؟ سوف تتحقق من ذلك عندما تعرف عدداً كبيراً من النساء.

فقال أحمد مداعباً:

- كنت أحسب أن الفم هو المفتاح.

قال العجوز منذراً بإصبعه:

- حذار أن تقرب فم امرأة قبل أن توقع لك اتفاق الاستسلام. الفم هو البوابة. إذا سلمتك المرأة فمها فإنها تقول لك: ادخل فأنت في أمان. ولكن قبل ذلك قد يكون هو شرارة الحرب التي تستفزها. ويقفل دونك كل الأبواب من أجل التفاهم.

وبعد برهة صمت:

- هل تعتقد أن الحادثة انتهت؟ بعد أن صار كل شيء. قالت لي المرأة: اقضي ليلتك هنا وغداً باكراً تمضي لشأنك. فقلت لنفسي لا ضير في هذا القول. وهكذا بقيت. وسرعان ما استغرقت في النوم. ولكن فجأة استيقظت على إضاءة النور. فماذا وجدت؛ كان هناك في وسط الغرفة رجل بوليس برتبة قومندان. وبسرعة فهمت كل شيء. كان رجل البوليس ذاك هو عشيقها كما كانت قد قالت لي. وكان مقدراً له أن يقوم بمهمة خارج المدينة. ولعله لسبب ما ألغيت المهمة فعاد إلى بيت عشيقته. كان عليَّ أن أتصرف بسرعة. تظاهرتُ بالغباء والدهشة من وجودي بجانب المرأة وزعمت أنني كنت مخموراً فتهت في منطقة الميناء وحسبت أن البيت فندق فأويت إليه. أما المرأة فلم تكن أقل تظاهراً مني بالدهشة والفزع لوجودي بجانبها. سألها رجل البوليس: هل اعتدى عليك؟ فقالت له أنها استغرقت في النوم حال خروجه (رجل البوليس) من عندها. وأنها لم تستيقظ إلا بعد أن دخل الغرفة وأضاء النور فيها.

قال أحمد وقد ظهر عليه الاهتمام:

- هيه. ورجل البوليس هل اقتنع بروايتك؟

- لم يكن أمامه إلا أن يقتنع. لكن الشيء الذي ظل يحيره هو كيف أنني دخلت الغرفة من النافذة دون أن أنتبه لخطئي. ولا شك أن استغرابه من المرأة كان أشدَّ إذ توجه إليها بقوله: لم أر في حياتي امرأة تنام بمثل العمق الذي تنامين به بعد أن...

ونظر إليها نظرة ذات مغزى. فرنت إليه بمثل نظرته ثم تضاحكا ضحكة لها معناها.

ولقد خُتم هذا المأزق أجمل ختام يمكن أن يخطر في بالك. إذ لم نلبث أن قرعنا الكؤوس نخب هذه المصادفة الغريبة.

بعد أن أفرغت عدداً من كؤوس الأنخاب التي ابتكرتها لأسد حاجتي إلى الشراب في تلك اللحظة اندفعت إلى الشارع وأنا أقرأ الصمدية. كان الميناء في الجوار فاندفعت إليه جرياً وكأن كل قومندنات العالم تطاردني فأدركت مركبي على وشك الإقلاع.

وأقبل نادل المقهى فأوصى أحمد على قدحي شاي. وتابع المراكبي:

- إيه فضحتني الخائنتان أذني. لماذا أخفي عليك؟ في كل ميناء كان لي عشيقات وكان لي معارك. ولكن كل ذلك مضى. وها أنت ترى الآن إنني أصنع شباك الصيد أو أرفوها. إنها الشيء الوحيد الذي بقي يربطني بالبحر. الوحيد الذي أستطيع أن أفعله من أجل البحر. إنني أقول لنفسي كل يوم: من يدري فقد يمر بالميناء مركب صيد يحتاج إلى عجوز يصنع الشباك أو يرفوها. فقط انتظر الفرصة المناسبة.

وبعد لحظة صمت تطلع المراكبي إلى وجه أحمد وسأل:

- هل اتفق لك يوماً أن سافرت في البحر؟

- كلا.

- لماذا؟ ماذا تشتغل؟ أنت لم تعرف الدنيا إذن؟

- في الميناء.

- هه في الميناء! في جورة الكفر هذه.

قال أحمد:

- ماذا أفعل! تركت المدرسة قبل أن أحصل على الثانوية. في البداية كنت أنزل في الصيف ككثير من الطلاب للعمل في الميناء. ولكن ذات مرة جاء الصيف ورحل. ثم جاء الخريف ورحل. ثم جاء الشتاء ورحل وأنا مازلت في جورة الكفر كما تسميها؛ فأدركت أنه لن يكون هناك عودة إلى المدرسة. وهكذا وطنت نفسي منذ ذلك اليوم على الإقامة الدائمة في الميناء.

- وهكذا جئت لتصير ابن كلبة. ولكن قل لي ماذا تشتغل في الميناء؟

- في البواخر. تنضيد.

- في البواخر أو في المواعين هذا لا يعفيك من أن تكون ابن كلبة أيضاً.

جاء النادل بالشاي ثم وضعه على تربيزة ومضى. حمل أحمد التربيزة إلى قرب العجوز ثم نقل كرسيه وجلس صوبه. قال له مشاكساً وقد أحب في الرجل طرافته:

- مادمت تصر على ضمي إلى عائلة الكلاب فأفضل ابن كلب على ابن كلبة.

- وما الفرق؟

فضحك أحمد ولم يفطن العجوز لأول وهلة إلى ملاحظة الفتى ولكن سرعان ما استدرك:

- آه ابن أبيك وليس ابن أمك. لفتة طيبة. ابن كلب حقيقي إذن؟ وهذا ما يصلح تماماً للبحر. ما كاد بصري يقع عليك حتى قلت لنفسي: هذا بحار. ولكن كم خدعت. اسأله ماذا تشتغل؟ يقول في التنضيد. طز في التنضيد. هيا لم يفت الوقت بعد. سيأتي الزمن الذي تعجز فيه عن السفر. لو كنت في مثل سنك ما وطئت قدماي الأرض. ولكن أنت ترى. كم كبرت؟

رشف أحمد رشفتين من شايه وقال للمراكبي:

- خذ شايك قبل أن يبرد.

ثم أضاف متأثراً:

- إنك تغربت كثيراً؟

فردَّ العجوز:

- تغربت!

وضحك ضحكة قصيرة هي أقرب إلى الاستهزاء:

- لم أعرف الاستقرار أبداً. كنت أصغر منك عندما اعتليت ظهر أول مركب. لم يكن شعر ذقني قد نبت بعد. كنت أحسُّ أن اليابسة لم تعد تحملني. وكان لدمي الفائر في عروقي ضجيج في سمعي. قلت لريس مركب: هل تأخذني معك؟ قال: وماذا أفعل بولد مثلك؟ ماذا تستطيع أن تشتغل؟ قلت أدهن بويا. أقلفط. أكنس العنابر بعد التفريغ. أحمل الماء للطباخ وأقشر البصل والبطاطا. أتسلق السواري. أربط الحبال. أفك الحبال وأساعد في نشر الخام. وتسلقت سارية من سواري المركب لأريه براعتي، وعندما نزلت ضحك وقال: أنت تجري على السارية بخفة الفئران في عنابر مركبي. غداً احمل ثيابك وانزل إلى «أم السعود». السفر عند الغروب. وفي اليوم التالي جعلت ثيابي في صرة ورحلت مع المركب. بقيت فيها حتى بيعت. اشتراها رجل يشتغل بالتهريب. ثم عملت على ظهر باخرة وبعد مدة غيّرتها. وهكذا كلما مللت من واحدة انتقلت إلى أخرى حتى وصلت إلى شواطئ صيد الحيتان. تهت في البحر. نزلت إلى الجزر وعشت على فاكهتها أياماً بل شهوراً. عريت واكتسيت أبهى الحلل. زرت مرافئ العالم وضعت في أزقتها. سكرت في خماراتها ونمت مع نسائها. عرفت اللصوص والقتلة والسكيرين والأوغاد وأنصاف الآلهة حتى لأحس الدنيا كلها في داخلي. خيرها وشرها طيبها وفاسدها.

كان المراكبي يتكلم بكل كيانه. بفمه، بعينيه، بيديه وجبينه وكل عضلة في وجهه. وكان أحمد يتابعه ويعيش معه. لقد خرج لينعم بدفء الشمس هرباً من الضجيج في الداخل. فإذا بالأرض تنشق على غير توقع عن هذا المارد ليخلق الضجيج في قلبه وعروقه وخياله.

- امض في البحر. أنت مازلت صغيراً. في مركب في باخرة. الأمر سواء. فقط امض. اركب لوحاً خشبياً وانشر قميصك قلوعاً. الدنيا مازالت أمامك عذراء. غابة بكر. جزيرة. شاطئ منسي لم تقرعه قدم قبلك. كل خطوة اكتشاف. وكل اكتشاف يسلمك إلى لغز لتفتحه بيدك وقلبك. غداً تنظر إلى نفسك في المرآة وستهولك السرعة التي ابيضّ فيها شعرك وتخلخلت أسنانك.

وفرد المراكبي ورقة بين سبابته وإبهامه ونشر عليها التبغ. نفس الورقة التي كان قد أهملها منذ بعض الوقت، كانت يده ترتعش فسارع أحمد يعرض عليه سيكارة من علبة تبغه. فقال وقد ران عليه انقباض مفاجئ على نحو تلك الفجاءة التي اندفع فيها من قبل وقد انبسطت نفسه:

- إليك عني أنت وسيكاراتك. مازلت أقوى على لف سيكارة لنفسي. قال تنضيد قال.

قال أحمد:

- لا تغضب قد أسافر يوماً.

وأضاف في سره: «يا له من رجل غريب. لا أدري إذا كان عاقلاً أو غير عاقل. لا أدري ما مقدار الصدق في كلامه. كلهم يقولون نفس الشيء. في كل ميناء لهم معارك وكل ميناء لهم فيه نساء. ولكن المرء لا يحتاج إلى إيمان كبير كي يصدق عندما يجلس مع بحار. حسبك أن تنظر إليه وتصغي إلى قصصه حتى يلهب خيالك ويمسي كل غريب يقوله رائعاً ساحراً».

وأشعل المراكبي سيكارته ورشف شايه على دفعات مهمهماً بين رشفة وأخرى، متلذذاً أو متأسياً ثم نهض قال:

- أسكن القبو الثالث إلى اليسار من هنا. تعال لزيارتي يوماً أقدم لك قدحاً طيباً من الشاي.

ولمس كتف أحمد. ولم يلبث أن انحنى فلملم شبكته وحمل خيطانه وصنارته وتبغه ومضى في الاتجاه الذي أشار إليه. وتابعه أحمد وهو يبتعد.

كان طويلاً مديداً أميل إلى النحول منه إلى الاكتساء. وكان يظلع في خطوه. وتحركت عينا أحمد تبحثان عن موضع العيب فيه. ونقل بصره حتى وقف عند قدمه اليمنى. كان وضعها وهي تستقر على الأرض مغايراً لوضع القدم اليسرى. فأدرك أحمد على الفور أن الخلل من هذه القدم. قال لنفسه: «هذه ضربة سيف أو طعنة مدية. لقد تركت حياة القرصنة الحافلة أثرها عليه».

* * *

- شغيلة الطلياني والدانمركي والألماني جاهزون؟

- جاهزون.

رد ملاحظو البواخر على كاتب الفرقة. ثم راح العمال يقفزون من كل ناحية، فوق الرصيف إلى الماعونة. وما إن استقروا فيها جميعاً حتى تحرك اللنش الذي يقطرها وهدير آلته يتراوح بين الضعف والقوة تبعاً للمناورة التي يقوم بها. لقد وجد السائق نفسه محصوراً بين لنش آخر وطرف ماعونة ثانية فراح يعمل على تخليص لنشه. وكان معاونه يساعده في مناورته هذه بواسطة رمح خشبي متحركاً على ظهر اللنش متنقلاً هنا وهناك بفتوة ونشاط.

وعندما شق اللّنش طريقاً لنفسه وتخلص من معوقاته شخر مرة بعد مرة يلتقط أنفاسه وكأن هذه العملية التي لابد أنها قد أتعبت السائق انتقلت إلى محركه بدورها. ولم يلبث أن انتظم هديره فتحرك إلى الأمام قاطراً الماعونة وعلى متنها العمال. كان بعضهم واقفاً على جوانبها يتلهى بالنظر إلى الحوض الداخلي للميناء منّقلاً بصره بين المراكب والمواعين المحملة والفارغة واللنشات والبواخر. وقعد آخرون في قاعها يتمازحون ويتنافرون كالديكة، بينما اكتفى البعض بالمشاهدة أو اعتلى مقدم الماعونة أو مؤخرها.

كان أحمد يجلس في المقدمة. وبعد أن أشبع عينيه وروحه بالميناء وما فيه ارتد ببصره إلى الماعونة.

كان أحد العمال يجري هنا وهناك لاسترجاع طاقيته التي راح يتقاذفها نفر من زملائه. عبثاً كان يحاول. لكنه ما لبث أن انقلب من الدفاع إلى الهجوم. وبدلاً من أن يحاول استعادة طاقيته اختطف طاقية أحد غرمائه. وسرعان ما

وجد أنصاراً له فنزعوا ما على رؤوسهم من طاقيات أو كوفيات دسوها في جيوبهم تحسباً للطوارئ وراحوا يتقاذفون الطاقية الجديدة. وهنا انتقل المتفرجون بأبصارهم بين الضحك والصفير من هؤلاء إلى أولئك.

نظر أحمد إلى ذلك الجمع من العمال الذين علا البشر وجوههم، هؤلاء الذين طالما تاقت نفسه وهو على بعد مئات الكيلو مترات أن يكون بينهم ملطخ اليدين، ملوث الثياب، مغبر الشعر والوجه. يستيقظ في الأصباح الباكرة، ناثراً – وهو عجل من أمره يلوك لقمة كيفما اتفق لتدخين السيكارة الأولى – ناثراً زوادته التي هيأتها له أمه. مسارعاً إلى أخذ مكانه في الماعونة المبحرة لترابط بجانب باخرة. وهاهو الآن في قلب الرفاق ليس بالفكر، وإنما في الواقع بلحمه ودمه وروحه.

ما أيسر ما تسير به الأمور هذه الأيام. التسجيل والنزول إلى الماعونة والإقلاع. سلسلة بسيطة من الإجراءات. كل واحدة تنتهي إلى الأخرى بلا أية انفجارات ودون بذل للنفس.

وجنح بفكره إلى الماضي. وخال نفسه يقف على طرف الرصيف بين عشرات العمال.

كان الوقت مبكراً تماماً آنذاك والدنيا مسربلة بغبش الصباح الرمادي. وابن الملتزم يقف في قاع ماعونة. وعلى مبعدة متر وقف اثنان من ملاحظي العمل في البواخر. كان يرتدي سترة من الجلد المبطن وسروالاً أزرق على رأسه طاقية من الصوف كحلية اللون وينتعل حذاء مطاطياً طويل الساق. كان في حوالي الثامنة والعشرين من عمره يرفل جسمه في إهاب من الصحة.

إنه هناك في الماعونة رمز للغطرسة وقد باعد مابين ساقيه واتجه بوجهه من ثم إلى العمال الذين وقفوا على الرصيف، يشير بيده للعامل الذي وقع عليه اختياره قائلاً:

- تعال أنت.

وما أن يرى العامل الإشارة التي خصه بها ابن الملتزم ويسمع «تعال أنت» حتى يقفز من الرصيف إلى الماعونة. هو ذا عامل يمر ببعض الطقوس

التي صارت من أصول اللعبة الصباحية مع الأيام قبل أن يأخذ مكانه بين العمال الذين حبتهم العناية الإلهية برضى الملتزم فكان لهم حظ العمل في ذلك النهار. إنه يمر من أمام ابن الملتزم فيوجه إليه هذا، بين ضحك المتفرجين وسخريتهم، صفعة على قفاه يلحقها برفسة من قدمه في مؤخرته.

لكن لا ضحك ولا سخرية والدور ينتظر الجميع. المهزلة تفجر الغضب في النفوس والتحدي يحتدم في بعض الصدور.

- «الحمير لا تشتغل كما نشتغل نحن

- هذا ظلم

- هذا كفر.

- نحن نسوان

- عيب أن تكون في وجوهنا شوارب.

- هذه الحالة لم تعد تطاق».

وعاد أحمد من رحلته إلى الماعونة على صوت يقول له:

- العبد في التفكير والرب في التدبير.

فالتفت أحمد وقال باسماً:

- أهلاً بالخال.

والخال في الخامسة والخمسين اشتغل أول ما نزل إلى الميناء حلاقاً على الأرصفة ثم وجد أن صنعته لم تلق الرواج الذي كان يتوقع فما كان منه إلا أن باع نصف عدته وأحتفظ بموسى وماكنة حلاقة ومقص وبالمشط طبعاً والتحق بالعمل في البواخر. في البدء أخذ يصطحب معه سراً موساه وماكنته ومقصه ومشطه ليحلق لزملائه خلال الأوقات التي يكون فيها العمل متوقفاً لمدة طويلة لسبب من الأسباب إنْ على الأرصفة أو في البواخر. غير أن الملتزم والملاحظين أفهموه بشدة أن بطيختين بيد واحدة لا تحملان، وأن عليه أن يختار بين العمل في البواخر، أو مهنة الحلاقة. فامتنع الرجل نهائياً عن اصطحاب عدته.

قال أحمد:

- شطح خيالي إلى الماضي. رأيت مرة فيلماً يدور حول سفينة يملكها طاغية في أعماقها عبيد رُبطوا بسلاسل حديدية ويُضربون بالسياط باستمرار لدفع السفينة بالمجاذيف بأقصى ما يملكون من قوة. لا أدري لماذا تعاودني هذه الصورة كلما تذكرت حالنا في الماضي.

فقال الحال:

- الشيء بالشيء يذكر.

أقبل إبراهيم من أقصى الماعونة وتسلق مقدمها. انضم إلى زميليه أحمد والخال فقعد صوبهما متربعاً. وضع إبراهيم كيس زوادته الذي كان يتدلى من كتفه في حجره.

قال أحمد مداعباً:

- ماذا تقول الروزنامة في هذه الحال؟

- أية حال؟

- حالنا اليوم وحالنا بالأمس. أعني مع الطغاة؟

كان من عادة الخال أن يحتفظ في جيبه باستمرار برزمة من أوراق الروزنامة ذات الأقوال المأثورة. فما أن يُثار موضوع ما ويشتد فيه النقاش حتى يتناول ورقة من مجموعته الخالدة ويتلو ما فيها بهذه المناسبة. قال الخال:

- نسيت أن أنزع ورقة اليوم. ولكن معي ورقة البارحة وأعتقد أنها تليق بهذه المناسبة.

قال عامل فتي جلس في مقدم الماعونة على مقربة من المتحاورين لزميل له:

- عجبت لهذا الخال.

كان العامل ريفياً، نزل حديثاً إلى الميناء ولم يكن قد استوعب بعد الروافع والبواخر واللنشات وعادات العمال وأحاديثهم وصراخهم وتجديفهم

وإيمانهم ومزاحهم وصفيرهم. ولا القبح والجمال وعجلات الطنابر وزعيق السيارات، ولا الجري واللهاث والمساومات والسرقات. ولا الأشرار والأخيار والبضائع في الميناء.

قال الزميل:

- ما الأمر الذي عجبت له فيه؟

قال العامل الفتي:

- ما أكثر العمال الذين هو خالهم. يا إلهي كم له من أبناء الأخوات في هذا الميناء؟

انفجر العامل بالضحك وقال:

- ولكن هذا خال كل الناس. خالي وخالك وخال الجميع.

التفت أحمد ولعله سمع طرفاً من المحاورة فأدرك الالتباس. وأضاف ضاحكاً:

- وخالي أنا أيضاً.

ازداد حرج الفتى فصعد الدم إلى وجهه. ولم يجد مناصاً، إذا شاء الخروج من حرجه، إلا أن يشارك الآخرين ضحكهم، فضحك بدوره.

قال أحمد:

- هيه ماذا تقول روزنامة البارحة؟

عندئذ مدَّ الخال يده إلى جيبه وأخذ منها دسته من أوراق الروزنامة قلّب عدداً منها بعد تردّد حتى عثر على ضالته. فردها من بين المجموعة وعرضها أمام عينيه وقرأ باحتفال مهيب:

- لكل زمان دولة ورجال.

هز أحمد رأسه مؤيداً. وقال إبراهيم بعد أن رأى رأس أحمد يهتز بالرضى:

- هذا القول طيب والله.

سأل الخال أحمد وكان من عادته أن يسأله عقب كل قراءة قول مأثور:

- هل من تعليق؟

لم تكن معرفة الخال بأحمد حديثه العهد فهي تمتد إلى الأيام الأولى لنزول أحمد إلى الميناء. وكان الخال يميل إلى أحمد ويقول عنه أنه ولد هكذا تاركاً لحركة كفه المستقيمة مهمة التعبير عما في ذهنه. وكان خليقاً أن يولي آراءه من التقدير ما يوليه لأوراق الروزنامة، ولو تعارض معها أحياناً.

نظر الخال إلى أحمد مستطلعاً. لكن أحمد كان في هذه اللحظة منشغلاً بهذه القضية. أليس من الجائز أن تذهب دولة ما ويبقى مع ذلك بعض رجالها. خذ يوسف العريان مثلاً. كان ملاحظاً في الماضي وسوطاً يلاحق العمال في دولة الطغاة وهاهو ذا الآن رئيس فرقة. لماذا؟.. ذهبت دولته واستمر في دولة غيره. بل صعد إلى مركز أفضل في دولة غيره. أما كان العدل يقضي بأن يرحل مع الراحلين.

ومدّ أحمد بصره إلى الشرق. كانت الشمس قد ارتفعت من خلف البيوت الهاجعة إلى المكان الذي في ميسورها أن تطل منه على المدينة. وبدت للحظات أنّها توقفت لترسل آخر صيحاتها في استنهاض المترددين قبل أن تحث الخطى في الأعالي.

وابتعدت الماعونة المقطورة شيئاً فشيئاً عن فم الحوض الذي خرجت منه منذ بعض الوقت. وظهر الشاطئ الصخري المتعرج كحد فاصل بين الماء واليابسة. ولكنه لاح في نفس الوقت وكأنه مقدم المدينة التي ارتفعت من جهة فمالت من الجهة الثانية وراحت تنزلق نحو الماء لتستحم فيه.

ارتد أحمد ببصره وقال بعد أن تنهد:

- لاشيء يبلغ الكمال.

فأعلن الخال على الفور ودون أن يفهم العلاقة بين هذا القول وبين ما يدور في ذهن أحمد:

- الكمال لله وحده يا أخي.

وأضاف الخال بعد برهة:

- ترى شخصاً يبيع الترمس وهو أهل ليبيع اللوز أو البندق.

فسأل إبراهيم وقد نظر بطرف عينه إلى أحمد:

- يبيع أم يأكل

فقال الخال:

- لا تزعل «يأكل». وآخر يبيع اللوز أو الجوز وهو أهل ليبيع الفول.

وسارع إبراهيم مصححاً:

- يأكل.

ونظر مرة أخرى بطرف عينه إلى أحمد.

فكرر الخال مؤكداً:

- نعم يأكل.

وأضاف معقباً:

- دنيا مخلوطة.

فابتسم أحمد. وأعلن صوت قوي في تلك اللحظة:

- شغيلة الدانمركي.

ورد عليه آخرون:

- أليسطا يا ريس

وخفف اللنش من سرعته وبدأ بالانحراف ليصف الماعونة التي يقطرها وراءه إلى جانب الباخرة.

* * *

- هؤلاء الطليان مثل العرب.

قال إبراهيم ذلك تعليقاً على ملاسنة جرت بين بحارين إيطاليين قبل لحظات. كان البحاران يعملان دهانين في الباخرة وقد اختلفا حول هذه المسألة. هل يبدآن عملية القشط في جسم الباخرة الخارجي وبالتالي الدهان من اليمين أم من اليسار.

كان البحاران يحملان أدوات القشط وجرادل الدهان. وحينما حمي النقاش دون أن ينتهيا إلى نتيجة إيجابية ذهبا ليحكّما رئيس شغيلة الباخرة في الموضوع الذي اختلفا بشأنه.

قال الفهد وهو عامل فلسطيني شاب في عينيه بريق وذكاء:

- كنت أحسب أن العرب وحدهم يختلفون حول مسائل صغيرة مثل: هل يبدآن قشط البويا القديمة وطلاء بويا جديدة من اليمين أم من اليسار.

وأكد إبراهيم مرة أخرى:

- إنهم مثل العرب يملأون الدنيا حركات وإشارات بأيديهم. وتنتفخ أوداجهم ويعلو صراخهم من أجل لا شيء.

فقال أحمد مازحاً:

- لا غرابة في ذلك. فهم جيران ولهم نفس الطبيعة العصبية. إنهم يعيشون على شواطئ البحر المتوسط.

قال أبو الذهب وهو ينظر من مكانه إلى الشاطئ:

- دعونا من قصة العرب والطليان.

كان أبو الذهب رجلاً في الستين أو أكثر قليلاً. حول جبهته عصابة دائمة. لماذا؟ لا أحد يعرف بالضبط سوى ما أعلنه هو شخصياً من أنها تحمي الرأس من الشمس وتقفله منعاً للصداع. فعلق على كلامه ظريف واحد من جملة الذين كانوا يعلقون مازحين. علق قائلاً: من الصداع أم تقفله من حذائها (يقصد زوجته)؟ فاستشاط أبو الذهب غضباً ووجه السباب إلى أمه، بل إلى عضو معين من أمه وليس لأمه كلها. وبمرور الأيام تناقص عدد الظرفاء الذين كانوا يعلّقون حتى انعدم تماماً. ذهبت تعليقاتهم. بطلت وبقيت العصابة على الجبهة كالعلم.

فقال له الخال:

- عن أي شيء تريدنا أن نتحدث؟ عن النسوان؟

- وماذا في الأمر؟ حديث النسوان يبل الحلق ويطرب القلب.

قال الفهد برماً من تحويل الحديث عن الموضوع الذي يشغله:

- هذا هو الشيء الذي يشغل بال ابن العرب، النسوان.

ثم أضاف بأسى:

- يبدو لي مع ذلك أنه عندما يخوض فيه يكون صادقاً مع نفسه أكثر من حديثه عن الحرب مع اليهود.

قال الخال:

- يا جماعة اتركونا من قصة الحروب والنسوان فاندفع إبراهيم:

- من أجل امرأة يبيع ابن العرب ثيابه.

قال الخال:

- ليس الكل هكذا.

قال أبو الذهب محكّماً أحمد:

- هل جئنا لنتقاتل أم لنهزل؟

قال أحمد ضاحكاً:

- طالما أن كل ما يجري حولنا هزل أو يشبه الهزل. فلابد لنا أن نهزل نحن أيضاً.

قال أبو الذهب:

- لا خلاف إذن. اتفقنا.

ثم مضى إلى سور الباخرة فألقى نظره على الشاطئ وقال لنفسه: «متى ينزل البحر». كان أبو الذهب كثيراً ما يشاهد في أمكنة معينة في الشاطئ يصوِّل الرمل بحثاً عن الذهب. وكان قد اكتسب عادة التحدث إلى نفسه في وحدته الطويلة مع الصخر والماء والرمل والسراطين التي تجري مذعورة على الشاطئ.

عاد إلى مجلسه فقال له الخال:

- عيب عليك رجل في الستين

فقال أبو الذهب:

- عيب لمن كان مثلك يتظاهر بشيء بينما هو يبطن شيئاً آخر. لماذا أهرب من قول الحقيقة. عندما أتحدث عن النسوان أحس في داخلي شيئاً يهتز أكثر مني عندما أتحدث عن الحرب.

فاندفع الفهد وقبّل أبا الذهب في جبينه فأصابت شفتاه عصابته:

- تقبرني عينك. عبرت ما أردت أنا التعبير عنه هذه هي نقطة ضعف العرب. النسوان.

فقال الخال:

- ها نحن نعود إلى اللعنة. حكاية الحياة.

قال إبراهيم:

- احترنا يا أقرع. لا تريد التحدث عن الحرب ولا عن النسوان.

قال أحمد بلهجة ذات مغزى:

- الخال لا يرغب في التحدث عن الحرب. هذا أمر لا يمكن نكرانه.

فتساءل إبراهيم:

- وماذا عن النسوان؟

فقال أحمد غامزاً بعينيه:

- يرغب ولكن بنسبة أقل. يرغب إذا رغب الجميع في ذلك.

ثم إلى الخال:

- ما رأيك خال؟

فبدرت من الخال حركة لا هي قبول في الظاهر ولا هي رفض، وإن كانت هي في الواقع أقرب إلى القبول.

كان الخال يعاني بعض المتاعب مع زوجته بسبب الوصال. كانت زوجته معتلة الصحة تشكو من مرضٍ معدٍ مزمن. وكانت قد درجت على استنفار حواسها ويقظتها كلها لمراقبة مرضها. الأمر الذي كان لا يدع لها

فضلة من وقت لتفكر بالوصال. فما أن تبدأ هجمة الألم حتى تنهض من فورها لتشرب قدحاً ساخناً من منقوع الأعشاب وتستلقي من ثم على فراشها متعبة مهدودة. وكان الخال قد راض نفسه منذ زمن على هذه الحال الشقية مع زوجته. لذلك كان ما إن يعرض حديث المرأة في مجلس أمامه حتى يسارع إلى الاختباء وراء رغبة الآخرين في المشاركة في ذلك الحديث الذي لم يكن، كما يرى الخال فيما بينه وبين نفسه، خليقاً بمن كان في مثل سنه أن يشارك فيه بشكل سافر.

فأيّد الفلسطيني ولعله قال في نفسه: «من الجنون الجدية في مجالس الهزل». أيد قائلاً:

- الخال يلبس ما تفصلون.

وظلت ملامح الخال على حيادها الظاهري فانبرى أبو الذهب وقال بحماسة:

- لا تصدقوا تظاهره الكاذب. سلوني أنا. لقد مررت بمثل حالته. إذ لا شيء يمتع قلب الرجل مثل الحديث عن النسوان في هذه السن اللعينة.

فقال الفهد:

- مررت بها ولعلك ما زلت تعاني منها.

فقال أبو الذهب:

- لماذا النكران؟ هذا صحيح وحق الله.

قال أحمد:

- أنت حقيقي أكثر منا كلنا وحق الله.

وقال إبراهيم:

- جهلة الستين.

وقال الخال في آخر محاولة دفعاً للشبهات عنه. وإن كان غرضه لم يخف على أحد:

- لعلك خرفت يا أبا الذهب.

لكنه ما لبث أن ندم عندما تهيأ أبو الذهب ليرد عليه.

وخشي أن تسوء الأمور فينصرف القوم عن الحديث الذي يتشوق له.

غير أن أحمد سرعان ما أمسك بزمام الأمور:

- دعونا من المسائل الجانبية ولنتحدث في الأهم.

والتفت إلى أبي الذهب:

- إيه ما رأيك بالطليانية؟

- أية طليانية؟

وكور أحمد يديه وجعل إحداهما ترتفع والأخرى تنزل في حركة إيقاعية متناولة:

- لا تتجاهل. كنت أراقبك من هناك. يومان مضيا وأنا أراقبك من وراء الونش. كلما مرت أكلتها بعينيك من الخلف.

- فضحتني يا ابن اللئام.

- الله جميل يحب الجمال.

- آه آه يا أبا الذهب.

قالها إبراهيم وهو ينظر في الوجوه حوله.

قال أحمد:

- عندما رأيت تعلق عينيك بعجيزتها قلت: أبو الذهب والله شرقي أصيل.

- وأنت ابن كلب أصيل.

وقال إبراهيم بحرارة:

- قبل قليل كنت شجاعاً تماماً. ماذا حدث لك؟

ومال أحمد على إبراهيم وقال له هامساً:

- وأنت أيضاً لم تغفل عيني عنك.

فانتفض إبراهيم مثل النابض وقال:

- ولكن أنا لم أنظر من الخلف.

فقال أحمد:

- بل من الأمام.. أعرف ذلك.

وعززت هذه الملاحظة من ثقة إبراهيم بأحمد بأنه شخص لا يمكن خداعه بسهولة. وتلاقت عيناهما في ابتسامة ذات معنى.

وقال أبو الذهب:

- إلى ماذا تقودونني لعنة الله عليكم.

- للحديث عنها. لماذا تحبها كبيرة؟

وكور أحمد يديه.

- لأنها تملأ الحضن. لعنة الله عليكم. تشبع منها العين طنجرة الطعام الكبيرة.

وقال الفهد:

- صار أبو الذهب يكتفي من طنجرة الطعام الكبيرة بلذة النظر.

- باطل. قال أحمد.

وقال أبو الذهب للخال:

- اضحك. ريقك سال لحديث النسوان.

وقال الفهد:

- وإذا سمعت أم علي؟

- أم علي في البيت.

وقال الخال:

- ماذا ادخرت لآخرتك؟

- لا تبيع أخلاق يا منافق.

واندفع أحمد قائلاً:

- ما لكم هجمتم عليه دفعة واحدة. العمى صهيوني.

- دعهم أخي أحمد. عليّ بهم جميعاً. ليتهم يتحمسون للأرض مثل تحمسهم للعرض.

وقال إبراهيم:

- فكر في الغد.

وقال أبو الذهب:

- اليوم أنا موجود، وغداً...

وعضَّ لسانه وأمال رأسه:

- طز في كل شيء.

وارتفع صوت ملاحظ الباخرة من مكان ما:

- تحركوا يا شباب. جاءت مواعين الشعير.

فنهض المتحلقون وتفرقوا إلى أعمالهم. بينما اقترب أبو الذهب من سور الباخرة وألقى نظرة على الشاطئ وتساءل:

- متى ينزل البحر؟

* * *

بعد أن كشف العمال أغطية العنابر الثلاثث ١و٢و٣ وهيأوها للشحن لم يجدوا ما يعملونه. كان الوقت صباحاً، ومواعين القطن لم تصل إلى الباخرة بعد. كانت الباخرة في يومها الأول وشحنتيها من القطن تُجهز هناك على الرصيف. تُنقل على عربات تجرها البغال من مستودعاتها خارج الميناء. ثم تُوزن وتنزل إلى المواعين لتأخذ طريقها إلى الباخرة. في هذه الأثناء ربما فكر عامل أن يشغل نفسه بتناول الفطور ما دام ليس ثمة ما يعمل. وتقرقر معدته فيتقدم على الفور من المكان الذي علّق فيه صرته فيأخذها ويجلس على ظهر الباخرة متربعاً حيث يفرش زوادته ويشرع في تناول طعامه. وبعد قليل يحذو حذوه عامل آخر. ولا يمضي وقت طويل حتى تسري العدوى بين العمال. ولعل نفس الأفكار تدور في ذهن أحمد وإبراهيم فينتحيان ركناً وهناك يفردان صرتيهما ويروحان يطعمان. ولا يلبث أن يلحق بهما محمد الطفران.

ومحمد الطفران هذا عمل جمّالاً عند أحد الأغوات لمدة عشرين سنة ينقل على ظهور جماله العدس والتين والتبغ المدخن والحمص والشوفان والشعير والزيتون والسمسم والحطب من القرى إلى المدينة. وقد تعلم من الجمال التي يسوسها أشياء كثيرة. تعلم الصبر والهدوء والتأمل كما تعلم الاجترار. كان غالباً ما يجتر طعام الوقعة الفائتة. وإذا لم يجد في معدته ما يجتره راح يجتر صور الطعام ويجتر معها أحزانه.

لم يكن في بيته سوى صندوق تزين صدره مرآة وعشرات المسامير التي كانت رؤوسها لماعة ذات يوم. وفي داخله كان يرقد سرواله البلدي بطياته العديدة وسترته وقميصه وحذاؤه وجرابه. وقد كان فخوراً بهذا الصندوق أيما فخر. ليس لأنه الشيء الوحيد الثمين في بيته بل لأنه من ذكرى أمه وأبيه. وكان عنده فراش مفرود على الدوام فوق حصير مضفور ضفراً خشناً. إذ ما حاجته إلى طيه وليس في البيت أولاد. كان عازباً وكثيراً ما راودته المرأة في أحلامه. وُجد ذات يوم من يهمس في أذنه:

- ماذا يعطيك الأغا؟

قال له:

- ليس بيني وبين الآغا حساب. إنه يقدم لي من التنباك ما يكفيني طوال العام. عندي في صندوق أمي سروال وجاكتة وقميص وحذاء. أعطاني الآغا بيتاً وراء الزريبة لأنام فيه. كما عندي حصير ضفر وفراش ولحاف وقبقاب للوضوء.

- وماذا بشأن الدراهم؟

- في صندوقي خمس عشرة ليرة.

- هل تحب الآغا؟

- الآغا رجل طيب.

وقد همس نفس الرجل في أذن محمد الطفران إن الآغا يسرقه، واستطاع أن يخلخل قناعته بطيبة مخدومه. وأفهمه أن أجر يوم في الميناء

يعادل أجر عام عند الآغا. فما كان من محمد الطفران في اليوم الثاني إلا أن شال صندوق أمه على ظهره وترك للآغا كل شيء. ترك الحصير والفراش واللحاف وقبقاب الوضوء ومضى بصندوقه إلى جهة ما ثم راح يعمل في الميناء.

وفي الميناء وضعوا في يده مدية وقالوا له: ابقر أكياس الحنطة والذرة والشعير. لقد عتل على ظهره خلال حياته ما يكفي من الأكياس من وإلى ظهور الجمال. وآن له أن يستريح بعملٍ مثل فتح الأكياس. أما لماذا جاء إلى باخرة ستشحن قطناً مع أن هناك باخرة تشحن ذرة بيضاء فربما حدث ذلك بطريق الخطأ لدى توزيع العمال. المهم بالرغم من أنه قد مضى على محمد الطفران في عمله الجديد بضعة أعوام فقد كان لا يزال مبهوراً في عالم أعمال البواخر والبحر.

قال أحمد:

- هل أفطرت يا محمد؟ تعال وشاركنا فطورنا.

واقترب محمد مثل قط مستوحش وجلس متربعاً.

ردد أحمد مرة أخرى:

- شاركنا فطورنا يا محمد.

كان يتعين على المرء أن يطرح السؤال أكثر من مرة على محمد حتى يظفر منه بجواب مقتضب:

- أكلت.

ثم صمت. فبالإضافة إلى صفات الهدوء والتأمل والصبر والاجترار التي تعلمها من الجمال كانت هناك مزية الصمت أيضاً. ولم يكن ثمة ما يخرجه عن صمته إلا التحدث إليه عن الآغا والمرأة.

قال إبراهيم:

- هل اشتقت إلى الآغا؟

- كلا.

- وإلى الجمال؟

- الجمال مخلوقات صبورة وطيبة.

- ماذا تملك الآن؟

- عندي صندوق وسروالان وجاكتة وقميصان وحذاء جديد وجوربان.

ثم ضحك كأنما لكزه شيء في جنبه:

- أملك حصيراً وفراشين ولحافين وامرأة وولد.

وغمز إبراهيم محمد الطفران بعينيه وقال له:

- إذن أنت لم تعد طفراناً؟

- كلا معي مائة ليرة.

- وهكذا سبقتني وسبقت أحمد.

وغمز إبراهيم بعينيه ثانية ولكن غمز أحمد هذه المرة:

- نحن ما زلنا طفرانين.

فقال محمد الطفران بعفوية:

- لا تتأخر أكثر من ذلك. فالجمل الأخير هو الذي يضحك منه الأولاد دائماً.

قال أحمد:

- جزاك الله يا محمد ها أنت ذا تنطق بالحكم.

ثم إلى إبراهيم:

- إلحق قبل أن يجري وراءك الأولاد.

قال إبراهيم:

- لماذا لا تفعل أنت؟

- أنت تدري أني سأفعل. ولكن ماذا بشأنك أنت؟ هل ما زلت هائماً بالطليانية؟

- آه بنت الكلبة. فقط لو لم تسافر.

فقال أحمد وهو يرفع قطعة خبز في فمه ويلحقها ببضع حبات زيتون:

- هل علقت بها؟

- كلا وإنما كنت أفكر في شيء.

ثم ضحك. وحثه أحمد:

- تفكر بماذا؟

- كنت أقول لنفسي.

وبدا أنه عدل عما كان يريد أن يقول وقال بدلاً منه:

- يا إلهي كم كانت شقراء.

ولاحقه أحمد وهو يلوك لقمته:

- لم تقل لي ماذا كنت تقول لنفسك؟

وقال على استحياء:

- كنت أقول لنفسي. هل هي شقراء في كل جزء منها. أعني كل شعرها.

فقال أحمد وقد دارى ضحكة كادت تفلت منه:

- طالما هي شقراء وشعر رأسها أشقر فلا بد أن يكون كل ما ينبت من شعرها أشقر أيضاً.

- أعني وهناك أيضاً؟

- وهناك أيضاً.

وأسند إبراهيم ظهره إلى حديد الباخرة ونفخ مرسلاً من بين شفتيه صفيراً وقال أحمد مداعباً:

- قدرك يغلي فوق النار.

- ولكن ليس فيه إلا الحصى.

- استبدل الحصى بالبطاطا.

- البطاطا يلزمها مال.

- المال دائماً. يلعن دين المال.

ثم بعد فترة صمت:

- قل لي يا إبراهيم ماذا قبضت البارحة؟

- سبعين ليرة. لماذا؟

- هل تدري ماذا قبض علي السّماك؟ مائة وثلاثين ليرة.

- ولكن السّماك محاص.

- لماذا لا نكون نحن أيضاً محاصين؟

- هل بحثت الأمر مع أبي لهب. قلت لي إنك ستبحث معه الموضوع.

- أبو لهب أو غيره. هناك خمس فرق محاصة. قلت لنفسي. اتركهم يا ولد حتى يطلبوا هم ذلك. قلت لعلهم يخجلون.

- أنت تتحدث عن الخجل في الميناء يا أحمد وقد خبرت أهله.

- لست أدري. لا أريد أن أظلم أحداً من الرياس. أشغالهم كثيرة كما تعلم. حركة الشحن والتفريغ معلقة في رقابهم. ربما كانوا يحتاجون إلى شيء من التذكير. لا تتسرع في الحكم على شيء قبل أن تخبره. العجلة من الشيطان.

فقال إبراهيم وهو يزدرد ريقه الذي سال ويروِّح بكفه أمام فتحة فمه في حركة عابثة. كان قد أكل قطعة فليفلة حريفة أطلقت دمعه من عقاله.

قال:

- أنت تحكم عقلك دائماً.

فقال أحمد:

- لم نر من الإخوان إلا المعاملة الطيبة.

- طز في معاملتهم الطيبة. إنهم يشغلون الكلاب عند الحاجة. حكم عقلك أنت. يبدو لي مع ذلك أنهم مقصرون في حقنا.

قال أحمد:

- لنترو.

- طيب. الرياس في رؤوسهم ما يشغلهم عن التفكير في قضيتنا. ممكن. ولكن ماذا بشأن أولاد العاهرة الشغيلة. ماذا في رؤوسهم غير الباصرة؟

- الباصرة فقط؟

- لنقل الباصرة ولنسكت عن البقية.

وبعد وقفة قصيرة قال:

- أقول لك شيئاً يا أحمد؟

- هم.

- إني أشم رائحة لا تعجبني.

فتساءل أحمد:

- وكيف شممتها؟

- بأنفي هذا.

- ولكن أنفك هذا ممخوط. والأنف الممخوط لا يشم.

أما محمد الطفران فقد بدا وكأنه ينظر إلى شيء ما بعيد في البحر. كان على شفتيه طيف ابتسامة. إن المرء ليلحظ في أيما وقت ينظر فيه إلى الطفران آثار ابتسامة منسحبة. لكن البحر كان خالياً من أي شيء حتى الأفق.

- وأنت يا محمد ما رأيك؟

وبلحظة عاد الطفران من رحلته البعيدة.

- رأيي بماذا؟

- رأيك في الآغا؟

- أي آغا؟ هل في الميناء أغوات أيضاً؟

* * *

كانا يدرجان، كتفه يكاد يلامس كتفها. بل ما أكثر المرات التي تلامس فيها كتفاهما. لقد خلّفا وراءهما منذ قليل آخر بيوت المدينة وبدآ يسيران الآن في أحضان الطبيعة. كعصفورين، كزوج من الحمام بدوا متقاربين أليفين لا ينقصهما إلا الأجنحة كي يحلقا. لكن ما حاجتهما إلى الأجنحة وقد حلّقا بخيالهما. كعصفورين أو كزوج من الحمام بدوا متقاربين متفاهمين حتى أن المرء ليخال أن الطيور لم تكن إلا كذلك. سارت في البدء، مرة بعد مرة، ولعهود طويلة أزواجاً متحابة تحلق بخيالها. طارت أولاً بخيالها. ثم طارت بالفعل. لكن ذلك اقتضاها زماناً طويلاً طويلاً حتى تحقق لها كمالها.

أما اليوم فما أقصر اللحظات التي يكرسها اثنان للتحليق. وما أسرع ما يعودان إلى الأرض لبحث شؤونهما اليومية.

قالت:

- لم أتوقع وجودك اليوم في البيت. كنت أحسب أنك ذهبت إلى الشغل.

فقال:

- أنا نفسي لم أكن أتوقع ذلك. كنت أمر في فناء الدار بعد أن غسلت وجهي. ولكن فجأة ماذا أسمع؟ كان هناك عصفور يزقزق في نخلة الجيران. لا أدري ما أثار فيّ. فقلت ليذهب الميناء إلى جهنم. اليوم حب وغداً شغل. وعدت إلى الفراش من جديد. لم تكن الشمس قد طلعت بعد. كانت العتمة خفيفة. والعصفور يزقزق. أي نوع من العصافير يزقزق في مثل هذا الوقت؟ هل تدرين أن العصافير تسبقنا في الاستيقاظ من النوم؟

فجارته قائلة وهي تبتسم:

- هي أيضاً تبكر في الذهاب إلى أشغالها.

ولمع في خاطره هذا السؤال:

- أيكون بينها مياومون ومحاصون أيضاً؟

ولكنه قال مشاكساً على الفور:

- عجباً وهل العصافير تشتغل! هذه أول مرة أسمع فيها أن العصافير تشتغل.

- ذلك يعادل شطحتك عن العصافير يا خيالي.

- أنا لم أشطح وإنما قلت. كانت هناك عتمة خفيفة. وكان هناك عصفور يزقزق على شجرة نخيل. زقزقته أثارت فيّ شيئاً. ما العيب أن تثير زقزقة عصفور شيئاً في نفس شغيل ميناء محب.

وقالت رتيبة بنفس الأسلوب الهازل:

- منذ متى كان شغيلة الميناء يحبون؟

- آه. لعلك تتصورينهم قساة غلاظاً لا قلوب لهم.

- هذا ما تصورته بالضبط.

وتابع أحمد:

- لا يميزون بين رب البندورة ومربى الدراق.

وجارته قائلة:

- هذا صحيح.

وتابعاً مسيرهما. فوراء الطريق مباشرة كان ثمة فلاح يقلب الأرض بزوج أحمر من البقر. وغير بعيد كثيراً من الناحية الأخرى كان راع صغير يسوق غنمه صافراً بشفتيه وملوحاً بعصاه. وعلى طول امتداد جانب الطريق من ناحية اليمين كان ينمو نبات الصبار. قال أحمد:

- يا عزيزتي إن لشغيلة الميناء مزايا عديدة.

- قالت:

- هذا ما لمسته فعلاً. ومنها أنهم يعرفون كيف يصفون أنفسهم.

- إن بين ضلوع شغيلة الميناء قلوباً تحب تخفق للجمال.

- آه هكذا إذن. وكيف نتحقق من مزاعم شغيل ميناء.

- الأمر بسيط. فعندما يرى شغيل ميناء..

قالت:

- أنت مثلاً.

قال:

- نعم أنا مثلاً.

وتابع:

- يرى فتاة حلوة.

ضاحكة:

- هم.

- أنتِ مثلاً. ينظر في وجهها ويقول لها: آه ما أحلى عينيك. ثم يهبط ببصره إلى شفتيها ويقول: ما أحلى شفتيك المكتنزتين. ثم يمسك بيديها وينظر إليها جملة. أنت أيتها الفتاة الرائعة هل تقبلين شغيل ميناء مياوم لكنه سيصير محاصاً يأتي في الأماسي ملوث الثياب مغبراً لا يميز بين رب البندورة ومربى الدراق. لكنه محب. هل تقبلين مثل هذا الرجل زوجاً لك؟ فضحكت وقالت على استحياء:

- لا أخال هذه الفتاة تقول إلا على هذ النحو.. إلا هكذا: أيها الشغيل المياوم الذي سيصير محاصاً. أيها الشغيل الذي يأكل علب البندورة والسردين والدراق بصفيحها. أيها الشغيل المتصف بالغلظة والجلافة (وازداد احمرارها) ما دمت قد وقعت في هواي فإني أقبل بك زوجاً.

واستدرك قائلاً:

- لكن هناك عيباً في شغيلة الميناء..

واقترب منها فنظرت إليه متسائلة فتابع:

- عيبهم هو أن يدهم طويلة.

وندت عنها:

- هم.

اقترب أكثر:

- لكن بالرغم من أن يدهم طويلة فإنهم لا يغامرون بتغييب شيء في جيوبهم أو أكياس زوادتهم..

متابعاً اقترابه:

- قبل أن يجربوه.

وخطف قبلة من زاوية فمها فقالت ضاحكة:

- هل لكَ أن تضيف مزية أخرى إلى شغيلك هذا.

- هم.

- إنه مبتذل تماماً.

وقال ضاحكاً:

- هل لك أن تقولي شيئاً لفتاتك هذه؟

- أية فتاة؟

- فتاة شغيل الميناء.

ضحكت أكثر فتابع:

- إن شغيل الميناء هذا وجد بعد المكسر، أن البضاعة ممتازة حقاً وأنه لا مانع لديه أن يمد يده الطويلة ويحشرها في كيسه.

* * *

اقترب أحمد من أبي لهب. وأبو لهب هو رئيس فرقة المحاصة الثالثة. كان قد نزل لتوه من قمرة القبطان حيث بحث معه بعض الأمور المتعلقة بالعمل. قال أحمد بعد أن ألقى عليه تحية الصباح:

- لقد قدمنا استدعاء إلى الشركة يا ريس.

فتساءل أبو لهب:

- استدعاء؟ لماذا؟

فقال أحمد:

- من أجل المحاصة.

فقال أبو لهب:

- آه. نعم. طيب. بسيطة.

وانتظر أحمد شيئاً آخر غير «طيب. بسيطة». وعندما لم يزد حرفاً واحداً على ما قال انسحب أحمد.

كان ثمة ما يشغل فكر أبي لهب. أو هذا ما بدا لأحمد على الأقل. وأحاط برئيس الفرقة الثالثة ستة من عمال المحاصة بما فيهم فارس ملاحظ الباخرة.

ولم يطل ترقب أحمد إذ لم يلبث فارس بعد حديث قصير مع أبي لهب وبقية المحاصين أن استحضر العمال من جوانب الباخرة فمثلوا أمام رئيس الفرقة.

بدأ فارس الكلام فقال بنبرة قاسية:

- أين كنتم؟ ما إن صعدتم إلى ظهر الباخرة حتى توزعتم مثل الفئران في كل مكان. هذه أول سفرة للباخرة على الخط. لا نريد فيها متاعب.

بعد هذه المقدمة بادر أبو لهب إلى استلام زمام الحديث فقال:

- بالأمس سببتم لنا فضيحة. اشتكى الضابط الألماني إلى أمن عام الميناء. استدعاني البوليس وقال لي: شغيلتك سرقوا ساعة الضابط. عرقت وارتبكت. حرت ماذا أقول له. أعرف شغيلتي أوادم (يقصد غير أوادم) ورائحتهم طيبة.

خرج صوت من بين عمال المياومة وقال:

- والله طيبة يا ريس.

قال محاص:

- أطيب من رائحة البصل.

تماوجت بين العمال ضحكة. قال الرئيس:

- مع ذلك. قلت له: غير معقول. شغيلتي لا يفعلونها. ربما أضاعها في مكان ما. البارحة رآه الأولاد في البلد. كان سكراناً سكرة لعينة. فقال لي: أية سكرة يا رجل سُرقت وهو يحلق. مدَّ أحدهم يده من الطاقة وأخذها عن الطاولة وهو يحلق. رأى اليد وهي تنسحب بالساعة من المرآة. وعندما جرى مسرعاً خارج قمرته ليمسك بالفاعل لم يجد أحداً. ولما كان هؤلاء الألمان لا يؤمنون بزيارة الملائكة أو الشياطين لسفينتهم فكان من الطبيعي أن ينصب اتهامه على شغيلتك. واحد وواحد عندهم يساوي اثنين.

قال عامل مياوم:

- لم نكن في الألماني. نحن لم نفعل ذلك.

قال الريس:

- وكيف لي أن أعرف. عندي أكثر من مئة عامل يشتغلون عندي ويشتغلون عند غيري.

قال إبراهيم ببساطة:

- ارجع يا ريس إلى دفتر كاتب الفرقة. الأسماء مسجلة في دفتر كاتب الفرقة.

لم يعن ريس الفرقة بالرد على إبراهيم لأنه ما لبث أن انشغل في حديث قصير مع المحاصين مضى على أثره في اللنش الذي كان ينتظره في أسفل سلم الباخرة.

قال فارس بعد أن هدر اللنش مبتعداً بالرئيس:

- هيا إلى العمل. أريحوا أغطية العنبرين ٣و٤. لا تورطونا في مشكلة مع الأجانب.

قال له عامل مياوم:

- كنا نتفرج على الباخرة ليس غير.

قال فارس:

- تتفرجون أو لا تتفرجون. بالأمس حصلت حادثة. أنا لا أريد متاعب في باخرتي وكل من يبتعد عن عنبره لسبب غير العمل فسأوقفه عن الشغل حالاً وأبعث به إلى البر.

انسحب العمال وراحوا يزيحون أغطية العنبرين ٣و٤. اقترب فارس من أحمد فبادره هذا قائلاً:

- ليس من الإنصاف أن تقع التهمة على المياومين. فهناك المحاصون وكتبة البواخر وكتبة التجار وجامعو الأكياس الفارغة وشغيلة المواعين وحراس البواخر.

فقال فارس وكأنه يودع لدى أحمد سراً من الأسرار:

- يجب أخذهم بالشدة أخي أحمد من وقت لآخر كي لا تعم الفوضى ويضيع العمل. هؤلاء المياومون مثل القطيع. إذا غفلت عينك عنهم قوي عددهم. وربما تسللوا من وراء ظهرك فأفسدوا كل شيء ليملأوا بطونهم. قد يحرقون الغابة لإشعال سيكارة.

ولعل فارس شعر في قرارته أنه قد آلم أحمد من حيث لا يقصد بحكمه على المياومين فاستدرك قائلاً:

- أنت واحد منا. لن يمضي وقت طويل حتى تصير محاصاً.

قال ذلك ثم مضى لمراقبة العمل.

بعد ذهاب فارس بقي أحمد وحيداً. استند بمرفقه إلى سور الباخرة واعتمد ذقنه في راحة كفه ثم أنشأ يحدث نفسه: «لكأنني سمعت مثل هذا القول من قبل. أين ومتى لست أدري، في باخرة. في ماعونة أو على الرصيف. لم أعد أذكر تماماً. لكن المشهد والقول ليسا غريبين عني أبداً. التهديد بقطع الرزق. تفاصيل الصورة ضاعت وبقي موضوعها شخص ما يُزمجر الملتزم؟ ابن الملتزم؟ أو أحد كلابه. يُرغي ويُزبد. شدقاه مفتوحان على أشدهما. الشرر يتطاير من عينيه. من أنفه. من فمه. من سحنته كلها. والشغيلة مذعورون. منكمشون لا يجرؤون على الرد. ولكن الزمن تغير. عجباً هل ممكن هذا؟ الملتزمون رحلوا. جبابرة الميناء طُردوا. تركوا العمل. والشغيلة المذعورون صاروا أسياد الميناء. لكم هذا مفرح. وصاروا يمشون بالعرض، وصاروا يستكرون العمال باليومية. لكن ربما كان فارس منزعجاً من حادث الساعة. العمال إذا وجدوا ثغرة نفذوا منها.

هذا كلام صحيح. وإذا تركت لهم الحبل على غاربه، ولم تسارع فتمسك بزمام الأمور ضاع العمل صحيح أيضاً. لعل فارس على حق. الإدارة ليست شيئاً سهلاً. وفارس ستيفادور الباخرة وعليه تقع مسؤولية إدارة الأمور فيها.

بعد كشف العنابر وتهيئتها للعمل في انتظار شحن المواعين من على الرصيف تفرق العمال جماعات. وفي مكان ما من الباخرة جلس أحمد وإبراهيم وأبو الذهب والخال.

قال أبو الذهب مستدرجاً:

- لم يطل حديثك مع أبي لهب.

كان أحمد يبدو خلافاً لعادته منقبضاً لا يميل كثيراً إلى المشاركة في الحديث. فبالرغم من الحوار الذي دار بينه وبين نفسه وحاول به أن يبرر تصرف فارس وأبي لهب إزاء العمال، فقد ظل شيء ينتش في قلبه. وبدلاً من أن يضفي الطمأنينة على نفسه فقد أهاج تخوفها الكامن.

قال أحمد مسوقاً إلى الجواب بفعل السؤال ليس غير:

- حدثته عن الاستدعاء.

فتساءل أبو الذهب:

- أي استدعاء؟

فانبرى إبراهيم للرد:

- قدَّمنا أحمد وأنا استدعاء للشركة من أجل المحاصة.

قال أبو الذهب بلهجة لا تعوزها السخرية:

- آه. أنعِم وأكرِم.

ثم اعتدلت لهجته فقال جاداً:

- المحاصة شيء جيد. وما يحق للمحاصين لا يحق لغيرهم.

قال إبراهيم:

- عندما تكونت فرق المحاصة كنا في الجيش.

قال الخال:

- وقت تأليف الفرق استبعدوا كبار السن. أنا وأبو الذهب من الذين استبعدوا. نحن مضى زماننا.

ثم إلى أبي الذهب:

- أليس كذلك؟

فرد أبو الذهب بلهجة ذات مغزى محاولاً أن يضحك أحمد بالمعنى الذي رمى إليه:

- مضى زماننا! باطل. ليجربوا إذا شاؤوا.

قال الخال وهو ينظر إلى أحمد غامزاً:

- والله مضى زمانك يا أبا الذهب. دخلت السبعين وتتحدث عن التجريب.

- فشرت. مازال بيني وبين السبعين أشواط. والعبرة بالتجريب.

فقال الخال مستفزاً:

- لا حاجة للتجريب. فالكبير لا يصير صغيراً كما أن الصغير لا يصير كبيراً.

قال أبو الذهب:

- طز في أوراق روزنامتك إذا كانت تقول مثل هذه الحكَم.

قال الخال:

- ما لها روزنامتي؟ أحسن أفكار العظماء موجودة فيها. قادة وكتّاب ورجال سياسة.

وتابع أبو الذهب:

- وطبخات طعام أيضاً.

قال الخال:

- ذلك في رمضان.

- في رمضان فقط؟

- في رمضان فقط.

فأكد أبو الذهب:

- مع ذلك الطبخات موجودة بين أقوال القادة والكتّاب ورجال السياسة.

وتولى إبراهيم عنان الحديث:

- كنتما تتحدثان عن التجريب.

ثم إلى أحمد:

- أليس كذلك؟

فأجاب أحمد بنصف رأسه:

- أجل التجريب.

أما نصف رأسه الآخر فكان موزعاً تماماً بين عدد من الصور البيضاء يقابلها عدد من الصور السوداء. فإذا تذكر برود أبي لهب تجاهه في هذا الصباح قفز إلى ذهنه تلقيه له في الأحضان يوم عودته إلى الميناء. وإذا تراءت له قسوة فارس على المياومين تداعى إلى فكره قوله أنت واحد منا. لن يمضي وقت طويل حتى تصير محاصاً. والفرح الذي غمره أول أمس لحظة قدم استدعاءه إلى الشركة من أجل المحاصة لم يعد هو نفسه. شابته لطخة ما، شعور بالقلق مبهم. لماذا؟ لا يدري.

وبشجاعة أمر إصبعه في خياله ومسح قائلاً «لعلي واهم لم ألق من الإخوان إلا كل معاملة طيبة». ونفخ في فرحه الذي خبا فأعاد له تألقه. وأكد مرة أخرى:

- أجل التجريب.

وضحك فانفردت أسارير أصدقائه. انقشعت الغمة التي تركت ظلالها على الوجوه عندما زايله انقباضه. فأقبل الخال على الحديث بحماسة بينما تقلقل إبراهيم في جلسته واتخذ وضعاً أكثر استعداداً. قال الخال:

- وكيف نجربك؟

- كما ينبغي أن يُجرّب الرجال.

قال أبو الذهب بهدوء. كان واضحاً أنه تهيأ لمثل هذا السؤال فلم يكن مفاجأة له وهو الذي قاد إليه من قبل. ثم إلى الخال:

- ثور مثلك يُجرّب بشده إلى المحراث. أما كيف يجرب الرجال فهذه مسألة لا يختلف عليها اثنان. الذهب يمتحن بالنار والرجل بالمرأة.

وضحك الجميع وهللوا استحساناً. قال أحمد لإبراهيم:

- سجل باصرة لحساب أخيك أبي الذهب.

وبعد برهة صمت قال أبو الذهب لأحمد:

- بارك الله لكما فيما تسعيان. لو كنت في مثل سنكما لناضلت من أجل دخول الفرق. ولكنها الشيخوخة. أنتما تستأهلان المحاصة. المحاصة من حقكما. كنتما في المقدمة دائماً.

وتمهل ثم تابع مازحاً بجرس لا يخلو من تأسف:

- لا تنسيانا إذا صعدتما إلى فوق. (مسانداً قوله بحركة من يده). إلى الطابق العلوي.

ثم إلى الخال بالمزاح نفسه وقد من شابته رنة أسى:

- هيء نفسك لخسارة صديقين آخرين يا خال.

وقال أحمد:

- العين لا تعلو على الحاجب.

وقال إبراهيم مستنكراً:

- معاذ الله.

فقال أبو الذهب:

- أرجو ذلك. لكن الواقع أن العين علت على الحاجب وصارت بينهما مسافة متر. خذ أبا لهب مثلاً. ألم تر كيف يتبخر مثل الديك.

ونبر إبراهيم بعفويته المعتادة ولكن همساً وقد قرب رأسه من الأصدقاء:

- ومن هو أبو لهب؟

قال ذلك ملوحاً بيده في الهواء.

كان أبو لهب رجلاً ضخم الجثة لم يتخط العقد الرابع. خدم في الجيش الإنكليزي في مصر إبّان الحرب العالمية الثانية. ذات يوم قال لنفسه: «لماذا لا أشتغل في الميناء ولي مثل هذه الهامة؟». كان قد سُرّح من الجيش. وكان قد تقلب بين مهن كثيرة عقب تسريحه. كان يرى باستمرار أنه أكبر من العمل الذي يمارسه حتى وجد ذاته في البناء. تراهن مرة على حمل ثلاثمئة كيلو على ظهره. كسب الرهان ولكنه كسب فتقاً في نفس الوقت. وعندما تمرد العمال على الملتزمين كان على رأس المتمردين. بل كان أحد الأفراد المبرزين الذين قادوا الحركة العمالية. لكنه لسبب ما خلال اشتداد الأزمة بين العمال والملتزمين اختفى فجأة. قال البعض أنه تلقى إنذاراً بالقتل من المتسلطين. وقال آخرون: عندما لاح له في الأفق أن الحركة التي ساهم في قيادتها ستفشل في تحقيق الأغراض التي قامت من أجلها ذاب مثل قطعة الملح. ولكن الذي لم يختلف عليه هؤلاء ولا أولئك هو أنه حمل في جيبه عدداً ليس قليلاً من بضع مئات من الليرات جمعتها بالمناديل لجان خاصة عطفت على الحركة العمالية. جمعتها من أفراد الشعب لتوزيعها على العمال المضربين.

كان قد طلب منه في ذلك اليوم أن يبدل الأوراق المالية التي أعطيت له من القطع الكبير إلى القطع الصغير. ولم يعرف أحد حتى الآن فيما إذا كان هروبه قد حدث قبل أن يبدل القطع أم بعده. قال أصدقاؤه أنه كان مضطراً لفعل ما فعل. فقد أرسل المبلغ إلى عائلته لتنفقه في غيابه. وقال خصومه: أصيب بفتقين. فتق بالة القطن وفتق الحركة الفاشلة. وعندما تغيرت الأوضاع في الميناء وبدأ الاستعداد لإجراء انتخابات رؤساء فرق المحاصة سرت إشاعة بين العمال بأن المبلغ الذي وضعه أبو لهب في جيبه – وكان قد عاد إلى الظهور في الميناء – يوم ذاب مثل فص الملح إنما كان بمعرفة اللجان

الخاصة لأصدقاء العمال حيث بعثت به كي يجري عملية لفتقه الذي اشتدت آلامه مع اشتداد الأزمة نظراً للحركة والنشاط اللذين بذلهما وقتذاك. وأياً ما كان فحين جرت الانتخابات نجح أبو لهب كما نجح المرشحون الآخرون. وكان نجاحهم بالتزكية لأنه لم يكن لهم من منافسين. ألم يقودوا حركة التمرد العمالية ضد الملتزمين؟

قال أحمد:

- ما لنا وللناس. عش واترك الآخرين يعيشون.

قال أبو الذهب:

- هذا كلام لا غبار عليه.

وقال إبراهيم:

- اصبر على المر حتى يحلو. وقد صبرنا. أكلناها مرة فمن حقنا أن نأكل من حلاوتها.

قال الخال:

- كثيراً ما رأيت أحمد معهم.

قال أحمد:

- كانت أياماً رائعة مليئة بالفخر.

وبلمحة كان في جامع المغربي يمدُّ يده ويقسم مع القاسمين على القرآن بالإخلاص لقضية العمال وبالاستمرار في الإضراب حتى النهاية.

قال أبو الذهب ساخراً مشيراً إلى أبي لهب:

- «عندي أكثر من مئة عامل مياوم». قال فردة.

وضرب على ردفه.

لم يكن أبو الذهب يميل إلى أبي لهب. وقلة هؤلاء الذين كانوا يعرفون أنه يلقبه الضبع. لكن ليس معنى ذلك أنه كان يحب الملتزمين القدماء. لقد كرههم دائماً وحاربهم بأسلوبه الساخر. كان يقول مشيراً إلى هؤلاء وأولئك شاملاً الجميع بهذه العبارة المقتضبة «كلاب خلفوا كلاباً». ولم يكن مستعداً

لنقض هذا الحكم ولا النقاش فيه، ماذا تحب يا أبا الذهب؟ النساء. وإذا قيل له: من أي وجه؟ قال: الخبز يؤكل من الوجهين. وإذا سُئل: ماذا تكره أيضاً؟ أجاب: الاستغلال. وذات مرة قال له أحمد: ألا يتعارض كرهك للاستغلال والمستغلين مع سعيك الدائب من أجل الحصول على الذهب؟ نظر إليه أبو الذهب ملياً ثم قال: الرجل يساوي ما في جيبه. الناس يجلونك لشيئين: النفوذ أو المال. لقد عشت عمري أجيراً، شيء يشبه الخرقة، لم أستطع الحصول على النفوذ فعلى الأقل عليّ الحصول على المال. وقال له أحمد: وما الضمان إذا حصلت على المال أن لا تكون مثل الآخرين؟ أجاب: لا شيء. لكن حتى لحظة حصولي على المال أقول لك أني لن أكون كالآخرين. وسأله مرة أخرى: وبعد أن تحصل على المال. وهنا انفجر ضاحكاً وقال: لست أدري. ثم غمغم فيما يشبه الإسرار لنفسه: مع ذلك يبدو لي أنني لن أكون كالآخرين.

قال إبراهيم لأبي الذهب:

- إذا كنت لا تحبه فهذا شأنك. لكن هناك (غامزاً إلى أحمد) من يخالفونك في هذا الأمر. هو أيضاً له محبوه.

والواقع كان ثمة فعلاً من يحب أبا لهب ويتحمس له. وكان أحمد واحداً من هؤلاء. ومهما يكن قد قيل فيه فهو بالنسبة إليه يشبه قطعة نقود لها وجهان مختلفان ولكن لها قيمة واحدة. إنه يرمز في نظره إلى فترة نضال مشرقة في حياة العمال. هو وبقية الزملاء. وقبل أيام لم تكن ثمة قوة في الأرض مهما بلغ من شأنها قادرة أن تزعزع هذه الصورة الرائعة لديه. لكن الصورة التي أحيطت بكل مظاهر الحب والفخار ما لبثت أن اهتزت. امتدت إليها الأقاويل وهزّتها. ومع اهتزاز الصورة نبت الشوك في الأرض التي حسب وهو عنها بعيد في الجيش قد صارت جنة. وكل يوم جديد ينبت شوكاً جديداً. يطرد زهرة حلم بها، غصناً مورقاً أفاء اخضّراره سماء خياله. بدأ يسمع لغطاً هنا وهناك. الاستغلال. التعالي. المحاصون. المياومون.

فقال أبو الذهب:

- يحبونه أو لا يحبونه. الذين قدموا ليسوا أفضل من الذين رحلوا. هذا رأيي.

وقال الخال نابراً وكأنه ينتظر إشارة:

- كلما جاءت أمة لعنت أختها.

وقال أحمد بجرس لا يعوزه الأسى:

- مات القرد ذات يوم فخلف قروداً صغاراً.

وتساءل أبو الذهب ضاحكاً:

- أوصرت تقرأ الروزنامة أخي أحمد وتحفظها أنت أيضاً؟

فقال أحمد بنفس الجرس وقد شابته رنة حزن غير خافية:

- كلا. لقد قرأت ذلك في مكان ما. في قصة أو على شاشة سينما. لست أدري أين تماماً. لكني مررت على شيء من ذلك بالتأكيد.

* * *

مالت الشمس نحو المغيب كتلة حمراء متوهجة. كانت سريعة في ميلها وهي تنحدر منزلقة في صدر الأفق. وبدت وقد اقتربت من مرقدها أنها تريد وبأسرع ما تستطيع أن تخلد إلى الراحة بعد رحلة نهارية شاقة. ولم تتوان في اللحظات الأخيرة أن تقذف بنفسها إلى الماء لتغسل أوصار يومها، فاصطبغ من احمرارها الماء والسماء. وارتفع هناك في مغطس الشمس غبار ذهبي ما فتئ يشحب ثانية بعد ثانية حتى صار بلون البنفسج.

أما الغبار في الباخرة التي تشحن شعيراً فلم يكن ذهبياً ولا بنفسجياً وإنما كان خانقاً. وقد هاج وماج حتى استقر على العمال فكسا وجوههم وشعر رؤوسهم وثيابهم بطبقة كثيفة. ولم يبق شيء على ظهر الباخرة نظيفاً دون أن يطاله الغبار. وهكذا بدا ظهر الباخرة ومَنْ فوقه مِن بشر أغبر مريداً كالحاً وسط مهرجان الألوان في صدر الأفق وفيما بين نقاء زرقة البحر وزرقة السماء.

وعندما هدأت فرقعة الونش البخاري الحادة في العنبر رقم واحد توقف عصفور على مقدم الباخرة. وبقفزة واحدة استدار ينظر إلى الأفق. ثم بقفزة

أخرى عاد ينظر إلى ظهر الباخرة. ولم يلبث أن طار باتجاه اليابسة وهو يصرخ صرخات حادة، كأنه يتساءل ما الذي أعاق هؤلاء النفر من الناس المغبرين الكالحين عن الذهاب إلى بيوتهم وقد بدأ كل ما في الطبيعة يستعد للراحة والرقاد.

ويبدو أن العصفور ليس هو الوحيد الذي ألقى مثل هذا السؤال. إذ لم يلبث إبراهيم أن تساءل يدعوه:

- لماذا لا يعتقون سبيلنا؟

كان إبراهيم يقف مع الخال وأبي الذهب مستندين بمرافقهم إلى سور الباخرة من جهة الغرب. كان العمل قد توقف نتيجة عطل طرأ على الونش[1]. وما هي إلا لحظات حتى نهض أحمد من وراء ونشه الذي تعطل بعد أن ترك أمر إصلاحه إلى ميكانيكيي الباخرة ولحق بأصحابه. كان برفقته رجل آخر اسمه حيران عبد الواحد. وحيران هذا رحالة تنقل بين عدد من المؤسسات والوظائف. فلسبب ما كان في كل مرة يترك العمل أو العمل يتركه. كان يقول: الإنسان في الحياة ينتقل من خازوق إلى خازوق حتى يجد خازوقه. وهناك يستقر عليه إلى الأبد. وإذا قيل له: لعل خازوقك في الميناء؟ قال: لا قدر الله ذلك. أفضل في جهنم. وإذا قيل له: ما الفرق؟ قال: في جهنم على الأقل لن تضطر إلى حمل زوادتك كل صباح وتقف على أبواب الفرق. إذ ليس هناك مياومون ومحاصون. الكل فيها محاصون.

قال أبو الذهب لأحمد الذي وصل لتوه:

- قل لأخينا إبراهيم لماذا لا يعتقون سبيلنا؟

كان أحمد ينظف يديه الملوثتين بالزيت بخرقة. فقال دون أن يرفع نظره عن يديه المنشغلتين بعملية التنظيف:

- ما الحكاية؟

فأعاد أبو الذهب:

---

(١) الرافعة.

- تساءل إبراهيم لماذا لا يعتقون سبيلنا؟

فقال الخال مشيراً إلى أحمد:

- تعطل ونشه.

فقال أحمد:

- المسألة ليست مسألة الونش. هناك سهرة. وصلت برقية إلى الباخرة من شركتها فيما وراء البحار يجب أن تقلع الليلة.

فتساءل إبراهيم وكان يبدو عصبياً بعض الشيء:

- وما شأننا في ذلك؟

قال أحمد في سخرية:

- شأننا أن نهيئها للسفر. هناك بضع طنات يجب أن ندلقها في بطن الباخرة. الباخرة يجب أن تأخذ وجبتها قبل السفر. لهذا تسافر البواخر من ميناء إلى آخر. ونحن من يتعين علينا أن نحشو بطون البواخر.

فتساءل إبراهيم بقلق:

- بضع طنات أم بضع مئات من الطنات؟

قال أحمد وكان يمر بلمسات التنظيف الأخيرة على يديه:

- منذ متى كنت تسأل مثل هذه الأسئلة أخي إبراهيم؟ عشرات الطنات هي لقمات في فم الباخرة. وجبات البواخر كما تعلم بمئات الأطنان. كل ما في الأمر هناك بين مئتي طن وثلاثمئة طن وعلينا أن ندفعها دفعاً في أحشاء الباخرة. ثم تضرب على كفلها وتقول لها: والآن سيري يا مباركة. وبعد ذلك تأخذ طريقك إلى البيت لتنام.

- في الثانية أم في الثالثة من بعد منتصف الليل؟

قال إبراهيم ذلك وهو ينظر بقلق نحو اليابسة. كان المساء يهبط بسرعة. وراحت الأضواء تنبعث من المدينة بسرعة هبوط المساء نفسه. كما اشتدت لذعة البرد عنها قبل المغيب.

قال أحمد وهو يراقب إبراهيم باهتمام:

- وما أهمية الساعة إذا كانت الثانية أو الثالثة وحتى الرابعة من بعد منتصف الليل. الأمر يصبح سواء إذا انتصف الليل وأنت في العمل. كل الساعات تبدو لا قيمة لها بعد هذا الوقت ما دمت أنت بعيداً عن فراشك.

وقال أبو الذهب:

- لكن لا أدري ماذا يزعجك في الأمر. هنا سهرة. وهناك (وأشار نحو المدينة) سهرة أيضاً.

وقال حيران عبد الواحد:

- السهرة هناك تختلف.

قال الخال:

- ولماذا تختلف؟ لا زوجة عنده ولا أولاد.

قال حيران:

- ربما خطيبة.

وأكد الخال مرة أخرى:

- ولا خطيبة أيضاً.

فقال أبو الذهب غامزاً:

- ربما أشياء من نوع ما.

فأمسك الخال قميصه بأطراف أصابعه وهزه مبرئاً ذمته:

- هذا لا علم لي به. والله أعلم.

فقال إبراهيم:

- لسوف أنزل إلى البر.

قال أحمد:

- يبدو لي أنه من المستحسن ألا تفعل، سوف يغضب أبو لهب إذا نزلت وقد يؤثر على ضمك إلى المحاصة.

وأكد الخال ضاحكاً:

- قلت لكم هناك أشياء من نوع ما.

قال حيران:

- ابق وسنجعل سهرتك ممتعة. سيدبر لك أحمد بعض النبيذ من صديقه اليوناني.

فقال الخال ملوحاً نحو المدينة:

- هناك الماء والخضرة والشكل الحسن.

قال أبو الذهب:

- الماء وافر هنا والحمد لله. أما الخضرة والشكل الحسن فنترك أمرها لأحمد. بضع كؤوس نبيذ خليقة أن توجدها في رأسه. وأما مزتك فستكون لحماً أو جبناً وهي في كلا الحالين طيبة وعلى حساب الوكيل.

قال أحمد:

- لقد أوصوا على وجبة من البر.

فقال أبو الذهب:

- وهكذا فالسهرة ليست شراً كلها. ليست بالسوء الذي تتصوره. بضع ساعات من السهر. مقابل سكرة وأجوراً إضافية.

قال إبراهيم:

- طز في هذه الأجور الإضافية. ماذا سينوبني منها؟ من الجمل إذنه. أنا أسهر الليل في البرد. وغيري يقاسمني ثمرة جهدي وهو هناك بعيد (وأشار إلى المدينة) يغط في النوم. أو يعربد في الخمارات.

فتساءل الخال مستغرباً:

- لماذا الأذن فقط من الجمل كله.

وقال أبو الذهب بنفس الاستغراب:

- كيف ذلك؟

قال إبراهيم:

- سلوا أحمد. أحمد يعرف فهو ممن يمسكون القلم.

ونظر الخال إلى أحمد متسائلاً. لكن أحمد ظل صامتاً. فقال أبو الذهب:

- ماذا في الأمر؟ هل أكل لسانك القط؟

ثم إلى من حوله:

- أحمد لا يريد أن يتكلم. أحمد سيصير محاصاً. لهذا لا يريد أن يفضح أسرارهم.

فقال الخال:

- القضية لم تعد سراً. الكل يعرفون. ينزل عدد من المحاصين إلى الباخرة. ثم ينسربون عائدين إلى البر، الواحد إثر الآخر. أما البقية. أما الذين لا ينزلون مطلقاً فهم إما متمارضون أو يستجمون (وهو يغمز) في حلب. والخلاف كله من هو صاحب الدور بالنزول إلى البواخر لتثبيت وجود المحاصين. إنَّ قضية المحاصين تشبه قصة ذلك الموظف الذي يأتي إلى دائرته كل صباح فيعلق معطفه ثم يمضي خارجاً.

وقال حيران عبد الواحد:

- لعلهم صاروا عمالاً فخريين بعد أن ناضلوا ضد الملتزمين القدماء.

فقال أبو الذهب:

- صه. لا تتكلم عن المناضلين. أحمد واحد من الذين ناضلوا ضد الملتزمين القدامى وعما قريب سينضم إلى أسرة الملتزمين الجدد. وكل حديث عن إخوته في النضال يجرح شعوره.

لم تخف على أحمد سخرية أبي الذهب اللاذعة. وشعر بالإحراج. فبالأمس وضع يده بطريق المصادفة على شيء. لقد أمسك بالقلم وقام بعملية حسابية بسيطة فوجد أن هناك عملية استغلال. جن جنونه في تلك اللحظة وأحس بتصدع شيء في داخله. شيء ينهار ويتداعى. شعر أن من واجبه أن يتكلم. لكنه تساءل فيما إذا كان الوقت مناسباً للكلام. في البدء قال لنفسه:

«ربما كانت العملية غير مقصودة. ربما كانت من النوع البريء، ساق إليها الجهل والفوضى والعماء».

غير أنه لم يعف نفسه من مسؤولية الكلام. بحث الأمر مع أحد أصدقائه المحاصين القدماء. نظر إليه الصديق طويلاً ثم قال له: اسمع! أنت قدمت طلباً لتصير محاصاً. فلماذا تخوض في مثل هذه المسائل؟ هل تريد أن تعلن الحرب على نفسك؟

عند ذلك أدرك أن عملية الاستغلال ليست من النوع البريء ساق إليها الجهل والفوضى والعماء.

وازداد الواجب ثقلاً. مرة أخرى فكر أن يتكلم، لكنه تردد. أحجم عن الخوض في مثل هذه المسائل كما قال الصديق. «لنفترض أنني تكلمت فماذا يجدي ذلك؟». قال لنفسه «ما أنا إلا مياوم. ولن أجلب لنفسي سوى المتاعب». وبسرعة اتخذ قراره. لا كلام الآن على الأقل. لكنه سيفعل فيما بعد. عندما سيصير محاصاً سيتكلم من الداخل. سيكون وقتها محصناً بالمحاصة ولن يستطيعوا عمل شيء ضده إذا شاؤوا ذلك. وإلى هنا قفل الحديث في هذا الموضوع. ختم عليه بالشمع الأحمر ونام. ولكن ليس معنى ذلك أنه نام على حرير. كلا. فقد ظل يتساءل بينه وبين نفسه لماذا! ومع تساؤله لماذا كان ينزف. التصدع تحول إلى شرخ. وإحساس الألم بالفجيعة إلى غضب. غير أنه كظم غضبه وختم عليه بالشمع الأحمر أيضاً. ولكن ها هو إبراهيم في لحظة من لحظات انفجاره النفسي العفوي يحطم القفل الذي حسب أن مفتاحه بيده ويسوقه إلى الكلام سوقاً. وبسرعة ركّب أحمد جهازاً كاتماً للصوت. ثم أطلق مهوناً:

- ليست المسألة بذات بال كبير. كل ما في الأمر أن فم المحاصين واسع بعض الشيء كما تعلمون..

ثم أضاف بعد برهة صمت:

- إنهم يشاركوننا أجور الأعمال الإضافية.

واختبر فعل جهازه الكاتم للصوت في وجوه من حوله بعد أن أطلق طلقته. كان ردَّ الفعل ضعيفاً كما حسب. نعم ليس فهم هذه اللعبة ببضع كلمات

بالأمر السهل. وما أكثر البسطاء الذين جازت عليهم دون أن يفطنوا إليها. فأجور الأعمال الإضافية في باخرة كما يجب أن توزع على شغيلة تلك الباخرة، يجب أن يعمل لها حساب خاص وتوزع عليهم. لكن الذي يحدث هو أن تلك الأجور تدخل إلى جيوب المحاصين الذين لم يعملوا في تلك الباخرة ولا ينوب المياومين من تلك الأجور إلا شيء زهيد، شيء رمزي.

واختبر مرة أخرى وجوه من حوله. كانت الوجه لا تزال على حيادها. لا غاضبة ولا مندهشة. الكفّتان متعادلتان. نفخة على إحدى الكفتين فترجح. ونفخ أحمد، ولكن نفخ لا في هذه الكفة ولا في تلك. نفخ في الهواء:

- ليست القضية أكثر من تعليق المعطف.

وضحك ليجهز على الطلقة التي كتم أنفاسها من قبل. وسارع إبراهيم الذي أنحى على نفسه باللائمة لتسرعه بالتلميح إلى استغلال المحاصين، سارع إلى نجدته فضحك بدوره، هو أيضاً له مشكلته مع المحاصين وله استدعاؤه بطلب المحاصة، له ظروفه العائلية وله آماله. تعلم أن يتكلم عندما يتكلم أحمد ويسكت عندما يسكت. لكن لماذا أفلت بالهجوم على المحاصين؟ «لست أدري. انزلقت» قال لأحمد عندما عاتبه فيما بعد. ثم أضاف: «لكن الأمور من السوء والبشاعة حتى أن المرء لا يستطيع أن يمسك فمه طويلاً عن الكلام».

* * *

كان الوقت عصراً حينما أغلق العمال فوهات العنابر ثم راحوا ينتظرون لنشاً ليقلهم إلى البر. وكان البِشر يعلو وجوههم. إنه لشيء رائع حقاً أن يعودوا إلى بيوتهم في مثل هذا الوقت. وبدت باخرتهم التي أخذت تستعد للإقلاع بعد أن أفرغت حمولتها الثلاثمائة طن من البضائع بدت كخلية بشرية. فبحارتها يروحون ويغدون أما على ظهرها أو في جوفها للقيام بالمهام الموكلة إليهم بحمية واندفاع. كان في عيونهم ووجوههم توق إلى المجهول. إنها ساعة الرحيل.

وعندما سئم العمال من الانتظار تفرقوا على جنب الباخرة الشرقي مثنى أو أكثر بعد أن كانوا متجمعين قرب السلم. حتى إذا ما تحدث أحدهم

إلى الآخر تحدث بنصف انتباه. وإذا ما نظر امرؤ إلى محدثه نظر إليه بعين وراقب بالثانية فم الميناء.

أما أحمد فقد انصرف بكليته إلى مراقبة سرب من الأسماك جاء يبحث عن شيء يقتات به حول جسم الباخرة. كان أحمد يطل على الأسماك من علٍ. كان يجلس على سور الباخرة. وكان للبحر بدءاً من السطح حول الباخرة وامتداداً إلى الأعماق، لون أخضر. وكان له رائحة البطيخ أيضاً.

وتناول الفتى من كيس زوادته قطعة خبز ورمى بها إلى البحر فتدافعت نحوها الأسماك. إنها المرة الثانية أو الثالثة التي يقوم فيها بهذه العملية. واستمر في تسليته باجتزاء الخبز ودفعه إلى البحر. لكنه لاحظ أن الأسماك الكبيرة هي صاحبة النصيب الأوفى في كل مرة. كانت تندفع بسرعة كبيرة نحو الفتات وتستولي عليه غير عابئة برفيقاتها الأسماك الصغيرة التي خلفها في المؤخرة. قال: «ما أشبه صراع السمك بصراع البشر من أجل العيش».

وتقلقل العمال المبعثرون على امتداد جنب الباخرة الشرقي بعد أن طال ترقبهم. وبدأ ينفد صبرهم. فما كان من أحد العمال إلا أن تسلق سلماً وهناك خلف برج المراقبة غير بعيد عنه شد حبلاً ثلاث مرات فصعدت الباخرة على أثرها ثلاث صفرات أشبه بخوار ثور هائل.

وفي الناحية الأخرى كان أحمد لا يزال يواصل لعبته مع السمك. قال في نفسه: «سأجعل الأسماك الصغيرة تحصل على بعض الخبز». ثم عمد إلى تغيير خطته. فبدلاً من أن يرمي الخبز في مكان واحد ألقى به في مكانين مختلفين على التوالي. قطعات إلى الأمام لا تلبث أن تندفع نحوها الأسماك الكبيرة ثم يعقبها على الأثر بقطعات إلى الخلف تتجمع حولها الأسماك الصغيرة. غير أن الأسماك الكبيرة سرعان ما كانت تلتهم حصتها من الخبز ثم تنقض على ما في أفواه الأسماك الصغيرة.

إلى هنا واللعبة تسير على هذا المنوال. لكن فجأة وعلى نحو غير متوقع اندفعت سمكة صغيرة نحو أخرى كبيرة بعد أن استلبت هذه حصتها وحصة رفيقاتها السمكات الصغيرات. اندفعت بغية استعادة الخبز. فما كان

من السمكة الكبيرة إلا أن ابتلعتها. أسف أحمد لمصير السمكة الصغيرة، لكنه أكبّر جرأتها.

جاء اللنش ونودي العمال لنقلهم إلى البر. ترك أحمد سور الباخرة ومضى بتثاقل. قال بلهجة أسيانة: «ما أشد الشبه بين ما يجري هنا في البحر وبين ما يجري هناك في البر».

وهناك عند أسفل سلم النزول الصعود اشتد لغط الماء المحصور بين اللنش المتقلقل وجسم الباخرة. وكان له لون أخضر ابتداءً من السطح امتداداً إلى الأعماق. وكان له رائحة البطيخ أيضاً، التي ملأت أنف أحمد.

* * *

لم يمض أحمد كبقية العمال إلى مكتب الفرقة لا واصل طريقه مباشرة إلى البيت. وإنما سعى إلى قبو المراكبي الذي اتخذ من هذا القبو بيتاً له. كان أحد صفقي باب القبو مغلقاً أما الثاني فمشرعاً. طرق صفق الباب المغلق طرقتين وانتظر، لم يتلق رداً. وإنما سمع، أو هكذا خيل إليه بدلاً من ذلك كلاماً في الداخل. قال لنفسه: «لعل لدى العجوز زائراً ما». وأطبق يده وطرق الباب كرّة أخرى على نحو أقوى من السابق. ولم ينتظر هذه المرة طويلاً حتى سمع:

- من بالباب؟

ولم يجد أحمد تعريفاً أفضل من أن يقول:

- أنا.

فهو لم يسبق أن عرَّف العجوز باسمه ولا بكنيته. وإنما أمل أن يعرفه بالصوت. أمل أن يتذكره من نغمة صوته. وحتى عندما اقتربت خطوات العجوز ووقف بالباب قائلاً:

- من أنت؟ ماذا تريد؟

لم يزد أحمد على قوله:

- أنا.

ونظر إليه العجوز متفرساً.

- آه أنت. البحار. ادخل. ألم تبحر؟

كان العجوز يقف في هذه اللحظة في العتبة فأخلى له الطريق.

تقدم أحمد إلى الداخل بخطى حذرة نوعاً ما، كان الجو معتماً هناك بعض الشيء عنه في الخارج، لكن أحمد استطاع مع ذلك أن يكوّن انطباعاً أولياً هو ازدحام المكان بالأشياء.

قال له العجوز:

- اجلس.

ودفع نحوه بكرسي نصفي. جلس الفتى وثانية بعد ثانية اعتادت عيناه الرؤية، كان القبو حافلاً وكل محتوياته أو معظمها بما يمكن إدراجه تحت اسم سقط الأشياء، فمن كنبة إفرادية ذات مسندي يد، إلى سلحفاة تسعى بحذر واحتراس، وقطع من أواني فخارية عتيقة، مدامع ومشربيات وأجران وقصبات غلايين متربة وحبال وشباك وأسلاك وزجاجات خمر فارغة من كل الألوان والأشكال والأحجام، وواق وقبعة مطر جلديان بالإضافة إلى ثياب أخرى معلقة على حبل ثُبّت إلى جدارين متجاورين. كما كان هناك صناديق خشبية وعلب كرتون ودمجانة وعناكب في زوايا القبو. وصحاف طعام فخارية وأخرى نحاسية تبدو من النظرة الأولى أنه قد مضى عليها عهد طويل لم يوضع فيها أيما طعام مما حدا بأحمد إلى الاستنتاج أن العجوز يتعاطى لابد بيع بعض العاديات الشرقية للسياح والبحارة المارين بالميناء. وفي زاوية من القبو وعلى مقربة من المكان الذي جلس فيه أحمد اصطنع سرير من الصناديق والألواح الخشبية طرحت فوقها حشيّة. ولم يكن هذا كل ما في القبو. فما يكاد يمضي بعض الوقت ويتجه أحمد بنظره ناحية ما، حتى يكتشف شيئاً جديداً يضيفه إلى ما التقطته عيناه في اللحظات الأولى. والآن ها هو ذا يكتشف هراً يموء. نظر ناحية مصدر المواء فوجد الهر يأخذ طعامه من غطاء علبة معدني.

قال أحمد:

- سمعت كلاماً فحسبت عندك بعض الزوار.

قال العجوز:

- ربما كنت أتحدث إلى الهر.

وبعد فترة صمت:

- فعندما يمضي وقت طويل وفمك مطبق تجد نفسك في وقت من الأوقات مضطراً للكلام بطريقة ما. يرغب لسانك بالحركة. تجول في رأسك خيالات أشخاص ومشاهد وكلمات، تريد أن تتأكد من أنك حي، فيتجه لسانك بالكلام إلى الهر أو غير الهر. تعطي للهر اسماً. تفترض أن الهر إنسان.. تعامله كما تعامل الإنسان. وتقول له ما تقول للإنسان. تحدثه عن البرد عندما يكون الجو بارداً وأن عليه أن يأخذ حذره. وينظر إليك الهر ويهز ذيله. فيبدو لك أنه يفهم أكثر مما تتوقع. وتمضي أنت فتحدثه عن آلام المفاصل الموجعة في ليالي الشتاء الطويلة، ويستمر الهر في النظر إليك ويستمر اهتزاز ذيله، ويموء لك مواءاً ممطوطاً حزيناً فتشكو له الوحدة والشيخوخة، وأنك كنت طفلاً وكان لك أب وأم في يوم من الأيام يدفئانك في الشتاء ويغمرانك بالقبل.

وفكّر أحمد أنه لم يكن موفقاً في زيارته، إذ أن العجوز يبدو ليس في أفضل حالاته النفسية.

قال له مواسياً:

- هل تؤلمك مفاصلك؟

قال العجوز:

- ليس كثيراً. لكنها غلطتي مع ذلك. إذ يبدو أنني لم آخذ نصيباً وافياً من زيت كبد الحوت عندما كان يتعين عليَّ أن أفعل ذلك. والآن هاهي ذي مفاصلي تدفع الثمن. أقول لك، لم أكن أستطيبه، كانت نفسي تعافه أحياناً وكان يكاد يدفع بي إلى الغثيان لاسيما في تلك الأصباح التي أستيقظ فيها وفي فمي آثار من خمر الليلة الفائتة.

قال أحمد مشجعاً:

- لكن البركة فيك.

ونقر على خشب الكرسي.

فقال العجوز:

- إيه هل تعتقد أنني خائف من الموت؟ كلا. لكن الذي يؤلمني هو أني لا أملك سوى حياة واحدة أهبها للبحر. وإن أسفت على شيء فلأني لم ابتعد إلى ما وراء بحار صيد الحيتان. إني أرثي لأولئك الذين تلامس أقدامهم الشاطئ ثم لا يمضون قدماً، أولئك الذين يكتفون من البحر بالنظر إليه.

ونبت شيء في جنبي أحمد. شيء ما يشبه الأجنحة ثم خفق، ارتجف، وفي ثانية أخرى كاد أن ينشر نفسه تحفزاً للتحليق، لكنَّ ذلك لم يدم سوى لحظة أو لحظتين، وبعد ذلك سكن خفق الأجنحة ثم طُويت. وخطر لأحمد أن يقول: «لو لم يكن أبي مفلوجاً. ولو لم أكن المعيل الوحيد في البيت...». لكنه قال بدلاً من ذلك:

- ماذا يحدث لو عمل الناس برأيك. ألن تقفر الأرض؟

ولم تكن فكرة الإبحار جديدة بالنسبة إلى أحمد. فهي قديمة قدم نزوله إلى الميناء. وكم من مرة قرر فيها الرحيل، ولكن شيئاً ما كان يحول دوماً دون تنفيذ قراره، وحتى عندما كان في الجيش كانت فكرة الرحيل على ظهر إحدى البواخر غير بعيدة عن ذهنه، كانت ضمن مشروعاته، بل إنه ذهب إلى حد رسم الخطط بالتفصيل لهذا الرحيل.

قال العجوز ساخراً:

- وهل تحسب أن كل من وقف على الشاطئ ومدَّ نظره إلى الأفق خليق بأن يمتطي ظهر البحر. الدجاجة لها جناحان والبطة لها جناحان، ولكن هل تطير البطة أو الدجاجة؟ ما كلُّ من حمل جناحين على جنبيه طار، ما كاد بصري يقع عليك منذ اللحظة الأولى حتى قلت لنفسي: «هذا بحار». لعلك ستقول لي وراءك مسؤوليات. المسؤوليات أمراس. هل تصدق معجزة المسيح فوق الماء؟ أنا أصدقها. أراد المسيح أن يمشي فوق الماء فمشى. تماماً مثلما أراد أن يصعد إلى السماء فصعد. ألم يكن وراء المسيح مسؤوليات؟ بلى كان، لكنه قطّع أمراسه ومشى فوق الماء. ثم قطّعها مرة أخرى وصعد إلى السماء.

وبدأ العجوز بإيقاد المصباح. كانت العتمة قد أخذت تتكاثف في الداخل. وما إن أشعل الفتيل وأعاد زجاجة المصباح إلى جرنها حتى برم لولبه فنبق الفتيل المتقد وشاع في القبو النور. ثم ما لبث أن أنشأ يُعد العدة لإشعال النار في صفيحة معدنية. كان هناك بعض قطع من الخشب فيها الصغير وفيها الكبير، وعندما أراد العجوز تشقيف الكبير قام أحمد بهذا العمل بالنيابة عنه، فتفرغ المراكبي القديم لتنضيد الخشب في الصفيحة على نحو هرمي.

حينما انتهى من بناء هرمه الخشبي أشعل فيه النار. فازدادت الإضاءة في جوانب القبو وتراقصت الظلال والأشباح على جدرانه وسقفه. قال المراكبي وقد انعكس على وجهه وهج النار:

- هيه أنت تخشى أن تقفر الأرض إذن؟ حسناً لن يحدث ذلك أبداً. ستظل الأرض تعج بالناس لأنهم قلة أولئك الذين يجرؤون على تقطيع أمراسهم ليعتلوا ظهر البحر.

وملأ غلاية بالماء من جرة فخارية. والغلاية عبارة عن علبة معدنية من ذلك النوع الذي يُستعمل لحفظ المأكولات، اسوّدت جوانبها فبات من المستحيل معرفة الطعام الذي كانت تحفظه ذات يوم. وكان العجوز قد لفّ حول العلبة سلكاً معدنياً لعله كان من اللين ودقة الثخانة مما اضطره أن يعيد عملية اللّف أكثر من مرة ثم برمه في جديلة ليجعل من أطرافه مقبضاً للغلاية. وكان السلك قد صار بمثل لون الغلاية في السواد أيضاً.

كان الخشب في الطور الأول من الاشتعال ما يتعذر معه وضع الغلاية في النار فحطها جانباً.

جلس العجوز على حافة السرير مقابل أحمد الذي عاد إلى كرسيه النصفي. كانت صفيحة النار غير بعيدة كثيراً عن الاثنين. وكان الوهج يتردد على وجهيهما.

قال المراكبي:

- حسناً! لا شك أن الأمور تجري معك طيبة هناك مادام البحر لم يغرك حتى الآن بالسفر.

قال أحمد:

- ليست طيبة تماماً.

- ليست طيبة تماماً. لماذا؟ هل العمل شاق؟

- لا. ليس شاقاً.

فتساءل العجوز:

- وإذن؟

ومرت في خيال أحد بمثل لمح البصر الأسماك الكبيرة والأسماك الصغيرة وعبق أنفه برائحة البطيخ.

- كنت أعتقد بعد أن استلم العمال الشغل وصاروا أرباب العمل في الميناء أن الأمور ستكون أفضل.

فضحك العجوز وقال:

- أو عتقدت ذلك؟

قال أحمد على الفور:

- وكان العمال مضطهدين من أرباب العمل السابقين فثاروا عليهم حتى قيّض لهم أن يستلموا هم العمل. في الماضي كنا نعيش في فاقة وها نحن الآن في فاقة. ماذا تبدل؟ يبدو لي أنه إذا كان هناك رب عمل فاسد في مكان ما ثم اُتفق لرب العمل هذا أن يمضي إلى جهنم فيجب أن يمضي معه فساده أيضاً.

قال أحمد للراعي الصغير:

- «من ربط فم هذه العنزة الصغيرة؟

- أبي

- لماذا؟

- كي لا تفتح فمها.

- وإذا فتحته؟

- إذا فتحته فإنها تأكل حليب الأم طبعاً.
- عجيب. أنحن نأكل حليب هذه العنزة الصغيرة إذن؟».
- ونظر أحمد في وجه المراكبي:
- يأكل الحليب غير أصحابه.
- وقال المراكبي:
- والعسل من لا يتعب في جنيه.
- وبعد فترة صمت:
- اسمع يا صديقي البحار. أوليس أرباب عملكم الجدد من نبت هذه الأرض. أوليسوا يأكلون ويشربون وبالنتيجة يقرفصون؟ هل وفدوا من كوكب آخر؟
- فهزّ أحمد رأسه نفياً.

كان ثمة للمراكبي رأي بالناس الذين يعيشون خارج البحر. فهم في نظره كذابون ومستغلون ومنافقون وفشارون وجبناء وانتهازيون ودساسون. ومصدر كل هذه الرذائل هو فقدان الشهامة وتراكم الفساد في الأرض. أما البحر فلا يقبل الفساد. ويضرب العجوز مثلاً بأن أعماق البحر تلفظ الجسم الفاسد وما تزال تدفع باتجاه الشاطئ حتى تتخلص منه. في حين أن الأرض على العكس تضم في أحشائها النتانة والفساد والعفونة. وهكذا فالأرض أكثر ما تحتاج إليه من أي شيء آخر هو حريق يأتي على الأخضر واليابس. أو طوفان جديد يغرق كل شيء. وكان إذا قيل له بأن الحريق غير ممكن لأنه يعدم كل حياة ونبت إلى غير رجعة دفع برأيه الاحتياطي وهو الطوفان وتشبث به. وإذا نوقش بحيثيات الطوفان وأنه يحتاج إلى نوح جديد يقوده، قال سوف يظهر هذا النوح إن عاجلاً أو آجلاً. لكنه سوف يظهر بالتأكيد. لكن عندما تلاحقت الأيام والشهور والسنين دون أن يظهر نوحه الجديد، انتهى إلى قناعة بأن الطوفان لن يحدث لا الآن ولا في أي يوم آخر لسبب بسيط، هو أن أي نوح لم يعد يقبل أن تُوكل إليه مهمة قيادة أيما طوفان آخر لاسيما بعد ما

ثبت فشل تجربة نوح الأولى وعدم جدوى الطوفانات. ويضيف المراكبي: ومن يدري لعل محبس الله قد امتلأ بأولئك الذين يرفضون أوامره بالنزول إلى الأرض لإدارة أي طوفان جديد.

وعندما انتهى إلى اليأس من تحقيق أي من حلميه الطوفان أو الحريق تساهل بعض الشيء، فاستبدل آراءه السابقة بالدعوة إلى الرحيل في البحر، فالبحر امتحان للرجولة ولا خلاص للإنسان إلا بالعيش فيه، أو على الأقل، قضاء القسم الأكبر من حياته فيه، حتى إذا ما عاد إلى الأرض، لم تعد هناك قوة قادرة أن تغير من طباع الرجولة والفروسية التي اكتسبها البحار خلال حياته المديدة في البحر.

وعبثاً حاول واحد من الذين قدر لهم أن يستمعوا إلى فلسفته أيام كان أكثر انبساطاً على الآخرين. أن يستدرجه لمعرفة المصدر الذي استمد منه أفكاره الغريبة، لولا أن اتفق لطالب علم غريب الأطوار مهووس بدراسة كل غريب ينتجه البحر ويلقي به إلى التطهر بالسفر في البحر، في تلك الأيام كان لا يزال لدى المراكبي قليل من القوة يمكنه من الشغل على الأرصفة بأخذ أطراف مدّات المواعين وشدها إلى المرابط المعدنية على حوافي الأرصفة. وقد وفق هذا الطالب فيما لم يوفق الآخرون بكشف النقاب عن أساس هذه الفلسفة عندما رحب بدعوة المراكبي، وسأله أن يدله على المراجع التي استقى منها فلسفته للإلمام بتفصيلاتها. فأخبره المراكبي أنه لم يقرأ ذلك في الكتب، وإنما توصل إلى هذه الأفكار مع بحار هندي شاركه قمرته في إحدى البواخر لمدة طويلة.

قال المراكبي وقد هبت عليه فجأة أنفاس من رياح فلسفته التشاؤمية في البشر:

- لماذا تنتظر من أرباب العمل الجدد أن يكونوا أفضل. الطينة واحدة.

قال أحمد:

- لكنهم ثاروا على الظلم. ذاقوا المر. فكان يُنتظر منهم أن لا يسقوا الآخرين من الكأس التي أُكرهوا على تجرعها يوماً.

- كما قلت لك. الطين واحد. لكن الشكل هو الذي يتغير. هناك جرار ومشربيات وأباريق وخوابي. لكن الطين واحد.

كانت ألسنة النار قد خمدت وتحولت قطع الخشب المحترقة إلى كتل حمراء متوهجة، فنهض العجوز وجرَّ صفيحة النار مسافة، ثم وضع الغلاية فوق الحجر الأحمر، وبعد ذلك حمل عدة الشاي ووضعها جانباً، ثم عاد إلى الجلوس على حافة السرير فكان في مقدوره أن يعد الشاي في موضعه ذاك.

عاد العجوز إلى استئناف حديثه فقال:

- الميناء مثل الغابة والقانون الذي يحكم الغابة هو ذاته الذي يحكم الميناء. إن عمليات الاستيلاء والقنص في الاثنين واحد. هناك فريقان لا ثالث لهما، فأنت في الميناء إما صائد وإما مُصاد ولا خيار لك.

فقال أحمد:

- أكره أن أكون مُصاداً. ولكني وبالتأكيد أكره أكثر من أي شيء آخر أن أكون صياداً أيضاً. بودي أن أكون بين الاثنين. لا هذا ولا ذاك. لا صائد ولا مُصاد.

قال المراكبي وقد التمعت عيناه في وجهه الذي بدا الآن أشد سمرة بعد أن خبا وهج النار:

- ليس هناك لا صائد ولا مُصاد. إذا لم تكن صياداً فأنت واقع في شبكة الصياد. لا محالة. لعلك تظن في نفسك من قوة العضل وضخامة الجسم ما يكفل لك أن تظل في مأمن من شرك الصياد، أنت مخطئ. في الميناء كما في البحر وكما هو في الغابة أيضاً وأي مكانٍ آخر، هل في البحر لا صائد ولا مُصاد؟ هناك حيتان يزن الواحد منها خمسين ستين طناً، هل تدري ماذا تفعل عندما تهاجمها حيوانات أخرى أقل ضخامة؟ إنها تستلقي على ظهورها ترخي أطرافها كأنها بذلك ترفع راية السلام وتعلن عن حيادها، لكن هل هذا الإعلان يدفع عنها أذى الحيوانات المهاجمة؟ كلا. إذ سرعان ما تنقض الحيوانات الصيادة وتلتهم ألسنة الحيتان المسالمة قضمة بعد قضمة.

ورفع يده في الهواء.

- انتصب على قدميك وشدّهما وحذار أن تكون حوتاً تستلقي على ظهرك وترخي أطرافك. ارفع راية الحرب بدلاً من راية السلام. كن صياداً كيلا تكون مُصاداً. تلك هي السبيل الوحيدة ليظل المرء في مأمن من أشراك الصيادين.

فسأل أحمد متأثراً:

- والحوت المستلقي ألا يفعل شيئاً عندما يتأكد من أذى الحيوانات المفترسة؟

قال العجوز:

- كلا.

فتساءل أحمد بالتأثر نفسه:

- لماذا؟

قال العجوز:

- لماذا؟ هذا هو السؤال.

دلق المراكبي قدراً من السكر في الغلاية التي أخذ يفور ماؤها. وعندما تأكد أن السكر ذاب في الماء الذي يغلي أسقط فيه شيئاً من الشاي. ثم أخذ الغلاية بعيداً عن النار فوضعها على الأرض وغطاها بقطعة من الزجاج فراح البخار يتكاثف تحتها.

وواصل العجوز:

- نعم هذا هو السؤال. لماذا؟ لماذا يسلّم الخروف رأسه للذئب والحوت لسانه لذئاب البحر الصيّادة؟ لعلك ستقول لي: الذئب أقوى من الخروف. وأنا أقول لك: إذن لماذا توجد القرون على رؤوس الخراف؟ أتدري كيف يبدو الأمر لي؟ كانت الخراف ذات يوم تقاتل ولعلها كانت صياده أيضاً. وهذا هو السبب الذي يفسر وجود القرون على رؤوسها، لكنها لسبب ما تساهلت في شأن الذئاب، ربما استهانت بها، من يدري. وانتقل ذلك إلى الخرفان جيلاً بعد جيل، حتى جاء زمان لم يبق فيه للخرفان من طبيعتها المقاتلة الصيّادة سوى القرون على رؤوسها.

بعد أن أنهى الهر وجبته مسح فمه وشاربيه. ماء ثم اقترب بخطى حذرة، ولم يلبث أن قفز إلى السرير وربض بجانب العجوز مغمضاً عينيه نصف إغماضة.

أزاح المراكبي غطاء الغلاية الزجاجي فتصاعد البخار في الحال وانتشرت رائحة الشاي. ملأ قدحين قدم أحدهما لأحمد احتفظ بالآخر لنفسه. نهض بعد ذلك فسكب قليلاً من الشاي في الغطاء المعدني الذي كان الهر يتناول فيه طعامه.

قال للهر:

- هيا وخذ شايك من هناك.

ثم ضربه بلطف على مؤخرته. فمضى الهر إلى وعائه وراح يلعق الشاي بخفة. نظر أحمد بعجب إلى الهر وتساءل:

- أو يحتسي الشاي أيضاً؟

- فرد العجوز:

- ولم لا؟ لقد عودته أن يأخذ القهوة وألا يعف عن طعام.

- قدّم أحمد سيجارة للعجوز وأشعل لنفسه واحدة من صفيحة النار. قال العجوز وهو يشعل السيجارة من الصفيحة بدوره:

- أتدري ماذا يعجبني في الهر؟ لم ينس أنه حيوان صيّاد. ربما نسي أنه قَدم من الغابة لكنه لم ينس طبيعته الصيّادة. يجري وراءك، يتمسح بك، يتقبل كل ما تقدمه له حتى ليخيل إليك أنه كآلف ما يكون، لكن فجأة، في لحظة من اللحظات تستيقظ الغابة وكل أمجاد القنص الغابرة في نفسه، في حين تحسب أنها قد نامت فيه إلى الأبد.

ورشف أحمد رشفتين من شايه بعمق وأكّد مرة أخرى:

- لست أدري. يبدو لي مع ذلك أنني لا أريد أن أكن صائداً ولا مُصاداً. لا ظالماً ولا مظلوماً. المحاصّون كانوا مظلومين مُصادين ذات يوم لكنهم انقلبوا إلى صيّادين في يوم آخر. لماذا فعلوا ذلك؟ هذا شيء غريب.

- قال المراكبي:

- أنت وشأنك. هناك صيادون آخرون ليس في مقدورهم أن يكونوا إلا مُصادين.

- وقال أحمد:

- ما من شغيل يرغب أن يكون صيداً بمحض إرادته، مقهوراً برغبته.

- وقال العجوز:

- طيب إذا لم يكن الخروف صيداً برغبته فهو بالعادة. والعادة مع الأيام تصبح من طبعه. حتى يأتي يوم لا يمكن التمييز بين ما هو من طبعه وما هو ليس من طبعه.

- رمق أحمد المراكبي. تملّته عيناه. حاجباه الكثيفان، شاربه، جبينه المغضن. لقد مال منذ اللحظة الأولى إلى هذا العجوز الذي طاف العالم وجاب البحار. وها هو شعوره بالميل يزداد نحوه قال أحمد لنفسه: «ما أشبهه بقوقعة من تلك القواقع الغريبة التي يلقاها المرء على الشاطئ».

والواقع أنه ليس من العسير على المرء أن يعثر من وقت لآخر على أمثال هذا العجوز في الميناء أو الطوق الذي يحيط به، إنهم كثرة أولئك الرجال الذين كانوا مراكبية ثم انتهوا إلى شغيلة مواعين، أو حراساً على أبواب عنابر اللوازم، أو عمالاً يقومون بخدمات صغيرة على الأرصفة. ويستطيع المرء إذا كان منطقياً أكثر مما ينبغي أن يُسقط نصف رواياتهم أو كلها عن البحر والعالم. لكنه لن يملك نفسه في النهاية من الإعجاب بعنصر الطرافة في أقوالهم وهي أقوال تُنبئك مرة أنهم مجانين ومرة أنهم حكماء.

وراق لأحمد حديث المراكبي الذي اتخذ هذا المسار الطريف فقال له مداعباً:

- ربما ما تقوله صحيح. ولكن يخيل إليّ مع ذلك أن الخروف خروف. والذئب ذئب.

ورشف العجوز من شايه وأخذ نفساً من الدخان ثم قال متفكراً:

- طيب! هل جرّب خروفك الجديد الذي يحمل قرنين على رأسه، العلامة الوحيدة التي مازال يحملها من الغابة. هل جرّب خروفك هذا أن يقف يوماً في وجه الذئب؟

- قال أحمد:

- لست أدري. لم أشهد يوماً معركة بين ذئب وخروف.

- فتساءل المراكبي:

- ألم يكن المحاصّون ذات يوم مقهورين. ألم يكونوا صيداً ثم انقلبوا إلى صائدين؟

- ومن حنايا دماغ أحمد وفيما يشبه الإشراق مدت فكرة رأسها، رأسها ليس غير. وحتى يتبينها تماماً تساهل فقال ضاحكاً:

- بلى.

- ولفتت انتباه العجوز ضحكة أحمد فقال بلهجة لا تخلو من أسف:

- أنت تضحك من أقوال عجوز مثلي. إنك أصغر من أن تدرك أمثال هذه الأمور.

- فقال أحمد بالجرس المنشرح الضاحك نفسه:

- وحق الإله إنما كنت أضحك لتشبيهك العامل بالخروف. وقد خطر لذهني أبو الذهب وهو يحمل على رأسه قرني خروف.

- قال العجوز وقد عادت حماسته:

- هل أخطأت؟ قل لي إذن ما الفارق بين خروف يسلم رأسه للذئب وشغيل يطأطئ رأسه لمستغل؟

- ومثلما تتقدم الغيمة من بعيد كانت الفكرة تقترب في رأس أحمد بحذر:

- ليس هناك من فارق.

- وأنت. أليس هناك من يستغلك الآن؟

- وأومأ أحمد برأسه:

- بلى

- في هذه الحالة أأنت خروف أم ذئب؟

- ابتسم أحمد وقال:

- خروف.

- كانت الفكرة لا تزال تتابع تقدمها.

- هل تحب أن تكون خروفاً؟

- كلا.

- يعني أن تكون صيداً ليس من طبعك؟

- واستمر أحمد في تبسمه:

- بالتأكيد لا.

- وإذا تساهلت في ذلك.

- وتابعت الفكرة تقدمها.

- سيصبح شعوري بأني صيد من طبعي.

- وماذا يجب أن تفعل كيلا تكون كذلك؟

- وكالغيمة أيضاً كانت الفكرة تنتشر في نفس الوقت الذي تتقدم فيه.

- ضحك أحمد وقال متساهلاً وهو لا يزال يرقب استجلاء الفكرة:

- أن أصير صياداً

- إذن اتفقنا.

- وضربا كفاً بكف وتضاحكا وأضاف العجوز بلهجة حاسمة لا تقبل النقض:

- الناس صنفان: إما صائد، أو مُصاد. إما ذئب أو خروف. فاختر لنفسك الفريق الذي ستأخذ مكانك فيه.

- كان الليل قد أرخى سدوله عندما نهض أحمد وأعلن عن رغبته في الانصراف. فما كان من العجوز إلا أن نهض بدوره ورافقه إلى العتبة،

وهناك ودّع أحدهما الآخر، لكن المراكبي الذي كان حريصاً على فلسفة الرحيل في البحر لم ينس أن يجدد دعوته لأحمد بوجوب السفر، لأن البحر يجعل منه رجلاً حقيقياً.

- وقال:

- أنا متأكد أنك سترحل ذات يوم. ولكن لا تجعل ذلك بعيداً جداً.

- ثم أمسك رمانة كتفه بجمع يده وهزه بلطف مضيفاً:

- اليوم تهتز الأرض تحت أقدامك. وفي يوم ما سترى أنك أنت الذي تهتز.

- وبينما اتخذ أحمد سبيله إلى البيت أنشأ يحدث نفسه: «أنت لا تريد أن تكون صياداً ولا مُصاداً. طيب ماذا يمنعك أن تكون صيّاد صيّادين». ثم وجد نفسه يقول وهو يضحك: «لا شيء. لا شيء». كانت الفكرة الآن قد اتخذت كامل أهبتها وزينتها بعد أن طرحت خفرها وترددها وراحت تخطر في خياله حتى أشبعت غروره الفتي. لكنه في لحظة أخرى همس لنفسه قائلاً: «لكن هل أنا قدها؟».

- لم يُضع أحمد الوقت سدى بعد تقديم الاستدعاء إلى الشركة الذي طلب فيه الانضمام إلى فرق المحاصة فالشتاء يقترب وفي الشتاء تقل فرص عمل المياومين لذلك كان همّه في هذه الآونة أن يضع قدمه في إحدى الفرق المحاصّة، فينتهي الإشكال بالنسبة إليه كما بدا له.

- وقد وجدها فرصة مناسبة عندما ألفى نفسه اليوم يقف أمام مكتب فرقة (أبو المحمدين) يطلب عملاً يومياً، وجدها فرصة مناسبة لمفاتحة ريس الفرقة بموضوع المحاصّة.

- ففي الوقت الذي كان فيه نفر من العمال في الخارج ينتظرون ترحيلهم إلى البواخر بعد ذهاب الدفعة الأولى من العمال. أخذ أبو المحمدين يصلي داخل القبو. كان قد اصطنع من سترته مصلاة للسجود. وبالرغم من أن الوقت كان متأخراً نسبياً فقد راح أبو المحمدين يؤدي صلاة الفجر. لكم كان يرغب أن يقوم بفروض صلواته الخمس في أوقاتها. ولكنها ظروف

العمل في الميناء التي تجعل المرء لا يعرف أحياناً رأسه من قدميه، وكان يرغب أكثر ما يرغب أن تكون صلاته حاضراً، فهي أكثر حلالاً وأجدى بالنفع على صاحبها، ولكن للضرورة أحكام. وغير مرة قال لنفسه: «لو لم يكن الدين متسامحاً يجيز للناس الصلاة خارج أمكنة العبادة لوقع المؤمنون في مشكلة. ولكنها حكمة الدين». وقد سمح لنفسه ذات مرة أن يتصور أن الدين ليس على هذا القدر من التسامح فماذا وجد؟ وجد أن الناس أمام أمرين: فإما أن «يطفش» المؤمنون من حظيرة الدين، أو تعرقل مصالح الناس. ولكن الدين الذي كان حريصاً على المؤمنين في حظيرته أجاز لهم الصلاة خارج أمكنة العبادة الخاصة. إذ ليس المهم المكان الذي تؤدي فيه الصلاة وإنما الصلاة نفسها، وإن كانت الصلاة حاضراً أعود بالثواب على المصلي. هذا ما قاله رجل دين معمم لأبي المحمدين عندما سأله ليتأكد من صحة صلاته، وبذلك لم يجد أبو المحمدين أيما تعارض بين عمله وبين أداء فروض الصلاة مادام الدين على القدر من التسامح. فكان إذا ما أدركته الصلاة في الباخرة أو في الماعونة أو في المكتب خلع سترته وصلى فوقها، أما إذا كان على الرصيف وقريباً من الفنار فكان يؤثر أن يتسلق الصخر ويصلي فوقه، بينما المويجات تلغط في الأسفل على مدخل الحوض القديم.

- وقد تساءل أبو المحمدين غير ذات مرة: لماذا لا يصلي كل الناس إذا كان الدين متساهلاً إلى هذا القدر.

- وهكذا كان أبو المحمدين راضياً تمام الرضى عن صلاته وعن عمله، ما دام كل منهما يسير في السبيل التي رسمت له وينال نصيبه من الاهتمام والرعاية. مرة واحدة فحسب وخلال حياته الصلاتية كلها شك بصلاحية صلاته. كان ذلك في أسبوع حفل بالعمل إلى حد لم يجد معه متسعاً من الوقت لإقامة الصلاة خلال سبعة أيام فما كان منه إلا أن اعتبر صلوات ذلك الأسبوع ديناً مستحقاً عليه وسددها في الأسبوع التالي بالجملة، واحدة فواحدة. وقد ابتدأ فقال بصوت مسموع: هذه صلاة الضحى ليوم الثلاثاء ثم ألحقها بـــ (صلاة الظهر) وهكذا حتى وفى دينه المستحق لصلوات الأسبوع

الفائت. أما إذا كان يردد بصوت مسموع قبل بدء كل صلاة هذه صلاة الضحى. هذه صلاة الظهر.. الخ. الخ. فلعله أراد في ذلك أن يبرئ ذمته أمام الرب، ويلفت انتباهه بالصوت إذا كان في شاغل عنه.

- ومنذ ذلك اليوم لم يعد أبو المحمدين إلى الصلاة بالجملة، وفي نفس الوقت لم يضطر للمثول بين يدي الله كدائن تخلّف عن تسديد التزاماته الصلاتية، ربما لأنه لم يصادف أن مرّ به أسبوع يماثل ذلك الأسبوع المشهود الحافل بالعمل، ربما. وربما تناول أبو المحمدين المسألة من ناحية أخرى. ذلك أنه إذا تقاعس عن أداء التزاماته الدينية فلن يخسر الله شيئاً كبيراً. في حين أن خسارة أبي المحمدين غير محدودة النتائج إذا أعرض الله عنه. ولم يجد أبو المحمدين أيما مبرر لخلق جفوة بينه وبين الرب ما دامت ريحه مواتية وما داما متفاهمين يقوم كل منهما بالتزاماته تجاه الآخر.

- بعد أن أعلن أبو المحمدين عن انتهاء صلاته بالتسليم يميناً ويساراً استوى قائماً ثم أخذ سترته المفرودة على الأرض فنفضها وارتداها.

- قال له أحمد الذي كان يرقب انتهاء الصلاة:

- تقبل اللّه.

- فقطع أبو المحمدين الذي كان لا يزال يردد بصوت خفيض بعض الأدعية، قطع سلسلة الدعاء هذه ليقول:

- جميعاً.

- ثم واصل تمتمته وهو يتجه إلى طاولة قامت في زاوية في أقصى القبو.

- تناول عن الطاولة خاتماً ذهبياً أنزله في إصبعه ثم أخذ ساعته اليدوية ليحكم ربطها حول رسغه.

- كان من عادة أبي المحمدين إذا ما استعد ليقيم شعائر الصلاة أن يخلع خواتمه الذهبية وساعته اليدوية. إذ كان يبدو له أن مثول المرء بين يدي الله مجرداً من زخارف الدنيا وبهرجتها أطيب وقعاً عند الله وأدعى إلى

غبطته. في حين كان لعامل مياوم من عمال أبي المحمدين وجهة نظر مغايرة تماماً. كان يرى أن عملية أبي المحمدين هذه ما هي إلا محاولة لخداع الرب ليتظاهر أمامه بالفقر.

- قال أبو المحمدين:

- كيف أنت أحمد؟

- ثم مستدرجاً:

- هل الشغل على ما يرام؟

- لقد شعر أبو المحمدين بغريزته أن هناك مطلباً وراء دخول أحمد إليه. فضحك أحمد وقال:

- أقول لك الحق؟ ليس على ما يرام.

- فتضاحك أبو المحمدين بدوره وقال يتساءل بقلق عما يريد أحمد منه:

- لماذا؟

- وفي الحال وضع نصب عينيه لا. كان أبو المحمدين يعلم أن والد أحمد مشلول فخمن أنه ربما يعاني ضيقاً مالياً فجاء ليستدين منه.

- قال أحمد وقد شاب ضحكه شيء من الأسى:

- لأني مثل النَوَر. كل يوم أحمل زوادتي وأدور على أبواب الفرق.

- وتنفس أبو المحمدين الصعداء. القضية ليست قضية استدانة إذن. ولكنّ أحمد لم يدخل عليه وهو يصلي عبثاً. لم يجتز عتبة القبو بينما الشغيلة يصطلون بدفء الشمس في الخارج لمجرد أن يقول: «تقبل الله». كذلك فكّر أبو المحمدين. فهو منذ أن بدأ الصلاة لاحظ أن هناك من يرقبه.

- لقد شعر بظل على عتبة القبو فسمح لعينه أن تطرف باتجاه العتبة لتستكشف صاحب الظل فوجده قائماً هناك. وتساءل مرة أخرى عن الهدف الحقيقي الذي يسعى إليه أحمد. فقال دون أن يفرط بأيما قدر من حذره الغريزي الذي استفاق مع مقدم الفتى:

- أنت تدري كيف يجري العمل الآن. يوم البحر كبير، يوم مطر، ويوم لا تريد أن تأتي فيه البواخر إلى الميناء لسبب ما. هكذا يكون العمل في هذا الفصل من السنة.

- فقال أحمد:

- أدري.

وقال أبو المحمدين:

- طيب.

وهمس لنفسه: «ما دام يدري ففيم يدور حولي إذن؟» .

ووجد أحمد في كلمة «طيب» منفذاً إلى ما يريد فقال على الفور:

- قدمت استدعاء إلى الشركة يا ريس.

فتساءل أبو المحمدين وقد بدأ يلوح له أن شكوكه لم تكن قائمة على أساس.

- استدعاء! لماذا؟

فقال أحمد:

- من أجل المحاصّة

وسقط آخر تحفظ شخصي لدى أبي المحمدين. كان أبو المحمدين قد رسم خطاً بينه وبين الآخرين، وبالرغم من أنه كان خطاً وهمياً، مع ذلك كان يبدو أنه أعلى من سور الصين. فلم يسمح لأحد يوماً باجتياز هذا الخط. هذه العقبة التي أقامها. ولم يستطع شيء ما في أيما ظرف أن يشده خارجها.

كان قائماً هناك في ذاته أشبه بصخر الشاطئ البعيد الذي لا يعرف البلل إلاّ في حال المد عندما يغمر الماء كل شيء. كان راسخاً صلداً لا يهزه شيء مثل صخر. والحق كان عاجزاً أيضاً عن القيام بأيما مبادرة ذاتية كما يعجز الصخر عن التحرك باتجاه البحر. كان يقول: «إذا دخل المال بين صديقين فرق بينهما». وعملاً بهذا المبدأ أمسك يده عن الأخذ والعطاء. وأحكم إغلاق قبضته على القرش. شيء واحد كان له القدرة على حل عقدة

يده المطبقة على الفرش. هو العصافير، كان يحب العصافير أوهكذا كان يبدو على الأقل. ولاح في وقت من الأوقات كأفضل من يرأف في الميناء بالطيور الصغيرة اللطيفة، فقد أنفق لرجل مرَّ بالميناء ذات يوم، يحمل بيده قفصاً يعج بأنواع من العصافير التي تُربّى في البيوت من أجل غنائها يعرضها للبيع. وصادف أن أبا المحمدين كان جالساً في هذه الأثناء مع عماله في المقهى. كان ودوداً جداً في هذه الفترة مع المياومين والمحاصّين على السواء. كان قد نشأ لديه، في هذه الآونة، ميل مفاجئ إلى أن يراه الآخرون على أوسع نطاق وهو يصلي فوق سترته المفرودة على الأرض. وأن يروا أعماله الخيرة أيضاً. قال: «حرام أن تُحبس العصافير. العصافير خلقت لتطير». ونهض بين دهشة العمال واستغرابهم وأطلق العصافير واحداً بعد آخر ثم نفح صاحبها خمس فرنكات عن كل عصفور طار في الجو. ولكن هذه البادرة، ككل بادرة طيبة في أيامنا هذه لم تسلم من السنة المتقولين، إذ علق محاصّ كان يطمح إلى رئاسة الفرقة فقال: «كان يعلم (يقصد أبا المحمدين) أن انتخابات الريّاس على الأبواب». وأياً ما كان فإنّ أبا المحمدين أقلع ذات يوم لسبب ما عن عادة إطلاق العصافير من الأقفاص عندما لم يعد رئيساً للفرقة.

وقال أبو المحمدين:

- آه من أجل المحاصّة. فكرة لا بأس بها.

ولكن في الوقت الذي زال فيه تحفظ أبي المحمدين الشخصي نشأ تحفظ من نوع آخر، التحفظ نفسه الذي يعود إلى الظهور كلما تحدث أحدهم بشأن المحاصّة، غير أن هذا التحفظ لم يكن شيئاً انفرد به أبو المحمدين بل كان عاماً بين أعضاء الفرقة جميعهم. ولمّا لم يكن وحده هو الذي يقرر بشأن ذلك أعاد قائلاً:

- فكرة لا بأس بها. نعم المحاصّة شيء جيد. حسناً. سنرى.

ولم تقع في نفس أحمد هذه الـ «سنرى» موقعاً طيباً. فقد استوقفه شيء ما في اللهجة التي قيلت بها. كانت خالية من تعاطف الزمالة القديمة التي عمّدها شقاء ونضال مشترك طويل. كانت مجرد تكرار آلي أجوف أحسّه أحمد في أعماقه، قاله رب عمل لأحد عماله.

وأضاف أحمد مذّكراً:

- وقت تأليف الفرق كنت في الجيش.

وقال أبو المحمدين:

- بسيطة أخي أحمد. أنت واحد منّا.

ولم يجد أحمد شيئاً ليقوله بعد وعد ريس الفرقة له، كان واضحاً أنّ أبا المحمدين قد وضع نقطة الختام في هذا الموضوع وأنه لن يضيف بعد أيّة كلمة أخرى حول هذه المسألة. وإزاء ذلك لم يكن أمام أحمد سوى الانسحاب للالتحاق بزملائه في الخارج.

تنفس أبو المحمدين الصعداء. الآن يستطيع أن يطمئن تماماً إلى أن قرضاً منه لن يُطلب. والحقيقة بعد أن اكتشف أبو المحمدين منذ الدقائق الأولى أن أحمد إنما جاء ليبحث قضية المحاصة زال تخوفه. لكن هذا التخوف ما لبث أن عاود الظهور.

فخلال كل اللحظات التالية كان أبو المحمدين يصارع ميلاً إلى الاعتقاد أن الشخص الذي يطلب قرضاً يأتي مثل الشيطان في كل مرة بلباس جديد. وما موضوع المحاصّة الذي أثاره أحمد إلا شكل من تلك الأشكال الشيطانية.

فمنذ أن صار أبو المحمدين ريس فرقة محاصة كان ضحية وهم بأن ما من شخص اقترب منه حتى خُيّل إليه أن هذا الشخص إنما قصده ليستدين منه وتروح يداه في حركة لا شعورية تتحسس جيوبه.

هو نفسه تساءل غير ذات مرة عن سبب هذا الشعور الذي ركبه. كيف ولماذا نشأ لديه. لا يدري بالضبط لكن مما لا شك فيه أنه لا يستطيع أن يستبعد من ذهنه تماماً صورة رب العمل العجوز وأولئك الذين كانوا يلوبون حوله لاستخراج المال من جيوبه، أفاقون ومحتالون من كل نوع وجمعيات خيرية وجعائل لبعض المتبطلين ولعائلات محترمة حطَّ بها الدهر.

وقصة خادم الجامع الذي رأى في منامه ولي جامعه الصالح يقول له اذهب إلى أبي الفقراء في الميناء وقل له عن لساني: «أنا عريان وأنت مكتس فاكسني واكسو جامعي مما أغدق الله عليك». هذه القصة غير غائبة عن باله.

ومع أن أمثال هؤلاء الناس قد فهموا منذ الشهور الأولى لتشكيل فرق المحاصّة أن نجوم السماء أقرب من استخراج قرش من جيوب أرباب العمل الجدّد، لأن هذه الأساليب البلهوانية لا تجوز عليهم. مع ذلك فقد ظل أبو المحمدين لا يستطيع أن يتخلص نهائياً من الصورة الغامضة لمحتال مجهول سيحل عليه ذات يوم «ليلعب بذقنه». كما كان يقول في نفسه.

ففي السنين المبكرة من حياته تورط في لعبة «كحلة»، كان ذات يوم ماضياً في طريقه إلى السينما وفي جيبه بعض الفرنكات التي ادّخرها لحضور فيلم ارتقبه طويلاً. كان عمره آنذاك لا يتجاوز الرابعة عشرة، وكان وقتها شغوفاً بأفلام رعاة البقر. ولكن في الطريق اصطاده رجل يدير بين أصابعه ثلاثاً من أوراق اللعب. كان قد فكّر قبل أن يُقدم على اللعب: «إذا ربحت بعض المال سأشتري من النقود الرابحة تذكرة سينما وبعض البذر الأبيض، وسأدّخر الباقي، وهكذا يمكنني أن أحضر فيلمين بدلاً من فيلم واحد. من يدري؟ وربما أكثر». أما الخسارة فلم تخطر على باله. غير أن الشيء الذي لم يخطر على باله هو الذي حدث. فقد سلبه لاعب الثلاث ورقات ما معه من نقود. وفي لحظات أمسى فقيراً عارياً مجرداً من المال الذي تعب أياماً في جمعه. لقد بكى في تلك اللحظة وقد وجد نفسه حُرِّم فجأة من الفيلم الذي حلم به طويلاً.

هذا الحادث ترك في نفسه جرحاً لمدة طويلة. ولا يزال حين يعن على باله يردد فيما بينه وبين نفسه: «لقد بعصني ذلك الرجل بعصة لن أنساها». ثم يتنهد قبل أن يضيف مرة أخرى: «لِمَ التأثر؟ الحياة نفسها لعبة كحلة والشاطر هو الذي يعرف كيف يسحب ورقته الحمراء الرابحة».

أشعل أبو المحمدين سيكارة بعد أن جلس وراء الطاولة. كان عمال الدفعة الثانية قد رحلوا إلى البواخر . وكان الصمت قد خيّم تماماً بعد رحيلهم. ولثوان وجد نفسه فجأة في فراغ مطلق وخلا ذهنه تماماً من أية فكرة عما سيفعله في اللحظة التالية فأخذ يفتح أدراج الطاولة بلا هدف محدد. لكنه أمل أن يجد شيئاً ما يعمله.

سحب درجاً في أسفل الطاولة. وقف بنظره عند مجموعة من أوراق اللعب. كان يعلم أنها تخص ناطور المكتب الذي يستطلع فيها حظه عندما يكون وحيداً. كان الناطور رجلاً عجوزاً طرش بعد مرض، وكان قد انقطع عن العمل في البواخر بسبب تقدمه في السن، وكانت زوجته قد ماتت منذ سنتين. لم يكن يتقن عمل شيء خارج البواخر، ولم يكن هناك قانون لتأمين الشيخوخة. لقد احتار في البداية ماذا يفعل في هذه الدنيا الواسعة وهو رجل عجوز لا ولد له ولا زوجة. كانت الحياة بعيداً عن الميناء غير ممكنة بالنسبة إليه كالسمكة بعيداً عن الماء. وقد دفعته الغريزة التي تدفع كلباً هَرِم فلُفظ بعد أن صار غير ذي فائدة من بيت قضى فيه حياته إلى البقاء بجانب جدار هذا البيت. لعل هذه الغريزة نفسها هي التي قادت العجوز ليلوب في نفس المنطقة التي كان ينطلق منها في الأصباح إلى العمل في البواخر.

وعندما تكرر تردده يوماً بعد يوم دون أن يسند إليه أحد أيما عمل رسمي، فقد أسند إلى نفسه مهمة حراسة مكتب الفرقة لقاء المبيت فيه ولقاء ما تجود به أريحية زملائه العمال بما يدسون في يده من دريهمات ساعة يقبضون أجورهم.

قال أبو المحمدين: «المسكين! لو كان عنده أولاد لشالوه في شيخوخته. لكن لا ولد له ولا مال. المال كل شيء. عندك مال أنت شيء. ليس عندك مال أنت لا شيء. قيمة المرء بما في جيبه. اللهم استر آخرتنا».

حينما انتهى أبو المحمدين من مناجاة نفسه لحظ الورق ثانية . ابتسمت عيناه أولاً ثم ابتسمت شفتاه. انتقى ثلاث ورقات من المجموعة راح يدورها حيناً، وأحياناً ينقلها ويقلبها بين أصابع يديه. ثم ما لبث أن طرحها على الطاولة أمامه. لقد فعل ذلك مرة بعد مرة. فعل ببطء في البدء ثم تسارعت حركة يديه وأصابعه ببراعة مثل مكوكين آليين يعملان في حركة متعاكسة. توقف عن اللعب. قال وهو يضحك: «بعصني ابن الكلب بعصة وصلت إلى مخي». ومدَّ خياله متسائلاً: «عجباً ماذا كان ذلك الفيلم؟». ثم معقباً: «ولكن كيف لي أن أعرف وأنا لم أحضره. ابن اللئام ما كان أبرع يديه لكنه قطعاً لا

يجاريني الآن في اللعب مع أنه محترف وأنا هاو». وابتسم ساخراً: «لكن لماذا ألومه وتلك هي طريقة عيشه. ألسنا كلنا نلعب الكحلة بشكل من الأشكال، والفوز أخيراً لمن يلعب أسرع».

* * *

لم يجن أحمد من لقائه مع رؤساء الفرق سوى الوعود. لم يقل واحد منهم له إلا.. «طيب .. بسيطة. أنت واحد منا. سنرى». هذه هي الكلمات التي رددوها على مسمعه وكأنهم ينثرون بين يديه حبات سبحة واحدة.

فبعد مضي أقل من أسبوع على لقائه بأبي المحمدين عرّج أحمد على خليل الشمّام رئيس الفرقة الرابعة في مكتبه. الحقيقة أن الشمام ليست كنية خليل الأصلية وإنما كنيته الأصلية العريان. أما الشمّام فقد أُلحقت به كما أُلحقت بأبيه وجده من قبل. ولا شك أن كلمات مثل العريان والشمّام ليست ذات شأن إلا بالمعنى الذي تدل به على أصحابها حتى ليبدو في وقت من الأوقات أنه من الظلم الفاحش استبدال كلمة بأخرى: فالعريان هي الكنية المحمولة عن الجدود. ولا ريب أن كنية كالعريان لا تأتي عفواً. لا يتكنى بها عبثاً. لا تحملها الريح وتلصقها بشخص إلصاقاً. إنها جدارة. يقول العارفون نقلاً عن آبائهم وهؤلاء ربما عن آباء آبائهم أن أحد أجداد خليل الشمّام كان يسير عرياناً في الأسواق هائماً بحب الله. ويقول آخرون إنه كان مكيساً في أحد الحمّامات. أما قبل العريان فكانت كنية العائلة شماط حمّلها إياها آغا تركي لكثرة ما كان يشد الجد الأكبر للعريان من أذنيه. المهم فإن كلمة العريان صارت هي الكنية الرسمية لعدد من الجدود حتى وصلت إلى جد خليل فدخل عليها التقلقل. كان جده يشتغل بصيد الحيّات. كانت له قدرة خاصة على الشم في معرفة الأمكنة التي تتواجد فيها الحيات وعلى استخراجها من أوكارها للقبض عليها. ولقد قال الذين عاصروه إنه كان يقرأ قراءات معينة من شأنها أن تشل الزواحف وتجعلها عاجزة عن الحركة فيمد يده ويمسك بالحية كما يمسك المرء بسمكة في حوض صغير بل إن إمساك الحية بالنسبة إليه أسهل من إمساك السمكة من حوض صغير.

وحينما مات الجد الخيّر للعائلة انتقلت خاصة الشم إلى والد خليل. لم يكن والد خليل واسمه مبروك يعرف شيئاً من قراءات أبيه الغامضة. لقد قيل يومها أن الأب مات دون أن يعلّم مبروكاً شيئاً من أسرار الصنعة لأن الولد كان غير بارٍ بأبيه. وبموت الأب ماتت معه تعاويذه. لكن مبروكاً الذي حُرم من تعاويذ أبيه لم يُحرم من خاصة شمه. وطبيعي أن شيئاً كهذا لا يملك الأب أن يحجبه عن ابنه لاسيما إذا قُدّر لهذا الشيء أن يتخذ أهبته ليصبح مزيّة من مزايا العائلة تنتقل بالوراثة مع باقي الموروثات العائلية. وهكذا لم يكن أمام الفتى الذي كان يعرف كيف يشم كثيراً أين توجد الحيات إلا أن يلجأ للحيلة ليتلافى النقص الذي خلّفه له والده بإمساك التعاويذ عنه، لقد استعاض مبروك عن التعاويذ بكسر البيض على عتبات الجحور لاستدراج الحيات للخروج من مخابئها. وإذا كان من شأن التعاويذ أن تشل حركة الحيات، فإنه استبدل ذلك بعنصر السرعة والمباغتة. فكانت طريقته تتلخص بالتربص للحيّة التي سرعان ما تجذبها رائحة البيض المفقوشة على باب جحرها فإذا ما أطلّت هذه لالتهام البيض الذي تحبه كثيراً أسرع هو بالقبض عليها من تحت الرأس مباشرة. كان ذلك في الماضي يوم كان صيد الحيات يعود بالربح على مبروك العريان الذي التصق اسمه بمهنته فأصبح يلقب بالشمّام. لكن صيد الحيات تلاشى أو كاد في المدن والقرى والأرياف لسبب من الأسباب. وفي الوقت الذي كان يجب فيه أن تضعف أو تختفي خاصة الشم لدى عائلة العريان لزوال الأسباب الموجبة طبقاً لمنطق التطور. عادت هذه الخاصة إلى الظهور لدى خليل وقد غيّرت ميدانها. فخليل لم يشتغل يوماً بصيد الحيات لكنه اشتغل عاملاً في الميناء، وبما أن خاصة الشم قد حفرت لنفسها طريقاً وأصبحت شيئاً ملتصقاً ومتميزاً في عائلة العريان، بدا أنه لم يعد ثمة أهمية كبيرة للمكان الذي يشتغل فيه أفراد العائلة. كان الشم قد أضحى خليقاً أن يعلن عن نفسه بشكل أو بآخر. فنظرة سريعة من خليل وقبل أن يعمل شرشوره في شيء عندما ينزل إلى عنبر باخرة تكفي لمعرفة الصندوق الذي هو جدير باهتمامه الخاص. كانت له قدرة عجيبة في تمييز الصناديق ذات المحتوى الثمين. «هذه زكاة البضاعة». ويقتطع لنفسه قطعة جوخ يلفها حول وسطه تحت ثيابه

الداخلية. أو يغيّب شيئاً في جيبه أو كيس زوادته حسب ما يقتضي الحال. ثم يعود إلى ظهر الباخرة وكأن شيئاً لم يحدث. «هذا هو الشمّام عاد وقد حبل في العنبر. في أي شهر أنت؟ ماذا تحمل في بطنك الكبير؟» ويجيب الشمّام: «لاشيء. كل ما في الأمر عملت بوصية الشريعة. جعلت هؤلاء الخنازير الأغنياء يزكّون عن أموالهم. حصّلت لنفسي نصيبي من الزكاة وبقي أن تحصلوا نصيبكم. ماذا أفعل، الأولاد بحاجة إلى فحم وطعام أيها الرفاق لا تؤخذ الدنيا إلا غلابا. في عطفة إلى اليسار يوجد صندوق معطوب. لم أعطبه أنا وحق محمد. هو كان معطوباً. غيري عطبه. بيروت، الإسكندرية غيرهما. لا أدري. الصندوق كان مفتوحاً. قال لي تعال وخذ نصيبك. الصناديق المفتوحة تتكلم يا أصدقاء. خذوا نصيبكم بهدوء ولا تدعوا الآخرين يرونكم. لا تورطونا كرمى لمحمد».

ولم يكن خليل رائعاً في اكتشاف الصناديق النفيسة في عنابر البواخر فحسب، بل كانت له حاسة شم فريدة بالنسبة للأمكنة التي يستطيع أن يعثر فيها على بنطال أو جورب أو قميص أو حذاء أو شقفة حبل أو قطعة خام، وبالإجمال كل ما يبدو للعين وكان صاحبه لا يوليه الاعتبار الذي هو خليق به، فيتقدم هو من ناحيته ليعيد له ذلك الاعتبار.

وعندما ودّع خليل أيام المياومة وصار ريِّس فرقة لم يتخل عنه حسه الخاص بالشم. كان يفكر ويحسب ويخمن بأنفه. كان أنفه يملي عليه ماذا يجب أن يعمل في بعض المواقف فيوحي له مثلاً متى يتعين عليه أن يجعل وكيل باخرة ما يتقدم منه ليقول له: الشغل بطيء يا ريّس. وليدسّ من ثم في يده ورقة أو ورقتين من ذوات الأرقام الكبيرة ثمن فنجان قهوة فيصير الشغل أفضل.

وغنيٌ عن القول أن شخصاً يملك مثل هذه الرهافة في الشم كان من المفترض أن يكون في وضع يُمكنه من النظر إلى الأمور نظرة بعيدة وحكيمة. لكن يبدو أنه قد بالغ في الاعتماد على أنفه إلى حد جعل منه إنساناً متطيراً.

فما أن ينفرد عاملان من عمال فرقته ويتسارّان حتى يتحرك أنفه منذراً بالخطر. وحينما فاتحه أحمد بموضوع المحاصّة كان متوفز الأعصاب نوعاً، كان قد أمضى قرابة شهرين وهو يحاول عبثاً أن يثني زوجته عن قرار اتخذته بشأن تسجيل ابنتهما في المدرسة، كانت الأم ترى أنه من السخف وضع فتاة في المدرسة ما دامت ستؤول في النتيجة إلى البيت وإنجاب الأولاد. وقد فعلت ذلك في وقت كان فيه خليل الشمّام يعاني من عقدة الأمية لاسيّما بعد ما كثر اللغط بين فئة من عماله في الآونة الأخيرة من أن رئاسة الفرقة ينبغي أن تكون بيد شخص يجيد القراءة والكتابة لتفادي الأخطاء المتكررة في الفرقة. طبعاً لم يغرب عن أنفه الأشخاص الذين كانوا يثيرون أمثال هذه المتاعب في الفرقة وقد أدرك بشمه الرائع الغاية التي كانوا يهدفون إليها من وراء ذلك.

وللحظات راود الشمّام هذا الخاطر. ماذا لو ضم أحمد إلى فرقته واتخذ منه كاتباً عوضاً عن قدورة الأسود كاتب الفرقة الذي يحفر الأرض من تحته ويؤلب العمال عليه؟ لكنه ما لبث أن أبعد هذه الفكرة وكأنه يبعد عن عينيه صورة مخيفة، «من يضمن أنه لن يكون كالآخرين؟ سيبدي الوفاء طبعاً لبعض الوقت – اذا ضمّه - وبعد ذلك سيبدأ بالتآمر . مجنون من يضع يده بيد متعلم. تشفق على شخص فتلمه من الشارع كيّلا يموت جوعاً لكنه لا يلبث أن يعمل ليحل مكانك لأنه يعرف كيف يمسك بالقلم. قدورة الأسود ابن الكلب صار له ريش». قال في نفسه.

وأدار بين أصابعه قلم حبر جاف التقطه من على حامل فوق الطاولة، وغمغم: «ليهنأ المتعلمون بأقلامهم وليمت المتآمرون بغيظهم. رئاسة الفرقة لن تفلت من يدي بنت الأوادم، لنسجل البنت في المدرسة، لا. دعيها تصير جاهلة مثل أبيها. ابن صياد الأفاعي. هه. وأنتم ماذا كان يعمل آباؤكم بحق الله؟ أعرفكم واحداً واحداً. علي ومحمود وقدورة ومصطفى وطه. أعرفكم وأعرف آباءكم. من كان منكم بلا خطيئة فليرمني بحجر، كلاب أولاد كلاب. الحسد يأكل قلوبكم. وكر أفاعي فرقتي» وهمس أيضاً: «محال أن أزيد الأفاعي أفعى. لكن الأفعى ما تزال واقفة أمامك فاصرفها بالحسنى».

ورمق الشمّام أحمد:

- أخي أحمد أنت تعلم أن فرقتي هي أكثر الفرق عدداً بالمحاصّين. مع ذلك سوف أرى اذا كان هناك متسع لمحاصّ آخر.

فقال أحمد:

- وإبراهيم الناعوري؟

فتساءل الشمام:

- وماله إبراهيم الناعوري؟

فقال أحمد:

- هو الآخر قدّم طلباً.

فحدث الشمام نفسه: «ابن الكلب لا يريدها لنفسه فقط بل لتابعه أيضاً. ملعون من يقبل أياً منكما في فرقته».

وقال بثعلبة:

- دعنا في موضوعك الآن. وعسى إبراهيم يجد له مكاناً في فرقة أخرى. أحدكما وهو أنت عندي، وإبراهيم عند غيري. اثنان في فرقة واحدة محال، مسألة صعبة، لا يح

- مّل الله نفساً إلا وسعها. ليس فوق كلام الله كلام . أليس كذلك؟.

* * *

جلس إبراهيم الناعوري وأبو الذهب والخال خلف قمرات البحارة في الجانب الغربي من الباخرة يحتمون من لذعات الريح الشرقية. ولم يلبث أن انضم إليهم أحمد. وعلى مسافة وقف محمد الطفران خلف سور الباخرة ينظر كعادته بعيداً في البحر وطيف ابتسامة على شفتيه.

قال أبو الذهب:

-ما حقيقة حكاية الأسبرين أمس يا أحمد؟

ومسَّ أحمد تيار مكهرب فنظر إلى إبراهيم متسائلاً.

فقال إبراهيم ضاحكاً:

- لم أستطع أن أكتمها.

قال أحمد:

- ما كان يجب أن تعود إلى ذكرها.

قال الخال:

- لماذا؟ إنها جديرة بالرواية.

فقال أحمد:

- حادثة بسيطة لا تستأهل.

وقال أبو الذهب:

- إذا حدثت كما رواها إبراهيم فهي تستأهل.

قال أحمد:

- لعله رشَّ عليها من بهاره.

فقال إبراهيم:

- لم أرش عليها أي بهار وشرفك.

قال الخال:

- ببهار أو بدون بهار نريد أن نسمعها.

قال أحمد:

- ما الفائدة من تكرارها. لقد رواها لكم إبراهيم.

قال الخال:

- الشيء الطيب لا يُمّل سماعه.

قال أبو الذهب:

- ماذا قال الصيدلي؟

قال الخال:

- ماذا قال الرجل للصيدلي. نريد أن نسمعها من البداية.

قال إبراهيم مستدرجاً:

- كنا في الصيدلية نشتري لزقة ظهر لأحمد - ظهره كان يؤلمه كما تعلمون- كنا إذن نشتري لزقة لأحمد عندما دخل رجل مسن وطلب أسبرين. قال الرجل المسن للصيدلي: هل عندك أسبرين؟ قال الصيدلي: عندي. وسحب الرجل بيد مرتجفة من إحدى جيوبه فرنكين وقال للصيدلي: أعطني بفرنكين. فقال الصيدلي: ليس عندي أسبرين بفرنكين. لا أبيع إلا علبة كاملة. ثم التفت لتلبية طلبات الزبائن. بينما انسحب الرجل المسن دون أن يفوه بكلمة.

قال الخال:

- هم. وماذا حدث بعد ذلك؟

قال إبراهيم:

- سَل أحمد. أحمد هو الذي تصرف.

قال أحمد باستحياء:

- حادثة بسيطة لا تستأهل.

فقال أبو الذهب:

- يا سيدي تستأهل أو لا تستأهل نريد أن نسمعها.

تردد أحمد قبل أن يتكلم. كان الحرج بادياً عليه.

قال:

- عندما استدار الرجل لينصرف. شعرت بشيء في داخلي يقول لي: قل للصيدلي هل عندك أسبرين؟ فقلت للصيدلي: هل عندك أسبرين؟ قال الصيدلي عندي. ثم قدم لي علبة. قال ذلك الشيء الداخلي مرة ثانية: ناوله فرنكين فناولته فرنكين. فقال الصيدلي: أنا لا أبيع بالمفرق. لا أبيع إلا علبة كاملة. قال لي ذلك الشيء مرة أخرى. أعطه فرنكين على الحساب وخذ العلبة. أخذت العلبة ثم قلت للصيدلي: كم ثمن العلبة؟ قال ستون قرشاً. قلت: طيب. هاك عشرة قروش والباقي عندما يتوفر معي.

هتف أبو الذهب:

- أحسنت. والله عملت عين العقل.

واستحث الخال:

- وماذا حدث بعد ذلك؟

قال إبراهيم منفجراً بضحكة مجلجلة:

- وماذا حدث؟ تركنا الصيدلي مزروعاً في مكانه.

وفغر فمه مقلداً:

- ثم حملنا علبة الأسبرين وبحثنا عن الرجل المسن. لكن عبثاً.

قال أبو الذهب:

- خسارة.

قال أحمد:

- ربما كان رأسه يؤلمه؟

قال الخال:

- صيدلي ابن كلب. لعلَّ المسن لم يكن يملك سوى هذين الفرنكين. من يدري؟

فقال أحمد:

- هذا ما فكرت به والله. وقلت لنفسي: «يجب أن أعمل شيئاً من أجل الرجل المسن. وأنبه الصيدلي».

وقهقه إبراهيم:

- حتى كدت تخرج عينيه من محجريهما.

قال أبو الذهب:

- لا فائدة.

سأل أحمد:

- لا فائدة من ماذا؟

قال أبو الذهب:

- لا فائدة من جعل أمثال هذا الصيدلي يشعرون.

ثم إلى الخال:

- إيه. وأنت أيها الخال ماذا تقول روزنامتك في ذلك، أليس فيها ما يشير بطرف إلى أمثال هذه الأمور؟

قال الخال:

- بلى.. بلى «المتخمون لا يشعرون بالجياع. المكتسون لا يشعرون بالعراة، الأسياد لا يشعرون بالعبيد المكبلين بالأصفاد. طوبى للجياع والعراة والمظلومين لأن لهم يوماً آتياً».

فقال أبو الذهب:

- من قال ذلك؟ إني أشم من هذا الكلام رائحة.

وأتى أنفه بحركة تعبر عن اشمئزازه ثم أضاف بعد لحظة:

- إنه يشبه كلام أصحابك.

ورسم بكل من سبابتيه وإبهاميه دائرة حول رأسه:

وندت عن الخال حركة امتعاض فقال أحمد:

- ألف مرة قال لك الخال لا تقرب من أصحاب العمائم. هو حسّاس من هذه الناحية . إنه يتشاءم.

قال أبو الذهب:

- هو وشأنه. أنا أيضاً أتشاءم من أمثال هذه الوعود. ليكن من كان صاحب هذا القول . أنا لا أحب التسويف. متى يكون هذا الـــ «يوم الآتي» الذي يبشر به صاحبك في الروزنامة. أنا أحب الدفع فوراً. لا أريد عشرة عصافير على الشجرة. أحب الدفع نقداً وعدّاً.

ووجدها أحمد فرصة ملائمة لينفس عما يجيش في صدره وليوجه الحديث من ثم وجهة أخرى:

- أنا في صف أبي الذهب من هذه الناحية. ليس هناك أفضل من الدفع فوراً. عندما كانت الجماعة في الميناء كنا نردد سيأتي يومهم. وقد جاء اليوم الذي رحلت فيه الجماعة عن الميناء، وحلت محلهم جماعة أخرى، قبضت الثمن فوراً ليس من هؤلاء وإنما منّا نحن. هل أقول لك شيئاً يا أبا الذهب: يبدو لي أنه عندما تكون صاحب حق، فإما أن تحصل عليه فوراً أو لن تحصل أبداً.

قال أبو الذهب:

- سيسبقك الآخرون إليه إذا لم تسارع أنت نحوه.

قال أحمد:

- سيجد دائماً من يدّعيه لنفسه.

قال إبراهيم:

- المال السائب يعلم السرقة.

وضحك أبو الذهب قائلاً:

- إذن لا تتركوا أموالكم سائبة بحق الله. لأنكم إن فعلتم ترتكبون جريمتين واحدة في حق أنفسكم.

ثم غمز بإبهامه بخبث إلى الخلف:

- والأخرى في حق الغير.

قال إبراهيم:

- لم نعلّم أحداً السرقة. وأصحابك هؤلاء الذين تعنيهم هم سرّاقون بالفطرة.

وهزّ أبو الذهب ثوبه بأطراف أصابعه متبرئاً:

- ليسوا أصحابي، وإنما هم أصحاب أحمد. أنا لم أثق بهم قط.

ومال بالقول إلى أحمد:

- إيه أحمد؟ هل قبلوا بك أخيراً محاصّاً؟

وانتبه أحمد. كان قد شرد للحظة. وبدا عليه التردد قبل أن يقول:

- آه. كلا. لقد وعدوني.

وقال إبراهيم:

- ها نحن قد عدنا إلى قصة الوعود.

وقال أبو الذهب:

- وأنت ما رأيك أحمد؟

قال أحمد:

- قلت أحب الدفع فوراً. ولكن هنا في هذه القضية لست أدري. يبدو لي أنه يحتم أن أفعل شيئاً ما. الوعد أشبه بحبة الأسبرين. قد يحتاج المرء أحياناً زماناً طويلاً حتى يجد في نفسه الشجاعة لاجتياز خط.

قال أبو الذهب:

- لقد وعدوا قبلك آخرين.

قال الخال:

- أحمد ليس كالآخرين.

وعلّق إبراهيم مدفوعاً برغبة أكيدة للتذكير بنفسه أكثر منه لأي سبب آخر:

- ما مأخذهم بالنسبة إلينا نحن الاثنين؟

واقترب حيران عبد الواحد فسلّم ثم جلس القرفصاء مستنداً بظهره إلى جدار قمرات الباخرة الحديدي. وعندما اكتشف أن الجدار كان ساخناً بفعل حرارة المحرك الذي يدور في الطابق السفلي التصق به أكثر.

وتابع إبراهيم:

- لا نحن كبار في السن، ولا قاصرون عن العمل.

ودعم أحمد قول رفيقه:

-لا يستطيعون أن يفخروا بأنهم عملوا ضد الجماعة أكثر مما عملنا. قالوا: «اليوم إضراب» توقفنا عن العمل. «لنسر يا شباب في مظاهرة» فسرنا. لقد نابنا من أذى الجماعة مثلما نابهم.

- «لا عمل اليوم».

- «ولكن الآخرن يعملون».

- «نعم الآخرون عملون أما المحرضون فلا».

- «هل تشهدين يا سماء».

واستمر أحمد في صوت مسموع وشدّد على مخارج الكلمات:

- وعندما اشتدّت الأزمة التجأنا إلى هناك. فوق. في الحارة الفوقانية. لا يستطيعون أن يزايدوا علينا.

- «من ضربك؟»

- «لا أدري. كانوا ثلاثة وكانت الظلمة شديدة عند الأقبية».

- «هل أنت جريح؟»

- «كلا».

- «غير جريح وتوجد دماء على ثيابك. لعلها من المعتدين. آه حسناً. لم تقف مكتوف الأيدي إذن؟»

- «هل ادّعى عليه أحد يا عريف؟»

- «كلا»

- «هل لك اعداء؟»

- «لا أظن»

- «هل تشك بأحد؟»

- «كلا».

- «يا عريف سجّل هذه الدعوى أيضاً ضد مجهولين».

نعم مثل الدعاوي الأخيرة. تعرض أحمد مخلص للضرب. قام مجهولون بالاعتداء.

وتابع أحمد في صوت مسموع:

- قل لي يا حيران ما الذي يجعل الناس يبدون هكذا؟ أقصد ما الذي يجعلهم يتبدلون حتى ليلتبس علينا أن نعرف وجههم الحقيقي. فهم على صورة في زمن وفي زمن آخر على صورة ثانية.

وترك حيران نفسه ينزلق، وقد حرص ألا يبتعد عن الجدار الساخن قيد شعرة حتى قعد على أرضية الباخرة بعد أن شاع الدفء في ظهره.

قال حيران:

- لست أدري. لكن المؤكد أن الناس يحرصون على أن يظهروا بغير مظهرهم الحقيقي وكأن في أعقابهم إبليساً. مرة وأنا صغير كنت في عيد من أعياد التنكر. ولقد لفت أنظار الحضور رجل طويل متنكر في هيئة ملك. لقد عومل لفترة من المتنكرين على أنه ملك. طبعاً كانت المسألة كلها مزاح في مزاح فأحيط بكل مظاهر الاحترام والتقدير. وعندما كشفت الأقنعة أصرّ هو (أي الملك) أن يحتفظ بقناعه على وجهه. لكن الآخرين نزعوا قناعه بالقوة. خمّن من كان ذلك الملك؟ هل تصدق؟ كان كنّاس الحارة. الناس ميالون لسبب ما أن يظهروا ولو فترة من الزمن بمظهر أفضل حتى لو كان ذلك على سبيل الدعابة.

قال أحمد:

- لو أن المسألة تظل في حدود الدعابة. لكن واأسفاه. إنهم أول من يصدق الدعابة التي اخترعوها.

وهزّ أبهامه إلى الخلف باتجاه الشاطئ:

- خذ مثلاً الجماعة الجدد.

- آه.

قالها أبو الذهب عريضة ملآنة شامتة. وقاطع قائلاً:

- ما لهم الجماعة الجدد؟ خاب أملك فيهم؟ أحسب الآن أن الغشاوة انقشعت عن عينيك وأصبحت ترى الأشياء بحجمها الحقيقي. ربما أستطيع الآن أن أكلمك كما ينبغي أن يُكلّم الرجال. حسناً سأحكي لك هذه الحكاية:

كان هناك حلاق يستخدم صبياً عنده. وكان هذا الحلاق يحب الصبيّ كثيراً فعلمه أصول الحلاقة حتى أتقنها وبزَّ الآخرين فيها فذاع صيته. وعندما مات حلاق السلطان ذهب رجاله يبحثون له عن آخر ليحل مكان الحلاق المتوفى.

ذكر الناس لرجال السلطان الحلاق الفتى ووصفوا لهم براعته وذوقه في هذا الميدان ثم قادوهم إلى حانوته.

أخذ الرجال الفتى ليحلق للسلطان من قبيل الاختبار ووعدوه بمكافأة إذا أجاد في عمله. أما إذا فشل فسيقطع رأسه.

أعجب السلطان ببراعة الفتى ومنذ ذلك اليوم صار حلاقه الخاص. ويبدو أن الحلاقّ مثلما كان بارعاً في استعمال أدوات الحلاقة كذلك كان محدِّثاً بارعاً أيضاً، ولم يكن يضاهي مقصه في النعومة سوى لسانه فقرَّبه السلطان منه حتى صار ذات يوم وزيره وأمين سره.

سمع الحلاق بما صار إليه فتاهُ فقصده عساه يقيل عثرته لا سيما بعد أن كبر في السن وصار عجوزاً. وكان طوال الطريق يمنِّي نفسه بالعطايا التي سيغدقها عليه صانعه القديم.

وعندما جاء من يقول للوزير أن بالباب رجلاً اسمه كذا وصفاته كذا يطلب مقابلته أمر الحراس بأن يضربوه ويرموه في السجن.

مات السلطان يوماً وخلفه آخر فجاء هذا بأعوانه إلى الحكم وطرد من كانوا في عهد سلفه.

وذات مرة نزل السلطان الجديد إلى السجن ليتفقد أحواله بنفسه وليستمع من ثم إلى ظلامات المساجين. وهناك التقى بالحلاق العجوز فسأله عن حاله. وهنا حكى له الحلاق قصته فأطلق سراحه. وبينما هو ماض في طريقه إلى بيته صادفه صانعه القديم الذي أودعه السجن بعد أن أمر بضربه، فاندفع الصانع نحو معلمه بلهفة وعانقه وقبّل يديه. دهش الحلاق من مسلك صانعه وطلب منه تفسيراً لتصرفه.

اعتذر الصانع عما بدر منه وقال متأسفاً:

- لعن الله هذا القلبق (قلبق الوزارة) الذي ما وضعه إنسان على رأسه إلا أنساه أصحابه القدامى.

علّق حيران:

- هذه حال الدنيا. تعيش مع شخص تشاركه ويشاركك الألم. تتقاسمان معاً الخبز والملح وكل صنوف العوز. وتشاء الظروف أن يصعد أحدكما على كتف الآخر، في لجنة، في نقابة، أو لنكش عش عصافير، لكن فجأة..

وصفق حيران يديه ببعضهما:

- أين صاحبك؟ طار مع عش العصافير الذي وصل إليه.

قال الخال:

- العامل سُلَّم وحق الله.

وقال أحمد:

- بل خروف يحمل على رأسه قرنين لم يستخدمهما بعد.

- العامل جمل.

والتفت الجميع ناحية القائل. لقد فوجئوا فأداروا رؤوسهم صوب الصوت. وعندما عرفوا صاحب القول كانت المفاجأة الثانية. كان محمد الطفران هو المتكلم وكان لا يزال على وقفته خلف سور الباخرة منذ أن راح يتطلع بعيداً في البحر وكأنه يراقب الأفق. شيء واحد فقط تغير في وقفته تلك. كان ينظر إلى الجماعة بدلاً من النظر إلى البحر. وثمة تبدل آخر بدون ريب. كان يبدو أن ظل ابتسامته قد اتسع عن ذي قبل.

وهزّ رأسه مرة أو مرتين كأنما أراد أن يؤكد ما قال ليعفي نفسه من مهمة تكراره. ثم استدار وانصرف حتى قبل أن يفيقوا من دهشتهم أو يفكر أحدهم أن يسأله استفساراً أو توضيحاً. ولم يحاول أي منهم أن يستوقفه عندما أولاهم ظهره. كانوا يعلمون أنه من العبث أن يفعلوا ذلك.

- العامل جمل؟

ردد حيران عبد الواحد. وجلى زجاج نظارتيه. كان يضع على عينيه نظارتين طبيتين. كان يشكو ضعفاً في بصره لكثرة ما انكب – كما يقول – فوق الريشة والمحبرة وكان يقول أيضاً «يا خسارة تعب عينيّ». لقد سُرّح آخر مرة من وظيفته في ظروف غامضة وكان يضيف بمرارة: «ليس ابن مريم هو وحده الذي حمل صليبه فوق الجلجلة وإنما ابن سكينة أيضاً».

- عجباً ماذا كان يقصد بقوله؟

أضاف حيران بعد أن أعاد تثبيت نظارتيه فوق عينيه.

وقال الخال:

- هذه أول مرة أرى فيها الطفران يبادر إلى قول شيء دون أن يسأله أحد ذلك. ولكن ماذا قال بعد كل هذا السكوت؟ العامل سُلّم يتسلقه الآخرون لنكش أعشاش العصافير. مفهوم. العامل خروف له قرنان لا ينطح بهما أعداءه مفهوم أيضاً. أما العامل جمل!

وهزّ رأسه متشككاً.

ابتسم أبو الذهب وقال:

- كنت أعرف رجلاً يسوس الجمال. وقد حدثني غير مرّة عن طبيعة هذه المخلوقات. قال: «الجمل حيوان صبور يحمل الأثقال على ظهره ويقطع المسافات البعيدة. وهو لا يطلب مقابل ذلك سوى منحه قليل من الراحة وقليل من الطعام، حتى أنه يتساهل بشأن الطعام ويجتر ما في معدته إذا لم تقدم له ما يأكله. يتقبل ذلك برضى وصمت. أليس الشقاء قدره. لا يشكو لكنه إذا أُرهق بالعمل إلى الحد الذي لا طاقة له على تحمله، وإذا حيل بينه وبين جلسته التأملية اليومية المعتادة التي يجتر فيها طعامه وأحلامه البعيدة فإنه يلجأ إلى الاحتجاج بسيل منهمر صامت من الدموع. ذلك هو الجمل.

ثم أضاف بعد برهة صمت بالدهشة نفسها التي أظهرها الآخرون تجاه احتجاج الجمل:

- أليس ذلك مستغرباً من هذا الحيوان الضخم الذي يشيل الدنيا على ظهره؟

قال حيران متفلسفاً:

- مسلك طفولي. لكن يبدو مع ذلك أنه المسلك الوحيد الذي يتراءى لعينيه لأول وهلة.

قال الخال:

- هذا هو العامل وحق الله.

وعقّب أحمد دون أن يفصح كثيراً عما يريد التعبير عنه:

- أو على الأقل العامل الذي نعرفه لا حول له ولا قوة.

لكن في اللحظة التي فكر فيها أن يضيف جديداً إلى ما قال صدرت حركة من جانب. التفت الجالسون فبرز من وراء عمود حديدي علي أبو الندم. وهو رجل قصير ضيق العينين دبق الرموش اشتغل طويلاً وقاداً في أُتن الحمامات. ولعل عمله الطويل مقابل النار قد ترك أثراً على لون بشرته فصارت أميل إلى السواد مع ظهور بقع كدرة في وجهه تترك انطباعاً غير مريح في النفس.

ألقى التحية على الجالسين ثم تابع مسيره. عندما غاب فجأة في عطفة إلى اليسار قال حيران عبد الواحد متضايقاً:

- أنا لا أميل إلى هذا الرجل. ماذا كان يفعل وراء العمود؟

قال الخال:

- من يدري؟ لم أره مرة إلا واقفاً يتلصص ويمد برأسه من وراء شيء.

قال إبراهيم:

- إن وقفاته تلك مثيرة للشك.

قال الخال:

- العلم عند الله.

قال أبو الذهب:

- لست أدري. عندما أراه أتذكر الغراب.

وتساءل الخال بعفوية:

- لماذا يتشاءم الناس من الغراب؟

قال أحمد:

- لعل لهذا التشاؤم سبباً. ربما كانت له قصة.

قال أبو الذهب:

- لقد طعن جدنا نوح في الظهر.

فعلّق الخال:

- آه. هل فعل إذن؟ كنت أتساءل دائماً لماذا وجهه أسود بكل هذا القدر.

وأضاف أبو الذهب:

- بعد عشرة عشرين يوماً من الطوفان أراد جدنا نوح..

قاطع الخال قائلاً:

- سيدنا.

فنظر أبو الذهب إليه شزراً وتابع دون أن يلقي بالاً كبيراً إلى مقاطعته:

- أن يعرف هل انتهى الطوفان وظهرت اليابسة. من أجل ذلك أطلق الغراب ليأتيه بعلامة، لكن الغراب ذهب ولم يعد.

علّق الخال:

- اللعين بعد كل الذي فعله من أجله. أنقذه وأطعمه وآواه. يا للعقوق. ربما من يومها صار وجهه أسود.

قال حيران باهتمام مشوب بسخرية غير خافية:

- لو كانت أعمال الناس تظهر على وجوههم؟ يقال أن أفعال البشر قديماً كانت تنعكس على وجوههم. أية مشاهد كان من الممكن أن يتاح للمرء أن يرى إليها، لو حدث الآن ما كان يحدث في الماضي.

وسرح بخياله:

- البعض أفواههم ملآنة، وهم الذين كانوا يلقون مواعظ في الأمانة والزهد، لأن من أدنى منهم مرتبة اختلس ربما عن عوز فرنكات معدودات. وآخرون يحملون على رؤوسهم قروناً في وقت لم تسلم من ألسنتهم الكباش والثيران والغزلان لأنها من ذوات القرون. أية مفارقات وأية فضائح، قطط بجلود نمور، وضباع بجلود سباع، وثعالب كان يُظنُّ بأنها حملان. شيء يشبه يوم النشور، إذ تُجزى كل نفس بما صنعت وحيث لا ينفع مال ولا بنون.

قال أبو الذهب وقد رمى إلى أبعد مما توحي به كلماته الظاهرية:

- يذوب الثلج ويبين ما تحته.

وسارع الخال قبل أن يفوته القطار:

- كلٌّ كتابه في يمينه. ومن يعمل مثقال ذرة خيراً يره. ومن يعمل مثقال ذرة شراً يره.

قال ذلك ونظر بانتصار في وجوه من حوله ليرى وقع كلماته. لكن الدرر التي حسب أنه نطق بها ضاعت في زحمة الأفكار والتصويرات التي جرى كل منهم وراءها. وذوى أمله تماماً في سماع كلمة إطراء، وتحفز لجولة مقبلة عندما وجد أبا الذهب يلتفت نحو أحمد قائلاً:

- كيف وجدتهم؟

قارعاً صدغه بطرف سبابته.

- وأي صور اتخذوها؟

وقال أحمد مجارياً بنفس الأسلوب الذي اصطنعه أبو الذهب مؤخراً. أسلوب هو مزيج من الجد والهزل والسخرية:

- لم تخطر لي بعد الصورة التي تليق بهم. وعندما تواتيني تلك الصورة فما أحسب أني سأبخل عليك بها.

وأضاف بعد لحظة تفكير:

- حسناً. ولكن حتى يحين ذلك سأقول لك شيئاً قرأته عن التماسيح. التمساح يقترب منك وفمه مفتوح لا ليقول لك شيئاً جميلاً.

* * *

عرف أحمد بمرور الأيام ما لم يكن على علم به لدى عودته إلى الميناء. وكان كل يوم يمر يضيف إليه فهماً جديداً وإدراكاً جديداً لما يجري هناك. وما يجري لم يكن غريباً بالمرة عن أحمد. لكن أحمد كان بعيداً عندما حدثت التطورات في الميناء. إن المرء عندما يترك طفلاً أو شجرة أو بلداً أو أصدقاء، يتركهم على حال معينة. إنه يقول لنفسه وهو بعيد: لا بد أنه حدث كذا وكذا لما يشغل فكره، طفل، أو شجرة، أو بلد، أو أصدقاء. وهو يتوقع دوماً عندما سيلقاهم ذات يوم أن يجدهم قد تطوروا وصاروا على حال أفضل. حتى في تلك اللحظات التي تبدو فيها حالة ما ميئوساً منها، فإنه لا يعدم حدوث معجزة، إن كل الناس أو معظمهم يفعلون الشيء نفسه.

لطالما فكر أحمد وهو في بلاد الغربة بالزملاء والميناء. أهو البعد الذي يُلبس الأشياء حللاً زاهية فيجعلها، ونحن هناك بعيدون عنها، تبدو في نظرنا ذات سحر ورواء. أم لعله الحنين يجعلنا في زحمة الشوق والرغبة ننس الحال التي كانت عليها ويغمض العين عن قبحها ومثالبها. فرفاق العمل لم يكونوا في يوم من الأيام غير ما هم في الواقع. كانوا طيبين وشجعاناً وذوي مروءة وأولاد قحبة أيضاً على حد قول أحد الذين عرفوا عمال الميناء وعجنوهم عن كثب. حتى أن المرء ليحار في أمرهم. أهم رجال أبرار أم سفلة منحطون؟ إن أحدهم لا يتورع عن اقتسام زوادته أو النقود القليلة التي في جيبه مع آخر. وكم من سيجارة يتيمة تشارك في تدخينها اثنان. وكم من سترة أو تلفيعة أو طاقية صوفية أُعيرت في لحظة من لحظات الأريحية والتسامي من دافئ لآخر مقرور بردان. لقد تجلت هذه الروح خاصة في فترة ما من فترات اشتداد الأزمة بين العمال وأرباب العمل.

وقد كان من الممكن لهذه الروح أن تكون مضرب الأمثال في النضال العمالي لو سارت الأمور كما كان مقدراً لها في أذهان المتفائلين على الأقل.

ولكن التقدير شيء وما هو قائم فعلاً شيء آخر. ذلك أن المتفائلين ما لبثوا أن اضطروا أمام بصمات الحقيقة الدامغة إلى مراجعة حساباتهم. فأنت تستطيع بشيء من الضبط والدقة أن تعرف ما سيؤول إليه سلوك دمية وربما

عدد من الدمى مُلئت زنبركاتها، وحتى الطيور في السماء ليس من العسير رصد حركاتها، أما بالنسبة إلى حركة عمالية ابتدأت بالإضراب عن العمل فالأمر يختلف تماماً، إذ بينما كانت آلة الإضراب تسير في السبيل الذي رسمته لنفسها بنفس العفوية التي بدأت حركتها بها طرأ خلل على بعض أجزاءها أعاق مسيرتها. قال البعض: إنه التهديد. وقال آخرون: إنها الرشوة. وقال غيرهم: إنه حبل العبودية السري الذي يمسك بطرف منه رب العمل أما طرفه الثاني فينتهي برقبة العامل.

وفي لحظة أحصى العمال أنفسهم، وجدوا أنهم قد تناقصوا إلى حد لن يستطيعوا معه الاستمرار، فاضطروا مرغمين إلى إنهاء إضرابهم والعودة إلى العمل وليس في أيديهم سوى الوعود بتحسين أحوالهم. وكلمة شرف أخذها على نفسه مسؤول في السلطة بعد خلوة مع رب العمل بتنفيذ تلك الوعود.

كان أحمد يعرف ذلك، ويعرف أكثر منه كيف راح عمال فيما بعد تحت إغراء المال وتقديمهم إلى المراكز الأولى في العمل يتجسسون على زملائهم ويفضحون ما كان خافياً عن أرباب العمل.

لكن مثل هذه الأفكار المتشائمة لم تكن سوى لحظات عابرة في ذهن أحمد. غيوم سود عابرة لا تلبث أن تُخلي الطريق لسماء رحبة أكثر صفاء وإشراقاً.

كم من مرة سرح بخياله إلى البحر وهو يؤدي خدمته الإلزامية وحلّق كالنورس فوق الميناء والبواخر. وإذا ما اتفق وجفا النوم عينيه كانت تقوم في رأسه دنيا جديدة وهو مستلق هناك على سريره في المهجع بينما زملاءه المجندون يغطون في سباتهم. في مثل تلك الأوقات كان أحمد يمضي مع أفكاره. وغالباً ما انتهت به تخيلاته إلى أن تتخذ هذه الصورة:

فذات مساء والشمس قد هجعت أو كادت، الأفق مجمرة كبيرة والبحر ساكن صقيل له لمعان معدن مصهور، لا صوت لا حركة سوى شخير المحركات ولغط المويجات المتقلقلة المحصورة بين الأرصفة واللنشات والمواعين التي تُقل العمال. أعداد من العمال لا حصر لها تثب إلى الأرصفة

من كل جانب في الحوض القديم، أرباب العمال يروحون ويغدون على الأرصفة، وقد هدأ فيها العمل نسبياً، يجرون اللمسات الأخيرة لعمل اليوم، ملاحظات. تعميمات. احتياطات. أوامر.

إنهم يفغرون أفواههم. تأخذهم الدهشة للحظات.

وفي اللحظة التالية يتظاهرون برباطة الجأش. «أولاد ستين ألف كلب. ما الذي أتى بكم في مثل هذا الوقت. كيف توقفون العمل في البواخر؟ ماذا جئتم تفعلون هنا؟». وبدون أي تعليق يتقدم عمال سمر من كل الأعمار. شبان ورجال وكهول من كل صوب وعلى امتداد الأرصفة. وخلفهم على عرض الأفق تنطلق من وراء المجمرة، أو قلبها، كتل من السحب. وردية وحمراء وبنفسجية. شفافة وزاهية لفائف لفائف كغزل البنات المتراكم. وبدون أن ينبسوا بحرف يستمر العمال في تقدمهم من كل صوب فيحيطون بأرباب العمل. «أهو تمرد؟ لسوف تدفعون ثمن ذلك غالياً». وبوجوه صارمة لا تعرف التردد، أو الخوف، يستمر العمال في عملية التطويق حتى تصبح مصيدة. شرك كبير لا خلاص للجلادين المذعورين منه.

إلى هنا كان عقل أحمد يقف حائراً. هل يدفع بهم إلى البحر أم يقذفهم خارج الميناء. أم؟ أم؟ هذه المسألة لم ينته فيها إلى حل. ولم يسعفه خياله من ناحيته بتقديم الصورة الملائمة التي يكون فيها الجزاء على قدر العمل. كانت الأفكار ما إن تصل به إلى هذه النقطة حتى تميع صورة الحكم الذي ينبغي أن ينزل بالظالمين. وقد وصل فيما بينه وبين نفسه إلى شبه تفاهم بشأن هذه القضية.

مرة واحدة فحسبُ خرج عن مألوف عادته بعد أن وقف طويلاً أمام الشرك الذي راح العالقون فيه يناضلون للخلاص منه. سمح لنفسه في تلك المرة بأن يُطلع الغير على أفكاره بعد أن جسّم المشكلة في هذه الصورة الهزلية. قال لزميل مجند كان ينام إلى جواره في المهجع: «لنفرض أن لك خصوماً أوقعتهم مرة في مصيدة فماذا تفعل بهم بعد ذلك؟». قال الزميل: «إذا كانت لهم أذناب أغمسها في الكاز وأشعل فيها النار». فضحك أحمد وقال: «بسيطة. نضع لهم أذناباً ونغمسها في الكاز ونشعل فيها النار».

وهكذا – فما عدا هذه المرة – كان شريط الصور ما يكاد يصل إلى المصيدة ويطل الرعب من العيون ويسود الهرج والمرج حتى يفتل زراً في خياله لتأتي بعد ذلك صورة أخرى. صورة الزملاء الذين وقفوا في صف أرباب العمل. كان يستحضرهم أمامه منكسي الرؤوس، أذلاء. كأنهم في يوم الدينونة. كان يقول لهم: «لقد بعتم أنفسكم للشيطان وخُنتم قضيتكم فاختاروا لأنفسكم القصاص الذي تستحقون». لكنه على الرغم من ذلك لم يكن يمضي بعيداً في القسوة عليهم. وغالباً ما كان ينتهي إلى العفو عنهم. كان يستوقفهم واحداً بعد واحد. قال ذات مرة مثلاً لأحدهم: «أنت! لقد طعنت زملاءك ووقفت في الصف المعاكس فبماذا تدافع عن نفسك؟». فأجابه الآخر: «بعد اليومين الأولين من الإضراب نفد مخزوني من المال. وبعد أسبوع باعت زوجتي طناجرها النحاسية. وبعد عشرة أيام حزمتُ فرش البيت وأعددتها لحملها إلى السوق وبيعها وقد قلت: تكفي الملاحف لنوم الأولاد لكن زوجتي هددت بالطلاق وترك البيت إذا لم أعدل عن بيع الفرش».

وانفلتت من مكان ما من عين أحمد دمعة وراحت تتلمس لنفسها طريقاً، لكن أحمد أمسك بها في اللحظة المناسبة، وحارت الدمعة ماذا تفعل بنفسها وقد انطلقت من عقالها ولم تجد قوة إضافية كافية لتتسكب، وجرت هنا وهناك حتى التمعت منها صفحة العين. وحين لم تجد منفذاً ارتدت إلى الخلف. تقهقرت إلى الحلق وأمسكت بخناق أحمد فأحس بغصة. قال: «لكنك كنت تتلقى مساعدة». فأجاب العامل: «حسناً. لم تكن بالقدر الذي يكفي إلا لشراء ما يلزم من الخبز وشيء من التبغ». واستوقف أحمد عاملاً آخر: «وأنت ألم تحلف على المصحف في المغربي؟». أجاب: «بلى». فسأله: «لماذا إذن خذلت زملاءك؟» فرد: «يا ريس ماذا أقول لك؟ في البدء كنت أشعر بالقوة. ثم أخذت قواي تخور فيما بعد، عندما كنت أعود إلى البيت، لست أدري لعلي كنت أخاف. اعترضوني مرة وهددوني بالضرب إذا لم ألتحق بالعمل. قلت لزوجتي. اترسي الباب بالمزلاج. لكن عبثاً. مضى العهد الذي كنت فيه شجاعاً. أنا رب عائلة عندي أولاد. أنت لا تستطيع أن تجعل من رجل ما شجاعاً بمجرد الكلمات إذا ما دب إليه الخوف». وهكذا كان أحمد يوجه الاتهام ويصغي إلى الدفاع ثم

يخلي سبيل الزملاء واحداً بعد واحد حتى نظر مرة إلى قفص الاتهام فوجده خالياً فقال ساخراً: «يالي من قاضي فاشل» وأضاف: «من الصعب أن تحاكم الناس وأنت تستمع إلى دقات قلبك ينبغي أن يتوصل المرء إلى أن يغلق أذنيه أولاً».

على هذا النحو كان أحمد ينظر إلى الغد في الميناء. حركة أشبه بالمد تغرق المستغلين. بل هي المد نفسه تأتي مع أمواج العمال الغاضبين العائدين تحملهم لنشات تمخر عباب الماء. إذ بينما كل شيء يجري في البواخر كالمعتاد، وحيث يكون العمل على أشده، تبدأ ساعة الصفر فيتوقف، فجأة، كل ما كان قبل لحظة يمور بالحركة والحياة كأنما أصابه الموت. الونشات، الصراخ، الجري، اللهاث. ثم تبدأ حركة المد. مئات من المضطهدين ينزلقون بالحبال كالشياطين على خواصر البواخر إلى بطون المواعين واللنشات متجهين نحو الحوض القديم.

ثمة شيء كان يشغل باله. ذلك هو أن اللنشات ملك لأرباب العمل. وكذلك هم سائقوها. فكيف السبيل إلى تلافي مثل هذا المأزق؟ وبينما هو يبحث جاهداً عن حل لهذه المشكلة فوجئ بإمساك العمال لناصية الأمور في الميناء. ولم يصب بالخيبة قدر ما أصيب بالدهشة. وانتظر لحظة كي يعطي نفسه فرصة لاستيعاب النبأ قبل أن يسأل الشخص الذي حمل إليه الخبر، «والجماعة ماذا فعلوا؟».

كان يتوقع أن يسمع أن الدنيا قامت وقعدت. وأن الأرض زلزلت زلزالها. كان يتوقع أيما شيء إلا أن يقال له: «فعلوا تحتهم».

وضحك ثم تمهل حتى يلتقط أنفاسه فقال: «هكذا بكل بساطة؟».

- هكذا بكل بساطة. جاء مندوبو الحكومة ووضعوا يدهم على كل شيء، المواعين، اللنشات، الحبال، الأسلاك، حتى العقارات.

سأل أحمد:

- وماذا سيكون من أمرهم بعد ذلك؟..

- فليبلطوا البحر. هل يقاومون الحكومة؟.

ثم أخبره زميله الذي حمل إليه رائحة البحر والميناء والزملاء كما قال أحمد فيما بعد على طاولة الشرب، كيف صار العمال هم أرباب العمل. وكيف تهيبوا في البدء وكادوا أن يتراجعوا عن أن يقوموا هم أنفسهم بإدارة شؤون العمل في الميناء خوفاً من الفشل.

في تلك الليلة شرب أحمد عرقاً ورقص وسكر احتفاءً بهذه المناسبة. وفي موهن من الليل وكانت قد هبت عليه رياح الحب وحملته فوق مشعشعة بالأمل والنشوة انطلق يغني:

إن كـــان بتعشق تاجر بالحـــرير

والعشق يا عيني يلزمه مال كثير

في تلك الليلة طار أحمد، كما طار في الأيام والليالي التي تلتها مع أجنحة كل خيال. لكن الخيال لا يستطيع أن يستمر محلقاً إلى ما لا نهاية لأن له جناحين. وإذ كان له جناحان إذن لا بد له من محطات يلتقط فيها أنفاسه ويتزود بحبات الأمل قبل أن يعاود التحليق من جديد. ولقد حط طائر الخيال يوماً بالميناء. الميناء ذلك المكان الذي يختلط فيه التجديف بالصراخ والشتائم وزعيق السيارات ولهاث البواخر والرشوات والعمولات والسرقات والتهريب والمصالح الشخصية والدسائس والاستغلال. وفوق ذلك ملح البحر ودبقة والروائح المعلقة في الجو. هذا المكان العجيب الذي يختلط فيه الحابل بالنابل مع أنه يبدو للوهلة الأولى ليس هو بالمكان الأمثل لتحليق الخيال. لكنه مع ذلك كان خليقاً بأن يولّد لدى أحمد كما فعل، ربما، بالنسبة إلى كثيرين في وقت من الأوقات خيالاً متواضعاً ليحلق في سماء متواضعة.

ذلك أن الخيال فيما يبدو لا يحتاج دوماً إلى سماوات واسعة ليحلق فيها. إذ يكفيه أحياناً سقف بيت صغير وجناحان صغيران ليخلق لنفسه جنة ينعم بها. ولاح أن الانتقال من المياومة إلى المحاصّة شيء مرتبط أشد الارتباط بتلك الجنة. لكن حتى هذا الحلم الصغير بدا في وقت ما عسير المنال. وكان لابد للخيال وإن كان متواضعاً من أن يصطدم يوماً بالواقع. كانت قد نشأت في الميناء – بعد المحاصّة – ظروف جديدة وعلاقات جديدة، فقد تغير

الموضع الذي كان يتطلع منه كل من المياوم والمحاصّ، وتغير تبعاً لذلك الهدف الذي كانا ينظران نحوه. فرب العمل لم يعد شخصاً أو عدداً من الأشخاص، وإنما كان العمال أنفسهم الذين كانوا بالأمس أُجراء مستغلين. ولعل كلمة «رب العمل» هذه ليست شيئاً جاهزاً ولا وقفاً يحملها أناس مصطفون. لكنها قبل كل شيء موقع ونظرة إلى الأمور ومنطق. ثم هي بعد ذلك قالب يصك من يمر فيه ليحمل سيماه.

وهكذا ما إن تغير الموقع حتى نهض معه الحاجز. ولقد أحس أحمد منذ اللحظات الأولى بوجود هذا الحاجز. لكنه عزاه إلى طول الغياب والبعد عن الزملاء والميناء. وظن أحمد، أو هكذا خُيِّل إليه، أن الزمن خليق بهدم عرش هذا الشيء الذي أنشأه إحساس الغريب. لكنه ما عتم أن اكتشف خطأه. ووجد أن هذا الحاجز ليس شيئاً خلقه الوهم. وإنما هو شيء محسوس. وبحذر واحتراس تقدم منه ليختبره. أراد أن يثبت لنفسه أكثر منه لأي سبب آخر أنه كان مخطئاً. ولعظيم دهشته وجده قائماً هناك فعلاً. وأنه كان قاسياً صلباً خلق في نفسه المرارة. وبدهشة أيضاً تساءل: «أمن الممكن أن يكون الوضع كذلك؟ هل هؤلاء هم رفاق الأمس؟».

* * *

**قالت رتيبة:**

- لم أسمع صرير الباب في السادسة. وفي السادسة والنصف خفق قلبي. تلاعبت بي الظنون. وقلت: عسى الأمر خيراً. اقعدي يا بنت خلف النافذة وانتظري. كانت عيناي مسمرّتين بالباب. وقلبي معلقاً بصريره. تعرف؟ مرات قلت لنفسي: ماذا يحتوي صرير الباب حتى يفرح ويحزن.

نظر أحمد في وجه رفيقته، كانا يسيران جنباً إلى جنب في درب ضيق في طرف المدينة الجنوبي وعن يمينهما ويسارهما بساتين التين واللوز والتوت والجميز.

تابعت رتيبة:

- وفي السابعة سمعت جلبة في المطبخ فهدأ بالي. وقلت: حسناً، لن يذهب اليوم إلى الشغل.

وابتسم أحمد من جديد وقال:

- ولكن الجلبة كل يوم في المطبخ. ما أدراك أنني كنت هناك في تلك اللحظة. وأنني لم أسبقك في الاستيقاظ والخروج إلى العمل؟

قالت:

- أنت لك جلبتك التي لا أخطئها. تبرم صنبور الماء بعنف. تسعل. تتمخط. هل تعلم أنك ستصير عجوزاً في وقت مبكر؟

فقال أحمد:

- أولست عجوزاً الآن؟

وبحركة تمثيلية نظرت إليه. تملت وجهة وقالت دون أن يفارقها أسلوبها التمثيلي:

- لا. يبدو لي أنك أكثر نضجاً وحنكة من أي وقت مضى.

ثم نقلت عينيها إلى عنقة وإلى بنيانه المشدود جملة:

- ولعلك أكثر فتوة أيضاً لكن..

وكرّر أحمد متسائلاً:

- لكن؟

- لكن إذا استمررت في الطريق الذي تسير عليه فستصير عجوزاً في وقت قريب.

- أي طريق؟

قال، وقد شعر أن ثمة ما يشغل فكر رفيقته، وأن هناك هدفاً ترمي إليه من وراء غمزتها، إنه لمن السهل أن يعرف المرء ما يدور في خلد فتاة من الطريقة التي تدير فيها حديثاً ما.

قالت:

- تدخن كثيراً وتسهر كثيراً.

قال متخابثاً:

- أسهر في العمل.

قالت:

- لا. أقصد عندما لا يكون هناك عمل.

قال مستدرجاً أكثر:

- وماذا تتوقعين من عازب؟

قالت دون أن تحفل كثيراً بإخفاء مرادها:

- أن يقول أين يمضي الليل خارج البيت؟

قال مستثيراً:

- في لعب الورق وأشياء أخرى.

قالت:

- ما هي هذه الأشياء الأخرى؟

قـــال:

- نثرثر وندخن.

سألت:

- تثرثرون في ماذا؟

قال في سره: «المرأة واحدة لا تتغير». ثم ضاحكاً:

- هل هو تحقيق؟ نثرثر في العمل. بماذا تظنين يمكن أن يفكر عمال ميناء؟ في الذرّة؟

وسادت فترة صمت. ومال أحمد فاقتطع قضيباً من جانب الطريق. قالت رتيبة وفي عينيها وصوتها لهفة السؤال أكثر مما ينطوي عليه ظاهر كلماتها:

- طيب! ماذا حدث بشأن العمل؟

قـــال:

- ما من جديد. الوعود نفسها.

وعبر عينيها ظل قاتم. قالت:

- يبدو لي أن هذه الوعود لا نهاية لها.

واستوقفت أحمد نغمة أسى شابت صوتها فقال:

- هل مللت؟ أنا لم أمل بعد.

فاستدركت قائلة:

- كلا لم أمل. لكن..

وضرب أحمد سياج البستان عن يمينه بطرف عصاه.

قـــال:

- لكن ماذا؟

وسرقت رتيبة نظرة من وجه رفيقها ثم علقت بأسف:

- كنت أحسب أن الأمر لن يطول.

فقال أحمد وهو يختبر ليونة القضيب الذي اقتطعه من جانب الطريق. لقد أمسك به من طرفيه. طواه قليلاً. ثم تركه يستوي ثانية:

- وأنا أيضاً كنت أظن ذلك، عندما تركت الإجباري كنت أعتقد أن القضية منتهية. حسناً! كانت الصورة في ذهني هكذا. ذات يوم، ذات صباح أمضي إلى الميناء، الشباب في المقهى، شيء مثير للضحك. تصوري أنني كنت أتخيل أنهم يديرون العمل من ذلك المقهى، كأيام زمان، عندما كنا نجلس هناك رؤوسنا متقاربة نتوشوش على رب العمل القديم. ما كان أبسطهم في تلك الأيام لا أصباغٍ ولا أقنعة، الكلمة التي في القلب هي على رأس اللسان. المهم. إذن صباحاً أقتحم المقهى: «إيه يا أولاد هاأنا قد جئت». وتصر الكراسي المتخلخلة. وينهض الشباب وتهتز العناكب في زوايا القبو ونتعانق ونتعاتب «انظروا من جاء». ويلتفت الذين لم يروني من أول وهلة، على صوت القائل «انظروا من جاء». ويندفعون إليّ وأندفع إليهم. يشدون على يدي وأشد على أيديهم. نعم كنت أعتقد أننا أعضاء أسرة واحدة وأنَّ أحد أفرادها كان غائباً وعاد.

وضحك أحمد بمرارة:

- كم أبدو الآن سخيفاً في نظر نفسي. لقد شطح بي الخيال هناك، في الجيش. أليس كذلك؟

قالت رتيبة:

- سخيف! لا. كل الناس تمر بهم لحظات يطلقون فيها العنان لخيالهم. لا يعيب المرء أن يتخيل عندما يكون وحيداً مع نفسه. العيب فيهم، رفاقك، إذا لم يكونوا كما تخيلتهم.

ونظرت إليه ولاحٍ للحظة على وجهها ذلك التهيؤ الذي يسبق استعداد المرء للكلام. لكنها بدلاً من أن تنطق بأيما حرف آخر اكتفت بأن ضغطت برفق على ذراعه.

وسارا بضع خطوات أخرى. كان هناك سور يرتفع متراً أو أكثر من الأحجار ذات القطع الصغيرة. قام على كل من جانبي الطريق الترابية. كانت الأشجار عارية. غير أن نظرة سريعة على تلك الأشجار كانت خليقة بأن تولّد عند المرء شعوراً بأن معمل الحياة يعمل ناشطاً، بصمت وخفاء، هناك. وقد ظهر أثر هذا النشاط حبيبات على الأشجار. كانت حبيبات حبلى تنتظر إشارة لتتفتق. بل إن بعضها تفتق فعلاً وغامر بمد رأسه لإلقاء نظرة كي يرى هل آن الأوان ليطلق أزهاره.

إيه. والآن. طيب! كيف تسير الأمور عندكم في البيت هذه الأيـــام؟

كان أحمد يعلم أن الحياة، لا سيما هذه الأيام، ليست على ما يرام في بيت المسكاوي على قلة عدد أفراد الأسرة هناك. وأن ثمة حرباً قائمة بين رتيبة وزوجة أبيها. حرب قديمة ما إن تهدأ فترة حتى تستثيرها حادثة صغيرة.

كانت الزوجة من أسرة فقيرة عانت في حياتها من الحرمان ومن الجوع. لكنها فجأة وجدت نفسها متزوجة من رجل يكبرها في السن، مصاب بالعقم من مرض جنسي، يعتقد أنه زرعته فيه نورية دخلت مخزنة، في لحظة، لتستطلع له المستقبل.

لقد وجدت الزوجة نفسها ذات يوم بعد أن شبع بطنها أنها محرومة من الأولاد. وفوق ذلك محرومة، في لحظات الأنس خاصة، من الرجل الحقيقي الذي ينشر فوقها جناحيه. أن لعنة الحرمان تلاحقها. كانت تفكر أحياناً. ما من شيء يبلغ الكمال. لو اجتمع لديها الأولاد إلى جانب المال والزوج الذي يهصرها بين يديه دون بهارات ووصفات العسل والأعشاب البرية. ما كان أسعدها!

وفي لحظة التفتت حواليها فلم تجد ما تفعله سوى أن تقضي وقتها بالتردد على الخياطات وتحت إبطها مجلات الأزياء. وفي الأوقات التي لا تجد فيها ما تحمله إلى الخياطات ولا تعثر على شيء تفعله في البيت، في هذه الأوقات كانت تدور في أرجاء البيت كاللبؤة الجريحة وهنا يقع بصرها على ابنة الزوج. لعله كان من الممكن جداً أن تصبح ابنة الزوج ابنة لها وهي المرأة المحرومة من الأولاد. لكن يبدو أن العواطف الإنسانية، وعلى الأخص عاطفة الأمومة، لها منطقها الذي لا تفرط فيه.

وفي حين لاح أنه من الطبيعي، من الناحية النظرية على الأقل، أن تنظر الفتاة إلى زوجة أبيها، وقد حرمت من والدتها وهي صغيرة، نظرتها إلى أم، راحت بدلاً من ذلك تسلقها بنظراتها النارية المزدرية. لقد شرعت الاثنتان تتبادلان البغض. ولم تدّخر الواحدة منهما وسعاً أن تكيل التهم للأخرى.

- أية أمور؟

رددت رتيبة لتعطي نفسها فرصة تتمكن من خلالها أن ترتب في ذهنها ما يمكن أن يقال لأحمد وما لا يقال له.

قال أحمد وهو يضرب الهواء بعصاه:

- الأمور بينك وبين خالتك. وبينك وبين أبيك. بينكم أنتم الثلاثة.

كان ينظر إلى الأمام متحاشياً النظر في وجهها. إنه لا يجهل ما ستقول له، وإذا لم تقله فسيقرأه في عينيها. في وجهها. كلمات محفورة في وجهها، في عينيها، قالتها له أمه وأخته (وكانتا قد علمتا بحبه لرتيبة). سمعتاها في

لحظات الشجار من خلف الجدران فقالتاها له، وما قالتاه أشياء مهينة تفوهت بها زوجة الأب بحق رفيقته.

ومع أنه كان يعلم، لكنه فكّر عله يريحها إذا أفضت إليه بسرها. كان ينظر إلى الأمام لأنه يحاذر من النظر في وجهها. في عينيها، ستعاتبه عيناها، ستسألانه، ستطالبانه بأكثر مما فعلت أسئلتها الحذرة عن مصير المحاصة.

كان يشعر في قرارته بالمساحة المحدودة والضيقة التي يستطيع التحرك فيها، كانت حركته مقيدة، ومن هنا كان يشعر بالعجز وبالتالي بالمهانة من أن يستطيع عمل شيء بعد هذا الانتظار الطويل.

واستمر في النظر إلى الأمام. وضرب الهواء مرة أخرى بعصاه كأنه يضرب خصماً، عدواً. وفي لحظة لاح كأنه يضرب عجزه. وأرسل الهواء الذي حزّته العصا صفيراً متوجعاً فلّذ لأحمد سماع ذلك الرجع الموجع، المتألم والمتأسي في آن. فضرب مرة أخرى.

قالت رتيبة:

- إنها تخلق المناسبات لاستفزازي. تصطنعها. تصفق الأبواب. ترمي الصحون في المجلى تخبط النوافذ. تبربر. اشتغلي في البيت. اكنسي أنت لا تكنسين. اغسلي أنت لا تغسلين.

اربد وجه أحمد لكنه تصنّع المرح والابتسام. قال ضاحكاً:

- ألا تستطيعين مهادنتها؟ اعقدي معها صلحاً لبعض الوقت. سوف أرى ما يمكنني عمله.

قالت رتيبة بنبرة أقل حدة لكنها أعمق غوراً حتى بدا ما تقوله وكأنه لا يقبل النقض:

- يبدو لي أنها لا تطيق وجودي هناك. تريدني أن أترك البيت. هل تعرف ماذا قالت لي عندما انصرف الخاطبون آخر مرة. قالت لي (مقلدة): أنت لست أحسن مني، أنا أيضاً تزوجت أباك كبيراً. إلام تنتظرين؟ غداً ينصرف عنك الخاطبون وتبورين. البنت مرغوبة طالما هي حُق ويهملها الراغبون إذا ما تفتحت.

قال أحمد دون اندفاع كبير في الظاهر ولكن بقدر كاف من الغيظ:

- أو قالت لك ذلك؟

رددت رتيبة:

- بل قالت أكثر من ذلك.

وبدت للحظة مترددة:

- قالت لعلك تنتظرين واحداً من هؤلاء الذين يتسكعون قبالة النوافذ، أو تحتها. حسناً! إن أحدهم لن يقترب منك، لأنه لا يملك ثمن خاتم خطوبتك.

وفيما قام تساؤل في ذهن أحمد. هل تقصده زوجة الأب؟ هل توحي للفتاة بالهرب مع أحد شبان الحارة؟ فيما قام هذا التساؤل احتلت المركز فكرة. وهي أن زوجة الأب تريد التخلص من رتيبة. ثم بدأت هذه الخاطرة تبحث لنفسها عن الدوافع. هل هو كره زوجة الأب لغير أبنائها؟ أهي الغيرة والحقد حتى لتكاد المرأة تدفع برتيبة إلى مصير مماثل لمصيرها؟ أو لعلها تريد أن يخلو لها الجو. لقد تردد همس هنا وهناك حول سلوكها وغير واحد لعق شفتيه وقال: حامد المسكاوي ليس هو الخيّال الكفء.

وتاق في الحلم أو في اليقظة أن يعلو هذه الفرس التي بدت مسرجة وفي كامل أهبتها كأحسن ما تظهر عليه فرس تجري في حلبة، ويكون هو فارسها المغوار.

وحقيقة كانت نظرات زوجة الأب الداعية والشبقة في آن، التي سرعان ما تختفي تحت أهدابها المسبلة كما تنسرب حيوانات الأرض الصغيرة داخل جحورها لحظة تضبط تتلصص على أبواب تلك الجحور. كانت هذه النظرات تذكي النار في قلوب شبان الزقاق وتلهب خيالهم، كما تنشر الأقاويل في دائرة واسعة حولها..

وقد حظي أحمد بقسط من هذه النظرات. بل لعله حظي بالقسط الأوفى منها وعندما اكتشفت زوجة الأب أنه لا يخصها باهتمامه، وأنه إذا ما اتفق وتوجه بأنظاره إلى نوافذ بيت حامد المسكاوي فليس من أجلها وإنما من أجل

رتيبة، عندما اكتشفت ذلك سلقته بنظرات حامية وحظرت على الفتاة الاتصال بأهله من فوق السطح أو التردد على بيتهم.

- وأبوك ما موقفه؟

قال أحمد وأضاف بعد سكتة قصيرة:

- ألا يفعل شيئاً؟

قالت:

- أبي! لم أره قاصراً كما هو الآن وخائفاً. لست أدري يبدو لي أنه يخشى أن تتركه وتمضي. لكأنه طفل يطبق بيديه الاثنتين على عصفور.

قال أحمد:

- هذه حال الكبار. يقبضون على الأشياء كالأطفال كأنها ستهرب من أيديهم.

قال والد أحمد:

- «هاتِ يدك يا عزيزة. الموت عند طرف السرير. لا تتركي الغرفة».

قالت والدة أحمد:

- «بعيد الشر عنك. كلنا حولك».

قالت رتيبة:

هذه المرأة لا تحبني (ثم مترددة) حسناً. أعتقد أنها لا تحب أبي أيضاً. ما كان يجب أن تموت أمي

وسقطت «ما كان يجب أن تموت أمي» في أذن أحمد فهزته هزاً ومست شغاف قلبه حتى أوجعته. فها هي ذي الإنسانة التي يحبها، والتي تراءى له دوماً أنه يجود بالنفس من أجلها، هذه الإنسانة، تبدو الآن متوحدة، مقهورة، لا سندٍ لها. وعلى الرغم من ذلك، ولعل هذا ما أوجعه أكثر من أي شيء آخر، إنه لا يستطيع أن يمد لها يد العون.

وكما ينتفض حيوان عاجز انكمش طويلاً أمام أولاد يشهرون عصياً في وجهه. كما ينتفض هذا الحيوان ضارباً في لحظة عرض الحائط بكل ألوان اليأس والجبن والخوف. انتفض شيء ما في داخل أحمد لكنه أسرع فوضع إصبعاً على صمام غضبه. قال مهوناً:

- بسيطة. كل شيء سيكون على ما يرام! اطمئني.

وقبل أن تعي رتيبة بالضبط ما ألقاه في سمعها بسرعة وانفعال ولهوجة رغم محاولته الظاهرية أن يضفي على صوته الهدوء واللامبالاة. أضاف:

- سيكون لي شأن معهم.

ثم بصوت يقرب من الهمس حتى ليكاد يكون ذاتياً:

- أولاد الكلب.

فاغتصبت رتيبة ضحكة ثم تساءلت مستغربة خائفة وهي في حيرة من تحوله الذي فاجئها نوعاً:

- ولكن من هم؟

- كل هؤلاء الذين لا يريدون لنا أن نعيش.

وكانا قد قطعا، منذ مدة، منطقة البساتين، فقفلا راجعين. وكان القضيب لا يزال في يده يضربه ضرباً رفيقاً على ظاهر ساقه. ومرة أو مرتين شق به الهواء كأنه يضرب شبحاً فأرسل صفيراً أصم.

* * *

حين تأكد العمال أنه لن يكون ثمة عمل اليوم لرداءة الطقس بدأوا يعدّون دراجاتهم تمهيداً للانصراف. بل إن بعضهم انصرف فعلاً دون أن ينتظر أمراً بذلك. ولعله فعل لأن دراجته في المقدمة. كانت هناك سقالة نصبت عالياً من طرف جدار المكتب إلى طرفه الثاني. وكانت دراجات العمال قد علقت في السقالة بحوامل حديدية أعدت لهذا الغرض. أما الذين لم يجدوا لهم مكاناً في تلك السقالة فقد أسندوا دراجاتهم تحتها، على الجدار واحدة إلى جانب الأخرى حتى تجمع من ذلك عدد كبير. مما جعل الوصول

إلى دراجات المؤخرة والسقالة شيئاً متعذراً حتى يتسنى سحب تلك التي في المقدمة باستمرار. واستقرت في الجانب المقابل من القبو الدراجات النارية.

فمنذ قليل ذهب بعض العمال واستطلعوا الجو من جهة الفنار. ثم عادوا إلى رئيس الفرقة:

- القبلي مغلق يا ريس.

فسأل الشمّام وكان يجلس وراء مكتب معدني رصاصي اللون في زاوية من صدر القبو. في حين وقف كاتب الفرقة على مقربة منه:

- ماذا تقول النشرة الجوية؟ هل اسمتع أحدكم إلى الراديو يا أولاد؟

- قال الراديو ستحدث أمطار وعواصف رعدية.

تساءل عامل بعفوية:

- عجيب كيف يعرفون هناك في الراديو بحدوث الأمطار والعواصف قبل أن تحدث؟.

فرد عليه آخر:

- بالعلم.

ووجد الشمّام الذي كان يحب العلم إلى درجة البغض. وجد أن الفرصة ملائمة ليلكز العلم والمتعلمين لكزة عابرة فقال:

- قال عواصف رعدية قال. كأن الله أعطى علمه للناس. البارحة يا شباب كانت السماء في الليل مثل الليرة الفضية. ولكنه شباط كما تعلمون.

فعلّق عامل وكان قد دفع دراجته وخطا خطوتين باتجاه الباب:

- لكننا نحن الآن في آذار يا ريس.

فقال الشمّام:

- وما الفرق آذار ابن شباط إذا لم يكن هو نفسه. وما يحدث في شباط يحدث في آذار. فجلة وانقسمت.

وعقّب عامل كبير في السن من طرف القبو:

- نحن الآن في شباط شرقي يا ريس.

لكن تعقيبه لم يلق اهتماماً وضاع في حمى الفوضى.

وفي جانب من المكتب وقف أحمد مع بعض المياومين. قال عامل مياوم أسمر البشرة بارز عظام الوجه:

- المحاصّون لا يبالون كثيراً إذا ما أمطرت فمحافظهم... (واستعان بيديه واضعاً إحداهما فوق الأخرى). عامرة باستمرار. بل لعلهم يتمنون أن يحدث مثل هذا اليوم الماطر ليواصلوا لعب الباصرة المشروطة.

قال أحمد وهو يختلس النظر من رئيس الفرقة:

- إذا كان الجوع عدو الفقير رقم ١، فالمطر عدو الفقير رقم ٢.

قال العامل الذي قاد دراجته باتجاه الباب، وكان قد صار خارجاً، يستحث رفاقه:

- إنها ستمطر. وقد سقطت حبات فوق رأسي. أسرعوا يا شباب.

قال الشمّام:

- هيا يا أولاد قبل أن يحبسكم المطر.

وساد هرج لفترة. وطقطقت الدراجات النارية. فما دام ليس هناك أمل بالعمل ففيم البقاء إذن. ليسرعوا قبل أن يدركهم المطر وليمضِ كلٌ لشأنه.

وما هي إلا لحظات أخرى حتى خلا القبو بينما بقي خليل الشمّام حيث أعلن أنه سيمر على وكالة بواخر قريبة. وأحمد الذي بدا أنه يتلكأ مستأخراً الانصراف. وكاتب الفرقة الذي ما لبث أن انصرف بعد أن أودع دفتر المياومين في أحد أدراج المكتب الرصاصي.

قال الشمّام:

- إيه أحمد! لم تذهب. يلزمك دراجة.

فقد حدثه أنفه أن ثمة مطلباً يكمن وراء تلكؤ أحمد الواضح في الذهاب. وكان أول خاطر رواده في اللحظة التالية موضوع المحاصّة.

وتقدم أحمد باتجاه الشمام الذي كان لا يزال جالساً وراء المكتب في زاوية القبو. كانت عيناه محمرتين تعبتين تتحركان بقلق. لقد أمضى ليلة أمس دون أن يغمض له جفن. راح يتقلب في فراشه. كان العمل هو وتد الرحى التي دارت حولها أفكاره. منه انطلقت كل طيور الأسى ورفرفت بأجنحتها السود حواليه. فعندما افترق عن رتيبة بالأمس وعاد إلى البيت كانت أبوابه كلها مشرعة للألم. ولم يبق إلا أن يعزف الشيطان فيها أغنيته. وقد عزف. ولعب بكل الأوتار. وعلى نشيده لبست رتيبة وأحمد وأبوه وإخوته ورؤساء الفرق والحياة برمتها كل الأردية وتقنعت بكل الصور. إنه الليل يُغني الخيال. يقرب المسافات. يبعدها. المستحيلات ممكنة. وما هو ممكن يصبح فيه مستحيلاً. هو الليل ترتفع فيه أسوار لم تكن بذي بال. وتهدم أسوار كانت قائمة فعلاً. يُضخّم الألم. يُهّوله. وفي لحظة يُهّون من أمره. ويصبح الإشكال الذي كان قبل قليل مثار فزع وخوف، موضع هزء وسخرية الآن من السهولة التي يحل بها. وتكمن المعجزة وراء صورة. أو خطاب مؤثر، أو ذكرى، أو عبارة حارة. تنبثق المعجزة من وراء ذلك كما تنبثق الشمس من قلب الليل.

ولكن الليل يمضي. تنتهي نوبته فتمضي معه عصاه السحرية ووعوده المعسولة والخطابات المؤثرة والعبارات الحارة والذكرى. تذهب المعجزة ويبقى ما هو قائم فعلاً. تبقى المحاصة والمياومة ورؤساء الفرق وأحمد وخليل الشمّام وبينهما مكتب معدني لاح في لحظة لأحمد أنه أعلى من سور الصين.

- إني أسعل قليلاً في الليل. وخفت أن يدركني المطر في الطريق.

قال أحمد وجلس على كرسي كان قائماً هناك حذاء الحائط، مقابل الشمّام، من الجهة الثانية للمكتب المعدني.

قال الشمّام:

- ما كان ينبغي أن تنزل إلى الميناء اليوم. لعله كان من المستحسن أن تلازم الفراش في مثل هذا الجو.

قال أحمد:

- شعرت البارحة بوعكة فلم أنزل إلى العمل.

قال الشمّام:

- البارحة كان الطقس رائعاً.

- كانت الشمس حامية.

قال أحمد. ومشى هو ورتيبة بين البساتين «بسيطة. كل شيء سيكون على ما يرام». قال لها وسرت رعدة في جسده ابتداء من الكتفين.

وأضاف:

- الشمس الحامية في شباط وآذار باروميتر.

واسترعى لفظ الـــ « باروميتر» ودون وعي تام بالكلمة، انتباه الشمّام فقال: «لو كنت في مثل علمه لما استطاعت قوة أن تزحزحني عن رئاسة الفرقة».

- إنها تنذر بتحول الطقس.

تابع أحمد. واستقرت الرّعدة وقد تحولت إلى قشعريرة في صلبه.

قال الشمّام:

- كنت إذن متعطلاً البارحة. طيب! وها أنت تعطل اليوم. إلا إذا ساء الطقس ليومين ثلاثة. لعلك خلال ذلك تكون قد شفيت من وعكتك.

- لكن التعطيل بالنسبة للمياومين يعني لا دراهم.

قال أحمد مازحاً وقد دعم قوله بحركة حاكة من سبابته وإبهامه.

قال الشمّام:

- التعطيل يعني لا دراهم بالنسبة إلى المياومين والمحاصّين على السواء.

وأقرّ أحمد قائلاً:

- في التعطيل يتساوى الفريقان حقاً. المحاصون والمياومون على السواء. أما في العمل..

وترك جملته معلقة في الهواء. فيما أخذ من جيب سترته الداخلي علبة سجائر نقفها نقفة خاصة فأطلّت من فتحتها سيجارتان ثلاث. ومدّ أحمد يده بعلبة السجائر يعرض على الشمام سيجارة.

نظر الشمّام إلى علبة السجائر. كانت من صنع محلي فقال:

- شكراً. لا أستطيع أن أبدل تبغي.

وأشعل أحمد لفافته فيما انتظر من الشمّام أن يكمل جملته التي تركها معلقة. وحين مضت الثواني دون أن يفعل بادر أحمد إلى وصل ما انقطع. فقال محاولاً إلباس لهجته المسحة المازحة نفسها:

- في الموت يتساوى الصعاليك والكلاب والأغنياء. كان الأجدر أن تكون المساواة في غير هذا الميدان.

وسحب الشمّام من جيبه علبة تبغ أميركي. التقط منها بعناية سيجارة أشعلها من ولاعة فاخرة. ثم وضع علبة التبغ والولاعة على الطاولة. العلبة وفوقها الولاعة الفاخرة. فكّر الشمّام «ما يقال عنه صحيح إذن».

ثم قال بصوت مسموع:

- أوليست إذن هناك مساواة؟

رد أحمد:

- أنت أدرى مني بالأمور.

ومضت فترة صمت في وقت تلاحق فيه تساقط حبات مطر في الخارج، وقد صار لها وقع مسموع الآن، لكن دون أن تأخذ شكلاً كثيفاً.

وأخذ الشمّام نفساً عميقاً من سيجارته نفثه ببطء، مستمتعاً بمنظر الدخان وهو يخرج من منخريه على دفعات وبما يبعثه في عروقه من خدر.

كان له أسلوب خاص في التدخين. كان يمسك بالسيجارة أحياناً على نحو تذكر المرء بالطريقة التي يدخن بها أولئك الذين اعتادوا تعاطي الحشيش بالسجائر. تلك الطريقة كما كشف أحد أولاد الصنعة بأنها تُقسر السيجارة بشكل ما أن تسكب في أعصاب المرء لذة وانتشاء خاصين في غياب الكيف أو حتى بعد تعاطيها.

وبعد أن سحب نفسين بطريقته الفريدة تلك ثم نفثهما، راح يرى من مكانه وراء الطاولة، إلى شبكة المطر عبر باب القبو، ثم إلى تحطم حبات المطر على أرض الشارع وعتبة ذلك القبر. التفت إلى أحمد. كان وجهه قد اكتسب ذلك الطابع الذي يسبق اتخاذ القرارات الخطيرة.

قال:

- هل ترى إلى أصابع يديك؟

قال أحمد:

- نعم

قال الشمّام:

- لا بل انظر إليها.

وبسط أحمد يده أمامه ثم قلبها ظهراً إلى بطن.

- حسناً. هاأنذا قد رأيت.

قال الشمّام:

- هل ترى إصبعاً يماثل الآخر؟

قال أحمد:

- كلا.

قال الشمّام بحذلقة:

- المسألة بكل بساطة هي هكذا. يبدو لي إنه سيظل هناك مسافات بين الناس. زمان كان أفراد الجماعة هم أرباب العمل وكنا نشتغل عندهم. والآن نحن أرباب العمل وهناك من يشتغل عندنا.

وأخذ الشمّام نفساً جديداً من سيجارته. كان لعينيه لمعان زجاجي واحمرار لا يشاهدان في الأحوال العادية. كان وجهه هادئاً يعكس تعبيراً شمعياً مشدوهاً ومتعباً في آن معاً.

كان في إحدى حالاته النموذجية. وكانت تلك الحالة المثالية مع ما يقابلها من لحظات عُرفت عنه كان فيها نافد الصبر عصبياً يثور لغير ما

سبب ظاهري معقول، هما بالضبط الحالتان اللتان كانتا موضع تساؤل العمال الأغرار وشكهم لزمن طويل.

نظر أحمد إليه. كان ثمة تعبير بالطيبة المشوبة بالبلادة ينعكس الآن في وجهه.

وأطلق الشمّام دخان سيجارته نفثة طويلة متأنية.

ثم استأنف القول دون أن يتخلى عن حذلقته وقد راق له هو نفسه أن يستمع إلى هذه الحذلقة:

- حسناً أنت تريد الآن أن تصير محاصّاً. ولو كنت موضعك لسعيت مثلك أن أصبر محاصّاً. لكن لنتبادل المراكز الآن. أنت ريس الفرقة وأنا مياوم. أنا من ناحيتي سأسعى جاهداً كي أصير محاصّاً وأنت من ناحيتك سترفض.

فتساءل أحمد مستغرباً:

- وما أدراك أني سأفعل؟.

فقال الشمّام وقد بدا كأنه تخلى، ربما مؤقتاً، عن إيحاء أنفه وراح يتكلم من القلب:

- أنت واحد من الناس. ومادمت واحداً منهم فأنت ستسلك مثلهم. عندما كنا صغاراً، وكانت تُوزع علينا قطع الخبز والحلاوة الطحينية، كنا نتشاجر أنا وإخوتي من أجل القطعة الأكبر. كانت أمي تقول بشك وخوف بعد تسوية الخلاف: سيأتي يوم يتنكر فيه الأخ لأخيه والولد لوالده والأم لابنها. حسناً. لعل اليوم الذي كانت أمي تبشر به نحن فيه الآن.

وبدا أحمد محيراً. بدا وكأنه لغز فتساءل:

- لكن لماذا؟

- لماذا؟ لست أدري. ألم تر نفسك يوماً في وضع مماثل لما أنت فيه الآن؟ ألم تشاهد تنازعاً يوماً من أجل الحلاوة الطحينية أو شيء من هذا القبيل؟

وفكر أحمد لحظة. ثم قال:

- بلى. في الخدمة كنا نتزاحم ولعلنا نتحاسد على الحذاء الأفضل. والقميص الأجد. وربما على النصيب الأكبر من اللحم.

قال الشمّام بانتصار يعوزه الزهو:

- هذا هو. الميناء كما هي الحال في أي مكان آخر. الناس فيه لا يفرطون بما يعتبرونه حقهم المنزّل. الميناء ملكيات. شغيلة البواخر لهم ملكيتهم. وجماعة المواعين لهم ملكيتهم. والبرّيزة(١) لهم ملكيتهم. لقد أنشأ كل من هؤلاء حدوده وأقام فوقها علاماته الخاصة ثم حظّر الاقتراب منها.

فقال أحمد بتصميم:

- المحاصّة من حقي أنا أيضاً.

فرد الشمّام وقد برز من عينيه انعكاس زجاجي أكثر وضوحاً منه في أي وقت مضى:

- قد يكون ما تقوله صحيح. ولكن كيف ستثبت لنفسك هذا الحق؟ لقد كنت غائباً وقت توزع الغنائم. وها أنت عدت. ولكن لا كعك بعد العرس.

وتوقف الشمّام برهة. وبدا متردداً قبل أن يقول:

- طيب أنا لا اعتراض لدي أن تصير محاصّاً. لكني لا أستطيع أن أجعلك محاصّاً.

وبانت الدهشة في عيني أحمد:

- لا تستطيع؟ هل تريدني أن أصدق ذلك؟

قال الشمّام:

- أنا لست مطلق اليد في الفرقة. حاول أن تفهم ذلك. أنا واحد من أربعين. قد يبدو لك ذلك غريباً. ولكنه الحقيقة. أنا لا أستطيع أن أفعل شيئاً لا يرغب فيه الآخرون.

---

(١) البريزة: عمال شحن وتفريغ الشاحنات.

وفكر أحمد «ليس هذا بالرجل الذي تشد به ظهرك يا أحمد». وعزا ضعفه إلى وضعه المقلقل في الفرقة في الآونة الأخيرة. لكنه احترم في نفس الوقت صراحته. ولم يراوده الشك في صدق لهجته.

كان ثمة في شخصية الشمّام – إذا ما تخلى عن الانقياد إلى إيحاءات أنفه – عنصر يجعله محبباً إلى النفس. كان رجلاً شعبياً، في طباعه بقايا من مروءة الحواري القديمة. وكان إذا ما ترك نفسه على سجيتها يخلّف انطباعاً بأن ما يضعه بين يديك بالقول أو بالفعل هو أقصى ما يقدر على عمله.

تساءل أحمد:

- وماذا بشأن الآخرين؟

وأشعل الشمّام سيجارة ثم أطلق دخان نفس الإشعال الأول. ورطب حلقه الجاف برشفة شاي. كان ثمة في مكان ما من الطاولة قدح فيه بقية من شاي كثيف اللون. ذلك القدح الذي كثيراً ما يشاهد عن يمين الشمّام إن في المقهى أو في المكتب. كان يبدو للوهلة الأولى، لإنسان بسيط النظر أنه قد نُحّي، وأنّ صاحبه قد زهد فيه. لكنه سرعان ما يقلع عن اعتقاده عند ما يرى يد الشمّام تمتد إليه من وقت لآخر.

وللحظة بدا الشمّام متردداً. ثم اندفع يقول كأنما أراد أن ينتهي بأسرع ما يستطيع من الموضوع الذي رأى نفسه فجأة يخوض فيه:

- لقد ضربوا نطاقاً حول الفرقة منذ زمن.

- نطاقاً؟

ردد أحمد بتشتت واضح.

قال الشمّام:

- هذه هي الحقيقة. لقد ضربوا نطاقاً لأن الفرقة تحملت فوق طاقتها. ويقولون في الوقت الذي حافظت فيه الفرق الأخرى على عدد أعضائها الأصلي، ارتفع العدد في فرقتنا إلى أربعين خمسين عضواً. كان بودي أن أضمك إلى الفرقة. لكن الوضع كما ترى.

وهمهم رعد مختنق بعيد في مكان ما من السماء. فمدّ الشمّام بصره عبر باب القبو إلى أرض الشارع. وفيما انصرف يستطلع مدى غزارة المطر ليختبر شدته كي ينطلق خارجاً. فيما راح يفعل ذلك ران صمت عميق على أحمد كأنما دهمته نازلة فجمد في مكانه. كانت يده اليمنى تستند بنصف إرادة على الطاولة المعدنية. في حين استقرت اليسرى بإهمال في حجره.

كانت عيناه مثبتتين على عقب سيجارة يحترق على مهل. كان ثمة عمود دخان رفيع ومستقيم بطول قلم رصاصي يتصاعد من العقب، ثم ينشر بعد ذلك حول نفسه مظلة كمظلة الفطر.

واستغل فكر أحمد السكون الذي حلَّ فجأة على جسد صاحبه فراح ينط ويتواثب كالدوري في غير ما مكان محدد.

ونهض الشمّام بعد أن دفع بيده درجاً في الطاولة المعدنية فغيبه داخلها. وقد أفصحت حركته تلك أبلغ من أي كلام عن إعلان تأهبه للانصراف. وبنهوض الشمّام أُجفل الدوري وعادت الحياة إلى أحمد فاستوى واقفاً بدوره.

ونظر الشمّام إلى أحمد الذي ما لبث أن بادله النظر. وتقابلت عيونهما لحظة، لحظة طويلة متفرّسة وحافلة. ثم قال الشمّام:

- بسيطة أخي أحمد. أهمل الموضوع الآن على الأقل. عسى بعد انتخابات الريّاس. أنت تدري ما يجري في فرقتي. علّ الوضع يصير أفضل.

وسار الشمّام باتجاه باب القبو. فسار أحمد إلى جانبه في حركة تكاد أن تكون مسلوبة الإرادة. وقد عاد إليه ذلك الشيء الغليظ الذي أحس به في حلقه يوماً. لكنه في هذه المرة كان مرّاً أيضاً إلى جانب كونه غلظاً فظاً. ووقف عثرة دون الحركة الحرة والعفوية لسيل الكلمات المتفجرة التي تدافعت على لسانه في فوضى واضطراب لتأخذ طريقها إلى أذني الشمّام. تلك الكلمات التي آثر أحمد في آخر لحظة أن يمسك بها. وقد جرب لثانية أن يحرك لسانه بالكلام فخيل إليه أن شيئاً كان يقف على أهبة الاستعداد ليخرج مع الكلمات. أنَّ مجرد التفكير في الحال التي سيكون عليها فيما لو أفلت لسانه بالكلام جعله يؤثر الصمت. كان يشعر أنه في اللحظة التي سيفتح فيها فمه سيفرقع شيء

في داخله. وأخلد إلى الصمت. وفي غفلة من عين ذاته التقط طرف شفته بين أسنانه وعضّها.

وفي وسط الشارع افترق الرجلان دونما كلمة وداع كان ثمة رذاذ يتساقط خفيفاً. وبينما راح الشمّام يُشيّع أحمد بنظره وهو ماضٍ في سبيله يخترق شبكة الرذاذ ويقطع خيوطها الواهية بمنكبيه القويين المشدودين همس الشمّام بصوت مسموع في رنة غضب:

- ليسمعها من غيري. لا أحب حمل خبر السوء. نحن قذرون.

* * *

أشرقت الشمس بعد إمطار أيام ثلاثة. وهبت على الشاطئ نسمات لطاف لتهمس للأرض، للعصافير، للأشجار أن الشتاء ولىّ وأقبل آذار. وعبرت السماء بعض الغيمات. لكنها تباطأت قليلاً فوق الميناء لترقب ما يجري هناك قبل أن تواصل طريقها باتجاه الشرق.

وكان ما يجري في الميناء كما هو الحال في كل يوم، الجري الصراخ اللهاث الضجيج السرقات التهريب الصيد الدسائس الإشراك الصرير المؤامرات والاستغلال. نفس ما يجري كل يوم تحت عين الشمس باستثناء حادث صغير جرى لأحمد. لقد جرى، بالضبط، عندما وزع مرزوق نديم رئيس الشغيلة في باخرة القطن أدوار العمال في الصباح. لقد وقف رئيس الشغيلة بين العمال بصورة تبدو لأحمد الآن مصطنعة تماماً. كان يحمل بيده ورقة راح يقرأ فيها أسماء العمال مسنداً إلى كل منهم عملاً، كان يقرأ بصعوبة وكان يحرِّف في حركات الكلمات ما شاء له إلمامه البسيط في أصول القراءة الأولية.

حتى إنه عندما وصل إلى اسم أحمد (وكانت كنيته المُخَلَّص) قرأه أحمد المَخْلِص. ولم تكن قراءة اسم أحمد المُخلَصَّ الخاطئة هي ذلك الحادث الصغير الذي وقع للفتى. كلا. كان شيئاً غير ذلك. إنه تبديل موضع عمله. لقد نُقْل من عامل رافعة إلى عامل عنبر. عامل في كلا الحالين. لكن النقل كان ذا مغزى ودلالة حمل إليه ريحاً غير طيبة. وقد كان من الممكن أن يكون النقل

أمراً عادياً لا يحمل في طياته بذور الشك. لو أن مرزوق نديم جاء، كما فكر أحمد، وقال: «أخي أحمد انزال اليوم إلى العنبر، هناك نقص في العنبرية الأكفاء». لكن عملية النقل على الشكل الذي حدثت فيه كانت شيئاً غير ذلك. وقد تمت بصورة مفتعلة تماماً وعلى نحو يدعو إلى التأمل. كانت شيئاً أُعدَّ من قبل كما خطر لأحمد فيما بعد.

لقد وقف مرزوق وقرأ بصوت عال: «أحمد المَخْلَصِ عنبري».

فتساءل أحمد باستغراب:

- عنبري؟ لماذا؟

فقال مرزوق:

- لا أدري، هكذا جاء التوزيع من البر.

شعر أحمد بالغضب. لكنه لجم غضبه قبل أن يجمح وقال:

- من وضع هذا التوزيع؟

فقال مرزوق بسخرية مبطنة:

- الباب العالي.

ثم مستدركاً:

- ومن يكون غير أبي لهب؟

وصهل الغضب. استوى على قائمتين. توفزت أذناه وصهل. لكن «أحمد» شد لجامه. طز كاد أن يقول. أول كلمة قفزت إلى لسانه. غير أنه قال:

- لكن لماذا؟

قال مرزوق:

- لست أدري. سلهُ أنت.

وعلى جانب تململَ حيران عبد الواحد في وقفته. كان تململه أول علامة عن بدء تحفزه للكلام. لقد رأى إلى الغضب كيف يتجمع وينمو في عيني أحمد، فبادر إلى قطفه قبل أن يزهر.

قال موجها الكلام إلى أحمد:

- ما شأنك أنت أخي أحمد في ذلك؟ هذا ليس اسمك.

فنظر إليه مرزوق متسائلاً. بينما تابع حيران:

- حسناً! لقد جاء في جدول التوزيع أحمد المَخْلصِ، بينما اسم صاحبنا أحمد المُخَلَّص.

قال مرزوق ببلاهة:

- وما الفارق؟

قال حيران:

- في الشدّ شد الاسم فيصبح اسم صاحبنا.

فقال مرزوق ببلاهة أكثر:

- وكيف أشدُ الاسم؟

قال حيران:

- قل مخلِّص بدلا من مخلِص

ورنا حيران من طرف عينه إلى وجه أحمد. كانت أسارير وجهه قد ارتخت قليلاً وزهرة الغضب قد خفت بريقها في عينيه وهو يتابع المحاورة الطريفة بين حيران ومرزوق. كان حيران يهتبل الفرص ليندفع أحياناً وراء كلمة أو عبارة وردت في حديث ما وروداً عابراً فيشبعها شرحاً وتفلسفاً. لم يكن هناك من سبب معقول لهذا السلوك سوى إنه كان يرمي إلى إبراز مواهبه الخاصة بين أناس لم يصيبوا من العلم قسطاً. أناس يفوقونه في النفوذ والمسؤولية وقوة العضل. وهو الرجل النكرة، الضعيف البنية، الذي يحمل نظارتين طبيتين فوق عينيه. وكان العمال يعاملونه بشيء من الاحترام الممزوج بالسخرية أحياناً، حتى إنهم لقبوه بالدكتور. أما لماذا أطلقوا عليه هذا اللقب (الدكتور) فربما لسفسطته. أو بسبب التلازم الدائم بين النظارتين وصاحبهما. وربما بسبب الاثنين معاً.

- لكن يا دكتور ما زلت لا أرى فرقاً بين الكلمتين.

قال مرزوق ذلك. وقد نطق كلمة دكتور بطريقة لم تُجسدّ فيها السخرية كما جُسدّت الآن.

وحرك حيران رأسه حركة خاصة. وعندما لاحظ أنه استطاع أن يلفت انتباه أحمد بحركته تلك غمزه بعينه.

قال حيران:

- لنقفل الحديث في الموضوع إذن ما دمت لا ترى فرقاً. جماعة بقر. خسارة الجهد فيكم.

وضحك العمال الذين كانوا قد تحلقوا حول مرزوق لتلقي أوامر العمل. لقد تعودوا سماع أمثال ذلك وغيره من حيران. لاسيما عندما يلوح في الجو أنه في طريقه ليستعرض عضلاته التاريخية. كان عادة يفتتح الحرب بقوله: «أوباش. شجرة ملعونة. يأكلون اللحم النيئ».

لقد سأله فضولي مرة: «وكيف نأكل اللحم النيئ؟». أجابه: «في الكبة». فرد عليه الرجل: «ولكننا نشوي الكبة» فقال له حيران: «ما رأيك في الكبة غير المشوية؟». فسكت الرجل ولم ينطق بحرف. أما حيران فلم يسكت وأفاض قائلاً: «تاريخ حافل والحمد لله. قتل وصلب وحرق وتعليق رؤوس».

واقترب حيران من أحمد في الوقت الذي بدأ فيه العمال ينفضّون من حول مرزوق، فأمسك ذراعه وضغطه برفق. نظر إليه أحمد فاقتاده حيران. وكان لا يزال يمسك بذراعه، حتى وقفا بجانب سور الباخرة من جهة الغرب.

قال أحمد:

- ماذا هناك؟

لقد شعر أنَّ في الجو شيئاً. استشف ذلك من حركات حيران المريبة.

قال حيران:

- لقد كاد يحدث ما توقعت.

فتساءل أحمد وقد ازداد فضوله.

- ماذا توقعت؟

فرد حيران:

- أن تغضب.

ردد أحمد:

- أن أغضب؟

قال حيران:

- نعم من إنزالك إلى العنبر

ونظر أحمد في عيني حيران.

- أنت على علم بالأمر إذن؟

قال حيران:

- تقريباً.

قال أحمد وهو لا يزال ينظر في عينيه:

- كيف عرفت ذلك؟

قال حيران:

- بوسائلي الخاصة.

مركزاً على ضمير المتكلم، ناطقاً ذلك بطريقة توحي بخطورة مضخمة مما أفقدها شيئاً من جديتها.

فتساءل أحمد وقد حوّل نظره عن عيني محدثه ومد بصره بعيداً باتجاه الأفق:

- لماذا أُنزلتُ إلى العنبر؟

قال حيران:

- لعلك تهدأ.

ردد أحمد:

- أهدأ؟ هو عقاب إذن؟

قال حيران:

- هم لا يسمونه عقاباً. لكنهم يريدون أن يهدئوك. يهدفون إلى تهدئتك بالعمل.

قال أحمد:

- أليس الشغل وراء الروافع عملاً؟

- هو عمل بالتأكيد. لكنه يترك لك فسحة من الوقت للتحرك على ظهر البواخر. أنت تجلس مع العمال أكثر مما ينبغي.

فتساءل أحمد وقد التبس عليه الأمر في الوقت الذي حسب أنه وضع يده على سر هذا النقل:

- وإذا جلست مع العمال. ما الغريب في ذلك؟

قال حيران وقد شعر أنه وصل إلى النقطة التي لا مفر بعدها من مفاتحة أحمد بالهدف الحقيقي لإبعاده عن الروافع:

- حسناً. هم يعتقدون أنك تحرض العمال ضدهم. تجلس مع المياومين. تدخن معهم. تأكل من زواداتهم. تمازحهم. تتنقل من حلقة إلى حلقة. تتكلم عن الاستغلال والأعمال الإضافية. تفعل كأيام زمان. تنتحي بهذا وتنفرد بذاك. تؤجج الغضب في صدور الناس وتفتح عيونهم.

قال أحمد بحسم:

- لم أقل إلا ما اعتقدته صواباً

قال حيران:

- ليس المهم أن تفعل ما تعتقده صواباً. المهم ما يريده الآخرون. حسناً. هم لا يريدونك أن تفعل. لا يريدون أن تفتح عيون أحد من الناس.

فقال أحمد ساخراً:

- لم يكن هناك تحريض على شيء. أنت تعلم. لم يعدُ الأمر أن يكون أحاديث عابرة لقطع الوقت.

قال حيران:

- هذا هو. الوقت الذي تقضيه في الكلام يريدون أن تقضيه في شيء آخر. حسناً إنهم يريدون أن يوفروا عليك وعلى أنفسهم المتاعب التي قد تنجم يوماً عن الخوض في مثل هذه المسائل.

ومرت فترة صمت تعلّقت فيها عينا أحمد بنورس يحوم في الجو.

وأضاف حيران بعد أن بدا لبرهة متردداً حاول فيها أن ينفذ إلى مشاعر أحمد قبل أن يتابع:

- إنهم متضايقون من حكاية الأسبرين.

فقال أحمد بمرارة:

- هل وصلتهم هذه أيضاً؟ ماذا يضايقهم فيها؟

فقال حيران وهو يعيد نظارتيه اللتين انزلقتا قليلاً، إلى مكانهما المعتاد من أنفه:

- وقد وصلتهم بصورة مغايرة تماماً. الرواية الجديدة تقول أنك ضربت الصيدلي وأخذت منه العلبة عنوة وأعطيتها للرجل المسن المفلس. لقد تضايق أبو لهب من هذه الحادثة كثيراً وقال: إنها تشكل سابقة خطيرة.

قال أحمد بحيرة:

- لكن ما علاقة هذه الحادثة بالميناء؟ أنا لا أستطيع أن أفهم.

فقال حيران برفق:

- كيف أحمد وأنت سيد الفاهمين. يحدث أمر في مكان ما من العالم فيتعالى صداه في مكان آخر. لم تعد الدنيا كما كانت قبلاً. أمسى العالم مثل الطبل. تضربه في مكان فيضج العالم كله. وما يجري في البلد يلقى صداه في الميناء. وما يحدث في الميناء يتابعه الناس في البلد. زمان، عندما سارت المظاهرة في البلد، سار معها الناس وصفقوا لها وهتفوا. وتابعوا مجريات الأمور بقلوبهم وأعصابهم. وأنت تذكر كيف جاء في تلك الأيام شباب طيبون لا تعرفهم وقالوا: «أمضوا في سبيلكم وليكن الله معكم». وقدموا لنا مالاً جمعوه بالمناديل من أفراد الشعب. وأنت أحمد سيد الفاهمين. تعلم أنه ما من

حادث منعزل. كل حادث يتعلق بشكل أو بآخر بحادث غيره. بالأمس كان الصيدلي، وغداً أبو لهب أو غيره من المحاصّين. بالأمس من أجل الرجل المسن المفلس، وغداً من أجل المياومين. هكذا ينظر المحاصّون إلى الأمر. «الغابة يشعلها عود ثقاب». قال أبو لهب. وأنت أحمد سيد الفاهمين.

ولاح تشتت في عيني أحمد وزاغت نظراته. وللحظة بدا له المستقبل غامضاً. والعالم لا منطقي يعجز عن فهمه. عالم يحكمه أناس يخالهم في وقت بسطاء طيبون. كتاب مفتوح. سطور مقروءة. جدول تلتمع حصباؤه. فإذا هم في وقت آخر أشخاص آخرون. غرباء. عصيون على الفهم.

وحمل عينيه إلى حيران. وبهدوء وتؤدة همس بحرقة:

- لماذا؟ إني عاجز عن الفهم.

وابتسم حيران ابتسامة شاحبة هازئة غامضة. وعمد إلى التاريخ يصب عليه غضبه شأنه في الأوقات التي يكون فيها برماً ساخطاً على الأوضاع. وحين تعجز فلسفته الخاصة عن الحكم على الأمور. فقال:

- شجرة ملعونة. أحفاد أوفياء نحن. فرخ البط عوام. لماذا نفى عثمان أبا ذر إلى الصحراء؟ ولماذا صُلب ابن الزبير؟

ولكن التاريخ شيء بعيد. ميت. مدفون في بطون الكتب. وأحمد لا يجد أن ثمة أية علاقة بينه وبين التاريخ. أية صلة بين ما يعانيه الآن وما يستطيع التاريخ أن يقدمه له. ولقد صم أذنيه في نفس اللحظة التي ألقى فيها سؤاله «لماذا». لم تكن «لماذا» تبحث عن جواب في الخارج. كانت شكوى. كانت نجوى. والنجوى تكفي نفسها بنفسها. تطعم من شحمها ولحمها. تقوم بأود نفسها. لكنها شكوى طفحت بها نفسه ففاض في لحظة بها لسانه.

وتظل الأذنان منطويتين مثل بقية الحواس. مغلقتين دون سماع أي تعليل لا يتعلق بمشكلة أحد الراهنة. ومشكلة أحمد عنبر ومياومة ومشاعر إنسانية ومحاصّة وأبو لهب. لماذا أبو لهب الآن؟ تساءل أحمد في سره. من دون رؤساء الفرق الآخرين. رأس الأفعى هو. خصمه هو. كيف؟ لماذا؟ لا يدري لكنه شيء يحسه في قلبه. أذكاهم وأخبثهم وأقواهم. ألانه أقواهم يشعر

أنه خصمه الحقيقي؟ كلا. كلا. أبو لهب لا يتعبك في البحث عن الدليل. قال أحمد لنفسه. هو يقدم إليك الدليل. ذو القرنين هو. وصاحب الوزنين. زاد وزنه حتى كاد يتفتق جلده. صار أبو لهب. صار ثلاثة أربعة. توزع في المحاصّين. ثم أعادوا هم تركيبه فكان رمزاً للمتسلطين الجدد. قاد في الماضي. فكر أحمد. ويقود الآن في السر والعلن حسب ما يقتضي الحال. أعرفك أنا. قال أحمد. شجاع أمام الجبناء. وجبان أمام الشجعان.

وتنحنح حيران. قال:

- والآن ماذا تنوي أن تفعل؟

ورفع أحمد رأسه من أعماق ذاته. كانت نظراته لا تزال أبعد ما تكون عن التركيز. قلقة متعبة وأسيانة. قال:

- لست أدري.

واحترم حيران قلق زميله فصمت ثم انحنى فاستند بمرفقيه على سور الباخرة ونظر بعيداً.

كان البحر قطعة رخام لامعة صقيلة زرقاء. ومثله في اللمعان والصقل والزرقة كانت السماء. كأنما كان الاثنان في يوم من الأيام شيئاً واحداً. وفي لحظة انفلق ذلك الشيء كما تنفلق المحارة فصار الشيء الواحد اثنين، طبقتين منفرجتين. لكن ملتصقتين هناك في مكان منهما. وما يحدث في أحدهما ينعكس في الآخر، لوناً وزرقة ولمعاناً وصقلاً.

ومن بعيد سحب أحمد بصره فالتقطه نورس على مسافة عشرين متراً كان يحوّم قريباً من سطح الماء. لقد راح يطير طيراناً أفقياً. دار في رقعة محدودة لبعض الوقت. وبعدها ارتفع قليلاً. طار في دورات تصغر أو تكبر. هابطاً أو صاعداً. أخيراً انزلق في الفضاء. بسط جناحيه وانزلق. وحين اقترب من الماء خفف سرعته. حام في الهواء لحظة أو لحظتين. وبسرعة غمس رأسه في الماء. ثم ارتفع يحمل في منقاره سمكة.

وهتف حيران الذي كان يلاحق النورس بدوره ثانية بثانية. هتف بفرح:

- لقد صاد سمكة. انظر أحمد صاد النورس سمكة وحق الله.

ورد أحمد على صديقه بابتسامة. اكتفى بالرد عليه بابتسامة. لكنه همس لنفسه:

- إما صائد أو مُصاد. في الميناء كما في البحر. إما صائد وإما مُصاد. ولا خيار لك..

ومن الخلف صاح رئيس الشغيلة:

- المواعين وصلت يا أولاد. إلى العمل.

وساد هرج. ماجت الباخرة بالحركة. وتفرق العمال هنا وهناك. إلى الروافع. إلى العنابر. إلى سور الباخرة لتناول مدَّات المواعين. ونزل أحمد إلى العنبر مع النازلين.

* * *

لم يكن أحمد يحتاج إلى أي رافد جديد ليرتفع منسوب الغضب عنده. فحتى الجليد الذي ظل إلى ما قبل الساعات الأخيرة منيعاً ناصعاً يتلألأ في القمة قد ذاب هو الآخر. ولقد أصبح أحمد خلال كل اللحظات التالية التي قضاها في عمله الجديد في العنبر قادراً أن يقيم الحواجز كيلا ينفلت غضبه. هذا الغضب الذي كانت تذكيه نظرة محاصّ. أو ضحكته أو التفاتة منه ذات مغزى أو تعليق يتلفظ به. وكان يردد «كل شيء مليح في وقته».

وفي لحظة اقترب منه حيران ليعلن أن عمالاً قد جاؤوا من باخرة الشعير للمؤازرة. فأرسل تنهيدة وفكر: «لا شك أنني كنت أعمى فلم أرهم على حقيقتهم». قال عقله ذلك في الوقت الذي كانت يداه تعالجان بالشرشور مع ثلاثة عمال آخرين بالة قطن لرصفها إلى جانب مثيلاتها من البالات.

وما هي إلا لحظات حتى أطل رأس من أعلى العنبر وقد كور صاحبه يديه حول فمه وصاح بأعلى صوته:

- انتهت الماعونة. إلى التنفس يا أولاد قبل أن تصل ماعونة جديدة.

وعلّق العمال شراشيرهم في نطقهم وبدأوا يصعدون سلماً حديدياً في حين تناول أحمد سترته ونفضها قبل أن يشرع في ارتدائها. وفيما كان يفعل ذلك قال حيران الذي كان يقف إلى جواره:

- التنفس: اللعنة على هذه الكلمة.

فتساءل أحمد:

- ما لها هذه الكلمة؟

قال حيران:

- حسناً! ألا تذكرك بشيء؟

قال أحمد وهو يولج يده اليسرى في كم سترته اليسرى:

- بلى. أظن بالسجن.

قال حيران:

- زرته يوماً لأمر ما. اللعنة. لقد قضيت هناك أوقات لعينة.

قال أحمد:

- دخلته يوماً مع بعض الرفاق أيام الاصطدام مع أرباب العمل.

قال حيران:

- قال لي سجين ذات يوم. لماذا أنت مهموم. ما حكمك؟ قلت سنة وبضعة أشهر. فقهقه وقال: أستطيع أن أنامها على رجل واحدة. وعندما سألته. وأنت ما حكمك؟ ابتسم وقال: مؤبد. فقلت له: كيف تبتسم وأنت محكوم مؤبد؟ قال: إنني لا أفقد الأمل.

وأضاف حيران:

- تصور أحمد.

- أتصور ماذا؟

قال أحمد. وتقدم عدداً من الخطوات صوب السلم فتبعه حيران. كان الجميع قد صعدوا إلى ظهر الباخرة واحداً بعد الآخر ولم يبق سوى أحمد

وحيران. تراجع أحمد خطوة ثم دفع حيران بلطف ليأخذ طريقة إلى الأعلى قبله.

عندما صار حيران على ظهر الباخرة أطل برأسه من فوق العنبر وقال لأحمد:

- اصعد أخي أحمد. في انتظارك مفاجأة. هنا بعض الأصحاب.

وتسلق أحمد السلم على مهل. كان واضحاً إنه لا يريد أن يستعجل الصعود. ولم يستطع الوعد بالمفاجأة التي تنتظره في الأعلى أن يغريه بأيما إسراع.

حين أمسى أحمد على ظهر الباخرة ألفى إبراهيم والخال وأبا الذهب. كانوا قد قدموا مع العمال اللذين جيء بهم من باخرة الشعير للمؤازرة. تبادل أحمد معهم التحية. شمل أبو الذهب أحمد بنظرة متأسفة أسيانة. ثم توقفت عيناه لحظة على الشرشور المعلق في زناره.

قال أبو الذهب:

– أراك تحمل شرشوراً. فعلوها معك إذن؟

قال حيران:

- الشرشور ليس ملكه. لقد استعاره.

قال إبراهيم:

- أولاد العاهرات.

قال أحمد:

- أيه. سمعتم بالقصة إذن؟

قال أبو الذهب:

- ومن لم يسمع بها؟ لقد ملأت الميناء.

قال حيران مازحاً:

- افرح يا شيخ أحمد. صرت شخصية خطيرة.

وتساءل إبراهيم:

- لكن لماذا فعلوا ذلك؟ إنني لا أستطيع أن أفهم. الناس يتقدمون إلى الأمام. ينتقلون من عنبرجية إلى ونيشة. ومن ونيشة إلى ستيفادورية.

فتنهد حيران ملء صدره وقال:

- هل تريد أن تسمع رأيي؟ إنهم يريدون أن يحملوه على ترك العمل. إنهم لا يرغبون بوجوده في الميناء.

ولم يبد على إبراهيم أنه قد فهم كثيراً. كانت قسمات وجهه لا تزال تحمل سيماء التفكير الذي انطوى عليه سؤاله عندما طرحه قبل قليل: وقد ولّد جواب حيران لديه سؤالاً آخر فقال:

- لكن لماذا يرغبون أن يحملوه على ترك العمل في الميناء؟

فقال حيران بشيء من نفاد الصبر، إذ لم يكن يلوح أيما انشراح لقول ما يقول:

- حسناً. هم يعتقدون أنه يحمل أفكاراً من نوع ما. إنهم لا يرغبون بوجود أصحاب الأفكار الهدّامة في الميناء.

فردد إبراهيم بآلية:

- أفكار هدّامة؟

كان يبدو له أن الحديث ينعقد لحظة بعد لحظة. وأنّ الأجوبة التي يتلقاها على أسئلته تغلق عليه الفهم أكثر فأكثر بدلاً من أن تفتحه أمامه.

وأضاف حيران:

- هذا ما قاله أبو لهب والمحاصّون.

قال أحمد في نفسه: «كان ظني في محله إذن». كان الجد بادياً على وجه أحمد. كانت شفتاه تنطبق بأحكام، وعيناه فيهما التماع.

وفي لحظة طار أحمد بجناح من خياله إلى الماضي. لسنتين أو ثلاث سنوات خلت فوق باخرة ذرة بيضاء. طار بعين وأذن ونصف فكر.

قال أحمد لملاحظ العمال في باخرة الذرة البيضاء:

- «يجب أن تعفي محمد الطفران من العمل اليوم. الدماء تنزف من يده. مسكين جرح يده بالسكين عندما شق كيس الذرة.

قال الملاحظ:

- إذا أعفيته من العمل سأعفيه من أجر اليوم أيضاً. إما أن يشتغل ويأخذ أجراً. أو يمضي إلى البر دون أجر.

- ولكن هذا ليس عدلاً.

- احتفظ بأفكارك في رأسك. متى تتوقف عن حشر أنفك في مثل هذه الأمور؟ أنت تجلب لنفسك المتاعب.

- ولكن الدنيا حر والجرح ينزف.

- ولكن العمال أولاد كلب. ما أدراني أنه لم يتعمد أن يجرح يده ليعفى من العمل؟ وحتى إذا كان صادقاً فأنا لا أستطيع أن أعطله وأدفع له. لأنه سيأتي يوم يجرح فيه عمال آخرون أيديهم ويقولون: «لقد جُرحت أيدينا فأعطنا أجرنا وأعفنا من العمل».

قال إبراهيم بغضب:

- أبو لهب الكلب.

قال أبو الذهب:

- زمان كان هناك أربعة خمسة أغوات في الميناء. واليوم صاروا خمسمائة ستمائة. انصرف كل أغا بمائة كما تنصرف الليرة بمائة قرش. مات الأغوات الكبار في الميناء ذات يوم، فخلفهم عدد لا حصر له من الأغوات الصغار.

ولاح في أقصى ممر الباخرة عاملان محاصّان يتقدمان باتجاه الرجال المجتمعين. كانا يبدوان منهمكين في حديث ما كانا يقهقهان ويدخنان باستهتار. وكانت خطواتهما وإشارات أيديهما تنضح بتعالي أولئك الذين اعتادوا أن ينظروا إلى أنفسهم كأصحاب الدار الأصليين. وأن كل ما عداهم أجراء أو غرباء.

واقتربا أكثر فأكثر. ومع اقترابهما كان حفيف أجنحتهما المفرودة يرتفع. بينما يميل حديث الرجال الخمسة إلى الخفوت حتى أنهم توقفوا عن الكلام عندما حاذياهم. وألقيا التحية من علٍ مواصلين مسيرهما المتغطرس تواكبهما أجنحتهما المنشورة لتملأ كل مكان تحل فيه.

وما إن ابتعدا حتى عادت للحديث روحه من جديد. وكان الخال أول المتكلمين. قال بارتباك ظاهر ولعله لاك السؤال كثيراً في فكره قبل أن يطرحه:

- ما هي الأفكار الهدّامة أحمد؟

وابتسم أحمد ابتسامة غامضة حافلة. وأصاخ إبراهيم بكليته لأنه اعتبر السؤال يعبّر تماماً عما يجول في خاطره. في حين سارع حيران إلى القول:

- أن تتكلم عن العور في مدينة العوران.

وأضاف أحمد وقد اتسعت ابتسامته وأشرقت عيناه بانشراح غير خافٍ:

- وأن تحمل في يدك مرآة في مدينتهم.

فضحك الخال وقال ببساطة متناهية كأنه يقرر بديهية من البديهيات:

- العور لا يحبون أن يروا إلى صورهم في المرايا.

وقال حيران:

- طيب إذن أيها الخال. إذا مررت بمدينتهم يوماً فضع يدك على عينك.

وقال الخال بالبساطة نفسها وقد استعان بيديه.

- لسوف أضع الاثنتين.

قال أبو الذهب:

- جبان.

قال الخال:

- لماذا؟ أنا لا قدرة لي على مقارعة العوران.

وقال أبو الذهب:

- ما رأيك أحمد؟

قال أحمد:

- لست أدري.

ثم ضاحكاً:

- من ناحيتي إذا مررت بها ذات يوم فلن أضع يدي.

نطق ذلك بنبرة تنطوي على الجد أكثر مما توحي به كلماته الظاهرية.

وعقب إبراهيم بعفوية ونزق:

- ولا أنا أيضاً.

وقال أبو الذهب:

- هيئا نفسيكما إذن لحرب مع العوران أنتما فيها الخاسران حتماً.

ثم استدرك ضاحكاً:

- وأنت يا حيران؟

قال حيران بتسليم لكن دون أن يبلغ حد اليأس:

- أنا من المغضوب عليهم. نقطتي حمراء.

وصمت لحظة. لكنه عاد فأضاف بهدوء:

- لقد دخلت مدينة العور غير مرة. وكانت بيدي مرآة باستمرار. وقد أُخرجت منها، مع مرآتي، مرة بعد مرة. إن مدن العور كثيرة في العالم. بل إنها أكثر مما تتصورون يا رفاق. وإذا قُدّر لي أن أدخلها مرة أخرى، فلست أظن أنني سأدخلها فارغ اليدين.

وتلاحم على شفتي أحمد طيف ابتسامة. بل إنه ابتسم فعلاً وهو ينظر إلى بعيد.

وصاح ملاحظ العمال وهو يطوف في ممرات الباخرة:

- مواعين القطن وصلت يا أولاد. شغيلة المؤازرة إلى العنبر (٥). شغيلة العنبر (٤) إلى عنبرهم.

وعلى جنب الباخرة الشرقي كان ثمة لنش يقترب بهدوء. يقترب ويناور، يقطر ثلاثة مواعين محملة ببالات القطن ليوزعها على عنابر الباخرة.

ومال أحمد على إبراهيم وسرَّ في إذنه شيئاً قبل أن ينطلق هذا الأخير وبقية عمال المؤازرة إلى العنبر (٥) فهمس له إبراهيم على أثر ذلك:

- حسناً! سألقاك بعد العمل في مقهى الانشراح.

ولفت انتباه أحمد اهتمام حيران بشيء ما في البحر. فلاحق نظرته. كان هناك نورس يحوّم فوق سطح الماء. وما هي إلا لحظات حتى انقضّ النورس وغمس رأسه في الماء ثم ارتفع وقد تدّلت من منقاره سمكة.

ولحظة تحرك أحمد وحيران ليتخذا طريقهما إلى عنبرهما قال حيران:

- ترى أين يلتهمها؟ أعني عندما يصيد نورس سمكة. هل يأكلها في الجو أم يمضي بها إلى الشاطئ ويأكلها هناك؟

قال أحمد ضاحكاً:

- لماذا لا تسأل النورس؟

فقال حيران ضاحكاً بدوره:

- ولكن النورس لا يتكلم.

قال أحمد:

- طيب. سأخبرك عندما سأصير نورساً. ولكن النورس، قبل كل شيء، لا يأكل إنما يبتلع ابتلاعاً. لقد فتحت فم نورس يوماً فلم أجد فيه سناً واحداً. وقد عجبت كيف يستطيع النورس وهو لا يملك أسناناً أن يبلع سمكة فمها ملآن بالأسنان.

فقال حيران:

- حسناً. أعتقد أن النورس يختار الأسماك الصغيرة لصيده.

وحالما شغر المكان الذي كان يشغله الأشخاص الخمسة قبل قليل برز علي أبو الندم من خلف منفذ هواء حديدي. وراح يلاحق أحمد وحيران بناظريه وهما يبتعدان. كان وجهه فحمياً كدراً كعادته وقد انفرجت شفتاه عن ابتسامة لها لون أسنانه الصفراء. وكانت عيناه تنضحان بالخسة والنذالة.

* * *

وفي الليل من نفس اليوم ذهب أحمد إلى مقهى الانشراح متأخراً. كان التعب بادياً عليه. وحالما استقر في مجلسه قال له إبراهيم بلهفة:

- لقد تأخرت أحمد. خير إن شاء الله.

فقال أحمد بإعياء:

كان أبي مريضاً. لقد أصيب ببرد فتدهورت صحته العامة.

قال إبراهيم:

- جئت في وقت كنت أتردد فيه بالنهوض للمرور على البيت والسؤال عنك. قلقت كثيراً حتى خشيت أن يكون قد أصابك مكروه. قلت لنفسي: «قم يا إبراهيم إلى البيت واسأل عنه». لم يكن من عادتك أن تتأخر عن ميعاد. لكنني فكرت إنني قد أسلك طريقاً بينما تسلك أنت طريقاً آخر فترددت. كنت أقول لنفسي باستمرار: «قد يأتي بعد لحظة». وهكذا كان يمضي الوقت دقيقة بعد دقيقة.

طلب إبراهيم من نادل المقهى أن يأتي بقدح شاي لأحمد. قال أحمد بعد أن تنهد:

- بعد العمل عدت إلى البيت لأستبدل ملابسي وألحق بك إلى المقهى كما اتفقنا لكنني وجدت والدي مريضاً ووصفة تنتظرني لأصرفها من الصيدلية. كانوا قد استحضروا له طبيباً هناك في البيت عندما رأوا تدهور حالته. قال الطبيب: إنها نزلة وافدة ويخشى من حدوث نكسة.

وضغط أحمد على صدغيه بإبهامه والوسطى من أصابعه. وفكر إبراهيم أن يسأله «معك دراهم أحمد؟». لكنه قال:

- هل صرفت الوصفة أحمد؟

وسحب أحمد إصبعيه فوق صدغيه بنفس حركته الضاغطة قبل أن يجيب:

- صرفتها.

أقبل نادل المقهى بقدح الشاي ووضعه على تربيزة حديد أمام أحمد، ملأ إبراهيم ملعقة صغيرة سكراً سكبها في الشاي ثم حرّكه وقال:

- اشرب أحمد. قد يفيدك قليلاً.

وأشعل له سيجارة من تبغه قدمها له. تناول أحمد السيجارة من إبراهيم. رشف رشفتين ثلاثاً من الشاي ثم أخذ نفساً عميقاً من سيجارته. فكر إبراهيم مرة أخرى أن يسأل «معك دراهم أحمد؟». لكنه قال في اللحظة الأخيرة:

- هل تحتاج إلى شيء أحمد؟

وواتته شحنة جرأة مفاجئة فأسعفه لسانه:

- أعني يلزمك دراهم؟

أخذ أحمد نفساً آخر من سيجارته. ونظر ملياً في وجه إبراهيم ثم انفلت في ضحكة صغيرة غريبة مباغتة.

- كلا. ليس الآن على الأقل.

ومسّ إبراهيم يد أحمد برفق:

- أنا أخوك.

ونظر أحمد في وجه إبراهيم. في عينيه. ثم اندفع يقول في انفعال وحزن:

- نحن لا نستطيع أن نفرح فرحاً صغيراً جداً. بعد الذي جرى اليوم قلت لنفسي: «طيب. على الرغم من كل ما حدث نستطيع أن نشرب كأساً صغيراً هذا المساء». لقد راودتني أفكار شيطانية. وكنت أخشى أن أمضي الليل بمفردي. كان معي ما يكفي لبضعة كؤوس. تصور نحن لا نشرب إلا عندما نكون متكدرين. قلت: لعلي أهتدي إلى ما ينبغي عليَّ أن أفعل ونحن نشرب

كأساً. لقد ارتبك فكري اليوم. اختلط كل شيء. انعجن. كنت في طريقي لأغير ملابسي كي أمر عليك ونمضي سوية إلى مشرب ما. كنت واثقاً أنّ الأشياء ستتضح أمامي بعد كأسين ثلاثة. ستنحل عقدة الألوان. سيبين الخيط الأسود من الأبيض. سيعود للأشياء بريقها وللرأس صفاؤه. لكن المرض كان بالمرصاد. كان أسرع. استأثر بدراهم الفرح. اللعنة. وغداً يأتي على طعام الأولاد الصغار. رفع المرض رايته الصفراء في البيت من جديد. شكّل ساريته. وأنت تعمل باليومية. تشتغل أياماً وتعطل أياماً. والأولاد في البيت يلزمهم كتب. يلزمهم ملابس وخرجيات. وأنت تعمل باليومية. تعطل أياماً وتشتغل أياماً. وفوق ذلك أنت مهدد بهذه الرزقة الصغيرة. بهذا العظم الذي بين يديك.

وتوقف عن الكلام. أخذ نفساً من سيجارته. حمل قدح الشاي إلى فمه ثم أعاده إلى موضعه بعد أن مس شفتيه وطرف لسانه ليس غير. وامتص نفساً آخر من سيجارته. كانت في عينيه حيرة ذلك الطفل الذي استيقظ فجأة ليكتشف خلو جيوبه من القروش الكثيرة التي جمعها، لتوه من الطريق في الحلم. وكانت في وجهه خيبته أيضاً. وود للحظة كما يفعل الطفل أن يغمض عينيه ليعاود الحلم أو ليهرب من الواقع الذي نطحه بقرنه.

قال إبراهيم:

- من كان يظن ذلك؟

ونظر في وجه أحمد. وحين لم يرَ في عينيه صدىً لما يقول أوضح مراده قائلاً:

- من كان يتصور أن يصدر ذلك عنهم؟

قال أحمد بمرارة:

- إنهم مدهشون. الناس. أبواب موصدة في وجهك لا تعرف ما وراءها. لكن في لحظة. في يوم.. زيبك. ينفتح الباب. فإذا أنت ترى عجباً.

وقال إبراهيم بعد أن أشعل سيجارة:

- كنت أحس. زمان. لست أدري كيف، أنهم كانوا كباراً وكانت كلماتهم صغيرة.

وقال أحمد مصمماً وطعم المرارة واضح في فمه:

- الناس أسرار. مفاتيحها الزمن. أو لعله المركز. لست أدري.

ورشف إبراهيم رشفة شاي من قدح أحمد. صدرت من الخلف ضوضاء. أصوات مختلطة بخبط على طاولة. تلفت كلٌ من أحمد وإبراهيم إلى الوراء. كان هناك زبونان يلعبان الورق. أحدهما ضخم الجثة. وآخر حليق الرأس كث الشارب صغير الجسم. وكان يبدو من الورق الذي يحملانه بأيديهما ومن طريقة لعبهما عموماً طابع الباصرة. وكان يلوح من حركاتهما الناشطة أنهما في سباق في شوطهما الأخير الذي سيقرر من منهما الفائز. وكان النادل في الجانب الثاني من المقهى يهيئ صحافه وفناجينه وكؤوسه وغلاياته. يغسلها ثم يجففها ويعلقها في موضعها استعداداً للإغلاق.

قال أحمد وقد انفلت بصره صوب النادل وراء الوجاق:

- أنا لا أشكو. لكن مع ذلك يبدو لي أن القضية غير عادلة.

قال إبراهيم:

- ما هو غير العادل أحمد؟

قال أحمد:

- إن يبقينا المحاصّون خارج المحاصّة.

قال إبراهيم بسخرية:

- وافرح في عبك إذا لم يكرهونا على ترك الميناء كما فعلوا مع أبي حنفي.

وأبو حنفي رجل في الأربعين كان عاملاً محاصّاً. يجهل القراءة والكتابة. عنده خمسة أولاد شاء أحدهم أن يمرض في ثاني يوم عيد الأضحى، وكان يوم عمل لكثافة البواخر المتراكمة المرابطة في الميناء. ولم يستطع أبو حنفي العمل كالآخرين في ذلك اليوم لانشغاله بين الطبيب والبيت والصيدلية. فما كان من رئيس فرقته إلا أن عاقبه عقاباً غريباً لتخلفه عن العمل. لقد جعله يوقع، بالحيلة، على ورقة بيضاء ثم عمد رئيس الفرقة من

ناحيته إلى ملء الورقة بطلب يرجو فيه الاستقالة من العمل. وحين أدرك أبو حنفي اللعبة بكى كثيراً. لكن بعد فوات الأوان.

قال أحمد بإشفاق:

- مسكين. كنا في الجيش وقت الحادثة. يقولون إنه لاب كثيراً خارج الميناء. وعندما لم يجد ما يعمله هناك، عاد ليعمل بالمياومة.

قال إبراهيم:

- من يعمل في الميناء يوماً لا يرغب أن يعمل في مهنة أخرى.

قال أحمد:

- الميناء يغوي كالمرأة. إنه آسر مع أنه قاسٍ وقاتلٍ أحياناً.

ومرت فترة صمت لم يسمع فيها سوى احتكاك الصحاف والكؤوس والملاعق في الداخل.

قال إبراهيم بأسى:

- يبدو لي أن المحاصّة صارت شيئاً بعيداً عنا.

قال أحمد وهو ينقل بصره بين المتبارين بالورق. والنادل الذي بدأ يجفف المجلى بخرقة بعد أن انتهى من ترتيب غلاياته وفناجينه وصحافه وأقداحه:

- أو تعتقد ذلك؟

قال إبراهيم:

- ما رأيك أنت أحمد؟

قال أحمد:

- لست أدري.

وانصلبت عيناه مرة ثانية على المتباريين اللذين راحا يحسبان نقاطهما وعامل المقهى.

وكرّر:

- لست أدري. يبدو لي إننا لم نقم حتى اللحظة بعمل جاد من أجل المحاصّة.

وأعلن أحد المتبارين انتصاره بجلبة وضوضاء وراح يسخر من خصمه ويزهو. كان المنتصر الرجل الحليق الصغير الجسم. وكانت مظاهرة الفوز على الرجل الضخم الذي انكمش في مقعده مثيرة للضحك.

قال إبراهيم:

- انتصر الحليق.

فهز أحمد رأسه موافقاً. ونهض المتباريان واقفين استعداداً للانصراف. ومن الجهة الثانية طقطق النادل بمفاتيح المقهى متعمداً.

قال أحمد وهو ينهض عن كرسيه:

- أعتقد أنه ليس هناك سوى سبيل واحدة.

ونهض إبراهيم بدوره. فأمسى الرجلان واقفين كليهما وجهاً لوجه وعيناً بعين.

وتابع أحمد:

- غداً إبراهيم. يبدو لي أنه يتعين علينا أن نفعل شيئاً. ينبغي أن نضع حداً لذلك. سوف أطلب جدياً من أبي لهب أن يجعلنا محاصّين.

ومن داخل المقهى تقدم النادل بيده مفاتيحه المصلصلة، وقد ألقى فوق كتفيه سترة الخروج.

* * *

ما الخبر؟

ما الحكاية؟

هكذا راح يتساءل المهرولون الذين جذبهم التجمع. بينما كانت الحلقة تتكاثف باستمرار في الساحة رقم (٥) من منطقة المرفأ.

كان الوقت صباحاً والسماء واطئة. وكانت برودة الجو قد جمدت الحياة فبدا الركون على كل شيء. على الحمالين وسائقي الناقلات وعمال الموازين

والكتبة والمأمورين والرافعات والمواعين والقاطرات والسفن، وبدا كل ما يتحرك وكأنه ليس راغباً في التحرك.

وكان في وسط الحلقة خمسة رجال لم يلتقوا مصادفة. كان هناك أحمد وإبراهيم من ناحية. لقد بحثا عن أبي لهب منذ الصباح الباكر. انتظراه في المكتب. لكنه لم يحضر. «ربما عنده سهرة في البحر». قال أحمد وقتئذٍ فرد إبراهيم «عنده سهرة في البحر أم في البر؟». كانت لعبارة «عنده سهرةٌ في البحر» قصة.

كان أبو لهب قد درج منذ بعض الزمن على التأخر في الأصباح أحياناً، تاركاً أمر العمل وتوزيعه لكاتب الفرقة. وكان تأخره هذا مثار تعليقات بين العمال بأن أبا لهب قد بطر فبدأ يلبط النعمة بقدمه. وقد ردّ أصدقاؤه في حينه بأن رجلاً مكافحاً كأبي لهب محال أن تبطره النعمة لأنه خرج من قلب الطبقة العاملة. ولولا المصادفة لبقي تأخره، في الأصباح وتغيبه عن العمل، موضع قيل وقال بشأن البطر والنعمة. ولربما ذهب العمال، من يدري، في تكهناتهم مذاهب نأت بهم عن جادة الحق والصواب.

لقد حدثت ذات صباح مشادة بين عاملين من عمال الفرقة سُحبت فيها المدى وكاد يسقط ضحايا. وقد تأزم الموقف حتى عجز كاتب الفرقة عن حله مما اضطره إلى استدعاء أبي لهب من البيت لفض المشكل. فقالت زوجة أبي لهب للرجل الذي جاء في طلب زوجها: إنه لم يقض ليلته في البيت لأن عنده سهرة في البحر. وضحك الخبثاء حين نقل العامل ما قالته الزوجة وغمزوا معلقين: «عنده سهرة في البحر أم في البر؟». ذلك أنه كانت قد سرت، منذ وقت لا أحد يدري متى بدأ بالضبط، لكنه بالتأكيد ليس قبل أن يصبح أبو لهب رئيس فرقة، سرت شائعة بين العارفين ببواطن الأمور أن لأبي لهب عشيقة يتردد عليها. ومنذ ذلك الحين درجت عبارة «عنده سهرة في البحر» على ألسنة بعض العمال يعلقون بها على العامل المتأخر في الحضور إلى العمل.

وحين وزع العمال قبل ساعة من الزمن ونقلت الدفعات الأولى إلى البواخر تخلف أحمد وإبراهيم. لقد استغرب حيران تصرف أحمد آنذاك فسأله عن سبب تخلفه هو وإبراهيم. فقال له أحمد: إنني أنتظر شخصاً.

ولم يبد على وجه حيران أو أبي الذهب أو الخال أية إمارة تدل على الاقتناع. بل لعله قد تلامح على وجوههم ظل من الشك لحظة سأل حيران أحمد مرة أخرى: «وماذا بشأن إبراهيم؟». فرد أحمد عندئذٍ مازحاً: «ليؤنسني كي لا أشعر بالملل».

وفي الناحية الثانية من الحلقة كان هناك أبو لهب. كان وجهه متعباً عليه تلك الآثار التي تنفرد بها الوجوه التي أضناها الإفراط والسهر الطويل. وأما الرجلان الآخران فمن عمال الفرقة وفتوتها. وكانا يظهران مع أبي لهب في كل المناسبات والأمكنة. وكانت الحاجة لوجودهما تتجلى أكثر ما تتجلى في الظروف الحرجة. كانا يبدوان وكأنهما ضرورة لا بد منها. لقد وقف أحدهما عن يمينه والآخر عن يساره. قال أحمد ضاحكاً بعد أن ألقى تحية الصباح:

- أرى أنه قد صار لك ملاكان حارسان.

فرد أبو لهب مازحاً:

- وجود الشياطين يستدعي اصطحاب الملائكة.

قال أحمد:

- ولكن المثل يقول العكس.

قال أبو لهب:

- ليس كل ما تقوله الأمثال صحيحاً.

وفكر أحمد أن يقطع هذه المقدمة. كان يرى أنها تذهب به بعيداً عن غايته وأن أبا لهب خليق بأن ينفق النهار بمثل هذه المداورات. «ليس هناك من هو أشطر منه في هذا الميدان». وقال أيضاً: «كان ذكياً دائماً وطيباً».

قال أحمد:

- دعنا من الأمثال يا ريس. لنتركها جانباً. ماذا حدث بشأننا؟.

رد أبو لهب:

- لا جديد.

قال أحمد:

- لماذا لا جديد؟ لقد قدمنا استدعاءً منذ بضعةِ أشهر.

وخطف نظرة من أبي لهب ما لبثت أن انطلقت من تلك النقطة في رحلة شكلت قوساً شملت الحوض والسفن والرجال والرافعات والمواعين والبضائع بما فيها الخشب والحديد وزجاجات الأحماض والخيش، وكل ما يمكن أن يخطر. ثم عادت فاستقرت عليه ثانية.

قال أبو لهب:

- انتظر حتى يُبت في الأمر. الرأي للشركة.

فرد أحمد على الفور:

- راجعنا الشركة يا ريس. فقالت: الرأي للفرقة.

وقال إبراهيم بلا تمهيد وهو ينظر في وجوه المتحلقين الأقرب منه، الذين استطاع أن يجذب انتباههم نحوه:

- لقد أنهينا الخدمة الإلزامية منذ بضعة أشهر. وها قد مضت بضعة أشهر لا نفعل فيها شيئاً حقيقياً. إنَّ المرء لا يمكن أن يظل فترة طويلة بلا عمل.

سأله أحد العمال المياومين:

- هل كانت الخدمة صعبة؟

أجاب إبراهيم:

- ليس كثيراً. لكننا ونحن هناك اشتقنا إلى العمل في الميناء. كنا نعد الثواني.

نظر أبو لهب حوله. كان هناك عدد كبير من عمال المياومة. حسناً يجب أن يكون حذراً في معاملته لأحمد. إنّ أي استفزاز قد يستثير غضب المياومين.

خطر ذلك بسرعة لأبي لهب. فقال برفق:

- أنتما تعملان باليومية. طيب. لماذا لا تستمران في ذلك. لماذا لا تعملان باليومية؟

فتساءل أحمد:

- نعمل باليومية! لماذا؟

- هناك تضخم في الفرقة.

قال أبو لهب دفعة واحدة. لقد همس لنفسه: «ماذا يجدي الهروب؟ الآن وليكن بعد ذلك ما يكون. قل له الحقيقة. ولكن بلطف. قل له إنك لا تريده في الفرقة. هيا قبل أن تفوت الفرصة. ماذا يوقفك؟ هل تخشاه؟ ولكن أحمد ليس كالآخرين. كلا. كلا. كلهم بدأوا هكذا. ثم انتهوا إلى عمال مياومة».

وقال إبراهيم:

- المياومون لا يجدون عملاً دائماً. إنهم يغربلون الهواء معظم وقتهم ويسبحون بحبوب القمح على الأرصفة.

وفي الناحية الثانية رد أحمد على أبي لهب:

- لسوف أحمل رزقي معي إلى الفرقة.

وهمس أبو لهب لنفسه: «أهو ذنبي إذا كان بعيداً عند تشكيل الفرق. طيب. بدأت الفرقة بثلاثين عاملاً محاصّاً. ثم ماذا؟ واحد وثلاثون. اثنان وثلاثون. ثلاثة وثلاثون. أربعة وثلاثون. خمسة وثلاثون. ستة وثلاثون. سبعة وثلاثون. ثمانية وثلاثون. تسعة وثلاثون. أربعون. فكر قبل أن تفتح الباب من جديد».

قال أبو لهب:

- كيف؟ أنت ترى أن الموسم كان رديئاً هذا العام.

فرد أحمد:

- مهما يكن. هناك ما يتلهى به عمال المحاصّة دائماً. فتحت أضراسهم ما يلوكونه باستمرار. لقد نزلت إلى الميناء يوماً بعد يوم. ولكني لم أجد ما أعمله بشكل دائم. إنّ عامل المياومة أشبه بالصياد يلقي صنارته

ثم ينتظر وينتظر حتى تأتي لحظة يتساءل فيها: لماذا نزل إلى البحر؟ هل أقفر من السمك حقاً؟ هكذا إنّ شعور عامل المياومة شعور إنسان يقتعد الرصيف العام.

ونفذ أحد عمال المياومة برأسه من إطار الحلقة وقال:

- المرفأ ملك أُم المحاصين.

وغمز عامل محاصّة محاولاً أن يخفف الضغط المتواتر:

- وأمك ملك المحاصين.

وعقب آخر ملفع الوجه:

- إن أمه الكريمة لا تشتغل باليومية. بل تشتغل مقاطعة.

وقهقه البعض. وأما الآخرون الذين يملكون نظراً أكثر نفاذاً. أما عمال المحاصة القدماء الذين يعرفون المتقابلين، فقد راحوا يرقبون تطور الحوار وينظرون إلى الأمور نظرة أخرى.

قال أبو لهب:

- أنت تعلم. لم تعد الأجور زهيدة كما كانت في الماضي.. إننا ندفع لعامل اليومية أجراً طيباً. وساعات العمل أمست أقل.

«هكذا إذن؟ إنكم تدفعون أجراً طيباً». قال أحمد في نفسه ساخراً. ووخزته لهجة أبي لهب المتعالية. وانتصب الحاجز فجأة. وشعر أحمد بالمرارة. وحاول أن يتخطى هذا الحاجز الذي انتصب أمامه على غير توقع رغم إحساسه القديم به، وبأنه يزداد ارتفاعاً لحظة بعد لحظة.

ونفذ برأسه من بين الأسلاك وقد تمنى في سره أن يكون ما قدّره ليس إلا وهماً:

- تعلم أن العمل اليومي لم يعد يلائمني.

وقال إبراهيم:

- إن والده ليس على ما يرام.

قال أحمد:

- ربما كان ذلك مجدياً بعض الشيء في الماضي، لأن الحال كانت غير ما هي الآن. ولأنه لم يكن هناك طريق آخر.

فرد أبو لهب:

- ولكن العمال المياومين يتقاضون أجراً خيالياً ولا يفضلهم المحاصّون كثيراً.

وبلل أحمد شفتيه المتيبستين. لقد أمسى الحاجز حقيقة. وأحس ببرودة المعدن وصلابته:

- لقد نزلت إلى المرفأ. نزلت. فماذا كانت النتيجة؟ يوم عمل هنا بعد ثلاثة أيام تعطيل. ثم يوم آخر هناك. إن إحساسي بالتفاهة يتفاقم. لكأنني إنسان سائب. إنني أحس.. ماذا أقول؟ ليس هناك ما يدفئ ظهري من الخلف. أو يحميه. إنني أريد أن أعمل بين رفاقي القدماء. ينوبني ما ينوبهم. ويصيبني ما يصيبهم.

«يا له من يوم شتوي شاق يا فارس. ولكن العمل أصبح لنا. كل المدخول في نهاية الحفنة. ليرات ملء اليدين. ومحاسب متواضع يعمل كشوف الحساب وسيكارته تحترق بين شفتيه. ولا يلاحق حبات الزيتون في طبق قيشاني لامع. آه كم تمنيت أن أتناول طعامي، في بعض اللحظات، في مثل ذلك الطبق». هكذا حلمت وأنا أقوم بنوبة حراستي في الليالي. إن كشك الحراسة في الليل يضفي على الأشياء في الخارج سحراً خاصاً ويمسي كل ما لا تملكه طريفاً وبراقاً.

وخرج أحد الملاكين الحارسين عن صمته. أطل من وراء قناعه:

- ما شأن الزيتون في ذلك؟

وابتسم أحمد في ألم وحدث نفسه «إذا لم يعاصر طبق الزيتون فكيف يجوز له أن يفضلني في المحاصة؟».

وقال إبراهيم:

- إن لطبق الزيتون حكاية.

وتجاهل أبو لهب إشارة أحمد. وقلب يده في الهواء:

- ولكن الحلم غير الواقع. لقد حلمت يوماً أنني سأصير ملكاً. إن الأمر سواء عملت بين أناس تعرفهم، أو لم تعرفهم. فالعمل واحد.

فرد أحمد مغتاظاً:

- نعم إن العمل واحد. ولكنني لا أريد أن أعيش على فضلات المحاصّين. إنه ليس من العدل أن أعمل باليومية. يبدو لي إنني قديم قِدم الأحجار المرصوفة في هذا الميناء. إنه ليس من العدل أن يأكل البعض الدجاج.

ونظر أبو لهب إلى وجوه المياومين. لقد رأى، أو هكذا خيل إليه، أنّ زهوراً بدأت تتفتح في عيونهم. وودّ لو يضرب أحمد على فمه. قال أبو لهب وقد عاد إلى المناورة:

- دعك من الدجاج الآن وسأسوي الأمر في المستقبل سأسوي الأمر مع الشركة عندما تتحسن الحال.

وهمس أحمد لنفسه: «ها هو يعود إلى نغمة الشركة مرة أخرى. إنه لا يريد». ثم قال بصوت عال:

- ولكن الشركة لا يد لها في هذا الأمر. إن قضية تسميتي عاملاً محاصّاً هي مسألة تقررها الفرقة. أعضاء الفرقة.

ونظر إلى دائرة الوجوه حوله فكان بعضهم من رفاقه القدماء. ثم استقرت عيناه على فارس.

فغض هذا بصره وكأنه يقول له: «أنا أقبل من ناحيتي. ولكن ماذا بشأن الآخرين؟».

وتعلّق أبو لهب بالطوف من جديد:

- إذا كنت تتصور أن الأمر كذلك. فالمسألة ليست في صالحك. إن الشباب لا يريدون.

فرد أحمد:

- كيف؟ إنه لا يحق لأي منهم أن يرفض انضمامي إلى الفرقة وتسميتي عاملاً محاصّاً.

وتقلقلت أرجل الواقفين بفعل التوتر أو لتبتعث فيها شيئاً من الدفء.

- ولكن ما قصة طبق الزيتون؟ دعونا نسمعها.

تساءل الملاك الحارس. وقد قصد إلى تمييع الجو حين أحسّه يتجه لغير صالح رئيسه.

قال أحمد:

- لماذا لا تسأل ريسك؟ إنه يعرفها جيداً.

قال إبراهيم وهو يحاول أن يلفت نظره من حوله:

- إن والده مصاب بالشلل النصفي. وليس في العائلة قادر غيره.

واندفع عامل مياومة ملثم بلفحة حمراء تقطعها خطوط بيض:

- إنها حكاية الملتزم السابق مع العمال القدماء. من كان يتصور أن ذلك الكابوس سيزول، هو وكل الجبابرة الآخرين. إنني أذكره الآن في ذلك الدكان الصغير الخرب الذي اتخذ منه مكتباً، ومئات العمال في الخارج ينتظرون دفع أجورهم. والسماء تنخل فوقهم مطراً. بينما الملتزم في الداخل وراء طاولته يلاحق في طبق قيشاني حبات زيتون لا تريد أن تعلق في شوكته. يا لها من أيام.

وأخذ أحمد نفساً من الهواء ملأ به صدره. وأحسّ بذلك الدوار الذي يستشعره البحار حين تلامس قدماه مركبه القديم. إحساس ممتزج برائحة القنب والقار المحروق والأسمدة الكيماوية والجلود والبطاطا والحبال والنباتات البحرية المتفسخة وكل الأشياء الجديدة والقديمة. الموجودة وغير الموجودة التي لا يزال أثرها عالقاً في الجو. المتعفنة وغير المتعفنة.

واقترب أحمد من الحاجز من جديد:

- هل تذكر يوم عطلّنا الملتزم؟ لقد ذهب الجميع في ذلك اليوم إلى العمل. ماذا كان اسم الباخرة؟ لم أعد أذكر. مضى الجميع ما عدانا. أنت وأنا. «أنتما تسوسان العمال. عناصر هدامة». هكذا كانت حجته لتعطيلنا. ولم يرجعنا إلى العمل إلا بشفاعات بعض الناس الطيبين.

وهمس أبو لهب لنفسه: «أوه ما أخبثه. لماذا ينكأ جراحاً قديمة؟ ثلاثون. واحد وثلاثون. اثنان وثلاثون والحصة الواحدة تصبح من حق اثنين.. إذا استمر ينقر على هذا الوتر. فقد.. فقد..»

وارتفع صوته:

- هيا أحمد. اعمل باليومية وسأدبر الأمر في المستقبل.

فردَّ أحمد:

- لقد سئمت الوعود. خمسة شهور مضت وأنا أعيش بالأمل. أخشى إن قبلت عرضك اليوم.. كلا.. كلا.. إن المرء يبدأ بمقدار صغير من الذل. ثم.. ثم..؟؟ ينبغي أن نرفض ما هو غير عادل منذ البداية. يبدو لي أنني قد وصلت إلى تلك النقطة التي يصبح بعدها الشعور بما هو حقي أمراً صعباً. اليوم وإلا سيغدو الأمر مستحيلاً.

قال أبو لهب: - ولكن الشباب لا يريدون.

قال إبراهيم لمن حوله:

- إن المرضى بالشلل لا يعيشون طويلاً. لكن على كل حال قال الطبيب إن ما يحتاج إليه هو...

وضربت القدمان الأرض. الواحدة بعد الأخرى وارتفعتا في الهواء تحاولان تسلق الجدار. قال أحمد:

- مّنْ مِن الشباب لا يريد؟ إن أياً منهم لا يملك هذا الحق. إن فرق المحاصّة حق مشاع لكل من انتظم في ذلك الصف الطويل تحت المطر..

وقال الرجل الملثم باللفحة الحمراء المخططة:

- ثلاثة اتفقوا على اقتناص الدجاج. أحدهم اقتنص فعلق، واثنان تركاه عالقاً وهربا بالدجاج.

ونظر إليه الملاكان الحارسان شذراً. وحلّق نورس فوق صفحة الماء. ثم غطَّ وارتفع حاملاً بمنقاره سمكة.

قال أحمد:

- لقد تشكلت فرق المحاصّة عندما كنا نؤدي الخدمة الإلزامية. أنا لم أهرب من المعركة. هناك من اشتغل سمكرياً، وآخرون في أعمال البناء. كما هرب البعض للعمل في مرفأ بيروت. لقد وضعت السلطة يدها على العمل في المرفأ وطردت الملتزم القديم. وأمسى العمال أنفسهم الملتزمين. ليس من العدل أن يُغلق الملتزمون الجدد فرق المحاصّة في وجهنا. نحن لم نقاتل من أجل هذا.

وحاول أحمد أن يوضح لأبي لهب:

- إنني لن أقاسم أحداً رزقه. إن كمية العمل لن تكون هي هي. كلما ازداد شحنهم للبضائع.

وعقب عامل:

- أو تفريغها.

وطاشت القدمان في الهواء ولامستا الجدار. ثم بدأتا تتزلقان عندما ردّ أبو لهب:

- إن قراراتنا بالأكثرية. لقد أجمع العمال على إغلاق الفرقة في وجوه الجميع. رأوا أنه ينبغي عليهم إغلاقها. إنهم يخشون أن تصبح أكبر فأكبر. وحينئذٍ لن يجدوا ما يعملونه.

قال إبراهيم وهو ينظر إلى وجوه المتحلقين:

- ذكر الطبيب أنَّ الراحة والدواء يلزمان لشفائه. إنه لا يستطيع أن يترك أباه يموت بين يديه دون أن يفعل شيئاً لإنقاذه. إنه لجحود إن لم يفعل شيئاً من أجله.

ونظر أحمد في عيون رفاقه القدماء. وبسط جسوراً وشرع يحاول عبورها:

- فارس هل تذكر ذلك الصباح عندما قمنا بإضرابنا الكبير؟ ثلاثة عشر يوماً. كيف قدرنا على الاستمرار. نحن أنفسنا لم نكن نتصور ذلك. كان الأمر في البداية ليس جدياً تماماً. ثم بدأ البعض بمساعدتنا. هناك دائماً

من يساند العمال. ليس عليهم إلا أن يبدأوا العمل. ذلك الصباح.. إنني أذكر الحادثة وكأنها وقعت البارحة. اليوم. ذلك الصباح كان المضربون قد تجمعوا في مقهى النجمة الزرقاء بعد أن قاموا لمظاهرة في المدينة. وكنا أنت وأنا وعبدو وكريم وآخرون جالسين إلى طاولة نستعرض ما ينبغي علينا عمله في الخطوة التالية. ذلك الصباح كان العجوز يتقدمهم والرشيش بيده. كان الأبناء والأحفاد والأقارب حملة المسدسات خلفه. ذلك الصباح سال الدم وفرَّ البعض إلى داخل المقهى، بينما صمد آخرون وأخذوا يقذفونهم بالكراسي. تصوّر بالكراسي. إني لأتساءل ماذا كان يمكن أن يفعل العمال لو كانوا مسلحين ذلك الصباح. إن المرء ليجهل حقاً مدى قدرة عمال الموانئ عندما يثورون.

وتوقف أحمد مستطلعاً. فردّ فارس بارتباك:

- أنا من ناحيتي لا اعتراض لدي.

ومدَّ أحمد جسراً وبدأ يعبر:

- صطوف! أنت تذكر؟ لا بد أنك تذكر يوم مضينا إلى دار الملتزم. كانت جيوبنا ملأى بالديناميت. لقد درنا دورتين. كان ينبغي أن نرد عليهم. وتفحصنا المكان. ثم بادرنا إلى العمل بسرعة.. بوم.. بوم. واهتزت الدار.. بوم.. بوم.. وانتشر الذعر. لم نشأ إيذاءهم وقتذاك وإنما قصدنا تخويفهم.

وأجاب صطوف وقد حوّل بصره بعيداً عن عيني أحمد:

- لو ترك الخيار لي. لو تُرك الأمر لي.. ولكنني لست وحدي.

وقال إبراهيم وهو ينظر إلى وجوه من حوله:

- للمحاصّين صندوق توفير. باستطاعة أحمد أن يستفيد منه لو كان عاملاً محاصّاً. وللمحاصّين إجازات بأجرة. الإجازة المأجورة شيء جميل. إذا توفرت الإجازة وتوفر المال استطاع أحمد أن يعتني بأبيه أكثر.

وخطا أحمد فوق جسر جديد:

- في السجن. أنت تذكر يا محمود في السجن. لقد قبضت علينا السلطة بسبب التفجير. كانت السلطة في صفهم وقتذاك. قبضت علينا وتركتهم أحراراً مع أنهم هم الذين بادروا إلى إطلاق الرصاص.

وقال إبراهيم وهو لا يزال ينظر في وجوه عمال المياومة البائسة التي بدأت تتألق:

- ولكن أباه سيموت لأن أحمد ليس عاملاً محاصاً. ولأنه لا يستطيع أن يأخذ شيئاً من صندوق التوفير. وليس لديه إجازات مأجورة بينما أبو لهب..

وتوقف إبراهيم لحظة كأنما تذكر شيئاً ثم تابع:

- ولكن أبا لهب لم يعد يحس بحاجة إلى الآخرين لقد نسي أنه كان عامل مياومة.

وبدا الاهتمام في عيون عمال اليومية. وحل الملفعون منهم كوفياتهم كي يسمعوا على نحو أفضل. والتفت إبراهيم:

- أبو لهب! هل حقاً إنك اشتريت داراً وبراداً وغسالة؟ طبعاً إن الدار الجميلة تحيط بها حديقة يلزمها براد و«هوفر». طوبى لزوجتك أنها لن تشعر بعد بألم الغسيل. وسترق يداها وتنعمان...

في حين كان أحمد يتابع في الناحية الأخرى:

- هناك ضربوك.. عذبوك. كان باستطاعتك أن تدلهم على الفاعل. لماذا لم تفعل؟ لماذا خصصتني بآخر سيكارة كنا نملكها؟ ما الذي حدث لك؟ ما الذي حدث لكم جميعاً؟ أنا أخوكم.

وردَّ محمود:

- ولكننا أقسمنا يا أحمد. كنت في الخدمة في ذلك الحين. ليس من أجلك فقط. وإنما من أجل الآخرين أيضاً.. الكل.. كان ينبغي أن نفعل ذلك. لقد بدأت الفرقة بثلاثين. ثم صارت أربعين. كان من الممكن أن تصير مئة.. مئتين. أنت قدرك ذلك.

وواصل إبراهيم قائلاً وقد جعل يقترب من أبي لهب وذراعاه ممدودتان أمامه:

- ستصبحان لطيفتين. وستزول الشقوق القديمة منهما. وستعرف مدى الفائدة التي يجنيها المرء من غسالة كهربائية عندما تطوقك يداها هكذا.

وانقض عليه محاولاً أن يلف يديه حول عنقه. ولكن الملاكين الحارسين حالا دون الوصول إليه. أما أحمد فسرعان ما صاح به قائلاً حين أدرك قصده:

- بل دعه لي.

وهجم عليه بدوره. فسدد له لكمتين ثم تراجع خطوتين ثلاثاً. لقد فكّر بسرعة: «لست بمثل قوة أبي لهب لكني أستطيع أن أترك في وجهه علامة. بل هو أقوى مني إذا تماسكنا بالأيدي. أما أنا فأسرع منه وأنشط». كان لأحمد تجربة بأمثال هذا النوع من القتال. وقد خاض معارك كثيرة في حياته في الحارة وفي المدرسة، صبياً، وحتى عندما صار شاباً، إنْ في الجيش أو خارجه. لم يكن ميالاً بطبعه إلى العراك والمشاكسة. لكنه كان يعرف كيف يقاتل إذا فُرض عليه القتال. عندما كان صغيراً. كان أبوه يقول له دائماً «لا تبدأ عدواناً على أحد. لكن حذار أن تأتي في يوم من الأيام إلى البيت وأنت تبكي أو تنزف من جرح». وقد لازمه هذا المبدأ طوال حياته. وعلى هذا الأساس كان يخوض معاركه إذا لم يكن منها بد. لم يكن يتبع في معاركه نمطاً واحداً من القتال. بل كان يتصرف حسب الموقف وحسب الخصم. كان عقله يعمل بسرعة غريبة قبل لحظات من بدء القتال وحتى خلاله أيضاً. ولم يكن يرتبك إزاء أي طارئ يستجد وهو يقاتل. كان يروز خصمه خلال ثوان. وعلى ضوء استطلاعه السريع كان يتصرف. وكانت له آراؤه في القتال «لا تلتحم مع من هو أقوى منك. بل اضربه ثم ابتعد عنه لتضربه ثانية عندما يتقدم نحوك». وكان يرى أنه مهما كان الخصم قوياً فأنت تستطيع بالمفاجئة أن تترك في وجهه شيئاً. لأن الناس يحكمون بعد ذلك عليك أو عليه بقدر ما في وجهه أحدكما من آثار. وانطلاقاً من هذا المبدأ انقض على أبي لهب فكال له لكمتين ثم ابتعد عنه.

وحصل ما توقع بالضبط. فبعد أن أفاق أبو لهب بعد لحظة من صدمة الهجوم المفاجئة هاج وماج وهجم على أحمد كالثور الجريح. لكن أحمد كان، طبقاً للخطة الموضوعة، في انتظاره. وكان قد اختار هدفه بسرعة.

هناك في صفحة الوجه تماماً، كان الأنف بارزاً بارزاً حتى أن برزوه كسف كل شيء آخر عداه. كان فيه شيء يغريه ويشير له كأنه فنار. ولم يكن هذا الشيء وليد اللحظة. لكنه كان يحس به منذ زمان. ولم يكن يعرف له اسماً أو وصفاً، وإنما اكتشفه وهو يقترب منه. كان يناديه ويصرخ في وجهه. هذا الشيء الذي لا اسم له ولا وصف. كان يجري كالأعمى نحو حتفه. وفي لحظة تلامح كالبرق في صفحة الوجه. وفي لحظة مرقت يمنى أحمد، محملة بكل الغضب والقهر، كالبرق إلى ذلك الشيء لتخرسه. ومرقت اليسرى، ولكن إلى جانب الوجه. وانبثق الدم من الأنف. من الفم. ليس مهماً كثيراً. لكن مع انبثاقه انطفأت تلك الجذوة المتقدة في الوجه. خرس ذلك الشيء الكريه. وارتد أبو لهب خطوة إلى الخلف وتلّمس أنفه ثم نظر في يده. وارتد أحمد إلى الوراء ثلاث أربع خطوات. وأدار جسمه نصف دورة إلى اليمين ونصف دورة إلى اليسار. وأجال بصراً سريعاً فيما حوله. ورأى فارساً ومحموداً وعمالاً آخرين يتأهبون لمؤازرة رئيسهم. هو ذا قد أصاب هدفه. بعد ذلك ليس مهماً كثيراً أن يصاب هو. بل لعله لا يستطيع أن يدفع الإصابة عن نفسه. لكن عليه أن يجعلها أقل ما يمكن أن تكون. وهجم عليه محاص فكال له لكمة جعلته يصرخ من الألم، ويسب:

- تضرب بوكس يا كلب.

جذوة الأنف انطفأت. طريقة لا تخطئ. لا تلتحم مع من هو أقوى منك. قال لنفسه. بل اضربه ثم اتركه يتقدم منك. سيجري نحوك بخط مستقيم كالأعمى. وأنت ههنا على بعد أربع خمس خطوات تنتظر وترقب خصمك كأنك في برج. وهو يقترب مُلَهوْجَاً منفعلاً مشتتاً. وهجم عليه فارس. فانتبه لهجومه. حتى أنت يا فارس! لماذا؟

وصرخ فارس:

- أحمد. هل جننت؟

ولكن أحمد كان في شاغل. لم يكن يصغي. كان يلتفت يميناً ويساراً وإلى الوراء كما ينظر إلى الأمام. لم يكن فارس وحده هو الذي يتقدم. بل كان

هناك أبو لهب ومحمود وآخرون. وأعمل عقله بسرعة. إنّ خير ما يفعله المرء عندما يكون وحيداً وخصومه كثار أن يقاتل وظهره إلى الجدار. ولكن أهو وحده حقيقة؟ منذ قليل كان معه إبراهيم. ولكن أين إبراهيم الآن؟ ولا يمكن الاعتماد عليه. ماذا حدث له؟ آه حسناً إنه لا يزال هناك في عراك مع الحارسين. فقط لو تقدم أبو لهب وفارس ومحمود والآخرون واحداً بعد الآخر. لكنهم هجموا دفعة واحدة. لا مفر إذن من أن يقاتل وظهره إلى جدار. ولكن لا جدار يحميه هنا على الرصيف سوى جدار مستودع التخزين إذا لم تخنه ذاكرته. فليتراجع إذن نحوه. والتفت ليتأكد من وجوده. كان جدار المستودع هناك، ولكن كانت تفصله عنه مسافة. آه لو يستطيع الاحتماء به لكان إذن أصاب منهم عدداً أكبر. ولكن المسافة بعيدة ليبحث إذن عن شيء آخر. صندوق بضاعة مثلاً. ولكن لا صندوق أيضاً. طيب لا مفر إذن من أن يقاتل وجهه في وجوههم وعيناه في عيونهم وظهره لا يحميه جدار.

ومن هنا وهناك انقض العمال المحاصّون على أحمد كالمسعورين:

- تضرب الريّس...

وتلقى أحمد أولهم بكفه السميكة فأصاب وجهه. هناك في المنطقة الحساسة فوق الخد. وتحت العين. تلقاه بكفه السميكة المنبسطة. وشعر أنه سجل علامة. سَيَزْرَقّ مكان الإصابة وستحيط بالعين هالة. فكر في نفسه وشعشع داخله لهذا الانتصار الجديد.

- لصوص. قذرون.

قال للمغيرين. وقد شاء أن يكون صوته قوياً عالياً. ولكن فجأة أحس بضربة على فكه تطاير لها الشرر من عينيه. وضرب واحداً. ولكن ضربه آخرون. ورفس ثالثاً. وانهالوا عليه ضرباً. وفي لحظة شعر أن فوقه شبكة من الأيدي الصاعدة الهابطة. ثم اهتزت من تحت قدميه وانطلق من عينيه خطّان من النجوم. نجمة تلحقها نجمة. واهتزت من تحته الأرض مرة أخرى. وارتجفت. وبعدها. بعدها لم يعد يقوى على الوقوف.

وهناك في الناحية الأخرى خاض إبراهيم معركة حامية ضد الملاكين الحارسين. ولم يلبث أن انضم إليهما آخرون. لقد كر وفر. ضربهم وضربوه. جرحهم وجرحوه حتى لم يعد في مقدوره أن يفعل شيئاً أمام الكثرة.

وما هي إلا لحظات حتى جاء المحاصّون بناقلة دفعوا إليها بالشابين دفعاً، فحملتهما وألقت بهما خارج الميناء.

*     *     *

استوى أحمد على قدميه واقفاً. فعل ذلك بغير قليل من العناء بعد رحيل الناقلة. لقد شعر أول ما شعر بثقل وألم في رأسه ثم في رقبته وفوق كتفيه وظهره. لقد خيّل إليه أن ثمة سلكاً كان يمتد من قحف الرأس ويعصب الصدغين، ثم يمر عبر الرقبة ويتفرع إلى الكتفين. ثم يتوزع مرة أخرى من الرقبة في شبكة على امتداد الظهر. وخيّل إليه أيضاً أن هذا السلك يشد أعضاءه إلى بعضها شداً محكماً حتى أن تحريك أي عضو في جسمه كان يستصرخ الألم في باقي الأعضاء. وليس الرأس والرقبة هما فقط بداية الألم وطرفه كما لاح له في الوهلة الأولى عندما حرك رأسه ورقبته شعر بصرير وألم في ركبتيه. فتساءل بحيرة فيما بينه وبين نفسه: من أين جاء الألم إلى ركبتيه. وقال: «شيء طبيعي أن يتألم رأسي ورقبتي وكتفي وظهري بعد الضرب الذي وقع عليها. ولكن من أين جاء الألم إلى ركبتيّ؟». ثم مد يده في اللحظة التالية إلى إبراهيم وقال له:

- هل أساعدك في الوقوف؟

- كلا أستطيع أن أقف بمفردي.

قال إبراهيم ذلك وتلمس بيده اليسرى مرفقه الأيمن.

فقال له أحمد:

- هل حدث لديك شيء غير عادي. أعني أهناك كسر؟

قال إبراهيم:

- لا ليس هناك أي كسر. لقد أمسك الوغدان بيدي ومرفقي وحاولا أن يمنعاني من الحركة فبذلت جهداً كي أتخلص منهما. أعتقد أنني لم أخلِّص نفسي منهما بسهولة.

وشعر إبراهيم بألم في ساقه فدس يده تحت سرواله وتحسسها هناك في موضع الألم فشعر بلزوجة كثيفة في أصابعه. سحب يده ونظر إليها. كان في يده آثار دماء. قال:

- أعتقد أن أحد الوغدين ضربني بحذائه على ساقي.

وحسر سرواله. كان ثمة جرح في الساق، كما توقع، تخثرت دماؤه منذ فترة. لكن حركة اليد المتحسسة أعادت الجرح إلى النزف. ولم يلبث الدم بعد لحظة أن أعدَّ نفسه لخثرة جديدة. وأرخى إبراهيم سرواله وغطى الجرح. ثم استوى على قدميه واقفاً. كان شعر أحمد مشعثاً وسترته مشوشة فاقترب منه إبراهيم وأصلح له وضعها. انهمك الاثنان بعدئذٍ في نفض الغبار عن ثيابهما. انحنى أحمد ليحكم ربط شريط حذائه المنحل. سمع صرير ركبتيه وعاوده الألم ابتداء من الرقبة والقحف والصدغين وفوق الكتفين والظهر والركبتين حتى أخمص القدم. قال لنفسه: «لعلي سقطت على ركبتي في لحظة من اللحظات». وتحسس وجهه بعفوية ثم همس لنفسه: «غير مهم فأنا أستطيع أن أحتمل الألم إلى حد بعيد. لكني لا أحب أن أصاب بجرح في وجهي». وقال أيضاً: «أنا لم أجرح في حياتي من أي ضرب». وتراءى له على نحو من الأنحاء أن كبرياءه مرتبطة بشكل ما بدمه وأنه في اللحظة التي ينزف فيها ستنزف معها كبرياؤه. قال في نفسه مرة أخرى: «أحمد الله أنني لم أصب بجرح لا في وجهي ولا في جسمي» وداخله فرح صبياني استحوذ عليه لحظات.

ومرر إبراهيم يديه حول خصره فقال له أحمد:

- هل فقدت شيئاً؟

قال إبراهيم:

- كلا. خيل إلي لحظة أنني أضعت شرشوري فتحسست موضعه في زناري. لقد تذكرت الآن أنني تركته في البيت.

قال أحمد:

- هل نسيته؟

قال إبراهيم:

- كلا. لكني لم أشأ أن أحمله. لست أدري. كان يبدو لي أن الأمور قد تسوء بيننا وبينهم. فتركته في البيت.

قال أحمد برفق:

- هل كنت خائفاً إبراهيم؟

قال إبراهيم:

- كلا.

- أعني هل كنت خائفاً أن نصطدم معهم وأنت تحمل شرشوراً؟

قال إبراهيم:

- لست أدري.

ثم أضاف بعد لحظة:

- تبتدئ معركة بشيء صغير ويعلم الله كيف تنتهي.

واتخذا سبيلهما في طريق صاعدة. كان حوض المرفأ القديم عن يمينهما الآن. وثمة حاجز من الحديد المشّبك يفصل منطقة الميناء عن الطريق العام. وكان وراء الحاجز مباشرة فسحة من الأرض شغلتها أكوام من الخشب المستوردِ وكان الخشب يحجب قاعدة الحوض القديم ولم يكن يظهر عبره سوى رؤوس صواري المراكب والبواخر.

قال إبراهيم بحرارة:

- لم أكن أتصور أن يهاجمونا بهذه القسوة. هل هناك يا أحمد رفاق يضربون بمثل هذه الوحشية؟

قال أحمد:

- لا تنس أننا نحن بدأنا المعركة.

قال إبراهيم بعد أن لعق زاويتي فمه بطرف لسانه:

- أدري. لكن لم يكن في نيتي أن أهاجم أحدهم. أبو لهب هو الهدف. فقط كنت أريد أن أهين أبا لهب.

ثم أضاف بعد لحظة:

- نحن بدأنا الضرب. لكننا لم نبدأ العدوان. أليس كذلك أحمد؟

قال أحمد:

- بلى.

وتابعا طريقهما الصاعدة. قال إبراهيم:

- كان الحق معنا أحمد؟

قال أحمد:

- نعم كان الحق معنا. هذا ما يبدو لي.

وسارا صامتين مسافة أخرى. ثم أشعل أحمد سيجارة. رنا إبراهيم من طرف عينه إلى أحمد.

قال إبراهيم:

- أنا آسف أحمد.

قال أحمد:

- آسف لأي شيء؟

- لقد ورطتك.

ابتسم أحمد بوهن وقال:

- لم يكن هناك مفر مما حدث. فلو لم تبادر أنت لفعلت أنا على كل حال.

كان وجه أحمد مكفهراً وعيناه محتقنتين. وكانت سحابة من الكآبة قد أرخت ظلها على الوجه والعينين.

كانا قد وصلا إلى نهاية الطريق الصاعدة حيث كان في ميسورهما الآن أن ينظرا من خلف الحاجز الحديدي المشّبك إلى الحوض القديم ويشاهدا كل شيء هناك. السفن والمراكب والسيارات والرافعات والعمال واللنشات والبضائع على الأرصفة. لم يعد ثمة شيء يحد من حرية النظر. كان له الآن ملء الإرادة أن يبدأ تطوافاً، دون أن يصطدم بأيما عائق، يشمل الحوض القديم بما فيه الفنار والسفن الراسية خارجاً منطلقاً حتى الأفق.

واقترب الشابان من الحاجز الحديدي المشّبك وألقيا نظرهما عبره وقد خيّم عليهما الصمت. كانت الحياة قد بدأت تدب في الميناء. كانت ثمة رافعة عائمة ضخمة تنساب بسلاسة على صفحة مياه الحوض القديم وقد اتخذت سبيلها لتنطلق إلى عرض البحر. وجعلت الشاحنات والناقلات المحملة والفارغة تغدو وتروح على الأرصفة. وانطلقت صفارة إحدى البواخر. وبدا الرجال من أعلى الطريق صغاراً إلى جانب الآلات الضخمة. وكانت الشمس قد وُفقت في تلك اللحظة أن تفتح لنفسها، وسط الغيم، فرجة أرسلت من خلالها حزماً من الضوء ألقت بها فوق الميناء فظهر الحوض القديم مسربلاً بغلالة من الضوء والظل. وأضفت عليه أعمدة النور الفضية المنسكبة فوقه جلالاً وروعة.

قال أحمد:

- سيزداد البرد اليوم شدةً إذا تحرك الأرماني.

وعرض سيجارته لمسرى الريح فمال دخانها المتصاعد إلى اليسار منه:

- بل لعله تحرك فعلاً.

قال إبراهيم:

- الأرماني سيكنس السماء من الغيوم.

قال أحمد:

- ولكن البرد سيقص رأس المسمار. ليكن الله في عون شغيلة المكسر.

قال إبراهيم:

- الجو في الحوض القديم أدفأ. كنا سنشتغل اليوم في الحوض القديم. أليس كذلك أحمد؟

قال أحمد:

- بلى. في الحوض القديم.

ومرت فترة صمت. قال إبراهيم بعد تردد:

- أحمد! لماذا ننزل إلى الميناء؟ دعنا نعمل شيئاً آخر. سمكرية. أو في البناء مثلاً.

وعبَّ أحمد نفساً عميقاً من دخان سيجارته.

- كلا. لن أفعل. يبدو لي أنه ينبغي أن نفعل شيئاً. ليس من أجلنا فقط، وإنما من أجل الآخرين أيضاً. يا إلهي كم كانوا جبناء وبائسين عمال المياومة.

وأخذ نفساً ثانياً من سيجارته:

- لسوف أواصل نطح الجدار الذي أقاموه. لن أعمل في البناء أو أي شيء آخر. عندما يبدأ المرء... عندما يبدأ الاعتراف بالهزيمة فذلك يعني شيئاً واحداً.. أنه قد انتهى، إن أحد اثنين ينبغي أن يتحطم. رأسي أو ذلك الجدار.

* * *

استيقظت السراطين مبكرة ووقفت على مداخل جحورها لتلقي نظرة قبل أن تنطلق في نزهتها الصباحية على الشاطئ الصخري. كان الجو ربيعياً دافئاً والسماء صافية ومن حين لحين تهب برخاوة نسمة رطيبة منعشة فتلامس الماء وتدغدغه وتهمس له بكلمات الغزل الرقيق والحب الصباحي.

لكن البحر وقد بدا كأنه أراد أن يختبر صدق المحب، هو الذي عرف في حياته كثيراً من كلمات الغزل والإطراء الرقيقة المذّهبة يلقيها المحبون والمعجبون على مر الأيام في مسمعه، فظلَّ بارداً فترة لا مبالياً. ثم ما لبث كبرياؤه الظاهر أن تداعى تحت لمسات النسيم ووشوشاته الملّحة المتلاحقة فقرقر هناك عند الصخر ولغط وضحك فتجعد وجهه. وفي هذا السكون الذي لم يكن يعكره سوى وشوشات النسيم وفرح المويجات اللاغطة المقرقرة المزبدة راحت السراطين تجري على الصخر جريها المتردد والحذر. لكن السراطين لم تكن وحدها هي التي خرجت من جحورها ومضت تقطع الشاطئ الصخري. وإنما كان هناك رجل دارت حول رأسه عصابة وشمر عن ساقيه وقد تدلى من كتفه كيس حقير. كان يحمل باليد اليسرى حذاءه. أما

اليمنى فكانت حرّة وغير ذات مرة استعان بها لحفظ توازنه واستند بها على الجدار الصخري ليمسك نفسه عن الانزلاق.

كان من عادة أبي الذهب إذا ما أراد التنقيب في الرمل في هذه المنطقة من الشاطئ أن ينزل إلى البحر من قرب البطرني. لكنه آثر اليوم أن ينزل من الشيخ سعيد. وبعد أن اجتاز بعض الصخور الجافة البعيدة عن مطال الموج والتي لا يبللها ماء البحر عادة إلا في الأنواء العالية توقف عند شاطئ رملي صغير يشبه القوس وأخذ يجمع بعض الأصداف لحفيده. كان لأبي الذهب ولد بكر وحيد من جنس الذكور كما كان له ثلاث بنات. كان الجميع قد تزوجوا وأنشأوا بيوتاً وأنجبوا ذريات. أما البنات فملأن الدنيا أولاداً فتياناً وفتيات. وأما الابن البكر فلم يمنّ الله عليه سوى بولد ذكر. وأي ولد؟ كان حلو الوجه يرفل بالصحة والعافية كالخروف المسمّن. لكنه ما عتم أن أصيب بشلل الأطفال وأصبح عاجزاً عن اللعب والنط بله المشي كان الولد يقضي وقته مقعداً في البيت وأحياناً يزحف إلى عتبة الدار. ومن هناك كان يلاحق بعينيه الصافيتين البراقتين أترابه الذين يلعبون بينما هو عاجز عن مشاركتهم لهوهم ولعبهم. كان أبو الذهب ينظر إلى حفيده بأسى ويعجب من أمر هذه الدنيا. بناته رزقن حاجتهن من الأولاد، ذكوراً وإناثاً. بل أكثر كثيراً من حاجتهن. وفي حين لم يرزق ابنه البكر إلا بنصف ولد ولم يتم الله عليه نعمته. الله الذي لم يتوصل أبو الذهب أبداً إلى فهم حكمته بهذه القسمة الجائرة للذرية بين أولاده. وغاية ما وصل إليه أنَّ الله لا يريد أن يبقي له على ذكر بحفيد يحمل اسمه من بعده ويحفظ شجرة العائلة. وكم آلمه ذلك وحزّ في نفسه.

وإذ هبط أبو الذهب اليوم إلى الشاطئ لينقب في الرمل بعيداً عن عمله في الميناء كان أول شيء عقد العزم عليه أن يجمع بعض الأصداف لحفيده. لقد قام البارحة بزيارة لبيت ابنه. فقال له حفيده:

- جدي لماذا لا تصحبني معك إلى البحر؟

قال أبو الذهب:

- سأصحبك ذات يوم إن شاء الله.

قال الحفيد:

- متى؟

قال أبو الذهب:

- عندما تصير كبيراً وقوياً.

قال الحفيد:

- هل سأصير كبيراً وقوياً؟

قال أبو الذهب:

- طبعاً.

وفي فكره قال «إني أجيّر هذا السؤال إلى الله».

قال الحفيد:

- أنا أحب البحر كثيراً.

قال أبو الذهب:

- غداً سأجلب البحر لك.

وفي تلك اللحظة كان قد فكر بجمع بعض الأصداف للولد الذي يحب البحر كثيراً ولا يستطيع الذهاب إليه.

وما إن فرغ أبو الذهب من جمع الأصداف التي لفظها البحر فوق الرمال وملأ منها جيبه حتى علق في كتفه كيساً من الخام أسود من فرط الاستعمال وحمل حذاءه ثم بدأ سيره الحذر فوق صخور مبللة مكسوة بنوع من نباتات البحر الناعمة المزلقة التي تعرض السائر فوقها لخطر السقوط.

وجرت السراطين فوق الصخور مذعورة خائفة غاضبة من هذا الزائر الدخيل الذي أفسد عليها نزهتها الصباحية ووقفت على أعتاب جحورها متأهبة أبداً لدى أول إشارة تنذر بالخطر للاختفاء داخل تلك الجحور.

وتابع أبو الذهب سيره القلق كأنه يمشي في حقل من الألغام حتى وصل إلى فجوة جنوب البطرني مد فيها البحر لسانه وهناك أنزل كيسه المعلّق في كتفه ثم وضعه قرب حذائه حيث لا يصل إليهما ماء البحر.

وأخذ أبو الذهب علبة التبغ ولف سيكارة. وما إن أشعلها حتى تركها معلقة بين شفتيه ثم بدأ عمله. فتح فوهة كيس الخام وتطلّع في داخله. سحب منه طستاً نحاسياً وهناك عند الخط الفاصل الذي لا يصل إليه ماء البحر انحنى وغرف بالطست مقداراً من الرمل الجاف الذي غسله موج الليلة الفائتة ثم غمره بالماء. شرع بعد ذلك يهز الطست هزات خفيفة إلى اليمين وإلى اليسار مع إمالة الطست قليلاً إلى الأمام ليتيح للرمل المسرود أن يتساقط مع الماء المنسكب من حافة الطست المائلة إلى الأمام.

وحينما فرغ الطست من الرمل والماء أعاد ملئه من جديد وبدأ يهز الإناء بهدوء وصبر وأناة. لا يدري كم مضى عليه من الوقت وهو على هذه الحال من إملاء الطست وإفراغه. وفجأة تلامح له شيء أخضر باهت في رمل الطست فرف قلبه كجناح طائر. والتقط ذلك الشيء وتفحصه بعناية. كان قطعة نقد معدنية قديمة بحجم الليرة الفضية علتها في أجزاء منها طبقة من مادة ما لكنها لم تحجب رسومها تماماً. استطاع أن يخمّن أن على أحد وجهيها فارساً وعلى الوجه الآخر رسماً لوعل أو حيوان آخر من هذه الفصيلة. غيّب القطعة النقدية الأثرية في جيبه وهو يجهل قيمتها. فكر: أتراها من الذهب؟ «ولكن الذهب لا يصدأ» رد على نفسه. وفكر: «مهما يكن فإنها تساوي شيئاً بلا شك. وشيء أحسن من لا شيء».

أبداً هو لم يعثر على شيء نفيس جداً. باستثناء بعض الأشياء التي درّت عليه شيئاً من المال. أما ذلك الشيء الباهر. ذلك الشيء الذي ينتظره منذ أمد بعيد والذي من شانه أن يقلب حياته رأساً على عقب فلما يعثر عليه. حسناً هو يؤمن بأن لكل شخص فرصة واحدة في الحياة. ولعل فرصته هو لم يحن أوانها بعد. إنه ينتظر دوره بصبر. وإن بدا في وقت من الأوقات وكأنه بدأ هو نفسه يمل من هذا الصبر. لكن مثل هذه الحالات كانت نادرة في حياته. ذلك أنه من ناحيته هو لم يكن يسمح لنفسه بأن ينساق وراء حالات نفسية سوداء كهذه. وقد جرب مرة أن يترك نفسه على سجيتها. كان قد عيل صبره من حالة البطالة والفقر التي يحياها هو وعائلته. كانت البواخر التي

تؤم الميناء قليلة في تلك الأيام ولم يكن يرسو فيه إلا بعض المراكب من وقت لآخر. فمشى مع تشاؤمه حتى نهاية الشوط. فماذا وجد في نهاية المطاف؟ وجد أن الحياة لا تطاق دون أمل. وقد ردّد لنفسه ضاحكاً: «طيب فهمنا فقر. ونزيد الطين بلة فنعيش دون أمل أيضاً؟؟» وهكذا اصطنع لنفسه أملاً. أن يعثر على شيء ثمين بين الرمال ذات يوم، ونهض في الحال فحمل طست النحاس ونزل إلى البحر وبدأ يعمل. يملأ طسته بالرمل ثم يغمره بماء البحر ويروح يهزه بأناة وصبر عجيبين وكأنه على موعد مع الحظ. وقد واتاه الحظ فعلاً. ولكنه كان حظاً صغيراً. كان شيئاً أثرياً قديماً باعه بخمس ليرات ذهبية. وقد نظر إلى تلك الليرات الذهبية الخمس نظرته إلى ثروة عظيمة جداً لا تعدلها ثروة ما في الدنيا كلها. وبفضلها نعم أولاده بوجبة مستعجلة، لكنها تاريخية، من اللحم والخبز والخضر والفواكه. وهو إذ يحمل طسته وينزل إلى البحر لتصويل الرمال إنما يفعل ذلك، من قبيل الوفاء والعرفان بالجميل. فهو لن يستطيع بعد أن يولي كلاً من الشاطئ ورمله ظهره وينقطع عن زيارتهما وقد مدّا إليه يد العون في يوم من الأيام.

هذا ما كان من أمره مع حظه الصغير في ذلك اليوم. أما حظه الحقيقي. حظه الكبير فهو ما يزال له بالمرصاد. يترقبه ويعد له في خياله العدة حتى إذا ما أقبل وجد أن كل شيء في مكانه كما ينبغي له أن يكون. وأنه ليس ثمة أي مجال لخطأ. وليس عليه سوى أن يسير في الطريق التي رسمها له أبو الذهب. نعم ليس هناك مجال لخطأ كخطأ الرجل الذكي الذي واتاه الحظ مرة. لكنه لم يعرف كيف يقبض عليه بكلتا يديه فأضاع على نفسه فرصة العمر. كان يصوّل الرمال مثله وفي يوم حمل الحظ إليه شيئاً أثرياً قديماً. أعظم من أي شيء عثر عليه في حياته. فأخذه إلى صائغ يمت إليه بصلة القربى. فحمله الصائغ بدوره ومضى به إلى بيروت وهناك تدبر أمره. وحينما عاد من سفرته أعطاه عشرين ليرة ذهبية وقال له «هذا ثمنه. والله على ما أقول شهيد». غير أن أمارات الثراء المفاجئ ما لبثت أن ظهرت على الصائغ بعد مدة وجيزة، وعاد إلى أذهان الناس ذلك الشيء المجهول الذي حمله الصائغ إلى بيروت.

حسناً هو لن يحدث له ما حدث لذلك الرجل الذكي إذا اتفق له وعثر على شيء. سوف يتدبر أمره ولن تعوزه الحيلة لتصريف الأمور. فقط ما على الحظ إلا أن يأتي ووقتها سيعرف من هو أبو الذهب وأي صنف من الرجال هو حقاً.

وسمع بغتة وقع خطوات خلفه تهبط المنحدر وقد رافقها تدحرج حجر.ظن الأقدام الهابطة لبعض الصبيان الأشقياء ممن يتسكعون عادة على الشواطئ فصمم على طردهم في الحال. كانوا كثيراً ما يعكرون عليه صفاءه بأسئلتهم الكثيرة، الخبيثة الساخرة أحياناً. لماذا تصوّل الرمل؟ كم يوم يلزمك لكيل ماء البحر؟ بل إن بعضهم كان يلاحقه بنظراته المستريبة وقد شك بسلامة عقله. كان يعرفهم ويعرف ما سيقولونه ويفعلونه فيما إذا غض الطرف عنهم وتساهل في بقائهم. لذلك لم يدع لنفسه مهلة للتفكير. وإنما عزم في الحال على إبعادهم عن المكان. التفت إلى الوراء بعد أن اعتقد أنه حمّل وجهه ما يكفي من الغضب لحملهم على ترك المكان لحظة يطلب إليهم ذلك. لقد فكر أن اصطناع قدراً من الغضب والجد، ومنذ أول لحظة، يعطي نتائج فورية، لا مجال للشك في قيمتها، مع أمثال هؤلاء الأشقياء. لكنه فوجئ لحظة التفت إلى الوراء بأن الهابط لم يكن سوى أحمد.

قال أبو الذهب:

- أهلاً أحمد.

وخوَّص خارجاً من الماء الذي كان يغمر ساقيه الآن حتى منتصفهما وتقدم للقاء أحمد. كانت تلك هي المرة الأولى التي يراه فيها بعد حادث الميناء. ألقى أبو الذهب الطست فوق الرمل أبعد قليلاً عن الخط الذي كان يصل إليه ماء البحر. ثم وضع يده بيد أحمد وأمسك بالأخرى ذراعه بعد أن جفف يديه الاثنتين حيث مسحهما ظاهراً وباطناً على جنبيه.

قال أبو الذهب:

- ماذا فعلت؟

ونظر أحمد في وجه أبي الذهب وقد فكر: «ترى هل يلومني لحادث الميناء؟». ثم تطلع في عينيه متسائلاً. محاولاً أن يسبر أغواره.

وأضاف أبو الذهب:

- أنا عاتب عليك.

فقال أحمد وقد أنس بشكل ما من لهجة أبي الذهب تأييداً ضمنياً لما فعل:

- لماذا؟

قال أبو الذهب:

- لأنك أخفيت عنا نياتك.

كان أحمد يتململ شوقاً لمعرفة أصداء ما جرى في الميناء. وسرّه أن يجد أن أول صدى لم يكن ضده. ذلك أنه خلال كل اللحظات التي أعقبت الحادث كان يتساءل ويعيد التساؤل. هل أصبت؟ هل أخطأت؟ ما نتائج ذلك وماذا جررت على نفسي؟ في بعض اللحظات كان يشعر بالندم. وفي لحظات أخرى كان يردد لنفسه: «كان لا بد من حدوث ذلك. كان يجب أن يفهموا أن الميناء ليس ملكهم وأن هناك آخرين يجب أن يعيشوا أيضاً».

قال أحمد صادقاً:

- لم يكن في نيتي الصدام مع أبي لهب. كنت فقط أريد أن أطالب بضمي أنا وإبراهيم إلى المحاصّين. لقد أردت أن أحسم الأمر. لكن الأمور تطورت بعد ذلك. لقد شعرت في لحظة من اللحظات أن الزمام أفلت من يدي. يبدأ أحياناً شيء ما صغيراً ثم تفاجئ بأنه يكبر ويكبر حتى تعجز عن إيقافه، مع أنك أنت الذي بدأته. كنا نطالبه بأن نصير محاصّين ليس غير.

قال أبو الذهب:

- لو كشفت لنا عن نيتك. ربما لو كنت. لست أدري. أنا من ناحيتي ربما، لو كنت حاضراً وقتها، ما استطعت أن أوقف ما جرى. لكن مع ذلك كلب ينبح معك أفضل من لا شيء.

قال أحمد:

- صحيح. كلب ينبح معك أفضل من كلب يعوي عليك. وما أكثر الكلاب التي نبحتنا يومها. سأقول لك شيئاً يا أبا الذهب. كنت أحسُّ أنها مشكلتي ومشكلة إبراهيم، لقد أردت أن أسويها بنفسي فلم أشأ أن أقحم الآخرين لم أشأ أن تأخذ المسألة شكل تظاهرة. كنت أحسب أن ذلك ادعى للأمان.

وأخذ أبو الذهب علبة تبغ معدنية. ثم قعد على الرمل وراح يلف سيكارة. أما أحمد فقد ظل واقفاً لحظة بعد ذلك. وما لبث أن جلس مقرفصاً. ومرت فترة صمت قال على أثرها:

- كنت في البطرني. استيقظت اليوم باكراً. لم يكن هناك ما أعمله. فارتديت ثيابي وخرجت من البيت. تسكعت قليلاً في الطريق. وعندما ضجرت قلت: هيا ولد وخذ فنجان قهوتك في البطرني. ليس هناك أفضل من الشاطئ لمتعطل يريد أن يأخذ فنجان قهوة.

وقال أبو الذهب في فكره وهو يقدم علبة التبغ إلى أحمد «ليس هناك أفضل من الشاطئ لمتعطل يريد أن يقتل وقته».

وتابع أحمد وهو يأخذ علبة التبغ المقدمة إليه:

- لمحت ظهرك من فوق فنهضت على الفور وقلت: هذا والله أبو الذهب. من السهل العثور عليك في مثل هذا الجو. أنت لا تبتعد كثيراً عن الشاطئ.

وقال أبو الذهب ضاحكاً بعد أن أمّر سيكارته على طرف لسانه ثم ألصقها:

- أحياناً أتساءل فيما إذا كان حب البحر لا يشبه اللعنة كثيراً. البحر لعنتي.

وعاد إلى فكر أبي الذهب: «ليس هناك أفضل من الشاطئ لمتعطل يريد أن يقتل وقته». فقال:

- المهم ماذا تعمل هذه الأيام؟ كيف تقضي وقتك؟

قال أحمد وهو يلف سيكارته:

- في التسكع كما ترى. وأحياناً في القراءة.

ففكر أبو الذهب في نفسه: «إنه قتل للوقت في الحالين» وقال بعد أن أشعل سيكارته:

- التسكع لا يطعم الخبز. والقراءة ليست أفضل بالنسبة لعامل ميناء. أنا لست ضد القراءة. القارئ باثنين. طول عمري كنت أغبط الذين يقرأون. وأتمنى أن أفك الحرف مثلهم، أتدري كيف كنت أفكر ذات يوم. أبات ليلتي وأستيقظ فإذا أنا بقدرة قادر أفك الحرف. فأتناول شيئاً مكتوباً وأمضي في قراءته. كان العلم في أيامنا وقفاً لبعض الناس.

وضحك أبو الذهب من قولته وضحك معه أحمد. ثم تابع أبو الذهب قائلاً:

- في الميناء يضيع الصالح في الطالح. ولا يحتاج المرء إلى قراءات كثيرة لكسب اللقمة فيها.

وفكر أبو الذهب: «الأب مريض مقعد في البيت. والولد عاطل والعائلة كبيرة».

وأشعل أحمد سيكارته وتمّهل حتى نفخ الدخان من فمه ثم قال:

- في بيتنا بعض الكتب تحتاج إلى قراءة. كتب اشتريتها من الكُوَم بأسعار رخيصة عندما خدمت عسكريتي في الشام. كنت هناك أتسلى أحياناً أنا وإبراهيم بالقراءة. بعضها كان فوق الطاولة في البيت وبعضها في درج الخزانة. كانت تقول لي تلك التي لم تُقرأ: طيب أنت تذهب إلى الشغل في الصباح وتعود إلى البيت في ساعة متأخرة من الليل. متى تقرأني؟ هل نسيتني؟». وأنت تفهم الباقي.

قال أبو الذهب:

- وهكذا اصطدمت بأبي لهب والآخرين لتقرأ الكتب؟

وهزَّ أحمد رأسه باسماً. وتابع أبو الذهب سائلاً:

- الكتب قالت لك أن تصطدم معه؟

قال أحمد ضاحكاً:

- تقريباً.

قال أبو الذهب:

- اللعنة على أسلافك وعلى كتبك.

قال أحمد محافظاً على نفس لهجته المازحة:

- وهكذا ترى أن البطالة ليست شراً كلها.

قال أبو الذهب:

- أدام الله عليك هذه النعمة. وإلى متى ستظل تقرأ الكتب في البيت؟ ماذا تنوي أن تفعل؟ طبعاً لن تحاول أن تقنعني أن هناك مائدة تهبط عليك كل يوم من السماء.

فضحك أحمد حتى القلب. وقال من خلال ضحكه المتقطع:

- أما هذه فلا. وهل حسبت أنني فكرت السماء مطعماً. ولكن ما أروع أن يكون مثل هذا المطعم الكبير في السماء أو غيرها. الطعام فيه كثير. متوفر. مبذول للجميع. يأخذ كل إنسان منه كفايته ثم يمضي لشأنه يمارس هواية ما، يصيد السمك، يقرأ الكتب، يصوّل الرمال بحثً عن الأنتيكات، يذهب إلى السينما أو النزهات.

قال أبو الذهب ساخراً:

- وماذا بخصوص العمل؟ في هذه الحال لن يشتغل إنسان.

قال أحمد:

- من المفروض أن الكل يعملون. أما هواياتهم فيمارسونها بعد العمل. لن يقضوا نصف حياتهم في البحث عن العمل. العمل متوفر للجميع.

قال أبو الذهب:

- هناك أناس لا يحبون العمل.

قال أحمد:

- ننذرهم. نوفر لهم عملاً ونضعهم تحت الاختبار لمدة شهرين ثلاثة. إذا أثبتوا أهليتهم فموائدنا تحت تصرفهم. وإلا أغلقنا مطاعمنا في وجوههم.

قال أبو الذهب:

- توفير العمل شرط؟

قال أحمد:

- طبعاً شرط.

قال أبو الذهب:

- والاختبار لشهرين ثلاثة؟

قال أحمد:

- والاختبار لشهرين ثلاثة. طيب وشهر مني أيضاً، فيصير الجميع أربعة.

قال أبو الذهب:

- إذا كان الأمر كذلك من ناحيتي أنا والله لا مانع لدي.

ومرت فترة صمت حاول خلالها خيال كل منهما أن يتصور هذا المطعم الكبير وكأن المزحة صارت شيئاً جدياً. والحلم حقيقة واقعة. وفكر أبو الذهب بينه وبين نفسه: «لن يقلق الواحد إذا تعطل العمل بسبب المطر والبحار الكبيرة. لن يقول كيف أدبر رزقة العيال في الأجواء السيئة والأنواء». وتساءل: «ترى هل يقدمون كل أنواع الأطعمة؟ الشوربات؟ شوربة العدس والرز. هل يقدمون اللبنية مثلاً. وكل الأطعمة اللينة التي لا تحتاج إلى أسنان؟». وفكر أحمد: «وقتها لن يبذل المرء نفسه من أجل العمل. لن يقف على أبواب الفرق وكأنه يتسول. ليست هناك محاصّة ومياومة. الكل محاصّون والعمل مبذول للجميع. لن تستغل القلة الأكثرية. ولن تعيش على حسابها كالعلق».

وقال أبو الذهب وكان لا يزال تحت تأثير الحلم الذي بدا للحظة وكأنه صار شيئاً ملموساً. قال بلهجة نصفها مزح ونصفها وهم لا يخلو من أمل أن يصبح هذا الشيء الخيالي، اللامعقول، أن يصبح حقيقياً ومعقولاً:

- فهمت أن يذهب العامل إلى المطعم الكبير ويأكل هناك. ولكن ماذا بشأن عياله. هل يجرجرهم وراءه إلى مطعمك هذا؟

وحاول أن يرسم في خياله صورة لجو هذا المطعم وقد خاله اختلط فيه الحابل بالنابل. الطفل الذي يبكي. الذي يزعق والذي يحرد. شيء مثل حمام انقطع ماؤه. أو مثل يوم الحشر.

فضحك أحمد وقال:

- بسيطة. المسألة ليست صعبة. سيكون هناك مطاعم فرعية منثورة في كل الأحياء. وليس من الضروري أن يجرجر العامل عائلته وراءه إلى تلك المطاعم. إذ يكفيه أن يبرز للمسؤولين هناك بطاقة عمله وعدد أفراد عائلته حتى يحصل على الطعام بمطابق.

هزّ أبو الذهب رأسه. ثم ابتسم وقال:

- شيء جميل.

وسادت لحظة صمت لم يسمع خلالها سوى وشوشة الماء وهو يتقدم فوق الرمل ثم نشيشه وهو ينسحب. قال أبو الذهب بعدها بلهجة لا يعوزها الجد والاهتمام:

- والآن وبعد أن راحت السكرة ماذا تنوي أن تفعل؟

وفكّر:«الأب مقعد في البيت. والولد القادر عاطل. والعائلة كبيرة. شيء غير معقول». وتساءل إذا كان في الإمكان عمل شيء من أجله.

والتقط أحمد حصاة قلّبها بين أصابعه قبل أن يقول:

- أفكر أن أنزل إلى الأرصفة.

ردد أبو الذهب:

- الأرصفة؟

قال أحمد وهو ما زال ينظر إلى الحصاة وقد استقرت الآن راحة يده. كانت حصاة مدورة ملساء:

- ليس من الصعب أن يجد المرء عملاً في الأرصفة.

واستمر ينظر إلى الحصاة. إلى نعومتها واستدارتها. وراز ثقلها في كفه ثم فكر «أنا لم أر حصوة لها مثل هذه الاستدارة والنعومة. إنها مناسبة تماماً للنقف. حصوة مثلها إذا انطلقت من نقافة راحت إلى هدفها بخط مستقيم وطلقتها لن تخيب».

«طاخ» وسقط العصفور. ثم اختلج قليلاً قبل أن تهمد حركته تماماً. كان الآن بين قدميه على الأرض مفرود الجناحين. مائل الرأس وقد فارقته الحياة. وأخذت أحمد رأفة عابرة بالطائر الصغير. وفكر «إما صائد وإما مُصاد».

قال أبو الذهب وهو يرمي عقب سيكارته بعد أن سحب منها النفس الأخير:

- وماذا ستشتغل هناك؟

قال أحمد وعين فكره ما زالت ترنو إلى العصفور الطريح بين قدميه:

- قال لي إبراهيم العمل متوفر هناك. الحديد. الخشب.

وفكر أبو الذهب: «غير معقول. لا بد من عمل شيء. ولكن هل هدأت الخواطر؟».

قال أبو الذهب:

- على بركة الله. فكرة معقولة أن تعمل هناك بعض الوقت. لا شيء يدوم.

وكان أحمد قد استوى واقفاً منذ فترة. قال:

- كيف هم الأولاد هناك؟

وأشار بيده نحو الميناء:

- الخال وحيران والآخرون.

قال أبو الذهب:

- آسفوا للحادث كثيراً. واتفقوا على الذهاب لزيارتك. لكن الظروف عاكستهم تماماً.

والواقع أن جملة من الأمور سارت سيراً عجيباً مع أفراد الشلة منذ أن فكروا بزيارة أحمد، كأنما الشيطان نفسه امسك دفة الحوادث. فقد أبت معدة امرأة الخال إلا أن تمرض في هذه الفترة بالذات وتعاودها إحدى نوباتها. الأمر الذي اضطر الخال إلى ملازمة البيت والبقاء بجانب فراش زوجته. ولم يختر ابن حيران عبد الواحد إلا هذا الوقت ليتورط في مشاجرة مع زملائه بسبب الأحزاب، فطرده مدير المدرسة ولم يقبل إعادته لاستئناف الدراسة إلا بعد أن قدّم والده بصفته ولي أمره تعهداً بعدم قيام ابنه بأي نشاط حزبي في المدرسة. وحدث في عائلة الفهد (وكان الفهد قد عاد بعد أن سافر على ظهر إحدى البواخر حيث عمل بحاراً مدة من الزمن) حدث أمر مؤسف إذ اختفت

أخته فجأة. أما أبو الذهب نفسه فقد اعترته إحدى تلك الحالات التي يبدو فيها برماً حزيناً لحزن ابنه لأنه لم ينجب ولداً صحيحاً معافى.

وتنهد أبو الذهب ثم أضاف:

- لقد حدثت بعض الأشياء المؤسفة. كأنما حلت لعنة على الأولاد منذ حادثك في الميناء. لن أزيد كربك قد تسمعها ذات يوم.

قال أحمد وقد ظهر عليه القلق فجأة:

- ماذا حدث للأولاد. لقد أثرت خوفي.

قال أبو الذهب مطمئناً:

- ليس هناك ما يخيف. كل ما في الأمر جرت بعض الحوادث المزعجة للإخوان..

وأخبره ما كان من مرض زوجة الخال. وصدام ابن حيران عبد الواحد مع زملائه. كما حدثه بغير قليل من التردد والأسف عن حادث اختفاء أخت الفهد.

ثم أضاف بعد أن خفض صوته حتى كاد يصبح همساً:

- يقال إنها هربت مع شاب.

وأمسك قميصه بأطراف أصابعه وهزه مبرئاً ساحته:

- على ذمة الذين يروون الحادث. والله أعلم. هكذا توالت المصائب منذ أن فكرنا بزيارتك. أتدري ماذا قال الخال في تفسير هذه الحوادث؟ قال لأننا حينما اتفقنا على الزيارة لم نقل إن شاء الله. وكل اتفاق في رأيه لا يربط بمشيئة الله لا بد أن ينفذ إليه الشيطان ويعطله.

تأثر أحمد وشعر بأسف ضاعفه بعده عن الميناء وافتقاده لشلة الأصدقاء حيث عجز عن مشاركتهم عواطفهم. وأضاف قبل ان يودع منصرفاً:

- ليكن الله في عونهم. كأن الفقر وحده لا يكفي.

قال أبو الذهب:

- في عونهم. وعوننا جميعاً، لا تغتم أخي أحمد. لا شيء يدوم. ما بين رمشة عين وأخرى تراقبها يغير الله من حال إلى حال.

ومضى أحمد صاعداً في درب خطّته أقدام الهابطين الصاعدين في التراب الذي أهيل يوماً من أعلى الصخر. وجعلته أشبه بشعاب الجبل. ولاحقه أبو الذهب بنظره. وما كاد أحمد ينحرف ليتابع طريقة الصاعدة حتى هتف به:

- أحمد. قل لي هل يستطيع كبار السن. أقصد أولئك الذين لم يعد في مقدرهم العمل. هل يستطيعون أن يأكلوا من مطعمك بالبطاقة؟

توقف أحمد وقال باسماً:

- ولم لا. طبعاً يستطيعون. ألم يتعبوا كفاية في الحياة. إذن من حقهم أن ينالوا من المطعم ما يشتهون.

ومضى أبو الذهب هازلاً:

- أتظن أنهم سيقدمون الشوربة في المطعم أيضاً؟

وانطلق أحمد في ضحكة مفرقعة:

- ليس الشوربة فقط. وإنما المعكرونة أيضاً.

قال أبو الذهب:

- ليتهم يطبخونها مثل تلك التي في البواخر. أعني بالطريقة الطليانية.

قال أحمد:

- سيطبخونها بالطريقة الطليانية وغير الطليانية. لا تشغل بالك من هذه الناحية.

ثم تابع طريقه وبقايا ضحكته المنسحبة لا تزال على طرفي فمه. أما أبو الذهب فقد جلس القرفصاء ثم أخذ علبة التبغ وراح يلف سيكارة.

بعد رحيل أحمد خيّم سكون عميق على تلك الفجوة التي حفرها لسان البحر في اليابسة. وبرز نشيش الماء، كأوضح ما يكون في تلك اللحظة، نشيشاً متردداً موصولاً. كانت المويجات تتقدم بليونة ورخاوة. موجة أثر موجة. تتقدم بهدوء فتلحس الرمل ثم ترتد عنه ويصدر عنها في إقبالها وإدبارها وشوشة وهمس حييان. حركة لا تفتر ولا تهدأ إيقاعية زافرة متصلة.

وأنهى أبو الذهب لف سيكارته فأشعلها ثم رمى عود الثقاب جانباً فسقط على الرمل الرطب. وأقبلت موجة فدفعته أمامها ثم حملته معها حين انسحبت. وفكر أبو الذهب في نفس اللحظة التي ضاع فيها عود الثقاب في هرج المويجات اللاغطة «الأب مقعد في البيت. والولد الكبير عاطل. والعائلة كبيرة. أمر غير معقول. أراد أن يكون له ما للآخرين فانقضوا عليه مثل كلاب البحر الجائعة. سمكة جريحة بين كلاب أعماها منظر الدم ورائحته. امض أخي أحمد. ليكن الله في عونك. اشتغل بالحديد. بالخشب. سحابة وتمضي. ما من حال يدوم. كل شيء يتغير».

واستمر نشيش الموج المتردد فوق الرمل متصلاً هامساً ووصل نشيده إلى أذني أبي الذهب إيقاعياً زاخراً حياً: «كل شيء يتغير. يتحرك إلى الأمام كالموج ويتحطم مثله. ذهب الذين كانوا قبلهم. لا أحد قبلهم. لا أحد يقول أنا. لا أحد يقول إني قوي. دائماً هناك من هو أقوى، ما من شيء يدوم. لا فرح ولا حزن. لا استغلال ولا تسلط. لا حب ولا كره. لا ليل ولا نهار. اشتغل بالحديد. بالخشب أخي أحمد لا يهم سحابة وتمضي. صار ما صار. ربما كنت مخطئاً وربما كنت مصيباً أنا لا أفهم مثلك ومثل حيران. قد تكون استعجلت. لكنك فعلت ما ظننته حقك، وقفت وقفة رجل وضربت بيد رجل ولا ينكّس رأسه إلا الحمار. المهم كلمة قلتها. والنهار يبدأ بصيحة ديك.

ومد أبو الذهب يده فتناول طست النحاس وغرف مقداراً من الرمل. ثم نهض وخطا باتجاه الماء دون استعجال. ولطم الموج الصغير ساقيه وانحنى بأناة فغمر الطست بالماء. ثم راح يصوّل الرمل بصبر ودأب عجيبين .

*  *  *

# المحتويات

الصفحة

الصفحة

الصفحة




الطبعة الأولى / ٢٠١١م

عدد الطبع ١٠٠٠ نسخة

# عبد الله عبد

# الأعمال الأدبية الكاملة

## المحتويات






www.syrbook.gov.sy
مطابع وزارة الثقافة - الهيئة العامة السورية للكتاب - ٢٠١١م

سعر النسخة ٤٣٠ ل.س أو ما يعادلها